



مطبوعات المجتمع العربي العربي بدمشق



هندية



المجمع العربي  
للمعجم العربي  
بدمشق

محاضرات

# المجمع العربي

الجزء الثالث



دمشق

١٣٧٤ - ١٩٥٤ م

القسم الأول

## في بحث عشرة محاضرة

حقوق الطبع محفوظة لـجمع العالِم العربي

# أثر لم تعرّفه من علماء المشرق

في الحضارة العربية

لأستاذ محمد رعد علي

## علم المشرق ومقاصد الغربيين :

كان أول احتكاك وقع بين العرب وأهل الغرب من الأوروبيين ، يوم فتح العرب الشام ومصر وما إليها من بلاد الروم . ولما فتح الاندلس أو إسبانيا والبرتغال الا قليلاً زاد هذا الاختلاط ، ثم أصبح على آتمه لما توطد ملك بني أمية في الاندلس في القرن الثاني والثالث والرابع ، واتسعت رقعة هذا الاختلاط بفتح العرب جزيرة حقلية ، وبسط عليهم في جنوب إيطاليا في القرن الثالث . ومنشأ هذا الاختلاط في الأكثر الحاجة إلى الاتجار ودواعي الجوار . وكان تسامح الدولتين الأموية في الشرق هم في الغرب ، والدولة العباسية في الشرق والغرب ، من أهم الدواعي إلى هذا التمازج . وكان ذلك كان يومئذ من حكومات العرب من باب تفضيل الكبير على الصغير ، والعالم على الجاهل ، ولا غرابة في سندهم فالإسلام عرف بالتسامح ، والعرب من أهل خاصه أكثر الأمم مارسة له كما ثبت بنصوص التاريخ الصحيح .

زاد هذا التمازج في الحروب الصليبية ، فاستفاد الصليبيون من العرب فوائد علمية واجتماعية جمة ، وقد رأوا مدينة أرقى من مدنهم إذ ذاك ، وعلماً وصناعات لا عهد لهم بها ، وأخلاقاً ووفاءً وعدداً ندرت في غيرهم ، فاستعاضوا بما حملوا معهم من الأوضاع عما خسروه من الرجال والمال ،

وأغبطوا بها كثيرون ، وتعزروا عما لفوا من الشدائد . وكان تعلمهم كبيراً من الصليبيين اللغة العربية ، وشهر بذلك بعض أمرائهم وقوادهم وأذكيائهم وأهل الفكر منهم ، بل كان بعض الاوربيين قبل الحروب الصليبية يختلفون الى الاندلس ويأخذون العلم عن علمائهم ، ومنهم البابا سلفستر الثاني الذي جلس على كرسى البابوية سنة ٩٩٩ م وهو من أصل افرنسي درس في قرطبة واثبانية على علماء العرب الرياضيات والفلك ورسم الأرض ، كما تعلم شقيقه (Sanche) ملك ليون واستوريا الملقب بالسمين العلب على علماء قرطبة .

وكان جميع ملوك الاقريان على ما روى فولتير يستخدمون أطباء من العرب واليهود ، كما كان كثيراً من أذكياء الجلاقة والقتاليين والليونيين والنافاريين ومن كان في البلاد الاندلسية تحت أحکام المسلمين من المسيحيين يتعلمون العربية للتوظف في الاندلس والاتجار مع أهلها إلى غير ذلك من المرامي .

ولما بدا للباباوات أن ينشئوا الرهبانت في الفرون الوسطى لبث الدعوة الدينية بين أبناء الشرق في آسيا وأفريقيا وفي الاندلس وصقلية من قارة أوروبا ثبت لهم أنه لا سبيل إلى النجاح في هذا المشروع إلا بتعلم لغات المشارقة ولا سيما العربية . فتفقىء مجتمعينا سنة ١٣١١ م برئاسة البابا إسكندر الخامس أن تؤسس في باريس واسفورد وبولوت وصلمنكة ، أي في عواصم العلم في فرنسا وإنكلترا وإيطاليا واسبانيا على ذاك المهد دروس عربية وعبرانية وكلدانية وسريانية يتخرج بها الوعاظ والداعية . وكانت المدرسة الطيبة في مونبلية في فرنسا أنشئت سنة ١٢٣٠ وجعلت

جل اهتمامها في التدريس على علماء الاندلس فكانت تقرأ فيها اللغة العربية لفهم العلوم المكتوبة بها . ثم كثرة إنشاء الجامعات في الغرب وكان تأسيس أول جامعة في أوروبا الوسطى في كراكو من مدن بولندا سنة ١٣٦١ وبعد أربع سنين أنشئت جامعةينا وهي أول جامعة ألمانية

محمد كرد علي

٣

وقيل إن جامعة بولوت الإيطالية أسمها تبودوس امبراطور الشرق في سنة ٤٢٥ م .

وإذا كثرت الجامعات في الغرب أنشأ بعضها يعني بتعلم اللغات السامية والعربية من جملتها ، ولكن شيئاً من الضمف . وكلما كان بشدة غرام أهل الغرب بدرس فلسفة ابن رشد وابن سينا والرازي وابن زهر وغيرهم يحاذر رجال الدين كل الخدر أن تكون الفلسفة الإسلامية مقدمة إلى ضعف الإيمان وفسخ الأخلاق في المؤمنين من أبنائهم . ومع هذا أولئك بعض أمراء إيطاليا بالعربية وتكلموا بها ، وعدوها لغة الأدب العالمي ، واعتمد بعضهم في قصورهم وبيوتهم على علماء من أبناء المسلمين .

ومن عرف باتفاق العربية من ملوك إيطاليا رجاء الثاني ملك صقلية وانكيردية وفلورية الذي قدم له الشريف الادريسي كرة من الفضة فيها صورة العالم بعده وجيشه وبمحاربه وألف باسمه كتابه المشهور « زهرة المشتاق في اختراق الآفاق » ومدحه بأنه دان في ملته بدين العدل وأنه خير مين ملك الروم .

وقال الصفدي في الوفي بالوفيات إن رجال قال للشريف الادريسي لما استقدمه من العدوة : أريد تحقيق أخبار البلاد بالعربية لا بما ينقل من الكتب فوق اختياره على أناس أبناء فطنا ، أذكياء وجهزهم رجال إلى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً ، وسفروا معهم مصوريين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتفصي والاستيعاب لما لا بد من معرفته . وكان إذا حضر أحد منهم بشكل أبنائه الشريف الادريسي حق تتكامل ما أراد (توفي رجال سنة ٥٤٨ = ١١٥٤ م ) .

وذكر الصفدي كيف بالغ رجال في تنظيم الشريف الادريسي وكيف رتب له كفاية لا تكون إلا للملوك بعد أن أعطاهم مائة ألف درهم ، وفضة كبيرة زادت من عمل الكسرة . قال : وكان يحيى راكب بغلة فإذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه فيأتي فيجلان مما .

في الغرب الى الزمن الذي قام فيه لوثيروس في ألمانيا في الربع الاول من القرن السادس عشر .

وقد أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر في رومية سنة ١٥٨٤ مدرسة للموارنة ساعدت على نشر العربية وتخرج فيها ثلاثة لبنانيين اشتهروا بحمل لواء العربية في أوروبا وهم جبرائيل الصريوفي وابراهيم الحاقاني وسمعان السمعاني وجاء بهدم غيرهم ولا سيما من أسرة السمعاني نقلوا كثيراً من كتب العرب إلى اللاتينية في القرن السابع عشر وبعد ذلك تخرج بهم بعض علماء المشرقيات من أئمّة الغرب.

وكان المأمول أن تكون إسبانيا والبرتغال أول الملك الاوربية التي تبادر إلى اقنان العربية لامتزاج أهلها في الأندلس بال المسلمين نحو ثانية قرون ولأن الخلاصة من أعيان الإسبان كانت ترى تعلم العربية من أدوات التفوق في الأدب وشارات الغارف واللطف حتى كادت تبني لغتها الإسبانية على عهد العرب . وقد أنشئت في مدينة طليطلة أول مدرسة عربية في إسبانيا أوائل القرن الحادى عشر وفي سنة ١٢٥٤ أنشئت فيإشبيلية مدرسة عربية لاتينية لزر الحضارتين العربية والإسبانية . أما البرتغاليون سخاوا متأخرین جداً في هذا المضمار ، وبقي أفراد منهم يولعون بدرس العربية ولا سيما من الرهبان لفرض الدعابة المذهبية ولم يجدوا منشطاً من أمتهم ولا من حكومتهم ، أي ان المشرقات العربية في البرتغال ما كانت في وقت من الأوقات محل عنابة أمة ظال " العرب ملابسين إلها قروناً .

وبينما كانت أكثر بلاد أوروبا تحرس "جد" الحرس على آثار العرب وترفع منزلة من ينقل إليها علومهم - وكان لليهود من أهل الأندلس بد طولى في هذا الشأن - كان رجال الدين في إسبانيا عقبي جلاء الترب عنها يحرقون الكتب العربية حيث صادفوها ، وظللوا خمین سنة أي منذ أصدر الـكـرـدـيـنـالـ كـسـيمـنـسـ سنة ١٥١١ـ مـ أمرـهـ باـحـرـاقـ عـشـراتـ الـأـلـفـ منـ كـتـبـ الـعـربـ فيـ سـاحـاتـ غـرـنـاطـةـ ، يـحرـقـونـ الـإـسـفـارـ الـعـربـيـةـ حـتـىـ كـادـتـ

ومن كان يحسن العربية من ملوك ايطاليا عليام ، وكان كثير الثقة  
بالمسلمين يستخدمهم في بلاطه ومنهم أمراء دولته ، وهو ابن رجاء .  
وكذلك كان فريدريك الثاني صاحب صقلية وبوالىه وانكيرديه وزعيم الحلة  
الصلية السادسة فإنه كان يجيد العربية كل الاجادة . ولم يلبث بعض  
أمراء ايطاليا كأنترة ميديسيس المشهورة بخدمة الآداب أن أسمت عقيب  
احتراه الطاعة مطالعه بلغات الشرق .

وأول مطبعة أنشئت في مدينة فانو في جون البنادقة (بحر الادرياتيك) سنة ١٥١٤ طبع عقبها القرآن الشريف ثم كتب الطب والحكمة والطبيعة باللغة العربية . وقيل كان كثير من مدرسي جامعة يادو أو سالرتا في أرجاء إيطاليا من علماء العرب . وقد عرفت إيطاليا قبل غيرها قدر علوم العرب بما ترجم لها المتنصرون من اليهود من فلسفة الإقراط وأرساطه وغيرها . وبما نقله إلى اللاتينية من العربية أحد أبنائها جرردو دكريعونا المتوفى سنة ١١٨٧ م في مدينة طليطلة من كتب الهيئة وأحكام النجوم والهندسة والطب والطبيعة والكميات والفلسفة . ويقال أنه ترجم أكثر من سبعين كتاباً ومنها ما فقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته اللاتينية ، على نحو ما فقدت تأليف فلاسفة اليونان ولم تصل إلى أوروبا إلا بواسطة ترجمات العرب عنها .

وكانت إيطاليا أيضًا ، وهي مهد النهضة الحديثة في أوروبا ومن بلادها انتشرت في أقطار الغرب ، أول أمة غربية عُنِيت عناية خاصة باللغة العربية ، وهبت لطبع كتب العلم فيها لقصد ديني أولاً ثم لقصد علمي ساق إليه حب الاطلاع والتفقه . وهذا الخلق على آله في أجيال الغربيين أكثر مما هو في الشرقيين على مارأى .

وقدّمت إيطاليا في الدروس العربية لأنّها أقرب بلاد الغرب من أرض الشرق ، واحتكمّا بالمشاركة قديم جدّاً ، ولأنّ مقام البابوية كان في رومية عاصمة تلك البلاد ، والباباوات كانوا مسيحيين على كلّ شئ

ومنذ القرن الخامس عشر ، وربما من قرن قبله ، أخذت أكثر الأئم  
الاوربية يتباع بواسطة وكلائهم وقناصلها وتجارها في الشرق مخطوطات عربية  
ترى بها قصور ملوكها وديارها ، وبعها دور العلم فيها . وكان سان لوبي  
أو لويس التاسع أحد ملوك فرنسا أول الشارعين بتأسيس خزانة الكتب  
وذلك انه بلغه لما كان في الشرق على عهد الحروب الصليبية ان بعض أمراء  
المسلمين جعلوا لأنفسهم خزانة كتب يطالعونها ساعات فراغهم فجرى هو  
على مثالهم ، كان هذا في القرن الثالث عشر . أما لويس الرابع عشر في  
القرن الثامن عشر فقد أرسل أحد علماء النها إلى بلاد الاسلام ليتابع له  
الكتب العربية والعبرية والسريانية واليونانية .

وهكذا لم يتصف القرن التاسع عشر حتى قدر عدد المخطوطات المرية في أوروبا بحوالي مائتين وخمسين ألف مجلد.

وأهم الخزانة العربية في أوروبا وأميركا : في لينينغراد وبرلين  
وباريس ولندن وغوتينغن وليسيك ومونيخ وفيينا وليندا وكسفورد وادي برج  
ودبلين وكيرك وحزانة ريلاندس في منستر والجامعة الآسيوية في لندن  
وفي باريس والاسكوريا وميلانو ورومية وبرستون . وفي كل من هالسنغرافورس  
وموسكو واوبيسالا وكوبنهاغن وفرنكفورت وصونك وبوفه ودرسدن  
وجيسين وغوتا وقوينغ وغريسوالد وستراسبورغ وكراكو وبراغ وبريط  
ونورث وتورينو وبارم وحزانة وزارة الهند في لندن ونيويورك وشيكاغو  
وبيال وكاليفورنيا وغيرها خزانة عربية تختلف بمددها ونفاستها باختلاف  
عن الأمة التي نشأت بينها ويزمان نهوضها لاقتناه كتنا .

شند کرد علی

V

ولكل خزانة من هذه الخزائن فهرس بل فهارس متفرعة وصفت فيه مخطوطاتها العربية وصفاً مدققاً وذكرت ترجم ممؤلفها وكل ما له علاقة بها وذلك بارقام متسللة ونظام لم نستطع حتى الآن أن نجدوا حذوه في إنشاء الفهارس وتصنيف الجزرات (فيش) ببحث يحيط المستعرب اليوم بجميع النسخ المحفوظة في مكاتب الغرب من الكتب النادرة وغيرها حتى أراد طبع الكتاب أو الرجوع إليه في أبحاثه.

وما زالت هذه الخزانة على نو مستعر لأن الجامعات والحكومات  
تشغل الى تنشيطها ، والافراد ينفحونها بحاجاتهم في حياتهم أو بعد مماتهم ،  
فقد أعطى مؤخراً صدقة الامير كابتناني من أعظم المستعربين في ايطاليا  
خزانته العظمى للمجمع العلمي في رومية في حياته ، وأعطى غريفيني المستعرب  
الإيطالي خزانة جامعة ميلانو في ايطاليا بعد مماته ، وباعت أسرة  
غولد صهر المجري خزانة كتبه المسمة من الجامعة الاسرائيلية في القدس .

ولما انفتحت الثورة الدينية في الغرب وقامت مكانتها الثورة الاستعمارية  
اشتدت الحاجة أكثر من قبل لاطلاع على آداب العرب وغيرهم من أمم  
الشرق ، ودخل علم المشرقيات منذ أواخر القرن الثامن عشر في طور  
العلوم المنظمة فأنشأت النمسا سنة ١٧٥٣ مدرسة لتعليم اللغات الشرقية  
لقناصلها وتجارها ، وأنشأت فرنسا في سنة ١٧٩٥ مدرسة اللغات الشرقية  
الحية مثل هذه الغاية ، وشادت ألمانيا مثلها سنة ١٨٨٧ ثم تبعتها روسيا  
وانكلترا وإيطاليا فأمنت كل منها مدارس للاخفاء بهذه اللغات . على أن  
أهم جامعات الغرب لم تخلي أبداً منذ القرن السادس عشر من دروس عربية  
ولا سيما جامعات ألمانيا وإنكلترا وهولاندا . والعناية بدراسة هذه اللغة  
بالغة حدها من الجد والاهتمام .

ورأى علماء المشرقيات سهولة في تلقيف لغات الشرق ، و منهم من كان يعنى بخمساً وعشرين لغة شرقية وغربية مثل لو داف الالماني و منهم نحو عشرين لغة مثل دي ماسي الفرنسي و فان برشم السويسري وهو ميل

اللائني . ولا تقل اللغات التي يعرفها أحدهم عن خمس أو ست ، ومن أغرهم دوزي الهولندي الذي كتب في سبع لغات كانه أحد أبنائها وكتب بالإنجليزية والهولندية والالمانية والفرنسية والانكليزية والاسبانية والبرتغالية ، ومثله فوري المجري فإنه كان يكتب بال مجرية والتركية والعبرية والانكليزية والالمانية والفرنسية كانه بعض المنشئين المنهورين في كل لغة لم تدخل واحدة منها الحيف على أختها .

والمستعربين في تلقي العربية طريقة اعتمدوا عليها في تعلم اللغات الغربية منهم ، وهو أن يأخذ طالب العلم في مدرسته أو بلده ما يمكنه أخذها من قواعد اللغة وأصولها ومفرداتها ثم يرحل للاتلاقي عن أهلها ، ليحصل لأذنه آذنة بساع اللغة من أربابها ، كما كان أجدادنا يرحلون لاتلاقي الحديث ورواية الآثار والأشعار . فيجيء المستعرب يقضي ما شاء أن يقضى من الزمن في بلاد عربية ، وقد يفضلون مصر ثم الشام ، ومنهم من أتقن علمه العربي في الأزهر وآخرون تعلموا في مدارس المرسلين في بيروت أو قرأوا على متناع دمشق وحلب وبغداد وتونس وفاس و منهم من تظاهروا بالإسلام وطالات أنفسهم يدرسوا علوم الإسلام في مكة المكرمة مثل سنوكلهروغرون الهولندي .

ولما كانت الاعمال الكبرى لا تظهر فائدتها الا بجتماع القوى المترفة وتوحيد المقاصد ، وكان للجمعيات والجامعات أثر كبير في خدمة العلم والمدينة ، أثنيَ للبحث في المشرقيات في باتافيا في جاوة أول مجتمع للعلوم والفنون سنة ١٧٧٨ . والهولنديون من أول الأمم التي حلت علّتهم العلم والمدينة في الغرب ، ثم أنشئت الجمعية الآسيوية في البنغال في الهند في سنة ١٧٨٤ والجمعية الآسيوية في بومباي سنة ١٨٠٥ ، وأثنيَ في القاهرة المجتمع العلمي المصري سنة ١٨٩٨ ، وأُسّست الجمعية الآسيوية في باريس سنة ١٨٢٢ وكان من أعلام مؤسسيها أكبر مستعرب نشأ في فرنسا وأخذ عنه آذنة المستعربين من علماء المشرقيات من الأمم الهولنديين والسويديين

محمد كرد علي

٩

والإيطاليين ، وفعلي به العلامة سلفستر دي ساكي ، والمشرقيات العربية في القرن التاسع عشر في أوروبا مدينة لهذا الرجل كثيراً لأنه سهل على المشتغلين بالعربية طرق تعلمها وتلقفها .

يقول هومبولت ان من أجمل نتائج المدنية الحديثة أن تؤلف جميع الأمم المستعربة أسرةً واحدة عندما تتساجم الحاجة لخدمة العلم والأدب والفنون وكل ما ينشأ من تقرير حقيقة وينبعث عن فكر وحس ويرفع به الإنسان إلى ما فوق الحاجات العادلة في المجتمع . ولذلك رأينا بين المشتغلين بلغات الشرق من الغربيين شيئاً من التضامن الأدبي يشد بعضهم أزر بعض ، فلم يكتف المستعربون بمحاجتهم وجماعاتهم وجماعاتهم التي تنشر أبحاثهم ، بل سنت همهم إلى عقد مؤتمرات يختلف فيها جميع علماء المشرقيات من الأمم والمستعربون في جملتهم ، فعقدوا أول مؤتمر لهم في باريس ثم في لنдра ثم في لينينغراد فقلورنسه فبرلين فليدن ففيينا فاستركولم فلندرنا ثانية فجينيف بباريز ثانية فروميه فهامبورغ فالجزائر فكونيغ فاينته .

ثم عقد مؤتمر بعد الحرب العالمية في ليبسيك لم تحضره أم المشرقيات (فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وأميركا) وعقد آخر في باريز لم تشارك فيه أمم الواقع في أوروبا الوسطى وشرقها (كالآن والنمساويين والجر ولا تزال الصقابة أي السلافيين ) .

وقد اعتاد علماء المشرقيات أن ينشروا بهذه المناسبة مجلدات ضخمة في أعمال مؤتمراتهم وما يقدمه بعضهم من الرسائل القديمة أو يكتبه من الأبحاث الطريفة في الفرع الذي اختص به . وكان للعربية من بين اللغات المشرقية التي يتدارسها علماء المشرقيات الممتاز فنشرت بذلك رسائل قديمة مهمة كما نشرت رسائل نادرة من كتب العرب في الأسفار التي يوفونها عندما يريد علماء المشرقيات الاحتفاء بأحد أخواتهم الذين خدموا المعلوم المشرقية عند بلوغه سنًا معينة .



هذا ما قاتم به الغربيون لخدمة الدروس العربية ، وقل أن تجد في بلادهم جامعة مهمة الآن إلا وفيها منبر لتدريس لغتنا ، منها بلغ من قلة عدد أبناء تلك الأمة ، وبعدها عن الاستثمار وانصرافها عن الفتوح والغزوـات ، بل يتعلمونها للتجارة والتـقـيف .  
وقد نـبغ في كل أمة رجال يتـكلـمـونـ العـرـبـيـةـ ويـكـتـبـونـهاـ كـأـبـانـاهـاـ ،ـ وـمـنـهـمـ اـكـفـواـ بـفـهـمـ النـصـوصـ فـيـ الـكـتـبـ ،ـ وـمـ يـسـاعـدـهـمـ الزـمـنـ لـيـتـمـكـنـواـ مـنـ أـدـبـ الـعـرـبـ أوـ لـيـرـحـلـواـ إـلـىـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ يـدـرـسـونـ لـغـهـاـ وـيـعـارـسـونـ التـكـامـ بـهـاـ مـعـ أـبـانـاهـاـ مـدـدـةـ .ـ

وـمـنـ عـرـفـاهـ يـكـتـبـونـ العـرـبـيـةـ كـذـابـةـ جـيـدةـ جـوـيدـيـ وـنـالـيـنـوـ وـمـاسـنـيـوـنـ وـمـارـسـيـهـ وـمـرـجـليـوـثـ وـبـرـونـ وـكـرـنـكـوفـ وـبـرـوكـاتـ وـهـارـئـانـ وـمـورـتـسـ وـكـرـائـشـقـوـفـسـكـيـ وـكـوـفـالـسـكـيـ وـغـرـيـفـيـنـيـ وـغـولـدـ صـهـيرـ .ـ وـمـعـظـمـ مـنـ عـنـونـاهـ بـلـغـتـناـ مـنـ عـلـمـاءـ الـمـشـرـقـيـاتـ نـشـرـواـ كـتـبـاـ وـرـسـائـلـ مـهـمـةـ مـنـ آـثـارـ السـلـفـ الصـالـحـ ،ـ وـيـكـنـىـ أـنـ يـقـالـ فـيـ هـذـهـ الـهـمـمـ الشـهـاءـ انـ الـطـبـعـ بالـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ الـذـيـ اـنـتـشـرـ مـنـذـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ عـشـرـ فـيـ إـيـطـالـياـ وـمـنـذـ أـوـائلـ الـقـرـنـ الـدـاـبـعـ عـشـرـ فـيـ هـولـانـدـةـ ،ـ ثـمـ شـاعـ بـعـدـ حـينـ فـيـ سـائـرـ عـوـاصـمـ الـقـرـبـ ،ـ لـمـ يـصـلـ الـاستـانـةـ إـلـىـ فـيـ الـقـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ ،ـ وـلـمـ يـهـبـطـ مـصـرـ إـلـىـ أـوـائلـ الـقـرـنـ الثـانـيـ عـشـرـ وـكـانـ عـلـىـ ضـعـفـ فـيـ الشـامـ فـيـ الـقـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ .ـ وـهـذـاـ أـكـبـرـ دـلـيلـ عـلـىـ اـنـتـبـاهـ الـعـرـبـيـنـ وـتـفـوقـهـمـ عـلـىـنـاـ فـيـ وـرـودـ مـنـاهـلـ الـعـلـمـ وـالـتـذـرـعـ بـأـسـبـابـ نـشـرـهـ وـتـحـبـيـبـهـ إـلـىـ النـاسـ .ـ

سـادـتـيـ :ـ يـحـتـاجـ الـوـقـوفـ عـلـىـ مـاـ تـجـعـلـ لـلـغـرـبـ مـنـ تـلـكـ النـهـضـةـ فـيـ الـأـخـذـ مـنـ عـلـومـ الـعـرـبـ إـلـىـ بـحـثـ مـسـتـفـيـضـ خـاصـ ،ـ وـيـهـنـاـ الـآنـ مـعـرـفـةـ أـثـرـ تـلـكـ النـهـضـةـ فـيـنـاـ وـفـيـ لـغـتـناـ ،ـ أـيـ أـنـ نـعـرضـ لـلـجـهـةـ إـلـىـ تـحـصـنـاـ مـنـ ذـاكـ الـجـهـادـ الـعـقـلـيـ الـذـيـ جـهـدـوـهـ فـيـ إـحـيـاءـ الـعـرـبـيـةـ فـقـطـ ،ـ وـذـلـكـ لـتـتـنـوـيـهـ بـعـنـ نـشـرـواـ كـتـبـاـ فـأـسـدـواـ إـلـىـ لـغـتـناـ الـجـبـوـيـةـ أـيـادـيـهـمـ الـبـيـضاـءـ ،ـ وـعـلـمـوـنـاـ بـعـاـ أـحـيـوـهـ درـوـسـاـ فـيـ تـارـيـخـ أـمـنـاـ وـمـدـنـاـ أـجـدـادـنـاـ كـنـاـ نـجـهـلـهـاـ ،ـ مـعـ أـنـ أـعـمـالـهـمـ هـذـهـ وـصـلـتـنـاـ

محمد كرد علي

١١

بـالـعـرـضـ إـذـمـ يـكـنـ عـلـمـاءـ الـمـشـرـقـيـاتـ أـوـ جـمـيعـهـمـ وـجـمـاعـهـمـ يـقـصـدـونـ خـدـمـتـنـاـ ،ـ بـلـ خـدـمـةـ الـعـلـمـ أـوـ الـأـفـكـارـ إـلـيـهـ يـرـيدـونـ بـهـاـ لـيـتـخـذـ بـعـضـهـمـ مـنـ كـتـبـ أـسـلـافـنـاـ مـادـةـ تـنـفـعـهـمـ فـيـ مـوـضـعـ قـدـ يـرـوـنـ غـيرـ رـأـيـاـ فـيـهـ أـوـ غـيرـ ذـاكـ مـنـ الـمـاقـصـدـ .ـ وـلـكـنـ مـهـاـ كـانـ الـنـيـاتـ فـقـدـ اـسـتـفـادـتـ الـعـرـبـ وـالـعـرـبـيـةـ مـنـ هـذـهـ الـمـهـمـةـ إـلـيـهـ اـنـبـعـثـتـ مـنـ دـيـارـ الـغـرـبـ وـلـذـلـكـ تـنـفـيـضـ عـلـيـنـاـ أـخـلاقـنـاـ أـنـ نـعـرـفـ الـفـضـلـ اـصـاحـبـهـ .ـ

### الـمـشـرـقـيـاتـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ فـرـنـسـاـ وـسـوـيـسـاـ وـبـلـجـيـاـ .ـ

أـهـمـ الـمـسـتـعـرـبـونـ مـنـ عـلـمـاءـ الـمـشـرـقـيـاتـ فـيـ فـرـنـسـاـ بـالـنـقـلـ وـالـاحـتـذـاءـ مـنـ كـتـبـ الـعـرـبـ أـكـثـرـ مـنـ اـهـتـمـمـهـ بـنـشـرـ أـصـوـلـ تـلـكـ الـكـتـبـ ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـانـ فـيـ الـذـيـ نـشـرـوـهـ مـنـ الـكـتـبـ الـعـرـبـيـةـ دـلـيـلاـ عـلـىـ مـاـ بـذـلـهـ أـفـرـادـ هـذـهـ الـأـمـمـ فـيـ خـدـمـةـ آـدـابـنـاـ .ـ وـقـدـ نـشـرـ (ـسـلـفـسـتـرـ دـيـ سـاسـيـ)ـ إـلـاـمـ الـمـسـتـعـرـبـونـ فـيـ الـغـرـبـيـنـ كـتـابـ كـلـيـلـ وـدـمـنـةـ وـأـفـيـةـ إـبـنـ مـالـكـ وـكـتـابـ الـاعـتـارـ لـعـبدـ الـلطـيفـ الـبـغـدـادـيـ فـيـ وـصـفـ مـصـرـ وـمـقـامـاتـ الـحـرـرـيـ وـمـعـلـقـةـ لـبـيـدـ .ـ

وـنـشـرـ (ـكـارـمـيرـ)ـ مـقـدـمـةـ إـبـنـ خـلـدونـ وـالـرـوـضـتـيـنـ فـيـ أـخـبـارـ الـدـوـلـيـنـ لـأـبـيـ شـامـةـ وـسـرـ الـخـلـيقـةـ لـبـلـنـيـوـسـ الـحـكـمـ وـالـقـصـائـدـ الـسـبـعـ الـمـعـلـقـاتـ وـالـبـرـقـ

الـيـانـيـ وـمـطـالـعـ الـبـيـرـيـنـ وـالـبـيـجـانـ وـبـلـوـغـ الـمـرـامـ فـيـ تـارـيـخـ دـوـلـةـ مـوـلـاـتـ بـهـرـامـ .ـ وـنـشـرـ (ـكـوـسـيـنـ دـيـ بـرـسـفـالـ)ـ الـمـعـلـقـاتـ السـبـعـ وـأـمـثـالـ لـقـمانـ الـحـكـمـ .ـ

وـنـشـرـ (ـدـيـ سـلـانـ)ـ تـقـوـيمـ الـبـلـدـانـ لـأـبـيـ الـفـداـ .ـ

وـنـشـرـ (ـدـيـ سـلـانـ)ـ دـيـوانـ اـمـرـيـ الـقـيـسـ وـالـجـزـ الـأـوـلـ مـنـ وـفـيـاتـ الـأـعـيـانـ لـأـبـنـ خـلـدانـ وـالـجـزـ الـسـادـسـ مـنـ أـخـبـارـ الـبـرـرـ فـيـ تـارـيـخـ إـبـنـ خـلـدونـ وـالـزـيـجـ الـحـاـكـمـ .ـ

وـ(ـفـرـيـديـ)ـ رـحـلـةـ إـبـنـ بـطـوـطـةـ .ـ

وـنـشـرـ (ـدـوـغـاـ)ـ بـعـاـوـنـةـ (ـدـوـزـيـ)ـ الـمـوـلـاـنـيـ وـ(ـرـبـ)ـ الـانـكـلـيـزـيـ فـيـ فـحـ الطـبـ الـمـقـرـيـ .ـ

١٣

محمد كرد علي

- و (منذك) دليل الخازن لابن ميمون وممیون الحياة لابن جبرول .  
و (سيديلايو) كتاب أبي الحسن على المراكشي المدعو جامع المبادي والفاليات في الآلات الفلكية .  
و (شيفر) وصف الشام لأبي الحسن على المروي والنفع السديد للمفضل بن أبي الفضائل .  
و (ديكرانج ابنه) ذكر تملك جمور الفرساوية مصر والشام لنقولا الترك .  
وطبع (دوبك) رسالة في البراهين على مسائل الجبر والمقابلة لمع ابن ابراهيم الخيامي .  
و (مسكوراني) أخبار بي مزاب .  
و (كونغ) كتاب الكلى والمثانة للرازي .  
و (اكزيكا قيس) تاريخ جزيرة جربة لحمد بن أبي راس احمد الناصر .  
و (لووقيل) كتاب صورة الأرض لحمد بن جابر البشانى .  
و (لانجليس) رحلات لأتاس من العرب والغرس رحلوا إلى الصين والهند في القرن الثالث للهجرة .  
و (باتورني) وشاح الكتاب .  
و (غوتى) الدرة الفاخرة للغزالى .  
و (كولين) تذكرة أبي العلاء ابن زهر .  
و (مرسيه) حلبة الفرسان لابن هذيل الاندلسي .  
و (فران) الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد لابن ماجد .  
و (amar) مقدمة الوفي بالوفيات للصلاح الصفدي .  
و (كي) كتاب الاشتربة لابن قتيبة .  
و (كارادي فو) كتاب ايرن في رفع الاشياء الثقيلة نقله إلى العربية قسطما بن لوقا البعلبكي .  
و (شوبلس) السويسري ديوان أمية بن أبي الصلت .

و (باريه دي منار) مروج الذهب المسمودي .

و (هارتويغ درنبورغ) كتاب سيبويه والاعتبار لابن منقذ واربع رسائل ملك غرناطة أبي الحسن على إلى دون دباءو القسطنطيني وابنه والنكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية إمارة اليعني وديوان التابعة الذهبي وطبع (أبوه) الرياض المزهرة في صرف اللغة العبرانية ونحوها لمؤلفه أبي الوليد مروان بن جناح القرطبي وتاريخ امباكتة الموصل .  
و (بوشه) ديواني عروة بن الورد والفرزدق .

و (هداس) زهرة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادى عشر لاوفرانى وتاريخ السودان لميد الرحمن التومبوكى وذكره النبيان في أخبار ملوك السودان وتاريخ جلال الدين المنكيرى وتاريخ الفتاش نشره مع (دلاقوس) .

و نشر (باسيه) الخزرجية في المروض وتاريخ فتح الخيشة لمرب فقيه .  
و نشر (بل) تاريخ بي عبد الواد ملوك تمسان لأبي زكريا يحيى وكتاب التكملة لكتاب الصلة لابن البار بمعاونة ابن أبي شنب .  
و (رافيس) زيادة كشف الملائكة لظاهرى .  
و (سيلفوهن) ديوان طرفة بن العبد .

و (ماستينوت) الطواحين للعلاج والامتثال البغدادية لاطفالاني والاصطلاحات الفلسفية .

و (ماسيه) نظام ديوان المهردار لابن الصيرفي وتاريخ ابن المدرس .  
و (بريه) غافى مقالات لاهوتية ليحيى بن عدي .  
و (رو) معلقة زهير ولامية ابن الوردي ولامية المعجم لاطفاراني وقصيدة بانت سعاد .

و (زوتنبرغ) تاريخ ملوك فارس لشمالى .  
و (هوار) البدء والتاريخ العاشر ابن طاهر ومقامات ابن نافعى وديوان سلامه بن جندل .

- و (كليل) السويسي الجزء السادس من كتاب بغداد لأبي الفضل  
احمد بن أبي طاهر طيفور .  
و (فودج) البلجيكي كتاب الاشارات الالهية لابن سينا .  
و (غين) الحاوي في علم النداوي لنجم الدين محمود الشيرازي .  
و (موتنسي) أخبار الائمة الرستميين لابن الصغير .  
و (ميز) السويسي حكاية أبي القاسم البغدادي .

### المشرقية في ببر عاصيا :

أخرج علماء الآمان أمها كتب العرب التي تساعد على فهم دينهم  
وحضارتهم فقدموا المستعربين وغيرهم مادة مهمة للبحث والنظر . وأهم  
ما نشره (فليشر) تفسير القاضي البيضاوي والمفصل للزمخشري وكتاب  
ألف ليلة وليلة ورسالة هرمس في زجر النفس .

وطبع ( وستنفيلد ) سيرة ابن هشام ومعجم البلدان لياقوت الجوي  
ومعجم ما يستخدم للكاري وطبقات الحفاظ للذهبي ووفيات الأعيان لابن خالكان  
وتهذيب الأسماء واللغات المنزوبي والمشترك لياقوت وعجائب الخلق للفزوني  
وآثار البلاد للفزوني أيضاً والممارف لابن قتيبة وأسماء القبائل المتشابهة  
وغير المتشابهة لحمد بن حبيب والاشتفاق لابن دريد وأخبار قبط مصر  
للمقرن وسيرة فخر الدين المنبي وتاريخ مدينة الرسول للسمهودي وتاريخ  
مكة لأزرقي والمنتقى من أخبار أم القرى وهي منتخبات من الفاكهي  
والقاسي وابن ظبيبة والإعلام للهزروالي إلى غير ذلك من الكتب الممتعة  
التي عُدّ وستنفيلد بنشرها من أعظم العاملين في تاريخ المشرقية .

ونشر ( فلوغل ) الفهرست لابن النديم وكشف الغلوون حاجي خليفة  
والموس للشعاعي وتعريفات الجرجاني ونجوم الفرقان ونواج التراجم  
لابن قططوبغا .

محمد كرد علي

١٥

و نشر ( سخاو ) الطبقات الكبير لابن سعد وكتاب مالهند من مقولة  
مقبولة في المقل أو مرسومة للبيروني ونشر له أيضاً الآثار الباقية عن القرون  
الخالية والمغرب للجواليقي .

و نشر ( فريتاغ ) ديوان الحسنة لأبي تمام والكافدة والاعتبار اعبد المطيف  
البغدادي وولاية سعد الدولة على حلب وأمثال الميداني وفاكهنة الخلفاء  
لابن عربشاه ووصف فلسطين والشام الادريسي .

و نشر ( آلورد ) دواوين الشعراء الستة النابغة وعنترة وطرفة وزهير  
وعلقة وامری \* الفيس والاصحیات وديوانی الأراجین للمجاج والزفان  
وديوان رؤبة بن المجاج (١) وديوان خلف الاحمر والفارجي في الآداب  
السلطانية والجزء الحادي عشر من تاريخ مصنف مجھول .

و ( لميرت ) تاريخ الحكاء للفقطي .

و ( وابل ) رسالة الخيمي في الخبر والمقابلة وكتاب الفخرى للكرنخي  
وتفسير مقالة اقليدس العاشرة لأبي عثمان الدمشقي .

و ( وآشنن ) مقدمة الأدب لجار الله الزمخشري .

و ( فولوس ) معلقتي الحارث بن حذرة وطرفة بشرح الزوزني وتاريخ  
مصر لابن دقاق .

و ( كريمر ) النسوبي الاستبصار في عجائب الامصار والمنازع لواحدى  
والحكام السلطانية للماوردي والقصيدة الحميرية .

و ( فولف ) المعلمات و شيئاً من ديوان البيغان ورسالة في أحوال القيامة .

و ( ايغيلد ) فتوح الجزيرة المنووب لواحدى .

و ( سبيولد ) الشماريخ في التاريخ للسيوطى وأسرار العربية لابن الائينى  
والى في الكى له والمرصع لابن الائينى ورواية سول وشول وكتاب النقط  
والدواز مع رسائلين في التوحيد .

(١) حرس المستربون على نشر دواوين العرب ولا يرى المرء إلا منهم لأن الشهارة  
الأمم وقد يقع الباحث فيه على مواضعات وعادات لا تخطر له على بال .

و (سبرنر) اصطلاحات الصوفية لمبد الرزاق السمرقندى و تاريخ الفرزقية لمعتى والاسابة في تغيير الصحابة لابن حجر والاتفاق لسيوطى وكتاب حدود الفاكهى .

و (برتر) فضيحة ثعلب وديوان القطامي .

و (مولار) النموي صفة جزيرة العرب للمعدانى والفرق الاصممى .

و (مولار) الامانى طبقات الاطباء لابن أبي أصيبيعة .

و (يوسف مولار) أخبار العصر في انفعته دولة بنى نصر وكتاب محمد بن كثير الفرغانى في الحركات المهاوية وجواجم علم النجوم .

و (بنس) اعماض الحفنا المقريزى .

و (هوروفيتس) الماشيات للكتبت .

وطبع (آبل) الملفقات السبع .

و (سوسين) ديوان علقة الفحل .

و (وميكة) تاريخ أبي الفدا .

و (نولادك) ديوان عروة بن الورد .

و (موجيك) النموي كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى وصفة الأرض للخوارزمى وعجائب الأقاليم لزهراب ورسم المعمور من البلاد محمد بن موسى بن شاكر أحد الأخوة الثلاثة المعروفين ببني موسى .

و تشر (بروكان) تلقيح قهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار لابن الجوزى وعيون الأخبار لابن قتيبة وديوان لبيد وكتاب ما تلحن فيه العام للكائى .

وطبع (فييلار) الأرجوزة المزدوجة لوجيه الدين البهنسى ومثلثات قطرب .

و (جورج يعقوب) طيف الخيال لابن دانيال الطبيب الكحال .

و تشر (كريپتشك) النموي النصوص التي تعين على جمع تاريخ بني منيد .

و (بارنهاور) كتاب الأنساب المنسوب لأسطفاطايس .

محمد كرد علي

١٧

و (موريس) التجففة السنية بأسماء البلاد المصرية لابن الجيyan وتاريخ الفيوم لأبي عمان النابلسى الصفدى .

و (شمولدرس) أرجوزة في المنطق لابن سينا .

و (بارتر) كتاب الشرائع لشالومون بن يوسف بن أيوب .

و نشر (هفتر) النموي عدة رسائل نبوية وهي القلب والابدال لابن السكىت وكتاب الايدل للاصمى وكتاب خلق الانسان له وهلة كتب في الاختداد للاصمى والسبستاني وابن السكىت وذيل لعصانى . ونشر الدارات والتبات والشجر والنخل والكرم للاصمى .

و نشر (ناعلبرغ) كتاب الشجر لابن خالويه .

و نشر (غروز) أدب الكتاب لابن قتيبة .

و نشر (هيل) نذكرة الكحالين اعلى بن عيسى وطبقات الشعراء الجمحي وديوان الفرزدق .

و (هرخايم) الكافى في الحساب للكرنخى .

و (وابل) الانصاف في مسائل الخلاف بين البصرىين والковيين الانبارى .

و (شوالي) المحسن والمساوي للبيهقى .

و (شولتس) ديوان حاتم الطائى .

و (ديترس) بعض رسائل الفارابى وحكمة أرسسطاطايس وتوحيده ورسائل اخوان الصفا .

و (بزولد) سيرة أحمد بن طولون لابن سعيد المفرى وقصيدة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان .

و (برونله) كتاب المقصورة والمدود لابن ولاد وأعد للنشر الازمنة لقطرب والاختداد له وكتاب خلق الانسان لازجاج والغشوات لابن خالويه والماضى لابن المهاوى والنبئات على أذاليط الرواة ونشر نظام الغريب لاربى وشرح السيرة النبوية لأبي ذر الخثفى .

عما (٢)

و (مان) تحفة ذوي الارب لابن خطيب الدعثة ومشكل الانساب .  
و (فيز) الفرج بعد الشدة للتنوخي .  
و (جاهن) شرح المفصل لابن يعيش .  
و (ريشر) معلقة عنترة وعليها شرح ابن الباري والمعجم في بقايا الاسماء  
لابي هلال المسكري وشرح معلقة زهير لابن الباري والمذكر والمؤنث  
لابن جني .

و (هوسبر) شرح معلقة زهير .  
و (بارمان) قول الحسن بن الحسين بن الهيثم في الضوء .  
و (نوربك) كتاب النحو للصياغ .  
و (هوجنن) الترسوبي بقية المستفید في أخبار زيد .  
و (شورتس) ديوان عمر بن أبي ربيعة .

ولنشر في بلاد آسيا والنمسا في عصور مختلفة ككتب ورسائل كثيرة  
منها أخبار الدول المنقطعة الازدي وديوان لبيد وديوان طرفة بن العبد  
وذكر الكحالين اعبي بن علي وتاريخ الدولة الانابيكية لابي الحسن  
عن الدين وطبع لخابر بن حيان مصنف في أسرار الكيميا ، وعدة رسائل  
لخفر الصادق في هذا الفن نشرت في ستراسبورغ سنة ١٥٣٠ وطبع  
في هذا العصر كتاب الكيميا في بازل .

### المشرفيات العربية في هولندا:

لم يقلّ الهولانديون عن الامان في خدمة الآداب العربية ، فقد نشر  
مستعربون من الأمم المعتبرة أيضاً ما كشف النقاش عن وجه المدنية  
الاسلامية فقام (اربيوس) سنة ١٦١٥ ونشر تاريخ الشيخ المكين  
جرجس بن العميد وحكايات لقمان ، وأنشأ مطبعة ليدن وجزءها بالحرروف  
العربية التي مازالت الى اليوم قطبيعاً بأكثر من عشرين لغة من لغات الشرق .

محمد كرد على

١٩

ونشر (غوليوس) كتاب الفلك لغرغاني وعجائب المقدور في أخبار تيمور  
لابن عربشاه .

و (شولتس) سيرة صلاح الدين لابن شداد .

و (دوزي) المعجب لمعبد الواحد المراكشي والبيان المغرب لابن عذاري  
وهما من جغرافية الادريسي بمعونة (دي خويه) ومنتخبات من مصنف  
المقرizi والحلة السيراء لابن البار .

ونشر شيخ المشرفيات العربية (دي خويه) من الكتب في التاريخ  
والجغرافية أجلها حق عد" سيد المستعربين من الهولانديين بل لا يغوفه  
بكترة ما طبع من جميع المستعربين في الأمم إلا (وستيفيلد) ويزيد عليه  
(دي خوي) في التحقيق والضبط وجبل الذوق في فهم كلام العرب .  
فما نشره تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبرى وصلة تاريخ الطبرى  
اعرب بن سعد ونشر أمثلات من كتب الجغرافية سماها المكتبة الجغرافية  
العربية وهي مؤلفة من المالك والمالك للبلجي والمالك والمالك لابن حوقل  
وأحسن التقسيم المقدسي البشاري وكتاب البلدان لابن الفقيه والمالك  
والمالك لابن خرداده مع نبذة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر  
والاعلاق النفيضة لابن رسته وكتاب البلدان لليعقوبي والتبيه والاشراف  
المسعودي وجزءاً منها من تجارب الأم لابن مسكوبه والمبون والخدائين  
وخلافة عمر الثاني ويزيد الثاني وهشام وشرح قصيدة ابن عبدوت  
لابن بدرورن وديوان صريح الغوانى والشعر والشعراء لابن قتيبة .

ونشر (بونغ) المشتبه في أسماء الرجال للذهبي والانسان لابي الفضل  
المقدسي واطائف المعارف للتعالي والخراج لبحري بن آدم وفتح البلدان  
للبلادى وصحيح البخارى .

ونشر (جوينبول) مراسد الاطلاع لمعبد المؤمن بن عبد الحنى والجبل  
والامكنة وال المياه لازمخشري والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة  
وقصائد المتنبي وشعراء عصره في مدح سيف الدولة .

- وذكر ابنه (وليم) التبيه في الفقه الشافعى للشيرازى وكتاب البلدان لابن واضح اليعقوبى .  
و (هونها) زبدة النصرة لعماد الأصفهانى وتاريخ اليعقوبى والآضداد لابن الإبارى .  
و (بيت) باب الباب للسيوطى .  
و (مورسنج) طبقات المفسرين للسيوطى .  
و (فارس) درة الإسلام فى دولة الازراك لابن حبيب .  
و (فان فلوتن) مفاتيح العلوم لاخوارزمي والبغلاء لجاجحة والحسن والاصداد له وثلاث رسائل لجاجحة أيضاً .  
و (آبل) ديوان أبي مجحن الفقى .  
و (فات دانبرغ) فتح القرب لابن القاسم الغزى .  
و (جر هاردوس) الزراع والتخاصم المقريزى .  
و (كونتنغ) المثابة والخصبة وثلاث رسائل فى التشريح للرازي .  
و (فان ديرليت) عجائب الهند ابرزك بن شهريار الرام هرمنزى .  
و (القلمان) ديوان الحادرة .  
و (باتنادلانداور) الامانات والاعتقاد لسعديا بن يوسف الفيومى .  
و (بير) تاریخ الزندية لابن عبد الكريم علي رضا الشيرازى .  
و (پيدام) المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين .  
و نشر في هولاندة الالام بما في أرض الحبشة من ملوك الاسلام ومفحمات الاقران في مهمات القرآن للسيوطى وغير ذلك من الكتب النفيسة .

### المشرفات العربية في إنكلترا والوربات المقدمة

- من أول ما نشر الانكليز من الكتب كتاب التعريف لابن القاسم خلف بن عباس الزهراوى .  
و نشر (بو كوك) مختصر الدول لابي الفرج المطاطي ونظام الجوهر لسعيد ابن بطربيق .

- و (كورتون) الملل والنحل للشمرستاني وعقبدة أهل السنة لحافظ النسفي ورحلة البطريرك مكاريوس .  
و (لومسدون) مقامات الحريري ونفحۃ الیعن لاحمد الشروانی وشرح المعلقات وختصر المعانی للفزوبي وقاموس الحبیط للفیروزابادی .  
و (ناسو) الكثاف لازمخشري وتاريخ الخلفاء للیوطی ونواذر القلبوبي وفتح الشام لواقدی وفتح الشام للبصري وكشاف اصطلاحات الفتوح للتهانوي ونخبة الفكر لابن حجر العسقلانی .  
و نشر (هاريس خوف) ذكر فتح الاندلس لابن عبد الحكم .  
و (هر) شوق المستهام في حل رموز الاقلام لابن وحشیة .  
و (بلمر) دیوان زهیر المصري .  
و (صموئيل لای) الاشارات في معرفة الزيارات للهراوي .  
و (ربت) الكامل المفرد ورحلة ابن جبیر وجموعة سماها جزر زنة الخطاب وتحفة الطالب فيها دیوان طهان بن عمر الكلابي تأليف ابی الحسن السكري وتلقيب القوافي لابن کيسان وصفة المرج ولاحجام لابن درید والمحاجب والغیث وأخبار الروادلة .  
و (أميدروس) تاريخ الوزراء للصابى وذيل تاريخ دمشق لابن القلابي .  
و (برونو) كتاب الموئی للوشاء والاتباع والمزاوجة لابن فارس .  
و (كارلابل) مورد الاطافة فيمن ولی السلطة والخلافة لابن تغري بردي .  
و (مرجلیوث) معجم الادباء لياقوت الحموي والانساب للسعانی ونشوار الحاضرة للبنوخي ورسائل اماري وديوان التماوبذی .  
و (فنكل) ثلاث رسائل لجاجحة فيما ارد على الصارى وذم أخلاق الكتاب ورسالة القيان .  
و (ارنولد) كتاب المائة والامل المرتفى في ذكر المائة .  
و (کاسل کای) مجموعة في تاريخ اليمن امارة والختصر من امير لابن خلدون وأخبار القرامطة في اليمن للجندي .  
و (هرشفيلد) دیوان حسان بن ثابت .

### المشرقية العربية في إيطاليا واسبانيا والبرتغال:

كانت إيطاليا أول الأمم الغربية التي ذهبت بفضل السبق في نشر الكتب العربية ، فقد أحياناً المستعربون في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ قاليف يحيى بن ماسويه الأصغر الحراني في الطب والفلسفة وطبعوا قانون ابن سينا في الطب مع كتاب النجاة في سنة ١٥٩٣ وبعدها نشروا رسائل أخرى في المنطق والطبيعة والكلام لارازى وطبعوا تحرير أصول أقليدس لطوبى . ونشر (آماري) المكتبة العربية الصقلية وفيها جميع ما ورد في كتب العرب عن جزيرة صقلية وطبع الشروط والمقدمة السياسية بين جمهوريات إيطاليا وسلطان مصر وغيرهم وكتاب الاشارات للهروي . و (لانزوني) القول المستظرف في سفر مولانا المأكث الأشرف وكتاب النخلة للسجستاني .

و (رويزو) كتاب الأرصاد الكلية .

و (كابتناني) تجارب الأمم لابن مسكويه .

و (جويدى) شرح بانت سعاد لابن هشام وكتاب الآفاق لابن قوطية والاستدراك لابن بكر الزبيدي .

و (كيسب فلا) كتاب ديوان مصر وزاد المسافر ورسالة افسطاخ لوقا .

و (سكيمبارلاني) ديوان ابن حمديس العذلي وجزءاً من أنس الحج وروض الفرج ومرشدة الطالب في أسمى المطالب لابن باسم وعلم الشعر لابن العباس أحمد بن يحيى أعلم .

و (تالينيو) زيج الباتاني في الفلك والبيان لابن رشد .

و (غريفيني) فقه زيد بن علي وديوان الاختصار والطبقات لابن بكر الزبيدي ونصوصاً عربية في صقلية وقصيدة منسوبة لامریقي القبس وقصيدة ابن الجوزي .

قدم بن قادم وقصيدة الاعنة « ما البكاء » وأعد لطبع بمع القوانين المصرية في دواوين الديار المصرية لـ « الأمير عثمان بن ابراهيم النابلسي » .

و (كوركوف) قصيدة ابن مازاجم المقبلي وديوان عمرو بن كانوم النغلي والحارث بن حذرة البشكري والطراح والصحاح لـ « الجوهرى » وكتاب المقبلي . و (مهرمان) معيذ النعم ومبيذ النقم للناجى السبكي .

و (لايل) دواوين عامر بن الطافيل وعبيد بن الإبرس وعمرو بن قيبة والفضيلات الذي مع شرح أبي محمد القاسم الانباري والملقات العشر شرح التبريري .

و (بيكرون) كتاب الاعم .

و (بن) تقاضي جرير والفرزدق .

و (مرجايون) مع (جيز) الالماني حاسة البحترى .

و (ستوري) الفاخر المفضل بن سلمة .

و (مكارتي) ديوان ذي الرمة بشرح الانباري .

و (منفانه) الدين والدولة لابن دبئن .

و (ستونج) فتوح الحبشة لـ « احمد ابن عبد القادر بن سالم بن عثمان » .

و (روس) ظفر الواله في تاريخ كجرات الافغانى .

و (كوتست) تاريخ مصر وولاتها لـ « لكندي » .

و (غوبت) كتاب عبد الطيف البغدادي .

و (ببور) الامير كاني النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والفاخرة لابن نعري بودي .

و (كونيل) الامير كاني تاريخ قضاة مصر لـ « لكندي » وكتاب المغار لابن زيد .

و (كريستيانوس فانديك) الامير كاني رسالة في مرض الجدرى والخصبة لـ « ارارازى » .

و (طورى) الامير كاني فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم .

و (جرت) الامير كاني الجزء الثامن من تاريخ مرآة الزمان لـ « سبط ابن الجوزي » .

و (كونيج) الامير كاني تاريخ حكام مصر لـ « لكندي » .

و (جاسترو) الامير كاني كتاب ابي زكريا يحيى بن داود هيتوج .

والآلية (كودتبي) أقام المرجان في ذكر المذاق المشهورة في كل مكان لاسحق بن حبي بن المنجم .

و (بورجبي) مقامات أبي طاهر التميمي .

و (روبيبو) كتاب الفراتي في الطب .

و (برتولوميو) كتاب التحل للجستاني .

و (كوزالوشي) و (لاغومينا) الصكوك المعينة على تاريخ استيلاء العرب على جزيرة صقلية ملحقة المكتبة الصقلية التي نشرها آماري .

وأنت ترى أن ما سما الإيماليون إلى نشره أولًا كتب العلوم المادية فتدار كروا من الصياغ بعض ما أبقيته الأيام من الكتب ، ولقد وضع السويسري سور من علماء المشرقيات كتاباً فيما اشتغلوا من العرب بالعلوم الرياضية والفالك فقط فكان عدد من وصل إلى ترجمتهم نيفاً وخمسمائة رجل فقدت الآن أكثر كتبهم .

و نشر (بانكري) الإسباني كتاب الزراعة لابن العوام .  
و (казالا) لغز قايس .

وأهم ما نشره علماء المشرقيات الإسبان المكتبة الاندلسية . نشرها (كوديرا) .  
و (رييرا) وهي الصلة لابن بشكوال وبغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس والمعلم لابن الإيلار والتسلسلة لكتاب الصلة لابن الإيلار أيضاً  
و تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي وفهرس ماررواه عن شبوخه أبو بكر ابن خليفة الأثبي .

و (امييلولافوتن) أحجار فتح الاندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم .

و (كيروس) علم ما بعد الطبيعة لابن رشد .

و (آمين) المدخل لصناعة المنطق لابن طملوس .

و (كنسايس) تقويم الدهن للداني .

و (ريبه طرغوم) القضاة بفرطبة لأخذني القرولي .

و (شانجاس) اختصار الخبر والمقابلة لابن بدر .  
و (غبار) ربحانة الكتاب لسان الدين ابن الخطيب والجزء الثاني والمعربين من نهاية الأرض للنوروي .  
و (هوبتي) كتاب التواريخ لابن بسام .  
و (كلاذرزا) فلسفة الإسلام والغربيين .  
ونثير (لوبيس) البرتقالي كتاب أحوال البرتغاليين في مالايلار الهندية للشيخ زين الدين وكتابات عربية متعلقة بالبرتغال .  
و (صوصه) الصكوك العربية المتعلقة بتاريخ البرتغال .

المشرفيات العربية في روسيا وبولونيا وفنلندا وهنغاريا وسلوفاكيا  
أولئك الروس ينشر خلاصات من كتب العرب فكانوا أشبه بالافرنسيين  
في هذا المعنى ، ومع هذا نشر من أبنائهم (كركاس) الأخبار الطوال  
لأبي حنيفة الدينوري .

و (غوتولد) تاريخ سبي ملوك الأرض والأنبياء لجزء الاصفهاني ومعجماً  
للفرقان والملقات .

و (كولسون) الأعلاف النفيسة لابن رستة .

و (خانيكوف) ميزان الحكمة لاحازني .

و (بتروف) طوق الخاتمة لابن حزم .  
و (روزن) تاريخ الذيل الذي صنفه يحيى بن سعيد بن يحيى الانطاكي  
ومصنفاً في الخبر لأبي جعفر الخوارزمي .

و (كرالشفوتسكي) ديوان الأوادم الدمشقي .

ونشروا رحلة ابن فضلان والصور الجمائية لميد الرحمن بن عمر الصوفي  
ويعرف بكتاب الكواكب الثابتة .

ونشر (كوفالسكي) البولوني ديوان قيس بن الخطام .

و (رودلف دفوراك) ديوان أبي فراس الحمداني .

٤٧

محمد كرد علي

كبيرة ، والاستفهام متعدد بعد عمل القوم هناك قرونًا طويلة ، وما زالت هذه اللغة كما قلنا مرة من لغاف الله بها يخدمها الأعاجم ، وينظر عليها من ليسوا من أبنائها ، وقد يحسن الدخيل خدمتها أكثر من الأصيل . خدم الأعاجم حضارة العرب كثيراً في العهد القديم ، والاعاجم في العهد الحديث ما خرّجوا عن هذه السنة معها ، وبعد فلولم يشرع الغربيون بنشر كتبنا منذ القرن الخامس عشر الميلاد لتأخر النور علينا ، ولكن ضاع جانب من ثروتنا العلمية ، ولو حدث الانتباه في الغرب للحصول على كتب العرب في القرن العاشر الميلاد مثلاً لحفظت كنوز كثيرة تبعثرت بالحروب الصليبية في الشام ومصر ونكبة هولاكو في بغداد وفتحت العبر والاسبانيين في الانداس ، وغير ذلك من الخطوب المدمرة التي أصيبت بها كتب العرب من إحراف وإغراق وتعزيق وتفرق . ومع هذا فإن هذه المادحة الصالحة التي تلقفها الغربيون من أسفارنا بعد زمن نهضتهم ، قد أحبت معلم حضارتنا ، ولو لا عنايهم باللغة لضاع أكثر ما أبقيته الأيام لنا ، لأن ما حفظ من كتبنا في بلاد الغرب الأفعى والأذني ومصر والشام والمراق والجاز واليمن والهند وفارس وبخارى والاستانة وغيرها هو بقايا ضئيلة من تلك التركة العظيمة .

توفر المستعربون على طبع ما ظفروا به من كتبنا ورأوا مصلحة للعلم والآداب أو لسياسة والاستعمار غرضًا في إيجابه قبل غيره ، وقاموا طبعوا كتاباً أو رسالة إلا عن فكر ولقصد ، موفرین المناية بعمرضة النسخ بنسخ مثالها ، والرجوع إلى المكان المأقول عنها ، يجعلون ذلك في المواصل ، ويحشوها بالفوائد والاستدراكات واللاحظات وحل المشاكل والمفردات . وكانوا يكتبونها لأول الأمر باللاتينية لغة العلم عندهم ، ثم أخذ كل واحد يكتبها بلغته أي لغة الناشر ، ويفردون لكل كتاب فرساً بل فارس الإعلام من البلدان والجبل والأنهار والطرق والجسور والجواجم والمدارس والشوارع والdroob والأبواب والأسواق والأشخاص والقبائل والأمم وهذه الجريدة أدنى إلى أن تكون فاتحة غير مستوفاة لأن بلاد الغرب

وثر (ولين) الفلاندي حائمة ابن الفارض «أوميض برق بالاً بيرق لاحا» مع شرح عبد الغني النابلسي عليها .

وثر (فلوكويست) الفلاندي المغربي في حل المغرب لابن معيد . وثر (غولدزبير) المجري كتاب المغاربة لاسجستانى وفضائع الباطنية لغزالى وكتاب مهدي الوحدى محمد بن تومرت وديوان الخطيبة جرول بن أوس ومعانى النفس ومقالة لكاتب إسرائيلي في أمماء الله الحسنى وصفاته تعالى .

### الرايبرك والسوبر ونوج :

ثر (مهرن) الدانمركي عجائب البر والبحر لشيخ الربوة وعدة تأليف لابن سينا منها رسائل حي بن يقطان ورسالة في أمراء الحكمة المشرقية .

وثر (تورنبرغ) السويدي تاريخ الكامل لابن الأثير والأنويس المغارب لابن أبي ذرع القمي .

و (كرلولندرغ) السويدي الفتح القسي في الفتح القديمي لمجاد الدين الأصحابي وديوان زهير بن أبي سلمى لعلام الشنتمري .

وثر (مورج) السويدي درج الغرر ودرج الدرر للميكالي .

و (فيبرغ) ثلاث رسائل لابن عربى وهي إنشاء الدواائر وعقلة المستوفى والتدييرات الالهية وكتاب اليهجة ل Ibrahim الشبستري والانتصار في الرد على ابن الرواندى .

وثر (بروخ) المفصل لازخشري .

و (سترسين) السويدي تاريخ ملاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائهم مغلطاي وقطعه من كتاب تهذيب اللغة للازهري .

### المقدمة :

هذا بعض ما أحباه علماء المشرقيات في الغرب من أسفار أجدادنا ، وهذه الجريدة أدنى إلى أن تكون فاتحة غير مستوفاة لأن بلاد الغرب

وأسماء الكتب التي وردت في متن الكتاب ، ويشتملها بفهرس القوافي والأمثال وأيام العرب إن كان السفر من كتب الشعر والأدب ، وبفهرس المفردات إن كان الكتاب في اللغة والطب والهندسة والطبيعة والحكمة والجغرافية والفلكلور والنبات إلى غير ذلك مما يحجز الارتفاع من مطبوعاتهم وبقرب متنها على الطالب . وقد ينشرون الأصل من كتاب وينقلونه إلى لغة من لغاتهم أو يقدمون له مقدمة فيها من إيا الكتاب وما يمكن أن يستفيد منه العلم الآن وكم من مقدمة حملت روح الكتاب وأرواحاً جديدة مع روحه .

وكل ما طبعه أولئك الأعلام به عن صير طباعي فيه ، ودؤوب غريب ، وأمانة يصفق لها ، وتحري لحق ، وتحرج من التلفيق ، حتى غدت مطبوعاتهم إلا ما قدر منها مثال النظر البليغ ، والطبع الجميل ، وأكبر معوان على المراجحة والمطالعة والارتفاع بالكتاب حق الارتفاع . وكم من كتاب عظيم ظهر في الشرق غالباً من الفهارس التي تقرب متناه فما هو إن نقل إلى الغرب حتى تصدى بعض علمائه ووضموا له الفهارس ليتم الارتفاع به ، كما فعلوا بكتاب الأغاني وأعمال القالي وغيرها . وعلى العكس رأينا بعض الغالبيين في الشرق من استحلوا انتقال طبعات علماء المشرقيات من الغربيين ، فأعادوا طبعها في شناعة صورة معراة من حواشيه وفهارسها ، ولم يذكروا كلة واحدة في نسبة الكتاب إلى طابعه الأول ، بل محبيه من العدم وصاحب الفضل لا يذكر في إخراجيه للناس .

نعم يصدر المستشرقون الكتب العربية على عجمتهم صلبة من الشوائب في الجلة ، ونحن على عربتنا قد نرتكب في إحياء كتبنا أغلاطًا فظيعة ، ذلك لأننا نحاول أن نعمل شهر في يوم ، وأن لا نتعب أنفسنا في البحث والتفكير ، فإذا في عملنا خداعاً قبل أوانه ، وب يأتي عملهم تام التراكيب ، مشبعاً بالتحقيق والتمحيص ، فنحن نخدع وهم ينضجون .

ومع هذا نرى بعض المنحدراتين منا يرمون المستعربين بعدم الفهم ، إذا ظفروا لهم بطلعات معدودة في كتاب طبعوه . وهم لو ألقوا إليهم الأصل الذي طبع عنه المستعربون لارتکبوا أخطافاً أغلاطهم ، وربما تذر عليهم الاهتمام إلى وجه الصواب في المقل والنشر ، ويقال من يعجز هؤلاء الانعاجم ، وبذكرا لهم هنات قليلة غالباً الطرف عن سلسلة حسانهم : هيا اقتنا بتأليف كتبآ لهم التي يحبونها . ونحن نتسامح ، مك في عدد المفوادات التي تسقط فيها . الارتفاع سهل ولكن الصعوبة في الإبداع والإيجاد . وينتقد بعض من نظروا في الكتب التي طبعها المستعربون أن حروفها

العربية ليست من مجال المندام على مثال حروف المطابع في مصر والشام والاستانة ، ولهم بعض الحق في ذلك لأن الطابعين هناك اعتمدوا على هذه الحروف التي هي أشبه بالقاعدة المغربية ، وبها طبعوا معظم ما طبعوه منذ القرن السادس عشر ، على أن بعض مطابع إنكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والسويد أخذت في المهد الآخر تبدل الأهمات القديمة بأهمات من الحروف الجديدة على القاعدة الإسلامية وغيرها ، فأخذت مطبوعاتهم تخرج علينا بهذا الضرب من الحروف المشرقية . وكيف كان الحال فالسميد في نظرنا من يتهيأ له اقتناه حزانة من هذه المطبوعات العربية في الديار الغربية ، لأنها نادرة لغة ما يطبع منها ، وبعد الزمن الذي قضى بنفادها ، وما ن الحال المستعربين ارتفوا في عدد ما يخرجون منها عن بعض مئات ، وأعلمهم يجمعون بعد الآن إلى هذا المقصد العلمي المقصد التجاري أيضاً ، فيكترون من عدد النسخ المطبوعة ليشترك العربي في اقتناه كث أحداده ، وتم الفائدة وينجو المستعربون بعض الشيء من استحلال بعض

الطابعين سرقـة كتبـهم وطبعـتهم في بعض بلـادـ الشرق . وبعد ما يـرحـ العـارـفـونـ منـا يـقدـرونـ عملـ المستـعربـينـ قـدرـهـ ، بلـ يـعـجـبونـ بهـ وـيـمـجدـونـهـ ، قالـ ليـ أـسـنـادـيـ عـلـامـةـ الشـامـ الشـيخـ طـاهرـ الجـائزـيـ : أـلـيـسـ مـنـ الـفـرـبـ أـنـ يـكـوـنـ تـفـسـيرـ القـاضـيـ الـبـيـضاـويـ المـطـبـوعـ فـيـ الـمـاـيـاـ

أصح من الطبعة التي طبعت في الاستانة؟ وسمعت أستاذى الشيخ محمد المبارك يقول : لاحظت مع الحاعة الذين نجتمع وإياهم على قراءة سيرة ابن هشام إن الطابع الأفرينجي عُيّ بطبعها وخدمها أكثر من عناية المصححين لما في المطبعة الاميرية في مصر اهـ .

وهذا من عجيب تدقيق علماء المشرقيات وسلامة نظرهم ، يحسنون طبع تفسير قرآتنا وسيرة رسولنا أكثر مما نحسنتها ، على حين نحن لم نحرص في كل عصر على شيء حرصنا على علوم الدين ومقوماته ، وأغفلنا ما عداها من العلوم إلا قليلاً . لا جرم أننا لم نصل إلى اليوم في مصر والشام إلى محاكاة الغربيين في باب العناية بطبع كتبنا ونشرها سلبياً مقبولة رتاح النفس إليها ويعول المحققون في تأليفهم عليها .

لولا عناية المستعربين بإحياء آثارنا لما انتهت إلينا تلك الدرر التعبينة التي أخذناها من طبقات الصحابة وطبقات الحفاظ ومعجم البلدان ومعجم الأدباء ومعجم ما استعجم وفتح البلدان وفهرست ابن النديم ومفاتيح العلوم وطبقات الأطباء وأخبار الحكماء والمقدسي والاصطخري وابن حوقل والمحداني وشيخ الروبة وابن جبير وابن بطوطة إلى عشرات من كتب الحغرافية والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي وبها وقفنا على درجة حضارتها . لولا إحيائهم تاريخ ابن جرير وابن الأثير وأبي الفداء واليعقوبي والدينوري والسمودي وأبي شامة وابن الطفطاق وجزء الأصفهاني وأمثالهم لجهلنا تاريخنا الصحيح وأصبحنا في عمالة من أمرنا . ولو جئنا بعدد حسانات دواوين الشعر وكتب الأدب والعلم التي أحبوها اطالينا المطالق في الذي أوردناه من إسهامها فيها ساف غيبة ، والقصد بيان تلك المزايا ، والاشادة بالآباء البيضاء التي أسدها القوم لآدابنا . أعلى دي ساسي ودي سلان ورينو وفليشر ووستنفيلد وفلوغل وفريتاغ ومولر وسخاو آلورد ودوزي ودي خوي وجوبنيل و هوتنا وفان فلوتن دليس وريت واميروز ومرجليلوت وبيبر وبفن ولايل ومكراتي وجويدي

ونالينو وكودرا وريبرا وغولد صير وكر كان وروزن وغوتولد وتورنبرغ ومن تيهم ومثى على أنهم من طبعوا الاتهامات أو طبعت تحت لفازهم وبتحقيقهم — هؤلاء الرجال أعلوا مقام المشرقيات في الغرب . فإن طفل كل واحد منهم بما ذكر كفضل المؤلف في تأليفه وقد لا يكون التأليف من الصموبة بالمكان الذي يقع فيه من محاول إحياء تأليفه بعد أن تماورته الناسخ بالمسخ والتحريف . ومصداقه الاخذ من المخطوطات القديمة لا يشعر بها كل الشعور إلا من أصيب بها ، فإن منها المهم الذي لا إعجام في حروفه ومنها المشبك ومنها الخرى الممشي بأ شيئاً تزيد البلاء في استثنات ما قاله المؤلف الأصلي . وأعظم الخطوب في ذلك أن يتسع الناسخ مالا يفهم معناه ولا بناء وهناك البلية كل البلية .

فاحياء الأسفار على هذه الصورة فيما ذكر تأليف وزراعة ، ووستنفيلد وفليشر وفلوغل ودوزي ودي خوي وريت ومرجليلوت وتورنبرغ وسخاو مثلاً بإحياءهم عشرات من كتبناهم من أعظم المحسنين لآدابنا . واستاذ كرم وند ذكر رفاقهم مهباً قل ” عملهم في نظر المتشدقين إلا بالرحمة والاعظام ، ونعدهم أساذذنا في نشر الكتب والتأليف والتفقد ، فعلى الأموات منهم الرحمة وعلى الآباء السلام .

\*\*\*

- هذه أسماء المصادر التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا الفصل :
- (١) تاريخ علماء المشرقيات في أوروبا من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر لدواكا (بالفرنسية) . (٢) تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر للاطب لويس شيخو . (٣) أكتفأه القنوع بما هو مطبوع للدكتور أدوار فنديك . (٤) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان . (٥) غرائب الغرب لحمد كرد علي . (٦) مجلة المشرق . (٧) مجلة المقتبس . (٨) مجلة المجتمع العلمي العربي . (٩) المجلة الآسيوية الباريزية . (١٠) مجلة العالم الإسلامي الباريزية . (١١) مجلة الدروس الشرقية الإيطالية .

## نهضة العرب العالية في القرن الأخير

لذمته شكب أرسلان

نمبرس:

لقد تكلمتا منذ أيام في النادي العربي عن نهضة العرب السياسية وسيرهم في طريق الاتحاد فيما بينهم اقتداءً بغيرهم من الأمم الأخرى كن مفككـات مبعثرات ، فما زلن يسعون في الانضمام إلى أن أصبحـن كتلة واحدة . ونحن نتكلم الآن عن نهضة العرب العالية التي هي في الواقع أساس النهضة السياسية مختارين لهذه الحاضرة مكان المجتمع العلمي الذي هو المنبر الطبيعي للمباحث العلمية كما احترنا النادي العربي منبراً لـ الكلام عن الوحدة العربية التي هي من مباحثـه ، وإنـما كان الفرق بين الباحثـين أنـ الواحد منها سياسـي صرـف لا يجوز الخوض فيه إلاـ بالقدر الذي تسمـح به المـصاحـة ، وأنـ الآخر علمـي يـبحثـ يـقدرـ أنـ يستـقصـيـ فيـهـ المـباحثـ ماـشـاءـ دونـ أنـ يتـعرضـ لـخدـورـ أوـ يـعرـضـ أـمـتهـ لـضرـرـ ، وبـهـذهـ المـناـسبةـ أـعـلـنـ آـسـفـ بلـ جـدـ آـسـفـ منـ أـرـىـ بـعـضـ أـخـوـانـاـ مـعـقـدـيـنـ انـ الـآنـانـ إـذـ حـاضـرـ فـيـ بـابـ السـيـاسـةـ وـجـبـ عـلـيـهـ أـنـ يـفـرـغـ جـمعـتـهـ مـنـ أـولـهـاـ إـلـىـ آخرـهاـ ، وـأـنـ يـجـهـرـ بـكـلـ مـاـ يـدـورـ فـيـ خـلـدـهـ كـلـ لـوـ حـاضـرـ فـيـ بـابـ الـعلمـ ، فـهـذـاـ لـاشـكـ مـذـهـبـ مـنـ يـسـمـيـهـ الـافـرنـجـ «ـبـالـولـدـ الـهـائـلـ»ـ وـمـنـ لـيـسـ فـيـ الـوـاقـعـ جـدـيرـاـ بـاـنـ يـطـرـقـ بـابـ السـيـاسـةـ أـصـلـاـ بلـ بـيـنـ هـذـاـ وـالـسـيـاسـةـ مـاـ بـيـنـ الـمـشـرـقـ وـالـمـغـربـ ، فـنـحـنـ لـأـرـضـيـ أـنـ نـكـوـنـ مـنـ الـأـطـفـالـ الـهـائـلـيـنـ وـلـاـ مـنـ الـذـيـنـ لـأـيـعـرـفـوتـ إـلـىـ أـنـ يـذـهـبـ الـكـامـ ، بلـ نـحـنـ وـلـهـ الـحمدـ مـنـ أـمـةـ اـشـهـرـ بـالـمـرـوـنةـ وـالـدـهـاءـ وـسـرـعـةـ الـلـاحـظـ وـقـدـ جـاءـ فـيـ أـمـيـالـهـاـ :ـ الـلـيـبـيـ مـنـ

الإشارة يفهم ، ولقد كان هادـهاـ الأـعـظـمـ (ـعـلـيـهـ)ـ إـذـ أـرـادـ غـزـوـةـ وـرـىـ بـغـيرـهـاـ ، وـمـنـ الـذـيـ يـقـولـ :

وـمـنـ لـمـ يـصـانـعـ فـيـ أـمـورـ كـثـيرـ يـضـرـسـ بـأـسـابـ وـبـوـطاـ بـعـضـ وـقـائـلـ هـذـاـ الـبـيـتـ هـوـ الـذـيـ قـالـ فـيـ سـيـدـنـاـ عـمـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ أـنـ أـشـعـرـ الـعـربـ لـقـولـهـ :ـ وـمـنـ وـمـنـ ،ـ ثـمـ أـبـداـ بـالـكـلامـ عـنـ نـهـضـةـ الـعـربـ الـعـلـيـةـ فـأـقـولـ :

مـنـدـ عـشـرـ سـنـوـاتـ (ـأـيـ سـنـةـ ١٩٢٧ـ)ـ اـفـتـرـجـ عـلـيـ الطـيـبـ الـذـكـرـ الـأـسـنـادـ بـعـقوـبـ صـرـوفـ صـاحـبـ مـجـلـةـ الـمـقـطـفـ الـذـيـ اـتـهـتـ إـلـيـ رـئـاسـةـ الـمـجـلـاتـ الـعـلـيـةـ أـنـ أـكـتـبـ إـلـىـ الـمـقـطـفـ شـيـئـاـ فـيـ مـوـضـعـ الـنـهـضـةـ الـشـرـقـيـةـ فـيـ هـذـهـ الـخـلـقـيـنـ سـنـةـ الـاـخـيـرـ ،ـ فـكـتـبـ يـوـمـئـذـ فـصـلـاـ ظـهـرـ فـيـ أـجـزـاءـ الـمـقـطـفـ مـنـ تـلـكـ الـسـنـةـ وـرـاـقـ الـعـلـامـ الـمـشارـ إـلـيـهـ كـثـيرـاـ وـقـدـ يـدـأـنـهـ بـعـاـ يـلـيـ :

لـاـحـاجـةـ بـنـاـ إـلـىـ القـوـلـ بـأـنـ أـجـلـ بـجـالـيـ هـذـهـ الـنـهـضـةـ كـانـ فـيـ الـعـلـمـ وـالـتـعـلـيمـ ،ـ وـعـنـدـيـ أـنـ لـأـنـهـ لـأـنـهـ لـلـأـمـ سـوـيـ الـنـهـضـةـ الـعـلـيـةـ فـاـذاـ وـجـدـ هـذـهـ جـامـنـ سـاـئـرـ الـنـهـضـاتـ مـنـ سـيـاسـيـ وـعـسـكـرـيـ وـاجـتمـاعـيـ وـاـقـتـصـادـيـ الخـ ...ـ آـخـذـاـ بـعـضـهـاـ بـرـقـابـ بـعـضـ .ـ فـاـذاـ قـلـنـاـ إـنـ الـشـرـقـ الـأـدـنـىـ نـهـضـ نـهـضـ عـلـيـةـ كـفـيـنـ تـهـدـادـ سـاـئـرـ مـظـاهـرـ نـهـضـهـ وـمـعـارـجـ رـقـيـهـ ،ـ لـاـنـ الـعـلـمـ وـحـدهـ هـوـ الـمـفـاتـحـ وـبـهـ وـحـدهـ الدـخـولـ إـلـىـ دـاخـلـ الـبـيـانـ ،ـ وـكـلـ نـهـضـةـ لـاـ يـكـوـنـ ظـهـيرـهـاـ الـعـلـمـ هـاـ هـيـ إـلـاـسـاعـةـ وـتـضـمـحـلـ ؟ـ وـقـدـ يـقـالـ إـنـ نـهـضـةـ شـرـقـاـ هـذـهـ ضـيـلـةـ لـاـ تـسـتـحقـ إـنـ تـذـكـرـ بـالـقـيـاسـ إـلـىـ مـعـالـيـ الـأـمـ الرـاقـيـةـ ،ـ وـاـنـاـ لـاـ يـنـجـرـ مـتـخـلـفـينـ بـعـاـوفـ شـاسـعـةـ عـنـ أـمـدـ أـورـبـةـ وـأـمـيرـكـةـ وـالـيـابـانـ ،ـ فـلـاـذـاـ نـشـفـلـ أـنـفـسـنـاـ بـمـاـ لـاـ يـشـغـلـ حـيـزاـًـ فـيـ التـارـيـخـ الـأـمـ ؟ـ وـعـلـىـ هـذـاـ نـجـاـوبـ أـنـهـ أـيـسـ الـعـلـمـ مـتـعـلـقاـ بـالـكـلـاـلـ وـحـدهـ ،ـ وـلـاـ بـحـثـ وـقـوـفـاـ دـائـعاـ عـلـىـ مـاـ يـهـرـ النـبـيـ وـبـلـغـ سـدـرـ الـمـتـهـيـ ،ـ وـإـنـماـ الـعـلـمـ هـوـ مـاـ تـنـاـوـلـ الـدـرـجـاتـ كـلـاـ الـدـنـيـاـ مـنـاـ وـالـقـصـوـيـ ،ـ وـالـبـحـثـ هـوـ الـذـيـ بـهـ تـوزـنـ مـقـادـيرـ الـأـشـيـاءـ ،ـ وـتـحدـدـ نـسـبةـ بـعـضـهـاـ إـلـىـ بـعـضـ وـنـهـيـتـاـ إـلـىـ الـوقـتـ ،ـ ثـمـ إـذـاـ إـذـاـ تـحـرـيـنـاـ الـحـقـيـقـةـ وـجـدـنـاـ الـشـرـقـ الـعـرـبـ قدـ اـجـتـازـ فـيـ عـاـ(٢)

هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة مالم يهيا لأوربة أن تجتازه قيلاً في أطول جداً من هذا الردح من الدهر ، وذلك أنه من الطبيعي أن يصل على المتأخر ملا يسهل على المتقدم ، لأن المتقدم قد يضطر أن يهدى الطريق ويسير ، وأما المتأخر فما عليه إلا أن يلحقه ويسير على طريق مدلل أمامه .

### محمد على الكبير مؤسس الترجمة :

فانهضة الشرقية العربية — نسجها بالعربي إخراجاً لما سواها من تهضات الشرق كنهضة اليابان والصين في الشرق الآدنى بمحاذئنا — قد بدأت في الواقع منذ أكثر من مائة سنة لمهد محمد علي عزيز مصر فهو أول من لاحظ الخطير الحائق على جراءه جوده على أساليب العمran القدعة وحمل أصب عنده حدياً الغرب في أساليبه الجديدة حتى يتألق للشرق أن يقاتل الغرب بسلاحه ويدفعه عنه ويستقل بنفسه ، إذ كانت سنة الله منذ وجد العمran على سطح هذه الكرة أنه كما تقوى جانب منها سطا على الآخر واجتاحه وضرب عليه الذلة والمسكنة .

محمد علي هو المؤسس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية ليس بوادي النيل لحسب بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدمتها سوريا ، وأول ما استنقش السوريون ريح الحضارة الحديثة إنما كان في زمن محمد علي وفي زمن غزاوه ولده إبراهيم باشا للشام ، ثم انكفأ إبراهيم باشا إلى مصر سنة ١٨٤٠ وبقيت في سوريا آثار الانتباه وتزعع التجدد ، وجد السوريون لاسيما أهل الساحل منهم ينشدون أسباب المدنية الغربية لما رأوا فيها من القوة والرفاهية ، وأن المرسلون الأميركيون هذا الاستبداد في أهل سوريا فأسسوا في بيروت كلية لهم الشهيرة التي كانت النبراس الأول الذي استضافت به سوريا ، ولا زال هذا النبراس يزهو في آفاق الشرق إلى يومنا هذا . ورأى أمم أخرى ( كالفرنسيين والإنجليز والطليان والروس )

### شبيب أرسلان

٣٥

ان أرض سورية قابلة جداً لإذور المدارف فيثروا بها المدارس والكتابات وكل ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسام ، في بيروت والحق يقال إنزع زرع العلم العصري وأخرج شطأه ثم أنت في جميع الشامات ثم فيما جاورها واستفحل واستوى على سوقه يعجب حتى الزراع الأوروبيين أنفسهم ، واضطربت الدولة العثمانية أن تفتح المكاتب الرشدية والإعدادية في سوريا ، وان تقبل كثيرين من شبابها في مكاتبها المالية في القسطنطينية فتخرج فيها ألف من الناشئة منهم من تقلدوا مناصب ملكية او عدالية ، ومنهم أطباء وصيادلة ، ومنهم ضباط يغزوا في الفتوت العسكرية وامتنعوا بين الأقران ، ان ضباط العرب في العراق وسوريا واليمن كالم من تخرج في مكتب (بانغاتي) في الاستانة ، وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال .

ومع أن النهضة العلمية في مصر لم يكن الأصل فيها لا الكلية الأمريكية ولا الكلية اليهودية في بيروت ولا مكتب الدولة في الاستانة ، لا يذكر أن مصر كانت ميداناً لجهاد القرائع السورية ، وأن أبناء الدين تخرجوا في بيروت إنما ظهروا واشهروا وتكلفت قناديلهم بمصر ؟ هذا كما أن مصر على الشام فضل تخرج عدد لا يحصر من أبناء هذه في العلوم اللغوية والشرعية بالجامع الأزهر وتخرج عد كبير من أطباء سوريا بالقصر العيني ، مما زال كل من القطرين المصري والشامي يشدوا الواحد منها الآخر في كل ضرب من ضروب الرقي المعلى ، وقولها جد في أحد هما شيء إلا سمعت رجع صدأه في الآخر . على أن النهضة الشرقية العربية وإن كان قد ذر قرنها منذ قرن فأكثر لم تسر هذا السير الخبيث إلا في الخمسين سنة الأخيرة التي شهدتها كتاب هذه الأحرف بجميع صفحاتها ، وذلك لأنني بدأت بالكتابة في الصحف وعراقة الحركة العلمية في بيروتها من سنة متواتلة ، فلي الحق إذاً بأن أدعى معرفة تاريخ هذه النهضة ٢٥ وما دخل فيه من التطورات على قدر ما يستطيع خادم أمين العلم زاول عمله في مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة دون أن يختلف يوماً واحداً .

الصواف :

لا زاع في أن الصحافة العربية قد كانت من أقوى عوامل هذه النهضة بما أثارته من الحركة الفكرية ونقلت من أخبار الغرب الناهض إلى أهل الشرق النائم ، وقد كان بحسب معلوماني ، وربماً كون مخططاً في بعضها ، أول جريدة عربية صدرت في الشرق جريدة الواقع المصرية بعد محمد علي ، ولكن بقيت سورية مدة طويلة لا تصدر فيها جريدة ، ويقال إن أول جريدة صدرت في بلادنا هي جريدة « حدائق الاخبار » أنشأها خليل افندى الخوري من شعراً ليبان في وقته وذلك سنة ١٧٦٠ ، ثم أصدر المعلم بطرس البستاني الشهير نشرات وطنية في بيروت لذلك المهد ، ولم يثبت أن نشر جريدة أسبوعية باسم الجننة ، ثم جريدة يومية باسم الجنينة ثم مجلة شهرية باسم الجنان ، وقد التزم بهذه المادة في التسمية لمناسبة مع اسمه « البستاني » وكان اليهوديون قد أصدروا في بيروت جريدة باسم البشير تقلب عليها المباحث الدينية الكاثوليكية ، ثم أصدر القس لويس الصابوتحي جريدة النحلة ، وأصدر غيره جريدة اسمها التجاج ، وأصدر الأميركيون جريدة اسمها النشرة الأسبوعية ، ثم تحرك المسلمون فأصدروا جريدة سوها نمرات الفتوح ، وكانت تصدر بإدارة الشيخ عبد القادر القباني ، وقد تولى تحريرها في البداية العلامة الشيخ يوسف الأسيئ ثم خلفه عليها العلامة الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي ، وهذا كله كان بين ١٨٦٠ و ١٨٨٠ أي في مدة عشرين سنة ، فوجدت في بيروت في ذلك المهد عدة مطابع ، وصارت تطبع الكتب العربية بعد أن كان طبع الكتب العربية منحصرًا في مطبعة بولاق المصرية وغيرها من مطابع مصر ، وكانت قد صدرت في الاستانة في أيام الحرب القرم سنة ١٨٥٥ جريدة مرآة الاحوال وذلك بأمر الدولة وتولى تحريرها رزق الله حسون الكاتب الشهير ، وقد وقعت إلى عدد نسخ كانت باقية عندنا من تلك

الجريدة فيها أخبار حرب القرم وغيرها من الاخبار ، وما أذكر أنه كان عند ذكر خديوي مصر يلقبه بسعادة عزيز مصر ، وأظن ان جريدة مرآة الاحوال هذه هي الجريدة العربية الثانية بعد تقويم الواقع المصرية ، وقد بقيت تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية عدة سنوات إلى أن فر رزق الله حسون من الاستانة إلى اوربة على اثر حادثة جرت معه ، وقيل فيها انه اختلس مالاً للدولة فلاذ بالفرار ، وكان فارس أحد فارس الشدياق في باريس قدم إلى الاستانة وأنشأ جريدة « الجواب » المشهورة وكانت في وقتها أشهر جريدة عربية في العالم ، وكان لها مشتركون في جميع الأفطار الاسلامية ، لظراً لبراعة كاتها أحد فارس المعدود من أكبر كتاب الفرون الأخيرة ؛ وأما رزق الله حسون فيبعد أن فر إلى اوربة نشر كتاباً تحت عنوان « النفحات » نال فيه من الدولة العثمانية ، ومن صاحب الجواب ، فأشار هذا إلى كتاب النفحات بقوله : « كان حسون لصاً وله سرقات ، فاقلب صلاً وله نفحات ، وأظنتي غير مخلصي » اذا قلت انه لذلك المهد أو بعده بقليل ظهرت جريدة في تونس اسمها « الرأي التونسي » وظهرت جريدة أخرى في مصر باسم وادي النيل ، وربما يكون قد صدر في مصر جرائد أخرى لم أسمع بها ، ولست عالماً في هذه المجالة الااحاطة بامحاجها جميع الجرائد العربية التي صدرت وتاريخ صدورها ، إنما أنا أذكر الآن أشهرها على سبيل التمثال وأقول : انه لما انتشرت جريدة الجواب وكان من عوامل النهضة العربية الادبية ، وسار صاحبها بطبع في الاستانة من احمد فارس من علم اللغة وبراعة الانشاء وسعة المدارك كانت عاملاً قوياً نفائس الكتب العربية التي كانت مجده ، والتي اطلع عليها في خزانة كتب القسطنطينية ما أعجب به العالم العربي كلها لا سيما انه نشرها بالطبع الجليل ، وربما كانت خدمته لثقافة العربية بهذه المطبوعات في الدرجة الثانية عن خدمة مطبعة بولاق ، واني قد أدرك ، وانا ابن ثلات عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، عبد احمد فارس في أواخر عمره

٣٩

## شكيب أرسلان

وكان اليهوديون قد أنشأوا السكاكية (اليسوعية) مناظرة للكتابة الأمريكية؛ وكان في لبنان مدرسة فرنسية في كروان يقال لها : (مدرسة عينطورة) انتفع منها كثير من اشتهروا في اتقان اللغة الفرنسية ، ثم شرع أساقفة الموارنة يؤسسون مدارس لابناء طائفتهم فكانت مدرسة (قرنة شهوان) ومدرسة (غزير) لبني ذوي ومدارس أخرى متعددة ، وقد كان الموارنة من قبل هذا مدارس قديمة أكاديميكية مثل مدرسة عين ورفة ومدرسة مار عبدا هريرا ومدرسة مار بوجنا مارون ، وكان للكاثوليك مدرسة في الشوير ، وقد اطلعت على مطبوعات قدحه ترجع إلى منه سنة أو أكثر جرى طبعها في كروان بطبع لموارنة منها مطبعة دير سيدة طالبيش ، وكان الموارنة من القديم يطبعون بالعربية والسريانية .

ولا يجوز أن ننسى المدرسة التي قام بأنشئتها الأمير ملجم أرسلان بمساعدة سعيد بك تلحوظ لطائفة الدروز في قرية عبة ، فقد كانت من أقدم مدارس لبنان يرجع تأسيسها إلى سنة ١٨٦٢ .

وكانت تقبل الطلبة بجانب لاعتدادها في تقاضاً على الاوقاف التي أخلفها بها الأمير المشار إليه ، ولما تولى قائم مقامية الشوف ابن عمه الأمير مصطفى زاد الاعتناء بها وانتدب لها من الاساندات مثل الملاحة الشيخ أحمد عباس البشري وأمثاله ، وهي هي نفس المدرسة التي يشرف على إدارتها الآن الاستاذ عارف التكدي مدير المدرسة في الدولة السورية بما اشتهر به من الدراسة واللامانة وعلو المهمة .

ثم يقول : إنه كان ازيد عدد الجرائد متساوياً مع ازيد عدد المدارس فظهرت في بيروت بعد الجرائد المتقدمة ذكرها جريدة لسان الحال لصاحبها خليل سركيس وجريدة التقدم التي كان يتولى تحريرها أديب اسحق الكاتب المشهور في وقته ، وجريدة المصباح التي أنشأها المياران يوسف الدين مؤسس مدرسة الحكمة ، وعبد بإدارتها وتحريرها إلى تقولا أندري النشاشي من أعضاء مجلس الأمة العثماني ، وإلى بولن زين من أدباء الموارنة ، وكانت

وكان لا زال ، وقد يلغى من العمر علينا ، يخدم هذه اللغة الشريفة التي كان من أعلامها ، ومن شأنه أن يعلم مدى براعة أحمد فارس وبلغ بلاه في سهل اللغة العربية والوطن العربي ، فليراجع بمجموعه كنز الرغائب في منتخبات الجواب في كتاب يحتوي على سبعة مجلدات لا يمكن أن يستغني عنه من أراد الاطلاع على الحركة العلمية العربية والحركة السياسية العالمية بين ١٧٦٠ - ١٨٨٠ .

## الحركة العلمية :

وأنعد إلى سير الحركة العلمية في سوريا فنقول : انه إلى حد سنة ١٨٨٠ كانت الجرائد منحصرة في بيروت لا تتعادها إلى غيرها من مدن سوريا ، ولم يكن في دمشق سوى جريدة رسمية للولاية باسم (سوريا) وبعد ذلك أصدر مصطفى واصف جريدة اسمها (الشام) ، وبعده أصدر الاستاذ كرد علي جريدة سياسية في دمشق اسمها (المقتبس) ، وكذلك كانت جريدة رسمية لولاية حلب باسم (الفرات) ، وكل من جريديتي سوريا والفرات كان نصفها بالعربي والنصف الآخر بالعربي وقلما كانت تنشر شيئاً خارجاً عن الاخبار الرسمية . وكانت في بغداد جريدة رسمية اسمها (الزوراء) على هذا النمط أيضاً . وأما بيروت فكانت لا تزال على تقدمها في طريق العلم والعرفان ، وأول مدرسة داخلية في بيروت كانت المدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني ثم أخذت كل طائفة من الطوائف المختلفة التي في ساحل سوريا تؤسس مدرسة داخلية في بيروت ، فكانت للروم الكاثوليك مدرسة يقال لها (البطاريكية) والموارنة مدرسة يقال لها (الحكمة) والمسلمين مدرسة يقال لها المدرسة (السلطانية) تولى إدارتها مدة من الزمن العلامة الشيخ حسين العطراويي صاحب الرسالة الجديدة في التأليف بين العلم والدين ، وكانت اليهود أيضاً أسروا مدرسة داخلية باسم المدرسة (الإسرائيلية) كان يديرها زاكي كوهين .

مجلة المقتطف قد صدرت في بيروت لصاحبيها العلامة الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر ومن أول نشأتها كانت مجلة راقية حافلة بالفوائد العلمية والصناعية والتاريخية واللغوية .

وما لا جدال فيه أن المقتطف أثرأ بلغاً في عموم النهضة العربية ولا يُذكر إلا كل مكار — ومن مداعي العلامة الشهير صروف ونمر تأسيس بجمع علمي في بيروت سعوه المجتمع العلمي الشرقي قد ضم نخبة العلماء والأدباء الذين كان يشار إليهم بالبنان ، ولم يكن هذا المجتمع أول مجتمع في بيروت بل قد سبقه جمعية علمية تأسست قبل ذلك ب نحو من عشرين سنة ، كان رئيسها الأمير محمد الأمين أرسلان ، وكان من أعضائها الشيخ يوسف الأسير والشيخ إبراهيم الأحدب والشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف والسيد حسين يعiem وسلم أفندي رمضان وغيرهم من علماء ذلك الوقت وأدبائه .

وفي نواحي سنة ١٨٨٤ فيما أذكر كان الشيخ عبد الحميد الخاني الأديب الدمشقي البارع جاء إلى بيروت فذكر مارآه فيها من الرقي الفكري وسرد أسماء جرائدتها نظماً فقال :

نمرات مقتطف الجنان بشيرها ببيان مصباح التقدم قائل<sup>(١)</sup>  
ظل المعرف وارف في أرض بيروت ورهط الفضل فيها قائل<sup>(٢)</sup>  
ثم أنشأ علي بك ناصر الدين مجلة اسمها الصفا، حارت فيما بعد جريدة  
سياسية ولا زالت إلى هذا اليوم قائمة حق القيام بخدمة العلم والآداب ،  
وقد كان لي فيها أول مقالة صدرت من قلمي وذلك سنة ١٨٨٥ ، وأصدر  
عبد القادر أفندي الدنا جريدة باسم بيروت كان يكتب فيها الاستاذ البليع  
السيد مرتفعي الجزائري ابن أخي المغفور له الأمير عبد القادر .

## ثمانون جريدة في سوريا :

ولكن عدد الجرائد لم يزدد هذا الإزدياد الواقع إلا بعد إعلان الدستور العثماني ، ومن قبله صدرت جريدة طرابلس التي كان ينشئها الشيخ حسين الحسن ، ولم يكن جريدة سواها تصدر في غير بيروت من مدن سوريا إلا أنه لما أُعلن الدستور العثماني وتقربت حرية الصحافةأخذت الجرائد تنتشر بسرعة عظيمة فلما نشب الحرب الكبرى كان ينشر في سوريا وفلسطين ثمانون جريدة موزعة بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا وبيافا والقدس ، وكانت تظهر في هذه البلاد مجلات شهرية وأسبوعية لا تقل عن بعض عشرة مجلة ، ولا نجد لزوماً لسد اتساع جميع هذه الجرائد وهذه المجالات . وهذا أول دليل على سرعة الرقي العلمي في سوريا ، وليس في الكلام أفسح من الأرقام ، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء ، ووفرة عدد القراء دليل على صدق عمل المدارس ، نعم إنه لا يزال عدد الأميين كثيراً في هذه البلاد وربما يبلغ مع الأسف ٦٠ بالمائة ، ولكن المظنون بحسب ما زاد من إقبال الأهلين على تعلم أبنائهم أنه لا يتضمن عشر سنوات حتى ينزل عدد الأميين إلى ٢٠ بالمائة . وقد كان في بيروت بعض عشرة مطبعة فتضاعف هذا العدد مرتين وثلاثة ، وتأسست مطابع كثيرة فيسائر المدن السورية ، وليس عمل هذه المطابع كله منحصراً في طبع الجرائد بل هي تقوم بطبع الكتب التي لا تطبع إلا إذا كان أصحاب المطابع يجدون لها عدداً كافياً من المشترين . وإن مكانة الصحافة الآن في سوريا ولبنان بالقياس إلى عدد أهلها لا تقل عن مكانة الصحافة في أوروبا ، فاما في مصر فما لا شك فيه أن الصحافة أرق منها في سوريا لأن ثروة مصر أعظم من ثروة سوريا بكثير ، وقد كان في آننا ثورة عربية باشا أبي سنة ١٨٨٢ بصدر في مصر بعض جرائد لغير منها الاهرام والطائف والمفيد وغيرها ، مما زال عدد الجرائد يرتفع إلى أن

تضاعف مراراً، وأن بعض جرائدتها اليومية تصدر بـ١٦٠ صفحات أو ست عشرة صفحة . ومنها جرائد مصورة كثيرة وربما أطبع الواحدة من جرائد مصر الكبيرى من ٣٠ إلى ٤٠ ألف نسخة وقد أكد لي أحد الاخباريين الاوربيين الذين يراسلون الاهرام من أمراء الجرائد المصرية أن هذه الجريدة لو وضعت في جانب صحف باريس في الانقان وسعة النعمات وكثرة القراء وكانت معاذلة لاحستها .

وما كانت الامثال أحسن مظاهر لحقائق الاشياء وأبلغ مؤثر في النفوس رأيت الآن ايراد مثال وقع معي ، وكانت قد ذكرته في مجلة المقططف ، ومنه يتبين الفرق الهائل بين حالة الصحافة في مصر منذ ٤٠ سنة وحالتها منذ عشرين سنة .

قلت في المقططف : اتي كنت زرت مصر سنة ١٨٩٠ ، وكنا نجتمع في مجلس الامام الشیخ محمد عبده ، وأكثر ما كنا نسمى عند سعد باشا زغول وهو يومئذ سعد أفندي زغول وكان من الحاميين المشهورين بصر ، وكان يتناب تلك الحلقة شيخ شيخة اسلمه الشیخ علي يوسف ، إذا أتي جلس في آخر المجلس ساكناً وبث أكثر المجلس مستعماً تکاد ترنى له لضففة ولمسكته ، وكان قد بدأ باصدار جريدة اسمها المؤيد كانت تظهر مرتبان بالاسبوع وهو يعجز أن يجعلها يومية إلا أن هذا الرجل على ضرورة جسمه كانت بادية عليه سهام المهمة والعزز فزرته مرة في مطبعة المؤيد فرأيته جالساً على مقعد رث لا يسع أكثر من ثلاثة جلوس بعضهم ملزوز إلى بعض ، وأمامه منتصدة بدون غطاء عليها من بقع الحبر ما يحول الناظر وهو يماج تحرير مقالاته في دخول العام المجري الجديد حينئذ ، ولا يعرف كيف يصوغها وكانت يحيى الغرفة غرفة ثانية فيها المطبعة ، وبين الغرفتين باب مفتوح وأنا من مكان جلوسي أرى منضدي الحروف من خلال ذلك الباب يصفون الحروف ، ثم أتيت الشیخ علياً في تعب زائد مع مقالته هذه عن الحول

الجديد ، وهو يكتب ويطلس ويجهو فقلت له : لو قلت كذا وكذا ... فأجابني : بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية فكتبتها أماماه ، هذا وبعد ٢٠ سنة من ذلك المهدجت إلى مصر .

### المؤيد نطبع . ٣٠ ألف عدد :

وأنا ذاهب إلى حرب طرابلس فإذا وجدت؟ وجدت جريدة المؤيد من أعظم الجرائد اليومية في مصر تطبع في كل يوم من ٢٠ إلى ٣٠ ألف نسخة ، ووجدت إدارة المؤيد تکاد تكون قصرًا من قصور الامراء فيها الزرافي المبنوّة والطناوش الحريرية الفاخرة بدلاً من ذلك المقدم الحقير ، عليه ذلك الغطا ، القديم من الشيت بدون حشوة ، ووجدت مطبعة بخارية من أكبر المطابع كان صاحب المؤيد اشتراها بخمسة آلاف جنيه ، مع أن تلك المطبعة القيمة التي رأيتها من قبل ما كانت لتساوي ١٠٠ جنيه .

ثم وجدت الشیخ علي يوسف نفسه من أکتب كتاب مصر وأسلوبه قلاماً ، فضلاً عن اني وجدته عيناً من أعيان مصر وأشهرهم ذكره ، ولم يغفل الشیخ عن أن يذكرني بزيارة الأولى عندما كان على تلك الحالة الرثة ، وأن يقابل بها حالة الترف التي رأته عليها يوم زيارة الثانية ، فهذا المثلل البارز كافٍ لقياس درجة الرقي الفكري في الشرق (١) .

### انهيار الصحافة في العالم العربي :

ولقد كانت الصحافة العربية فيما مضى منحصرة في القفارين المصري والشامي فصارت الآن منبعثة في جميع الأقطار العربية ، في العراق بضع عشرة جريدة وبجملة منها ما هو في البصرة ، وكذلك ظهرت جرائد في

(١) لا حاجة بنا الآن إلى برد أحباء الجرائد بالمعرفة الكثيرة ولا إلى مرد أحباء الجرائد السورية الصادر في دمشق وحلب وبيروت وقلطين ولا إلى ذكر الحالات الشهيرة كالقططاف والملاك والراحلة وأمثالها ، فإن الأعلام الشهيرة لا تعرف ولا تحتاج إلى تعریف .

شکیب ارسلان

10

في حارات على حدة ، وربما بنوا قرى منفردة لأنفسهم ، وذلك ليكونوا أحراراً في ممارسة عاداتهم التي كانت لهم في بلادهم الأصلية ، فإذا حصلت أعراس عندهم حسبتها واقمة في نفس سوريا ، مما فيها من الانغاريدي والانشيد والزغاريد وما يقال له في لبنان « التراويد » ، وقد حضرت في نيويورك عرس فوزي بك البريدي من زحلة ، وقد اجتمع فيه أبناء العرب مختلفون تفسي في زحلة أو في آية بلدة من ابناه وكذلك قيل لي انهم في الاماكن التي يسكن فيها السوريون على حدة يمارسون عاداتهم الأصلية بالمال تم فتندب النساء من جهة حول الميت ويندب الرجال من جهة أخرى ، وهو يذهبون ويحيثون وبأيديهم المندبلي يزورونها في المدواه وهي ما كان العرب يقولون له المالى واحدتها مثلاة ، إلا أن بقاء هذه الحالة عند السوريين المهاجرين لا يعدو العصر الحاضر ، لأن أعقابهم مع الأسف دائمون إلا ندر في الجنسية الأمريكية ، وقلما رأينا من ذرائهم المولودين في أمريكا من يعرف اللغة العربية لا سوا الذين أمتهن من هناك ، وقد عالج بعضهم هذه الحالة وحاولوا استبقاء اللغة العربية بين المولودين في أمريكا من أبنائهم ، وفتحوا مكاتب وكتابات علمت بوجود اثنين منها في ديترويت مشيغان ، وحدّثوني عن غيرها ولكن هذا العوز لا ينسد مع الأسف ببعضة كتابات ، فالسوريون الذين في أمريكا الشمالية يزيدون على ٤٠٠ ألف نسمة ، وهم في الأميريكتين جلباً أكثر من نصف مليون .

من نصف مليون . وقد قيل لي : إن أعلى المهاجرين العرب همّا من جهة الاحتفاظ بلغتهم هـ مهاجرو العرب في البرازيل الذين عندهم بحـلات راقية وجرائد مقيدة كما يوجد مثل ذلك في نيويورك ، ولم ينتصروا في البرازيل على بعض الكـتابـات لاستبقاء عروبة بـاـبـانـهـم ، بل أنسوا هناك لهذا الفرض مدارس عـالـية ، يدرس الطلبة فيها المرية الفصحـيـ في جانب اللغة البرـتـغـالية التي يـتكلـمـ بها أهل البرازيل ، أما إذا بـقـيـتـ أبوـابـ المـهاـجـرـةـ مـسـدـودـةـ

الحجاز قد كان أولها جريدة الفبلة في زمن الملك حسين ، وما استولى ابن سعود على الحجاز استبدل بها أم الفرق ، ثم ظهرت جريدة اسمها صوت الحجاز في مكة وجريدة وب哈哈 في المدينة المنورة ، وصدرت جريدة الإيمان لحكومة البهائية في صنعاء ، وصدرت جرائد عربية وراء البحار أشهرها جريدة حضرموت في جاوة ، كما أنه يوجد في الهند مجلة عربية اسمها النساء الاستاذ مسعود الندوبي .

أما في المهاجر فان لأمر بـ ٣٠ جريدة و مجلة : منها ما هو في أمريكا الشمالية وما هو في أمريكا الجنوبية ، وفي المهاجر العربية هناك من الكتاب والشعراء والأدباء والأطباء وال فلاسفة نفر تفخر بهم أو طائفتهم ، وهم جزء مثمن للعالم العربي الأدبي لا يتم إلا بهم ، واني اشبه الحالات العربية في وسط هاتيك الأمم الأجنبية التي تحصى بعشرات الملايين بجزائر عربية صغيرة في أوقیانوس من العجمة لا نهاية له ، وقد احتفظت مع ذلك هذه الجزائر الصغيرة بلغتها العربية وأدابها وأذواقها ومنازعها ومغاربها ، وهذا أمر يرهان الأحالة والنبالة وعلو الهمة ، فان الذي ينخلع بوطنه وقومه ليس بانسان ، وفي نيويورك شارع كبير خاص بالعرب تتجدد فيه على أبواب المخازن العتاون العربية فوق الانكليزية ، وتنظر المطاعم العربية التي تطهو من المأكولات الشرقية المتنوعة ما يكون قد درس بقائه في البلاد العربية الأصلية .

وإذا لتسمع الموسيقى تُعْلَمُ العربية كيما توجهت سواه من المغنين أو من الآلات الحاكمة ، وإذا نظرت إلى النوافذ وجدت فيها الأصص من الفخار فيها الرياحين وأكثرها من الحق الذي يقال له الريحان في دمشق وفي إيان الحق ، ويبنطه أن العرب يأخذون هذه الريحانة أينما ذهبوا في الأرض ، فاني قد وجدتها بكثرة في اسبانيا وهي حافظة اسمها العربي فيقول لها الاسبانيون « هبقة » أي حبقة ، ومن غرائب ما سمعته عن اهتمام السورتين بعاداتهم القومية وهم في المهجر أن كثيرين منهم يسكنون

على العرب في أمريكا الشالية فلا يعفي عليهم هناك أكثر من نصف قرن حتى يتفرض منها مع الأسف كل شيء أصله عربي، ويصير وجود العرب في تلك القارة خبرًا من الأخبار التاريخية.

### الصواف العربية في شمال إفريقيا:

ولنعد إلى حديث الصحافة العربية الذي كنا في صدده فنقول: إن شمال إفريقيا قد نهض في العصر الحاضر نهاية أكيدة، وكثرت فيه الجرائد العربية والمطابع وسائل النشر التي تعول عليها كل أمة ناهضة، ولم يكن في بادى الأمر بغیر تونس جرائد عربية مغربية، وقد تقدم ذكرنا لجريدة الرائد التونسي التي كانت تصدر فيما ذكر من قبل احتلال فرنسة لتونس أي منذ ستين سنة وبمقد ذلك صدرت في تونس جرائد أخرى، وفي يومنا هذا تصدر في تونس عدة جرائد وبمجلات راقية كالزهرة والنهاية والصواب والجبلة الزيتونية وغيرها وأما الجزائر فقد كانت تصدر فيها منذ خمسين سنة جريدة عربية واحدة اسمها المشر، وأنطلقا كانت الجريدة الرسمية للحكومة إلا أن الأهالي منذ بعض عشرة سنة نشروا جرائد متعددة في مدينة الجزائر وفي قسنطينة أندذ كانوا منها «البلاغ»، «ووادي تراب»، وأما اليوم فمن أشهرها جريدة البصائر ومجلة الشهاب، ولم يقتصر أخواننا التوانسة والجزائريون على نشر أفكارهم في الصحف العربية التي أصدروها، بل لأجل إمكان تفاهمهم مع الفرنسيين المحتلين بإلادهم والمطالبة بحقوقهم عمدوا إلى نشر جرائد وطنية عربية إسلامية باللغة الفرنسية وذلك على نسق مجلتنا العربية المنهج الأفريقي الملوچ «لاناسيون آراب»، (١) ومثل ذلك وقع في المغرب الأقصى الذي كانت السلطة مانعة فيه الأهالي الوطنيين من نشر الجرائد بتاتا، خلافاً للاجانب فقد كان ولا يزال يؤذن لهم في ذلك، بل كان محفظوراً إدخال الجرائد العربية الصادرة في

### شكيب أرسلان

٤٧

البلاد الأخرى إلى المغرب، وربما عوقب من وجد قارئاً لجريدة كهذا، إلا أن الأهالي لم يزاوا بمعترضون على السلطة من أجل هذا الضغط الشديد على حرية القراءة في إلادهم حتى سمحت من سنوات بعض الأدباء بإصدار مجلة علمية في الرباط اسمها المغرب أذنت لها في القلمون على شرط أن تكون موالية للحكومة فاضطر الحزب الوطني في المغرب إلى إصدار مجلة فرنسية في نفس باريز باسم المغرب Magreb جعلوا إدارتها يد خليف سوريا الحالي روبيرو جان لوونغة (١) الذي جاهد هو وأبوه كثيراً في النضال عن المسلمين الذين تحت حكم فرنسا وفي منحهم جميع الحريات التي لهم الحق فيها، فلما ظهرت مجلة المغرب، وأقبل شبان ذلك القطر العزيز ينشرون فيها باللغة الأفريقيّة من المقالات القيمة والأراء السديدة ما أحدث تأثيراً عظيماً في نفس باريس، انتقمت السلطة من تلك المجلة بعندها من دخول المغرب نفسه، فأصبحت في المقام المقدم مع الوطنيين الذين كانت ترأسهم عصبة العمل القومي، ومنذ ستينيّة يمكن السيد محمد ابن الحسن الوزاني من زعماء النهاية الوطنية في المغرب من إصدار جريدة في فاس باللغة الفرنسية سماها عمل الشعب (٢) وجعل مدرّبها أفرنجياً حتى لا تتمكن السلطة من تعطيلها، فلما ظهرت هذه الجريدة وأخذت تناضل عن حقوق الأهلين وتناقش بشدة الصحف الفرنسية الصادرة هناك، أمرت السلطة بتعطيل هذه الجريدة خلافاً للقانون، فبقي أهل المغرب يثنون من هذا الضغط إلى أن توّلت فرنسة ولله الحمد الوزارة الشعيبة في السنة الماضية فراجعتها عصبة العمل القومي في موضوع حرية الاجتماع والكتابة وما زالت المراجعات مستمرة باصرار إلى أن أذنت السلطة عصبة الاجتماع والكتابة وما زالت المراجعات مستمرة باصرار إلى أن أذنت السلطة عصبة العمل القومي بإصدار جريدة إن إحداها باللغة اسمها الإطلس يتولى تحريرها السيد محمد البريدي، وأخرى باللغة الفرنسية اسمها العمل الشعبي (٣) تحريرها السيد آراب، (٤) ومثل ذلك وقع في المغرب الأقصى الذي كانت السلطة مانعة فيه الأهالي الوطنيين من نشر الجرائد بتاتاً، خلافاً للاجانب فقد كان ولا يزال يؤذن لهم في ذلك، بل كان محفظوراً إدخال الجرائد العربية الصادرة في

(١) Robert Jean Longuet.  
(٢) L'action du peuple.  
(٣) L'action populaire.

أيضاً جريدة عمل الشعب لالسيد محمد بن الحسن الوزاني ، وجريدة أخرى بالعربية يقال لها الوداد كما أنه صدرت في قطوان من المنطقة التي يحيط بها الإسبانيون جريدة الحياة لالسيد عبد الخالق الطورييس ومجلة السلاح لالسيد محمد داود ، وأما في طرابلس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة الولاية الرسمية وفي الوقت الحاضر توجد جريدة للحكومة في طرابلس وأخرى في بنغازي ، ولكن الطرابلسيين يقرؤون الجرائد العربية التي ترد إليهم من الشرق والغرب بلذة زائدة ولا عجب فإن علاقتهم من جهة الشرق مع مصر والشام ومن جهة الغرب مع تونس هي علاقات أقطار شقيقة وفي زنجبار من شرق إفريقيا مطبعة سلطانية من قدسها الزمن ، اطلعنا على كتب مطبوعة فيها ، ومؤخراً وصلت إلينا جريدة عربية صادرة في جزيرة زنجبار هذه .

في هذه هي لحة دالة عن الصحافة العربية في الحسين من السنتين الأخيرة لازعم فيها الاخطاء وإنما نجحنا بالإشارة التي تعطي القاريء صورة صحيحة عن هذا البحث وبالجملة فالصحافة العربية كانت من أعظم عوامل نهضة العرب ولا تزال تتقدم إلى الإمام .

### المدارس في العالم العربي :

ان الجرائد ليست وحدتها هي المقياس الكافي لاجل إعطاء صورة صحيحة عن درجة الرقي ، بل المقياس الاكبر هو المدارس ، فمدينة بيروت مثلاً وعدد سكانها نحو من ٢٠٠ ألف نسمة فيها من المدارس والجامعات ما لو قرنته بجامعات أوروبية ومدارسها لم تكن قاصرة عنها ، وربما كانت زائدة عليها إذا روعيت نسبة عدد السكان . وقد كانت منذ ٢٥ سنة في مدينة نابلس التي لم يكن أهلها يزيدون على ٣٥ ألف نسمة ، فبحثت عن عدد المتعلمين في هذه البلدة فكانوا ٢٠٠٠ من الأحداث في المكاتب الاميرية ، وأحمدينا عدد طلاب المدارس العالية في الاستانة قبلها مائة شاب ، فإذا

### شكيب أرسلان

٤٩

فإذا نظرنا إلى عدد أهالي نابلس وجدنا عدد طلاب العلم من أهلاها لا يقل عمّا يجب أن يكون في أية بلاد راقية ، وليس هذا المثال وحيداً في بيته ، بل له أمثلة كثيرة في سوريا وإن كنت لا أزال أناسف منبقاء الأممية في البلاد إلى هذا الوقت أكثر مما كنت أظن وذلك بفضلية البوادي والقرى المفتقرة إلى التعليم ، ولم يكن هذا كلّه من تقصير الحكومة وقد اراده العمل ، وإنما الميزانية المالية العمومية دخل في نزول درجة التعليم عمّا يجب أن تكون ، ومن الغريب أن الأممية في مصر لا تزال أكثر منها في سوريا بالرغم من أن بين الفعلين يوماً شاسعاً في درجة الترورة ، أما تقدم التعليم فيسائر البلاد العربية فأكثر ما بُرِزَ منه لامان عدّة قصيرة هو في المملكة العراقية لاسيما بعد أن حصلت على استقلالها ، فإنه في وقت قصير أنشئت في العراق عدة مدارس عاليّة كدار المعلمين في بغداد والموصل ومدرسة العلب والثانوية المركزية وعدة مدارس ثانوية متقدمة ، وعدد لا يحصى من المدارس الابتدائية ، وفي العراق المدارس الممّاهة (رياض الأطفال) كثيرة وهي أرق من أمثلتها في سوريا ، والفضل يرجع في اتخاذ هذه الرياض إلى المربى العربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري ، ثم قد يلغى أن الكتبة من القاهرة وغيرها يصدرون كل سنة مقادير جسمية من الكتب المدرسية إلى العراق وإن هذا يزاد عاماً عاماً .

أما في سوريا فباعتبارها العلمية تناقض من كلية العلب وكلية الحقوق والمدرسة التجريبية الكبرى للبنين ، ومن فروعها دار المعلمين الابتدائية والماليّة ، ومدرسة تجريبية أخرى للبنات وفيها دار للمعلمات أيضاً ، ومدارس ابتدائية كبيرة ، وفي حلب مدرسة تجريبية وممثلة في در الزور في حماة وأخرى في حمص ، ولو كانت الميزانية المالية كافية لفطم سوريا في أقصى وقت أبعد مرحلة في طريق التعليم ، وهذا ما نأمل الوصول إليه في غير بعيد من الزمن ولا سيما بعد أن نالت البلاد استقلالها فإنه لا يرجى نهضة علمية إلا بنهضة سياسية فهاتان توأمان دائمان ، وقد يلغى من وزير

سحا (٤)

المعارف الدكتور الكبالي أنه لما صافت مكاتب الحكومة في هذه السنة عن استيعاب جميع الأولاد الذين يريد أهلهم إدخالهم فيها، أوصى الوزير مدير المدارس الابتدائية بتجليل جميع من يريد الدخول فيها، كما أوصى مدير الكتب الأهلية الحرة بأن يقبلوا كل من يأتيهم على أن تؤدي إليهم الحكومة التغافلات الازمة، فيقطلة الأمة ولا سما بعد استقلالها الحديث غير محتاجة إلى استدلال.

### المجمع العلمي في دمشق ومصر

ولا يجوز لنا أن ننسى ذكر مجتمعنا العلمي هذا الذي كان أول مجتمع على نسق أكاديميات أوروبية في الأقطار الشرقية، فإنه يضم نيفاً ومائة عالم شرقي ومستشرق كلهم من ذوي الشهرة الطاغية سواء في الغرب أو في الشرق، والمجمع مجلة علمية من أرق ما صدر من المجالات في العربية وأدقها بحثاً وأحسنها أسلوباً وأجممها للتواتر وأحفلها بالفوائد، ولا يستغنى متخصص في العربية إذا أراد جد الاطلاع عليها عن اقتاء بمجموعة هذه الجملة منذ صدورها، وقد سبقت سورية مصر في تأسيس هذا المجمع، ولكن مصر عادت فسدت هذا الموز تأسيس مجتمعاً الحالي، فكلا المجتمعين الشقيقين يخدم هذه اللغة الشريفة وثقافتها بكل ما أوتي من قوة ووسائل وانا الأمل بأن يسير المجتمعان معًا إلى الآمام خطوات واسعة، وان حكومتي الفطريين تشد أزرها بالمال إلى الحد الذي يمكنها من القيام بخدمات جل للعروبة كما هو الشأن في أكاديميات الملائكة الأوروبية، فإن أمم العرب مهات عظيمة في إثارة دفائن عقولهم وكشف دارس مدنיהם والتعمق عن دقائق تاريخهم لا يقوم بها إلا هذه الجامع العربية التي هي أيضاً لا تقوم إلا بتوفير أقسامها من الميزانية المالية، ولست متعرضاً الآن إلى الكلام عما قام به المجتمعان الشامي والمصري من الخدمة اللغوية بتجدد الألفاظ التي تقتضيها حاجة مصر، وإحياء ما وجد منها

### شكب أرسلان

٥١

في لغتنا بتطبيقه على المعاني المناسبة له، فإن من شاء أن يعرف طلاقاً من هذا الأمر يقدر أن يراجع مجلات هذين المجمعين.

إننا نكون غفلنا عن الحق وأهملناه جانباً إذا كنا لا نقول إنه في القرون الأخيرة لو لا بقاء الأزهر والآمسي وازيشونة والقوروين لم يكن بي آخر من آثار اللغة العربية فضلاً عن الشريعة الإسلامية، فهذه المساجد الأربع هي التي في الدرجة الأولى قد وقفت هذه اللغة من الدثور، وهذه الشريعة من البوار، وقد كانت الفوضى في القرون الأخيرة المذكورة قد نسفت عمران هذه البلدان إلا بقايا تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، وتساءط على هذه الأقطار ولاة آتوا على الحرج والنسل، وهدموا كل شيء وطبعوا كل رسم، ومع هذا فقد بقيت هذه المساجد الأربعية بنوع خاص مع مساجد أخرى كانت تجري بجرائها تقيم العربية على أركان، وتصد عارات الجهل عليها وعلى الشريعة بقدر الامكان، فكيف ثبتت هذه الشريعة وهذه العربية في وسط هذا الزوال وكيف بقيتا في ببرة هذا الفناء مدة تزيد على أربعة أو خمسة قرون تماور العالم الإسلامي فيها الانهيارات من كل جانب، إن هذا المحب عجب! تماور العالم الإسلامي فيها الانهيارات من كل جانب، إن هذا المحب عجب! ولا شك أن ثبات الشريعة واللغة في وجه هذه الصدمات السياسية التي تدكك الجبال هو الدليل الكافي على متانة أصولها ورسوخ قواعدها وزيارة القوة الحيوية التي فيها، وفي مصر عدا الأزهر معاهد كثيرة للعلم مثل الجامعة المصرية ومدرسة القضاء الشرعي ومدارس الحقوق والهندسة والزراعة مما لا يتنيس لي استقصاؤه الآن، وإنما أشير إلى نتائجها الباهرة فإنه لا يكابر مكابر في أن الحركة السياسية الأخيرة التي جرت في مصر في الشთاء الماضي وانتهت باستقلالها بارغم من معارضات الانكلترا تحت مختلف العلل إنما كانت ثمرة هذه المدارس، لأن الذين تولوا هذا الأمر هم العشرة آلاف طالب الذين تاروا في القاهرة ثورة الرجل

الواحد وترجموا الاستقلال النام لوطنهم تجذب المستحبت باذلين من دونه  
دماهم بذل السخي ماله .

### أثر الرسالة والقرويين والروماني

وكما قام الازهر بالواجب الذي عليه في مصر وكان أشبه بالصخرة  
المالية التي كانت تكسر عليها أمواج الجبل والفوضى كذلك كان جامع  
الرستوفة في تونس وجامع القرويين في فاس والجامع الأموي في دمشق ،  
ومتها ومن المساجد الأخرى خرج العلامة الأعلام والمصايخ الدين أناروا  
الإسلام في دباجي ذلك القلام ، ومن هؤلاء أيضاً خرج أولئك العلماء  
الوطنيون الذين أرادوا إدخال العلوم العصرية في البلاد والتحقق بعمراف  
الأنوريين حتى لا يبقى الشرق مقتصراً عن الغرب فكان الجامعات  
والمدارس العصرية الكثيرة وكان إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا من  
أيام محمد علي إلى اليوم .

### النهاية العلمية والدعوة الوهابية

ولا يظن ظان أن الحركة التعليمية في جزيرة العرب قد بقيت كما  
كانت عليه قبل ، فاما في نجد والنجاش فلا يخفى أن الدعوة الوهابية  
توجب تحمل جميع الناس على التعليم بدون استثناء ، وهو عندهم عقاب  
الجهاد فترى المعلمين والفقهاء يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتب  
اللاحديات وربما شرقت قبائل من العرب وغربت والمعلمون منها حتى لا  
يتقطع التعليم بالرحيل ، فاللامية في البلدان الخاضعة لسلطان ابن سعيد  
ستكون نادرة ، ولكن يعرض بعضهم قائلاً :

إن هذا التعليم النجدي لا يساعد الرقي المادني بل هو من المنط  
القديم الجامد الذي ليس فيه كبير جدأ لا يهل هذا العصر ، وهذا  
القول مردود من وجوهه ؛ أولاً أن النجدين يلتزمون تعميم القراءة

والكتابة في البدو والحضر فزوال الأممية هو بنفسه درجة عالية من العلم ،  
ثم انهم يحفظون الأحداث القرآن الكريم وفسرون لهم بعد رشدم ،  
وأي كتاب حث على العلم والتعليم والسير والنظر أكثر من القرآن ،  
وأي كتاب قدس العلم والمعلم ، ونوه بالحكمة والحكمة أكثر من القرآن .

### الرصاص والعمران في المملكة السعودية

ثم ان منزع النجدين في الدين منزع إصلاح ورفقة ونفقة ، ومتربه  
بعيد بالمرة عن الخرافات فهو مشرب إسلامي مستحب جداً في مصر  
الحاضر ، وإذا سألت الأوروبيين أنفسهم قالوا لك : إن مثل هذا المشرب  
هو الذي فك قيود الأفكار وحل عقال المقول في أوروبا . وكان فاتحة  
عهد الارتفاع ، وكثيراً ما أطلق الأوروبيون على الوهابيين لقب (بروتستان  
الإسلام ) ، ثم ان هذا الملك عبد العزيز بن سعود امام الوهابيين القائم  
بنفيذ مبادئهم لا يقف عن قبول أي علم نافع أو اختراع عصري مفيدة ؟  
 فهو يجهز مملكته بجميع طرق العمران الحديثة ، وعنهه التغافل السياسي  
واللاآسلكي في جميع بلاده ، وعنهه التليفون والراديو ، وعنهه السيارات  
الكهربائية تسير في طول البلاد وعرضها حتى صارت تلك الأرض  
الشاسعة تطوى طي السجل الكتاب ، ومن أعمال ابن سعود اعتناقه  
بالصحافة العمومية وتمويله فيها على الوسائل المصرية الحديثة ، وقد بدأ  
يستخدم الطيارات في الجيش ، ولو كانت ميزانية المالية تأذن له في  
الاتفاق كما يشاء لما سبقه في هذا الميدان سابق ، ولكن المال  
المصري في جيشه لا نقل عن مثلها في أي جيش أوروبي ، ولكن المال  
قوام الاعمال ، ثم إذا كان المراد من العلم والتعلم هو إيجاد الأمانة في  
الوسائل فلا يكون في هذا المعنى أرق من معاشرة ابن سعود لأن الامان  
العام ضارب أطنايه في بلاده كلها وواصل إلى الدرجة التي يتحدث عنها  
المؤرخون في الكتب بعد أن كانت تلك الصحاري أشبه بمعبة ترار فيها

الضواري من كل فج ، وبالاختصار فالوهابيون يقبلون كل إصلاح مالم يصادم الدين ، والدين لا يتصادم في الحقيقة إلا عند من لم يحسن فهم كل منها .

### الترجمة المأمونة في اليمن

أما في اليمن فإنه ينطليع ملوكه ابن سعود في أمرين : عدم التعليم والامتن الشامل ، وقد يلغى أنه لا يوجد في اليمن قرية تخلو من فيه يعلم الأحداث القراءة والكتابة ، وأنه لا توجد مدينة ولا قصبة في اليمن إلا فيها حلقات تدرس للعلوم اللغوية والشرعية ، فاللاممية في اليمن قادر ، نعم لا يوجد هناك من يعتني بالعلوم المصرية إلا نادرًا وهي علة قد تزاح قريباً ، لأن العلوم الادبية لا بد تثير حركة في الافكار وتحمل نهضة في النقوس ، وهذه من شأنها أن تهتف بشدان العلوم الطبيعية وذلك كما جرى في مصر والشام وغيرها . هذا وإمام اليمن يحيى بن محمد بن حميد الدين هو بنفسه علم فاضل متبحر سياں القلم لا يغرس عن باله شيء مما يجب لترقية بلاده ، لذلك زراه مهجاً بالمدرسة العسكرية التي في صنعاء ، وعندئه معمل سلاح صغير شاهدته بعيني أنا وزميلي هاشم بك الاناسي رئيس الجمهورية السورية وال الحاج أمين الحسيني مفتى القدس الشريف ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، وعلمنا أن هذا المعمل يقدر أن يعمل البنادق وعلف البنادق كما يصنونها في أوروبا ، ورأينا مصتوحات هذا المعمل عياماً ، ولما الاميل بأن تسمع دائرة هذا المعمل ، وأن يتآمس في البلدان العربية معامل أساجحة كبيرة تكون وافية بحاجات أهلها ، ولا ننسى أن العراق والشام والملوك السعودية هي في مقدمة الأقطار العربية التي تحتاج إلى مثل هذه المعامل ، لأن على العرب واجباً لا يجوز أن يغفلوا عنه طرفة عين ، وهو أن لا يكونوا عيالاً على أوروبا في التسلح

### شكيب أرسلان

٥٥

فإنه إن أمكنهم ذلك في زمن الحرب استطاعوا أن يدفعوا الإخطار عن بلادهم وخير الأرض أن تستغني بهم عن مياه غيرها التي يجوز أن تقطع عنها .

### الشعر والشعراء

أما اللغة العربية من حيث هي ، فقد طارت في هذه الخمسين سنة الأخيرة بمحاجين وصارت إلى حالها الماضي وعنجهيتها الفidue فكثر في السنتين الأخيرتين سواد الكتاب والشعراء حتى صاروا يخسرون بالذات إن لم يكن بالآلاف ، وبنفع منهم خوف يقدر الإنسان أن يازهم في صفو ، المنشئين والشعراء من أهل القرون الأولى الاسلام عندما كانت اللغة في أيام سورتها فلا تنظر في جريدة إلا تجد فيها من النظم الفائق والترسل الرائق اثنان لم تسمع في عمرك باسمهما ، هذا عدا المقلفين والمعابر الذين سارت بذكرهم الوكان وحفظ الرواة من شعرهم كما يحفظون شعر المتنبي وأبي تمام ، ولم يكن منذ خمسين سنة بصر الشام والمرأق والمغرب مشار العدد الذي تجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية في الأدب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل ، وكان إذا بنع شاعر أو برع كاتب ضرب به المثل لنفرده وخلو الجو من حوله ، الحال أنه لو نشرته اليوم من قبره ، وعرضته في الجم لوجدت أمثاله يهدون بالغثارات ، وإن كانت لا تزال له طلاوة ، وهذه الطلاوة ، لا ترقع به إلى صفو العبريين وإنما تحمله في صف الميدين ، وقد كنا في سوريا لا نعرف شاعراً أحسن من نصيف البازجي اللبناني الذي نبغ في بيروت وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق ، وهو لو وجد في زماننا هذا لما كان إلا واحداً من جماعة ، وكان في بيروت من الشعراء الميدين عمر الأذبي البيروتي يقرأ الانسان شعره بلذة وكان قبل الأذبي والبازجي أمين الجندي وبطرس كرماني كلاهما من حسن ولها

## شكيب أرسلان

٥٧

هبت ربيع الأدب في هذا العصر في أرجاء الجزائر والمغرب الافتني ، وظهر شعراء ومتسلون يمكن أن يضمهم القاريء في صعيد واحد مع شعراء الشرق ، ومهما قيل في ترقى الشعراء في هذا العصر الآخر فأعظم منه قد كان ترقى الكتابة التي لم تقدم في فصاحة الألفاظ وتقبع الجمل فقط بل علت ببلاغتها وحسن أسلوبها وتشبعها بالمعاني الكثيرة التي أوجدها الحركة العلمية الحديثة فاديل من الصناعة الفظوية والسبع الرنان بالمسحة العلمية والانشاء المرسل الملاآن ، وهذا النوع من الكتابة هو أصعب أنواعها لمن أراد أن يسمع كتاباً ، ولا زاد في أن ترقى كل من في الشعر والكتابة في الأدب العربي قد كان وليد النهضة العلمية العامة التي حلت المتادين على مراجعة أحسن ما كتب العرب وخلفوه في زوايا المكتب فسمت لهم بسبب هذه النهضة العلمية إلى طبع الكتب التي لا تزال بجهولة ، أو مما ينحصر افتناوه في بيوت الائمة والكتاب ، فصارت هذه الكتب من مثل رسول ابن المفعع والحافظ وأمثالهما مشاعاً بين جميع عشاق الأدب ، وكانوا كما قرأوا كتب الآوربيان شعروا بحاجة إلى مادة أغزر من اللغة العربية وأساليب أطلق وفنون أبدع و مجال أوسع فكان اللغات الأجنبية هي نفسها قد كانت الحافز الاعظام على إتقان العرب الحديثين للغتهم وارتواهم من معينها ، ولا عجب في ذلك فالمعلم يزيد بعضه بعضاً سنة الله في خلقه .

## الفقه الوريدي وعلماء الدين :

هذا ما كان من جهة الأدب العربي ، وأمام من جهة الفقه الإسلامي فلا نقدر أن نقول أنه تقدم إلى الإمام بل رجع في الحقيقة إلى الوراء عن شعراء الأقطار العربية الأخرى ، وقد نبغ في القرن الماضي محمد قباد وهو صاحب تشعاير (أفاطم لو شهدت بيعن خبت) الذي دخل فيه مدخل لا يفترق عن الأصل ، والذي له قصائد أخرى جياد ، وجاء بعده شعراء في تونس لم أعلم منهم أحداً بلغ مداه ، وقد

قصائد كتبها بها شهرة لا تزال لها إلى اليوم ، ولو أنها عاشا في هذا العصر لم تكن لها هذه الشهرة بالرغم من إجادتها ، وعلو طبقتها ، وقد سأل الأمير بشير الشهابي أمير لبنان في وقته الشيخ أمين الجندي عن المعلم بطرس كرامه قال له : ما نسية المعلم بطرس إليك في الشعر ؟ فاجابه : نسية الكلب إلى الأسد ، ولم يكن هذا الجواب صحيحاً لأن بطرس كرامه من الشعر لا سيما في الغزل والنسيب ما لا يقل رونقاً عن شعر الجندي ، وكان في بغداد هلة شعراء أو أربعة اشتهرت اسماؤهم في بلادنا مثل عبد الباقى العمرى صالح التميمى وعبد الحميد الموصلى وعبد العفار الآخرس ، وكان أكثرهم شهرة عبد الباقى العمرى وعبد الحميد الموصلى هنا بحسب مراسلاتهما مع نصيف اليازجي كما أن شهرة صالح التميمى كانت بسبب المناقشة التي وقعت بينه وبين بطرس كرامه ، وهذه الطبقة وان كانت تعد من العالية في الأدب ، فإن الذين جاءوا بعدها ردوها إلى الوراء فبعد أن كانت من الجيلين حارت من المصائب ، اللهم إلا إذا حسبنا الشاعر الإرزى الذى لا يزال هؤلاء في قوته ، ومن قبله ابن معنوق الذى كان يضارع الشعراء الأولين . وأما في مصر فما بدأ الشعر ينهض إلا بنبيون محمود صفوتو وبعده محمود سامي وهو صاحب النهضة الشعرية الكبرى ، وقد أجمع مؤرخو الأدب على أنه مجدد الشعر العربي في هذا العصر ، وأنه الذى أعاد إليه ديناجته الأولى التي كانت القرون الأخيرة لا تعرف منها شيئاً ، وما كان شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء مصر إلا مبعوثين في علم الأدب بأنفاس محمود سامي العالية ، واليوم لا يكاد يحصى عدد المجددين من شعراء مصر وأغرب منه نوع شعراء في السودان لا يقل شعرهم في الإجاده عن شعراء الأقطار العربية الأخرى ، وقد نبغ في تونس في القرن السادس محمد قباد وهو صاحب تشعاير (أفاطم لو شهدت بيعن خبت)

نحن أولاد قد أدركنا في أواخر القرن الماضي طبقة عالية من علماء العلوم الشرعية في دمشق مثل السيد محمود المغزاوي والشيخ سليم العطار والشيخ إسحاق العطار والشيخ سعيد الأسعوانى والشيخ العلطاوي والشيخ علاء الدين عابدين والشيخ محمد البيطار وأخيه الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ طاهر الجزائري والشيخ عبد الغنى الميدانى والشيخ محمد الخانقى والشيخ جمال الدين الفاسى وغيرهم ، وكان الناس يستفونهم في النوازل ويمولون على آرائهم في الدين والدنيا ، فلما انتشرت العلوم المعاصرة ومنها القوانيين الأوروبية المترجمة التي عملت الدولة بها صار إذا مات واحد من هؤلاء الفقهاء لا يخلفه غيره ، وما زال الأمر كذلك إلى أن كادت هذه الطبقة تفرض بالمرة ، وكذلك كان في بيروت الشيخ عزي الدين اليافى والشيخ يوسف الأسير والشيخ إبراهيم الأحدب ، وفي طرابلس الشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشابة فمات كل هؤلاء ولم يخلفهم أحد ، وصار النبoug المحامين الذين تخرجوا في المدارس الأوروبية أو في مكاتب الدولة العثمانية ، والخامون عصر أكثر منهم بالشام لما في مصر من استبحار العمran .

إلا أنه نظراً لوجود الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي في مصر بق جملة العلوم الشرعية فيها أكثر منهم في سوريا ، وكان الواجب على هذه الأمة في كل قطر أن لا تهمل هذا العلم الذي هو من مفاخر الثقافة العربية ومن حasan تاريخها والذي لا يستغني عنه المسلمون في المعاملات الدينية فضلاً عن المسائل الاعتقادية .

### الطب وأدب طباء والصيانت :

وأما الطب فهو من العلوم التي يقوم عليها المشارقة أكثر من غيرهم ويوفدون فيها ، ومن الأطباء الشرقيين من يقيمون الآت في أوربة وبشهرون بالنبoug بين أهلها ، وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الراقية

في علم الطب حتى يقال أنه في الدرجة الخامسة بالنسبة إلى الدول الأخرى ، وقد نبغ فيها عدد كبير من الأطباء الجراحين يمدون في الطبقة العليا بالنسبة إلى أطباء أوربة وجراحاتها أنفسهم منهم آنراك ومنهم عرب ومنهم أرواب ومنهم أرمن ، ولا تقدر أن تقول أن سوربة متاخرة في حلبة الطب هذه عن غيرها بل إنني أذكر أنه لما نشب الحرب العالمية واحتاجت الدولة إلى أطباء لجيشها ساقت إلى الجيش ٢٠٠ طبيب ذي شهادة من جبل لبنان وحده وهي عدد كبير منهم في البلاد . واليوم قد ازداد هذا المدد على ما كان عليه قبل ، وببلغني أن في دمشق وحدها يوم ( ١٥٠ ) طبيباً ، وإنما نرى خريجي مدارس الطب من السوريين يتعلمون صنعتهم هذه في مصر والمرأق والسودان والنجار وغيرها ، وما يقال في الطب يقال في الصيدلة التي لها مئلون كثيرون من أبناء سوربة ، وكذلك بدأ كثير من الشبان يدرسون في أوربة علم الجرائم ( البكتريولوجية ) .

### منافسة سوربة المهرد العربية :

وما من علم يجده في أوربة إلا أقبل عليه الشرقيون كما أقبل الغربيون وأخذوا منه بذلث ، فالمدارسة إذاً جارية بكل ما يمكن من الحمة ، على أن سورية في علم الطب وتواصعه هي ذات المركز الأول في البلدان العربية ، وذلك لسبتها غيرها إلى ورود جانبي العلوم الكوبية فلا مفر ولا المراق ولا جزيرة العرب ولا إيران ولا المغرب تفاصع سوربة في هذا الموضوع ، ولكن نحن على ثقة أن جميع البلاد العربية من الآن إلى ثلاثة وأربعين سنة تسير متساوية بعضها إلى بعض في درجة الرقي العلمي .

ومن العلوم التي يمتاز بها العرب ، ولا سما السوريين منهم ، العلوم العددية وقد نبغ الكثيرون من لا يقدر على أحصاء آرائهم ذكر منهم

شکیب اور سلان

71

الاًوربيين ولم يغب عنهم منها شيء . ولا فائهم من صناعات اوربية دقيقة ولا  
جليل ، ولبئسوا مع ذلك يلبثون أنسلا ، في لغتهم وأدبهم وطربهم وطعامهم  
وشرابهم وجميع مناحي حياتهم ، وحسب العرب قدوة للاقتداء ومثالاً  
للاحتذاء هذه الامة اليابانية المظيرة التي لا يوجد اشد منها رجوعاً إلى  
قدسيم ولا أخذنا منها بحدث .

والأعمال معقودة بأنه ستكون في الشرق الاّدنى نهضة عربية عليه  
لضاهي النهضة العلمية التي رأيناها في الشرق الاّقصى .

طازراً تأهّل السُّرُقُ الْأَرَدِيُّونَ عَنِ الْأَشْرُقِ الْأَفْصَحِيِّ :

وإن كان الشرق الاَدنى قد تأخر عن الاقصى في درجة الرقي  
العصرى فلم يكن ذلك كا يتوجه بعدهم من جمود الامم الشرقيه العربيه  
وتفوق اليابانيين عليهم في حب العلم ونشدان وسائل الفتوه ، وإنما كان  
الموقع الجغرافي للبلاد العربيه قد عرضها من هجوم الاجانب وغاراتهم  
المتواتله لما لم يتعرض له اليابانيون بسبب تقاعسي ديارهم وبعد مزارهم بحيث  
خلال لهم الجح وتمكنوا من أن يتعلموا ويتهدبوا آمنين على حوزتهم ، وهذا  
فرق طالما غفل عنه الناس ولم يتفطنوا لخطورته ، خذلوا بسبب غفلتهم  
عنهم على الشريعة الاسلامية وجعلوها ظالماً وعدواناً هي المسؤولة عن هذا  
التأخير ، والمسؤول الحقيقى في الواقع هو الاعتداء الاجنبي المتواصل الذي  
يتيسر في الشرق الاَدنى ما لا يتيسر في الشرق الاقصى ، والسلام عليكم  
ورحمة الله وبركاته .

دمشق : سنة ١٩٣٧

على سبيل التمثيل الشفهي محمد الطائي في دمشق والمعلم بطرس البستاني  
والداعي أسد الشدودي في بيروت وغيرهم .

ولما كان السوريون من أقوى أمم الأرض على التجارة كان علم  
الحساب من العلوم التي يختصون بها بطبيعة الحال ، وكذلك في مصر  
لا ينكر ترقى العلوم الرياضية التي مصر من مراكز ازدهارها بل وقدر  
أن يقول أن المهندسين فيها أكثر منهم عدداً في سوريا نظراً لأن  
الزراعة في وادي النيل أرقى بكثير منها في سوريا .

بِقِيلَيْنَا أَنْ تَنْفَلُ كَيْفَ يَكُونُ اتْجَاهُ الْأَمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ جِهَةِ النَّفَافِةِ؛ أَنْ تَأْخُذُ بِالثَّقَافَةِ الْفَرِيقِيَّةِ وَلَوَازِمِهَا وَمَتَمَّاتِهَا إِلَى النَّهايَةِ أَمْ تَبْقِي مُعْتَصِّمَةً بِثَقَافَتِهَا الْشَّرِقِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ لَا تَبْغِيْهَا بَدَلًاً وَلَا عَنْهَا حَوْلًاً أَمْ تَأْخُذُ مِنَ النَّفَافِيْنِ مَمَّا وَتَجْعَلُ مِنْ ذَلِكَ ثَقَافَةً خَاصَّةً لَا شَرِقِيَّةً وَلَا غَرِيقِيَّةً؟ هَذَا سُؤَالٌ رِّدَّ كَثِيرًا عَلَى خَوَاطِرِ الْبَاحِثِيْنَ وَكُلُّ مِنْهُمْ يَذَهَّبُ فِي الْجَوابِ مَذَهِّبًا، وَأَظُنُّ أَنَّ ثَقَافَةَ الْعَرَبِ الْمُسْتَقْبَلَةَ سَتَكُونُ عَصْرِيَّةً آخِذَةً مِنَ التَّجَدُّدِ بِأَوْقِي نَصِيبٍ لَكِنَّ مَعَ الاحْتِفَاظِ التَّامِ بِالطَّابِعِ الْعَرَبِيِّ، وَهَذِهِ أَشْبَهُ بِمَا سَبَقَ لِثَقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي زَمْنِ بَنِي الْعَبَاسِ وَفِي زَمْنِ بَنِي أُمِّيَّةِ بِالْأَنْدَاسِ حِينَما نَقَلَ الْعَرَبُ حَكْمَةَ اليُونَانَ إِلَى لَفْتَهُمْ وَاطَّلَعُوا عَلَى عِلُومِ قَارَسِ وَالْهَنْدِ وَخَلَوُا مِنْ هَذِهِ النَّفَافِاتِ الْمُلَاثِ وَمِنْ ثَقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ ثَقَافَةً جَدِيدَةً عَالِيَّةً كَانَتْ أَرْقَى ثَقَافَةً فِي الْقَرْوَنِ الْوَسْعَيِّ، إِلَكْنَهَا كَانَتْ زَاهِرَةً بِطَابِعِهَا الْعَرَبِيِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَفَارِقْهَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَمَكَذَا سَتَكُونُ ثَقَافَةُ الْعَرَبِ بَعْدَ الْيَوْمِ غَيْرَ جَامِدَةٍ عَلَى الْقَدِيمِ الَّذِي بَيْتَ لِلْعَرَبِ الْمُحَدِّثِيْنَ وَجُوبَ التَّعْدِيلِ فِيهِ وَالاضِفَةِ إِلَيْهِ، وَلَنْ تَكُونَ مَنْسَلَخَةً مِنَ الْقَدِيمِ جَاهِدَةً فِي التَّبَرُّقِ مِنْهُ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي نَحَاهُ الْأَزْرَاكُ الْكَالَّاَيُونُ الْمَالَبُونُ عَلَى تَرْكِيَّةِ الْيَوْمِ، وَلَكِنَّهَا سَتَكُونُ ثَقَافَةً جَامِعَةً بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ عَتَّارَةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ مَعَ بَقَاءِ الصِّبْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ التَّامَةِ غَيْرِ المَفَارِقَةِ لِلْعَرَبِ، وَذَلِكَ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي نَحَاهُ الْيَابَانِيُونَ الَّذِينَ اقْبَسُوا جَمِيعَ عِلُومِ

في مقتضياته حتى الأدبية منها ويعيني أنه إذا كان هنا قصور فهو منا وليس منها ، فلذلك بدا لي أن كاتباتها من على هذا المنبر في إثبات ما أعتقده اعتماداً راسخاً من صلاح لغتنا أو كفايتها للإبانة بسلامة وقوية وجمال عن أنواع الأغراض الحديثة وخصوصاً ما يتصل منها بالآدب .  
نكون أخلق بآن لستوعي لها أسماؤكم . وقد توخيت لهذه الكلمات من طريق موافقتكم عليها - إن فازت بشرف هذه الموافقة - أن تصدر عن ندوتكم هذه درساً يجني منه شبابنا في مختلف الأقطار العربية فائدة جليلتين : أولاهما أن يعرفوا ما وسائل لغتهم الفصحى وأدواتها المتوفرة ومناجم مفاخرها . وثانيةها أن يتبينوا ما تسمونهم الرغبة في معرفتها وإجادتها من إطارات على ما يحول بينهم وبين استيفائها في الحالة الراهنة من المشاق التي نرجو أن نقل تدريجياً على يد هذا الجمع الجليل وسائر المعاهد الرسمية وغير الرسمية التي تحو تحوه في الآئم الناطقة بالقصد .

لم تخلق اللغة العربية من أصل جامد فيقضي عليها بالجود ولم ترسم لها من بدء أمرها دائرة ضيقة فيحضر على المجتهدين أن يتعدوها وقد به على ذلك آئمة من المتقدمين فقالوا إن اللغة تقع متلاحة متتابعة ، في إذن تنمو نحو حضارة أهلها وتتشعب باتساع حاجتهم وتشعبها . على أن نقى المشاركة في أصول اللغة آية كانت أو في الفروع التي استنبتها الدهور على تلك الأصول لا يستطيع ، ونقى الآخر الذي تحدده كل لغة في الآخر بحكم الجوار أو الفتح الحربي أو الغلبة السلمية من فكرية واقتصادية لا يستطيع أيضاً . ولكن كل ذلك لا ينبغي أن يغير طابع اللغة ولا أن يعدل ذاتيتها أو يمس جوهرها إذا رد إلى حدود المقومات التي تفرق بينها وبين سواها كما تختلف الوجوه وتنماز الشخص .

تألفت لغتنا العربية في منشئها من لغات تقدمتها ومن مواضع جمة أغارتها إليها لغات عاصرتها . حسبنا في الدلالة القاطعة عليها ما ورد من ألفاظها في أوضح كتاب عربي فهي أي اللغة لم تكن وجهاً ولا توقيفاً .

## اللغة العربية وتراثها الأدبي فتديناً وحديثاً<sup>(١)</sup>

لأستاذ خليل مطران

أيها السادة

قد شرفني الجماعة الأجلاء عماد هذا المجتمع العلمي الجليل بادئه مكانهم . وأن أنا من أولئك الذين تلا الأفق أنوارهم وتعمر الشرق آثارهم . إن أنا منهم لولا نظرة عطف من معالي رئيسهم المحترم العلامة الذي بعث في زمانه أشتات مفاخر وطنه ، فقد العربية فلادة من لأن لا تقوم بشئ ، ولو لا حسن استجابة من زملائه الفضلاء لدعائهما الكريم في شأن صديقه القديم . فلهم فضل أول بما أولوني من خبر الانتخاب ، أعقبه فضل ثان بما أناحوا لي اليوم من حظ اثنوں لدى صفوة من شيخ تباهي بهم الحاضرة الاموية سائر الحواضر ، ونجمة من قبيان أرى فيهم تبشير صريح جديد لسعادة الدولة السورية ورقها الحي والمعنوي إلىغاية التي تجدر بلوغها أمة عظيمة كهذه الأمة الكريمة .

قد سمعت المعجب والمطرب من ذاك البيان الخالد الرائع الذي خصني به صديقي الكبير الشيخ عبد القادر المغربي وأخذتم بلا شك في بسطه الجليل قوة فصاحته ، فهو ترك لي ذريعة وأنا أتكلم بهذه لا "كون قدماً أفر" في نوسمك من حسن الظن بي على أنه إذا قاتني فيما أزوجه من البقاعية أن أبلغ ما أراد أبلاغي من علي رأيك فلي شفيع لا يخيب في رحابكم ، اني أضيقكم واني بخاركم وأنتم خير من أكرم الضيف وأعز الجار .

أثيرت في آخريات هذه السنين حركة محمد مشروها إلى إحداث ريب في النفوس من جهة صلاح اللغة العربية الفصحى أو كفايتها لحاجة العصر (١) ألقاها الأستاذ خليل مطران في أيلول سنة ١٩٣٢ لمناسبة انتخابه عضواً مرأة في المجتمع العربي .

كذلك المشاركة في المعاني وإنجهاها وأشنات المذاهب التي يذهبها الكتاب في طرائق ابرازها للناس لتقع مواقفها في قوسهم تبعاً لاتساع الحضارة وضروب التأثير في العيش وتهبّ الأذهان حيناً بعد حين لايثار خطأ في الائتلاف على خطأ آخر لا سيل لا ريب فيها وحكمها في لغتنا حكمها في كل لغة عتيدة أو عودة .

غير أن هذه المشاركة منها تعددت ما فيها شيء وذاتية اللغة غير آخر .

عناصر الجسم مما تشتهر فيه الطبيعة كلها ولكنها يصبح جسم حياً له قوامه الخاص وبها يعيش عيشه مختلف بفاعليتها عن عيشه كل جسم سواه .

إذا تقرر هذا فلنسرح الطرف من مشترف عالِ مارِين بخلافات الأحفاد مروراً سريعاً لنتبين هل من محل لاراتياب في أن اللغة العربية الفصحى تكفي حديثاً كما كفت قدماً لتجاري بأدبها الخاص أدب آية آفة سواها . ولم أحسن ما يتأني لنا به حصر هذا البحث وتضييق دائرة على قدر ، هو أن يقع التفاصيم بيننا على تعريف الأدب ، فمن هو الأدب ؟

هو الذي يحسن التعبير بالاصطلاحات المنواعة عليها في كل لغة عمّا يوجبه إليه عقله أو تحييشه به نوازعه وأهواوه أو يقع عليها حسه ، مصروغاً في الفاظ فصيحة ، مفرعاً في قالب أصيل خالص ، والسر كل السر في إحسانه الإبانة أن يملك لغته فيصرفيها في الأداء تصريف المتصل منها المستحرر في فنونها ، البصير يغدراتها ، الخبر يتركيبها ، المتشبع بروحانيتها - ولكن لغة روحانيتها - الواسم بوسها كل مادة يجري بها قوله وكل ساقحة صادرة عنه أو ظارئة عليه ، المجدد تبعاً لزمانه ومكانه ما تلقاه عن أنعمتها وتفاها في الصورة التي ينوعها كل زمان وكل مكان

وكل مكان . المضيف إليها من ابتكاره أو ابتداعه طرائق لا تمثل معها حمّة طابعها ولا تمثّل بها جواهرها ولا مقوماتها .

فما قدمهناه نظرنا إلى الأدب ولم نشرك معه الفيلسوف والرياضي والكماوي فإن المقصود في بحثنا إنما هو الأدب الحض لا نفي عنه أن يفسر بهما في اشتات المعلوم ولا أن يلم بكل فرع وفن مما يستشكل به وسائل التفكير ليتسنى له التعبير عن مختلف الأغراض الحادثة مع زرور الحد الذي يرسمه الأدب الباب ويتأنى معه حسن النسج واطف اختبار الأساليب لجلاء المدلولات فإن كان الأدب بما عرفنا وكان الميدان الذي يحول فيه إقامته ما وصفنا فقد ثبت بالبداية أن كل لغة مستكلة الوضع وأوضحة الأعلام قائمة التخوم راسخة القواعد مانعة لشروع وابتلة صالحة لتكوين الأدب . وتكون الأدب له شرطان : أحدهما حصوله على ملكة اللسان وثانيها

وجوداته في لغته من ضروب الناذج ما يفتقر ذهنه ويعين فريحته على الابتكار ويتيح له بمحارة الفكر في تحولاته المستمرة ، ففي يقيني أن لغتنا العربية الفصحى تكفي كل الكفاية لتكوين الأدب وفي قديمها وحديثها لم ين أكب على المطالعة وتوفر على المدارسة ما يستطيع به أن يعبر عن ضروب المقاصد ما دق منها وما جل ، فإن أوجز : فما اجتمع على قدر ، هو أن يقع التفاصيم بيننا على تعريف الأدب ، فمن هو الأدب من المعني في القليل من الكلام كما اجتمع في مقاطر أفلام الكثير من الناطقين بالضاد ، وان أسلوب : فليننظر كيف جرت المحاجات المذهبة من الناطقين بالضاد ، وان أسلوب : فليننظر كيف جرت المحاجات المذهبة من يراع الجهابذة المسميين جري السبيل من البنایع بلا رفق ولا نفك ولا انقطاع وأي مطالب لحن التشيبة وجحال الاستمارة أدى إلى التناول في لغة منه في لغتنا .

وأي لغة قدّمة أو مولدة فيها بذاتها ما في لغتنا من الغنا بالاشتقاق منها المستحرر في فنونها ، البصير يغدراتها ، الخبر يتركيبها ، المتشبع

بروحانيتها . وبكل لغة روحانيتها - الواسم بوسها كل مادة يجري بها قوله وكل ساقحة صادرة عنه أو ظارئة عليه ، المجدد تبعاً لزمانه ومكانه حكاية الصدى ويجري وراء ساقبيه جري التعارض بالأقدام ، بل هو ما تلقاه عن أنعمتها وتفاها في الصورة التي ينوعها كل زمان وكل مكان

التي يستعين بها بين يديه على الإبداع والخلق . شأنه شأن المصور الذي يتغنى على استكشاف خفايا الفن في المقاييس والملاءمات وسائر ما توصل به الميرزاون من معتقداته إلى الاتقان العظيم ثم يجعل ريشته في اللوح ليبرز أنواراً وظلالاً ووجوهاً ومناخات على النحو الذي استحبه بتقديره الخاص وأثره بحكم فكره الذاتي ، شأنه كذلك شأن الموسيقى بقيودها الأصول العامة لصناعته ولكنه يخترق بين آلاف الأجزاء المشتركة في الضروب ما يؤلف منه نفسه الخاص ، نفسه الذي لم يكن فيه ماسحاً صنع غيره أو آخرًا أخذه حذوك النعل بالتعل بل مفتناً مخترعاً .

أتتيح لنا في لغتنا العربية مثل أعلى لا نظير له فلنتخذنه ببراساً لما طالعتنا هذه . العرب في الجاهلية قالوا الشعر فما امتد النفس في جيده إلى أطول من المخلفات ، وقالوا النثر فما يوشك المخالف منه أن يعلا . صحائف كراس سفير على الشتات بين المأني والأغراض فلما أراد الله أن يبدي لعاملين آية من آيات قدرته أنزل كتابه المبين كتاباً عربياً .

وما أخذ مادته ؟ من أدوات تلك اللغة ، لم يخلق معجلاً جديداً ولم يقض قضاة على السن المتعارفة . بل أخرج من مأثور ما ألقوه وأصطاحروا عليه وتفاهموا به تلك المثنوي والمثلاث التي حيرت الأباب وملايين النفوس بالعجب العجاب ، أزلها من كلامهم وأين منها كلامهم . أزمهما حدود لسانهم ومعانيها وراء كل حد . وهذا هو سر الانشاء وسحر الإبداع .

أخرج القرآن المجيد من اللغة العربية الجاهلية ، لغة استقل بها فلم تجار ما قبلها وهيئات أن تتشبه بها محاسن الشعر أو عيون النثر في الجاهلية ولم تجارها ما بعدها في البلاهة والفصاحة لسكانها من الإعجاز .

ثم جاءت روايات الحديث معقبة من مكان دان على ما هبط به الوحي ، ونور الوحي متقدراً إليها كتجدد شعاع الشمس من قم الجبال الشاهء إلى رؤوس الحضاب المتعالمة بجانبها فاتصلت به أسباب التأصيل والتفریع ، واتسعت وتشعبت ذرائع التحويل والتوصیع .

لغة جديدة تدفقت إليها جداول الفصاحة القدیمة من تواجها المتعددة فإذا الحوض الذي أفضت إليه بحر عذب يهيء أري والغذاء للجدافن الفبحاء التي ازدهرت بها الأدب العربي وازدهر في ذلك العصر الكبير وفي سائر ما تلاه من المصور .

من هذه اللغة الجديدة يومئذ استعار الخلفاء الراشدون — وناهيك منهم بالأمام علي — جمال بيانهم وجلال بيدهم . تکاموا بكلام هو من صمم مادة العربية لكنهم جاؤوا بمعان بدایة في سور شائقة غير مسبوقة .

فكانـت هـنـيـة مـن الدـهـر سـنـوـات مـمـدـودـة تمـ فـيـها الـانـقلـاب الـأـوـلـ والـتـحـول الـأـعـظـمـ فـيـ لـغـةـ الصـادـ . فـإـذـ رـجـعـتـ إـلـىـ الـكـتابـ عـلـىـ رـأـسـ مـخـلـفـاتـهـ تـحـرـرـتـ حـقـ حرـاثـهـ إـذـاـ تـقـفيـتـ بـعـدـهـ خطـبـ الخـلـفـاءـ الرـاشـدـينـ وـأـسـفـارـهـ مـتـدـبـرـاً أـسـالـيـبـهـ جـدـ التـدـرـ فـاـ تـجـدـ مـنـ شـيـ زـيـدـ الـكـتـابـ فـيـ إـلـاـ وـلـهـ مـثـالـ قـلـ أـوـ كـثـرـ طـالـ أـوـ قـصـرـ تـسـرـشـدـ بـهـ وـهـنـديـ بـهـيـهـ فـيـ أـنـتـ مـنـهـ بـسـيـلـ . وـهـنـاكـ حـصـلـ التـصـرـفـ الـمـجـبـ فـيـ الـحـاقـ مـعـانـ حـدـيثـ بـالـأـلـفـاظـ الـقـدـيـعـةـ عـلـىـ مـاـ اـقـضـاهـ التـحـولـ الـدـيـنـيـ وـالـتـصـورـ الـعـارـيـ فـيـ مـجـالـاتـ الـحـيـاةـ . ذـاكـ الـبـيـانـ الـذـيـ اـجـتـمـعـ فـيـ طـرـائـفـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ ، وـانتـ فـيـ مـنـهـ الـعـنـجـيـةـ وـالـحـوـشـيـةـ . وـنـفـحـتـ فـيـ الـمـفـرـدـاتـ وـالـجـلـ بـنـفـحـاتـ قـدـيـعـةـ صـالـحةـ الـمـعـاشـ وـالـمـعـادـ ، قـدـ أـطـلـعـ فـجـراً جـدـيدـاً عـلـىـ الـبـيـانـ الـعـرـبـيـ فـيـ الـحـقـيـةـ الـتـيـ قـتـلتـ ظـهـورـ الـاسـلـامـ إـلـىـ مـاـ نـاهـنـ خـمـسـةـ قـرـونـ .

وفي الضوء الساطع الذي أضاء ذلك الفجر به أمم الشرق أخرجت القرائح أعيجتها عقولاً ونقلأً ، فتها وسياستها ، وأيدت الجبارية في مختلف تلك الأمم ضروب زينةاتها بالهجات الفصحى كما أورزت الأباب كوانـنـ قـوـاـهاـ فـيـ اـسـتصـلاحـ تـلـكـ الـأـبـاجـاتـ لـكـ شـانـ مـنـ الشـؤـونـ الـمـاـمـةـ وـالـخـاصـةـ نـظـماً وـتـرـسـلاً . فـكـانـتـ بـحـلـتهاـ وـتـفـصـيلاً لـغـةـ عـرـيـةـ خـالـصـةـ وـلـكـنـهاـ لـغـةـ حـقـبـتهاـ .

تبهـتـ أـذـهـانـ الـعـالـمـ الـشـرـقـيـ الـعـرـبـيـ وـالـعـالـمـ الـغـرـبـيـ إـيـامـ تـبـهـتـ أـذـهـانـ الـعـالـمـ الـشـرـقـيـ الـعـرـبـيـ وـالـعـالـمـ الـغـرـبـيـ إـيـامـ

التغيير والتحرر على السنة الجديدة وأوجده النابهون منهم ما لم تسبق به  
الفنون مما يشتمل عليه الأدب من الفنون ذهب كل مذهبه وأتقى عجباً  
فجري السهل الممتنع على قلم عبد الله بن المقفع وصنوه عبد الحميد واندفعت  
خواطر الجاحظ في كل ما وصل إليه ذهنه من منظور ومحسوس ترسّل  
أشعّتها إلى أغوار الرسائل . وتقل الطبرى إلى تاريخه ذخائر معرفته باخبار  
ال أيام في أسلوب رشيق شائق واستفاض أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه  
ما تقدّم لديه أكباراً وقوفك تجاه البحر الآخر وجاء بدبيع الزمان في  
ترسله وتممله بما لا يزال نسيج وحده . وجمع الحريري من مكنونات  
اللغة في مقاماته ما لا تتحصّيه المخلية . وأتقى الشعالي في بقية الدهر بما  
طبق إيمانها على مهاراتها أحسن تطبيق . وصاغ ابن خلkan سير الأعيان  
في قالب من الجان . تاهيك بأحمد بن أبي طاهر في كتابه المشور والمنظور  
 وبالمعنى في مغاري السلطان محمود بن سبكتكين . إلى كثير غير  
أولئك من التوابع الذين لا تنفسح لتعديل أسمائهم الدقائق المعدودة .

وأما في قرض الشعر فهل أذكر لكم بعد المعلمات المجمّرات والمشوبات  
والمنذهبات والمفضليات والاصحيميات وروائع بشار بن برد ومسلم بن الوليد  
وأبي نواس ومروان بن أبي حفصة وأبي الشيص ودعبل . ثم هل أذكر  
المتنبي في ابتكاره والبحترى في رفته وأبا عام في جزاته والمعري في حكمته  
وسعو فكره وسماحة فطرته والشريف الرضي في إفاضته المدهشة وابن  
الرومي ومهياراً في أساليبه المشتملة على ما شاء الإبداع من دقائق الوصف  
مع امتداد النفس وراء ما كان مأولاً من صناعة السابقين .

في أن ليثيد بكلمة إلى ما جاء به أهل الأندلس والمغرب فقد حفظوا  
البلبغ والماثور من كلام عرب الشرق أحسن حفظ وقوّموا ملكتهم على  
الأساليب الفصيحة المبينة ولكنهم أدخلوا في صياغتها ومحسناتها ما شاءتهم  
طبيعة بلادهم وما آثرته سجايا أهلها . فإذا قرأت مشورهم فكله وضوء  
راهن رقيق متجلّف مواطن الوحشية متتساوق اللفظ والمعنى في شوط الجلاء

على ما تراه في تصفحك المقدمة لابن خلدون والمقدمة لابن عبد ربه  
ونفح الطيب المقرى والإحاطة لسان الدين بن الخطيب وقلائد العقارب  
ومطعم الانفس لافتتاح بن خاقان ، والشرق والمغرب لابن سعيد وأولاده  
وإذا قرأت منظومهم فقل ما شئت في عبقرية ابن هاني ، الملقب بعنزي الغرب  
وطلاوة بن خفاجة ورقة بن حمليس وسهرولة بن سهل . والابتكارات  
واللطائف التي لا تناصها عقود الدرّ ولا قطرات الندى ولا زمات الرياض  
في المؤسحات وتفاريئها وزهرياتها وخريائتها وفرقاتها بين جد ودبابة .

أولئك المتقدمون شرقاً وغرباً من أوردت اسماءم أو لم أوردها قد انحفونا  
بلغة ذات أجهزة وافية ، وآلات متنوعة نهاية النوع ، يستخدمها فكر الأدب  
الأذرب في التعبير عن الكليات منها كبرت ، والجزئيات منها صارت ، باقى ديانة  
وأبدع وشي ، وائلف ما يصل به اثر القلب الموحي ، إلى أبعد طوابها  
القلب الذي يتلق ذلك الوحي مطالعةً أو سماعاً .

غير أن مناجم تلك الجواهر ومنابت هاتيك الآلي ، دفينة في بطون  
أسفار جمة ضخمة ، وهي فيها متباudeة المظان مفقودة الأعلام ببهمة الصوى  
لا يلغى إليها إلا التنقيب عنها واعنات الروبة وكذا الذهن في تعرف  
أما كنها واستخراج نقاوتها . علة لقصور لم يتلاف إلى الآن القوام على  
اللغة إلا ببعضها ، ولكن الأدب لا يكون أدباً إلا وقد تجثم هذه  
الشقة وبذل ذلك الجهد وأصبح بالمواضع التي يصيب منها سداداً حاجته  
ووفاء بفرضه عليهما بصيراً . وإن يكون على هذا بالأدب التام فما تلك  
إلا مرحلة بجهاده واجتهاده توصله إلى تقويم لسانه وتحجيمه وابعاده عن  
منلالات الرطانة واللکنة والمجمحة وتعريفه كيف يحسن الاقناء بالسلف

ليمدح في غير بدعة تهدم بها تخوم لغته وتنقسم عرى عروبه .  
هي الأولى من مرحلتين وهي أشقها مطلياً وأبعدها غاية . أما الثانية  
 فهي الاطلاع على ما حدث في البيان العربي بعد تلك الحقبة الكبرى أي

من بدء زمن الانحطاط الطويل إلى مستهل البعثة العتيدة إلى نهاية ما وصل إليه في هذه الأيام.

أمر مروراً عاجلاً بحقيقة الانحطاط التي لم تخل من مجيدين في النظم ان لم يلغوا المتقدمين صفاء ديباجة ولا فتق ذهن فقد أسلسوا من مقادة الترب في الالفاظ والاساليب وأحدثوا طرائق خاصة لتسهيل ما صعب من ضروب التصرف في مخلفات الازمنة الاولى إلى صورة حال جديدة وفي مقدمة هؤلاء صفي الدين الحلي وابن معنوق والابيوردي وابن الفقيف التلمساني والبهاء زهير وابن القارض وابن مطروح وابن نباتة كذلك لم تخلي تلك الحقيقة من المجيدين في التراث كابن فضل الله العمري في مالك الابصار والقلقشendi في صبح الاعشى والمفرizi في الخلط وشهاب الدين النوري في نهاية الازب وابن الاثير الكاتب في الترسل أما جمرة الناثرين فكانوا من كتاب الدواوين وفي برهم هذه كانت الاشتغال بالبديع آية احلال التحليلات اللفظية محل المعاني.

بعد هذه النظرة أفضي بكم إلى عصرنا هذا لا تبين معكم بعثل لمح الطائر ما صار إليه الإنسان العربي وما يستطيع المتأنب أن يستفيد منه ليستكمل عدة أدبه على النحو الذي يوافق حضارة الزمن ومتباينات مطالبه.

بدأت البعثة الأدبية في مصر منذ عبد محمد علي وكانت المجمعة والركاكة العامية المتشبعة بخلط لا وصف له من الرطائن والكلمات المنحرفة عن أصل مدلولاتها هي الاداة الغريبة التي يتفاهم بها القوم نطقاً وكتابة.

بدأت البعثة والازهر مصدرها غير أنها كانت مما يعت إلى عبد الانحطاط بسبب ولوع أصحابها بتقليد البدعيين ولكنها كانت هبة من سبات الجهل والخجل ومحفزة إلى غاية من المرفان والنباهة . وفي طليعة أرباب الاقلام يومئذ يصر الشیخ حسن المطار ، الشیخ حسن قويدر ، محمد سيد أحمد باشا ، رفاعة بك ، رجال مدرسة الائین . ثم أعقبتها على الائم وقفه لم تتجاوز مدة عباس الاول وسعيد . فلما تولى

## خليل مطران

٧١

اما عايل استأنفت نشاطها وأظهر من ظهر في مبادئها الشیخ محمد شهاب الدين شاعراً ونائراً على رأس سلسلة ينظم الاستقرار، فيها أسماء: عبد الله فكري باشا ، علي مبارك باشا ، السيد علي الدريش ، ابراهيم بك مرزوق ، محمد في ، محمود صفت الساعاتي ، ابي السعود سالم ، التجاري ، الشیخ أحمد عبد الرحيم ، الشیخ علي اليحي ، الشیخ علي ابي النصر ، عبد الخالق الزرقاني ، بين نائرين وشمراء . بعض هؤلاء أدرك زمن توفيق وفي عهده قويت البعثة بارزة بها أسماء: شقيق منصور ، عبد الله نديم ، الشیخ حجزة فتح الله ، محمود واصف ، الشیخ احمد مفتاح ، احمد سعير ، حسن حسني الطويراني الخ الخ .

من مخلفات هؤلاء جانب ضاع ولكن جاباً منها واملأه أعلاها قيمة تجاه بفضل الله ، على أن الروح التي صدرت عنها تلك الحركة ما عنت أن أبدت في سهام البيان كوكبين من كواكب الأقدار الكبرى هما محمود سامي باشا البارودي شاعراً ، والاستاذ الامام الشیخ محمد عبد ناصر . ثم أخذت سهام ذلك البيان تزدان بالنجوم تلو النجم في نظام ساذكر من رجاله لكم الدين استأنرت بهم رحمة الله ، وادع ذكر الاحياء مد الله في آجالهم لأنكم تعرفونهم . فمن الشعراء .

اما عايل صبري ، محمد حفي ناصيف . ومن الكتاب عدا الشیخ محمد عبد :

ابراهيم اللقاني ، ابراهيم المولبحي وابنه محمد المولبحي ، الشیخ عبد الكريم سلطان ، مصطفى نجيب ، الشیخ علي يوسف ، قاسم امين ، محمد فتحي زغلول ، الشیخ المهدى ، مصطفى كامل ، الشیخ المنفلوطى ، الشیخ الخضرى ، امين الرافعى ، سعد زغلول هذا في مصر .

واما في الشام ولبنان ونهايتها متصلة منذ الساعة الاولى بهذه مصر

وكتب الغربيون متداولة بين البلدان فقد برز كتاب وشعراء ، اذكر منهم الذين توفاه الله ولم يقابوا أدبية يرجع إليها وهم : محمد بن حسين الحلي المطار ، كمال الدين الصمادي الجرجاني ، حسن جيشه ، بطرس الروم الكاثوليكي مكسيموس مظلوم ، جبرائيل بن يوسف الخاع ، كمال الدين الفزى ، محمد عابدين صاحب الحاشية الشهيرة في الفقه ، عبد الغنى الميدانى ، الأمير عبد القادر الحسنى ، محمد نور الترمذى وأخوه احمد ، رزق الله حسون ، أمين الجندي ، فرنسيس المراس ، أديب اسحق محمود الجزاوى مفقى دمشق ، الشهاب احمد المبنى ، ابراهيم الخورانى ، ميخائيل مثاقه ، الشيخ طاهر الجزاوى ، الشیخ محمد مبارك ، السيد محمد مرتضى ، الشيخ عبد الرزاق البيطار ، الشيخ جمال القاسمى ، السيد عبد الرحمن الكواكبى وشقيقه الشيخ مسعود ، الشيخ بشير الفزى ، رفيق العظم .

وأما العراق في جانب جماعة من السادة الالوسية فتحت سلطتهم بابي الثناء وتعت إلى عهد قريب بالسيد محمود شكري الالوسي ، يذكر من الشعراء والكتاب الذين انتقلوا إلى أكرم جوار :

كاظم ورضا الأزريان ، عبد الحميد الأطربوجي ، عمر رمضان ، صالح التميمي ، عبد الفقار الآخرس ، عبد الباقى العمرى ، أحمد عزت باشا العردى ، السيد جابر الحلى ، حسين المشارى ، محمد الغلامى ، احمد الجانى ، عبد الفتاح الشواف ، حسن الاوصى ، حسن البزار ، السيد ابراهيم العباطلى ، السيد حسن الداودى ، السيد احمد الفخرى وأخوه احمد ، السيد محمد سعيد جبوى الحسينى ، السيد جعفر الحلى .

واما في لبنان فقد برز من الشعراء والأدباء الذين لقوا ربهم : ناصيف اليازجي ونجلاه ابراهيم وخليل ، بطرس كرامه ، ابراهيم الأحدب يوسف الأمير ، قاسم أبو الحسن الكستى ، عمر الأذى ، احمد البرير عمر الياقى ، احمد فارس الشدياق ، مارون النقاش ، خليل الخوري ،

البستانيون بطرس وسلم وسلمان وعبد الله ، نجيب وأمين الحداد ، الياس صالح ، امين وشلبي الشعيل ، بشارة زلزل ، يعقوب صروف ، اسكندر وداود عمون ، فرج انطون ، اسكندر شاهين ، نعوم بكى ، جرجس همام ، نصيف المعلوف الخ .

عددت أعلام النهضة الحديثة في الأفكار العربية الثلاثة بلا تدقير في الترتيب الزمني لما فاتني في رحلتي من وسائل المراجعة واستغفر الله إلى ذكرى الذين انساني ضيق الوقت والاسراع في اعداد هذه الكاتبات امام ففاتتني على غير عمد .

ماذا أهدى إلى الأدب العربي أولئك الأدباء والشعراء ؟ أضافوا إلى الذخائر القديمة ذخائر مما أوحى إليهم أيامهم . لأنوا أعادوا اللغة من جفاف وآنسوا أوابدها من نفأر . عدلوا شيئاً كثيراً من السبك العام المواضيع في الأسلوب العام للكتابة . ادنوا قطوفاً لم تكن دائنة . زادوا على المفردات طائفة مما دعت إليه الحاجات . وسهلوا التحصيل وفتحوا أبواباً واسعةً للتفكير .

صنعوا عظيماً ، ولكن ما بي عمله أعظم .  
وهنا كان ولا يزال محل اهتمام اللغة بالتقدير في رأي الذين قابلوا بهـا وبين سواها فيما يتعلق بالتعبير عن أغراض هذا الزمن وطريقة الأخذ بهـ كما هم يريدون الطفرة والطفرة محـال . اجل بيـ علىـنا عملـ أعـظمـ مما عملـ اـيتـسـنـىـ القـرـبـ بيـ ماـ هوـ كـانـ وـماـ يـجـبـ أنـ يـكـونـ ولكنـ التـبعـةـ في التـقـيـرـ هيـ عـلـىـنـاـ وـلـيـسـ عـلـىـ اللـغـةـ .

وفي وسع أدبائنا استكمال ما نقص في الأسماء ، واتهـاجـ النـهجـ الذي يريدـونـهـ فيـ تصـوـيرـ الـخيـالـ ، وـالـذـهـابـ فيـ المـذاـهـبـ التيـ يؤـرـزنـهاـ لـادـاءـ مـعـاـيـرـهمـ معـ صـحةـ اللـغـةـ وـصـيـانـةـ الـاسـالـيـبـ الـخـالـصـةـ . وـانـ تكونـ الـادـبـ علىـ أيـ حالـ أـريـدـ ، يـمـسـورـ بـالـمـادـةـ الـتـيـ بيـنـ يـدـهـ منـ قـدـيمـ الـكـتـبـ الـعـرـبـيـةـ وـحدـثـهاـ علىـ انهـ مـطـلـبـ شـاقـ وـمـرـمىـ بـعـيدـ . لـكـنـ الصـمـوـبـاتـ تـهـلـ وـالـعـقـبـاتـ تـذـلـلـ

لدى مدين النغار ومدين المطالعة ومصرف الفكر في وسائل الخلق والتتجدد .  
لقد كان بودي لو أضرب لكم الامثال فانها أدنى متناولاً وأبلغ في  
استيفاء التعبين ييد ان الوقت لا يتسع في هذه المرة فليكن ما ذكرته  
مقدمة ايجالية موجزة ليستاف هذا البحث من هو أقدر عليه مني ويسهب  
فيه بالقدر الذي يريدكم من تعيين الوقت ما اضاءه سابقاً وكم من المعاصرین  
في الناس المأذنة الكافية بين قديم الادب العربي وحديثة الوفاء بكل  
ما تفضيه مطالب هذا الزمن من الانواع الشعرية والثرية المتعددة .

واختتم كلاني بالثناء عليكم لحسن اسماععكم وبالرغبة إلى الله أن يقيض  
من فتیان الاقطار العربية اللغة الفصحى ادباء يحكون المباني ويبتكرون  
المعاني . ويخرجون في الاعراض البيافية الحديثة كتبآ تنفسح لها صدور  
الاندية في العالم بجانب اقوم الكتب التي اخرجها ادباء الغرب .

دمشق : سنة ١٩٣٠

# في حِرَابِ الْمُتَنَبِّيِّ<sup>(١)</sup>

المتنبي وسف الدولة

للدكتور أحمد أمين

- ١ -

كان سيف الدولة ناحية فنية قوية ، لا تقل شأنها عن ناحية السياسة  
والحربية ، فهو يحب الفن ويولع به ، ويتذوقه ويتألم فيه .  
وقد وردت في ذلك أخبار متفرقة تدل عليه .

فهو مولع بالتصوير ، رغم النزعة الشائعة إذ ذاك في كراهيته ، فيروي  
صاحب البييمة أن سيف الدولة أمر بضرب دنانير لصليب في كل دينار  
منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه صورة ، فأمر يوماً لأبي الفرج البيضا  
بعشرة منها ، فقال :

نَحْنُ بِجُودِ الْأَمِيرِ فِي حَرَامٍ      نَرَأْيُ بَيْنَ الشَّعُودِ وَالْتَّعْمِ.  
أَبْدَعُ مِنْ هَذِهِ الدَّنَانِيرِ لَمْ      يَجْتَبِرَ قَدِيمًا فِي خَاطِرِ الْكَرَامِ  
فَقَدْ غَدَّتْ بِاسْمِهِ وَصُورَتْهِ      فِي دَهْرٍ نَا عُوْذَةً مِنَ الْعَذَمِ

ولعله استوحى ذلك من صورة دنانير الروم .  
وأدلى على ذلك ما ذكره المتنبي في صفة خبيثة سيف الدولة ، تدلنا

(١) أقام الجمجم المعلى العربي مهرجان للنبي في بيروت سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الأستاذ أحد أمين .

على ذوقه وجده لفن حقاً ، فقد ذكر المتنى أن هذه الخيمه أو الفesse التي كانت تضرب على سيف الدولة ، كانت قطعة فنية رائعة .

ففيها صورة روضة بديعة لم يحُكْمها السحاب وإنما حاكها السساج ، وأغصان الأنجار ترفق عليها طيور لا تنقص عن الطيور الطبيعية إلا بالفناء . وفيها صور وحوش يحارب كل جنس عدوه ، ولتكنها سُلبت الروح فتسالت .

وإذا ضربتها الريح ماج بعضها في بعض فكان صوراً خيل تحول ، وكان صوراً الأسود تخْتَلِلُ صوراً الغباء لتصيدها وتدركها .

وفي ناحية من الخيمه صورة ملك الروم ، وصورة سيف الدولة ، وملك الروم يسجد لسيف الدولة ، ويختضع له ويتذلل ، ويقبل بساطه ، إذ لا يقدر على تقبيل كنه ويدره لارتفاع مكانه .

وبين يدي سيف الدولة الملوّك متكتفين على مقاييس سيفونهم من هيبته . وفي حواشي الخيمه لآلي من النسيج تكاد لا تختلف عن الالالي الحقة إلا أنها لم تنظم ولم تُثقب . وفي ذلك يقول المتنى :

عليها رياض لم تحُكْمها سحابة \* وأعسان دُوحٍ لم تُغَنِّ حمامة \*  
من الدُّرِّ سقط لم يُشَفِّهِ ناظمه \* وفوق حواشي كل ثوبٍ موجّهٌ  
يحارب ضدَّ ضدَّهُ ويسألهُمْهُ \* تُجْبِلُ مَذَا كَيْهُ وَتَدَأْيِي ضَرَّاً مَّهُهُ  
لَا يُلْجَ لَا يُجَاهَ إِلَّا عَمَّا مَهُهُ \* وفي صورة الرومي ذي الناج ذاًهُ  
تُقْبِلُ أَفْوَاهَ الملوّكِ بِسَاطَهُ \* إِذَا ضربَتَهُ الريحُ ماجَ كَاهَهُ  
ويَكْبِرُ عَنْهَا كُثْمَهُ وَبَرَاجِهُ \* تُجْبِلُ مَذَا كَيْهُ وَتَدَأْيِي ضَرَّاً مَّهُهُ  
قِياماً لَمْ يُشْفِي مِنَ الدَّاهِ كَيْهُهُ \* وَمِنْ يَنْ أَذْنِي كَلِّ قَرْمٍ مَّوَاسِمُهُ  
قِبَامُهَا تَحْتَ الْمَرَاقِيقِ هَيْهَهُ \* وَأَنْقَدَ مَيْتَاً فِي الْجَفُونِ عَنْ ائِمَّهُهُ  
وهي صورة بديعة ، تشهد بحب سيف الدولة للتعمير والفن .

شم أولع بالوسق ، فكان في قصره الجواري المبنىات ، وبرون أن الفارابي لما زاره عرض عليه سيف الدولة قياده فأسممه ، فأسممه الفارابي من قانونه خيراً مما سمع .

وأعلى من هذا وأظهر ناحية سيف الدولة الادبية ، ولم يذكر المؤرخون لنا كيف ثق وكيف علم ، إلا أنهم ذكروا أنه كان من شيوخه أبوذر الشاعر وبن خالوبي اللغوي النحوي ، وأنه درس دواوين الشعر القديم ، وكانت تغذي عواطفه العربية ، من تدرج بالشجاعة والكرم كما كان يعرف أيام قبيلته (أغلب) ومفاخرها .

وتدل الدلائل كلاماً على دقة حسه الادبي وذوقه الفني . يقول فيه المتنى :

علم بأسرار الديانات واللغوي له خطارات تفضح الناس والكتبا  
فهل تستدل بهدا على أنه كان يعرف غير اللغة العربية أيضاً ؟ أظن ذلك ؛ فإن خلقـان يروي في ترجمة الفارابي أنه كان سيف الدولة مالـيك ، وله معهم لسان خاص يخدمـهم به .

ومن مظاهر حبه للـادـب وسـعـة اطـلاـعـه وحسن ذـوقـه أنه كان كـثيرـاً ما يـتحـتلـلـ بـأـيـاتـ قـدـيمـهـ ، وـتـعـجـبـهـ أـيـاتـ يـرـدـهـ ، أو قـافـيـةـ بـسـتمـحـاـ ، أو معـنىـ يـسـتجـيـدـهـ ؛ فـيـطـلـبـ مـنـ الشـعـرـاءـ أـنـ يـجـزـوـهـاـ أوـ يـقـولـواـ عـلـىـ قـافـيـةـ .

فـرـةـ - مـيـلاـ - وـرـدـ عـلـىـ خـاطـرـهـ بـيـتـانـ لـعـبـاسـ بـنـ الـاحـنـفـ :

أـمـيـنـيـ تـخـافـ اـنـتـشارـ الـحـدـيـثـ وـحـظـيـيـ فـيـ سـتـرـهـ أـوـفـرـ  
وـلـوـ لـمـ أـصـنـهـ لـبـقـيـاـ عـلـيـهـ لـكـ لـفـرـتـ لـنـفـيـ كـاـ تـنـظـرـ  
وـاسـتـحـسـنـ الـمـفـيـ ، فـأـرـسـلـ رـسـوـلـاـ مـسـتـجـلـاـ لـأـبـيـ الـطـيـبـ وـمـهـ رـفـةـ  
فـيـهاـ بـيـتـانـ يـسـأـلـهـ اـجـازـهـ ، فـقـالـ المـتنـىـ أـيـاتـ المشـهـورـةـ :  
رـضـاـكـ رـضـاـيـيـ الـذـيـ أـوـرـ وـشـرـكـ سـيـرـيـهـ تـاـ ظـهـرـ الـخـ  
وـدـيـوـانـ المـتنـىـ وـغـيـرـهـ مـنـ الشـعـرـاءـ مـلـوـهـ بـهـذـهـ الـإـمـتـالـ .

ثم مجلسه الأدبي الحاصل في حلب ، والذي قل "أن يكون له نظير ؟ فالشعراء والأدباء في مجلسه يثربون الموضوعات المتنوعة ، ويسامح فيها سيف الدولة ، ومحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، ومحزل العطاء مان أجاد ؛ فأحياناً يستذكرون الشعر القديم ، وأحياناً يسألهم إجازة شعر ، وأحياناً مسألة نحوية . وآخر مسألة نحوية ، حسبما أتفق ؛ فثلاً مرة ينشيء سيف الدولة هذا البيت :

لَكَ حِسْمِي كُعْلَهْ فَدَمِي لَمْ تَجْلِهْ  
ويطلب من أبي فراس أن يحيزه فيقول :

أَنَا إِنْ كُنْتُ مَالِكًا فَلَيَّ الْأَمْرَ كَلَهْ

ومنه يسأل المتنبي أن يعيد إنشاد قصيده :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعِزَّامِ وَتَأْنِي عَلَى قَدْرِ الْكَرَامِ الْمَسَكَارِمِ

وكان سيف الدولة يحب هذه القصيدة ويستعيدها ، فلما وصل إلى قوله :

وَقَنَّتْ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكْ لَوَاقْفَ كَآنَكَ فِي جَفْنِ الرَّدِّي وَهُوَ نَائِمٌ

تَمْرِبَكَ الْأَبْطَالِ كَلَّمِي هَزِيعَةَ وَوَجْهِكَ وَضَاحَ وَتَغْرِكَ باسِمْ

قال سيف الدولة : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، لأن الشطرين لا يلتئمان ، وكان خيراً أن تخالف بينهما فنقول :

وَقَنَّتْ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكْ لَوَاقْفَ وَوَجْهِكَ وَضَاحَ وَتَغْرِكَ باسِمْ

تَمْرِبَكَ الْأَبْطَالِ كَلَّمِي هَزِيعَةَ كَآنَكَ فِي جَفْنِ الرَّدِّي وَهُوَ نَائِمٌ

وهو تقد دقيق ، وإن كان المتنبي قد رد عليه فقال : « إن الثوب لا يعرفه البزار معرفة الحائط » .

وسأل سيف الدولة مرة من في مجلسه : هل تعلمون اسم مدوداً وجده مقصور ؟ فلم يحربوا جواباً إلا ابن خالوته فقال عذراء وعداري ، وبحراء ومحاري . وهكذا كان مجلسه حافلاً بالأدب والنقد .

وهو مع ذلك شاعر غير أنه مقل ، فقد رويت له في كتب الأدب

أشعار ، وإن كان كثير منها قد نسب لغيره في بعض دواوين الشعراء . فعلمه كان يتغنى بها فيظن بعض الناس أنها له ، ولكن بعضها يكاد يجمع الرواية على أنه لسيف الدولة ، كقوله في جارية رومية له كان بـ « واهـا وـيـختـيـ عـلـيـهاـ منـ حـلـايـاهـ ، قـاؤـدـهـاـ قـلـةـ وـقـالـ :ـ

راـقـيـتـيـ العـبـونـ فـيـكـ فـاشـفـةـ بـتـ وـلـمـ أـخـلـ قـطـ مـنـ إـشـفـاقـ  
وـرـأـيـتـ الـعـنـدـولـ يـحـسـدـنـيـ فـيـ لـكـ بـعـيدـاـ يـأـنـفـسـ الـأـعـلـاقـ  
فـتـسـمـيـتـ آـنـ تـكـوـنـ فـيـ بـعـيدـاـ وـالـذـيـ يـيـنـشـاـ مـنـ الـوـدـ باـقـ  
رـبـ شـجـرـ يـكـوـنـ مـنـ خـوـفـ شـجـرـ وـفـرـافـ يـكـوـنـ خـوـفـ فـرـافـ  
وـقـالـ :

وـعـانـبـنـيـ عـلـيـ الذـنـبـ وـالـذـنـبـ ذـبـهـ  
وـأـعـرـضـ لـمـاـ صـارـ قـلـيـ بـكـفـهـ  
إـذـاـ بـرـمـ الـمـاوـيـ بـخـدـمـةـ عـبـدـهـ  
سيـفـ الدـوـلـةـ هـذـاـ الـفـنـانـ النـاقـدـ الشـاعـرـ الـمـالـكـ ،ـ هـوـ الـذـيـ اـنـصـلـ  
بـهـ الـمـتـنـبـيـ .ـ

كان المتنبي بعد خروجه من سجنه لدعوه النبيه ، أول ما قيل من دعواه النبيه بائساً فقيراً نافقاً على الزمان وأهله ، يشعر بعظمته وعلو نفسه ؛ ثم لا يجد لهذه المظلمة منفذًا ؛ فهو يتعدد على من يسمعهم الناس عظامه ، فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديرًا لنفسه ولا لشاعرته ، حتى روى انه مدح

علي بن منصور الحاجب بقصيده التي مطلعها :

بـأـبـيـ الشـعـوسـ الـجـانـحـاتـ غـوارـبـاـ الـلـاـبـسـاتـ مـنـ الـحـرـيرـ جـلـايـاـ  
فـأـعـطـاهـ عـلـيـهـ دـيـنـارـاـ وـاحـدـاـ فـسـمـيـتـ الـقـصـيـدـةـ الـدـيـنـارـيـةـ .ـ

وـقـالـواـ إـنـ أـكـثـرـ مـاـ نـالـ عـلـىـ شـعـرـهـ قـبـلـ اـتـصالـهـ بـسـيفـ الدـوـلـةـ كـانـ مـاـنـهـ

دـيـنـارـ منـحـاـهـ الـأـمـيرـ أـبـوـ مـحـمـدـ الـحـسـنـ بـنـ عـبـيدـ اللهـ بـنـ طـنـعـنـ بـالـرـملـةـ .ـ

فـكـانـ اـتـصالـهـ بـسـيفـ الدـوـلـةـ صـفـحةـ جـدـيـدةـ فيـ أـدـبـهـ ،ـ وـصـفـحةـ جـدـيـدةـ

فيـ رـحـاءـ عـيـشـهـ .ـ

كان أبو الطيب يتنقل في ربوع الشام مادحًا من يخاله كربلاء محسناً حتى تزل على أبي العشائر، عم سيف الدولة، وعامل أنطاكية، ومدحه بقصائد كثيرة، يقول فيها:

شاعر الحمد خذلته شاعر الافتءة ظـ كلاما ربـ المعاني الدـ فاق  
لم تزلـ تسمعـ المديحـ ولكنـ نـ صهيلـ الحبـادـ غيرـ النهاقـ  
وسارـ معـ أبي العشائرـ سيرةـ مصغرةـ للسيرةـ التيـ سارـهاـ بعدـ معـ  
سيـفـ الدـولةـ .

في شهر جمادي الآخرة من سنة ٣٣٧هـ زار سيف الدولة أنطاكية، وكان بها أبو الطيب. وكان قد سمع سيف الدولة به وبشعره، ورأى أن يزور به بلاطه، فقدمه إليه أبو العشائر، وعرض عليه أن يكون شاعره.

كان غير أبي الطيب من الشعراء لو عرض عليه مثل هذا المرض يطير فرحاً، ورى أن ذلك أمنية الأ Kami وسعادة الدهر. ولكن أبو الطيب تردد طويلاً، وأداء تردداته أن يشرط. لم يشرط مالاً يعطاه، ولا جائزة ينالها، وهو لهذا ضامن. ولكنه اشترط ألا يعامل معاملة سائر الشعراء، لأنه ليس شاعراً خسب، بل شاعراً وعظياً. وقد سمع أن الشعراء يذلون لسيف الدولة ذلة لا يرضها لنفسه؟ سمع أنه يذلون الأرض بين بيده، وانهم ينشدون شعرهم وهم وقوف أمامه؟ فاشترط ألا يكون شيء من ذلك، إنما يكون «ملك الشعراء» يدح ملك الناس؟ فإذا كان سيف الدولة راكباً مدحه المتنبي وهو راكب، إذا كان جالساً مدحه وهو جالس، ثم لا يظهر بعذر الخضوع من تقبيل الأرض ونحوه.

وعرف سيف الدولة منزلته وشهرته، وأنه سيكون صوتاً مدوياً في العالم العربي يشيد بذلك فقيه شروطه.

## أحمد أمين

٨١

لبث المتنبي مع سيف الدولة نحو عشر سنين من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ أعلمهـ فيـ حـلبـ ، وـ قـالـ فـيـ هـاـ نحوـ ثـلـثـ شـعـرـ كـمـ ، وـ أـجـودـ شـعـرـ كـيـفـ .

لم يجدهـ شـعـرـ المـتـنـبـيـ فـيـ ذـمـنـ جـوـدـتـهـ أـيـامـ سـيـفـ الدـولـةـ لـأـسـبـابـ :  
أـهـمـهـ أـنـ المـتـنـبـيـ لـمـ يـجـدـ مـاـ يـغـدـيـ نـفـسـهـ وـ عـواـطـفـهـ فـيـ نـوـاجـيـاـ الـخـلـفـةـ كـاـمـ  
وـجـدـهـ فـيـ هـذـهـ الـأـيـامـ ، فـلـمـتـنـبـيـ عـرـبـيـ يـعـزـ كـلـ الـاعـزـازـ بـعـرـبـاهـ ؟ـ فـكـانـ  
يـخـنـقـرـ كـافـورـاـ لـأـعـجمـيـتـهـ ، وـ يـسـبـ اـبـنـ خـالـوـيـهـ لـأـعـجمـيـتـهـ ، وـ يـقـولـ فـيـ آيـاتـهـ :  
«هـابـ سـيـيـوـفـ الـهـنـدـوـيـ حـدـائـدـ»ـ فـكـيـفـ إـذـاـ كـانـ نـيـزـارـيـةـ عـرـبـاـ

وـجـرـىـ ذـكـرـ ماـ بـيـنـ الـأـرـبـ وـ الـأـكـرـادـ مـنـ الـفـضـلـ ، فـسـأـلـ سـيـفـ الدـولـةـ  
المـتـنـبـيـ مـاـ نـقـولـ ؟ـ فـقـالـ :

إـنـ كـنـتـ عـنـ خـيـرـ الـأـنـامـ سـائـلاـ فـخـيـرـهـ أـكـثـرـهـ فـضـيـلاـ  
مـنـ كـنـتـ مـنـهـ يـأـهـمـ وـائـلاـ الطـاعـنـيـنـ فـيـ الـوـغـيـ آـوـيـاـ  
وـالـعـادـلـيـنـ فـيـ النـدـيـ الـمـواـذـلـاـ قـدـ فـضـلـواـ بـعـضـكـ الـقـبـاـلـاـ  
فـكـانـ لـهـذاـ إـذـاـ مـدـحـ كـافـورـاـ وـغـيـرـهـ لـمـ يـخـلـصـ وـلـمـ بـوـانـهـ طـبـعـهـ ،  
وـإـذـاـ مـدـحـ سـيـفـ الدـولـةـ مـدـحـ عـرـبـاـ لـأـبـرـىـ غـضـاضـةـ فـيـ مـدـحـهـ ، وـأـنـاثـ  
عـلـيـهـ الـمـعـانـيـ الـعـرـيـةـ اـنـثـيـاـلـاـ .

وـكـانـ المـتـنـبـيـ وـسـيـفـ الدـولـةـ لـدـيـنـ ، شـاءـ اللهـ أـنـ يـولـدـ فـيـ سـنـةـ وـاحـدةـ  
سـنـةـ ٣٠٣ـ ، وـاصـطـحـبـاـ وـسـنـهـ أـعـزـ أـيـامـ الـشـابـ ، فـقـضـيـاـ مـعـاـ مـنـ سـنـ ٣٤ـ  
إـلـىـ ٤٤ـ ، وـالـعـواـطـفـ تـهـازـجـ وـتـحـابـ ؟ـ إـذـاـ تـقـارـبـ فـيـ السـنـ وـأـفـقـ  
فـيـ الـشـابـ .

وـسـيـفـ الدـولـةـ فـارـسـ وـالـمـتـنـبـيـ فـارـسـ ، كـلـهـاـ يـمـتـقـنـ الـخـيلـ وـالـظـرـبـ  
وـالـطـعـانـ ، فـانـ خـرـجـ سـيـفـ الدـولـةـ فـارـسـاـ خـرـجـ المـتـنـبـيـ فـارـسـاـ ، وـقـدـ جـهـيـهـ  
فـيـ عـدـةـ غـزـوـاتـ إـلـىـ بـلـادـ الرـومـ ، وـمـنـهـاـ غـزـوةـ قـالـواـ إـنـهـ لـمـ يـنـجـ مـنـهـ إـلـاـ  
سـيـفـ الدـولـةـ وـسـتـةـ نـفـرـ مـنـ سـجـبـهـ أـحـدـمـ المـتـنـبـيـ ، فـإـذـاـ شـعـرـ المـتـنـبـيـ فـيـ الغـزوـاتـ  
مـعـاـ (٦)

والقتل والشجاعة وال الحرب فاما يستمد ذلك من نفسه . ومن شعوره ، لا من ألفاظ حثاها في رأسه ينظامها ولا تصل بقلبه . ثم ما أغدق عليه سيف الدولة من مال لم يخلُ به ولم تره عينه من قبل ؛ وكان المتنى محباً المال حباً لا يتناسب وطلبه المجد وعلوه ، وقد عله هو بأن ذلك يرجع الى أيام صباح يوم كان لا يجد قوت يومه ، فلمثله ذلك قيمة اما والشهوة اليه والحرص عليه ، ويبر عما في نفسه من ذلك فيقول :

**فِي نَحْلٍ مَائِكَ كَاهَةٌ  
وَلَا يَنْتَحِلُّ فِي الْمَجْدِ مَائِكَ كَاهَةٌ  
وَدِيرَهُ زَدِيرَ الْمَجْدِ كَاهَةٌ  
وَلَا يَمْجُدُ فِي الدُّنْيَا لَمَنْ قَلْ مَجْدُهُ**

فقداء سيف الدولة من هذه الناحية حتى أتخمه ، وكان في سيف الدولة الأريحية العربية والكرم العربي فنقابلت هذه الصفة مع شرارة المتنى وطمعه ، فكان يعطيه في كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار ، غير المدابا من أفراس وجوار وسيوف ، وأقطعه مرة إقطاعاً بناحية معرة النعمان كان يخرج اليها أحياناً ، فزاد العطاء في فصاحة المتنى وحمله على المعن في استخراج المعانى ، والأشهى تفتح اللها .

وفوق هذا وذاك فقد كانت كل الوسط الذي حول المتنى أيام سيف الدولة يتطلب منه الاجادة . فلقد كان حوله شعراء عديدون نامهون كأبي فراس والنامي والبيفاء وابن ثباته وغيرهم ، وتقاد ونحاة ولغويون ، والملك على رأسهم يشعر وينقد ويقدر ، ويأتي من أعمال الفروسيّة والبطولة ما ينطق العي .

فكيف بعد ذلك كله لا يكون عصر المتنى مع سيف الدولة خير عصوره وأحسنها انتاجاً . وقد سئل هو نفسه في ذلك : لم تراجع شعره بعد مقارقة آل حمدان فقال : قد تجوزت في قولي وأغفت طبعي ،

واغتنمت الراحة ، منذ فارق آل حمدان . وفيهم من يقول ( المتنى ) يعني أبا فراس ، وفيهم من يقول : وقد علمت بما لافتة منها قبائل يعرب وهي زار لقيا لهم بأرماح طوال نشیرهم بأعمالي قصار يعني أبا زهير بن مهلييل الحمداني . وفيهم من يقول :

**أَخَا الْفَوَارِسَ لَوْ رَأَيْتَ مَوْاقِيْ  
وَالْخَيْلَ مِنْ نَحْتِ الْفَوَارِسِ تَشْحَط  
لَقَرَأْتَ مِنْهَا مَا تَنْخَطِ يَدُ الْوَغْيِ  
وَالْبَيْضُ تَشْكُلُ وَالْأَسْنَةُ تَنْقَطُ  
يَعْنِي أَبَا الْمَائِرِ . اهـ .**

وهكذا اجتمعت كل هذه الأسباب على إحسان المتنى في هذه الفترة كل الاحسان . وإن كان ذلك الخوف من الناقدين ، والعنق في إعمال الفكر ، أخرجه أحياناً إلى ما يسميه التقاد بالخيال الواهم ، وبعنون به في الخيال إلى حد الوضم .

## - ٢ -

ال Cheryl المتنى بسيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه الأول ، فأخذ يسجل أحداهه الحرية والمدنية تسجيلاً أديماً . فان سجل المؤرخون الخافق صرفة فالمتنى يسجلها ممزوجة بمواطفه ومشاعره .

قد كانت هذه الفترة فترة غزوات متواتلة من سيف الدولة الروم والخارجين عليه من أقاربه وغيرهم ، فأخذ المتنى يقول قصيدة لكل موقعة ، فقد ظفر بمحصن بروز ويه سنة ٣٣٧ فقال المتنى قصيده : وفاوكا كالربع أشباح طاسمه . لأنّ كُسْبَيَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِهَ ، وحارب سيف الدولة القرامطة هذا العام ، واستشهد منهم عمّه أبا وائل ،

فقال المتنى قصيده :

لام طماعيَّةِ الماذل ولا رأي في الحُبِّ للتعاقل  
وخرج هذا العام لنصرة أخيه ماصر الدولة على معز الدولة الديلي ،  
فاضطر معز الدولة إلى الصلح ، فقال المتنبي قصيده :  
أعلى الماءِ ما يُعْنِي على الأَسَلِ والطاغُونْ عِنْدَ مُحَبِّيهِنْ كالفيل  
واسْتَعْدَ لغزو الروم سنة ٣٣٩ وأعد جيشه فقال المتنبي قصيده :  
لَهَا الْيَوْمَ بَعْدَ عَدِ أَرْبِيجْ وَنَارْ فِي الْعَدُوِّ لَهَا أَجْيَجْ  
فَلَا اهْزَمْ سيف الدولة في هذه الواقعة قال قصيده :  
غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبْنُو أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا  
وَقَالَ : إِنْ سَبَبَ الْمَزِيْدَةَ مَا لَحِقَ بِسيف الدولة من الضيفاء والحبنا ،  
وإن كل غزوة بعد هذه الغزوة فليسيف الدولة النصرة . لأن جنوده قد  
تقىيت من الانذال ، ولم يبق فيهم إلا الأبطال .

وبني سيف الدولة مرتعش سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي قصيده :  
فَدِينُكَ مِنْ رَبِيعٍ وَإِنْ زَدْتَنَا كَرْبَلَا فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّمْسَ لِلشَّرْقِ وَالْفَرْبَا  
وجاء رسول ملك الروم إلى سيف الدولة يتمنى الفداء سنة ٣٤١ ،  
قال المتنبي :  
لقيت العفة بما لها وزرعت العداة بما جاها  
وبني سيف الدولة نفر الحديث سنة ٣٤٣ ، فقال فيه المتنبي  
القصيدة المشهورة :  
عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْنِي الْعَزَافِيمْ وَتَأْنِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِيمْ  
وهكذا كان كل عمل حربي يأتيه سيف الدولة يسجله المتنبي ويفلسفه  
ويؤديه ، ويخرجه قصيدة رائعة .  
وكذلك كان يسجل أحداث سيف الدولة المدنية ، فتموت أم سيف  
الدولة فيرميها قوله :

أحمد أمين

٨٥

تُعِدُّ المُتَشَرِّقَيْهُ وَالْمَوَالِيِّ وَتَقْتَلُنَا الْمُتَوَنُ بِلَا قِتَالِ  
وَيَعُوتُ ابن سيف الدولة فيرميه بقصيدة :  
بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بِكَ فِي الرَّمْلِ وَهَذَا الَّذِي يُعْنِي كَذَاكَ الَّذِي يُبْدِي  
وَيَعُوتُ غَلامَ سيف الدولة « عَاكَ » فيرميه بقصيدة :  
لَا يَحْزُنْ اللَّهُ الْأَمِيرُ فَانْتَ لَا حُزْنٌ مِنْ حَالِهِ بِتَصْبِيبِ  
وَيَعُوتُ أختَ سيف الدولة فيرميها بقصيدة :  
إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرَّزِيْةِ فَضَلاًّ تَكُنْ الْأَفْضَلُ الْأَعْزَلُ الْأَجْلَاءِ  
وَهُرِضَ سيف الدولة فيقول المتنبي :  
إِذَا عَتَّلَ سيف الدولة اعْتَلَتِ الْأَرْضُ وَمَنْ فَوْقُهَا وَالْبَأْسُ وَالْكَرْمُ الْمَحْفُظُ  
وَيَخْرُجَ لسيف الدولة دَمْلَ فيقول المتنبي :  
أَيَّدْرِي مَا أَرَابَكَ مِنْ « رِبِّ » وَهُلْ رَفِقٌ إِلَى الْفَلَكِ الْخَطُوبِ  
وَيَشْفَقَ سيف الدولة فيقول المتنبي :  
الْمَجْدُ عَوْفٌ إِذْ عَوْفَتَ وَالْكَرْمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْأَلْمُ  
وَيَأْتِي عَيْدُ الْفَطَرِ فِيهِنَّهُ ، وَعَيْدُ الْأَضْحِيِّ فِيهِنَّهُ .  
وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ شِعْرَ المتنبي فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ سِجْلًا لِكُلِّ أَعْمَالِ سيف  
الْوَلَةِ وَأَحْدَاثِهِ كَبِيرًا وَصَغِيرًا ، سَلَهَا وَحَرَبَهَا ، أَحْزَانَهَا وَأَفْرَاحَهَا ،  
جَدَهَا وَهَزَهَا ،  
وَالْمُتَبَعُ الْدِيْوَانُ رَوَى أَنَّ شِعْرَ المتنبي فِي وَصْفِ حَرُوبِ سيف الدولة ،  
وَشِعْرَهُ فِي الْحَزَنِ ؛ أَرْقَ مِنْ شِعْرِهِ فِي الْمَدِيْجِ وَشِعْرِ السُّرُورِ . وَسَبَبَ  
ذَلِكَ — عَلَى مَا يَظَاهِرُ — أَنْ نُوْعَ الشِّعْرِ الَّذِي يَشْتَدُ الصَّالِهُ بِنَفْسِ المتنبي ،  
يَجْوِدُ وَيَغْزِرُ — وَقَدْ كَانَ المتنبي فَارِسًا تَمْجِيْهُ الْفَرُوشِيهُ وَالْبَطْوَلَهُ ، فَإِذَا قَالَ  
فِي ذَلِكَ يَسْتَخْرِجُهُ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ . وَكَانَ نَفْسَهُ حَزَنَهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْلِ  
الْمَجْدَ الَّذِي يَصْبُو إِلَيْهِ ، فَيَحْزَنُ حَزَنًا عَمِيقًا عَلَى الْمَيْتِ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَهُ  
يَحْزَنُ عَلَى لِيَلَاهِ . أَمَّا السُّرُورُ وَأَمَّا الْمَدِيْجُ فِي غَيْرِ الْبَطْوَلَهِ فَصَبَاغَهُ لَا تَسْ  
إِلَّا السُّطْحَ الظَّاهِريِّ مِنْ قَلْبِهِ .

وكما سجل المتنبي أحداث سيف الدولة ، سجل نفسه في مشاعرها المختلفة ، وانهياضها وانبساطها ، وأمنها واضطراها . وكان المتنبي حاد الذكا ، حاد المزاج ، صريحاً ، لا يستطيع أن يخفي ما في نفسه ، وقد توالى عليه أوقات شدة ورخاء ، وتباينت عليه ساعات أمن وساعات قلق . وكان مفترطاً بين الرضا والغضب ، والبُؤس والنعيم . وما زاد الامر صعوبة أن سيف الدولة من جنسه سريع الرضا ، سريع الغضب ، سريع الى آخر حدود السعادة ، متنقلاً الى آخر حدود الانتقام ، ينفعل أحياناً لفصيدة واحدة المتنبي انفعالات متعاكسة ، فيعجبه البيت في مدحه فيطرد له أشد العطوب ، ويغتر المتنبي عليه بنفسه فيهجي أشد الهياج — وطبعان على نعم واحد بهذا الشكل لا يمكن أن يسودها الصفاء النام ولا الجفاء النام ، فإذا ساد الصفاء فسرعان ما يعتكر ، وإذا اعتكر فسرعان ما يصفو . وهكذا كان حالها دائمةً ، فترى سيف الدولة يعطي المتنبي الائتلاف في لحظة ، ويرضى عن قته في لحظة ، وزرى المتنبي له عينان ، عين في الجد وعين في المال ، بأخذ المال فيرضى ، وينظر الجد فيثور ، والجد في نظره أن يسود هو ، ولا يكون مَسْوِداً لأنحد ، حتى ولو كان سيف الدولة .

وبنهاية ذلك كان بلاط سيف الدولة مسرحاً مُمثل فيه دسائس كثيرة المتنبي ؛ فقد كان فيه شعراء كثيرون ، كانوا شعراء سيف الدولة قبل المتنبي وأيامه ، وكانوا ذوي حظوة كبيرة عند سيف الدولة ، فكسفهم المتنبي ، وعلام بنفسه وبشعره ؛ فكان من الطبيعي أن يحقدوا عليه ويدسوا له ، وغير الشعراء من الأدباء والعلماء كذلك ، يرون المتنبي بأخذ أكثر مما يأخذون ، وبينما القرب من سيف الدولة أكثر مما يتناولون ، فكيف لا يغضبون ؟

وربما كان أشد من هؤلاء عداوة له أبو العباس النامي الشاعر وأبو فراس وابن خالويه النحوي اللغوي .

كان سيف الدولة يميل الى النامي قبل المتنبي ، فلما جاء المتنبي مال عنه ، ففاض ذلك النامي ، وخلا يوماً بسيف الدولة وعاته وقال له : لم تُغصِّلْ عليَّ ابن عبدان السقا ؟ (يعني المتنبي) فأمسك سيف الدولة عن الجواب . فلما ألحقا سيف الدولة : لأنك لا تحسن أن تقول ك قوله :  
يَعُودُ مِنْ كُلِّ فَتْحٍ غَيْرَ مُفْتَحٍ  
وَقَدْ أَعْذَدَ إِلَيْهِ غَيْرَ مُخْتَفِلٍ  
فَنَهَضَ مُغْضَبًا ، وَاعْتَزَمَ أَلَا يُدْحِهَ أَبَدًا :

وأبو فراس يقول لسيف الدولة : إن هذا التشدق كثير الأدلة عليك ، وانت تعطيه كل سنة ملأة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويعكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره . وبأخذ دائماً المساك على المتنبي ، فإذا قال بيأنا جيلاً قال أبو فراس إنك سرقته من قول بشار ، أو من قول دعبدل .

ويتجاذل المتنبي وابن خالويه في مسألة لغوية ، فيغضب ابن خالويه ( وهو أستاذ سيف الدولة ) فيخرج من كه مفاصحاً جديداً ليلكم به المتنبي .

وهكذا كان بلاط سيف الدولة حرباً علنية وخفية على المتنبي . ولم يخلص المتنبي من حول سيف الدولة من الشعراء إلا أبو الفرج البيهقي . فقد كان المتنبي يأنس به ويهبه شکواه من سيف الدولة ومن حوله ، وبأنس عليه سره ؛ وقد ساعدت طباع أبي الطيب على تحجح هذه الدسائس فهو يتغاضم فيغضب الشعراء ، بل ويتغاضم فيغضب الأمير ، وهو دائم الإعلان عن نفسه والفاخر بها ؛ ويحفو سيف الدولة فيجفو المتنبي ، ويكلم سيف الدولة فيجيئه المتنبي ، وتنافى المناسبات ليقول الشعراء وينظر سيف الدولة من المتنبي أن يقول ولا يقول ، والمتنبي حاز النفس بين الجد والمصال ، يجفو بجداً ، ولا يعن في الجفاء مالاً ، ويصدر لأفته ، وبخض لطمه ، وهي حال ترثيك النفس وتعقد الحياة .

هذا كله قد سجله المتنبي أيضاً في شعره في سيف الدولة ، فمن السنة الثانية لاتصاله بسيف الدولة يذكر الحسد ويذم الناس ويقول :

فأبلغ حاسدي على أني كتاب برق يحاول في لحاقا  
وهل أعني الرسائل في عدو إذا ما لم يكن ظبي رقاقة  
إذا ما الناس جز لهم لبيب فاني قد أكتنهم وذاقا  
فلم أر وددهم إلا خداعا ولم أر دينهم إلا نفاقا  
ويتعنى لو تعطى الملوك على أقدار الناس ، فلم يكن يتأت الخسيس شيئاً  
ليت الملوك على الأقدار مُعطيه فلم يكن لدني عينها طمع ولعل أوضح ما يدل على هذه الحال قصيده التي مطلعها :

وآخر قلبا من قلبه شيء ومن بمحضي وحالى عنده سقط  
فيه تصور هياج نفسه أشد هياج ، فهو لا يعبأ بسيف الدولة  
إلا مداراة ، ولا يعبأ عن حوله من الناس ومن الشعرا ، ويعدح سيف  
الدولة ليتحم نفسه ، ويعرض بأبي فراس وغيره من الشعرا :

يا أعدل الناس إلافي معمالي فيك الخصم وانت الخصم والحكم  
أعيذه نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم  
وما انتفاع أخى المدى بناظيره إذا استوت عنده الانوار والظلم  
سيعلم الجم من ضم مجلسنا بأتي خير من تسعى به قدم  
أنا الذي نظر الاعمى إلى أدبي وأمكنت كلاتي من به صمم

\*\*\*

الليل والليل والبيداء تعرفي والسيف والرمح والفرطاس والقلم

\*\*\*

ما كان أخلفتنا منكم بتكرمة لو أن أمركم من أمرنا أمم

\*\*\*

كم تطلبون لنا عيناً فيعجزكم ويكره الله ما تأنون والكرم  
ما بعد العيب والنقصان من شرف أنا التريا وذان الشيب والهرم

ثم يهدد بالرجل :

إذا ترخت عن قوم وقد قدروا إلا شارقهم فالاحلون ثم  
شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الانسان ما يتضم  
ثم يطعن الشعرا حوله فيقول :  
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم  
هذا عتابك إلا أنه ميقته قد خسین الدر إلا أنه كام  
قصيدة من غير شك - من أقوى شعر المتنبي ، سكب فيها نفسه ،  
ولم يعبأ بعقام أحد ، وكانت كافية لأن يطرده سيف الدولة شرطه ،  
ولكن - كما قد قلت قبل - إن سيف الدولة من جنس المتنبي ، فلأن كانت  
القصيدة أغضبه أشد الغضب فقد جاء فيها :

إن كان سرك ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم لم

وهذا أطرب سيف الدولة أيام طرب .

وانتهت المرة بأن أعطى سيف الدولة المتنبي ألفاً وألفاً ، فقال المتنبي :

جاءت دنائرك مختومة عاجلة ألفاً على ألف  
أشبعها فملك فيلق قلبته صفاً على صف  
ولكن إن انتهت هذه الحادثة فلا بد أن يعقبها حوادث مثلها ما دام  
سيف الدولة والمتنبي على ما هما والباطل على ما هو .  
وظل المتنبي يتعاظم في شعره ويعرض بغية من الشعرا ، ويقول

سيف الدولة :

إن هذا الشير في الشير ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك  
عدل الرحمن فيه ينتسا قضى بالفظ لي والحمد لك  
فإذا سار بأذني حاسد سار من كان حياً فلك  
وشاء القدر أن يكون آخر شعر في سيف الدولة من هذا القبيل  
وعلى هذه النسمة وهو :

لـ «كـطـلـيـن» كـريـمـاً بـعـدـ رـؤـيـةـ إنـ الـكـرـامـ بـأـسـخـامـ يـدـاً خـتـمـواـ  
وـلـاـ تـبـالـ بـشـعـرـ بـعـدـ شـاعـيرـ قـدـ أـسـدـ القـولـ حـقـ اـحـمـدـ الصـعـمـ  
وـظـلـاتـ السـعـاـيـاتـ قـعـدـ ،ـ فـابـنـ خـالـوـيـهـ وـغـيـرـهـ يـلـحـ فـيـ الـإـيقـاعـ بـالـمـتـنـبـيـ ،ـ  
وـالـمـتـنـبـيـ يـعـنـ فـيـ تـعـاـيـهـ حـقـ فـاضـ الـأـمـاءـ ،ـ فـلـ سـيـفـ الدـوـلـةـ كـثـرـةـ القـولـ فـيـ  
الـمـتـنـبـيـ ،ـ وـمـلـ المـتـنـبـيـ كـثـرـةـ الغـضـبـ وـالـعـتـابـ ،ـ فـتـلاـقـتـ رـغـبـةـ المـتـنـبـيـ فـيـ الـخـروـجـ  
مـنـ حـلـبـ بـرـغـبـةـ سـيـفـ الدـوـلـةـ فـيـ الـرـاحـةـ مـاـ يـنـظـرـ وـيـسـعـ ،ـ فـرـحـ المـتـنـبـيـ  
إـلـىـ مـصـرـ ،ـ وـأـسـدـ الـسـتـارـ عـنـ فـصـلـ مـنـ رـوـاـيـةـ المـتـنـبـيـ ،ـ وـانـ كـانـ  
الـرـوـاـيـةـ لـمـ تـمـ فـصـولاـ .ـ

وـفـيـ الـحـقـ إـنـ الـزـمـانـ أـخـطـأـ فـوـضـعـ المـتـنـبـيـ فـيـ غـيرـ مـوـضـعـهـ ،ـ اـعـطـاهـ  
نـفـسـ مـاـكـ وـلـانـ شـاعـرـ ،ـ وـوـقـفـهـ بـدـفـ عـلـىـ أـبـوـابـ الـأـمـرـاءـ يـمـدـحـهـ ،ـ وـهـوـ  
إـذـ يـمـدـحـهـ يـرـىـ مـنـزـلـهـ —ـ حـفـاـ أوـ باـطـلاـ —ـ فـوـقـ مـنـزـلـهـ ؟ـ فـكـانـ شـأنـهـ  
شـأنـ كـثـيرـ مـنـ النـاسـ لـاـ تـلـامـ نـفـسـيـهـ وـمـنـصـبـهـ ،ـ نـفـسـ رـئـيـسـ وـمـنـصبـ  
مـرـؤـوسـ ،ـ أـوـ نـفـسـ حـرـبـ وـنـضـالـ وـمـنـصبـ ذـلـةـ وـهـوـانـ ؟ـ وـهـذـانـ  
الـعـنـصـرـانـ إـذـ اـجـتـمـعـاـ سـبـبـاـ شـفـاءـ صـاحـبـهاـ ؟ـ لـذـلـكـ كـانـ نـفـسـ المـتـنـبـيـ ثـائـرـةـ  
دـائـمـاـ .ـ وـمـنـ يـدـرـيـ ؟ـ أـمـلـ مـاـ مـنـجـحـتـاـ مـنـ شـعـرـ جـزـلـ جـمـيلـ كـانـ نـتـيـجـةـ  
هـذـاـ الـعـنـاءـ ،ـ وـلـوـ تـلـاعـمـ مـنـصـبـهـ وـنـفـسـهـ لـاـخـلـدـ إـلـىـ الـرـاحـةـ ؟ـ فـكـمـ كـانـ  
الـشـفـاءـ وـالـبـؤـسـ وـالـفـقـرـ وـالـاضـطـهـادـ وـالـعـذـابـ فـعـمـةـ عـلـىـ الـإـنـسـانـيـ بـمـاـ أـخـرـجـتـ  
مـنـ شـعـورـ نـبـيلـ وـفـنـ جـمـيلـ .ـ

وـبـعـدـ ،ـ فـعـ هـذـاـ كـلـهـ لـمـ يـجـدـ المـتـنـبـيـ عـوـضاـ عـنـ سـيـفـ الدـوـلـةـ فـيـ عـلـوـ  
شـأنـهـ وـكـرـمـهـ وـعـرـيـتـهـ وـذـوقـهـ وـفـرـوـسـيـهـ ؟ـ وـخـرـجـ يـتـشـدـدـ الـمـلـاـثـ فـيـ مـصـرـ  
وـغـيـرـ مـصـرـ فـلـ يـتـلـ مـلـكـاـ وـلـمـ يـجـدـ مـدـوـحـاـ يـنـطـافـهـ بـالـعـانـيـ كـمـاـ أـنـطـافـهـ سـيـفـ الدـوـلـةـ ،ـ  
وـعـرـضـ فـيـ أـوـلـ أـمـرـهـ بـعـصـرـ بـسـيـفـ الدـوـلـةـ ،ـ وـلـكـنـهـ أـدـرـكـ الـحـقـيـقـةـ الـمـرـةـ  
بـعـدـ ،ـ فـقـابـ وـأـفـابـ وـنـدـمـ عـلـىـ مـاـ كـانـ ،ـ وـحـنـ إـلـىـ سـيـفـ الدـوـلـةـ وـحـنـ  
سـيـفـ الدـوـلـةـ إـلـيـهـ ،ـ فـيـقـولـ مـنـ قـصـيـدـةـ فـيـ غـيرـ دـيـوانـهـ :

أحمد أمين

٩١

عـرـتـ بـسـيـرـيـ نـحـوـ مـصـرـ فـلـاـعـماـ بـهـاـ وـلـعـاـ بـالـسـيـرـ عـنـهاـ وـلـاـعـثـراـ  
وـفـارـقـتـ خـيرـ النـاسـ قـاصـدـ شـرـمـ وـأـكـرـمـهـمـ طـرـرـ الـأـلـامـمـ طـرـاـ  
فـعـاقـبـيـ المـخـصـيـ بـالـغـدرـ جـازـيـاـ لـاـنـ رـحـيـلـيـ كـانـ عـنـ حـلـبـ غـدـرـاـ  
وـمـاـكـنـ إـلـاـ فـائـلـ الرـأـيـ لـمـ أـعـنـ بـحـزمـ وـلـاـسـتـصـبـتـ فـيـ وـجـهـيـ حـبـراـ  
أـقـدـ كـانـ المـتـنـبـيـ حـيـنـ فـارـقـ سـيـفـ الدـوـلـةـ يـمـتـقـدـ أـنـهـ غـدـرـ بـهـ فـيـقـولـ :ـ  
حـبـبـتـكـ قـلـيـ قـبـلـ حـبـبـيـكـ مـنـ نـائـيـ وـقـدـ كـانـ غـدـارـاـ فـكـنـ أـنـ وـاـيـاـ  
وـلـكـنـ مـرـورـ الزـمـانـ ،ـ وـتـكـشـفـ الـحـوـادـثـ وـخـيـسـةـ الـأـمـلـ فـيـ غـيـرـهـ  
جـعلـتـهـ يـرـىـ غـيرـ رـأـيـهـ الـأـوـلـ ،ـ وـانـ المـتـنـبـيـ لـاـسـيـفـ الدـوـلـةـ كـانـ هوـ  
الـفـادـرـ ،ـ إـذـ يـقـولـ :ـ «ـ لـاـنـ رـحـيـلـيـ كـانـ عـنـ حـلـبـ غـدـرـاـ »ـ .ـ  
وـحـنـ سـيـفـ الدـوـلـةـ إـلـىـ المـتـنـبـيـ ،ـ فـبـعـثـ إـلـيـهـ اـبـنـهـ مـنـ حـلـبـ الـكـوـفـةـ ،ـ  
بـعـدـ أـنـ خـرـجـ مـنـ مـصـرـ ،ـ وـبـعـثـ إـلـيـهـ مـعـ اـبـنـهـ هـدـيـةـ ،ـ فـكـتبـ إـلـيـهـ المـتـنـبـيـ  
قـصـيـدـتـهـ إـلـيـهـ يـقـولـ فـيـهـ :ـ  
لـيـسـ إـلـاـكـ يـاـ عـلـيـ هـمـامـ سـيـفـهـ دـونـ عـرـضـهـ مـلـولـ  
أـنـ طـولـ الـحـيـاةـ الـرـوـومـ غـازـ فـتـيـ الـوـعـدـ أـنـ يـكـوـنـ الـفـغـولـ  
مـاـ الـذـيـ عـنـدـهـ تـدارـ الـمـنـيـاـ كـالـذـيـ عـنـدـهـ تـدارـ الشـمـولـ  
مـنـ عـبـيـدـيـ إـنـ عـشـتـلـيـ الـفـ كـافـوـ رـبـ وـلـيـ مـنـ نـدـاكـ رـيفـ وـنـبـيلـ  
مـاـ أـبـالـيـ إـذـ أـنـقـتـكـ الـبـالـيـ كـتـابـاـ بـخـطـهـ يـسـأـلـهـ الـمـسـرـ إـلـيـهـ فـاغـتـرـ  
ثـمـ بـعـثـ إـلـيـهـ سـيـفـ الدـوـلـةـ كـتـابـاـ بـخـطـهـ يـسـأـلـهـ الـمـسـرـ إـلـيـهـ فـاغـتـرـ  
بـالـوـشـايـاتـ .ـ  
وـمـاـ عـاقـيـ غـيرـ خـوفـ الـوـشـاءـ وـإـنـ الـوـشـايـاتـ طـرـنـ الـكـذـبـ  
كـانـ ذـلـكـ فـيـ سـنـةـ ٣٥٣ـ ،ـ وـلـمـ تـطـلـ مـدـةـ المـتـنـبـيـ بـعـدـ ،ـ فـقـدـ قـتـلـ فـيـ  
الـسـنـةـ الـتـيـ تـلـيـهـ ،ـ وـهـيـ سـنـةـ ٣٥٤ـ ،ـ كـلـاـمـاـ يـحـمـلـ نـفـاـ حـيـباـ إـلـيـ صـاحـبـهـ .ـ

فنحن إذا التمسنا له مثلاً في حكمه فلسنا نجد له في أفلاطون وأرسسطو وأيقول ، وإنما نجده في زهير بن أبي سليمي وقد نطق في الجاهلية بالحكم الرائعة مما دلت عليه تجاربه وأوحى إليها إلهامه ، كما نجده في شعر أبي العتاهية وقد ملأ عالمه حكماً وأمثالاً خالدة على الدهر . وكل ما بين أبي الطيب وهؤلاء الحكماء من فروق يرجع إلى أشياء : المحيط الذي يحيط بكل شاعر ، وقدرة نفس الشاعر على ترب مجده ، والقدرة البيانية على أداء مشاعره . لقد ألمَّ زهير من الحرب ورأى ويلاتها فشعر فيها ونطق بالحكم الرائعة بصف شرورها ومصائبها ، وفشل أبو العتاهية في الحياة فزهد وملك الزهد عليه نفسه فلا " به ديوانه وكان لا يُطيب موقف غير هذين فاختلت حِكمه عنها وإن نبعت من منبعها .

ودليلنا على ذلك أن أبي الطيب – فيما نعلم – لم يتفق ثقافة فلسفية إنما تتفق ثقافة عربية خاصة ، قرأ بعض دواوين الشعراء ولفي كثيراً من علماء الأدب واللغة كالزجاج والراج والأخفش وابن دريد ، وكل هؤلاء لا شأن لهم بالفلسفة ومناجيها .

وما لنا ولهذا كله ، فإننا لو رجعنا إلى حِكمه لوجدناها منطبقة تماماً الانطلاق على مجده ونفسه ليس فيها أثر من تقليد ولا شيء من تصنع ، فهو ينظم ما يحول في نفسه وما دلت عليه تجاربه لا ما نقل إليه من حِكم غيره إلا في القليل النادر .

ونحن إذا أردنا أن نجمل نفسه ومجده قلنا : إنه بدأ حياته حياة فتوة وفروسية ، تعرفه الخيل والليل والبيداء ، وحب الحرب والتزال ، ويشتهر الطعن والقتال . قيل له وهو في المكتب ما أحسن وفرتك ؟ فقال : لا تحسُّنْ الْمُفْرَّةْ حَقْ تَرَى منشورة الصُّفَرَيْنِ يوم القتال

## فلسفة في شعر المتنبي

للدكتور أحمد أمين

يختطيء من يظن أن أبي الطيب عمد إلى ما أثر من الحكم عن أفلاطون وأرسسطو وأيقول وأمثالهم من فلاسفة اليونان فأخذوها ونظمها ، ولم يكن له في ذلك إلا أن حول النثر شمراً ، كما رأى ذلك من تبعوا سرقات المتنبي وأفروطوا في إلهامه ، فأخذوا يبحثون في كل حكمة نطق بها ورددوها إلى قائلها من هؤلاء الفلاسفة . فلسنا نرى هذا الرأي ، فإن كان قد وصل إلى أبي الطيب قليل من حكم اليونان فإن أكثر حكمه منبعها نفسه وتجاربه وإلهامه ، لا الفلسفة اليونانية وحيكتها ، ذلك لأن الحكم ليست وفقاً على الفلسفة ولا على من تبحروا في العلوم والمعارف ، إنما هي قدر مشارع بين الناس يستطيعها العامة ك يستطيعها الخاصة ، ونحن نرى فيما يبنتنا أن بعض العامة ومن لم يأخذوا بحظ من علم قد يستطيعون من ضرب الأمثال والنطاق بالحكم الصائبة مالا يستطيعه الفيلسوف والعالم المتبحر ، وهذا الذي بين أيدينا من أمثال إيماع هو من نتاج عامة الشعب أكثر مما هو من نتاج الفلاسفة . وكلنا رأى بعض عجائب النساء من لم تقرأ في كتاب أو تخط بيمينها حرفاً تنطق بالحكمة ولو الحكمة ، فيقف أمامها الفيلسوف حازماً دهشاً يعجز عن منها ويحار في تفسيرها . ومرجع ذلك إلى ينبوغين وهو التجربة والإلهام ، فإذا اجتمعوا في أمري نفجرت منه الحكمة ولو لم يتعلموا الفلسف ، فكيف إذا اجتمعوا لأمري كأبي الطيب ملي . قلبه شعوراً وملئت حياته تجارب وكان أمير البيان وملك الفصاحة ؟

على فقيه معتقد صمددة يمثلها من كل دوافع الستيال<sup>(١)</sup>  
كائن طموحا إلى أقصى حد في العلموج ، يعتقد بنفسه كل الاعتزاد ،  
ولا يرى له في الوجود ندأ ولا مثيلا . قال في صباحه :  
أبيط عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوق ولا أحد مثلني  
يقول إن قومه من خير العرب يتنازع مع هذا يجب أن يعتز قومه به  
لا أن يعتز هو بقومه ويعلمه :

لابقوني شرفت بل تُرفا بي وبنفي فخررت لا بجدودي  
وبهم فخر كل من نفقنا د وعود الحانوي وغوث الطريدي  
إلى جانب هذا الاعتزاز بالنفس است忿قار للناس ونفوسهم وشئونهم :  
ودهر ناس صغار وإن كانت لهم جث ضياع  
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام  
امتلات نفسه بهذه العقيدة حتى في صباحه ، فوضع لنفسه هذا المقطع  
الساذج البسيط : «إذا كنت خير الناس فلم لا تكون منهم أو على الأقل  
ملوكهم ، فإذا ينفذ برناجه في سهولة ويسرا ظاناً — وهو فتي غريب — أن  
الدنيا تحكم بعقل هذا المقطع البسيط . ولم يعلم بعد أن منطق الدنيا  
أعقد من منطقه . نعم إنه سيلفي في هذا شداداً وصعاباً ولكن لا بأس  
هو مسلح بكل ما يحتاج إليه ذلك من سلاح :

أي محل أرتقي ؟ أي عظيم أرتقي ؟  
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق  
محقّر في همي كشعرة في مفترق

(١) الوفرة الشمر الجثم على الرأس ، وكان من عادة العرب نشر صفاتهم  
يوم الحرب ثم بلا لها ، والمقدمة الرمح القصير ، واعتقل الرمح حله ،  
ويعلوها يستعينها مرة بعد مرعة ، والسائل الثوارب او ما استرسل من  
مقدم اللعبة .

ولكن حوادث الدهر علمته شيئاً فشيئاً أن الزمان أكبر من هذه ،  
 وأنه لا يكفي أن يكون خير الناس في زعمه ليكون ذي الناس أو ملك  
الناس . ومن أجل هذا تدرجت مطامعه وأخذت في النصان ؛ فقد  
بدأ يطلب النبوة ، فلما فشل فيها بدأ يطلب الملك ، فلما فشل فيه بدأ  
يطلب ولاءه أو إقليمه في مصر ففشل في ذلك أيضاً ، فأخذ يتعجب على  
الزمان ويدمه ويعلمه .

بدأ النبوة فقال :

ما مُقامي بأرض نخلة إلا كنفام «المسيح» بين اليهود  
أنا تربتُ الندى ورب الفواقي وسام العدى وغيظ الحسود  
أنا في أمة تدار كما الله غريب «ك صالح» في نعوذ  
ثمن صدمه الزمان بالأسر والحبس فعدل عن النبوة إلى طلب الملك ،  
فأخذ في شعره يحقر ملوك زمانه ويقيسهم بنفسه فلا يرى لهم فضلاً عليه  
وله عليهم كل الفضل . ويضع خطأ أن العرب يجب أن يحكمها العرب  
لا العجم فيقول :

ولاءها الناس بالملوك وما تفلج عرب ملوكها عجم

ويقول :

سادات كل أنس من نفوسهم وسادة المسلمين الأبعد القزم  
إذن يجب أن يكون الملوك من العرب ، وإذن فليكن هو ملكاً ،  
وقد طوف بالبلاد بنالمس السبيل لتحقيق مأربه وينيل مطالبه ، ويقول في

ذلك تأمياً لا تصرحاً :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما يتغنى؟ ما يتغنى جلـ لأن بشـيـ  
فأبعدـ شـيـ يمكنـ لمـ يـجدـ عـزـماـ  
إـذاـقـلـ عـزـمـيـ عـنـ مـدـيـ خـوـفـ بـعـدـهـ  
وـإـنـيـ لـمـ قـوـمـ كـأـنـ نـفـوـسـهـ بـهـ أـنـفـ آـنـ تـسـكـنـ الـحـمـ وـالـعـظـاـ

رقد حلم أن سيكون له جيش كبير يقوده بنفسه فيجوب البلاد  
ويفتح الأمصار ويخلع الملوك ويستولي على عروشهم فيقول :

سيصحب الدليل من مثل مصر به وينجلي خبرى من صيحة الصشم<sup>(١)</sup>  
لقد تصرفت حتى لات مصطبه فالآن أفتحم حق لات مفتحم  
لا تركن وجوه الخجل ساهمة وال Herb أقوم من ساق على قدم  
والعلم يُحرقها والزجر يُقتلها حق كان بها ضرباً من اللئم<sup>(٢)</sup>

ريدي حياض الردى يانفس وازركي حياض خوف الردى للشاء والنسم  
إن لم أذر لك على الامراح سائلة فلا دعية بن أم المجد والكرم  
والطير جائعة - ثم على وضم؟  
من لو رأني ما مات من ظمأ ولو عرضت له في النوم لم ينم  
مبعاد كل رقيق الشفرين تين غداً ومن عصى من ملوك العرب والمعجم<sup>(٣)</sup>  
فإن أجاوا لها قصدي بها لهم وإن تولوا لها أرضي لها بهم<sup>(٤)</sup>  
ثم رأى أن الزمان لا يسعه إلى ما طلب ولا يعينه على ما أمل، فرحل  
إلى مصر وطلب من كافور أن يبنله ولاية فأغدق عليه ذهبًا فقال:  
وما رغبي في عَسْجِدِ أَسْفِيدِ ولكتها في مَفْخِرِ أَسْجِدِ  
وقال:

فأرم بي ما أردت مني فاني أسد القلب آدمي الرواء  
وقدادي من الملوك وإن كا ن لاني ثيري من الشعراء

(١) صيحة الصشم: اشتعج الشجامان.  
(٢) الدهم: الجنون.  
(٣) رقيق الشفرين: السيف حاد العاجبين.  
(٤) أي إن أجاوا دعوتني وزلوا على حكبي فلست أقصد بسيوفي، وإنما أقصد من عصاني، وإن أهربوا عن طاعتي فلست أقسم بقتلهم وحدم بل وأقتل كل من رأى رأيه.

نـم صـرح بعدـ الـكنـاـيـة فـقـالـ :  
إـذـاـمـ تـنـفـطـ بـيـ ضـيـعـةـ أـوـ لـاـيـةـ فـجـودـ لـكـسـوـنـيـ وـشـفـاكـ إـسـلـبـ  
حتـىـ وـلـاـ هـذـهـ اـسـطـاعـ آـنـ يـنـالـهـ ،ـ وـصـدـمـهـ الحـقـيـقـةـ فـاعـتـرـفـ بـأـنـ  
ـيـوـدـ مـنـ الـأـيـامـ مـاـلـاـ تـوـدـهـ ،ـ وـقـدـ كـانـ فـيـ صـبـاهـ يـقـولـ :

لـخـصـبـ شـعـرـ مـيـقـرـقـهـ حـسـاميـ  
ـوـلـوـ بـرـزـ الزـمـانـ إـلـيـ شـخـصـاـ  
ـوـمـاـ بـلـغـتـ مـشـيـثـهـ الـبـالـيـ  
ـوـلـاسـارـتـ وـفـيـ يـدـهـ زـمـاميـ  
ـإـذـاـ اـمـنـلـاـتـ عـيـونـ الـخـيـلـ مـنـ  
ـفـوـيلـ فـيـ الـبـيـضـ وـالـنـامـ  
ـعـذـبـهـ الـدـنـيـاـ فـجـعـلـتـ نـفـسـ مـلـكـ ،ـ وـهـنـهـ هـرـةـ مـلـكـ ،ـ وـشـعـرـهـ مـلـكـ  
ـالـشـعـرـ أـوـ عـلـىـ الـأـفـلـ فـيـهاـ يـعـتـقـدـ هـوـ ،ـ ثـمـ جـعـلـهـ فـقـيرـاـ لـاـ مـلـكـ مـنـ الـدـنـيـاـ  
ـشـيـثـاـ ،ـ وـلـاـ يـرـثـ مـنـ آـبـائـهـ مـالـاـ وـلـاـ مـلـكـاـ وـلـاـ جـاهـاـ ،ـ وـكـانـ يـأـمـلـ فـيـ  
ـصـبـاهـ أـنـ تـتـحـقـقـ نـبـوـتـهـ ،ـ فـالـثـبـوـتـ لـاـ تـحـتـاجـ إـلـىـ مـالـ ،ـ فـلـمـ يـئـسـ طـلـبـ الـمـلـكـ  
ـوـالـمـلـكـ يـحـتـاجـ إـلـىـ مـالـ ،ـ فـطـلـبـهـ بـشـعـرـهـ وـلـكـنـ لـمـ تـذـلـ نـفـسـ كـاـ ذـلـ الشـعـرـاءـ  
ـفـكـانـ يـرـىـ أـنـهـ يـعـطـيـ لـمـدـوحـهـ أـكـثـرـ مـاـ يـأـخـذـ مـنـهـ ،ـ فـهـوـ يـعـنـحـمـ شـعـرـاـ  
ـخـالـدـاـ وـهـمـ يـنـحـرـونـهـ عـرـضاـ زـاهـلاـ .ـ وـكـانـ يـتـجـلـيـ ذـلـكـ فـيـ عـنـابـهـ وـهـجـائـهـ يـوـمـ  
ـيـعـتـبـ عـلـىـ مـدـوحـهـ أـوـ يـهـجـوهـ .ـ

فـتـبـأـ لـهـذـاـ الزـمـانـ الـذـيـ وـضـعـهـ هـذـاـ الـوـضـعـ ،ـ مـنـجـهـ طـمـوحـ الـمـلـوـكـ وـلـمـ يـجـعـلـهـ  
ـمـلـكـاـ ،ـ وـحـرـمـهـ الـمـالـ وـلـمـ يـحـرـمـهـ الـنـفـسـ ،ـ فـلـمـ يـوـأـمـ بـيـنـ نـفـسـهـ وـحـالـهـ ~  
ـوـرـىـ أـنـ النـاسـ لـوـ عـقـلـواـ لـتـارـواـ وـلـمـ يـرـضـواـ عـلـىـ مـاـ هـيـ فـيـهـ مـنـ بـؤـسـ وـشـفـاءـ  
ـوـمـلـكـوـاـ عـلـيـهـمـ خـيـارـهـ ~ وـلـعـلـهـ يـعـنـيـ نـفـسـهـ ~ وـلـكـنـهـ خـاطـمـونـ مـسـنـدـوـنـ  
ـيـقـيمـونـ عـلـىـ الذـلـ وـلـاـ يـأـنـفـونـ مـنـ عـارـ ~

ـتـزـولـ بـهـ عـنـ الـقـلـبـ الـهـمـومـ  
ـأـمـاـ فـيـ هـذـهـ الـدـنـيـاـ كـرـمـ  
ـيـسـرـاـ بـأـهـلـهـ الـحـارـ الـقـيمـ  
ـعـلـيـتـاـ ،ـ وـالـمـالـيـ وـالـصـيمـ  
ـأـصـابـ الـنـاسـ ،ـ أـمـ دـاءـ حـدـيثـ  
ـوـمـاـ أـدـريـ إـذـاـ دـاءـ حـدـيثـ

استداد بالنفس لاحد له ، وطموح ليس بعده طموح ، ونقطة على الزمان لا ينهي لم يسعده ، ونقطة على الناس لا يفهم لم يتحققوا أمله - هذا كله روح فلسفة المتنبي - وكل ماقاله من حِكْمَة وكل ما شرحه من حالة نفسية فهو صدى لهذا الوضع ، وترجمة لهذه الأحداث ، وتعبير عن شعوره بها .

أوضح ما تتجه هذه الحال في نفس كنفس المتنبي « فلسفة القوة » وكذاك كان ، فالمتنبي قوة في الخلقة على الناس وعلى الزمان . تجلّي القوة في كل أقواله وفي جميع حالاته ، وهذه القوة أكثر ما تكون في سنيه الأولى أيام كان يتنقل في البلاد ويدبر خطته ليحقق أمله . وقد ظل على هذه الحال إلى أن بلغ الرابعة والثلاثين ؛ ثم ضعفت بعض الشيء يوم اتصل بسيف الدولة يتباهى كأنه يدخل في الخل والترحال ، وأثر في نفسه فشله عنده فرحة إلى مصر وبها كافور ، وشتان بن سيف الدولة في عربته وفروسيته وكافور في عجمته وعبوديته . ولكنـه الزمان الغادر رماه بأقصى ما لديه حتى جعله مادحاً كافوراً ، فهو في مدحه يغالب نفسه ويُلعب في كثير من المواقف باللألفاظ ليصوغ مدحاً يشبه الدم ، فإذا تحرر من ذلك وأخذ في حياته عادت إليه قوته وكأنـه استرد حريته . فهو قوي في نفسه لا يهاب الدهر ولا يكتثر لاحداته :

إإنْ رَمَيْتِ نَكباتَ الدَّهْرِ عَنْ كَثْبِيِّ تَرْمِيْرَهُمْ أَغْرِيَهُمْ عَنْ دِيدِيِّهِ لَا نَكِيسْ  
وهو قوي في احتقاره للذات الوضيعة وطموحه إلى أعلى غيات المجد :  
وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام  
يابني أن يضعف نفسه بالمنزل والآخر فانـها يحولان دون المجد :  
عَرَسْتُ بالآفاق حتى ترکتمـها تقول: أمـات الموت أمـذعـر الذـعـر؟  
ذر النفس تأخذ وستعـها قبل بيـتها ففترقـ جـارـاتـ دـارـهـا المـعـمرـ

أحمد أمين

٩٩

ولا تحسـنَ الحـمـدـ زـفـاً وـقـيـنةـ هـاـ الحـجـدـ إـلـاـ السـيفـ وـالـحـكـمةـ الـبـكـرـ  
وـتـرـكـكـ فـيـ الـدـنـيـاـ دـوـرـيـاـ كـأـنـاـ تـداـوـلـ سـعـجـ المـرـءـ أـنـهـدـهـ الـعـشـرـ  
وـهـوـ قـوـيـ فـيـ خـيـاهـ ،ـ فـهـوـ إـذـاـ رـمـىـ أـصـحـ ،ـ وـإـذـاـ مـسـ أـدـمـ ،ـ يـطـوـقـ  
مـنـ يـنـاهـ الـذـمـ .ـ وـيـقـلـهـ الـخـزـيـ وـيـازـهـ عـارـاـ لـاتـحـوـهـ الـأـيـامـ .ـ

وـهـوـ قـوـيـ فـيـ دـعـوـتـهـ لـلـنـاسـ أـنـ يـتـورـواـ وـيـؤـسـسـواـ مـلـكـتـهـمـ عـلـىـ  
حـدـ السـيفـ :

أـعـلـىـ الـمـالـكـ مـاـ يـبـيـعـ عـلـىـ الـأـسـلـ وـالـعـامـنـ عـنـدـ مـحـيـيـهـ كـالـفـيـلـ  
وـمـاـ تـقـرـرـ سـيـوفـ فـيـ مـالـكـهـ حـتـىـ تـغـلـفـ دـهـرـأـقـلـ فـيـ الـفـلـدـ(١)  
وـهـوـ قـوـيـ فـيـ اـحـتـفـارـ الـنـاسـ إـذـمـ تـعـلـ هـمـهـ كـبـتـهـ ،ـ وـلـمـ يـرـتـقـواـ عـنـ  
الـسـفـاسـفـ رـفـمـهـ :

إـذـاـ مـاـ النـاسـ جـرـبـهـمـ إـبـيـبـ فـانـيـ قـدـ أـكـانـهـمـ وـذـاقـاـ  
فـلـمـ أـرـ وـدـهـ إـلـاـ خـدـاءـاـ وـلـمـ أـرـ دـيـنـهـمـ إـلـاـ نـفـاقـاـ  
كـلـ شـيـءـ فـيـ سـبـيلـ الـحـجـدـ حـبـ إـلـيـهـ ؛ـ فـاقـتـلـ وـالـمـوتـ وـالـمـذـابـ  
وـقـطـعـ الـفـيـافـيـ عـذـبـ الـمـذـاقـ :

فـوـتـيـ فـيـ الـوـغـيـ عـيـشـ لـاـنـيـ رـأـيـتـ العـيـشـ فـيـ أـرـبـ الـنـفـوسـ

\*\*\*

سـبـحانـ خـالـقـ نـفـيـ كـيـفـ لـذـهـاـ فـيـهـ الـنـفـوسـ تـرـاهـ عـاـيـةـ الـأـمـ

\* \*

وـهـانـ هـاـ أـبـلـيـ بـالـرـازـيـاـ لـاـنـيـ مـاـ اـنـتـفـتـ بـاـنـ أـبـلـيـ  
وـأـخـيرـاـ رـىـ الـفـوـةـ تـشـيـعـ فـيـ جـوـابـ أـسـالـيـهـ وـقـوـافـيـهـ ،ـ فـاـذاـ اـشـتـركـ  
الـمـتـنـبـيـ وـغـيـرـهـ مـنـ الـشـعـرـاءـ فـيـ مـعـنـيـهـ الـمـعـاـيـرـ رـأـيـتـ أـيـاتـ الـمـتـنـبـيـ عـلـيـهـ  
أـرـصـنـ أـسـلـوـبـاـ وـأـجـزـلـ لـفـظـاـ وـأـفـرـىـ فـاقـيـةـ وـأـمـانـ رـكـيـاـ ،ـ لـاـنـهـ يـسـعـ عـلـيـهـ

(١) تـتـقـلـقـ :ـ تـتـحـرـكـ ،ـ وـالـقـلـلـ :ـ الرـؤـوسـ مـاـخـوذـ مـنـ ذـةـ الـعـيـلـ رـأـيـهـ

من قوته ويزيد في شدتها من شدتها وحدته — حتى لقد يقول المأثور والفكر الشائع الذي توارد عليه الشمراء في كل المصور فيخلع عليه بعض نفسه ، ولو نا من حسه ، فكانها هو جديد وكأنه لم يسبق إليه .

لعل موضع الضعف عنده أنه أنفق حياته في مدح الولاية والآمراء والملوك يصوغ الثناء لهم ، وينظم عقود المدح فيهم ، ويجهد عقله وخياله في اختراع معاني الكرم والبأس ونسبتها إليهم ، ويرحل من بلد إلى بلد طلباً لعطائهم ، ويقف على أبوابهم انتظاراً لمنحهم ، ويتربيص الفرس لقول فيهم ، فإذا أقبل العيد هنأهم ، وإذا مرضاً عورذهم ، وإذا انتصروا في حرب شاد بفعالهم ، وإذا انهزوا لطف من هزيعتهم ، وإذا مات لهم ميت عزام ، وإذا ولد لهم مولود بادر بتهنئتهم . وذلک ما لا يتفق كثيراً ونفسه الكبيرة ومحنته العالية التي يتحدث عنها — لو أنه ترفع عن هذا كله وقمع بأن يتغنى بشعره في وصف شعوره لواهم بين نفسه وشعره ، ولكنه — على ما يظهر — لم يشا عيشة الزهد وإنما شا، عيشة الرفعة والشهرة بالمال أو بالولاية فرأى أن يتصل بالملوك والاستفادة منهم والاستئمان على تحقيق غرضه بهم وبمنحهم وبإيجاد الصلة بينه وبينهم ، ولكنه من حين آخر يشعر بلذعة في أعماق نفسه من هذا الموقف في الفلسف التهنية ويقول :

إنما التهنيات لا كفاء ولمن يتدنى من البُعداء  
وأنماهناك لا يبني عضواً بالمرات سائر الأعضاء

ثم هو لا ينزل إلى مدح غير العظام ، وإذا أنشد شعره أنشده في علو وكيرياه ، فإذا لم يتحقق غرضه أو أحس بيته مدوحة عليه ثار نورة من حرمت عزمه ونيل من كيريائه ، وكأنما تحجلت له الحقيقة وهي صعوبة الجمجمة بين نفس تعتلي عزة وشاعر يقف شعره على المديح

احمد أمين

١٠١

— وهكذا كلما جذبته شؤون الحياة إلى الضمة والضيق أبت عليه نفسه ، وحواته من ضعف إلى قوة ومن ضمة إلى رفة :  
ما كنت أحسي بي أحياناً إلى زمان بيبي في فيه عبد وهو محمود

# \* #

ويلمّها خطةً ويلمّ قابها لثلا حليل المهرية القود  
وعندما لذ طمم الموت شاربه إن المنية عند الذل قينديد<sup>(١)</sup>  
وبذلك فلسف الحياة كلها فلسفة قوة كما فلسف أبو العافية الحياة  
فلسفة زهد — فويل للضعيف ، وويل للجبان ، وويل لمن يخاف الحوادث  
ويل لمن يهاب الموت :  
ولا قضى حاجته طالب فواده يخفق من رعبه

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦ .

(١) القينديد : عمل قصب السكر والسكر

في بلاد الشام وبلاد الأندلس ، يশعلون للعلم والفلسفة مصابيح وهاجة جديدة ، ويرفعون الأدب والشعر علاماً وشاعرةً مجيدة ، بينما كانت الأوروبيون يستعدون لنهاية العالم ، كان العرب يجدون في بدايته ، وهم آخذون بنواحي الحياة ، يوردونها الموارد الكافية ويعززونها بالأعمال والأعمال ؟ بينما كان أبناء أوروبا يخيطون الأكفان ، كان أبناء العرب يشيدون صروح الرقي البشري والعمaran .

مرت السنون ، المئات منها تلو المئة ، والعرب في القرون الثانية للهجرة حاملون مشاعيل المدينة شرقاً وغرباً ، من الهند والستان إلى الأندلس وما وراء البيرانيس ، وكانت تلك المدينة في انتقال مصابيحها منا إلى الفرغنة تزداد نوراً عندهم وتقل نوراً عندنا ، فانقلبت الآية ، وصرنا نحن ، بعد خمسة قرون مظلة ، تحيط الأكفان بينما هم يجدون في تشييد صروح العلم ، وتعزيز أسباب العمران .

ولكن الائم التي كان لها في نشر المدينة أيدٍ يضاء لا يضليل بل هي خالدة في مآثرها ، وحية فتية على الدوام في يقظاتها ووباتها ، وإنما يوم تستيقظ تحمل مصابيح الرسالة ، كما حلتها في الماضي ، ويلحق المتأخر فيها بالتقدم ، فتستعيد مرتلتها العالية ، وتصبح من عوامل الخبر الكبرى في العالم .

إن العرب لمن هذه الائمه الخالدة ، وإنما والائم الأوروبية اليوم مشتركون بالعقبة الواحدة ، عقيدة النشوء الدائم والارتفاع المستمر ، عقيدة العمران المؤسسة على العلم والعمل ، وعلى الثقاقة الخامدة العالية المقربة الائم بعضها من بعض .

وهذه الآلاف الثانية من دورة الزمان الحديث نذنو منها ثابتين في عقيدتنا ، واثقين بأنه وبأنفسنا ، آمنين شر الأوهام والخرافات ، وعاملين في مكافحة شرور الجهل كلها ، فال الأوروبيون على عكس ما كانت عليه جدودهم في السنوات الأخيرة من القرن العاشرة ، يبنون اليوم باسم العلم

## المتنبي رسول العرب (١)

لأستاذ أمين الريحاني

إيام السادة والسيدات .

في العقد الأخير من السنة الأخيرة من القرن العاشر ، شاع في البلاد الأوروبية إشاعة خطيرة خبيثة ، روىَت الناس والق THEM في بحر من اليأس والحزن ، إشاعة جسمتها الأوهام ، والأوهام كانت كالآوبئة في انتشارها ، وفي هول أخبارها ، نفح الناس بالصور ، ودعوا بالويل والثبور ، ووعظوا الواقعون في الكنائس ، ونادى المنادون في المدن والقرى أن استعدوا لـ يوم الدينونة فقد دنا ، ستحرب الدنيا وتنهي الحياة ، في انتهاء السنة الأخيرة من الألف .

صدق الناس ذلك ، صدقوه جيماً ، كبارهم وصغارهم ، عالمهم وجاهلهم ، فتركوا أعمالهم ، وبدوا آمالهم ، وهرروا بيومهم وعيالهم ، وراحوا يصلون في الكنائس . ويسيرون في البراري متضرعين متضرعين ، تابوا إلى الله ، وشرعوا تأبهون الموت ، وللـ يوم الآخر يوم الدينونة

دقـتـ السـنةـ الـخـوفـةـ وـذـ قـرنـ شـسـاـ الـأـلـفـ ، فـارـتعـشـتـ لـهـ فـرـائـصـ اوـلـاثـ الآـدـمـيـنـ الـمـعـدـيـنـ ، وـمرـتـ السـنةـ الـأـلـفـ بـكـامـلـهاـ ، وـغـابـتـ شـسـ يومـهاـ الـأـخـيرـ ، فـنـفـسـ النـاسـ الصـمـداـ ، وـشـكـرـواـ ربـ الـأـرـضـ وـالـجـاهـ ، لـأـنـهـ رـحـمةـ بـهـ وـاسـتـجـابةـ لـطلـباتـ كـهـاـنـهـ كـاـ زـعـمـواـ ، اـجـلـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ ، يومـ الفتـاءـ أـلـفـ سـنـةـ أـخـرىـ !

وفي تلك الحقبة السوداء المائة بينما كانت الأوروبيون يتبخرون في ديارـيـ الجـهـلـ ، مـتـقـلـةـ نـفـوسـهـمـ بـالـخـرـافـاتـ وـالـأـوـهـامـ ، كانـ العربـ فيـ الشـرـقـ وـالـغـربـ

(١) أـلـدـيـتـ فـيـ مـهـرجـانـ الـذـيـ أـقـامـهـ الـجـمـعـ الـلـهـيـ الـعـرـيـ بـدـمـشـقـ فـيـ عـوـزـ سـنـةـ ١٩٢٦ـ .

أمين الوجه

100

نضيف إلينه خير الماضي ، وإن في هذا العمل الدليل الأكبر على أننا  
مدركون السر في سنة الرقي البشري ومنتفعون به .  
أجل ، إننا لفي تقدم . وإن أرى في عالم الغيب ، بعد ألف سنة  
آخرى من دورة الزمان ، أمة من سلالتنا العربية ، تبني على ما بنينا ،  
وتحتاج ما أحرزته في عشرة قرون من العلوم الطبيعية والاقتصادية ، ومن  
الثقافات القومية العالمية ، ومن الفلسفات الأدبية والروجية ، ومن الفتوح  
الجبلية والصناعات كلها .

فم ، سيدكر أبو الطيب بعد ألف سنة كا مذكرة اليوم ، فيقيم له  
عرب القرن الثلاثين ، المهرجان الالغبي الثاني ، كأقام أمس العالم العربي  
مهرجان الالفين للشاعر الروماني فرجيل .

قلت : الشاعر العربي ، فقلت : الأمة العربية ، ذلك لأنني ، على شدة إعجابي بالمعنى ، لا أرى في شعره غير القليل مما يوهمه لأن يكون شاعرًا عالياً . إن شاعرنا العربي العالمي هو سوري المولد وقد جاء بعد أبي الطيب - ولد بمد وفاته ينحو عشر سنوات - وكان من أول المعجبين بـ « شعره » .

فشرحه فيها أسماء معجز أحمد ، وبالغ في مدحه ، ثم إن شاعر  
العربي العالمي إنما هو الموري أبو العلاء ، وستحتفل الأمة بذكره  
اللافية في وقتها إن شاء الله ، وسيحيي العلاء والآباء من أوربا واميركا  
بلاد الارض ، كما بذلك الاحتفال .

وبلاد المشرق ، ليشاركوا بذلك الاحتفال .  
عذرًا على هذه الكلمة الاعتراضية ، التي أوجها الاستدراك . وقبل  
أن أدخل ، موضوعي « المتنبي رسول العروبة » ، يجب عليّ أن أمر

فترداد الاختراقات والاكتشافات ، والفتورات العالمية والاقتصادية ، ونحن العرب نستيقظ من سباتنا العلوي الاجل ، فندرك ما كانت عليه حدودنا من علم وثقافة ، ومن شريف السجايا ، فنسعى ان تكون جدرين بذلك الارث الحميد ، فترداد في مساعينا همة ونشاطاً ، وزداد طموحاً وبياناً وأملاً .

أما أنا نعود إلى الماضي فلا لنقله بحذا فيرة ، بل لاستئنار بآثاره ، وتكل الرسالة التي حللت الجدود وأعلامها ، رسالة العلم والثقافة والرقي البشري ، وإننا اليوم في عودتنا إلى الماضي نقتدي بالآوروبين وقد سلكوا مسلكاً جديداً في العود إلى الماضي يمجدوا الخالدين منه فيحتفلون بذلك رفيعي العالية ويقيمون لها الهرجانات المئوية والآلفية .

وقد كانت باكورة هذه الاحتفالات الذكرى السماوية لشاعر الإيطالي العظيم دانته ، وتلاها منذ بضع سنوات الاحتفال بذكرى الائفي سنة شاعر الروماني الجيد فوجيل .

وفي السنة الماضية حذونا حذونه ، فاحتفلنا في هذا الشرق الادنى في  
إيران بمرور الاَلف سنة على وفاة الشاعر الفارسي الاَكبر أبي القاسم  
الفردوسي ، فكان مهرجانه الاَلفي في طهران وطوس «هرجاناً عظيماً» .  
وها نحن في هذا العام ، بعد مرور ألف سنة على عهد في تاريخنا  
المجيد ، نحتفل الاحتفال الاول الاحتفال الاَلفي بشاعر أُمراب العظيم  
الخالد أبي الطيب أحمد بن الحسين المنفي .

ان في هذه الاحتفالات بأرباب الشعر والأدب دليلاً على أننا في  
تقديم مستعر . فمن خاتمة الاكفان إلى تشيد صروح الأدب والمعaran  
مرحلة كبيرة . وإن فيها الدليل الآخر على أن سنة المعaran واحدة ،  
وخلقاها ، وإن تقطعت في حقبة من الدهر اتصال بعضها ببعض . يكفي هنا  
شـ الحاضر أـها السادة والسيدات ، ولا يكفيـاـ خـيره . فـنـجـبـ عـلـيـنـاـ أنـ

- وسأر مرعاً - بعض ما أرأه من مواطن الضعف والنقص ، ليس في شعره فقط ، بل في عبقريته أيضاً . على أني لا أقف عندما عاشه عليه الداقدون قدّيماً أو حديثاً من الشواذات اللغوية ، إذ ليس ذلك من اختصاصي .

عندما بدأت أطاعل ديوان المتنى ، منذ ربع قرن ويزيد ، أخذت أعلق على الخامسة ما كان يعني لي من خواطر الاعجاب أو الانتقاد . وأول ما قرأت في تلك النسخة ، كما عدت أمس إليها ، كلة جاءت في أحدى الصفحات الأولى تقول : « هذا شاعر شاب في صباح ، أو أنه في صبا جعل الشيب مما اتخذه حلية لصباته » . وفي تلك القصيدة التي مطلعها :

« كم قتيل كا قتلت شهيد »

الملوومة في صباح ، ومن الاعجاب بنفسه ، والكذب لها ، ما هو أعجب من الشيب المصطنع في رأسه ، ومع ذلك فإن فيها من سحر بيانه ، وجليل معانيه ، ما مستمعون فيما بعد بعضاً .

أقف الآن عند المبالغة في شعره ، بل الإغراق ، بل الغلو ، وقد اهتم أدباء المرب لعلم تقديرهم لهذا النوع من البديع اهتماماً خاصاً به ، خللوه ، ودققوا فيه ، وقسموه إلى ثلاثة أقسام ، المعken عادةً ، والمعken عقلًا لا عادةً ، وغير المعken لا في العادات ولا في المقولات ، وهذا الأخير المقصود الآن ، فإن في ديوان المتنى ، بل في الشعر العربي على الإطلاق بحراً منه هل أدركني روح الغلو فاستمرت « بحر » الشعراً لاعبر عن رأيي !

ولكي وأنا مع المتنى ومدوحيه ، أمسك تورعاً ، فلا أتجاوز دور المستعرض المستعجب ، فما هؤلاء المدحون من الناس ، بل هم من الأرباب ، وكل واحد منهم يستطيع ، إذا أراد الشاعر أن ينقل الجبال

ويحمل النجوم في الرجال ، ويغدق منها على الأسد والأشبال ، ويقول حتى للبحر حال حال ! هو ذا سيف الدولة ، والبحر عبد من عبيده ، أو صاحل من خيله ، فقد تجاوز المتنى المبتذر في مدحه ، فما قال إنه البحر ، بل قال إن البحر أطراف أنامله ، وما قال إنه طود من الأطواود ، بل أشار إلى أن تربل ( جبل في آسيا الصغرى ) يليق أن يكون حجرًا ثميناً في خاتم نصره .  
فهل تعجب بعد هذا قوله :

« إذا اعتلى سيف الدولة اعتلت الأرض »

وهل يغالي الشاعر في خوفه على النجوم إذا حاربت سيف الدولة :  
وقد زعموا أن النجوم خوالدٌ ولو حاربته ناح فيها التواكل  
وما كان أدناها له لو أرادها وألطافها لو أنه المتناول  
ان هي إلا خيالات حبانية . وليس كافور في ساعة الوعي أقل  
صلة واقتداراً من الرب العربي . فهو كذلك يركب الأهوال ، ويضرب  
الجاجم بالبيض الطوال ، ويهب المهاجم التوابيا ، ولا يفعل الفعلات  
الاعذاريا . ولا تظن أنه لسواده يخفى على الشمس ، أو يتوارى رحمة بها .  
فقد قال المتنى فيه وفيها :

تفصح الشمس كلام ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء  
بل قال أكثر من ذلك . قال أن تلك الشمس شمسنا لا تنبأ إلا  
باذن منه ، أي من كافور !

هو ذا المتنى في شيء من غلوه . وقد يكون من أمره أن تصوره  
الجبارية ، واختياره أيامه لمدينه ، هو من باب الرغبة بالأضداد ، فقد  
كان هو في جسمه صغيراً نحيلًا على ما يظهر من قوله :

كفي بحسبي نحو لا أتي رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني  
وقد سبقه الشاعر بإشار إلى هذا الخيال خذلنا في جسمه المزيل فائلاً  
« لو توكلت عليه لانهدم »

ان في الشعر العربي من هذا الغلو شيئاً كثيراً . ولا تجوز اضاعة الوقت في احصاء الامثال منه . كفى أن نذكر الخدود التي تجربها خطرات النسم ، والبنان الذي يدميه لاس الحرب ، وتلك الفتانية التي اذا كللت ميتاً يقوم من العجل .

ان مثل هذا الغلو مارح في الغرب تهيل عليها الروايات المهزالية ، فيجيء فيها وفي أغانيها ونكتتها ، ما يضاهيه من مضحكات التشابه والكتابات . وهي تندد في شعر الفرنجة الا ان يكون من باب المجرن .

على أن المتنى لم يكن ماجنا في حياته الشعرية . فانك لا تسمع في ديوانه ضحكة واحدة ، وقلما ترى لابتسام خيالاً ، العفو قد استعجلت في الاطلاق فقد اضحكته - ومن لا تضحكه ؟ - الشمس السوداء .

شمس كافور ، التي كانت تفضح شمسنا المسكونة كلاً أشرقت .

ما سوى ذلك ، فالمتنى قطب بجد وقوة ، وطود هول وجلال . بل هو في الحال والجد روح عابس قمعري . وإننا إذا قارنا بينه وبين شعراء العالم الكبار كشكبیر وهوغو وغوغه وهوهيروس تراه بينهم ، ساعة يضحكون ، اعجوبة من اعجوب العبرية . فان ليكل من أولئك الشعراء العالميين ناحية من مناحي العبرية لا لاءة ، يخفف نور ابتسامها من اعباء الحياة ، أو زيدنا نشاطاً وصبراً وأملأ في احتمالها . ان هذه الناحية مفقودة في المتنى ، ناقصة في عبريته .

اما اذا كانت الناحية المضحكه من الحياة دون اهتمامه ، فان في عالمه العالي الحيد الذي يدور على محور الفروسيه والملك وانشعر والكرم ، ما يستوجب في تدوين اخباره وتحميد اعلامه مراعاة القاعدة الاساسية في كل فن وصناعة ، أي قاعدة التنساب والانسجام .

ليس المتنى الشاعر العربي الوحيد الذي لا يرعى دائمًا هذه القاعدة فالانسجام في الشعر العربي يكاد ينحصر في الالغاز وفي الصيغ اللغوية . اما في المعاني فهو قادر وكثيراً ما تجبي المعاني مستقلة بعضها عن بعض ،

ومنتقلة في قصائد اكثـرـ الشـعـراءـ . فـقـرـأـ القـصـيدةـ عـكـاـ او طـرـداـ ، او تـبـداـ في الوـسـطـ مـنـهاـ دونـ انـ تـدـركـ اوـ تـشـعـ انـ معـنـيـ الشـاعـرـ اـخـتلـ اوـ اـعـتـلـ اوـ جـاءـ مـبـتـورـاـ ، هـذـاـ فـضـلـاـ عنـ النـفـاوـتـ فيـ الـفـكـرـ وـالـخيـالـ فيـ القـصـيدةـ الـواـحـدةـ ، وـهـيـ كـثـيرـاـ ماـ تـشـبـهـ قـلـادـةـ بـتـخلـلـ اوـلـوـهـاـ كـثـيرـ منـ الـخـشـلـ (ـالـفـلـةـ لـالـمـتـنـيـ)ـ .

فالـشـاعـرـ فيـ لـامـيـةـ الـعـربـ مـثـلاـ يـفـتـخرـ بـعـلـوـتـهـ ، وـيـفـاخـرـ بـهـاـ الـإـبـطالـ نـمـ يـنـتـقـلـ فـورـاـ منـ سـاحـةـ الـوـغـىـ إـلـىـ السـاطـعـ فـيـ قـوـلـ : وـانـ مـدـتـ الـاـبـدىـ إـلـىـ الزـادـمـ أـكـنـ بـأـعـجـلـهـ إـذـ أـجـشـعـ الـقـومـ أـعـجـلـ قـائـنـ الـصـلـةـ اوـ شـبـهـ الـصـلـةـ ، وـأـيـنـ التـنـاسـبـ وـالـانـسـجـامـ بـيـنـ الـمـوـقـيـنـ وـالـمعـنـيـنـ ؟

وـمـاـ هـذـاـ اـخـللـ الـمـعـنـيـ بـقـلـيلـ فـيـ دـيـوانـ الـمـتـنـيـ . فـقـدـ فـتـحـهـ ذاتـ يومـ خـيـرـةـ ، فـكـانـ فـيـ مـاـ قـرـأـتـ مـنـ أـوـلـ قـصـيـدةـ يـدـعـ فـيـهاـ سـيفـ الدـوـلـةـ ، قـوـلـهـ فـيـ وـصـفـ الـبـطـلـ الـحـبيبـ :

وـيـضـحـيـ غـيـارـ الـخـيلـ أـدـنـيـ سـتـورـهـ وـآخـرـهـ نـشـرـ الـكـباءـ الـمـلـازـمـ هـاـ هـيـ يـاـ تـرـىـ الـسـتـورـ الـأـخـرـىـ بـيـنـ غـيـارـ الـخـيلـ وـدـخـانـ الـبـخـورـ ؟ إـنـهـ لـصـورـةـ شـعـرـيـةـ جـمـيـلـةـ ، وـلـكـنـهاـ فـيـ الغـلوـ مـضـلـلـةـ . سـاعـةـ الـبـخـورـ فـيـ خـيـرـةـ الـأـعـرـابـيـ اوـ فـيـ دـيـوانـهـ ، وـسـاعـةـ خـيـلـهـ فـيـ سـاحـاتـ الـوـغـىـ ، لـاـ تـعـلـانـ وـلـاـ تـتـنـاسـيـانـ . فـضـلـاـ عنـ انـ الـحـقـيقـةـ هـيـ خـلـافـ ماـ تـصـورـهـ الشـاعـرـ ، فـالـأـمـيـرـ الـعـربـيـ ، وـلـاـ فـرقـ بـيـنـ مـنـ عـرـفـ فـيـ رـحـلـاتـ الـعـرـيـةـ ، وـبـيـنـ مـنـ كـانـ فـيـ أـيـامـ سـيفـ الدـوـلـةـ ، لـاـ يـكـمـلـ بـخـورـهـ إـلـىـ الـحـربـ ، رـاـذاـ حـلـهـ فـلـاـ يـسـترـ بـسـترـ دـخـانـهـ

وـأـشـبـهـ هـذـاـ التـنـافـرـ فـيـ الـبـيـتـ الـوـاحـدـ مـاـ تـجـدهـ بـيـنهـ وـبـيـنـ الـبـيـتـ الـذـيـ يـلـيـهـ . فـانـ الـصـلـةـ مـفـقـودـةـ بـيـنـ مـعـنـاهـ وـمـعـنـيـ الـبـيـتـ السـابـقـ . وـلـاـ آزـ لـاـشـارـةـ الـانـقـالـ مـنـ أـمـيـرـ كـثـيرـ الـسـتـورـ إـلـىـ قـوـلـهـ : وـمـاـ اـسـتـعـرـتـ عـيـنيـ فـرـاقـ رـأـبـتـهـ وـلـاـ عـلـمـنـيـ عـيـرـ مـاـ الـقـلـبـ عـلـهـ

على أن في هذه القصيدة وصفاً للجيش يقصر دونه هوميروس في إلياذته ، وقد لا نجد في شعر العالم مثل هذه الصورة في إيجازها وبلاغتها وهول حقيقتها . فقد وصف المتنبي جيش سيف الدولة بصحبه إلى ساحة لوغى جيش من العقاب قال :

سحاب من العقاب يزحف تحتها سحاب ، إذا استسقت سقتها صوارمه " اي اذا استسقت العقاب الجيش سقاها بصوارمه من دم الاعداء . هي ذي ذرعة عالية من ذرى البلاغة ، وصورة هائلة من سور الحرب ، ولكن الشاعر يقف عندها تعباً كليلاً ، بل يقف كليل البصر ، كليل النفس ، كليل النجاح ، وباليته وقف بكلكاه عندها ، فهو يصطدم هناك بنفسه ، وبسيط واياها ، يتدهور — الكلمة الوضعية يسف — نعم يسف إسقافاً مفجماً فيقول :

سلكت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزمٍ مؤيداتٍ قواً منه " فيدخل على فخامة المشهد وروعته ، بل على حوله وهو له صورة الشاعر ، وقد ركب من عزمه جواداً قوي القوائم ، وجاء ينشد سيف الدولة ويتدو به ، فوقف في أروع مجال المدى ليقول انه هو كذلك عظيم شأن رفيع الجناب .

ومن التقلقل في معانيه وخلو سبكها الفني والمناطقي من الانسجام ، ما جاء في أول القصيدة التي يرثي فيها أخت سيف الدولة :  
أجل قدرك أن تسمى مؤبنة ومن يصفك فقد سئاكِ للعرب  
هذا مفهوم مقبول :

غدرت يا موت كم أفتت من عددِ عن أصبت وكم اسكت من لجبِ  
وهذا مفهوم مقبول معقول .

أما البيت الذي يحيى بينها فهو يعرض المعنى اعتراض الشاعر اسياق القصيدة في أماكن شتى من ديوانه ، ويقطع الصلة المنطقية والفنية قطعاً جازماً :

لأعلمك الطربُ الحزونُ منطقه" ودمعه وها في قبضة الطرب  
ليت شعري هل تفقد القصيدة شيئاً كثيراً أو قليلاً من قيمتها لو لم يكن هذا البيت ، وفيه ما فيه من تغير الماء بالماء ، وفيه كذلك لفظة منها المألف أي الطرب هو غير ما يريد الشاعر ، إذ أنه يريد بالطرب الحزن فلتبس المعنى على القارئ غير المتضلع من اللغة .

أما وقوفات الشاعر الشخصية في قصائده ليلفت النظر إلى نفسه بل ليهنها ، ويفخر ويفاخر بها ، فهي تقطع على القارئ لذته العقلية والفنية ، وتکدر مشربه مما سبق من حلاوة المعاني والألفاظ . وفي القصيدة السيفية التي تقدم ذكرها يمترض الشاعر سياقها المنطق والمعنى ثلاث مرات : ولو ترافق بنا أو فضل الفن على الانانية لختمها بذلك البيت الفريد في بلاغته : سحاب من العقاب يزحف تحتها سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه"

على أن هذه الوقفات الشخصية قيمتها العالية في رسالة المرونة وستذكر في محلها . إنما من العدل أن أقول الآن إنه في بعض هذه المواقف التي يعرض فيها عن مدحه ليمدح نفسه ، يريخنا من ضرب الجاجم وركوب الأحوال في سبيل الفنان والمخال .

قلت إنني لا أعني بما في شعر المتنبي من الشوارد والشوادات الملغوية ، ومن التعدد والارتباك في الصيغة البيانية ، ومن الاغراب والاعجم والغموض والإبهام ، فإن لها من الاختصاصين من يعنون بها . وقد عنوا بها ، قدماً وحدثاً ، ووفوها حقها .

إنما أريد ان اشير هنا هنا الى حسنة من محسن شعره غير الصافية ، وإن نوء بها جميع من كتبوا عن المتنبي مدحًا وانتقاداً .

أريد بهذه الحسنة إشارته لللطيفة في معانيه ، فهي حيناً لطيفة "مفهومة وحينما ترهق منك اللطف والفهم ، فتعجز كل العجز وتحتفي بالكلمة المأثورة المعنى في قلب الشاعر .

في قلب شاعرنا ، ما قول صاحبك :  
 « فَيَ أَلْفُ جَزْهَ رَأْيِهِ فِي زَمَانِهِ .  
 وما معناه في البيت الحساني الآخر :  
 « أَحَادُّ أَمْ سُدَاسٌ » فِي أَحَادِ  
 وماذا تريده يا قلب في قول صاحبك :  
 « وَقَتَلْنَ دَفْرَا وَالْدَهِيمَ هَا رَىِ »  
 وما معنى قوله كشف الله عنك وعنك :

وكل شريك في السرور <sup>صَبَّحَ</sup> أرى بعده من لا رأى مثلك بعدي  
 هذه الألفاظ الحسانية ، والأسرار اللغوية ، والاشادات البعيدة عن  
 الأفهام العربية يحيطنا الشاعر بها جيداً بالابداع ورغبة بالاغراب ، فيختلف  
 في تفسيرها وشرحها جهات اللغة ، بل تضارب فيها آراءهم ، ولا يبلغون  
 بعد كد الفريحة وإجاد النفس ، وبعد التحكم في الاجتهاد والتحمل  
 في الاستنباط لا يبلغون أقول ، القاء والهاء من فمعنا ، فتظل الألفاظ  
 أفالزاً ، ولا يستقيم في تلك « الإشارات الاعلية » غير القموض .  
 لا وقت لنا أنها السادة والسيدات ، مثل هذه الترهات الشعرية في  
 هذا الزمان ، زمان العمل والسرعة . لا وقت لدينا نضيعه في درس  
 معميات شاعر منها عظم شأنه ، وعلا قدره وقد نلبسها بعد إضاعة الوقت  
 في درسها ، أنواعاً من التأويل والتفسير لم تخطر للشاعر في بال .

أعيد بهذه المناسبة ما قلته مراراً في القوالب الشعرية القاسية ،  
 قوالبنا العربية التي تحكم غالباً على الشاعر بما في شعره وقوافيه المفظاً ومعنىًّا ،  
 من الخزعبلات والركاكات ، وان لقوالب الشعرية شركاء في هذه الذوبان  
 اللغوية والبيانية والفنية . منها الكسل الفكري ، وعدم الاكتتراث ،  
 والعجب بالنفس ، وعجزها ، وعمد الاغراب والابداع .

اما الشعر الصافي ، الشعر الذي الممتاز في معانيه وصيغه وفي صوره  
 وقوافيه ، فهو لا يحتاج الى تفسير وتأويل . هذه دواوين الشعر العالمي  
 في الشرق وفي الغرب فما لا تجد فيها شيئاً من الشعر يحتاج الى حاشية

ذات سطع واحد لتفصير أو اشرح معناه .  
 إن الشعر الصافي العالمي مثل نور الشمس في صفاته وبهائه . وإن  
 مثل ما في السوقي في جريه وفي خريه ، وإنه في جمال فنه مثل الورد  
 كلله ندى الصباح . تقرأ هذا الشعر فتدخل معانيه القلب والعقل منك  
 بسمولة النور والماء ، وبسمولة عرف الطيب والهواء ، وبسمولة لفظ الحبيب  
 لاجاه والباء .

ان المتنبي مقدرة فائقة في تصريف الكلام وتشقيقه . وإن له تفتنا  
 عجيبة في تقادمه وتأخيره وفي افتضاب حداه فيه . ولكنه لا يالي بما  
 يلحق بالمعنى من غموض وتشويه ، وهو يتسع بالمعنى السخيف في بعض  
 الاختيارات فزيده سخافة . مثال ذلك أبياته الجوفاء في تقبيل رسوم الرؤوم  
 لكم سيف الدولة . وهي من أسفخ بمحاجلاته .  
 وإن له في التناقض الفكري ما يزري بالمقول البسيط ولا يالي  
 بالذوق السليم فهو في نفس واحد ، في بيتهن متحادين ، زينة لسيف  
 الدولة ، ورب للشعر والكتائب .  
 وما أنا إلا " سميري " حملته . . .  
 وما الدهر إلا " من رواة قصائد " . . .

فلو جاء الشطر الأول في اول القصيدة مثلاً ، والشطر الثاني في  
 آخرها ، لما ضج التناقض على القاريء هذه الفجوة المتكررة .  
 وكثيراً ما يلبس المعاني السخيفية ثوباً من الالفاظ الفخمة العلانية ،  
 فيسترها فلا تفضح . خذ قوله في عفافه :  
 وينفع لفته من كل سب . . . وينفع الشامة والأراك  
 فهل أظن ان الشامة والأراك اسمي ملائكة الفردوس ،  
 أو حوريتين من حور الجنان ؟ الشامة : واحدة الشام وهو مثل الأراك  
 شجر يستاك بعيدانه .

١١٥

أمين الرمحياني

فكانه كون على الشكل الذي تصوره الفيلسوف الألماني « نيتше » بعده بتسهانة سنة . كانه كون على شكل السورمان ، إنما الحق للفوة ، وإنما الدنيا للفوة ، أما الشفقة فان هي إلا ضف وضلال ! السورمان المتنبي . مرة واحدة يذكر الرحمة ، وقد يكون ذلك عرضاً .

أحزن ذي لب وأكرم ذي يد وأشجع ذي قلب وأرحم ذي كبد هو المهدى الذي يشبه ابن العميد به . ولا بد المهدى من الرحمة تكملة لفضائله ، على أنه من الممكن أن تكون النغففة قد جاءت زينة وزيادة — أكرم أحزن أرحم — في الطلاق البياني .

بالرغم مما تقدم أقول ما قال المحدثاني : « المتنبي ابن عصرنا » فهو لا زال اليوم كما كان في ذلك الزمان ابن عصرنا ، بل أقول ما قاله فيه الشاعري مع تصحيح صغير في ظاهره ، كبير في حقيقته . قال الشاعري « المتنبي واسطة عقد الدهر » ( وان كانت العبارة لا تحتمل التدقير ) إنه واسطة عقد الدهر فيعروبة وفي الشعر .

بهذا التصحيح أدخل الموضوع الذي يظاهر لي في أعلى منزلة من الأهمية ، فلو لاعروبة في المتنبي ، العروبة الممتازة بنطقها ، وبروحها ، وبطولها ، لما اهتممنا اليوم بشعره وعقريته هذا الاهتمام . أما ما رمي به من سفالة الأخلاق فقال بعض آباء زمانه ، ورددوها الناقدون : إنه كان جباناً ومحباً المال وبخليلاً ، فقد أمست ولا قيمة لها في تقديرنا عقريته ، حتى وإن اعتقדنا أن من رموه بها نزهون صادقون . ولكننا ننساها كأنس شوارده اللغوية والشعرية ، وكأنس شواذاته ومعيباته الصناعية ، وكأنس الناس في المستقبل ما سيفقد قيمته الدائمة .

من وصفه المعارك ، ومجده للحروب . ما الذي يبقى بعد ذلك من المتنبي ؟ يبقى من المتنبي شعره الصافي ، وتبقي الرسالة العربية . وقد تنصير هذه الرسالة عالمية إنسانية ، إذا جردت مما ينقلها من أسباب السيادات القديمة ، ومثلها العقب الآخذة بالتضاؤل

أي إن هذا الرجل العظيم ، الذي قلما ينزل من عليائه الفخامة الشعرية يقول إنه يمنع أمره من تقبيل كل صب ، ويعنجه هذه اللذة المسوأ !

قلت ليس في الديوان سحكة واحدة فاختلطات . إن في المسوأ الصحكة الكبرى .

قبل أن اتفقل من هذه الناحية من الموضوع ، يجب أن أقول كلة في سور المتنبي الشعرية ، كلة لا بد منها ، ما زلتنا في مواطن الضف والنفس من شعره . إن صوره الشعرية محدودة ، وهي في الغالب صناعية تقليدية لا علاقة فيها ولا أثر للمعقل المفرون بالروح ، أي لخيال الذي تغذيه الرؤيا ، فالغثث عنده للجود ، والامتد للشجاعة ، والشمس المجد ، والبحر للعظمة ، والجبل للفوة ، والبدر والنجم للسمو والعلى . ولكن له في هذه الاستمرارات والكلمات ، التي كانت مبتذلة حتى في زمانه ففتنا عجياً هو ركن من أركان عقريته .

وان مواضعه مثل استمراره محدودة ، ذلك لأنه استوحى بيته فقط ، بل استوحى ما يرى في الحياة ، وما مد ببصره وبصائره إلى ما لا يرى . وانه في ما يرى ما رأى غير أصحاب السيادة والجاه . ولا عجب مما ساحب هذا العربي العظيم غير الامراء والاعيان من الناس ، فزرت له أحوالهم ناحية من الحياة ، فعبر عنها اليوم بالاستقرائية . وليس في شعر المتنبي ، اذا استئننا غزله وبعض المناحي الشخصية التي يلين فيها عنوانه ، وتنكمش جوانب كبرياته ليس فيه شيء من رقة المواطف ووداعة الشعور ؟ ليس فيه ايقاع الفيلسوف ، وليس فيه ورع الرجل صالح التقى . وقد تستغربون قولي لاني لم اجد في كل الديوان ذكرآ للترجمة الا في بيت واحد .

مرة واحدة يجيئ ذكر الرحمة في ديوان هذا العقري العربي ،

والرزال ، فـم ، يا سادتي سينجح المستقبل الحرب شجباً حاسماً عاماً ،  
وسينتقل إلى المتألف للدرس والاعتبار كل ما في الآداب والفنون الراقية  
من آثار الحروب وأخبارها  
أما الشعر الصافي في المتنبي ، فإنه في المنزلة الأولى شعر عربي ،  
سحره في ألفاظه وفي صيغه ، وفي لمحته ودباحتها ، وفي مزنته الموسيقية  
الظرفية ، إننا لننحضر بـشعر المتنبي ، قبل أن تدرك معانـيه . إن رنات  
الـلـفـاظ وجـلـجـلةـ القـوـافـي ، لـنـخـلـانـ الفـلـوـبـ فيـ اـنـسـجـامـ أـلـحـانـهاـ ،ـ قـبـلـ أنـ يـدـخـلـ مـعـناـهاـ الـعـقـولـ .

أجل ، إنـا لـنـحـرـ بـشـعـرـ المـتـنـبـيـ وـنـحـنـ نـرـدـنـ وـنـشـدـنـ .ـ وـنـرـنـمـ  
بـقوـافـيهـ .ـ ثـمـ نـحـرـ فيـ هـذـاـ الشـعـرـ الصـافـيـ بـالـخـالـدـ منـ مـعـانـيهـ .ـ وـلـكـنـاـ  
وـنـحـنـ نـرـنـمـ بـقـوـافـيهـ تـعلـقـ رـنـاـهـاـ وـغـمـغـاتـ اـصـواتـهـ ،ـ فـيـ الـاذـنـ وـفـيـ النـفـسـ ،ـ  
فـتـرـسـبـ فـيـ الـعـقـلـ الـبـاطـنـ فـتـعـيـ قـسـماـ غـنـائـياـ مـنـهـ ،ـ يـرـدـدـ صـدـاءـ عـلـىـ الدـوـامـ  
دونـ انـ يـشـرـكـ هـذـاـ الـعـقـلـ وـالـاـدـرـاكـ .ـ

فـكـمـ مـرـةـ سـمـتـ أـذـنـيـ صـوتـ النـفـسـ يـرـدـدـ إـيـارـاـ المـتـنـبـيـ مـنـ بـعـضـ  
قصـانـدـهـ الـمـشـهـورـةـ .ـ وـكـمـ مـرـةـ فـيـ عـهـدـ الـنـازـعـ الـعـقـلـيـ الـرـوـحـيـ الـعـاطـفـيـ ،ـ  
سـمـتـ صـوتـ المـتـنـبـيـ ،ـ وـقـدـ تـمـوجـ فـيـ بـحـرـ الزـمـانـ وـالـفـضـاءـ إـلـيـ"ـ فـأـدـرـ كـنـيـ فـيـ  
نيـويـورـكـ كـاـ أـدـرـ كـنـيـ فـيـ الـبـادـيـةـ ،ـ وـأـنـاـ أـرـدـدـ صـدـيـ قـوـافـيهـ الـخـالـدـةـ .ـ

أـرـيدـ مـنـ زـمـنـ ذـاـ أـنـ يـلـغـيـ ماـ لـيـسـ يـلـغـهـ مـنـ نـفـسـهـ الزـمـنـ

ماـ كـلـ ماـ يـتـمـيـ المـرـءـ يـدـرـكـهـ تـجـرـيـ الـرـيـاحـ بـاـ لـاـ تـنـتـيـ السـفـنـ

كـلـ أـنـتـ الزـمـانـ قـنـاةـ رـكـبـ المـرـءـ فـيـ الـقـنـاةـ سـنـانـاـ

وـإـذـاـ كـانـتـ النـفـوسـ كـبـارـاـ تـعـبـتـ فـيـ مـرـادـهـ الـأـجـسـامـ

إذا أردتْ كـيـتـ اللـونـ صـافـيـ وـجـدـتـهـ وـجـبـبـ النـفـسـ مـفـقـودـ  
ماـذاـ لـفـيـتـ مـنـ الـدـنـيـاـ وـأـعـجـبـهـ آـيـ بـاـ آـنـاشـاـكـ مـنـهـ مـحـسـودـ  
\*\*\*

هوـ ذـاـ يـاـ سـادـيـ شـيـ مـنـ الـحـيـاـةـ الـشـرـيـ خـالـدـ ،ـ وـقـدـ صـورـهـ الشـاعـرـ  
صـورـهـ صـادـقـةـ بـلـغـةـ خـالـدـةـ .ـ

إنـ هـذـهـ النـاحـيـةـ مـنـ شـعـرـ المـتـنـبـيـ تـدـوـمـ فـيـ جـدـتـهـ وـقـوـةـ فـعـلـاـهـ فـيـ النـفـسـ  
ماـ دـامـ فـيـ الـعـالـمـ نـاطـقـ بـالـفـنـادـ ،ـ وـسـيـرـدـهـ الـعـرـبـيـ بـعـدـ أـلـفـ سـنـةـ ،ـ كـاـ  
رـدـدـهـ هـذـاـ الـعـرـبـيـ فـيـ هـجـرـتـهـ يـأـمـيرـيـكـةـ ،ـ وـفـيـ عـزـانـهـ بـلـبـنـانـ .ـ

هيـ ذـيـ إـحـدىـ النـاجـيـتـيـنـ الـخـالـدـيـنـ مـنـ شـعـرـهـ ،ـ وـسـيـطـنـ غـيـرـيـ فـيـ  
مـعـالـجـتـهـ فـيـسـتـجـلـوـنـ بـدـائـهـاـ وـرـائـهـاـ ،ـ إـنـ كـانـ فـيـ الـنـزـلـ أـوـ الـوـسـفـ  
أـوـ التـبـارـيـحـ .ـ

أـمـاـ النـاحـيـةـ الـأـخـرـىـ الـخـالـدـةـ .ـ فـهـيـ إـلـيـ تـنـحـصـ بـالـمـرـوـبـةـ وـرـسـاتـهـ  
الـلـيـقـافـيـةـ ،ـ الـرـوـحـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ ،ـ وـمـنـ الـفـرـبـ أـنـ تـجـيـهـ هـذـهـ الرـسـالـةـ فـيـ  
مـاـ اـمـسـ عـنـدـنـاـ مـنـ مـبـتـدـلـ الشـعـرـ ،ـ آـيـ فـيـ الـمـدـيـحـ .ـ عـلـىـ أـنـهـاـ فـيـ نـظـرـيـ  
أـعـطـتـ مـدـيـحـ المـتـنـبـيـ تـلـكـ الصـفـةـ الـتـيـ تـشـرـكـ وـالـصـنـاعـةـ الـشـعـرـيـةـ فـيـ خـلـودـهـ ،ـ  
وـقـدـ تـكـوـنـ الـعـاـمـلـ الـأـكـبـرـ فـيـهـ .ـ إـنـ هـذـهـ الصـفـةـ ظـاهـرـةـ فـيـ مـدـيـحـهـ كـلـهـ :ـ  
مـنـذـ صـبـاهـ فـيـ بـوـادـيـ الشـامـ وـحـواـضـرـهـ ،ـ إـلـيـ أـيـامـهـ الـأـخـيـرـةـ فـيـ كـنـفـ إـنـ  
الـعـمـيـدـ وـعـضـدـ الـدـوـلـةـ بـبـلـادـ فـارـسـ ،ـ فـقـدـ بـدـأـ بـعـدـ عـرـبـيـ :

وـ خـيـرـ قـرـيشـ آـيـاـ وـأـمـجـدـهـ .ـ

وـانـهـيـ بـعـدـ مـنـ كـانـ عـرـبـيـ الـلـسانـ وـالـلـيـقـافـيـةـ فـيـ الـأـقـلـ ،ـ آـيـ عـضـدـ الـدـوـلـةـ .ـ  
أـرـوحـ وـقـدـ خـتـمـتـ عـلـىـ فـؤـادـيـ بـحـبـكـ آـنـ "ـيـحـلـ"ـ بـهـ سـواـكـ  
وـكـانـ الشـعـرـ فـيـ هـذـاـ القـوـلـ أـصـدـقـ الصـادـقـيـنـ .ـ وـقـدـ لـفـتـهـ عـلـىـ يـدـهـ  
ذـلـكـ الـفـانـكـ الـغـيـرـ الـأـسـدـيـ بـعـدـ بـضـعـةـ عـشـرـ يـوـمـاـ مـنـ نـظمـ قـصـيـدـهـ هـذـهـ  
الـأـخـيـرـةـ ،ـ فـاـ حلـ فـيـ فـؤـادـهـ حـبـ بـعـدـ حـبـهـ عـضـدـ الـدـوـلـةـ .ـ وـكـذـلـكـ كـانـ  
عـرـبـيـاـ اـولـ مـنـ مـدـحـ ،ـ وـعـرـبـيـ الـلـسانـ وـالـلـيـقـافـيـةـ آـخـرـهـ .ـ

وما هي هذه المروبة التي تغنى بها المتنبي ، ومجدها ، وذئر أعلامها في كل بلد حلّه من هذا الشرق الادنى ؟ قد يدهشك قولي إنها لم تكون كلاما في من مدحهم المتنبي . بل قد كانت بأجسامها ، وبأبهى مظاهرها ، في المتنبي نفسه . وقد يستغرب قولي إنه في مدحه سيف الدولة مثلاً أو أبي العثار ، أو ابن العميد ، كان يدح ذلك العربي الذي يدعى المتنبي ، كان يتغنى بتلك الصفات الشريفة العالية التي يشعر أنها صفاتة ، أو يشتكي أن تكون صفاتة ، فتنعكس على قلمه وفي قوافيه مدحًا يختص به من عرروا قدره وأكثروا عبقريته العربية .

أقول إن المتنبي في مدحه سيف الدولة مثلاً كان يدح نفسه ، ولا أقول إنه كان يفعل ذلك بادراك منه ، أو بحس ظاهر فيه . إنما عقله الباطن العربي كان على عليه ويسخره لنشر اعلام المثل العليا العربية في الناس بواسطة أفراد كبار من الناس .

وقد عاش المتنبي ، كما لا يخفى على من له أفل المام بمحياته وعصره ، يوم كانت الشعوبية خاربة أطناها شرقاً وغرباً ، وعاملة لافساد المروبة وهدم أركانها . ييد أن الدولة الحمدانية في تلك الأيام كانت حصن المروبة الأحسن ، وعلمه الاعلم ، ونورها الأنور الالمع ، وعندما نقول الدولة الحمدانية نقول سيف الدولة ، وعندما نقول سيف الدولة ، نقول المتنبي .

المتنبي ذلك الروح العبرى الذي أحيا كل ما لمس بنظره قوله - الbadia ومن فيها ، المعارك وقوابضها وعواصمها ، الخيل وفرسانها ، المجالس الشعرية وأنوارها التي كانت تترجرج حوله ترجرج النجوم حول القمر ، والربيع في شعب بوأن ، والأسد والفزلان ، أحياها كلها في شعره كما أحيا كل من مدح وهجا ، وكل من قال فيه ولو قافية حافية .

المتنبي ذلك الروح العربي المشتعل حاماً ، المتوجه شرعاً ، المثالي ذكاً ، المتوج حباً وحنيناً ، المتعالي عظمةً ومجداً ، ذلك الروح الفلق النائر الحائر المضطرب المشرق المغرب في البوادي والخواص ، الحامل

بين جنبيه ناراً فدسيه ، وأنواراً سحاوية يشعها ويضرمها في كل مكان ، باسم ربيعة وتميم وتتوخ ، بل باسم قحطان وعدنان ، بل باسم المروبة الباسطة أججتها فوق القبائل والعواصم جماء .

حاكم المتنبي في العواصم العربية ، وفي العواصم التي كان يشمل فيها روحًا عربية .

حاكم المتنبي بشمعه يسمعه ، بمقلمته يطمحوه ، بكل ما ورثه من أجداده الفاتحين ، ومن أرباب الشعر الخالدين ، وهو داءاً يربد من زمانه ما ليس يبلله في نفسه الزمان .

حاكم المتنبي في العواصم العربية وغير العربية - في حصن وحلب وانطاكية ، في لبنان وبملبك والشام ، في طبرية ، في مصر ، في شيراز . وقد كان في تشريفه وتغريبه ، وفي حله وترحاله ، كالبرق الخاطف تارة ، وطوراً كالرعد القاصف ، وقد كان كنور الشمس في الشروق في الهجرة . وقد كان حيناً كالمعرف الطيب في ساعات المساء الماكرة ، وحياناً كالاعصار في البحار ، وكالسموم في البدية . وقد كان قبل ذلك وبعد ذلك حوتناً عالياً خالداً ورده الدهر قبلنا ، وسيرده الدهر بعدهنا ، كما نرده نحن الآن .

أنا صخرة الوادي إذا ما زوخت وإذا نطقت فاتي الجوزاء \*

تحفِّرْ عندي همي كل مطلب وبقصر في عيني المدى المطاول \*

وأني إذا باشرت أمراً أريده تدانت أقصيه وهان أشدده \*

الخيل والليل والبيداء تعرفي والسيف والرمح والقرطاس والقلم \*

هو ذا المتنبي في جوله وصوله ، وفي عظمته وبمحده . هو ذا العربي الذي يقول في العربي إنه :  
رجل طبته من العبير الورد وطين العباد من صالح

للسuns فيه والصحاب وللبحار وللرياح شمائل .  
هو ذا الروح العربي الصميم الذي كان يصيغ بالعرب المذبذبين بين  
العروبة والشمعية :  
وإغا الناس بالملوك وما تطلع عرب ملو كها عجم  
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم  
هو ذا الروح العقري العربي الذي جاب البلاد شرقاً وغرباً فبشر  
بالعروبة ، وتحت عليها ، ورفع عاليآ أعلامها .

وما كان المتنبي في تجواله ، على جدة ما شاهد من التكريم ،  
ووفرة ما لاق من التعظيم ، ما كان ينـى بلـدـ العـربـ بلـدـهـ فـماـ عـابـ عـلـىـ  
« افصح الناس طرآ » اي ابن العميد الا انه في بلـدـ غـيرـ عـرـبـيةـ . وما  
جمع بينـماـ في أرجـانـ غـيرـ العـرـوبـةـ وـالـقـافـةـ الـعـرـبـيـةـ الـعـالـيـةـ . وـعـنـدـهـاـ خـرـجـ  
وعضـدـ الدـوـلـةـ لـاصـيدـ بـدـشـتـ لـارـزـنـ ، ذـكـرـتـهـ وـحـوـشـهـ بـغـزـلـاتـ  
نـجـدـ وـأـنـاءـهـ .

إن في ضواحي شيراز مكاناً هو من أجمل ما في الدنيا ، اسمه « شعب  
بوآن » وصفه المتنبي وصفه « بـلـيـةـ » ، ثم قال ، وقد حمله الحنين إلى  
مراكع صباح :

أحب حـسـاـ إلى حـنـاـ صـرـةـ وكلـ نـفـسـ تحـبـ مـحـياـهاـ  
لقد حـمـلـ المـتـنـبـيـ بـلـادـهـ فـقـلـبـهـ حـيـثـاـ قـدـفـتـ بـهـ آـنـوـاءـ الزـمـانـ ، فـقـنـغـزـلـ  
وـهـ فيـ شـيرـازـ بـخـانـ دـمـشـقـ . وـقـالـ وـهـ مـأـخـوذـ بـعـقـانـيـ شـعـبـ بوـآنـ .  
ولـكـنـ « الفـيـ الـعـرـبـيـ » فـيـهاـ غـرـبـ الـوـجـهـ وـالـيـدـ وـالـأـسـانـ .  
وـقـدـ ذـكـرـ فـيـ تـلـكـ الـجـنـانـ تـفـاجـ لـبـنـانـ ، وـحـنـ وـهـ فـيـ أـرـجـانـ إـلـىـ

من ودهم في العراق . ولفترط شوقة الى دمشق ومنازلها ، كان يرى  
خيالها مصاحباً له ، حتى في أجمل مشاهد العجم الطبيعية والاجتماعية .  
اما السادة - ان لكل شاعر بلادين ، بلاد خياله ، وببلاد مولده  
وأجداده ، وهو يقيم حيناً في هذه ، وحياناً في تلك ، تارة يكون  
مثل إخونه في مراتعهم ومنازلهم ، وطوراً يصعد الى دنيا خياله ، فيبعد  
منهم ويملأ عليهم ، ويظل مع ذلك بذكرهم بكل ما في دنياه العليا من  
محسنات للوجود ، ومكالات الحياة . وإن له بين البلدين موطن قد  
لاستراحة أشواقه وأماله ، هو قسمته من الحياة الدنيا . ولكن هم  
الأكـبرـ حتـىـ هـاـ هـاـ هـوـ أـنـ يـنـقـلـ شـيـئـاـ مـنـ دـنـيـاـ الـخـيـالـ إـلـىـ دـنـيـاـ الـجـدـودـ .  
وان أحـزـانـهـ وـأـفـرـاحـهـ تـفـاسـ بـعـاـ يـسـتـحـيلـ ، وـبـعـاـ يـعـكـنـ آـنـ يـنـقـلـهـ لـنـاـ مـنـ  
عـالـمـ الـأـعـلـىـ .

كذلك كان المتنبي وطنان يتنازعان فؤاده . والتنازع في قلب الشاعر  
شديد على قدر خياله أو وحيه ، وقل على قدر سكراته الشعرية . فإن  
له سكرات هي النعيم ؛ تلوها بفاتحات هي الجحيم . اذ رأى نفسه في علم  
أجداده ، ولا رأى غير القليل مما يريد لأخوانه من عالمه الأعلى . ولكنه  
يجد بعض التسلية بتدحّيـجـ من عـدـحـومـ ، بل هو يـنـدقـ عـلـيـهـمـ منـ فـيـنـ  
روحـهـ دـوـاءـ لـاشـجـانـهـ ، وـبـلـسـماـ لـحـرـوـحـهـ . وـمـعـ ذـلـكـ فـلـاـ مـهـرـبـ لهـ مـنـ  
الـيـأسـ ؛ وـلـاـ مـلـجـاـ مـنـ السـآـمـ وـالـمـلـلـ غـيرـ النـظـمـ ، ثـمـ النـظـمـ ثـمـ النـظـمـ .

فهل يلام إذا افتخر بنفسه يعيد إليها نشاطها وأعمالها ؟  
مفرشي سهوة الحصان ولـكـ من قـيمـيـ مـسـرـوـدـهـ منـ حـدـيدـ  
أبداً أقطعـ البـلـادـ وـنـجـمـيـ فيـ نـحـوسـ وـهـمـيـ فيـ سـعـودـ  
وـإـذـاـ ماـ اـشـتـدـ الـيـأسـ عـلـيـهـ وـكـانـ أـشـدـ يـأسـهـ فـيـ قـوـمـهـ يـقـولـ :  
لاـ يـقـومـيـ شـرـفـتـ بـلـ شـرـفـواـ بـيـ وـبـنـفـيـ فـخـرتـ لـاـ بـحـدـودـيـ  
وـلـكـنـهـ هـوـ الـعـرـبـ الـأـبـرـ ، يـسـتـدـرـكـ فـيـ ذـكـرـ فـيـ الـبـيـتـ الـتـالـيـ فـيـهـ :  
وـهـمـ فـخـرـ كـلـ مـنـ نـطـقـ الـنـاـ دـوـعـوـذـ الـجـانـيـ وـغـوـثـ الـطـرـبـ

إن جدود المتنى جدودنا . وإن عروبتنا عروبتنا . وإن كل ما في مدوبيه وكل ما في نفسه من الفضائل عملاً وقوه هي من معونة تلك المروبة ، الكرم والشتم ، والشخاعة والآقدام والفروسية والارتجاه ، والمرؤة والمعفاف ، والصبر والصدق والوفاء ، كل هذه الفضائل يراها المتنى في عالمه الأعلى ويقلما على لسان شعره إلى علم مولده وأجداده ، فيرأها مجتمعة في مدوبيه ، ويرى نفسه كامنةً فيها . لولا ذلك لما استرعت عظيم إعجابه ، واستحقت خوالد قوافيها .

جميلة هي المعالى في شعره ، ولكنها في أعمال من يسمون لها ويدركونها أجمل وأعلى . وقد كانت تلك الفضائل تلجم في صدره كلًا مدح عربياً أيا كان . فتراء يلين حتى لا يدعه سيف الدولة لبني كلاب وبني كعب ، ويسأله الرفق لهم لأنهم من العرب .

إذا لم يرعن سبدهم عليهم فلن يرعى عليهم أو يغار  
تفرقهم وإيه السجايا ويجتمعهم وإيه النجار  
ثم قال بخاطب سيف الدولة :

لهم حق بشرك في نزارِ وأدني الشرك في أصلِ جوارِ  
و يوم كان معتقداً في حمص قال في جدود الأمير واليها :  
سعوا المعالي وهم حبيبةٌ وسادوا وجادوا وهم في المهد  
هو العقل الباطن . وما حمل من رسالة المروبة ، في جدود الأمير هم  
جدود المتنى ، كما أنت جدود المتنى جدودنا ، وإذا رأيك من الأمر  
شيء ، أو انخل فيك حبل الثقة بربك وبنفسك ، فاسمع المتنى يناديك  
قائلًا :

عش عزيزاً أو مت وافت كريماً بين طعن القنا وخفق البنود  
فاطلب العز في لفلى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود  
هذا ما كان يقوله سيف الدولة مدوبيه ولنفسه ، هذا ما كان

## أمين الرحىاني

١٢٣

عليه عليه العقل الباطن ، ليهدى من أمامه غيوم الياس وفيه العثار والموان  
أو ليس هو القائل :

من بن يسهل الموان عليه ما لحرج بيت إيلام  
قالت إن المتنى كان يزن مدوبيه بتلك الشهائد التي حل معدتها في نفسه ، أو بالحربي وجده في عالمه الأعلى . وإن بين هذا العالم الأعلى وأعمق النفس حلة خفية قد تكون بعيدة كما هي في عامة الناس ، وقد تكون على قيد شعرة كما هي في الشاعر الكبير ، شاعر قومه وشاعر الإنسانية .  
وليس المتنى منفردًا في هذا التمجيد القومي . فإن له في سائر الأمم المتقدمة زملاء وإن كانوا حتى من الشعراء العالميين الكبار ، يكفي أن ذكر منهم شكسبير الذي يجدد الانكليز في أبطاله التاريخية ، وهوغو مجد الفرنسيس في شخص نابليون الأول ، ودنه مجد الالئين في رجال حزبه السياسي .

ولا يفوتك ان في كل من هؤلاء العباقة يعلم العقل الباطن عمله فيعملي عليهم في جموع ما يرسب فيه من تراث الأجداد ، وثقافة الأجيال وقد يضيف إليها العبرى ما يتجلى له في تحليقه الشمري أو ساعة الفيض والنزيل من المثل العليا في شئ مناجي الحياة .  
كذلك كان المتنى في سكراته الشعرية مسيراً بعوامل العقل الباطن أي العوامل الداخلية ، وبالفيض الشعري والخيال اي العوامل الخارجية . وهو فيها كلها عربي قبح ، لا يليس من مدحهم ، أبطاله ، غير الفضائل التي ذكرت ، الفضائل العربية ، وفي المزيلة الأولى منها : الشجاعة والكرم .

وإن من الفضائل ما لا ينفصل عن الشجاعة . فالشجاع قوي ، والقوى صادق ، والصادق شريف صريح أبي . فهل من يذكر على العرب الشجاعة والصرامة في القوم ، والجاهة في المداء ؟  
إذا توأوا دعاة كشفوا وإن تولوا صناعة كتموا

١٢٥

أمين الرماني

الاَعْلَى وَخَيْرُ مَا فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ ، بَلْ هُوَ يَجْحَدُ الْعَرَبَ وَالْمَرْوَةَ فِي  
مَدْوِحِهِ جَيْمَاً . كَانَتِي بِهِ كَانَ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَبَاهِرَ النَّظَامَ : هَذَا الرَّجُلُ  
مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ ، فَيُجَبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ شَاهِنَالِ الْعَرَبِ أَشْرَفُهَا وَأَعْلَاهَا  
أَوْ أَنْ يَقُولُ : هُؤُلَاءِ هُمُ الْعَرَبُ وَأَنَا مِنْهُمْ ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ الْعَلَمَةُ مِنْ  
سَجَابِهِمْ ، وَكَيْفَ لَا يَكُونَ أَنَا عَلَمًا ؟ أَنِّي لَا أَرَى فِي الْوَجْهِينِ  
حَقِيقَةَ رَائِعَةَ .

وَلَمَّا أَنْ تَقُولَ دُونَ أَنْ تَوَغَّلَ فِي درَسِ الْمَوَافِلِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ ،  
إِنَّ المَتَّنَبِيَّ فِي مَدْحَهُ الْكَرْمِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَالْمَرْوَةِ وَالْوَفَاءِ ، وَحُبِّ الْقُوَّةِ  
وَالْمَجْدِ ، أَصَابَ مَا فِي نَفْسِ كُلِّ عَرَبٍ فِي زَمَانِهِ وَبَعْدِهِ ، كَمَا يَصِيبُ مَا فِي  
أَنفُسِنَا يَوْمَ وَغَدَّاً .

إِنَّمَا تَشَجَّعُ الْمَقَالَةُ فِي الْمَرْءِ ، إِذَا وَاقَفَ هُوَ فِي الْمَفَوَادِ  
وَكَيْفَ لَا يَكْبُرُ الْمَرْءُ ، وَيَعْتَزُ بِمَرْوَتِهِ عَنْدَمَا يَقْرَأُ فِي أَحَدِ مَلُوكِ  
الْمَرْءِ قَوْلُ شَاعِرِ الْمَرْءِ :

أَرَى كُلَّ ذِي مَلَكٍ إِلَيْكَ مَصِيرَةً<sup>١</sup> كَانَكَ بَحْرٌ وَالْمَلُوكُ جَدَالٌ  
إِذَا مَطَرَتْ مِنْهُمْ وَمِنْكَ سَحَابَةٌ<sup>٢</sup> فَوَالْبَلْمِمْ طَلَّ وَطَلَّكَ وَابْلَ  
أَهْلَ السَّادَةِ وَالسَّيَّدَاتِ ؟

لَا تَفْنُونِي أَسْلِي نَفْيِي بِالْمَحَالِ ، وَاحْتَوَلَ أَنْ أَسْلِيكَ بَعْذَبَ الْأَقْوَالِ ، إِنَّ  
الشَّاهِنَالَّى حَلَّ الْمَتَّنَبِيَّ أَعْلَاهُمَا ، وَجَعَلَهَا الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي سِيَادَةِ النَّاسِ<sup>٣</sup>  
بَلْ فِي النَّاسِ أَجْمَيْنِ ، لَجَدِيرَةٍ بِأَنْ يَتَحَلَّ بِهَا ، وَيَتَخَذَنَّهَا سَنَةً فِي أَعْمَالِهِ  
كُلِّ مِنْ كَانَ سِيدًا فِي النَّاسِ وَإِذَا مَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْفَضَائِلُ كَمَا لَأْمَرَ  
مِنَ الْأَمْرَاءِ ، أَوْ لَحَاكَمَ مِنَ الْحَكَامِ ، وَكَانَ لَهَا فِي شَعْبَهِ أَصْوَاتٍ  
وَأَصْدَاءٍ ، وَكَانَ لَهَا فِي شَعْبَهِ الْأَعْمَالِ الْمَزَّرَةُ ، فَذَلِكَ الْأَمْرَيْرُ الْحَاكِمُ  
مَدْرُكٌ لَا مَحَالَةَ أَعْلَى ذَرِيَّ الْقُوَّةِ وَالْمَجْدِ وَالْإِحْسَانِ .  
وَإِنَّ الْمَرْءَ كَمَا قَلَّتْ فِي مَقْدِمَةِ خَطَابِيِّ يَقْنَاطَاتٍ . وَإِنَّ لَهُمْ وَبَاتٍ .  
وَإِنَّ لَهُمْ عَوْدَاتٍ وَنَهَضَاتٍ . أَفْلَسْنَا يَوْمَ فِي يَقْنَاطَةٍ جَدِيدَةً ؟ إِنْ دَلَائلَ

وَالشَّجَاعَةَ تَعْمَلُ مِنَ الْبَخْلِ ، لَأَنَّ فِيهِ خَوْفُ الْفَقْرِ ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ  
الْجَبَانَةِ ، وَالْجَوَادُ يَعْنِي مِنَ الْجَبَانِ ، لَأَنَّ فِيهِ الْحَرَسُ عَلَى الرُّوحِ وَهُوَ ضَرْبٌ  
مِنَ الْبَخْلِ ! هَذَا مَا يَعْنِيهِ الْمَتَّنَبِيُّ فِي قَوْلِهِ الْوَجِيزِ الْبَلِيجِ فِي سَيفِ الدُّولَةِ :  
هُوَ الشَّجَاعُ يَعْدُ الْبَخْلَ مِنْ جَبَانٍ وَهُوَ الْجَوَادُ يَعْدُ الْجَبَانَ مِنْ بَخْلٍ  
فَالشَّجَاعُ فِي نَفْلِهِ كَرْمٌ ، وَالْكَرْمُ شَجَاعٌ . وَقَدْمَا كَانَ رِئَيْ السِّجْيَةِ  
الْوَاحِدَةِ دُونَ الْأُخْرَى . هَا سَجِيتَانِ عَرَبِيَّتَانِ مُتَلَازِمَتَانِ . وَأَنْتَ الْمَيْلَ  
الْأَعْلَى فِي الْأَمْتَنَيْنِ لِيَتَحَلِّي فِي مَدْوِحِهِ الْمَرْءُ ، بَلْ فِي مَدْوِحِهِ جَيْمَاً ،  
مِنَ الْأَمْرَاءِ كَانُوا ، أَوْ مِنَ الْعَلَمَاءِ ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْبَرِّ وَالنَّقْوَى .  
خَذْ مَثَلًا قَسِيدَتَهُ فِي إِنْ أَبِي الْأَصْبَعِ ، وَإِحْدَى قَصَائِدِهِ فِي إِنْ  
اسْحَقِ التَّنْوَخِي ، فَلَوْلَا الْإِسْمُ فِي الْقَصِيدَةِ لَفَانَتْتِ أَنْتَ الْمَتَّنَبِيُّ يَعْدُ  
سَيفَ الدُّولَةِ .

كَانَكَ فِي الْأَعْطَاءِ الْمَالِ مِنْهُ فَنِعْضُ<sup>٤</sup> وَفِي كُلِّ حَرْبٍ الْمَدِيَّةِ عَاشَ<sup>٥</sup>  
هَذَا إِنْ اسْحَقِ التَّنْوَخِي .

تَرَكَ الصَّنَاعَةَ كَالْفَوَاطِعِ بِارْقَا<sup>٦</sup> تِي وَالْمَعَالِي كَالْعَوَالِي «نَرَّعا»  
وَهَذَا إِنْ أَبِي الْأَصْبَعِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي الْفَوَارِيِّ بَلْ كَانَ كَاتِبًا ،  
وَقَدْ قَالَ فِي إِنْ زَرِيقِ الْعَرْسُوَيِّ مَا لَمْ يَقُلْ هُومِيُّرُوسُ مِثْلُهُ فِي رَبِّ  
أَرْبَابِ الْأَغْرِيقِ .

لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْبَنِ أَعْمَلَ رَأِيهِ<sup>٧</sup> لَمَّا أَتَى الظَّالَمَاتِ صَرَنْ شِمُوسَا<sup>٨</sup>  
أَوْ كَانَ حَادِفَ رَأْسَ عَازِرَ سَيْفَهُ<sup>٩</sup> فِي يَوْمِ مَعْرَكَةِ لَا عِيَا عِيَا<sup>١٠</sup>  
لَوْ كَانَ بَعْدَ الْبَحْرِ مَثَلَّ يَحِينَهِ<sup>١١</sup> مَا اشْقَى حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوْهِي<sup>١٢</sup>  
أَوْ كَانَ لِلْبَرَانِ ضَوْهَ جَيْدَهِ<sup>١٣</sup> عِيَدَتَنَ<sup>١٤</sup> فَكَانَ الْمَالَوْنَ بِحِوسَا<sup>١٥</sup>  
لَمَّا سَمِعَتْ بِهِ سَمِعَتْ بِوَاحِدَ<sup>١٦</sup> وَرَأَيْتَهُ فَرَأَيْتَهُ مِنْهُ خَيْسَا<sup>١٧</sup>  
وَلَحْظَتْ أَعْلَهُ فَمَانَ مَوَاهِبَهَا<sup>١٨</sup> وَلَمَسَتْ مَنْصُلَهُ فَسَالَ نَفُوسَا<sup>١٩</sup>  
فَهُنَّلِ تَجَاوِزُ هَذَا الْفَلُو وَالْمَلُو فِي كُلِّ مَا قَالَهُ فِي سَيفِ الدُّولَةِ<sup>٢٠</sup>  
هُوَ الْعَقْلُ الْبَاطِلُ يَعْلَيْ عَلَى الْمَتَّنَبِيِّ فَيَمْدُحُ فِي مَدْوِحِهِ خَيْرَ مَا فِي عَالَهِ

هذه اليقظة كثيرة أعدد منها ولا أعددها . بل أكتفي الآن من « منها »، بهذا المعرض الدليل الأكبر ، وهذا المهرجان الدليل الأبهى . فهل تهض أمة بلا ثقافة قومية عالمية ؟ وهل يقون وطن في هذا الزمان بلا معدات المهمة الاقتصادية ؟

أجل إن العرب اليوم في يقظة جديدة ، وإن لا يقظة هذه كل عوامل المهمة الكبرى ، أي العوامل الوطنية والاقتصادية والسياسية والأدبية . أقول العرب ، واستوقفكم عندها . أنت يا رجالات سورية ، وأنت يا رجالات لبنان ، وأنت يا فتيان البلدين ، استوقفكم عند هذه الكلمة ؟ إنت يا إياكم عرب ، وإن في ذلك خرقنا الأكبر ، إنا لعرب وكفى ، فقد كانت العرب قبل الاسلام وقبل المسيحيين ، وستبقى العرب بعد المسيحية وبعد الاسلام .

إني أعد الزمان في تاريخ الامم بالفروع لا بالسنين . فنحن اليوم نحتفل بذكرى الف سنة مرت على وفاة المتنبي . وبعد مئة سنة يحتفل أبناء البلاد العربية بذكرى العالية في هذا البلد الطيب ، في دمشق القدية الجديدة . وقد رفع حول علمها الاعلى علم المروية الخالدة ، أعلام العواصم كلها ، من القاهرة الى بغداد ، ومن حلب الى صنعاء اليمن . ويومئذ يقف الشاعر فيخاطب رب ذلك الملك ، شخصاً فرداً كان او برلانداً جاماً ، فيمجده ويمجد المتنبي مما قاله المتنبي في سيف الدولة .

تشرف عدنان به لاريعه<sup>١</sup> وتفتخرون الدنيا به لا العواصم<sup>٢</sup>

دمشق : توز سنة ١٩٣٦

## سيفيات لمتنبي

تراث الشعر ، قول في أبي الطيب  
للساز عباس شاهين

قال ابن أبي الحميد صاحب الشرح الكبير ( للزوج ) في كتابه : ( الفلاك الدائر على المثل السائر<sup>(١)</sup> ) : « كنت شرعت في حل ( سيفيات المتنبي ) لشهرتها وغلبتها على ألسنة الناس ، وأن أجعل ذلك كتاباً مفرداً أقترب به إلى الخزانة الشريفة<sup>(٢)</sup> - عمرها الله تعالى - نخرج بعضه ، وصدق عن إعماقه عوائق الوقت وشواغله » .

فهل أكمل ابن أبي الحميد هذا الكتاب ؟ وأين هو ؟  
إن كان الزمان - وقد كان - قد أشاعه فإنه أبقى بقية منه .  
وفيها الدليل عليه ، وأننا مورد اليوم متلقاها طرفة أدب لا أدباء العرب ، وإعلاماً أن احمد بن الحسين قد شغل حكمهاً وعلمهاً متكلماً مثل ( ابن أبي الحميد ) كما شغل الآباء واللغويين وغيرهم : فأديب نقهـ ، ولغوي شرحـ ، ومؤرخ كتب سيرته ، وعلم نثر شعره أو حل نظمـه ، وآخر جمع حكمـه . وإنها لسعادة ما نال مثلـها شاعر ، وما أسعد ( احمد ) الـ عـبـقـرـيـهـ ، وـالـعـبـقـرـيـيـ فـيـ الدـنـيـاـ شـقـيـ وـسـعـيدـ ، وـحلـ النـظمـ منـ آـفـانـيـنـ الـأـدـبـ فـيـ الـقـدـيمـ ، وـقـدـ دـفـعـ إـلـيـ الـكـابـ يـقـفـ الشـاعـرـ فـيـخـاطـبـ رـبـ ذـاكـ الـمـلـكـ ، شـخـصـاـ فـرـداـ كـانـ اوـ برـلـانـداـ جـاماـ ، فـيـمـجـدـ المـتـنـبـيـ مـاـ قـالـهـ المـتـنـبـيـ فـيـ سـيفـ الدـوـلـةـ .

وقال : إنه نثر قول نصيب :

(١) مطبوع في الهند . (٢) خزانة الكتب الخلاصة المبابية في بغداد .

(٣) ورد ذلك في صح الأعشي تلاً عن كتاب ( اريحان وزيمان ) .

فما جوا فائوا بالذى انت أهله ولو سكناه عليك الحقائب  
قال الجاحظ : « نحن ( أعزك الله ) نسحر بالبيان ، ونغوه بالقول ،  
والناس ينظرون الى الحال ، ويقضون بالعيان . فائز في أمرنا أثر مينطق  
إذا سكتنا ، فإن المدعى بغير بيته متعرض للنكذيب » .  
وروى بعضهم : « نظر أبو عام الى سليمان بن وهب وقد كتب  
كتاباً فقال كلامك ذوب شعري » .

وفي ( كتاب الصناعتين ) لأبي هلال العسكري : « سمع بعض  
الكتاب قول نصيف ( فما جوا البيت ) فكتب : لو أمسك لسانى عن شكرك  
لنطق على أمرك . وفي فصل آخر : ولو جحدتك احسانك لا كذبتي  
آثاره ، ونمت على شواهدك ، وقرب من ذلك قوله : شهادات الأحوال  
أعظم من شهادات الرجال » .

وفي ( كتاب الصناعتين ) « قال بعضهم : الكتابة نقض الشمر . وقيل  
لما تألفي : بم قدرت على البلاغة ؟ قال : بحل معقود الكلام » .  
ولما بي منصور الشعالي كتاب سعاه ( نثر النظم ، وحل العقد<sup>(١)</sup> )  
نشر الكتاب المترجم به ( مؤنس الأدباء ) وهو مختار صغير من الشعر  
وقد تقدم اليه في حله ( أبو العباس خوارزم شاه ) كما ذكر الشعالي ذلك  
في دياجة الكتاب .

ولضياء الدين بن الأثير صاحب ( المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر )  
كتاب في هذا المعنى منه ( الوشي المرقوم في حل المنظوم<sup>(٢)</sup> ) وفيه أيضاً  
حل لآيات قرآنية وأخبار نبوية . قال ابن خلkan : « وهو مع وجازته  
في غاية الحسن والإفادة » . قال ابن الأثير في هذا الكتاب : « وكتبت  
المعنى فيصاغ بالفاظ غير الفاظه ونم يتبع حذق الصانع في صياغته ، فإن  
استطاع الزiacدة على ذلك المعنى فتلك الدرجة العالية . وإلا أحمن التصرف  
وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صياغه الأول » .

(١) منه مخطوطة في ( المزانة النافرية ) في دمشق ، وقد طبع في مصر .

(٢) منه مخطوطة في دار السكتب المصرية .

حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائرين : حبيب بن اوس ، وأبي عبادة البجيري ، وشعر أبي الطيب المتنبي . حفظت هذه الدواوين ثلاثة ، وكانت أكرر عليها بالدرس مدة سنتين حتى تعلمت من سوغ المعاني ، وصار الادمان لي خلفها وطبعاً ، وأعما ذكرت هذا الفصل في معرض أن المتنبي يبني على أن يجعل دأبه في الترسيل حل المنظوم ، ويعتمد عليه في هذه الصناعة .

والتعويل كل التعويل على ما يقول ابن الأثير ، فيه - عندي - من الضرر ما فيه ، وشرح هذه المضرة - إن اردها - يطول ، ولسا الآن في مقام تبيتها . واستطرار الأشعار وكلام العرب إنما هو لاظفر بالملائكة والاهتداء الى الاسلوب العربي ثم الساكت وبراءته في التوليد والاختراع والابداع ، وابن الحر المبدع في القديم والحديث ابن ؟  
وحل الآيات الشعرية ينقسم عند ابن الأثير الى ثلاثة اقسام ذكرها في ( مثله السائر ) :

( الاول ) منها وهو أداتها مرتبة ان يأخذ التأثر بيتاً من الشعر فينشره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيب فاحش ، ومثاله كمن اخذ عقداً قد اتفق نظمه ، واحسن تأليفه ، فأوهاه وبدده . وأيضاً فإنه اذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة فيقال : هذا شعر فلان يعني لكون الفاظه باقية لم يتغير منها شيء .

واما ( القسم الثاني ) فهو أن ينشر المعنى المنظوم ببعض الفاظه ، ويبир عن البعض بالفاظ آخر . وهناك تظاهر الصنعة في الملة والثابة ومؤاخذة الالفاظ الباقيه بالالفاظ المرتجلة .

واما ( القسم الثالث ) وهو أعلى من القسمين الاولين فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بالفاظ غير الفاظه ونم يتبع حذق الصانع في صياغته ، فإن استطاع الزiacدة على ذلك المعنى فتلك الدرجة العالية . وإلا أحمن التصرف واتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صياغه الأول . عما (٩)

وقال ( عياء الدين ) في التدريب على الحل :

« من أحب أن يكون كتاباً أو كان عنده طبع مجتب فعليه بحفظ الدواوين ذوات المدد ولا يقطع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ في تنثر الشعر من محفوظاته . وطريقه أن يبتدىء فيأخذ قصيدة من الفصائد فينشر بيتاً يتنازع التوالى ، ولا يستنكر في الابتداء أن ينثر الشعر بالفاظه أو باكترها فإنه لا يستطيع إلا ذلك ، وإذا مررت نفسه ، وتدرب خاطره ارتفع عن هذه الدرجة وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضرباً من العبارات المختلفة . وحيثما يحصل خاطره عبارة المانع لفاح فيستخرج منها معانٍ غير تلك المعاني ، وسبيله أن يكتب الاندeman ايلاً وتهاراً . ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له ملحة . فإذا كتب كتاباً ، أو خطب خطبة تدفقت المانع في اثناء كلامه وجاءت الفاظه ممسولة لا مفسولة ، وكان عليها حدة حتى تقاد رقص رقصاً . »

\* \* \*

سيفيات المنبي ، هل أبيات منها لابن أبي الحميد :

فصل في الترثية بغير :

لا زالت المواسم تفشاك وأغصانها وريقة وحدائقها أنيقة ، والاعياد تلفاك وأنت عيدها على الحقيقة ، ولا برحت تهتصر الشباب لدنـا رطيناً ، وتتنفس من الاعياد سلاً وتلبس قشداً . فهذا اليوم الشريف في الأيام ، مثلث في الأفلام لكنه أوحد عامٌ عصور ، وأنت أوحد الأعوام والدهور . ولا أحيل ذلك على محض الجد الذي ميز بين اليومين ، وفضل إحدى العينين ، بل على الجد الذي أسرتك وحاسدك راقد ، وشانشك قاعد . هذا محلول قوله :

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده  
وعيده لات سخى وضحى وعيده ،  
ولا زالت الاعياد بيسك بعده  
تلسم مخروقاً ونمطى بجده ،  
فذا اليوم في الأيام مثلث في الوري  
كما كنت فيهم أو حداً كان أو حداً ،  
هو الجد حتى تفضل العين آخرها  
وحتى يكون اليوم لل يوم سيداً ،  
وقد زدت عليه بأن جعلت توحيده بالاستحقاق لا بالجد والاتفاق ،  
وفيه زيادة أخرى وهي عموم توحيده وخصوص توحيد العيد في أيام العام .

\* \* \*

### فصل في ذكر المراسن :

وتواتت منهم رسائل جعلوها عليهم أدراهما ، وقصدوا بها تزجية  
ال الوقت ودفعاً ، فظاهرها الاعظام لنا والاجلال ، وباطئها الارجاء لهم  
والامهال .

هذا محلول قوله :

دروع لملك الروم هذى الرسائل  
يرد بها عن نفسه وبشاغل ،  
عليك ثناء سابع وفضائل ،  
هي الزرد الضافي عليه ، ولفظها

\* \* \*

### فصل

بابه المعمور كعبة الحيا ، ومغناطيس الثفا ، فالمولوك تقبل بساط ديوانه  
وتقصر عن تقبيل كمه وبنائه .

هذا محلول قوله :  
تقبل أفواه الملوكي بساطه  
ويكبر عنها كمه وبراجمه . (١)

\* \* \*

(١) البرجة المفضل الظاهر أو الباطن من الأسابيع ، الجمع : براجم .

## فصل

أنا أستعديك عليك ، فالخصوصة فيك ومنك واليتك واستميحك عدل  
قناةك الذي عم " الخلق وعداني ، وشمل الناس وتحطاني ، وأعيبك مرآة  
فكرك وهو الجوهر الشريف ، والشفاف اللطيف أن ظاهر فيها تلبيس  
الخاسد وبهتان الكاشر الممازد ، وأخلاقك التي أظلم اذا قيدت في الاطافة  
بالسلاقة ، وفي الصفا ، بالصراوة ، أن تحمل قذى الغش الشرح ، وهي  
آلاف من أن تنزع بملاء الفراح .

هذا مخلول قوله :

فيك الخصم وأنت الخصم والحكم  
يا أعدل الناس الا في معاملتي

وقول غيره :

أخلاقك الفر " الصفايا ما لها  
حملت قذى الواشين وهي سلاف ؟  
والناس في مكانون رأيك ماله  
يمحي ، وأنت الجوهر الشفاف ؟

\*\*\*

## فصل

المادة طبيعة غالبة ، وسجية الى فعل المعتمد جاذبة ، وعاداتك الطمن  
في الأحداق وضرب الأعناق ، فأجر منها على اعراقك ، ومعهود عوائدك  
وأخلاقك ؟ فان الملك لا ثبات دعائمه حتى تخضب بالدم صوارمه .

هذا مخلول قوله :

لكل امرىء من دهره ما آتاهه  
وعادة سيف الدولة الطعم في العدى .

وقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الا ذي حق يراق على جوانبه الدم .

\*\*\*

## فصل في صفة السبوف

فنهدنا اليهم وفي أيدينا النار الموددة في الرؤوس ، المبودة قبل ملة  
الجوس التي لا يفسدها الماء ، ولا يطفئها الهواء ، ولا تحرق الاغماء ،  
ولا خمدت ليلة الميلاد . ترمي بالدم لا بالشرر ، ونور قد بالناس لا بالحجر ،  
تحكم نارةً بالتعليم وتارةً بالتصغير ، ونجمع قوماً جمع السلامة وقوماً  
جمع التكسير .

هذا مخلول قوله :

وفي أكفهم النار التي عبدت قبل الجوس ، الى ذا اليوم كفطرم .  
هندية ، إن تصرع عشرأ صفرروا بمحدها أو تمعلم عشرأ عظموا .  
وقد زدت عليها زيادات كثيرة ، ورمت الى الخبر الوارد في أن  
نار فارس خمدت ليلة ميلاد نبينا وخرجت الى قوله تعالى ( إنها ترمي  
بشر كالفقر ) وقوله سبحانه ( وقودها الناس والحجارة ) ثم خرجت  
إلى نكتة نحوية وهي جمع السلامة وجمع التكسير .

## فصل

السيف بالضارب لا بعضاً المضارب ، والحسام في يد الجبان كهام ،  
والكمام في يد الشجاع حسام ، ولذلك قال عمرو امر : لا لوم على  
ولا حيف ، فاني لم أنحمل الساعد وانما نحملك السيف .

هذا مخلول قوله :

كفلو هن " اذا اتي الجمان .

إن السيف مع الذين قلوبهم

مثل الجبان يكفي كل جبان .

تقى الحسام على جراءة حده

مثل القتيل مضرباً بدموه .

\*\*\*

ممثل القتيل مضرباً بدموه .

إن القتيل مضرباً بدموه .

القتيل المتشحط في تجيمه كالماشى المستخرط<sup>(١)</sup> في دموعه ، وكلا الماءين  
دم الا أن هذا سال على أصل الخلقة ، وهذا صدته<sup>(٢)</sup> حرقة الفرقه .

\*\*\*

القتيل الذي قطعت شرائين نجيه أروح من القتيل الذي قطعت شرائين  
دموعه ، فذاك قد فارق الدنيا فامن شرها وخيرها ، وهذا كلاماً نضججن  
جلوده بدل جلوداً غيرها .

\*\*\*

الدمع دم أحالت لونه نار الهوى فايض ، وقطعت سلك يد النوى  
فتبدد وارفض ، ولا فرق بينها عند النصر والبصيرة الا" أن هذا يسيل  
من عضو واحد ، وذاك من أعضاء كثيرة .

\*\*\*

### فصل

عذر الخيمة واضح في السقوط ، لأنها علت على مولانا فتأدبته له في  
الهبوط ، وعلمت عجزها عن أن تشمل من يشمل الزمان ، وأن تعلو على  
من يعلو على هiram وكيوان<sup>(٣)</sup> ، فأرجاؤها في السمعة بحيث ركض في  
كل قطر منها جحفل ، ولكنها تضيق عن العالم المجموع في الواحد الأجل  
وقصر عنه وتطول على القنا الذيل ، وأظنتها ما أشرقت بأنواره ، وتأهت  
لما غدت من جملة دياره — لم تملك نفسها خترت وضعفت ، ورب نفس  
أفرط عليها الفرح فزهقت ، ولو رزق الناس ما رزقت من الشرف الباذخ  
البنيان خاتتهم الأرجل وخرروا سجدة لاجياء والاذقان ، وما سقطت

وزدت على ذلك ، الخبر المشهور وهو أن رسول الله ركب تائه  
القصواه في عام الحديبية متوجها إلى مكة فلم تنبئه فرجها مرارا ،  
وزجرها أصحابه فلم تنبئه ، فقالوا ، خلات القصواه . فقال النبي :  
ما خلات وانما حبسها حبس الفيل ، وجرى من توقفه عن مكة وصلحه  
قريشاً ما هو مشهور .

\*\*\*

### فصل

قصار رماحك اطول من ظلامها ، وطول رماح اعدائك اقصر من  
زجاجها ونصالها ، وكم من رمح قصر فاطلته بخطاك ، وكم من بلد بعد

(١) في (اللان والادوس) : «استخرط الرجل في البكاء : لج في واسند» .

(٢) في (السان) : التصعيد الاذابة ومنه قبل : حل مصمد وشراب مصمداً إذا عواج بالدار حق  
يجول معاهر عليه طيماً ولوتاً .

(٣) هiram امام المريخ ، كيوان زحل .

محمد اسماعيل النشاشيبي

١٣٥

عيها وانما اشارت بار حيل ، كما أن القصواه ما خلات<sup>(١)</sup> وانما حبسها  
حبس الفيل .

هذا محلول قوله :

ايقدح في الخيمة العذل  
وتعملو الذي ، زحل تحته  
تضيق بشخصك ارجاؤها  
وتقصر ما كنت في جوفها  
رات لون نورك في لونها  
وان لها شرفاً باذخا  
ولا تنكرن لها صرعة  
ولو بلغ الناس ما بلغت  
ولما أمرت بتعطيبها  
ها اعتمد الله تقويضها  
ولكن أشار بما تفعل .

فصار رماحك اطول من ظلامها ، وطول رماح اعدائك اقصر من  
زجاجها ونصالها ، وكم من رمح قصر فاطلته بخطاك ، وكم من بلد بعد

(١) خلات الناقة : حررت . قالوا : يقال : خلات الناقة ، والاجل ، وحرن الدرس .

فقر به بسراك . وقطرك في الندى والردى سيل وبحار ، وعزمك في الخصوم والمدى نصل وشفار ، وأنملك راجحة ولكن خلقت سيفوك من عجل ، فكلا نهبا عن لوع الدماء ، قالت : سيف السيف العدل . وقد نسب الجاهل حكم أحياناً إلى تدبر أو خداع ، ولا يعلم أن الديث لا يأكل الجيفة ولا يفترس الضياع .  
هذا محلول قوله :

طوال قنا تطاعتني قصار وقطرك في ندى ووغرى بحار .  
وفيك اذا جنى الجاني انة تغلن كرامة وهي احتقار .  
وقول السعوول :

ادا قصرت اسيافنا كان وصلها خطانا الى اعدائنا فقطعوا .

\*\*\*

فصل :

الآراء الصائبة والشجاعة الثابتة تستبعد الصوارم وتستخدم الخاذم . فالتدبر أمير والشجاعة جنده ، والرأي حسام والصرامة (١) غمده ، ولو لم يلحظ هذا المتنبي وبعتبر وكانت السباع أفضل من البشر ، وطالما نكت الاعلام بالاقلام ، وملكت الاسقاع بالرقاء ، ونفذت المكائد قبل تغود الحدائيد ، فإذا اجتمع لنفس سعيدة هذان الامارات نالت أقصى الامكان ، وبلغت من العليا كل مكان .  
هذا محلول قوله :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المخل الثاني .  
فإذا هما اجتمعا نفس حرمة بلغت من العليا كل مكان .

(١) في (الاساس) : رجل صارم ماض في الأمور ، وقد صرم صرامة . وفي (تهذيب الالفاظ) : العربية قطع الامر والعربيه .

### فصل

فلو كشف لك عن قلوبنا لرأيت الشوق قد فعل فيها بيرحاته فعل قنا الامير في صدور أعدائه . فإنه جعلهم هلكي ، يطعنون مخلوجة وسلكي فالقضاء الرحب لديهم اخرج من الناوت ، ونسج داود عابهم أو هن من بيت العنكبوب .

محمد اسعاف الناشبي

١٣٧

ولرعا طمن الفق اقرانه بالرأي قبل تطاعن الانقان .  
لولا المقول لكان ادنى ضيغم ادنى الى شرف من الانسان .  
\*\*\* \*

وما الحسن في وجه الفق شرفاته اذا لم يكن في فعله والخلافات .  
شرف الفق بافعاله ، لا بحسنه وجماله . كالسيف يقطع بجهره ، لا بحسن منظره . لو كان الفخر بما بدا في الصورة وظهر ، لا بما بطن من المعنى واستتر ، ل كانت صورة المفارق أشرف من الحيوان الناطق .  
\*\*\* \*

### فصل

حسام لولا تفرق الماء في جوانبه لتلمست النار الموددة من مضاربه .  
فقد أضر به حب الجاجم والاعناق ، حتى ناد نضوا كالملاع ، وودت سباع الطير والوحش انها تفديه بالمخالب والانابيب اذا فدي غيره بالانفس والاموال ، فاحسن ما خصب به الدم الممار ، لا المسجد والنثار .  
والحسناه حسنة وهي في الاموال والاطمار ، واذا كان الحلي لاتمام النفس يفعل ففتش الافضل انبيل ، واعطل الاكل أجل .  
هذا محلول قوله :

احسن ما يخصب الحديد به وخاصية التجميع والغضب .  
\*\*\* \*

### فصل

فلو كشف لك عن قلوبنا لرأيت الشوق قد فعل فيها بيرحاته فعل قنا الامير في صدور أعدائه . فإنه جعلهم هلكي ، يطعنون مخلوجة وسلكي فالقضاء الرحب لديهم اخرج من الناوت ، ونسج داود عابهم أو هن من بيت العنكبوب .

هذا محلول قوله :

فأهون شيء ما تقول العواذل .  
فودعهم واليدين فيما كانوا  
قواسم مواض ، تسجدوا عندها اذا وقعت فيه كنج الخدر نق (١)

وفي ايضاً حل قول امرىء القيس :

نطعنهم سلكى ومخلة حة كرك لأمين على نابل (٢)

\* \* \*

### فصل في وصف منزه

اجفل اجفال النعام ، واقشع اقشع الغام . يتوم كل حفييف يسمعه  
رشق نابل ، ويرى الارض في عينيه كفة حابل . وقد كان آلى الا  
يتکص له قدم ، ولا يعقب بين الحنان حتى ولا ندم . واذا تزلات الاقدام  
لم تزد اليدين في الاقدام . وال Herb تحسن المزائم ، وتغير العزائم ، وتجعل  
اهون شيء ما تقول الواائم .

هذا محلول قوله :

عقى اليدين على عقى الوعى ندم ماذا يزيدك في اقدامك القسم؟  
وقوله :

والعيان الجلي يحدث لاظن زوالا والمراد انتقالا .

وقول بعض شعراء الحماسة :

ملأت عليه الارض حتى كانواها من الضيق في عينيه كفة حابل

وقول القائل :

(١) الخدر نق : المنكبوت

(٢) السلكى بضم السين الطعنة للستيبة ، (المخلوجة) للموجة عن يدين وشمال . (كرك  
لأمين) أي ردد لأمين وما الشهاد على من يرمي . يقال اذا اقيمتها لم يقمعا  
مستويين ، وربما استوى احدهما وفوج الآخر . ويقال : سهم لام اذا كان  
عليه ريشه .

اذا هبت النكبة بني وبنكم فأهلون شيء ما تقول العواذل .

\* \* \*

### فصل في الصفح عن الجرائم

سيف الاحسان والاجمال اقتل من سيف القتل والاستئصال . وطالما  
غسل يداً مطلقاها ، واسترق رقبة معتقها ، الا أن اللثيم يفسد الاحسان ،  
ويصلحه الهوان .

هذا محلول قوله :

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا ؟ .  
اذا انت اكرمت الكريم ملكته وان أنت اكرمت اللثيم غردا .

\* \* \*

### فصل

اذا كان الهوى من القلب في الشفاف والصميم ، واللوم يحوم حول  
ذلك الحمى والحرى ، وكلا شاهد الحر فر ، وكلا عين النار استطار -  
لا جرم أنه يستحبيل جوهره هباء ، ويزذهب زبه جفاء ، ويتبت في  
عمله ذلك الهوى ، ويبلقي عصاه وتستقر به النوى .

هذا محلول قوله :

عذل العواذل حول قلي النائه وهو الاجبة منه في سوداته .  
يشكو الملام الى اللوازم حرره وينسد حين يلين عن براته .

\* \* \*

لا تعذل المشتاق في اشواقه حتى يكون حشاك من احتاته .  
لو ذقت ما يذوق العاشق اتركت عذله وعرفت عذرها ، ومن يضع  
يده في الماء يجده برد ويزعج حرره .

تباري نجوم الفدف في كل ليلة نجوم له ، منهن ورد وأدم .  
فا زلنا نقطع الأدم الواقف بالدم السائرات ، ونباري الشهب النيرات  
بالذهب الطائرات . الا أن تلك نجوم الفدف والرجوم ، وهذه نجوم  
الغارة والمجوم \*

\*\*\*

## فصل

عزائمك لا تقل ، وآراؤك لا تفضل ، ومدائحك لا تعل ، وأحكامك  
لا تميل ، وسيفك شريك المنيا في قبض النفوس ، فمذنه لاختطاف  
الارواح وهذا لاختطاف الرؤس . وكل دم لم تصنه ظباك أصبح مطلولا ،  
وكل ممات لم تشارك فيه عد خيانة وغلولا .

هذا حلول قوله :

شريك المنيا والنفوس غنية فكل ممات لم يعنه علو .

\*\*\*

وقد حل ابن الاثير أياتا كثيرة من شعر المتنبي اوردها في (رسائله)  
و (وشيه المرقوم) و (مثله السائز) وهذا نموذج منها :  
إذا اختلفت العينان في النظر فالعدل ضرب من الهذر (أو) لا  
تعذر الحب فيما يهواه حتى تطوي القلب على ما طواه  
هذا حل قوله :

لا تعذر المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاكم من أحشائه .

\*\*\*

الفتيل بسيف العيون كالفتيل بسيف المنون ، غير أن ذلك لا يجرد  
من غمه ، ولا يقاد صاحبه بمذه (أو) دعم الحب ودم القتيل متفقان  
في التشبيه والتلميل ولا تجد بينها بونا ، الا انها مختلفان لونا .

هذا حل قوله :

ان القتيل مضر جا بدموعه مثل القتيل مضر جا بدمائه .

\*\*\*

لما التق الجuman اصطفت عين وشمال ، وزحفت جبال الى جبال ،  
وكثرت النفوس على المنيا حتى كادت لا تقى بالآجال . وقدمت الخليل  
اقدام فرسانها ، واظلم النفع فلا تبصر الا باذانها .

هذا حل قوله :

في جحفل ستر العيون غباره فكانوا يصرن بالآذان .

\*\*\*

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جث القتلى عليها عائم .  
سرى الى حصن كذا مستعيدا منه سبية نزعها العدو اختلاسا ،  
وانخذها خادعة لا افتراسا . فما نازلها حتى استقادها . ولا نزلها حتى  
استعادها ، وكأنها كان بها جنون فبعث لها من عزائم عزائم ، وعلق  
عليها من رؤوس القتلى عائم .

وفي هذا من الحسن ما لا يخفاء به فمن شاء أن ينشر شعراً فليبشر  
هكذا وإنما فليترك !! وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر وذلك أنني  
أضفت إلى هذا البيت ، البيت الذي قبله وهو :  
بناتها فأعلى والقنا يقرع القنا . وموج المنيا حولها متلاطم .

ولما نشرت هذين البيتين قلت :  
بناتها والاسنة في بناتها متخاصة ، وأمواج المنيا فوق أيدي البنين  
متلاطمة . وما أجلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها برعن الجبار ،  
وأصيّبت بمثل الجنون فعلقت عليها عائم من الرؤوس والاجداد ، ولا شك ان  
الحرب تمرد (١) عن عز جانبه ، وتقول : ألا هكذا فليكتب الجدد كابه :

(١) ثورب .

وقد تصرفت في هذا الموضع بزيادة في معناه ونشرته على اسلوب أحسن من هذا الاسلوب فقلت :  
بناها ودون ذاك البناء شوك الاسل ، وطوفان المنايا الذي لا يقال ساوي منه الى جبل . ولم يكن بناوها الا بعد ان هدمت رهوس عن اعتاق ، وكأنما أصبت بمحنون فلقت القتلى عليها مكان القائم او شينت بعقل فلقت مكان الاطواف .

\*\*\*

## فول موبيز في المتنبي

في ( شدرات الذهب ) لابن العاد الحنطي : « قال في العبر : ليس في العالم أشعر من المتنبي أبداً ، وأما مثله فقليل . » ولقد جاء، أحمد بن الحسين بما جاء به وهو من تلك القافية وذاك الوزن في سجن . ولو لا هذان لجودت الايام أيا تجويد تسخير ما أملأ فلم يقل :

ولم تحسن الايام تكتب ما أملأ

\*\*\*

رب ما لا يعبر (الشعر) عنه والذى يضمر الفؤاد اعتقاده . والقافية في أكثر الأحain هي القائلة لا القائل ، والوزن هو الوازن لا شعور الشاعر ، فأكثر الشعر ليس لأهله لكنه للوزن أو للاقافية ، انه مما وجد ، ليس هو مما قصد .

ولولا أن عبقرية منتجية قوية عند أبي الطيب قد انكرت الجري على أساليب القوم اذا كان مدح فالنبي المقدم أكل فصيح قال شعرأ متيم !؟ فاحتضرت له تلك الخطة — لاقم دهره من تباع ( أبي عام ) يأخذ بأخذه فلا يجاريه ، ويذكر روحه في أن يصوغ فلا يساويه ،

## محمد اسماعيل النشاشي

١٤٣

وجبيب في سogue وغوسه لا يلحق ، وقلما ضارع مقلدا عقلها مقلدا . ولم يستطع المتنبي — على تبريزه وارتقاءه — أن يزحزح ( حبيبا ) عن مكانه ، وما قدر الا أن يقعد في عرش الشعر منه ، وليس بقليل أن يقطع من ملك حبيب ورعيته ما اقطع . وقد قالوا : أبو عام عند الخاصة أشعر ، والمتنبي أشعر عند العامة ، وما أنصف المتنبي هؤلاء القائلون ، ولئن كان لأبي عام عشر قصائد علا بن علوأ كبيراً إن للمتنبي قدامها مئة (١) قصيدة .

وكان شيخوخ ابن خلدون برون — كما قال — أن نظم المتنبي والميري ليس هو من الشعر في شيء — الله أكبر ! — لأنهما لم يجريا على أساليب العرب .

وكلام هؤلاء الشيخوخ ( شفاه الله ) ليس بشيء الا شيئاً لا يعبأ به . وتنكب المتنبي عما تنكب عنه ، وسلوكه السبيل الذي سلكه ، ما ضاره بل ظاهراء في ابداعه ونبوعه ، فرأى العربية أكبر شاعر ، وظهر في العرب شاعرهم .

أنا الطائر الحكى والآخر الصدى  
ودع كل صوت غير صوتي فاني

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦

(١) قال ابن قتيبة في ( أدب الكتاب ) في باب ما ذهب في الكتاب : « وما زادوا بها أنها لبعضها بينها وبينه إلا ترى إشكال تقول : أخذت ماله وأخذت منه ». هؤلئك الذين الألف لا يفصلوا بينها وبينه وبينه إلا ترى إشكال تقول : أخذت ماله وأخذت منه . هؤلئك الذين الألف لا يتبس على الفارسي ». ذات : زيدت الألف في منه أيام لا اعيام وواجب في هذا الزمانه حذفها حق لا يصلح الفارسي اللامنة وكم أضاف هذه الألف فلتعم الماء لامنة ومد .

# الشعر

لديب محسن الأمين الحسيني

## ما جاء في زم النهر

قال : الله تعالى ( والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون ) وقال تعالى في حق النبي ﷺ وما هو بشاعر فيقال لو كان الشعر صفة مدح لا نفاه عنه وقال ﷺ : لاتن ينتلي ، قلب الرجل فيجاً خيراً من أن ينتلي ، شعرأ . وكتب جعفر بن الحسن بن سعيد المذلي الحلي المعروف بالحقن وفيه الإمامية المتوفى سنة ٦٧٦ هـ الى والده بهذه الآيات :

ألم تر أي كل يوم الى العلا اقدم رجلاً لا تزل بها النعل  
وعبر بعيد أن تراني مقدماً على الناس حتى قيل ليس له مثل  
تعاوني بك المعاني وعنهما وتقاد لي حق كأنني لها بمل  
ويشهد لي بالفضل كل مبرز ولا فاضل الا ولني فوقه فضل

قال فكتب اليه فوق هذه الآيات : لئن أحسنت في شعرك لقد  
أساءت في حق نفسك أما علمت أن الشعر صناعة من خلع العفة ولبس  
الحرفة والشاعر ملمون وان أصحابه ومنقوص ولو أتي بالشيء المجباب ، وكأنني  
بك قد دهمك الشعر بفضيلته بخلعت تنفق منه ما تنفق بين جماعة لا يرون  
لك فضلاً غيره فسموك به وكان ذلك وصمة عليك آخر الدهر أما تسمع :  
ولست أرضي أن يقال شاعر بما لها من عدد الفضائل  
قال غوفق عند ذلك خاطري حق كأنني لم أفرع له ببابا ولم أرفع  
له حباباً .

## ما جاء في صرح الشعر

قال : رسول الله ﷺ ان من الشعر لحكمة وقال ﷺ ان من البيان لسحرأ لما أعجبه كلام عمرو بن الأهم . وعنه ﷺ رواوا أولادكم لامية الشنفرى ولا تزورهم مقاطمة آل غسان كا ياني . وقد استند رسول الله ﷺ على الشعر واستحسنها ومدح قائله وأجاز عليه وعفا بسببه عن يستحق العقاب وقبل وسيلة من توصل به وشفع من استفع به ، والصحابة كان فيهم الشعراء ومن يستند الشعر ويجز عليه ، والنبي ﷺ كان له منهم شعراء يهجون المشركيين عبدة الامون وشمراءهم ويحببونهم وبخامون عن النبي ﷺ منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وغيرهم . وكذلك التابعون وتابو التابعين والعلماء في كل عصر وجل . وكفى بذلك دليلاً على فضيلة الشعر ومدحه .

وقال عبد الملك بن مروان المؤدب ولده : روم الشعر روم الشعر يجدوا وينجدوا . وقال الزبير بن يكار : رروا أولادكم الشعر فإنه يحل عقدة اللسان ويشجع قلب الجبان ويطلق بد البخيل ويحضر على الخلق الجليل . وما قيل في مدح الشعر من الشعر قول القائل :  
ومستخفٍ بقدر الشعر قلت له لا ينفق المطر الا عند عطار  
وقول الآخر :

وفي الناس من لا يحسب الشعر ربة وما الناس لولا الشعر إلا بهائم  
وقال أبو اسحق ابراهيم بن عثمان بن محمد الغزي المتوفى سنة ٥٢٤ :  
ان يكرهوانظم القرىض فعذرهم باد كاشيشة الرداء المعلم  
هم محرومون عن المناقب والعلا والشعر طيب لا يحمل لحرم

وقال أيضاً :  
قالوا تركت الشعر قلت ضرورة باب الدواعي والبواعث مغلق  
محا (١٠)

لم يرق في الدنيا كريمٌ يرجي  
منه النوال ولا مليحٌ يعشق  
ومن الم杰ائب أنه لا يشترى ويخان فيه مع الكساد ويسرق  
وقال الامير أبو فراس الحارث بن سعيد الجداني من أبيات

### الشعر ديوان العرب أبداً وعنوان الأدب

أما ما جاء في ذم الشعر فإنه مفحوم على اتخاذه للهو واللامب والفتنة،  
به كما كانت تستعمله الملوك والأمراء وعلى استعماله فيما لا يرضي الله تعالى  
من مدح من يستحق الذم وذم من يستحق المدح والكذب فيه وتلبي أعراض  
الناس بالمجاهء أو الاشتغال به عمما أوجبه الله تعالى أو غير ذلك وامتلاكه

القلب منه المشار إليه في الحديث الشريف يشير إلى الأكثار منه والاشتغال  
به عن كل شيء، والشعراء الذين فهموا الله تعالى في الآية السابقة قد بين  
صفتهم فالذمومون هم أصحاب تلك الصفة، وأمام آية «وما هو بشاعر» وهي رد  
على قريش الذين قالوا عنه عليه السلام انه شاعر ولا دخل لها بذم الشعر ولا بذمه

ان لم تدل على عظم قدر الشعر عند العرب . وأما قول بعض العلماء  
المتقدم أن الشعر صناعة من خلع اللغة وليس الحرفة وجعله ملعوناً ومنقوصاً  
فالمراد به اتخاذ الشعر حرفة يستجدي بها الناس وبمدح به من لا يستحق

المدح أو يدح الشخص بما ليس فيه ويتجهى به الناس وتلبي أعراضهم  
وتقدّف به الخصنات ويتناطى فيه الفحش ونحو ذلك ولهذا جعله صناعة

من خلع اللغة ووصمة يعاب بها الرجل طول عمره . وهذا العالم خاف على أنه  
أن يتناطى صناعة الشعر ويشتهر به ويشغله ذلك عمما كان يتوجه فيه من

الارتكاء في درجات المعلوم وكل هذا ليس ذمًا للشعر من حيث أنه شعر  
بل ذم لما يعرض بسبب تعاطيه وانخاذه صنعة كما كان يقع من الشعراء

الذين يتخذونه المدح والمجاهء من الاشتغال به عن السكالات والاتسام به على  
النحو المذكور .

### صریحة الشعر

ان لالشعر من بين أنواع الكلام مزايده ليست اغيرة قال أحمد  
بن محمد بن عبد ربه الاندلسي في كتابه العقد الغرير : الشعر ديوان  
خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيود ل أيامها والشاهد على حكمها حتى  
لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له ان عدتها الى سبع قصائد خيرتها  
من الشعر القديم فكتبتها باء الذهب في القبطي المدرجة وعلقنا في  
أ Starr الكعبة ، فعنده يقال مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير ويقال لها :  
« المعلقات »

لامرىء القيس ( قفا بيك ) ، لزهير ( أم من أوفى ) ، اطرفة ( نحولة  
أطلال ) ، لعنترة ( يا دار عبلة ) ، لعمرو بن كائوم ( الاهي ) ، للبيد ( عفت الدبار ) ،  
الحارث بن حلبيزة ( آذتنا يبيتها أحباء ) .

ومن كلف العرب بالشعر وسموه مزايده عندها إنها كانت اذا أرادت  
ازجاد قصيدة للمهليل لا تنسىها حتى تفتأل اعظاماً لها واعجاباً بها .  
فنحن مزايده الشعر التي ليست اغيرة من أنواع الكلام انه لكونه مدقق  
وعلى أوزان خاصة يسهل حفظه ويروق اثناده فيطرب النفوس ويكون  
أشد تأثيراً فيها وكانت العرب تحدوا بها ابلها في سيرها فترى انه يؤثر  
فيها ويحملها على الاسراع .

( ومنها ) انه يوجب بحفظه واثناده تهذيب الاخلاق والثالث على محاسن  
الافعال بما فيه من حكم وآداب وحاسة ونحو ذلك وقد يحمل على ضد  
ذلك بحسب ما يستعمل عليه ولذلك قال النبي عليه السلام فيها روي عنه : رروا  
اولادكم لامية الشنفرى فانها تعلمهم مكارم الاخلاق ولا زرورهم مقاطعة  
آل غسان — وذلك لما في لامية الشنفرى من الحث على اباء الغنم

ومفارقة من لا خير فيه والصبر والجلد وتحمل المشاق لنيل المأرب الجليلة والتبعاد عن منة الخلق وغير ذلك . وما في مقاطعة آل غسان من الحث على الاستقامة وترك العقو والصفح ، فمن لامية الشنفرى المعروفة بلامية العرب قوله بحث على إباء الضيم ومفارقة من لا خير فيه وإن كان حبيباً قريباً وترك البلاد التي يتناك المرء فيها الأدى إلى غيرها :

أقيعوا بني أمي صدور مطيم فاني إلى قوم سواكم لأمي  
وفي الأرض متأى للكريم عن الأذى وفيها مان خاف أقلى متتحول  
لسرى راغبأً أو راغبأً وهو يعقل يقول فيها :

وإن مدت الأيدي إلى الآدماء كن بأجلهم إذ اجتمع القوم أجعل  
وما ذاك إلا بحظة عن تفضل عليهم وكان الأفضل المتفضل  
ثم يقول في مفارقة من لا خير فيه :  
وانى كفاني فقد من ليس جازياً بنعمى ولا في قريه متصل  
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع (١) وأبيض اصليت وصفراء عيطل (٢)  
ثم يقول في تحنيب ما لا يحمد من الصفات :

ولست برباف (٣) يعشى سواه (٤) بعده (٥) سفانها (٦) وهي بهل (٧)

ولا جباراً (٨) كجوى (٩) أمر ب (١٠) اعرسه يطالعها في أمره كيف يفعل  
ولا خرق (١١) هيق (١٢) كان فؤاده يفلل به المكاه (١٣) يعلو ويسلف

(١) شجاع حري . (٢) عيطل طويلة وهي القوس .

(٣) للهباب المرير العطش . (٤) يرعاها ليلاً خوفاً من المطش

(٥) سيدة النساء . (٦) أولادها

(٧) عليها سرارها وهو ما يشد به شرع الناقة لتلا يرضها ولدها .

(٨) جبار . (٩) جيان ضيف .

(١٠) ملازم . (١١) دهش من الحوف

(١٢) رفيق طوبيل .

### حسن الامين الحسيني

١٤٩

ولا خالف (١) دارية (٢) متغزل يروح ويغدو دائناً يتکحل  
ولست بمتعل (٣) شره دون خيره الف (٤) اذا ماهيته اهتاج أعزل (٥)  
ولست بمحيا الظلام إذا انتفتح هدى الموجل (٦) العسيف (٧) بها هو جل (٨)  
ثم وصف جلدته وصبره على المتابع وإقدامه وقوته فقال :

إذا الامتن الصوان لاق مناسبي أطيار منه قادح ومقفل  
أديم مطال الجوع حق أميته وأضرب عنه الذكر صفحًا فاذهل  
ثمن وصف إباءه عن تحمل منه الناب ولو كان في أشد الحاجة وقدراً  
على الكسب الذي . فقال :

واستف ترب الأرض كيلاً يرى له على من الطول امرؤ متطلول  
ولولا احتساب الدائم لم يلف مشرب يعاش به الى الذي وما كل  
ولكن نفساً حرقة لا تقيم بي على الضيم إلا ربنا انحول  
وأنطوي على الحفص (٩) الحوايا (١٠) كما انطوت خيوطة ماري (١١) ثمار (١٢) وتقتل  
وأنعد على القوت الزهيد كاغدا ازل (١٣) هاداء التائب أطحل (١٤)

ثم وصف سيره ليلاً وبيكريه فقال :

ونشرب اساري (١٥) الفطا الكدر (١٦) بعدما سرت قر يا (١٧) أحناوها (١٨) تصالع (١٩)

(١) لا يفارق البيت .

(٢) طاجز .

(٣) الطاوبيل الذي فيه تبرع وحق .

(٤) نلة لا أعلم بها .

(٥) الأمعاء .

(٦) ضمور البطن .

(٧) يحكم قتلها .

(٨) امم رجال أو كساء .

(٩) خفيف الوركين وللراد القلب يتولد من الضيم والذئب .

(١٠) جم سُور وهو بقية الماء .

(١١) لونه بين الغبرة والبياض .

(١٢) القرب سير القبل لوزود اللد .

(١٣) نصوت .

(١) لا خير فيه .

(٢) العمل للسن الصغير الجنة .

(٣) لا سلاح منه .

(٤) الآخذ على غير الطريق .

(٥) الأماء .

(٦) ضمور البطن .

(٧) يحكم قتلها .

(٨) امم رجال أو كساء .

(٩) الكدرة الغبرة .

(١٠) جوانها .

(١١) جوانها .

## محسن الأمين الحسيني

١٥١

( ومنها ) انه يخلد لاصحابه ذكرأ على عمر الدهور والاعوام ولو  
الشهر لكان جماعة كثيرون من المشهورين في عداد المنسين لا يذكرهم ذاكر  
ولا يعرفهم أحد وإنما عرفوا واشتهروا وخلد ذكرهم على الألسن وفي بطون  
الدفاتر بما أثر عنهم من الشعر وإلا فمن الذي كان يعرف رعاه العرب  
ولصوصهم وصهاليتهم وكثيراً من أهل الحالية لو لا الشعر وجماعة من  
أهل الفضل لم يعرفوا إلا بشعرهم .

( ومنها ) ان الشعر تقييد به الحوادث التاريخية وتحفظ وجلة منها  
قد عرفت من الاشعار أكثر مما عرفت من كتب التاريخ .

( ومنها ) ان الشعر تعرف منه نفسية الشاعر ويكون أبلغ مترجم عنها  
وتقييد المؤرخ والمترجم ما لا تقييده كتب التاريخ .

( ومنها ) انه يصير في عنق من قبل فيه كططق الخاتمة مدحأ وذما  
فتتناقله الألسن وتحفظه الناس حتى الصبيان والمواتق في خدورها ولذلك  
كان الملوك والامراء يتقوون السنة الشعراء ويختملون منهم ما لا يختملون  
من أحد ويجزلون لهم العطايا والمواهب وفي ذلك يقول ابن الرومي :

لَا تَقْبِلُنَّ الْمَدحَ ثُمَّ تَعْقِهِ وَتَنَامُ وَالشَّعْرَاءُ غَيْرُ نِيَامٍ  
وَاعْلَمُ بِأَنْهُمْ إِذَا لَمْ يَنْصُفُوا حُكُومَ الْأَنْفُسِمْ عَلَى الْحَكَامِ  
وَظَلَامَةَ الْمَادِيِّ عَلَيْهِمْ تَنْفَضِيِّ وَعَفَافُهُمْ يَبْقَى عَلَى الْأَيَامِ  
وَكَانَ الشَّعْرَاءُ فِي تِلْكَ الْأَعْصَارِ أَشْبَهُ بِأَهْلِ الْحَرَائِدِ الْبَوْمِ وَكَانَ  
بَنُو أُمِّيَّةٍ يَكْرَمُونَ الْفَرْزَدقَ وَكَثِيرٌ عَزَّةٌ وَيَجِزُونَهَا وَيَخْتَلِفُونَ مِنْهَا وَكَلَّاهَا  
عَلَوِيُّ الرَّأْيِ طَمْعًا فِي الْمَدحِ وَخُشْبَةً مِنَ الْقَدْحِ وَكَذَّالِكَ بِوَالْبَاسِ كَانُوا

يَكْرَمُونَ السَّيِّدَ الْجَمِيرِيَّ وَيَجِزُونَهُ وَهُوَ عَلَوِيُّ الرَّأْيِ  
( ومنها ) تهبيجه النقوس وتأثيره فيها تأثيراً يتفاوت بحسب مزاجه  
في الفصاحة والبلاغة ورقة اللفظ وحسن مبekteه وانسجامه وانشأه على النكأن  
المستمدحة والخصوص البديعه واللفاظ المستمدبة والامور المريحة للنفس بحسب  
المقامات كارقة في الغزل والتهليل في الحماسة ووصف الحرب وحسن الأسلوب  
في الاعتذار والشفاعة والاحت على الالم والصفح والنفح في الرثاء وغير ذلك .

ثم ذكر انه لا يتغير في حالي عدمه وعنه ف قال :

وَأَعْدَمْ أَحْيَا نَا وَأَعْنَى يَنَالُ الْقَى ذَوَ الْبَعْدِ (١) الْمُتَبَدِّلِ (٢)  
وَلَا جَزْعَ مِنْ حَلَةٍ (٣) مُتَكَشِّفِ (٤) وَلَا مَرْحَ (٥) تَحْتَ الْقَى أَنْتَخِيلِ (٦)

تم وصف صبره على المتابع والشدائد وشطف العيش فقال :

أَفَاعِيهِ فِي رَمَضَانَهِ تَعْلَمُ  
نَصْبَتْ لَهُ وَجْهِي وَلَا كَنِ (٩) دَوْهَهِ وَلَا سُرَالِ الْأَنْجَمِيِّ (١٠) الْمُرَبْعَلِ (١١)  
وَضَافَ (١٢) إِذَا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ طَيْرَتْ لِبَادَهُ عَنْ أَعْطَافِهِ مَا قَرْجَلِ (١٣)  
لَهُ عَبَسِ (١٤) إِفَ (١٥) مِنَ الْفَسْلِ حَوْلِ (١٦) بَعِيدَ بَسَ الدَّهْنِ وَالْفَلِي عَوْدَهِ

\* \* \*

وَمِنْ مَقَاطِعَةِ آلِ غَسَانَ قَوْلَهُ :

مَا كَلَ يَوْمَ يَنَالُ الْمَرْءُ مَا طَلَبَاهَا وَلَا يَسُوَّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا رَغَبَاهَا  
لَا تَقْطَعُنَ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَرْكَهَا إِنْ كُنْتَ شَهِيَاً فَاتِّبَعَ رَأْسَهَا الذَّنْبَا  
هُمْ جَرَدُ الْسِيفِ فَاجْعَلُهُمْ لَهُ جَزْرَأً وَأَضْرَمُوا النَّارَ فَاجْعَلُهُمْ لَهَا حَطْبَا

\* \* \*

(١) أَمْ لِلْيَمِدِ . (٢) الَّذِي لَا يَسُونَ نَفْسَهُ .

(٣) حَاجَةٌ وَفَقْرٌ . (٤) مَظْهَرٌ حَاجَتِهِ وَفَقْرَهُ لِلنَّاسِ .

(٥) ذُو مَرْحٍ وَبَطْرَهِ .

(٦) أَنْتَخِيلٌ . (٧) نَجْمٌ يَطْلَمُ فِي شَدَّةِ الْحَرِّ .

(٨) مَا يَرِيَ مُتَدَلِّيَاعِزَّ الْمَاهِجَرَةَ كَالْمَبْيُوطِ .

(٩) لَأْسَرَ . (١٠) نَوْمٌ مِنَ الْبَرْدِ .

(١١) لَنْتَرْقَ . (١٢) شَعْرٌ كَثِيرٌ طَوْبَلٌ .

(١٣) مَاتَسْرَجَ . (١٤) وَسَخَ .

(١٥) مَتْرُوكٌ . (١٦) أَتَى عَلَيْهِ حَوْلٌ .

حسن الامين الحسيني

Yet

عاصم بن صعصعة . وَلَا قَالَ هَذِيلُ الْأَشْجُعِيُّ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ فَاضِي  
الْكُوفَةَ مِنْ آيَاتِ :

إذا كلته ذات دل حاجة ورام بآن يقفي تتحجج أو سهل  
روي واشتر حتى قال عبد الملك ربنا جاءتني السمعة والتحجج وأنا في  
التوضا فاردتها لما شاع من شمره .

وكان في العرب قبيلة تسمى (بني أنف الناقة) وذلك أن جدهم فرع  
ابن عوف بن مالك نحر ناقة وقسمها على أولاده وتبني ولده جعفرأ فالسرته  
أممه إليه ولم يبق غير الرأس فأعطيه إيماء فأدخل أصابعه في الأنف وحمل  
يجره فلقب أنف الناقة فكان بشوه إذا سئلوا من يقولون من بني قريع  
فيتجاوزون جعفرأ أنف الماءة إلى أبيه فرقاً من هذا الاسم إلى أن  
نقل أحدهم ، وهو بغيس بن عامر بن لوي بن شعاس بن جعفر أنف الناقة ،  
الخطيئة الشاعر من ضيافة الزرقاء من بدر إلى ضيافته وأحسن إليه فقال الخطيبة :

سيري أمام فان الاكثر في حصى  
والآخر كرمين إذا ما ينسبون إليها  
ومن يساوي بأنف الناقة الذئب  
قوم هم الاذنف والاذناب غيرهم

فصاروا يفخرون بهذا النسب بعد ما كانوا يفرقون منه  
ولما بذل عرابة الاوسي وسق بعير نمراً للشماخ بن ضرار في سنة  
شديدة قال فيه الشماخ :

مشديدة قال فيه الشماخ :  
 رأيت عرابة الاوسي يسمى إلى الخبرات منقطع القرى  
 إذا ما رأية رفت الحمد تلقاها عرابة باليماني

صار ذلك مثلاً سارِّاً وأثراً باقِياً .  
 ( ومن ) رفع الشعر الوضيع أن الأعشى قدم مكة وكان المحقق امرأة  
 أو أم عاقلة فقالت له أن الأعشى قدم وهو رجل مفوه محدود في الشعر ما  
 مدح أحداً إلا رفمه ولا عجا أحداً إلا وشمته وأنت رجل فقير خامل

فأشعر بشدة تأثيره في المفوس يرقق القلوب ويعاها ويحمل على العفو  
عن المذنبين . وكم جاد به البخيل وبخل الجواد وشجع الجبان وجبن  
الشجاع وأبغض الحبيب وحجب البعض واستملح القبيح واستقيح المليح  
واطافت نازة الغضب وقبلت الكفافات فيمن استحق أشد العقاب وصفح  
عمن استحق القتل وشاهده قتل من نال المفو وعوقب من لا يستحق  
العقاب وفرج عمن هو في ضيق وأثار الفتن بين القبائل ولافت القلوب  
القاسية وقت اللينة وتعلم الجاهل واتعظ الممادي وفرح الحزين وحزن  
الفرح وسلي الشجي وشجي الخلقي واستغنى الفقير وافتقر الغني ونبه  
الخامل وبخل النايم واتفع الرفيع وارتفع الوضيع وقهق العدو وسر الولي  
وأدراك الآثار وفتح البلاد إلى غير ذلك مما يتجدد المطلع على أخبار  
الماضين من الشمراء والملوك والأمراء وغيرهم .

فَنْ رَفِيقُ الْشَّعْرِ لِلْقُلُوبِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ مَا قُتِلَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ  
أَبْنَ كَلْدَةَ عَقْبَ أَسْرَهُ يَوْمَ بَدْرٍ لَشَرِهِ وَشَدَّهُ أَذَاهُ لَا سَمِعَ أَبْيَاتَ بَنْتِهِ  
أَوْ أَخْتِهِ قَتِيلَةَ الَّتِي تَقُولُ فِيهَا :

أحمد ولانت ضن، نجيبة في قومها والفحل خل معرق  
ما كان ضرك لومنت وربعا من الفتى وهو المغيط الحنق  
رق لها وبكي وقال: لو بلغت شعرها قبل قتلها ما قتلته.

( ومن ) الشعر الذي صار في عنق من قيل فيه كطوق الحامة والاضع  
به الرفع أن بني نمير كانوا جمرة من جراث العرب وكانوا إذا سئل  
أحدهم من الرجل ثم لفظه ومد صوته وقال من بني نمير ! فلما قال فيهم  
جبرير من قصيدة يهجو بها الراعي

فغض الطرف اتفاک من نمیر فلا کعباً بافت ولا کلابا  
جملوا اذا سئلوا عن نبهم لا ينتسبون إلى نمير وينجاوزونه إلى أبيه

في شعره جلس في الشمس يغلي ثيابه ويقتل منها القمل وقد صفت  
أظافره بدمائها فلما وصف الشاعر العربي حاله وأجاد في وصفها بحسن  
أسلوبه كان ذلك من حملا مختارات أبي تمام في ديوان الحاسة وما يتنى  
في الجامع وقلده القلوب والسامع وتشرح العلماء الفاظه وتعجب بلاغته  
وينخلد ذكر من قاله وقيل فيه في بطون الكتب ، والا ماذا يتصور المنصور  
ان يفعل من يريد وصف اعرابي جلس في الشمس يغلي ثيابه ويقتل  
منها القمل وماذا يستطيع أن يأتي به في هذا الموضوع قال أبو تمام في  
الحاسة وقال آخر ومر بأبي العلاء العقيلي يغلي ثيابه :

وإذا مررت به مررت بقائص متشمس في شرقه مقرور  
للقمل حول أبي العلاء مصارع من بين مقتول وبين عقيم  
وكأنهن لدى زرور قيصه فذ وتوأم سسم مفشور  
خرج الآتاميل من دماء قتيلاها حنق على أخرى العدو مغير  
( ومن ) تبغيس الشعر للمحبيب وتحبيبه للبغيس أنه صرف رأي النعسان  
ابن المنذر عن نديمه وجليسه المقدم عنده حين وفد على النعسان المسيون  
والعاصريون بنو أم البنين وكان الربيع بن زياد العربي ينادم النعسان  
فطعن على العاصريين لعداوه لهم وصرف قلب النعسان عنهم فرأوا منه حفاً  
بعد ما كان يكرمهم وكان معهم ليه الشاعر المشهور الذي قال فيه  
رسول الله ﷺ : أصدق كلة قالها شاعر كلة ليه وهي :

رسون عليه السلام  
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعم لا حاله زائل  
وهو غلام يرعى إبلهم ويحفظ أمتعتهم فرأهم يتناجون فسألهم فزجروه  
فقال والله لا أحفظ لكم متاعا ولا أسرح لكم بغيرا أو تخبروني وكانت  
أمها عبصية فقالوا له خالك علينا على الملك فقال اجتمعوا بيني وبينه غدا  
عند الملك فامتحنوه ببرقة فذمها أبلغ ذم فقال لهم ربهم عاص بن جعفر

الذكر ذو بُنَاتٍ فلو سبقت الناس إليه فدعوه إلى الضيافة ونحرت له  
واحتلت لثك فيما تشرى به شرابة لرجوت لث حسن العاقبة فسبق إليه  
الخلق فأزله ونحر له وخبرت المرأة وأخرجت نحباً فيه سمن وجامد  
بوطع ابن فلما أكل الاعنة وأصحابه قدم الشراب واشتوى له من كبد  
الناقة وأطعمه من أطايها فسألة عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه  
وذكر البنات فقال الاعنة كفيت أمرهن وأصبح بعكااظ ينشد قصيدة :  
أرفت وما هذا السداد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشق  
إلى أن قال :

نق النم عن آل الخلق جفنة  
بكاية الشيخ العراقي تهقق  
اعمرني لقد لاحت عيون كثيرة  
إلى ضوء نار باليفاع تحرق  
لشب لمقروري بصطليانها  
وبات على النار الندى والخلق  
رضيعي لبان ثدي أم تحالفها  
بأسحم داج عوض لا نتفرق  
ترى الجودي بجري ظاهر أفوق وجهه  
كازان متن الهندواني رونق  
ما أنت القصيدة إلا والناس يتسللون إلى الخلق يهنتونه والاعتراف من  
كل قبيلة يتسابقون إليه يخطبون بناته ل مكان شعر الاعنة .  
( ومن ) استعلاح القبيح بسبب الشعر ما يحكي أن رجالاً قدّم المدينه  
بخُّر سود فيارت عليه فوعد بعض الشعراء بشيء من المال لينظم له شعرًا  
في مدح الحمار الأسود فقال :

قل المليحة في الحمار الاسود ماذا فعلت بناسك متبع بد  
قد كان شمر للصلوة إزاره حتى قعدت له بباب المسجد  
فتسابقت الناس على شراء تلك الحمر .

ومن تعلیح الشعر ما یس علیح إنه لا أبشع ولا أقذر من حالة اعرابي  
وسخ انتاب والبدن قد كثر القمل في ثيابه وانتشر فوق اهابه وتغلغل

ملعب الـ"ستة" اذفروه فان رأيـوه نائماً فليس أمره بشيء وان رأيـوه  
ساهراً فهو صاحبكم فرقـوه فوجـدهـو قد ركب رحـلاً يـكـدم وسطـه حتى أصـبح  
فـأـلـسوـمـ حـلـةـ وـدـخـلـواـ بـهـ عـلـىـ التـعـاـنـ فـوـجـدـوـهـ يـتـغـدـىـ وـمـعـهـ الـرـيمـ فـأـشـدـ  
لـيدـ قـولـ :

يارب هيجا هي خير من دعه  
 اذا لا تزال هامتي مقزعة  
 نحن بني ام البنين الا ربنا  
 ونحنا خير عاصي بن صعصعة  
 الصاربون الهاوم تحت الجيشه  
 والملائكون الجفته المدعده  
 مهلاً أبىت اللعن لانا كل معه  
 انت استه من رص ملامعه  
 يدخل فيها كل يوم أصبعه  
 يدخلها حتى يواري اشجعه  
 كأنه يطلب شيئاً ضئلاً

وعفا رسول الله ﷺ عن اسرى حنين من هوارن بـشـعـر أـبـي جـرـولـ الجـمـيـ وـكـانـ رـئـيسـ قـوـمـهـ قـالـ أـسـرـنـاـ الـتـيـ عـلـقـتـ يـوـمـ حـنـينـ فـوـقـتـ بـيـنـ بـدـيـهـ وـأـشـدـتـهـ :

آمن علينا رسول في حرم  
آمن على نسوة فلما كنت توضأها  
يا أرجح الناس حلمًا حين يختبر  
انا لشகر للنعمى اني كفرت  
فإنك المرأة نرجوه وننتظر  
وعندنا بعد هذا اليوم مدخلن

قال **عليه** أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لله ولهم فقال  
الآذار وما كان لنا فهو لله ولرسوله .  
وعفا المعتصم عن عيم بن جحيل من الآوس بن كلب يشعر قاله حيث  
خرج عليه فقدم إلى السيف والنطع ليقتل فقال .

أرى الموت بين السيف والنطع كاماً  
وأكبر ظني أذاك اليوم قاتلي  
ومن ذا الذي يدلي بمذر وجبة  
يعلز على الاوس بن تغلب موقف  
وما جزئي من أن أموت وانفي  
ولكن خلفي صبية قد تركتهم  
كأنني أراهم حين أفعى إليهم  
فإن عشت عاشوا خافضين بقسطة  
وكم قائل لا أبعد الله داره  
ومن أسبيب الشعر العقوبة بعد العفو ان أبيات العبدى التي أشدها  
عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس فلسطين وأولها ( وقف المتم في  
رسوم ديار ) كانت مسبباً في قتل من عنده من بني أمية ، وأبيات سديف  
بن معن التي أشدها السفار و أولها :

أصبح الملك ثابت الأساس بالليل من بي العباس  
 كانت سبباً في قتل من عنده من بي أمية .  
 ومن قبول شفاعة المتشفع بسبب الشعر أن امرأة عاذت بغير غالب  
 أبي الفرزدق وضررت عليه فساططاً وكان الفرزدق لا يعود يقرأيه عائد  
 إلا قضى حاجته فسأل الفرزدق عما نزل بها فقالت إن ابنها لي اسمه حبيش  
 أغزى إلى المستد مع عميم بن زيد وهو واحدي فكتب إليه الفرزدق :  
 عميم بن زيد لا تكون حاجي بظاهر فلا يخفى على جوابها

وَهُبْ لِي حَبِّيَا وَانْخَذْ فِيهِ مِنْهُ لَحْرَمَةَ أَمْ مَا يَسُوغُ شَرَابِهَا  
أَتَقِيَ قَمَادَتْ يَا تَعِيمَ بَغَالْ وَبِالْحَفْرَةِ السَّافِي عَلَيْهَا تَرَابِهَا  
فَلَمْ يَعْرِفْ النَّيْمَ أَنْ اسْمَهُ حَبِّيَا أَوْ حَنِيشَ ( لَأَنَّ النَّفَطَ لَمْ تَكُنْ  
مَعْرُوفَةَ ) وَلَمْ يَعْرِفْ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَيْنَهِ فَعَرَضَ جَمِيعَ مَنْ مَعَهُ مِنْ الْجَنْدِ وَأَطْلَقَ  
كُلَّ مَنْ اسْمَهُ حَبِّيَا أَوْ حَنِيشَ .

وَغَضْبُ مَالِكَ بْنِ طَوقَ عَلَى قَوْمِهِ بْنِ تَلْبِ بْنِ حِينَ أَفْسَدُوا الْطَّرِيقَ فِي  
عَمَلِهِ فَتَشَفَّعُوا بِأَبِي عَامَ فَقَالَ يَخَاطِبُهُ :

جَرْحِي بِظَافِرِ الزَّمَانِ وَنَابَ  
فَضَتْ كَهْوَلَمْ وَدَرْ أَمْرَهُمْ  
لَارِقَةَ الْحَضْرِ الْأَطْلِيفِ غَذَّهُمْ  
فَإِذَا كَشَفْتُهُمْ وَجَدْتُ لَدِيهِمْ  
لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَعْظَمُ أَسْوَةَ  
أَعْطَى الْمَؤْلَفَةَ الْقُلُوبَ رَضَاهُمْ  
فَقَبْلَ شَفَاعَتِهِ فِيهِمْ .

وَغَضْبُ سِيفِ الدُّولَةِ بْنِ حَمْدَانَ عَلَى بْنِ كَلَابَ فَأَغَارَ عَلَيْهِمْ فَقُمِ الْأَمْوَالُ  
وَسَبِيَ الْحَرِيمُ فَأَنِي بِعِضِّمِ أَبَا الْعَطَيْبِ يَسَأَلُهُ أَنْ يَذْكُرَهُ لَهُ فِي شِعْرِهِ وَيَشْفَعُ  
فِيهِمْ فَقَالَ مِنْ قَصِيدَةَ :

تَرَقَ أَيْهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ فَانِ الرِّفْقُ بِالْجَانِي عَنَابَ  
فَأَوْهُمْ عَبِيدُكَ حِيثُ كَانُوا إِذَا تَدْعُونَ لِنَائِبَةَ أَجَابُوا  
وَعِينَ الْمُخْطَلَيْنِ هُمْ وَلَيْسُوا بِأَوْلَ مَعْشَرِ خَطَّلَوَا فَتَابُوا  
وَمَاجَلَتْ أَيَادِيكَ الْبَوَادِي وَلَكِنْ رِبْعَا خَفِيَ الصَّوَابَ  
وَجَرْمَ جَرْهُ سَفَهَا، قَوْمٌ وَحَلَّ بَغْرِي جَارِمَهُ الْعَذَابَ  
وَمِنْ تَسْبِيبِ الشِّعْرِ تَشْجِعُ الْجَيَانَ أَنْ أَيَّاتَ عَمَرُو بْنَ الْأَطْنَابِيَّ الَّتِي  
يَقُولُ فِيهَا :

### محسن الـ أمين الحسيني

١٥٩

وَقَوْلِي كَلَا جَسَّاتْ وَجَاشَتْ مَكَانَكَ تَحْمِدِي أَوْ تَسْتَرِحِي  
كَانَتْ سَبِيَا فِي تَوْقِفِ مَعَاوِيَةَ عَنِ الْمُهْرَبِ يَوْمَ صَفِينَ بَعْدَمَا وَضَعَ رَجْلَهُ  
فِي الْرَّكَابِ لِيَهُرِبُ .

وَمِنْ تَسْبِيبِ الشِّعْرِ اِنْتَرَةَ الْجَمِيَّةِ وَابْقَاعَ الْفَنِّ بَيْنَ الْقَبَائِلِ أَنْ قَوْلَ  
الْبَسُوسِ لَا ضَرَبَ كَلِبَ ضَرَعَ نَاقَهَا بِسَمِّهِ :

لَوْ اتَّيْ أَصْبَحَتْ فِي دَارِ مَنْعَةَ لَمَاضِمْ زَيْدٍ وَهُوَ جَارِ لِإِيمَانِي  
وَلَكَنِي أَصْبَحَتْ فِي دَارِ غَرْبَةَ مَتَّيْ بَعْدِهَا الْذَّئْبُ يَعْدُ عَلَى شَانِي  
هَاجَتْ حَرَبَا بَيْنَ بَكَرٍ وَنَفْلَبِ بْنِ وَائِلَ دَامَتْ أَرْبَعينَ سَنَةً .

وَمِنْ تَسْبِيبِ الشِّعْرِ عَقَابَ مَنْ لَا يَسْتَحْقُ الْعَقَابَ أَنْ يَتَّهِنَ فَالْمَهْلَةُ اِمْرَأَةَ  
مَدْفَيَّةَ كَانَتْ سَبِيَا فِي حَلْقِ رَأْسِ نَصَرَ بْنِ حِجاجَ وَتَقَى الْخَلِيفَةُ إِلَيْهِ إِلَى  
الْبَصْرَةِ وَهَا :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى حَمْرَ فَأَشْرَبَهَا أَوْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَصَرَ بْنِ حِجاجَ  
إِلَى فَتِي طَيْبِ الْأَعْرَاقِ مَقْتُلِي سَهْلُ الْحَبَّا كَرِيمٌ غَيْرُ مَلْجَاجٍ  
وَمِنْ تَسْبِيبِهِ الْفَرْجُ عَمَنْ هُوَ فِي ضَيْقٍ أَنْ عَمَرْ سَعْ وَهُوَ يَنْجُسُ فِي  
اللَّيْلِ اِمْرَأَةَ تَقُولُ :

لَقَدْ طَالَ هَذَا الْلَّيْلُ وَازْوَرَ جَانِبَهُ وَلَيْسَ إِلَى جَنِي خَلِيلِ الْأَعْبَهِ  
فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ تَخْشَى عَوَاقِبَهُ لَرَعَزَعَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوانِبَهُ  
فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَقَالَتْ أَنْ زَوْجَهَا فِي الْبَعْثَ فَأَمَرَ بِرَدَهُ وَأَنْ لَا يَبْقَى الرَّجُلُ  
فِي الْبَعْثِ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ .

دَمْشَقُ : سَنَةُ ١٩٤٥

٢٠٠٠٠٠

## بماً يكون أَنْظَامُ الْجَمَعَ الْإِسْلَامِي

للمؤذن سعيد الكرمي

أَهْلُ الْحَمَدِ الْكَرَامُ وَالْأَخْوَةِ الْأَعْزَاءِ وَالْأَبْنَاءِ الْبَرَّةُ :

فيض لي حسن الحظ أن أقف هذا الموقف يعنكم مذكرة لا مرشدًا إذ فيكم من رئيس المجتمع الفاضل وزملائي الأفاضل من لا تستغني عن الاقتباس من أنوار علمه فأصرع إلى آدابكم ومكارمكم أن تسيلوا ذيل الصفح عما سترونه من هفوات دعا إليها تشعب مسائل الموضوع الذي توجيته ( وما تشعب تصعب ) واستدعاؤه بحثاً أكثر ووقتاً أوسع والله أسأل وبقيه الْكَرَمُ صلى الله عليه وسلم أتومل أن يأخذ يدنا جائماً لأنهاض هذا الوطن من كبوته وما ذلك على الله بعزيز إن صدق التيات وانحدرت القلوب وعرفنا الحق لا هله ووضعنا كل شيء في محله .

إن الله تعالى خلق الخلق محتاجين وفطّرهم عاجزين ليكونون منفرداً بالغنى مختصاً بالقدرة وجعل الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لأن من الحيوانات ما يستقل بنفسه عن جسمه والانسان مطبوع على الافتقار إلى جسمه واستعماله به صفة قائلة في جوهره قال تعالى ( وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَمِيدٍ ) يعني عن الصبر عما هو مفتقر إليه واحتمال ما هو عنه عاجز . ولما كان الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لاحتياجه إلى أشياء استغني عنها غيره وهي الملبس والمسكن اللذان استغني عنها أكثر الحيوانات إن لم نقل كلها والمطعم الذي لا يتناوله الإنسان إلا بعد اجتهد عدة صناع فيه أنفسهم ومتزاولة عدة صناعات ، قيل الإنسان مدنى بالطبع أي أنه لا يقوم بمحاجياته بنفسه بل يحتاج إلى مدينة أي مجتمع تتوفر فيه حاجياته وقد

عمله الله تعالى بهذه الصفة نعمة منه عليه واطفاً به ليكون ذو الحاجة ومهابة المجز مانع له من طغيان الغنى وبني القدرة لأن الطغيان مركوز في طبعه إذا استغنى والغني مستول عليه إذا قدر قال تعالى ( إن الإنسان يطغى إن رأه استغنى ) وقال عنه ( إنه كان ظلوماً جهولاً ) ( ولو بسط الله الرزق لعباده ليغوا في الأرض ) .

ثم إله جل وعلا جعل لنيل الإنسان حاجته أسباباً ولدفع عجزه حيلة دله عليها بما وهبه من نعمة العقل وأرشده إليها بالفطنة وأنعم الله على الناس بما أودعه في الأرض من الخيرات حيث قال خلق لكم ما في الأرض جائماً فوجب أن يكون سكانها على حالة رضية من الانصاف وحسن العشرة واللودة والمساعدة واسداً المعروف واحتمال الآذى فائهم إن لم يكونوا كذلك ضاع ما أودعوه من تلك الخيرات أو اختص به بعضهم دون الآخر فضاع العدل والانصاف وقدرت الافتقة والانتظام وها زينة المجتمع الإنساني .

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم ثم أودع فيهم غرائز التزموا بطبعهم الحافظة عليها مثل الغيرة والإباء وحب الآخرة وهي مراكب حاجة إن لم تلجم وتروض فشرع عز وجل الشرائع على لسان رسلي الكرام لحافظة هذا المجتمع من الفساد والأخلاق فسكت زبدة ما أمرت به من أساسيات الانتظام الحافظة على خمسة أشياء واصلاحها وهي ( ١ ) الدين ( ٢ ) النقوس ( ٣ ) المقول ( ٤ ) الانساب ( ٥ ) الأموال فاسداد الدين بالكفر والبدع والآهواه المضلة . وإنفاذ النقوس بالقتل أو قطع أو تعطيل بعض الأعضاء أو منافعها . وإنفاذ المقول بشرب المسكرات أو تضليل الغير على ارتكاب ما يفسد دينه أو شرفه . وإنفاذ الانساب بالاقدام على الزنا فإنه يضيعها ، أو بعقوبة الوالدين وقطع الأرحام فإنها يضيعان ثمرتها من الناصر والتواجد . وإنفاذ الأموال بالغضب عا ( ١١ )

١٦٣

سعید الکرمی

(٣) عدل شامل (٤) امن عام (٥) خصب دائم (٦) امل فسیح اولها  
الدین الحقيقی لأنه يصرف النفوس عن شهواتها وبعطف القلوب عن إرادتها  
حتى يصير زاجراً للفحار رقيماً على النفوس . وهذه الصفات لا يتوصل  
إليها بغیر الدين ولا تعيش أمة عزيزة كبرية بغیر آداب ولا فضائل ولا  
يمكن أن تبني الفضائل على غير قواعد الدين فالدين هو مقلل الشرور  
وأقوى روابط الاجتماع التي قيل أنها الدين واللغة والوطن والنسب وأنما  
أزيد عليها المشاكلة في الطياع فلا يصح للإنسان إلا شبيه وإن لم يكونوا  
من قبيل ولا بلد لكن تلك الروابط لا تنظم بدونه وهو أقوى قاعدة في  
صلاح الدنيا واستفانها وأجدى الأمور فهماً في انتظامها وسلامتها ولذلك  
لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم عقاً من تكليف شرعى واعتقاد  
ديني ينقادون لحکمه حتى لا تختلف بهم الآراء وتتصرف بهم الأهواء  
ومن هنا قيل وهو الصحيح ان الحسن ما حسنة الشرائع والقبيح ما  
قبحته خلافاً لمان حکم العقل في التحسين والتقييّع .

نعم ان العقول قد تغubi بأشياء حسنة غير انها لا يهتدى لمعرفة الحسن  
حقيقة بدون شريعة الا مصادفة والقالب أن ما يأتي به من عندها لا يجمع  
عليه نظراً لتفاوت العقول واعجاب كل امرىء برأيه فقد روى التاريخ  
أن شون أحد ملوك الصين الذي كان في القرن الثالث والعشرين قبل  
الميلاد وضع لأمته خمس قواعد تتضمن الواجبات المتعينة على كل من الآباء  
والابناء والملائكة والرعايا والشيخ الشبان والزوج والزوجة والصديق  
وصديقه ولم يبين لنا التاريخ تفصيل ذلك وكيفما كان الحال فلا بد أن  
يكون في بعضها مخالفة للشراط فان من المعقول به عندهم الان أنه إذا  
مات أحد الزوجين أحق به الآخر حرفاً حتى لا يفترقا . ثم وجد في  
تلك الأئمة كونفوشيوس الحكم سنة ١٧٦٦ قبل الميلاد فعمل التواميس  
الاساسية ثلاثة وقال انها التي تقوم عليها الصلات بين الحاكم والرعيية

والسرقة والرشوة وكذا أخذها بالغش وأصناف الحيل وكل وجه غير مشروع . ويدخل في ذلك اغتصاب المنفعة كأنواع السخرة وعدم تأدية الاجير أجره فان المنفعة متقومة .

ومن قارن بين قول التوراة ( أنا رب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر لا يكُن لك آلة أخرى أمامي لا تصنع لك عثلاً من حوتاً ولا صورة ما ثنا في الماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء مما تحت الأرض ولا تجده لهن ولا تعبدهن لا تنطع باسم رب إلهك باطلاً أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض لا تفنى لا تزن لا تسرق لا تشهد شهادة زور لا تشنطه بيت قريبيك الخ ) . وبين قوله تعالى في القرآن ( قل تعالوا أتيل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما هي أحسن وأوفوا الكيل والميزان بالقسط وإذا نام فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلك وما كم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطي مستقىماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ففرق بكم عن سبile ذلك وما كم به لعلكم تتفون ) .

علم أن أساس الأديان في تنظيم الهيئة الاجتماعية واحد بدليل قوله تعالى ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ) فـ كـما علم أن للهيئة الاجتماعية حقوقاً ونظاماً ينبغي أن يعلم أن لكل فرد منها كذلك حقوقاً ونظاماً ولابد ذلك إيجالاً لأن تفضيله يحتاج إلى مجلدات إذ هو زبدة الشرائع والمقصود بالذات منها اما إصلاح المجتمع وانتظامه بأسره فلدى الاستقرار وجد في ستة أشياء (١) دين متبع (٢) سلطان قاهر

والابن والابن والرجل والمرأة وقال ان الفضائل الأصلية خمس وهي محنة الإنسان لابناء جنسه بدون تمييز بينهم والمعدل أي إعطاء كل ذي حق حقه بلا تفضيل لا أحد على آخر والمحافظة على العادات التي رسخت والآدلة التي أمرنا بها حتى لا تكون للامة إلا حالة معاشرة واحدة يستوي الناس في التمتع بمحنتها ويتشاطرون سعادتها ونكدها والاستقامة وفرها بطلب الحقيقة بلا تضليل ولا خداع والصدق وفسره بالاستقامة في السلوك والخطاب اه .

فانت رى أن حكمه بأن تكون لامة حالة معاشرة واحدة مع خروجه عن دائرة الامكان مخالف لكل الشرائع فان اختلاف المعيشة أمر لا بد منه يقتضى نظام الكون إذ هو من أدل الدلائل على قدرة الخالق الحكيم وقد ورد في القرآن ( نحن قسمنا بينهم معيشتهم وفضل بعضكم على بعض في الرزق ) ولم تزل تعاليم هذا الحكيم إلى الآن حية بين قومه وعليها مدار نظمات الصين لا بد لكل طالب علم عندهم أن يستظاهرها لينتسب في الامتحان الشهادة التي تحوله حق الدخول في الوظائف فيما يجدها لو نقتدي بهم الآن في جعل الاخلاق علماً وعملاً من شروط نيل الوظائف . ثم

انظروا حفظكم الله الى شرائع مانو الهندى الذي يعتقد فيه الهندود انه الآب العام للبشر وهي منقولمة في ٥٣٧٠ ينتأ من الشعر تنقسم إلى ١٢ باباً تحتوي على عدة أشياء منها المبادئ التي يجب ان يجري عليها الفرد والأسرة والمدينة وواجبات الامراء وأهل كل من الطبقات المختلفة والنظام المدني والعسكري ولخص ذلك كله بقواعدتين احداهما تقضي على الامة بخضوع طبقاتها بعضها البعض وثانيةها تغطي على الفرد بالطهارة الحسية والمعنوية ، وجعل الامة أربع طبقات الكهان والعسكر والفالحون مع التجار والمحترفون مع الأسرى والملوكيين وجعل السيادة لطبقات الثلاث

الاولى فيحضر عليها مصاهرة العابقة الرابعة ثم وجد في القرن السادس قبل الميلاد رجل يدعى سا كيموني وباقب يبودا فنقض هذا الاساس وجاهر بأن الناس أمام الشرائع الادبية متساوون وأن الفضيلة ما يفعله الانسان من خير لا ما يقوم به من الشعائر الدينية وأن كل امرىء من أي طبقة كانت يحصل بتقواه وفضله على النجاة وأن لانسان مكلات سبب وهي العلم وقوة العزيمة على مقاومة الشهوات والطمارة وحب الناس والصبر والبر . اه . فانظروا كيف خالف هذا من قبله لتفاوت عقل الرجالين أما الشرع فلكونه وضعاً إلهياً يكون نظامه مطرداً مقبولاً والدليل أيضاً على ما قدمناه ما كان عليه الفلاسفة الاقدمون الذين زعموا أن الرياضة توصل إلى درجة النبوة وأن النبوة مكتسبة من الأخلاق السافلة التي ينفر منها الطبع السليم فان منهم طائفه تسمى السكاكية رئيسها انتشيوس ثم تلميذه ديجانس كانت رى حب أقاربها وآخواتها ويفض غيرهم من سائر الناس ورى التفوط في الطرقات بلا ستار فلقبهم الناس بالسکاكين لأن خلقهم خلق الكلاب . ومن آراء ديجانس انه إذا احتاج الانسان إلى شيء وأخذته فلا ثريب عليه وكان رى أن الحياة من حتف النفس ولذا كان لا يستحيي من فعل قبيح الاشياء أمام الناس .

هذه الامم الثلاث الصين والهند واليونان العريقة في الوجود وهذه قوانينها التي لم تستند إلى شرع سماوي ولو أردنا تعداد آراء الفلاسفة الذين لم يأخذوا العلم والمدينة من طريق الدين لتفاوت بنا الحال ويكون أن منهم الدهريين الذين لم تهدم عقولهم الى معرفة الصالحة وجوده فجحدوه والطبيعيين الذين بحثوا عن أفعال الطبيعان وانفعالاتها وما صدر عن تعاملها من المواليد ثلاثة الحيوان والنبات والجhad حصل من هذا أن العقل وحده غير كاف في الوصول الى معرفة الحسن والقبيح بل لا بد له من دين يعدل

سيره أما كيفية تعلم الدين الصحيح الذي لم يأبه الاخلاق الفاضلة فهى عقدة العقد وبها صلح ما ملح ، وفدى ما فسد إذ هي الامساك لما نحن بصدده فان كثيراً من نصدى لذلك أفسد أكثر مما أصلح وذلك لسبعين أوهما أنه ادخل في الدين ما ليس منه مما لا يثبت على محك الاتقاد من خرافات لا يقبلها العقل ولا يؤيدتها صحيح النقل فكانت في دماغ مبتدعها ذرة صغيرة ولا انتقلت الى فضاء أرض المعلم الساذج باضت وفرخت وهكذا زادت تاجها كفلا زرعت في محل فيه قابلية لنمو الترهات ثم انه موه على العامة بتخشع كاذب وورع مصنوع حتى اعتقادت حججية قوله وهيئات من أوثى سحر هاروت وماروت أن يزيل ما علق بأذهانهم من خزعبلاته وهذا يجب أن نبين بقليل من الإيضاح فبعد حال من هذه حالة ، ان من ظن الرهد التمنع عن أكل المشتهي اللذيد الحلال فقد تقطع لأن الله تعالى خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال ( يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا ) وقال ( يا أيها الذين آمنوا كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا ) والطيبات هي الحلال . وأصرح من ذلك قوله تعالى ( قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ) فمن فعل ذلك معتقداً أنه من الدين فقد ضل وأضل وبعضهم يلبس إيماناً ذرياً تقشفاً ويتخشع في مشيته لمعنى مع أن النبي ﷺ كان ينفي كمن ينحط من سب ( أي علو ) ورأى عائشة رجلاً متصفاً بهذه الصفة فقالت ما هذا استحسناً لحاله فقيل لها هذا زاهد فقالت سبحان الله وهو أزهد من عمر وكان إذا مثى أسرع وإذا ضرب أوجع .

والسبب الثاني عدم تمكنه في العلم فinctidi للتعلم الذي يحتاجه هو ويترى بزني من تزويق لباسه وإيقان هندامه ظناً منه ان العلم عبارة عن ذلك ولم يعلم أن العلم النافع شر من الجهل القائم لأنه يدعوا صاحبه

إلى أن يفقى بغير علم حذراً من أن يقال عنه أنه جاهل ورعاً حابي الامراء أو الاغنياء فافتاح بما يشتهون مما لا يعرفه الدين إذ لم يكن عالماً حقاً حتى يردعه علمه عن زخرف القول ومنكره وهناك سبب آخر وهو عدم العمل بمقتضيات الدين فالعمل في المعلم من موجبات تأثير العلم في المتعلم وقد قيل الواعظ من يعظ بفعله لا بقوله فتى انتفت هذه الأسباب حصلت ثمرة التعليم وهي الاخلاق الفاضلة وتتأصل في النفس فتكون زاجر قوياً لها عن ارتكاب مالاً يليق وهذا الزاجر هو المراد بقول من قال :

لَا ترجع الْأَنفُسُ عَنِ غَيْرِهَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لَهَا زاجر

وإنما كان التلقين بهذه المثابة من الأهمية لأنه الاكابر الذي تنقلب به الاعيان وتحول به الاحوال لأن الافعال داءاً آثار الافكار والافكار داءاً آثار الكلام فالكلام الواسطى الى النفوس إن كان خيراً كانت الافكار خيراً وكانت الافعال خيراً وبالعكس ، فالكلام هو الاصل في الاشياء وببدؤها وهو الذي يأخذ القلوب عيناً وشمالاً . وإنما لا عجب من قال أن الاخلاق لا تغير الواقع يدل على خلافه لأنها نشاهد الحيوان الوحشي يخرج عن طبعه بالتمذيب فهذا البازى يصير طوع الانسان يأمره فيؤمر وبنهاء فinetبي وهكذا الفرس الجروح أو الحرون تتبدل صفاتها بالمعالجة ولو لا أن ذلك حاصل لما أرسل الله الرسل بالشرع فيها الامر بالحسن والنهي عن القبيح وترتيب الثواب والعقاب على الاخلاق حسناً وقبيحاً .

ويما حبذا لو اعنى اولوا الامر بمنع دجالي هذه الصنعة أشد من اهتمامهم بمنع الطارقية من دجالي الطب فالضرر هنا أشد لأن طبيب الاجرام الجاهل رعايا ساعده المصادفة على شفاء من يطبيه أما طبيب المقول فلا شبهة في أنه يودي بمحباه مريضه الادبية ويوصله إلى شقاء دائم في الآخرة .

والثاني من السنة التي بها صلاح المجتمع الانساني سلطان أو ذو سلطة قاهر تتألف من خوفه الأهواء المختلفة ومجتمع له فيه القلوب المترفة وتنكر بسلطته الائتمي المغالية وتعتني من خوفه النفوس العادمة لأن في طبائع الناس من حب المغالية على ما أحبوه والقول من عاذوه مالا ينفكون عنه إلا بعده قوي ورادرع ذي سطوة وهو الذي يحمي الدين والعلم ويدعو بسطوته إلى اتباعها ولذلك قيل ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن وقال تعالى ( لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ) فهو القائم على صون الأخلاق أن تفسد والمحافظة على صلاحها .

والثالث من السنة عدل شامل يدعوه إلى الالفة ويسمى على الطاعة وهو به الأموال ويكثر به النسل ويعم به الأمن المالك والمملوك فقد قال الحرمان لعمر بن الخطاب لا رأء ناما في المسجد بلا غطاء ولا وطا فضلاً عن الحرس والمحجوب : عدلت فلم تفت . وأمهات العدل هنات عدل الرئيس مع من في حوزته ويكون بعدم إعانتهم وترك التسلط عليهم بالقوة وعدل الإنسان مع من فوقه كالرعاية مع حاكماً والمرؤوس مع رئيسه وهو يكون بالخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء وعدل الإنسان مع أكفائه ويكون بترك الاستطالة عنهم ومحابية الأدلال وكف الأدري بهذه الأمور إن لم تكن في الأكفاء تقاطعوا تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا والعدل لازم لانسان أيضاً في نفسه بان يحافظ على صحته بعدم تماطي ما يضمهها ويحمل حالها حتى لا يكون معدياً في الآخرة ومن حملها شيئاً من الجرائم فقد ظلمها إذ سبب لها العذاب في الآخرة وفي عائلته بإن يقوم لها بما كلفته به الشرائع من سد حاجاتها وأن يسوى بين أفرادها في المعاملة ، ألا ترون قول النبي عليه ( إن الله يأمركم أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل ) بل العدل لازم في كل أسباب المعيشة التي هي الصناعة والزراعة والتجارة والإماراة الذي منه الرفق

بالحيوان الأعمى ولو أردنا بيان كيفية العدل فيما لا يسع له الوقت وأجمع شيء في تعريف العدل هو أن ينصف الناس من نفسه فلا يفعل معهم إلا ما يجب أن يفعلوا منه ومن العدل أيضاً معرفة الحق لأهلة فإن دعوى كل انسان ما ليس فيه يفسد نظام المجتمع أعظم فساد ومن تعاطى صنعة لا يتقنها أو تقلد وظيفة لا يحسن القيام بها أو لم يعرف الذي الفضل فعله ولم يجعله في المزيلة التي يستحقها وأخذ في انتقامه أو ادعى أنه أحق بشيء من صاحبه كان جاهلاً أو حاسداً أو غاشياً وكلها من دواعي الفساد . وفي الحديث ( إذا ضيعت الامانة فاتغر الساعية ) فيل وكيف اضاعتها قال بتوصيد الأمر إلى غير أهله . وسأل رجل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لم انتقض الامة عليك ولم تنتقض على أبي بكر وعمر فقال له لما كنت أنا من رعيتهم انتظم الأمر وما صرت أنت وأمثالك من رعيتي صار الأمر إلى ما تقول أي ان علياً ومن كان معه زمن إمارة الخليفين كانوا يعرفون حق العبرين أما رعيته على مكان فيهم من لم يعرف له بالحق فلهذا انتقض أمر الامة ووقع ذلك البلاء العظيم ويتعلق بالعدل أيضاً أمور خاصة يكون العدل فيها بالتوسط في حالي التقصير والسرف لأن العدل مأخوذ من الاعتدال مما جاوره فهو خروج عن العدل وذلك كما في الفضائل فما هنات بين خلتين ناصتين وأفعال الخير نوسط بين رذيلتين كالشجاعة فانها بين التهور والجنون والظلم فانه بين إفراط الغتب وعدمه كما أوضح ذلك علماء ترية النفس بما ليس هذا موضعه . والرابع من السنة أمن عام تطمئن إليه النفوس وتنتشر فيه الهم ويسكن إليه البريء ويأنس به الضميف . والخامس خصب تتسع به النفوس ويستقر فيهم العق والفقير فيقبل فيهم الحسد وينتفع بهم التبغض وتكتثر المحسنة والتواصل لأن الخصب يؤذل

إلى الغى والغى يورث الأمانة والشخاء ان اقتربن بعلم يهدى صاحبه ويعرف به مضار المال الذي لم يكتسب من حله ولم يؤود منه حق الله هكذا عد هذين الاثنين أعني الآمن والخصب بافرادها من أسباب صلاح المجتمع من تكلم في نظام المجتمع وأنا أرى أنها نعمة العدل و نتيجته فلا لزوم لعدها سببين .

وال السادس أمل فسيح يدعو الإنسان إلى افتتاحه ما يقصر عمره عن استيعابه فلولا أن الآخرين ينتفع بما إنشاء الأول حتى يستغنى به لافتقار أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنى وغيرها من أراضي الحرش وأشجار الشجر وذلك لا تتسع له أعمارهم فلذلك من " الله على خلقه باتساع الآمال فعمرت به الدنيا وعم صلاحها وصارت تتنقل بعمرانها إلى

قرن بعد قرن في tumult الثاني ما أبقاء الأول من عماراتها ويرمم الثالث ما أحدهما الثاني من شعنهما لتكون أحوالها مدى الأعصار ملتبسة وأمورها متقطعة ولو كانت الآمال قصيرة ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدد الضروري لوقتها وكانت تتنقل إلى من بعده بأسوء حال حتى لا يجد فيها بيت ولا يمكن فيها بيت فعلى الناس جميعاً أن يتساندوا في نفع بعضهم بعضاً والمعني في استجاذة الخيرات ودفع المفروقات كل على مقدار طاقته فالخلق عباد الله وأحب خلقه إليه أنفعهم العبادة وخير الناس أنفعهم للناس وقد ظن بعض من ران على قلبه الجهل أن الزواء عن الخلق أسلم

لدينه مع كونه قادرًا على الاختلاط بهم وأمرهم بالمعروف ونفيهم عن المنكر وحسب ذلك يعود عليه بالثواب الجزييل ومن كان كذلك فهو كله على الهيئة الاجتماعية وعضو أول فيها أينحن هذا وأمثاله إن عمل الصالحات المأمور به في الكتب السماوية هو عبارة عن الصوم والصلوة فقط كلاماً بل العمل الصالح أعم من ذلك يتدنى بأمامه الآذى عن الطريق وسقي الماء

ولو على الماء ونظارة البستانين ورعاية المواثي ويترق إلى ذلك الأسير وإغاثة الملهوف والإغاثة بالنفس والمال وكل عمل تعدى نفعه فهو أفضل من عمل المرء لنفسه ودليل هذا ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ذكر عند النبي ﷺ رجل فقالوا يا رسول الله خرج معنا حاجاً فلما إذا نزلنا منزلة لم ينزل يصلبي حتى نرحل فإذا ارتحلنا لم ينزل يذكر الله حتى ننزل فقال ﷺ فلن كان يكفيه علف ناقته وصنع ظمامه قالوا كانا يا رسول الله قال لكم خير منه .

والخلاصة أن كل من عرف شيئاً فيه نفع للهيئة الاجتماعية مادياً أو أديرياً وجب عليه استعماله في ذلك بنصح وإخلاص ومن لم يفعل فقد خان النوع الإنساني بل الدنيا بأسرها لأنّه انتفع بالآكل واللبس والمسكن ولم يؤود عن ذلك عوضاً .

على أن التوغل في العبادة وترك التعرض للتجارب يورث الله كما قال الجاحظ فقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير من المتوجلين فيها فأناه يوماً عطاوه وهو في المسجد فقام إلى منزله ونسيه فلما صار إلى منزله وذكره بعث رسول الله ليأتيه به فقال له وأبن نجد ذلك المال بعد أن تركه فقال سبحان الله أو يأخذ أحد ما ليس له . وسرقت مرة نعله فلم يتخذ نعلاً حتى مات وقال أكره أن أتخذ نعلاً فلعمل رجلاً يسرفها فباتم وقال الجاحظ إن الخلفاء والائمة أفضل من الرعية وعامة الحكماء أفضل من الحكماء عليهم ولهم لأنهم أقوم بالحقوق وأورد على الناس وعلمهم بهذا أفضى من عبادة العباد لافت نفع هؤلاء لا يعندو فهم رؤوسهم ونعم دينه مع كونه قادرًا على الاختلاط بهم وأمرهم بالمعروف ونفيهم عن المنكر وحسب ذلك يعود عليه بالثواب الجزييل ومن كان كذلك فهو كله على الهيئة الاجتماعية وعضو أول فيها أينحن هذا وأمثاله إن عمل الصالحات المأمور به في الكتب السماوية هو عبارة عن الصوم والصلوة فقط كلاماً بل العمل الصالح أعم من ذلك يتدنى بأمامه الآذى عن الطريق وسقي الماء

تأثر بالرشد وتنهي عن النّي<sup>(٢)</sup> (٢) والآفة جامدة تتعطف عليها القلوب ويتدفع بها المكره وكفایه من العيش تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم اوده بها . فاما الاولى وهي النفس المطيبة فانها إذا أطاعته ملكها واذا عصته ملكته فأهلكته لأنها كما قال تعالى ( أماره بالسوء ) ولست الآن بعده يان وصول النفس إلى تلك الرتبة العلية فإنه علم تكفلت بياده الشرائع وأفرد بالتأليف .

واما الثانية وهي الالفة الخاجمة فلان الانسان مقصود بالآدية محسود بالنعمه فإذا لم يكن لها مأولاً فما تخطفه أيدي الحاسدين وتحكمت فيه أهواه الاعداء وإذا كان مأولاً انتصر بالآلفة على أعدائه وامتنع من حاسديه ولذلك قبل المرء كثير بأخيه وقال قيس بن عاصم :

ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش أيد  
عزت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد

ولهذا قيل ان الله مع الجماعة او يد الله او قدرته مع الجماعة ومن كان الله معه فلا يعجزه شيء لم تروا أن جماعة اقضامت بالمعاونة فقاومت الجبال الشم بهمها وجعلت البحر برأ مع بعد غوره وطوط السين في أيام معدودة وأفهنت من في المشرق كلام من في المغرب فـكم في الجماعة من فرق فتح وجدول أسيل وسد نصب وطريق حديد مد وخط برق سحب كل ذلك بفضل الجماعة التي دربها العلم فعلمها الجد في خدمة المجتمع الانساني ولو كان علم الشرقيين ناماً لما تركوا غيرهم يسبحون إلى تلك الخدمة الخلبلة التي غزرت منافعها الآدية والمادية والأسف كل الأسف

على هذه الحال فان مثلنا كرجل خزانه مملوءة بالفقود ولا ينفع بها ويرى غيره يفتحها ويصرف منها وهو ساكن ساكت وإذا كانت الالفة تجمع الشمل وتمنع المذل اقتضى الحال ذكر أسبابها وهي خمسة (١) الدين (٢) النسب اي القرابة (٣) المعاشرة (٤) المودة (٥) البر . أما الدين وهو الاول من أسباب الالفة فلا أنه يبعث على التناصر ويعن من النقاط

والتدبر . واما النسب ثالثها فلان تماطر الارحام وحمة القرابة يعن على التناصر والالفة ويعنم من التخاذل والفرقة اتفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقياً من تسلطهم عليهم ولأنسب درجات تفاوت الحمية فيها فدرجة الابوة اشد عطفاً من درجة البنوة والمعصيات اعتقام اتفة وشدة من ذوي الارحام والتلوّح في بيان ذلك يخرجنا عن الابنجاز المطلوب . واما المعاشرة رابعها فلانها مواصلة صدرت عن رغبة و اختيار وامضت على خير واشار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المعاشرة . واما المؤاخة بالولدة رابعها فلانها تكتب بصادق الميل اخلاصاً ومصافة فيحدث بذلك وفاء ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله ﷺ بين اصحابه لزيادة الفهم ويقوى تمايزهم وتناصرهم وهنا كان يجب ان تنبه على شروط الاخاء وحقوقه لو كان في الوقت متسع . واما البر خامسها فلان يوصل الى القلوب محبة ويشفي انعطافاً فـكم من عدو سار بالاحسان اليه صديقاً ولذلك ذهب الله تعالى الى التعاون عليه وقرنه بقواه فقال تعالى ( وتعاونوا على البر والتقوى ) لان في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بينهما فقد تمت سعادته وعمت نعمته . ثم ان البر نوعان جود والمعروف فالجود بذلك المال في الجهات المحمودة اغير غرض مطلوب والباعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويعن منه شحها وباورها وحد السخاء بذلك ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحبه بقدر الطاقة . واما قول من قال الجود بذلك الموجود فهو محدود الفضائل ولو كان الجود بذلك الموجود لما كان لسرف وجود ولا للتذرر موضع وقد ورد الكتاب بذلكها واما كان السخاء محدوداً كما ذكرنا فمن وقف على حدود سعيه كريماً ومن قصر عنه كان بخيلاً .

واما المعروف فنوعان ايضاً قول وعمل اما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول قال عمر بن الخطاب يخاطب احد بيته : بما ان البر شيء هين وجه طلاق وكلام لين . ويجب ايضاً ان يكون محدوداً كالسخاء فإنه ان اسرف فيه كان ملماً مذموماً وان توسيط

فيه كان معروفاً وبرأ محموداً واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والماء بالمعرفة في الناتية وهذا يبعث عليه حب الخير للناس واثمار الصلاح لهم وليس في هذه الامور معرف ولا لغايتها حد .

واما الكفاية وهي في آخر القواعد فلان حاجة الانسان لا يعرى منها بشر واما عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تقدم له حياة ولم تستقيم له دين واما لعذر عليه شيء منها لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دينه بقدر ما تعمد عليه منها لأن كل قائم بغيره يكمل بكلمه ويختزل باختلاله . ثم لما كانت مادة الكفاية مطلوبة لاحتياج السكل اليها فقدت من غير طلب وعدمت من غير سبب واسباب المحبة مختلفة وجهات المكاسب مشتبهة ليكون اختلاف اسبابها علة الاشتلاف في تحصيلها وتشعب جهاتها توسيعة لطلابيها حتى لا يجتمعوا على سبب واحد فلا يأتلفون ويشتركون في جهة واحدة فلا يكتفون . ثم هدام اليها بعقولهم واميالهم حتى لا يتتكلفوا الاشتلاف في المعايش المختلفة فيجزوا . ثم ان الله تعالى جلت قدرته جعل سد حاجتهم ووصلهم الى منافعهم من وجهين : بعادة وكسب . اما المادة فهي حادثة عن اقتناه اصول نامية بذواتها ، هر شيتان : نبت نام وحيوان متناسل واما الكسب فيكون بالافعال المؤصلة الى المادة والتصرف المؤدي الى الحاجة وذلك من وجهين تقلب في تجارة وتصرف في صناعة فصارت اسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة او خمسة زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة فمن خرج عنها كان كلاماً على اربابها .

اما الزراعة فهي مادة اهل الحضر وسكان الامصار والاستمداد فيها اعم تماماً ولذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال ( مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كثلك حبة انبتت سبع سوابيل في كل سبعة مائة حبة ) وقال عليه السلام : ( التمسوا الرزق في خبايا الارض ) وقال كسرى للغوبذ ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان تكون مطردة في نisan . وخالف الناس في تفضيل الزرع او الشجر بما

لا يتسع الوقت لذكره . والثاني من اسباب الكفاية ناج الحيوان وهو مادة اهل الفتوات وسكان الحيام لأنهم ناجوا لم تستقر بهم دار افتروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع ناجوا بالاعمن والرجلة فاقتروا ما يستفاد في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه وهو الحيوان ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناوه على اهل الحيام ايسرا لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وجدواه عليهم اكثر بنسله ورسله الها ما من الله تعالى خلقه في تمثيل المصالح فيما ارادوا اعباده في قسمة المنافع بينهم . واما التجارة في فرع ما الذي الزرع والنتاج وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر والثاني تقلب بما في الاسفار والاول قناعة واختصار والثاني اعم جدوى غير انه اعظم خطاً واما الصناعة فقد تعلق بما مفى من اسباب الثلاثة وتنقسم الى ثلاثة اقسام : صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين الفكر والعمل . اما صناعة الفكر فتنقسم الى قسمين احدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وهي الامارة والثاني ما ادت الى المعلومات الخادمة عن الافتكار النظرية وهذه هي الوظائف التي يقوم بها اولوا العلم كالقضاء والاطباء وغيرهم . واما صناعة العمل فتنقسم قسمين ايضاً عمل صناعي وعمل يهبي والعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاناة في تعلمها وتصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية . والآخر اثنا هو صناعة كد وآلية مهنية كذوي صنعة الحالة واستخراج الحجارة واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فتنقسم قسمين ايضاً احدهما ما تكون صناعة الفكر فيه اغلب العمل بينما كالكتابية . والثاني ان تكون صناعة العمل اغلب الفكر بينما كالبناء وهذه احوال اخلق التي ركبت الله تعالى عليها في ارتياح على اربابها .

دمشق : عوز سنة ١٩٢١ .

الى بدء تأريخنا ، الفاً وثلاثمائة وحادي وستين سنة .

ولا يهولنكم قطع هذه المسافة الشاسعة ، فإننا في عصر الكهرباء ،  
وستجاري الكهرباء بسرعتها ، فنقطع كل مسافة بثانيةين .

الاًمِمِ وَمُلُوكُهَا وَدُولُهَا تَوَارِيَخُ مُجْبَوَةٍ ، وَتَوَارِيَخُ مُعْلَمَةٍ ، اما المجبولة  
فهي المدد التي عاشت فيها تلك الامة دون دول وملوك ، وكانت في حالة المحبجة  
واما تواريختها المعلومة ، فالقديعة منها ما وصلت اليانا اخبارها وشاهدنا بعض  
آثارها ، كالدول المصرية القديمة . واليهودية . والكلadan . والآشوريين  
والحتيين . وفارس . واليونان . والرومان . وكثير غيرها ، وكلها قد باد  
ملكيها وزالت دولها ، وتشعبت شعوبها او انقرضت وضاعت لغات اكثريها  
حتى لم يبق على وجه الارض فرد ينطق بها او يقرأ كتاباتها او يحمل  
رموزها ، ولا يُستَهْنَى من مئات تلك الامم ، الامة واحدة ، هي الامة  
العربيَّة ، أمتكم .

«الراصد العربي»

هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح ، وأعظمهم قدرة وأشدّم  
قوّة . وآثاراً في الأرض ، واول أجيال العرب من الخليقة ، وكان لهم  
ملوك ودول في جزيرة العرب ، وامتد ملوكهم الى الشام ومصر وقيل ان  
فراعنة مصر منهم ، ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما  
راجمهم فيها بنو حام ، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وحصون وقصور  
وابنية مرتفعة ، وكانت مواطنهم بين اليمن وعمان الى حضرموت  
والشّحر ، وقوم منهم العاليق اختطوا يثرب ، ومن العرب بنو شعور  
وكانوا ديارهم بين الحجاز والشام وكانوا ينتحرون يوم في الجبال ،  
وهو لاء كلهم يسمون العرب المغاربة او العرب الباشدة اطهوس اخبارهم  
وبعد تواريختهم وهم الطبقة الاولى من هذه الامة .

ابن المأمون الخليفة ابراهيم

٢١٠- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لہٰ تاز فلامکی ٹھہری

امانة السادة :

نستأذنكم في بيان لا بد منه . نجعله تمهدآ للوصول الى ايمان المرس  
وهو ينطوي على التعريف بالمرس ، وقد لا يوجد بيننا من يجهل صاحب  
هذا الاسم العظيم ، الا ان في تعريفنا فائدة " وفساكاهة " غير خارجتين عن  
موضوع محاضرتنا .

وفي علمكم ان الدخول على العطاء من السلاطين والامراء ، لم يكن مباحاً الا بعد الاستئذان ، وانتظار الايام الطوال . لصدور الاوامر الملكية ، ثم لا يتم ذلك الا بعد المرور في السابقات والاقباء . ودخول الفسرو التقدم في متعدد الأوقات والردداء والأبهاء ، الى ان يُيشَّر بالوصول الى بهو السُّدُّة ، ومعاينة صاحب السرير ، ونحن سنسير على هذا النحو ، فتنقل من تعريف الى تعريف ، حتى نصل الى وصف ذلك العرس الشريف .

اما المدة او المسافة التي يبتدا وين ايملا العرس فهي الف  
سنة ومثله واحدى وثلاثون سنة وهي مسافة شاسعة لا يمكن قطعها في  
ليلة واحدة ، بل لا بد لنا من تجاوز هذه المدة ايضاً الى ما قبلها  
عشرين واربع عشرة سنة ، فتكون جملة المسافة التي نجتازها للوصول

قسطہ کی المضی

WAI

أمة كهذه قد اتفقت ولا ريب فن الهندسة وما يتعاقب بها ، ورصدت النجوم ، وقرضت محسن الأشعار ، وبرعت في غير ذلك من العلوم والصناعات ، لا تذكر عليها المدنية كما انكرها علمهم بعض علماء المشرقين في الغرب ، ومنهم العلامة ( برو Preux ) ، الا انه لم يذكر مدينة الشرق الاسلامي كما تغالي بعض متучصي الفرنجية ، فأناصر الهندسة العربية ، والعربية الاسلامية وآثارها مائلة للعيان في الاندساس وغيرها ، ولكن لا عبرة بقول من يجادل المنظورات والله در القائل :

ويظير الجهل بي وأعترفه والدر در ب رغم من جهله  
هذه أنها السادة مقدمة إيجالية ، في أولية الامة العربية ، وما كانت  
جميع الدول العربية السابقة الاسلام ، كالعبون بالنسبة الى الاوقيانوس ،  
او كالبروق في ظلمات الليلي ، بجانب الشمس المنيرة يجعل بنا ان ننظر  
في أولية الدول العربية ومنتشرتها :

خذ ما نظرت ودع شيئاً سمعت به في حلقة البدر ما يغنىك عن زحل

٦٠ دولة الخلفاء الراشدين

اول عظيم قام في العرب ، هو ولا ريب النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الى عبد مناف فما فوقه . ثم خلفه ابرهاد وفاته ابو بكر الصديق ، ثم خلفه عمر ابن الخطاب ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن ابي طالب وهذه هي الدولة العربية الاولى في التاريخ الاسلامي ، بذوقها منذ اعلان محمد نبوته ، وذلك لستمائة وعشرين سنة مسيحية اي بعد مولده الشريف باثنتين واربعين او احدى واربعين سنة الى وفاة الامام علي مقتولاً وذلك سنة ٦٦٧ ف تكون مدتها نحو سبع واربعين سنة فتحت بها هذه الدولة البدوية ، اليمن والمرأق والشام ( اي سوريا ) بفلسطينها ، وملك فارس وارمينية ومصر وطرابلس الغرب وبلاط اذربيجان وافريقيا والاندلس وقبرص والاقستان .

اما العلية الثالثة منها وآسمى العرب المستعربة ، فأشهر ملوكها يعرب ابن قحطان وشهر شعوبها حمير وكهلان .  
واما العلية الثالثة فتسمى العرب التابعة للعرب وهم من البايدية اهل الخيل لم يزالوا من اعظم امم العالم واكثر اجيال الخليقة ، ينتهي اليهم العز والجلبة بالكثرة ، فيظفرون بالملك ، وينغلبون على الاقايم والامصار ثم يهلكهم الترفة والنعم فينغلبون . وهذا كله ملخص عن ابن خلدون وهو من ثقات المؤرخين .

ولقب العرب بعد الاسلام من كان قبلهم على امتهם بالجاهلية ، اختصوا بذلك عبادة الاصنام والمرتدين ، اذ انهم كانوا يعلمون ان قبائل خير اليهود عرب مثلهم ، وعرب الثام نصارى وكان لهم قبل ذلك ملك المجاز وكلاهما اهل كتاب .

ولكن هذا اللقب لا يصدق ايضاً على عبدة الاصنام والشركين من العرب الالهيم الا من قبل عسكفهم بعبادتهم بعد الاسلام ، او جهنهم الكتب المزيلة ، قال في كتاب موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسية ما تعرّبه : ان هذا النعم لا يطابق الحقيقة ، اذ للبدو معرفة واسعة بالانساب وكل ما يتعلق بالتاريخ ، وكانوا يعرفون مراقبة سير النجوم ، بل فوق ذلك كله كانوا يفرضون الشمر المنتخل اللطيف ، وهو ما لا يتفق مع الخصوصية التي أصقوها بهم ، ثم انه وان كان الكلام عن عامة العرب ، فيجب أن لا يفوتنا ان العرب كانوا قسمين ، قسمًا ظاعناً ، وقسمًا مقيماً ، فالمقيمون منهم كانت لهم مدن في الامصار العربية ، وهؤلاء ادركونا شوطاً بعيداً من المعرف . انتهى كلام الموسوعات .

وأن أمة بنت سد مأرب ، وقصر غمدان ، وضربت السكة ، ونقتلت  
عليها صور ملوكها ، واحتقرت الحروف الحميرية ، وكتبت وحفرت  
كتاباتها على الحجر وغيره ، وهي بين أيدينا بعد عشرين قرناً ، نقول إن

«بِرَءَ الدُّرُونَ الْعَرَبِيَّةَ التَّانِيَةَ وَوَلَةَ بَنِي أُمَّةٍ»

في السنة الأربعين من الهجرة وهي السنة السابعة والستون بعد  
السيدة للسبعين ، يوسم بالخلافة في بيت المقدس أول من أسس دولة بني  
أمية وجعل سرير الخلافة في دمشق .

ومعاوية هو السلطان العظيم داهية رجال العرب معاوية بن أبي سفيان  
سخر بن حرب بن أمية الذي ينسب إليه الأمويون ، ملك ثماني عشرة  
سنة ، وكان في الحلم عليه لا تدرك ، وما يؤثر من كلامه قوله : أني  
لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفو ، وجه أكبير من  
حلي ، وعورات لا أوارها بستر ، وإساءة أكثر من احساني ،  
وأغلظ له القول رجل ، فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ فقال أني لا أحوال  
بين الناس وأسلفهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين ملوكنا » .

وهو أول خليفة في الإسلام ، بايع ولده واكره الناس على مبادئه  
وأول من استعمل الحجابة على بابه من ملوك العرب ، وأول من اتخذ  
منهم ديوان الخاتم وحزم الكتب أي ختمها .

ومن ملح التاريخ أن عامله على مصر عمرو بن العاص أول ما قدم  
عليه في جماعة من أكابر مصر قال لهم عمرو قبل دخولهم على معاوية :  
لا تسلوا عليه بالخلافة — أي لا تقولوا له السلام على أمير المؤمنين —  
ذلك أهيب لكم في قلبه وصغروا ما استطعتم وبلغ ذلك معاوية فاوصى جبابه  
أن يتعمد ما يكون قبل دخولهم عليه ، أي أن يسترهبوا ويستنزلوا  
الرعب والخوف على قلوبهم فيتعمدون ، أي يستولي عليهم الي والحضر  
فيترددون في كلامهم ، فقال لهم عند دخولهم السلام عليك يا رسول الله  
وتتابع القوم على ذلك ، فلما خرجوا قال لهم عمر لعنكم الله نهيتكم  
أن تسلوا عليه بالإمارة فسلمتم عليه بالتبوه .

وخلقه بعده ابنه يزيد ملك ثلاث سنين وتسعة أشهر و أيام . ثم ملك بعده  
ابنه معاوية الثاني أقام أربعين يوماً ومات . وتولى الخلافة بعده مروان  
بن الحكم بن أمية وأقام عشرة أشهر وتوفي . ثم خلفه في الملك بعده

ابنه عبد الملك ، وكانت من أعظم بني أمية بعثا ، وأوفرم دهاء ،  
وأكثرهم حروبا ، وأشدهم شجاعة وحزم ، وأغزرم علماً وعقلًا ، وهو  
أول من ضرب الدنانير والدرام في الدول العربية بعد الإسلام ، وأول  
من نقل الديوان ، أي حسابات الدولة من الفارسية إلى العربية ، وأول  
من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء ، وكانت مدة ملوكه عشرين سنة  
وخمسة أشهر ودفن بدمشق .

ثم خلفه ابنه الوليد ، وكانت مدة ملوكه تسعة سنين واربعة أشهر  
وأياماً . ثم خلفه أخوه سليمان وملك سنتين وبسبعين شهر . ثم خلفه  
ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان ، ظل سنتين واربعة أشهر ، ودفن  
بدير سمان ، وبه وبعمر ابن الخطاب جرى المثل بعدل العمرن . ثم  
خلفه يزيد بن عبد الملك وأقام أربع سنين . ثم خلفه أخوه هشام وأقام  
تسعة عشرة سنة وأياماً ودفن بالرصافة . ثم تولى بعده الوليد بن يزيد بن  
عبد الملك أقام سنة وشهرين ونيفاً وقتل بدمشق . ثم تولى يزيد بن  
الوليد أقام خمسة أشهر وأياماً . ثم خلفه إبراهيم بن الوليد أقام سبعين  
يوماً وخلع نفسه . خلفه مروان الثاني أقام خمس سنين إلا عشرين وما  
وكان شجاعاً حازماً ، إلا أن أيامه كانت أيام فتن وحروب ، فقتل  
بآخرها في كنيسة من يوصير بصعيد مصر ، وكان هارباً من وجه  
العباسيين ، وهو آخر خلفاء هذه الدولة ، وعدتهم أربعة عشر خليفة .  
بنيوا المدن ، ومدنوا القبائل وغزوا وفتحوا ، وعمروا بلاداً عديدة ، ومدوا  
ملوكهم إلى الهند وباسيا ، وإلى صقلية أي سيسيليا باوربا ، وإلى إفريقيا  
المعور من إفريقيا في مدة تسعين سنة فقط .

### ♦ الدولة الثالثة وهي دولة العباسين ♦

بدأت بابي العباس الملقب بالسفاح لكتلة من قتل في أول دولة وسميت  
بالعباسية نسبة إلى جد هذا البيت ، العباس من بن هاشم ، وبنو هاشم

وبنوا أمية ينتهيون جميعاً إلى عبد مناف، وكلاهم من قبائل قريش، ويدعى  
الهاشميون الرئاسة وتمترف لهم كلها قريش كلها إلا أنبني أمية كانوا أكثر  
عدهاً منبني هاشم، والعزبة بالآخر، ولم يقبل الإسلام شرف معروف  
فوصل معاوية إلى الخلافة بذلك، وأسس قواعد الدولة الأموية، فكان  
بين العباسيين وبين الأمويين منذ تبوء معاوية الخلافة، ما يكون بين  
يولى الملك في الدول، من التحاسد والتضاغن، وكان العباسيون  
لا يفترونهم وقوتهم منبني هاشم، عن نصب المكائد، وتسخير الفتن  
وإغمار الصدور، والطعن على أعمال الأمويين وعمالهم، والإدعاء عليهم  
باتخاب الخلافة من بينهم. وكان الأمويون يشدّدون علىبني العباس  
وشييعتهم، بين سجن وتعذيب وقتل كل رايه منهم مرrib، وكان بين  
البيتين من الوشاة والحساد والمفسدين، ما يكون مثله في قصور الملوك  
ودور الامراء، سنة في الخلق وخليقة من طبائع العمران.

ولم تعدم دولة الأمويين خلفاء يعودون من أعظم ملوك الأرض دهاءً وتدبرًا  
وحزمًا وعدلاً، كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد وهشام وعمر بن  
عبد العزير، كما إنها لم تخلي من خلفاء أبطأهم الملك فأفسدوا وأساؤا  
كالوليد بن يزيد، وكانت اتسعت فتوح الدولة الأموية وامتدّ ملوكها  
امتداداً لا يصونه، إلا العدل والقوة والتدبر ودهاء السياسة. وكان  
دعاةبني العباس منذ زمن طويل قد اذشروا في الحجاز وال العراق وبلاد  
فارس، يثون الدعوة للعباسيين، ويفسدون على الأمويين اعمالهم،  
ويطعنون فيهم وفي عمالهم حتى انحرفت عنهم أكثر قلوب الامة.

ولما استوثق السفاح من شيعته، جاهر بدعاوة الخلافة لنفسه، فباعه  
الناس بالكونة وغيرها في السنة الثانية والثلاثين بعد المائة لامبراطرة، وهي  
تُقْعَن في الحسين بعد السيمانة للمسيح، وظلت خلافتهم في بغداد خمسة  
واربعين سنة، تولاها سبعة وثلاثون منهم، ثم انتقلت إلى مصر  
وتولاها فيها ثلاثة عشر خليفة منهم، خلافة لم يكن لهم منها غير الاسم.

أقام السفاح اربع سنوات وأشهرًا وتوفي سنة ١٣٦ ثم خلفه  
أخوه أبو جعفر المنصور، كان مهياً شجاعاً يقطعاً مدراً غالباً فصيحاً،  
داهية ظالماً بخليلاً، بني مدينة بغداد ومهد اطراف ملكه الشاسع وزرك عند  
موته خزينة الملك مملوءة من أموال الخراج والمالام ما يكفي خلفه عشر  
سنوات، بعد أن أقام في الخلافة اثنين وعشرين سنة وتوفي للثانية والستين  
بعد المائة. ثم خلفه ابنه المهدى ملك تسعة سنين وعشرين شهر، وكان  
حليناً كثير العفو عن المذنبين، باهر الجمال، توفي مسموماً على اصح  
الروايات لذاتسعة والستين بعد المائة.

ثم خلفه ابنه موسى الهادي ملك سنة وثلاثة أشهر، وكان جواباً  
فصيحاً عالماً مهياً، مات مسموماً في السبعين بعد المائة.

اما هرون الرشيد فهو بعد ملوك الأرض صيناً، وأعظمهم همة،  
وأكثرهم غزواً، وأوفرهم حباً للآدب والشعر، وأشدّهم كرمًا، كان  
داهيةً باحوال السياسة، شديد البطش، غالاً ناصراً للفنون، شاعراً  
جيأً لأميران والحضراء، زين بغداد بالقصور المتعددة، والمباني الفخمة،  
والمسانع النافمة، والمدارس والمساجد، وبنى مدينتي الرقة والمارونية،  
ولم تزل أطلال قصره وبعض جدرانه قائمة إلى اليوم في الرقة. وقد  
شاهدتها وعدت عنها حزيناً.

ولم يسبقها أحد من ملوك الأرض بفرط تكريم العلماء والشعراء، ولم  
يحاكه أحد بوفور الانعام عليهم، وكان موفقاً محفوظاً.  
فقد ازدان ملوكه بوزرائه بني برمك الذين كانوا من ع Assassins  
عقلاً وحكمة، وادباً وجوداً، ثم نكفهم نكبة تناقلها القرون، لاستبدادهم  
بالمملكة والملك عقيم.  
الآن بعض مؤرخي الفرنج - ومتاخرهم ينقل عن متقدمهم ما يرونه

عن العرب دون تجھیص - لم ينصلھوا الرشید فـ كثیرهم يصفه انه كان ائمماً خالماً عتبى ، يستمدون ياقاعه بالبرامكة وبما حکاه الفُصّاص من العرب عن نکبتهم ، وما تکبتوه لها من الاسباب التي تختلف كل قیاس منطقی ، وذلك تقلاً عن ألسنة العامة بعد وقوعها بزمن طویل . اذ اننا لم نجد مؤرخاً ثقةً تقل حقيقة السبب الذي حدا الرشید الى ذلك الفُصّاص الشدید بعد علو الفدر وجلاحه المزيلة التي كانت ليحيى البرمکي واولاده عنه ، وأحسن ما قرأه عن ذلك وأحسبه أقرب الى الحقيقة من كل ما روى ، ما ورد عن سعید بن سالم وقد سُئل عن جنایة البرامكة فقال ما تحمیله : ان الرشید رأى كثرة حمد الناس لهم ورميهم بأمامهم دونه ، والملوك تتنافس بأقل من هذا ، الى ان قال ووقع منهم بعض الادلال خاصةً جعفر والفضل دون يحيى : فإنه كان أحكم خبرةً وأكثر ممارسةً للامور ولاد بالرشید ، من اعدائهم كالفضل بن الريبع فسروا الحasan وأظهروا القبائح .

هذا ما ظهر لهذا الرجل ، وما يدرينا ما ثبت عليهم عند الرشید من الذنوب والجنایات ، كاصدار امره او نهي باسم الخليفة دون مشورته ، او استخفاف باوامره ونواهيه ، ولمع هذا كل السبب في ذلك كما يفهم من اطلاق جعفر يحيى بن الحسين وكان خارجاً على الخلافة ، ولما سأله عند الرشید أقسم له برأسه انه لم يزل محبوساً ، وكما يفهم من الآيات التي رفعت الى الخليفة وهي :

قل لامين الله في ارضه وَمِنْ إِلَيْهِ الْحَلَةُ وَالْمَقْدُّ  
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكما حد  
امرک مردوده الى امره وامرک ایس له رد  
وقد بن الدار التي ما بنی فرس لها مثلا ولا المند  
ونحن نخشى انه وارث ملکك ان غیبک الاحد  
ولن يباھي العبد اربابه الا اذا ما بطرير العبد

ونحن نرى في هذه الحکایة ووراء هذا اللفظ بدأ بل أيدیاً عباسية وسدوراً ملئت حقداً على جعفر وغيره منه ، ونفساً هائجهما ، والنافذ البصیر يرى في صلب جعفر وحبس ایهه وأخيه وسائر قرائبهم ، ما يؤکد ان ذلك الفُصّاص الشدید كان قعماً افتنته کاملة ، وقطعاً لآلته طاغته ، وردهما لكل استخفاف بسلطان الخلافة ، وقد حظر على الناس التحدث بذلك يومئذ كما يفهم من قول الشاعر الرقائی في رثاء البرامكة :

فلم ار قبل قتلك يا ابن يحيى حساماً فله السيف الحسام  
اما والله لولا خوف وان وعین للخلفية لا تسام  
لطفنا حول جذعك واستلعنَا كما للاقى بالحجر استلام  
ووقع أمثال هذه الحادثة بعدها في كثير من دول الغرب ، ورأى غير واحد من المؤرخين عدالة ذلك الفُصّاص في شرع السياسة . على ان أدقَّ من نظر من المؤرخين في هذه الحادثة نظراً سياسياً مطابقاً لعادات ذلك العصر وشأنه ، ودحض هذر الفُصّاص ، هو الفیلسوف ابن خلدون وبهذا كفاية المرد على أقوال بعض المؤرخين من الفرنجة وغيرهم .

ولنعد الى تتمة الكلام على هارون الرشید فقد تحلى بلاطه بعظمة الرجال من كل فن ، فمن أطبائه آل بختبشع ، ومن شعرائه ، ابو نواس وابو العتاهية . ومسلم ابن الولید . والعباس بن الاخف وآضرابهم ، ومن الفُصّاص الخليل بن احمد واضح العروض . والاصمی ، ومن النساء ابراهيم الموصلی . وزنیل . وابن جامع . وابن الزف وأضرابهم ، وقضائه ابو يوسف يعقوب الانصاري وابنه يوسف ، وابو البحتری وهب القرنی وأمثالهم ، ومن العلماء سیبویه . وابن يونس ، ومن الاعنة ابو حنبل والشافعی . والامام احمد بن حنبل . ملك اثنين وعشرين سنة وسبعين والشافعی . والامام احمد بن حنبل . ملك اثنين وعشرين سنة وسبعين والشافعی . وتوپی للسنة الثالثة والخمسين بعد المئة للهجرة في شهر شمسیة ودفن في بيت المأمون طوس ودفن بها . وأجمع المؤرخون على ان الرشید ترك في بيت المأمون

تسعة ألف دينار ، والدينار يساوي مثقالاً ذهباً أو نحو ليرة فرنسية ولعل الأصل تسعون ألف اي تسعين مليوناً .

وقال ابن خلدون وهو ثقة : رأيت في بعض تواريخ الرشيد ان الحمول الى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة انتهى قوله . والقنطار فيما ذهب اليه المحققون اربعة آلاف دينار ، فتكون جملة ذلك ملايين مليوناً من الدنانير ، وهو مبلغ لا يستكثره من وقف على سلطان الدولة العباسية . وقد كانت الدولتان العريتان قبلها مهدتا لها الملك الثامن ، فاستباحتا لها ملك فارس والروم اهل الدولتين المظيمتين في العالم لذلك المهد ، والترك بالشرق حتى الصين ، والفرنجية والبربر بالغرب ، والقوط (الاسكتون) بالأندلس ، وخطت جنود العرب من الحجاز الى السوس الاقصى ، ومن اليمن الى الترك باقصى الشمال واستولت على الاقاليم السبعة . وكانت لمهد الرشيد تحمل المكوس والضرائب والجزية والخراج الى بيت المال من الهند والصين ومصر وفارس وسوريا وغيرها . ثم خلفه ابيه محمد الامين اقام في الملك اربع سنين وخمسة اشهر او تزيد ، وكان شجاعاً اديماً شاعراً ، حباً للهو ناقص التدبير ، فاختل الملك وسمى الوشاة بينه وبين اخيه المأمون ، ففسد ما بينهما ، وكثرت الفتن وقامت الحرب بينها ، وقتل في آخرها الامين وذلك ستة ١٩٨ .

ثم قام في الملك بعده بطل عجاstryتنا امير المؤمنين ابو العباس عبد الله المأمون السابع من بني العباس . واذ وصل بنا الحديث الى خلافة المأمون فيجدر بنا ان ناق نفارة إيجالية على بسيط ملكه الممتد الاطراف ، البعيد الاكتاف ، ثم على دخل خزنته ، ليكون السامع على ثقة بما زرويه عن حقائق ذلك العرس ، وهو مما لم يرو له شبه في تاريخ امة من الامم ثم نلح بغداد مقر الخلافة العباسية لحة سريعة انعلم كيف كانت لمهد ذلك العرس ، ثم ظم بشيء من صفات المأمون واحلاقه وعلومه وغزوته ، ثم تعرف بمحمي الخليفة وهو الحسن بن سهل ، ثم ببوران ابنته عروس المأمون

### « الملكة العباسية »

كانت الملكة العباسية لمهد المأمون مختدة في آسيا من بغداد وسائر العراق الى الحجاز واليمن وفلسطين والشام (أي سوريا) وارمينية وملكه فارس (ایران) وأفغانستان وقسم من الهند والصين ، ثم مصر في افريقيا وأكثر المعمور منها أيضاً ، قال ابن خلدون : وجد خط أحدهن بن محمد ابن عبد الحميد عمل (أي حساب) بما يحمل الى بيت المال بغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة (أي دفتر) وعدّه الغلات بلداً بلداً وملكة مملكة، بلغت ثلاثة ملايين وثمانمائة وسبعين عشر ألف دينار ومائتي مليون وسبعين وستين مليوناً وثمانمائة وخمسة وعشرين ألفاً وثمانية دراهم . اه . فإذا حسب الدرهم عشر الدينار حسب رواية ابن خلدون وغيره ، كان مجموع الدخل في تلك السنة ملايين مليوناً من الدنانير ، ما خلا ألواناً من سبائك الفضة ، وألواناً من الحيوان كالجمل والبغال والبرازين والبقر والغنم ، والرقيق والثياب والاكسية الحريرية والزيت والمسل والمود الهندي والفرش والبسط والتمر وعطر الورد والسكر وغيرها ، وذلك كما كان لمهد أبيه هرون الرشيد حسبما بيناه بل ربما زاد عنه ، وهذه الاموال كانت تحمل الى بيت المال من العمال والولاة في تلك الأقطار ، وكان الخليفة يولي عليها كبار الرجال والقواعد من أهل بيته ، أو من لهم سابقة خدمة في الدولة من أهل الكفاية والتدير ، وهؤلاء يولون من هم دونهم من ذويهم وصنائعهم على جهة الخراج ، وكانتوا في القالب يحملون الجباية إقطاعاً أي إزاماً أو مناية ، كالتعشير يومنا هذا ، وما كان الظلم من الاخلاق الانسانية ، والامانة عززة في الظائع البشرية ، وكانت الفتوح في ذلك المهد وقبله كثيرة ، وطرق الكسب والفنانين سهلة متوفرة ، فكان كسب الولاية وعمالهم يومئذ مما

لا يكاد يصدق لو لا ما لدينا من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها . وكان للدولة العباسية خزانة أخرى تسمى بيت مال المظالم ، وهي الاموال التي كان يستعفيها الخليفة من وزرائه وعماله ، أو التي كان يعتصرها الولاية والمال من هم دونهم عند الارتباط بأمانتهم ، أو الطمع بثروتهم ، فينزلون عن مراتبهم ويستجنون ، وعاقبة ذلك في الغالب القتل « سلباً أو خفقاً » ، وتنقص أموالهم من صامت وناطق ، وأهلوا كهم جميعاً وتحمل إلى بيت مال المظالم . وأما ما كان هنالك من كنوز الاموال والدرر النادرة ، والجوهر الفريدة ، وغرائب التحف الشنية ، وعجائب المصنوعات فقدت عن البحر ولا حرج ، ومثل هذا كان جارياً لذلك العهد وبعده ، في سائر الدول ، دون بيت مال يسمى مال المظالم ، وليس عهد ذلك يبعد في الدولة التركية ، فإذا علم هذا كان تمهيداً لما يأتي عن رؤوف الحسن بن سهل ختن المأمون وكرمته الجم .

### « صربة بفار »

أمر ببناتها أبو جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين . وأنم بناء قصره الكبير فيها في السنة ١٥٧ للمحارة ، وكانت لمهد ليلة العرس ، فسلط على وجه الأرض ، وقد بلغت من المعلمة والأبهة والسعادة ، ما لم تبلغه مدينة ، فشيدت بها القصور الفخيمة ، والصروح العظيمة ، والمصانع العديدة ، والجسور والقنطر والمدارس تحاكى القصور ، والمساجد الجليلة ودور الكتب ، والجنتان والحدائق والبساتين ، والأسواق الكبيرة وألوف الجمامات ، وأنشأ المأمون فيها مرصدأً فلكياً ، وكانت دار الخلاعة نفسها مرصعة بالمعادن النفيسة التي اجتذب من أطراف المالك ، وفيها من الحجارة الكريمة والآمنة الشنية ، والرياش الفاخرة والآنية البديمة ، وغير ذلك من نوادر التحف وغرب الماعون ، ما لم يجتمع مثله في مدينة من مدن العالم ، وكانت ضواحيها

قطعاً كي الحصي ١٨٩

آهلة معمورة حتى الرقة ، وعلى جانبي بغداد كانت المدن الصغيرة كالجعفريه ، والمارونيه ، والمهدية ، والمأمونية ، وفيها القصور للخلفاء ولو زرائهم وقوادهم وأكابر الناس ، والصروح والجواصق والجنان والبساتين والمزارع والقرى والمحاصن ، مما يعجز القلم عن وصفه ، وبلغ عدد سكانها يومئذ في أقل إحصاء مليون نفس ، وورد بعض المؤرخين أنها بلغت المليونين . كل ذلك في مدة لم تتجاوز خمسين سنة من وضع أساسها ، وهو ما لم يحكيه التاريخ عن مدينة سواها على وجه البساطة ولا عجب في ذلك ، فإن أحوال هذه الأمة البدوية الفتية ، قد حيرت عقول الفلاسفة والمؤرخين والعلماء ، قال الفيلسوف غومتياف لوبيون ما محصله : إن مدينة الأمة العربية لم يسبق لها مثال في تاريخ البشر ، وقد لا يكون لها مثيل إلى الأبد ، إذ أن هؤلاء البدو الذين حين فتحهم مالك فارس والروم ، حسبوا الخير المرفق ورقاً عندما قدموه لهم ، وظنوا الكافور الذي وجدوه في خزائن كسرى ملحاً فاستعملوه في عجنيهم ، هؤلاء البدو قد بلغت حضارتهم في مدة قرنين ، ولم تبلغه أمة من الأمم في قرون متطاولة ، فقد أتقنوا الصناعات ، وبرعوا في أصناف العلوم ، وتقدوها إلى لسانهم ، وعلموها الأمم الأوربية ، فأوروبا مدينة لهم اليوم بأكثر علومها وتألقوا في المأكولات والمشروبات ، واللبوس والمنور ، وسائرون أدوات الزينة وأسباب الترفه والنعيم ، وتركوا في الإنداش وغيرها من آثار حضارتهم ، ما يُعدّ لهم فخرًا لا يُبلّيه تقادم الزمان ، وبدل الحدثان . وقال أرنست رينان سيبويه علام المشرقيات ما تعرّبه باللغة العربية : خرجت اللغات السامية من ضيق الدائرة التي ظلت سجينة لها إلى ذلك الحين ، ووصلت إلى مقام شتمل به تأثيرها أقطار الدنيا ، ولم يشهد البشر فتوحًا ، أوفر اتساعًا واعظم سرعة من فتوحاتها .

فاللغة العربية هي بغير مدافع ، اللغة التي امتد فتوحها في أوسع بقعة من الأرض ، ولا يوجد بين اللغات سوى اثنين تقاسماها شرف الاتصال ، وتمتدان لامتنان عامتين ، وهما اليونانية واللاتينية ، أريد أنها لسان دعوة دينية ، أو فكرة سياسية ، وكلها فوق اختلاف الأجناس ولكن امتداد الفتوحات اليونانية واللاتينية ، لا يقارب الفتوحات العربية . لأن المتكلمين باللاتينية كانوا من كامبانيا ( مقاطعة من إيطاليا القديمة ) حتى الجزائر البريطانية ، ومن الرin حتى جبال الأطلس ( في شمال إفريقيا ) وكان المتكلمون باليونانية من صقلية ( سيسيليا ) حتى دجلة ، ومن البحر الأسود حتى الحبشة .

وأن هذه كلها في جنوب مملكة اللغة العربية المظيمة ، وقد شملت إسبانيا وأفريقيا حتى خط الاستواء ، وأسيا الجنوبية حتى جزيرة جاوة وروسيا حتى قازان .

وقال في موضع آخر من كتابه « التاريخ العام في اللغات السامية » : أن أوروبا لم تنج من تأثير اللغة العربية الشامل ، فالإسبانيون والبرتغاليون قد أخذوا إلى لغتهم ألفاظاً عديدة عربية في سائر الأشياء ، وحوت جميع اللغات الرومانية - اللاتينية - عدداً كبيراً من الألفاظ العربية ، وجلها للتعبير عن الأشياء العلمية والصناعية ، وكانت أمم أوروبا في القرون المتوسطة دون الإسلام ( العرب ) عراحل .

أولئك أقوامي فجئي بعلمهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

« فنون المأمون وغزوته وأمره وعلومه وصفاته »

قامت في سبيل المأمون عقب إعلان خلافته عقبات شتى ، إذ انتشرت الفتن على أثر اختلافه مع أخيه الأمين وحرروها ، وطمع بالخلافة غير واحد من بنى العباس ، وافترق الناس فرقاً ، فرقاً مع هذا وفرقه مع

ذلك ، وكادت تتضعضع أركان الملك ، فأظهر المأمون من الحزم والشجاعة والحلم وحسن التدبير ، ما كان فيه نسيج وحده ، إذ قمع الفتن ، ومهد الأمان ، وبسط العدل ، وغزا وفتح فتوحاً جليلة .

وكان المأمون أعظم بنى العباس مسُودداً ومجداً ، وعزماً وساحة ، وحملها وشجاعة ، وعلمها وفضلاً ، كثير العفو ، ومن مآثر كلامه « لو عرف الناس حبي للعفو انقرّبوا إليّ بالجرائم » ، وكان عارفاً باليونانية والعبرية والهنديّة والفارسية ، عالماً كبيراً وشاعراً وخطيباً ومحدثاً ، متبحراً في الفلسفة والهيئة ، فصيحاً محباً للعمان والحضارة ، ولم يكن نظيره في كل من تقدمه من الخلفاء في حب العلوم وال المعارف ، وكان شغفه بالأداب والفضل عقد عهد صلح مع ( تيوفيلوس ) ملك الروم في القسطنطينية على أن يستنسخ له جميع المصنفات اليونانية ، ووجه بعثاً آخر يحمل إليه من جزيرة قبرص كل ما وجد هناك من الذخّار العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت في حوذة دولته

فأمر المترجمين كثين بن اسحق وثابت بن قرة ويعقوب الكندي ويوحنا البطريرق وغيرهم بتمرير ما لديهم من الكتب اليونانية والسريانية في الحكم والطب والموسيقى والعلم الطبي والسياسة المدنية والنفس والحيوان والنبات والجبر والهندسة والهيئة ، وكان عنده جماعة كبيرة من المترجمين فجمع علماء عصره وأمرهم أن يصنعوا آلات الرصد ليقيسوا بها الكواكب ويعرفوا أحواها ، كما صنع بطليموس ومن كان قبله فعملوا ، وأمر ببناء المرصد في الشامية ببغداد ، ومرصد آخر على جبل قاسيون في دمشق ، وسموه ( الرصد المأموني ) .

ومن أعماله الخلدة في كتب العلم والتاريخ قياسه الدرجة من خط نصف النهار ، فإنه أمربني موسى محمدأ وأخويه أحمد والحسن بالوقوف على دور كررة الأرض وكان الأقدمون يرون أن كل درجة من درج

الفلك يقابلها ستة وستون ميلاً من سطح الأرض ، فلما مسحوا الأرض  
المتساوية وحرروها وجدوا أن حصة الدرجة ستة وخمسون ميلاً فقط  
وهو المعتبر ليومنا هذا بفرق قليل جداً .

ثم انه عكف على جمع الكتب وحمل القيم على خزانة كتبه  
محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو أول من ألف في الجبر والمقابلة بالعربية  
ثم أمر بإنشاء المدارس للعلوم المتعددة ، وكتبت الكتب في أيامه أيضاً  
ونفت سوق المعلوم ، وقامت دولة الحكمة في عصره كسائر الفنون والناس  
على دين ملوكهم .

وكان يجتمع في قصره العلماء مرة في كل أسبوع ، وهو أول مجمع  
علي عقده سلطان في قصره ، وكان يوزع جوائز وإنعاماً على المؤلفين  
البارعين في يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، ويحضر بذاته المحاكمات في ذلك  
اليوم حسب الفقه الحني .

### «وزراؤه وفراوده وعماله وشراوئه وأطباؤه وعلماؤه»

كان في رأس وزرائه ذو الرئاستين الفضل بن سهل السريسي وكان  
داهية عاقلاً عالماً بعيد النظر حسن التدبير وفيه يقول مسلم بن الوليد :  
أفت خلافة وأزلت أخرى جليل ما أفت وما أزلت  
ومن عمله الحسن بن سهل وهو أخو الفضل وسيأتي ذكره ، ومن  
قواده ذو اليمينين طاهر بن الحسين الخزاعي الشجاع الأديب ، وهو  
صاحب الكتاب المشهور في كتب التاريخ والأدب ، كتبه إلى ابنه  
عبدالله عندما ولأه المأمون مصر ، ولا وقف عليه المأمون قال ما أتيق  
أبو الطيب ( يعني طاهراً ) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي  
والسياسة وإصلاح الملك والرعاية ، إلا وقد أحكم وأوصى به ، وأمر  
المأمون فكتب به إلى جميع العمال .

أما ابنه عبدالله هذا فكان أيضاً قائداً شجاعاً عاقلاً أديباً وفسب إليه  
الإيات المشهورة .

نحن قوم تليننا الحدق البغي—— لعلى أنها ثلين الحديداً  
طوع أيدي الظباء تقتادنا العي—— ن وتقناد بالعلماء الأسوداً  
وكان شعراً المأمون أباً العناية وصريح الغوانمي وعلي بن الجهم والسوسي  
والخليل بن ياسر وأضرابهم ، ومن أطبائنه حنين بن إسحق العبادي وجرجس  
ابن بختишوع وبهقيوب الكندي وأبو بكر الرازبي وجبرائيل وقسماً أبا  
لوفا البليبي وأمثالهم ، ومن منجميه الفرغاني وأبن نوخت ومحمد بن موسى  
الخوارزمي وأخواه وماشالله اليهودي وأبن منصور والجوهرى وأضرابهم ،  
ومن القصّاصين الأصمعي وأبو عبيدة ، وأما العلماء والنحواء الذين كانوا  
يجلسون في حضرته فكثيرون نكتفي بذكر الفراء والكسائي واليزيدى  
وقطرب والجاجحة والأخفش وأضرابهم ، ومن قضايه يحيى بن أكتم  
وأبو عبدالله الواقدي وأحمد بن أبي دؤاد ، ومن الفقهاء الإمام الشافعى  
والإمام أحمد بن حنبل .

وان ما ذكرناه طرف من صفات المأمون وما كان يشتمل عليه بلاطه  
من المجد والمفاخر ، ولو قصدنا إلى تصوير نفسه المعاية الشرفية ، وتفصيل  
هذه الصاعدة المبنية لاحتاجنا من الوقت إلى شهر ومن اللفظ إلى  
معدن الدر .

كان المأمون ربعة أبیض جبلاً ، طويل النحمة رقيقها قد وخطها  
الشيب . فان فاخرت الأمم بقديمها وهي فاخر دون شك ، فهذا  
قديمكم إليها السادمة .

شرف ينطبع النجوم بروفيه وعزٌ يفلطفل الأجيالاً

الآولون ذكر كثير من أمثال هذه الأحداث الطامة وأسبابها، ييد أن لها شأنها عظيمًا في أعين الناقد مستطلع عادات ذلك الزمن وأخلاق أهل وسائر أحوالهم ومدنיהם، وبات الفوز بذلك بعد اطلاع الفرعون وتقلب الشؤون مما لا مطمع في الوصول إليه أو الحصول عليه من مظاهره في كتب التاريخ فحسبنا أن نشير إلى ذلك هذه الاشارة حتى إذا اتفق لأحد الآباء المؤثر عليه في تصاعيف القصاص أو في كتاب من كتب الادب به عليه خدمة لالمم .

### «بدر العرس»

كان الحسن بن سهل مع أهل بيته في مسكنه بضم الصلح وهي بلدة كانت بين الكوفة والبصرة على نهر كبير يسمى الصلح تبعد ثمانين مراحل عن بغداد ، فنهض المأمون إليها ثماني أيام مضت من رمضان في السنة العاشرة بعد المائتين ينقدمه المسكر والقواد والنديم ، والفنون والشعراء والعلماء والفقهاء ، وكبار العباسيين من أهل بيته ، وسار خلفه الخزم والخدم والاتباع وسائل بطانته على الخيول الرائعة والبرادين والبغال الفرس ، وكان يسبقهم الجالون والمكارون والجالون واللاحون والفراسون في جم لا يدرك الطرف آخره .

وكان الحسن بن سهل قد خرج لاستقبال الخليفة بمسكره وحشمه ، فلما وقع بصره على موكب المأمون أمر عسكره بالسير أمام عسكره ، وترجل حتى أقبل على قدمي المأمون ويديه يقبلها ، فقابلته الخليفة بأنه وبشاشة ثم أمره بعواكته فسار في بطانته ، وما وصلوا إلى فم الصلح خرجت المدينة بأجمعها للاقاء المأمون وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله الرأون فنزل الخليفة عن جواده تكتئفه العظماء والجلال وتبسم له تغور الأنفاني والإقبال ، وذلك ما وكب العظيم يسير بين يديه وكانت قد ضربت له

### «الحسن بن سريل حمو الخليفة»

كان كريماً على المهمة ولله المأمون جميع البلاد التي افتحتها ظاهر من كور الجبال والعراف وفارس والاهواز والنجاشي واليمن ، ومن تولى مثل هذا الملك الواسع في ذلك العهد وكان حازماً ثقة المأمون ورضاه لا عجب إذا كان أعنى غني في تلك الدولة ، وقد كانت الطريقة أقطاعاً كما تقدم البيان .

### «بوران بنت الحسن عروس المأمون»

اسمها خديجة وبوران لقب لها أو هو اسم فارسي واشتهرت به ، ولدت سنة ١٩٢ هـ وعقد عليها المأمون في السنة الثانية بعد المائتين ، وكان عرسها في العاشرة بعد المائتين ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن جمالها وعقلها ، بل ردّ كلهم عبارة واحدة ، تلك أن المأمون زوجها لكان أبيها منه وهذا ليس بالبرهان المقنع ، فقد كان في آل العباس من هم أعلى قدرًا في عيون الناس من الحسن بن سهل وأقرب رجحًا من المأمون ، ولو أزوجها المأمون واحدًا من بنى العباس المقربين منه لكون الحسن بذلك شرقاً ، فلا بد من أن يكون اختيار المأمون بوران جمالها أو لعقلها وعلمتها أو لسكنها معاً . وقد كان العقد في الثانية بعد المائتين للهجرة كأقدم وعمرها يومئذ عشر سنوات ولم يتم الزواج إلا في العاشرة بعد المائتين ، وكانت بوران قد بلغت الثامنة عشرة وهذا مجال نظر للناقد ، فقد كانت العرب - وحرث بلادهم معلوم ولا سيما بغداد - يتزوجون البنات في الثانية عشرة فما فوقها ويرون كالفتواتها ورها صباحها في الرابعة عشرة ولا سيما الملوك والأمراء ، فما السبب في تأخير عرس المأمون ثمانى سنين ؟ أكانت غزوات المأمون وكثرة الفتن من الأسباب التي عافت كل هذه المدة أم سبب آخر ؟ لقد أغفل المؤرخون

كان والد بوران ينثر على المهاجمين والقواد وعظام الدولة وسائر الطبقة الاولى بنادق مسك في كل بندقة رقعة باسم ضيعة أو دار أو منزرة أو جارية أو فرس أو غير ذلك ، فيفتح الرجل البندقة ويقرأ ما فيها ، ثم يعطي إلى وكيل أرصدة لذلك فيدفع إليه الرقعة والوكيل يسلمه ما في الرقعة سواء كان ضيعة أو ملكاً أو جارية أو غيرها ، ثم خرج الحسن من ذلك النادى وأقبل على الطبقة الثانية ، فبدأ يفرق بدر الدنانير إلى عشرة آلاف ، ثم انتقل إلى الطبقة الثالثة فنثر عليهم الدرام ونواجع المسك وبعض العنبر .

وظل المأمون عند الحسن تسعة عشر يوماً كان يُمدد له فيها وجميع من معه كل يوم من الأطعمة المملوكيّة والمشرب وسائر أسباب اللهو والسرور ما يقصر عنه الوصف ، فلم يكن في العسكر ومن ضمّهم من المكارين والجحالين والمالحين من يحتاج إلى شراء شيء لنفسه أو لدوابه ، وكانت مبلغ النفقة عليهم خمسين مليون درهم أو خمسة ملايين ليرة فرنسيّة ذهباً . ثم نهض المأمون وسار ومن معه إلى مدینته المأمونيّة وكان بيت فأمر النواية بتجهيز الحراقات ( السفن ) لاجازة خواص الناس بدجلة من بغداد إلى قصوره في المأمونيّة ( مدینة المأمون ) لحضور الولائم ، فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثة ألفاً تسير في دجلة ، وقد تأقّلوا في تزيينها بالآلوان وطلوها بالذهب وفرشوها بالبسط والسجادات وأناروها ليلاً بختلف الألوان ، فكانت كالسماء تشق قلب الماء وتظهر عن بعد في الظلام كأنها نجوم السماء ولا يسمع منها إلا أصوات المغنيين والمقنيات والمازقين والمازقات بين عود ومزمار وكاسات تُدار . وكانت مدینة المأمون قد لبست من الزينة حلاً ما ورأتها لم تطلع غاية ، وكان الخطيب المُعَدّ للوقيد بدار الطيخ مائة وأربعين بغلان مدة

الحياة والسرادقات واقباب من منسوج الحرير والديباج الملوثي ، فدخل قبة فرشت أرضاً بالبسط والزرابي الخسروانية وعلى طاقاتها ستور اليمانية وفي حضرته عقلاء الدولة وأكابرها والشمراء والندرماء والمغنوون والعازفون وقام الحسن بن سهل يخدم بين يديه ، ثم مُدّت أمامه الموائد الفارسية ، وتقدمت ألوان الطعام في الأواني الذهبية وأنشد المنشدون وتبارى المغنوون ولما كانت الليلة الثالثة من وصوله زُوّجت اليه (بوران) فلما دخل قبةها كان عندها (حدونة) بنت هارون الرشيد أخته لابيه و (زبيدة) امرأة هارون الرشيد أم أخيه الأمين وحده (بوران) أم أبيها ، وكان قد أوقد عندها شمعة عبر مرفوعة على شمعدان من الذهب ثقلها مائة من ، وذلك نحو خمسة وعشرين رطلاً حلبياً ، وفرشت أرض القبة بمحصص منسوج بالذهب ، ولما اقتربت بوران من المأمون لتهنئه بقدومه نثرت جدتتها عليها ألف درة من أنفس ما يكون من كبار اللؤلؤ كانت في صينية من الذهب ، ولما رأى المأمون تساقط الآلية على قدميه قال قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال :

كأن صغرى وكبري من فوائمها حصباء در على أرض من الذهب  
ثم أمر بجمعها خمعت وأعطيها بوران وقال سلي ما ترغبين ، فلم تنطق  
بحرف ، فقالت لها جدتها ( كلكي سيدك فقد أمرك ) فقالت : أسأل سيدتي  
الرضا ، عن عمه الامير ( ابراهيم بن المهدى ) - وكان ذنبه عظيمًا -  
قال قد فعلت ، فقالت : وأسأل سيدتي الاذن لسیدتی أم جعفر في الحج  
- وهي زبيدة زوج هرون الرشيد - فقال أذنت ، ثم ألبستها البدلة  
للؤلؤية الاموية المشهورة ، وعلمتها ما استولى عليه العباسيون في جملة  
ما استولوا عليه من خزائن الامويين .  
وبينا كانت أم الحسن بن سهل تنشر الملائكة على المؤمنين وبوران ،

عام كامل ثلاثة مرات في كل يوم وفي الحطب لليلتين فأودوا القصب  
يصيرون عليه الزيت .

أما قصور المأمون فقد كانت تلك الليلة في حسن وأبهة يعجز الفلم  
عن وصفها وكانراكب في دجلة يتشرف عليها من بعد شاسع ولا سيما  
قياها ، فلن يoccus بالجنس الآبيض الناصع كالفضة البارقة ومن مطلع  
نصفه السفلي بالأخضر الناضر والنصف العلوي بالذهب النضار وفوقها  
حلقات الذهب تتلاطم كالشهب المتقدة ، ثم يمدو لاعيون جمال تلك  
الحدائق المعتمدة إلى أقصى مدى البصر تتسرب فيها جداول الماء من برك  
عظيمة الاتساع مختلفة الأوضاع ينبع في الماء كالفضة الدائمة من أفواه  
حيتان أو سباع أو نسور أو تيران ، من مرس مختلف الألوان ، بالغ  
من الصناعة نهاية الاتقان ، بين جنات قد ازدحمت غياضها واشتبت  
أشجارها وتلقت أطيارها وكمافت أغصانها وامتد ظلالها ، يسير فيها  
الداخل تحت أقية وأطواق من فسيفساء الاوراق ، في تماش كأنما أرضها  
خمائل سندسية ، وعلى جانبيها درايزيات لا يدرك الطرف متتهاها ، قد  
اعترش عليها الياسمين ، وتعلق بها الورد والنسرин ، ونعنوت حولها  
الازهر والرياحين ، وقامت وسعها الفصور الباذنة والصروح الشامخة  
والاروقة المرتفعة والجواسق المنحقة ذوات الساحات المترامية ، والصحون  
الفاسح والافنية الرحاب والآندية العظيمة طبقاتها أبواب وأبوابها حيرة  
الالباب ، قد أرخت عليها ستور الدبياج والاستبرق كأنها أجنبية  
الطاويس ، وفرشت أرضاها بأنواع الفسيفساء ، تحاكى أزاهير الجنان ومتعاددي  
الحيوان ، من أسود وغور وغزلان برحام متعدد الألوان ، يخالطه خشب  
الصندر والعود الهندي ، وفي كل بيو بركة أو بركة تنساب إليها المياه  
الصادفة على ملون الممر كالتعجين الذائب ، والسمك على اختلاف الأشكال  
والألوان تتصعد في مائتها وتنجذل وتعوم كما يعوم فيها البطة ، وقد رُفعت

حيطان تلك الابهاء بالفاشي البديع ، تحاكى بالألوان ورسومه أزهار  
الربيع ، ورفعت سقوف تلك الآندية والابهاء الرحال على أعمدة المرمر  
ذوات الألوان الباهرة ، وقد أحكم صنها وقها وتكامل حسنا  
بتذهبها ورقها ، وقامت قبائها على قنطر وحنانا وأضلاع ، بلغت  
بها صناعة الهندسة غاية الابداع ، ودارت فيها الطيفان كالفلائد في  
أعنق الحسان ، وقد قدمت على أساطين وسوار ركزت على قواعد  
من الصوان ، وتقعنت بأقداح كالترمس من رخام ، وبلت من  
الزهو والارتفاع ما لا سبيل معه إلى إمتناع النظر بأعاليها إلا باقلاق  
رأس الناظر إلى آخر المستطاع . وقد طلبت تلك السقوف والقباب  
بالألوان تحار في حماستها الآثار ، وبأخذ إبداع رسومها يجتمع  
القلوب ، وألبست من الذهب الوهج أنواراً يردد عنها الطرف كبلاء .  
وكانت لاتقع العيون في تلك الآندية والابهاء والغرف والمقاصير إلا  
على حماستن قد تناهت في الطرف ، وملاحة وإبداع يقصر عنها كل وصف ،  
فن حيطان من الزجاج رفعت وراء الشرفات تتمس عها الانوار إلى  
داخل القباب ، ومن حيطان من جسم الرخام حاكت بحفرها رسومها  
جبائث الغمام ، أو أجنبية الطيور أو غالان الحسان أو ظهور السمك  
والحيتان ، أو صور الفرزلان وغيرها من الحيوان ، بين محمد وملوف ،  
ومسيير ومنمر ، ومكفوف وملفوظ ، إلى أشكال وألوان يعجز وصفها ،  
ويضيق عنها التفصيل والتعبير ، والتعميل والتصور ، وفي كل قصر  
قصور ، وفي كل زاد روضة وغدر وغرف ومقاصير ، وسجوف مرسلة  
وستور متراخيه رسور مرفوعة وأرائك مصنوعة وجال منصوبة وبجالس  
مفروشة ومقاعد موضوعة وكراسي مصفوفة وطنافس مبوطة ، وأوان  
قاعية وأباريق مبنية وخواب مستوية وزجاجيات منسوجة ، وأوان  
مختلفة الأشكال نادرة الحسن والمثال ، من الصبي والزجاج والذهب ونقائص

المدن وغرباب التحف وعجائب الطرف ، وبجامس العنبر ومباحر الندى وفاصم  
ما، الورد إلى ما لا يبلغه عد ، ولا يتخيله فكر شاعر .

تلك هي الفصور التي قامت بها الأفراح المأمونية والولائم العباسية ، ولما  
وطئت أرضاً يوران أعطاها المأمون في مهرها ألف حصاة من نفيس الياقوت.

وقد تلكت الولائم قاتمة في تلك الفصور أياماً متواالية ، وكل الذي وصفناه  
ان هو إلا خيال خيال لحقيقة ذلك العرس الجليل ، فإنه عرس لم يرو له  
التاريخ مثيلاً ولا بدع فلامون فرد لم يزل الزمان يمثله بخيلاً .

ولعلنا نأتي في محاضرة أخرى على ما كان الدولة الاموية الثانية  
في الغرب من الفتوحات الباهرة ، والآثار الخالدة الفاخرة ، والمدينة  
المظلمة الزاهرة ، مما تنشرح له الصدور وتتهزّ النفوس ، وتعلو القيم وترفع  
الرؤوس ، ويقال عنده لا عطر بعد عروس .

دمشق : ايلول سنة ١٩٢٣

مرجع

## اعراس المتنبي<sup>(١)</sup>

لذساز عبد القادر المبارك

قال فيها البليغ ما قال ذو المتنبي وكل يوم صفا منطريق  
وكذاك المدوم يعدُّ آن فا لجيلاً كَا يقول الصديق<sup>(٢)</sup>  
أبو الطيب المتنبي الذي يمت بنسبه إلى قحطان من العرب العاربة ولد  
وترعرع في الكوفة مدينة الشعر والعروبة في الاسلام بعد أن مُنْتَهِيَ على  
عصيرها في عهد ثاني الخلفاء الراشدين ثلاثة قرون ظلت فيها مقرًا  
لأقطاب اللسان العربي ورجالات اللغة الفصحى من عرب وأعراب . فلا غرو  
أن يكون أبو الطيب المتنبي الذي ولد ونشأ فيها معرفًا في عروبه اللسانية لعرقه  
في عروبه القحطانية . على أن الكوفة التي صارت بعد الاسلام من أعظم الحواضر  
العربية كانت يعمتها قبل إنشاء المباني فيها بادية مأهولة بعرب الجاهلية  
وأعرابها من سكان الوبر الذين كانت وفودهم لا تبرح غادرة رائحة بين  
منازل ملوك العرب من الراجمين والمناذرة إذ ليس بين الحيرة عاصمة ملوك  
العرب في الجاهلية وبين الكوفة سوى ثلاثة أميال .

وفي جوار الكوفة الخورنق الذي ذكرته العرب في أشعارها وضررت  
به الأمثال في أخبارها كما قال ياقوت ونقل أيضًا عن الهيثم بن عدي<sup>(٣)</sup>  
أنه لم يقدم الكوفة أحد من ولاتها إلا وأحدث في قصرها المعروف

(١) أقام الجمع المhei العربي مهرجان المتنبي في نوروز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبه الأستاذ عبد القادر المبارك

(٢) هذان البيتان لأبي البيداء اسعد بن عصمة الراباحي .

(٣) وهو كوفي ايضاً .

بالخورق شيئاً من الأبنية . وقال ياقوت أما ظاهر الكوفة فانها منازل النعسان بن المنذر والخيرة والنحيف والخورق والسدر والمربيان وما هنالك من المترهات والدرة الكثيرة . اهـ ، فن لابي الطيب أن يكون من أعرق الشعراء في عروبه ومعرفته بلغة أولئك الذين يقول الأسود بن يعفر فيهم :  
أهلُ الخورق والسدر وبارق والقصر ذي الشرفات من سندادِ  
وما من بقعة في الكوفة وما جاورها إلا وهي معهد من معاهد العروبة  
التي يحن أبو الطيب إليها حين الأسد إلى عربته ولبوته ، ومن أحق من  
عاقة الشعراه بمحب وطنه ولغته ، فالله أعلم بما احتاج في نفس أبي الطيب  
من طرب حين نفني بقوله :

تذكرت ما بين العذيب وبارق بحر عوالينا وبحرى السوابقِ

وائن كان أبو الطيب قد حيل بينه وبين وطنه فقضى معظم سني  
حياته بعيداً عنه فإنه ما حيل بينه وبين لغته العربية التي لم ينزع إلى لغة  
سواءها ولم يهو شيئاً هوهاها تلقنها طفلاً وشعر بها مراهقاً وتصلع منها  
يافعما واستحوذ عليها فتىً وبذخول شعرائها مكتبراً . ولو أراد أبو الطيب  
أن يكون كتاباً لأنسانا الصولي والجاحظ ولو أراد تدوين اللغة العربية  
على مثال معاجم أعمتها لما سبقه الأزهري في تهذيبه والفارابي في ديوانه  
والصاحب في محيطه وإن فارس في بحثه وإن دريد في جهرته وأبو علي  
الفارسي في تذكره وغلام ثعلب في يواقيته وإن جي في مقتضبه وخصائصه  
على أن شاعرته التي أحمل بها خول الشعراه أفادتها عشرات الكتب التي  
ألفها علماء اللغة العربية من كبار أدبائها وسراة نوابتها بسبب ديوان شعره  
شرعاً ومحناً وقدماً وسيظل شعره مدعاه لروجال الأدب العربي إلى خدمة  
هذه اللغة ما دام أهلها غيارى عليها .

ولقد كان لابي الطيب من الشهرة بالنشوغ والمعبرية في حياته ما كان  
للحاجظ كما يظهر مما ذكره ياقوت في معجم الأدباء من أن الخطيب أبا  
الوليد بن عمال حج فدا الصرف تعلم إلى لقاء المتنبي واستشرف ورأى

أن اقيمه قائدة يكتبها وحله خرج بكتابها فصار إليه فوجده في مسجد  
عمر بن العاص ففاوضه قليلاً ثم قال ألا تنشدني للبيح الاندلس يعني  
ابن عبد ربه فأنشده :

يا لؤلؤا يسي العقول أنيقاً الخ

هذا أكل إنشاده استعادها منه ثم صفق ثم قال يا ابن عبد ربه لقد  
تأتيك العراق جبوا .

وأيس غرضي من هذا الشاهد أن أبحث عن كنه ما أظهره المتنبي  
من استحسان لهذا الشعر وإنما غرضي أن الاندلسي شق عليه أن يعود  
إلى الاندلس دون أن يلاق عظيم أدباء الشرق .

ومن غرام أبي الطيب باللغة العربية حسن تخريجه لولده محمد الذي  
أجاز هذا البيت .

زارنا في القلام يطلب سترأ فافتضحتنا بنوره في القلام

بقوله :

فالتجأنا إلى حنادس شعر سترنا عن أعين اللوامِ  
وليس بعجب على من نشأ تلك النساء بين عرب الكوفة حضراً  
وعرب كلب بادية مع ما فطر عليه من لوذعية وشاعرية أن يصبح استاداً  
في اللغة للجاحظ الثاني أبي الفضل ابن العميد الذي قرأ عليه كتاباً في  
اللغة من تصنيفه وكان يدهش لما رأى من مسابقته لا يراد الشواهد وإفاضته  
في بيان أسرار القضايا اللغوية .

واستظهاره كتاباً عرض عليه في سوق الوراقين بتصفح يسير ، وجوابه  
للفارسي عما جاء على فعل ، ولابن خالويه عن أشجى في قوله :

وقاوْ كَا كارِ بْعَ أشْجَاه طَامِه

ولسيف الدولة لما انتقد عليه قوله :  
كأنك في جهن الردى وهو نائم  
وقفت وما في الموت شك لواقفِ  
ووجهك وشاح ونفرك باسم  
تعرب بك الابطال كل هزيمة

كل ذلك من دلائل تبريزه في قوة الحافظة وامتلاك زمام اللغة التي ملكها وعنايتها بالغوص على المعاني لا يبلغ في التعريف بفضله معاشر ما يبلغه فيه شعره الشاعر . فكان اللغة العربية في شعره غيرها في شعر غيره ، والبيان كالجحافل في كونه يملك القلوب ولا يحيط بكله أسراره إلا عالم الغيوب . فلا جرم أنه لجدر أن يسمى طوراً شمراً ونارة سحراً ، وبارك الله أحسن الخاقين الذي خلق الإنسان علمه البيان .

وأبو الطيب إنما كان نسيج وحده يهاديه ويعقربي خياله إذ هو فيما كالشاعر الذي يقول :

إني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبوءة عني  
فإن شيطانى أمير الجن يذهب بي في الشعر كلَّه فن  
ولما ذكرت نزحه الشاعر أو الخطيب إذا أطال حروفاً عليه من أن ينهره  
أو يصبر إلى الأسفاف ، أما أبو الطيب فكلا أطال ازداد تحليقاً حتى  
يجعل مكان الرحمة من ساممه حسداً ، كما يحكى عن زياد بن أبيه . وهو  
في شاعريته الثانية ببروته اللغوية أجدر من أبي العناية الذي نشأ في  
الكوفة بأن يقال فيه : لو أراد أن يجعل كلامه كله شمراً أفعل .

فلسانه كان عبد الملك المنكدرى الذي قال فيه ابن المعدل : كلما  
ذكرت أن التراب أكل إسان عبد الملك حقرت الدنيا في عيني ، وكلاهما  
أقام رحماً طويلاً في الباذية بين بني كلب ؛ وكان عبد الملك إذا حاور  
الإمام الشافعى ظلَّ من يسمعها مبهوراً من فصاحتها لأن الإمام تأدب في  
البادية بهذيل كأن ذلك تأدب بخُواسته من بني كلب .

وكان أبو الطيب طبأً بوضع الكلم في مواضعه أكثر مما كان عنترة  
الفلحان طبأً بأخذ الفارس المستسلم ، فهو كما قال أمرؤ الفيس :

بنود القوافي عنه ذيادة ذياد غلام غوي " جرada

ومن مزاياه العربية غيرته على شعره أن ينزعج به من لا يفقه أسرار

اللغة ، وكانت هذه المزية من أشد البواعث على رغبته في إثارة سيف الدولة الذي كان يود أن لا يفارقه حتى يفارق دنياه .

ولولا ذلك لاتتجمع من نبغ في زمن خلافتهم من ملوك بنى العباس وهم المقتدر ، القاهر ، الراضي ، المنقى ، المستكفي ، المطیع ؛ لكنه رأى السلطة في بلاطهم ، بله مملكتهم لطاطم الموالي وأفظام الملوك ، فكانت إزداد عدده كشعب بوأن في طمطانية المتحكمين فيها :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجان

وكل ما قاله في مدح غير سيف الدولة ليس إلا إغراء له بطلبها ومما يله ، وهل يستطيع من ولد وترعرع في مدينة المنبر العلوى من جهة الألف من خول البلقاء ، وهو بار بلغته إلا أن يكون كأبي الطيب اعتزازاً بمعريته واعتزازاً لها ، وإشفاقاً عليها من آفات اللحن ، إشفاق ذلك الأعرابي الذي سمع أحد الخلفاء من العباسين يلحن فصر أذنه وقال : أشهد أنك ما وليت الخلافة إلا بقضاء وقدر .

وإليك مثالاً من فقه اللغة في الكوفة من محاورة بين كوفي وانين من الأعراب في القرن السادس للهجرة ، بينما كان الكوفي عمر بن إبراهيم العلوى يغرس فسيلاً في حائط له إذ مر به أعرابيان فقال أحدهما للآخر أبسطع هذا الشيخ أفالح أن يأكل من جنى هذا الفسيل ، فسمى الشيخ وقال : يا بني كم من كبش في المرعى وكم من خروف في التور ، فسمع أحدهما دون الآخر الذي سأله رفيقه عما يقول العلوى ، فقال له إنه يقول : كم من ثاب تسوقي في جلد حوار ، فعلم الأعرابي ما قال وأعجبه ذلك .

هذا بعد عصر المعرى الذي استنبط فيه العرب ، ثم بذلك بالتصور الأول في عكاذا الاسلام من بد البصرة وظاهر خدا العذراء التي كانت من أكبر مدن العرب العرباء وفي مدرسة أبناء أشرافها أو كتابهم تلق المتنبي دروسه الأولى بالسان العربي الذين الذي جرى على لسانه الطبعين الذائق شرعاً .

عبد القادر المعاوكي

104

والأيّق بالصواب والاقرب الى المقصود في مثل الجملة أن يقال استفادتها من لغة الاعراب الذين كان يرحل برحلهم وينزل بنزلهم من أهل البوادي . والتجلبيح لفظاً ومعنىً بين الورأيّق وأعلق منه بين المدر وقلما تراه في كلام أهل الحضر ، ومعناه الذي هو أن يركب المركب رأسه ويحمل حملة الحيوان الصناري فلما يستغنى عنه سكان الصحاري .

وكان صاحب كتاب إبصاح المشكل أراد الغض من أبي الطيب الذي  
قدّر عليه أن يكون حسداً كما قدر عليه أن يكون أبو محمد بكونه قليل  
الاطلاع على كتب اللغة وأنه لم يطلع إلا على غريب أبي عبيد وعلى أقل  
من القليل من جميرة ابن دريد والمنبي يقول له يسان الحال : حرف في  
قليك خير من ألف في كتبك ، ورحم الله أبو ذؤيب إذ يقول :  
وعيرها الواشون أبي أحبا و تلك شكاه ظاهر عنك عارها  
والجملة في كلام المنبي جاءت في القصيدة التي مطلعها :  
« أقل فعالى به أكثره بجد »

في هذا البيت :

وأمضى كاًءنِي السنانُ لطيفي

وجات في الـى مطلعها :

«أَنْدَرِيٌّ مَا أَرَابَكَ مِنْ يَوْبٍ»

إذ يقول :

مجلحة لها أرض الاعادى وللسمير المناحر واجنوب  
وكان الاولى بالاسهانى اذا ادعى معرفة مصادر غريب اللغة في شعر  
المتنبي أن يقول : إنما أخذ المجلحة من بائية امرىء القيس التي أولها :  
أر انامو ضعيف لا من غيب وتسحر بالطعام والشراب  
عصافير وذبار ودود وأحرا من مجلحة الذئاب  
لأن آبا الطيب فعل شعراء العراق من سلاطيل عرب اليمن حقيق أن

يشرّأ إعيقرمه وهو ابن عشر سنين وبعد فانى أقول في لغة أبي الطيب  
ما قاله عولس بن حبيب في ابن العلاء البصري : لو كان أحد ينبعي أن  
يتوحد بقوله في كل شيء لكان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو ابن  
العلاء كله في العربية ، ولكن ما من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك  
لأنه من ناطق بالقصد نسبنا محمدًا عليه الصلاة والسلام .

وحبّ المتن اللغة العربية حدا به إلى الامان في تعرّف أسرارها والحرس على تصفح خيرة معاجمها الكثيرة التي أو لها العين الفراهيدى ، وآخرها المحيط للصاحب ، والصحاب لجوهري ، وكتاب العالم واللغة المفتح بالغلك والختن بالذرة لأحمد بن آبان الاندلسي المتوفى سنة (٣٨٢) وهو مائة مجلد ، وقد بلغت كتب اللغة في القرن الرابع للهجرة من الوفارة والكثرة ما يكفي في الدلالة عليه قول الصاحب ابن عياد كا في المزهر : أحتاج إلى ستين جلاً أنقل عليها كتب اللغة التي عندي . فهل يصح بعد هذا أن يقال : كل ما في كلام المتنى من الغريب المصطف سوى حرف واحد هو في كتاب الجهرة وهو قوله : تطوى الجملحة المقد كا يدعى صاحب كتاب إيضاح مشكل شعر المتنى ، على ما نقل صاحب الخزانة الكبرى ، وأنى يمكن الوقوف على سند صحيح يثبت أن أبي الطيب لم يطلع على كلمة الجملحة أو العقد إلا في كتاب الجهرة لابن دريد المتوفى سنة (٣٢١) ، وأبو الطيب طالما أحيا الليالي درساً حين لم يكن له سوى الكتاب سيمراً رجاءً أن يقف من طريق الصناعة على محاسن لغة أتقناها من طريق الطبيعة في مدرستها العالمية حضارةً وبداوةً .

ومنتهي يترفع أن يقول : إني أطامع كتاب فلان وأدرس ديوان كذا ، وكلمة بخلجة جاءت في شعر بشر بن أبي حازم وفي شعر لبيد وفي شعر أمري . القيس وفي شعر بنت وئيمة في رثائهما لا يهرا كا في بيان الجاحظ في الباب الذي أوله ( وكانوا يدحون شدة المارضة ) . وكلمة العقد التي هي جمع الاعقد لها شواهد أوفر وأكثر من شواهد الجاحظ ،

كلامه ، فاذا حاول العدول عن منهاج الاسان المضري القوم لم يستطع اليه  
سبيله فما أصدقه في قوله :  
وكلة في طريق خفت أعرّها  
من قصيده التي مطلعها :  
أفضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أحلام من الفهان  
فالمتنبي يتسهيل بذلك نفسه في سبيل صيانة لغته التي يغدوها بروجه ،  
وكأنه يقول : لا بارك الله في الحياة بعد ضياع اللغة . من أجل ذلك  
رأى ارتكاب ما فيه خطر على حياته أهون من ارتكاب ما فيه خطر  
على لغته . وفي البيت مسألتان : ( خفت أعرّها ) من الفعل المضارع ،  
وتحريك حاء ( اللحن ) اتباعاً للام وشاهد الاول قوله تعالى « أَفَبِاللَّهِ  
تَأْمُرُ وَنَحْنُ أَعْبُدُ » أي أن أعبد ، وقول طرفة ابن العبد :  
ألا يها ذا الزاجري أحضر الوعي وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي  
أي أن أحضر الوعي ، ومن هذا القبيل قوله : مره يحفر بئراً  
أي أن يحفر ، وقولهم : خذه قبل يأخذك أي قبل أن يأخذك ، ولسمع  
بالمويدني خير من أن راه أي أن تسمع . والمتنبي كسائر فصحاء الكوفيين  
كثيراً ما يستعمل ذلك في قوله :  
أشفقت تحترق العواذل يتنسا  
وتوقدت أنفاسنا حتى لقد  
وقوله :  
ولا تحسن الا أيام تكتب ما أهلي  
وما تسع الا زمان علمي بأمرها  
وقوله :  
عليه منها أخاف يشتعل  
أشفق عند اتقاد فكرته  
وقوله في ثياب أهديت اليه :  
أقدر حتى المات أجدها  
أقر جلدي بها على « فلا  
ويسوغ ان يعود الفعل المضارع مرفوعاً مع إضمار أن قبله لأن الحرف  
عا (١٤)

يحفظ شعر امرىء القيس خل شعراً نجد من أبناء ملوك كندة من  
اليمن لا سماها الشعر الذي قيل بسبب معركة حمي الوطيس فيها قرب  
الكوفة وكان يومها عصيّاً من أشد أيام العرب هولاً ، وهو يوم الكلاّب  
الذي عم امرىء القيس شرحبيل من قتلاه ، ومثل أبي محمد من يعني  
پدراسة أخبار العرب لا سما أيامها ، على أن ذلك كله تحكم ليس له مبرر  
ومن يستطيع أن يحكم عليه أنه لم يسمعها ويحفظها في منزل أسرته في كندة  
بين أحياء الكوفة في مدرسة الحياة الأولى التي يكون التعلم فيها بالفطرة  
ولكن يا إبا الطيب :

بحسبك اني لا ارى لك عانياً سوى حاسداً والخاسدون كثير

كما قيل في شأن معاصرك المفضال علي بن عيسى بن داود بن الجراح  
وابليس هذا التحكم عليك في دعوى أنك لم تعرف كلة الملاحة إلا من  
الجهرة بأغرب من تحكم من ادعى أنك سرقت قولك :

ومن جلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

من قصة فصار كان يعمل على شاطئ نهر ، وكان كل يوم يرى  
كركينا يحيى . فيلتفت من الحيرة دوداً يقتصر في القوت عليه ، حتى رأى  
ذات يوم صرفاً حلقاً ثم انقض على حامة فاصطادها وأكلها . فقال الكركي  
مالي لا اصطاد الطيور كما يصطاد هذا الصقر وانا اكبر منه جسماً ،  
فارتفع في الجو وانقض على حامة فأخذها وسقط في الحيرة فتلطخ رأسه  
وريشه ولم ينكه ان يطير ، فأخذته الصياد ورجع الى منزله ، فقيل له  
ما هذا : فقال « كركي يتصرف » ، فسمع المتنبي هذه الحكاية ، فأخذ  
منها معنى هذا البيت :

قال ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون بعد هذه الحكاية : وهذا من نادر التعصب على هذا الرجل الفاضل المحسود .  
أبو الطيب له ولع ودربة باستعمال الفصيحة في شعره ونثره وسائر

عامل ضعيف ، فإذا أضمر زال أثره ولم يقو على الظهور ، كما يسوغ أن يبق منصوباً باعتبار أن المقدر كاثاً بـت وعليه قول المتنبي :  
فـكـنـ مـعـادـيـهـ أوـ كـنـ لـهـ نـشـاـهـ فيـ إـلـيـ مـعـلـمـاـ :

دمعُ جرى فقضى في الريح ما وجبا  
وقرى ، كا في الكتاب للزمخنري (أعبد) مرفوعاً وقرى منصوباً  
في سورة الزمر من قوله تعالى « أَفَغَيْرُ اللَّهِ تَأْمُرُنِي أَعْبُدُ » .  
وأما تحريك حاء اللحن بالفتح اباعاً لامها فهو من قبيل تحريك الماء  
في نهر وزهر ودهر . قال أبو النجم :

يا جيلا طال معداً فاشخر . اشم لا يستطيعه الناس الدَّهَرَ

قال ابن منظور في لسان العرب : إما أن يكون الدهر والدهر  
للتین کا ذهب اليه البصريون في هذا التحو فیقتصر على ما سمع منه ،  
وإما أن يكون ذلك مكان حروف الحلق فيطرد کا ذهب اليه الكوفيون  
اه ، والمراد من اللحن في بيت أبي الطيب الخطأ في الكلام والمدول  
عن سن الصواب فيه ، ولم يرد شيئاً من معانیه الأخرى كاللغة والفهم  
والقطامة والانزار والعرض والتعريب ، وإن كان لفظ اللحن  
مشتركاً في ذلك كله . إن أبي الطيب في عسکه بعريته والتزامه فصحاها  
لحقة وألفاظاً مطبوع يجري في ذلك على مقتضى طبعه ، فهو من أشبه  
الناس بالاعرابي الذي كان الترافع اليه يكون حکماً بين سببويه والكسائي  
فلم يستطع أن يلحن فيقول : فإذا هو إياها ولكن استطاع أن يكذب  
فيقول : الحق مع الكسائي ولو اكراه على التلفظ بالنص المتناقض فيه  
لظاهر أن الحق مع سببويه ، لأن لسانه لا يجري حينئذ إلا بقوله : فإذا  
هو هي ، على ما ذهب اليه سببويه ، فكان احتمال عار الكذب عنده  
أهون من احتمال عار افساد لغته الفصحى الجليلة التي بها جاء أحسن  
الحديث وحياناً ، كلما زدته تلاوة زادك حسناً وطلاؤه . وأيس أبو الطيب  
بدعا في عشقه لغة مصرية تحجلت له من عرائسها :

وجوه لا تزال تزيد حسناً لمثل جمالها خلق الغرام  
ومن أشباهه في الشتشنة ذلك الامير جبلة بن عبد الرحمن الذي كان  
يكتب بالسان المبين اسماء الاطممة التي يريدها في رقاع يبعث بها الى  
طالبيه ، وكان هذا لا يقدر على الاستقلال بهمها لضعف عربته فيراجع  
ابن أبي إسحاق الحضرمي أو يحيى بن يعمر العدواني لاستبضاع عما كتبه  
له سيده جبلة في تلك الرقاع ، فإذا عرف ما فيها من أنواع الاطممة  
أناه به ، وكان من أجل ذلك يعطيه عليه في إحضارها فقال له :  
ويبحث أسمها الطاهي ما بالك تبطيه . كانك تريد بابطائك أن تحملني على  
الصيام ، فقال له الطاهي : سهل . كلامك أسهل . طعامك ، فقال له سيده :  
يا ابن الائمه أنا داع عربتي من أجل عيتك .

ولصحة الطبع في اللغة كان لفصحاء المهد الجاهلي وصدر الاسلام  
أعلى مقام بين طبقات أمراء الكلام ، وهنّا أن تظهر عبرية البيان  
الابسلامة الذوق وطلقة الانسان ، وقد أصاب المهز وطبق المفصل من قال :  
نعم عون الفقي اذا طلب العـ م ورـامـ الآـدـابـ صـحةـ طـبعـ  
فـاـذـاـ الطـبـعـ خـاـنـهـ بـطـلـ السـيـ وـصـارـ الـمـنـاـ فـغـيرـ قـعـ

وقال المتنبي :

أبلغ ما يطلب النجاح به الطـ حـ وعـنـدـ التـعـقـ الزـلـ  
لا جرم أن لهؤلاء المطبوعين في كلامهم أن يعجبوا من يلحن وبهاؤن  
بالاعراب ويحيد في كلامه عن سن الصواب كالأعرابي الذي كان يقول :  
عجبت للتجار الذين يلحنون فيستطيعون مع لحنهم أن يبحوا في متاجرم ،  
وكالذي سمع بعض الخلفاء في المهد العباسي يلحن في كلامه فقال : لولا  
القضاء والقدر لما قدر أن يكون هذا خليفة ، ولكن قدر فكان ،  
وليس بضار فارس الطخور أبا محمد وشعره شعره قول ابن خلويه فيه : إنه  
لم يكن يعرف أن البعير يستعمل بمعنى الحمار ، كأنه انفرد بمعناه ولم  
يحوجه سواه .

دمشق : توزع سنة ١٩٣٦ .

## روح الطموح في مسيحي

أستاذ احمد رضا

### منتأ الطموح

طرد ألم أو دفع ألم هو كما قال ابن حزم « مذهب ألمقت الألم » كلها عليه ولا يعتمدون بسعدهم أمراً سواه ، لكن للنفس نزعات ورغبات تأتيها من طريق الشعور بالحاجة أو بما يؤمن في ميولها من وراثة فتحاول طرد ألمها بما يحول دونها . فالناثي في سلف عنيز وخلف أعزه ترجع نفسه إلى العز ، والناثب في مثبت شهوانى أو سلف ألف الشهوات يحارب كل ما يحول بينه وبينها ليدفع عن نفسه ألم حرمانها . وما طلب أمال طالبه إلا لطرد ألم الفقر ، ولا رغب في الحياة راغبها إلا لدفع ألم الموت ، ولا يتنى الصيد مبتغيه إلا لطرد ألم المحن ، ولا طلب المعالي من الأمور إلا من يكره أن يستعلي عليه عال .

الإنسان روح وأنشد ما تكره الروح أن يستعلي عليها مستعمل أو يسيطر عليها مسيطر . ولكن هذه الروح قد تستخذى لقوة القاهرة إذا ضعفت عن مقاومتها فتخضع على كره منها وهي مفعمة هما مملوقة كربلا ، فادا طال عليها الأمد ، وهي خاصة ، ألفت الخضوع وعلى نسبة هذه الالففة يخف أنها وينفرج كربلا .

### عزبة النفس العربية

العرب أمة نشأت على عزبة النفس والاباء فرأيت أنها أعز الألائم جارا وأمنهم ذمارا وأشار لهم ختنا وأذكام عنصرا ، ثم تحاوزت الحدة فرأيت أن كل من عدا العرب أعمام لا يداونون الترب منزلة ولا يوازوونهم كفافة .

(١) أقام الخير المدى مهرجان للنبي في تبريز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الاستاذ احمد رضا .

فليس عجياً والحال هذه أن يأنف النعسان بن المنذر وهو عامل كسرى على قرئ الطف من تزويج ابنته من كسرى لما خطبها إليه فقط كسرى تحت أرجل الفيلة انتقاماً من ألقته . ولا أن ينتقم له العرب بوفاة ذي قار لأنّه ذهب شهيد الكبriاء العربية وفي سبيل صيانة الدم العربي .

وليس غريباً أن يعتصم ليلي بنت لكبز بعفتها ولا ترضي أن تكون في نساء كسرى لأنّها عربية وهو أعجمي . وهي بنت الصحراء أو ربيبة البوادي واليفة المضارب ، وهو صاحب الدور المشيدة والصروح المردة والملك العظيم والنعيم المقيم . لكنه مع هذا كله ليس بكافٌ لها لأنّها عربية وهو أعجمي .

هذه هي كبرى العرب وطموح العرب ، فلا عجب إذاً أن زر عرباً فـ « كأبي الطيب ارتفع بذكائه وعلا أقرانه بيان ساحر وقلب جري » وعزم ثاقب وعلم جم تهـب عليه ريح العالم وتطقـي فيه روح انتظام وهو العربي منبتاً ونسباً وأدبـاً .

### النبي عربي صحيح النسب

ضربت ببرق المتنبي دوحة يان ، فهو من حيث أبوه جعفي من سعد العشيري من مذحج ، وهو من حيث أمّه همداني ، وهـدان واسطة عقد العرب اليـانـيين بـجـدـاً وـشـجـاعـة وـسـيـدـ العربـ بعدـ النـبـيـ الخـتـارـ يقولـ فيـهـمـ :  
نـادـيـتـ هـمـدانـ وـالـآـبـوـبـ مـغـلـافـةـ وـمـثـلـ هـمـدانـ سـنـوـ فـتـحـةـ الـبـابـ

كـالمـهـندـوـانـيـ لـمـ تـفـلـ مـضـارـبـهـ وـجـهـ جـيـلـ وـقـلـبـ غـيرـ وـجـابـ

يـقولـ أـبـوـ الـحـسـنـ اـبـنـ اـمـ شـيـانـ : إـنـ أـبـاـ الطـبـ كـانـ جـفـنـاـ صـحـحـ  
الـنـسـبـ ، وـيـقـولـ أـبـوـ الـحـسـنـ مـحـمـدـ بـنـ يـحـيـيـ الـمـلـوـيـ الزـيـديـ ، إـنـ وـالـمـنـبـيـ  
كـانـ يـقـولـ أـنـهـ مـنـ جـعـفـيـ ، ثـمـ قـالـ وـكـانـ جـدـةـ الـمـنـبـيـ هـمـدـانـيـ صـحـيـحةـ  
الـنـسـبـ لـاـ أـشـكـ فـيـهـ وـكـانـ جـارـتـاـ ، وـأـبـوـ الطـبـ يـقـولـ عـلـىـ قـلـةـ اـعـدـادـهـ  
عـجـدـ الـآـيـاءـ :

وبحدي يدل بني خنوف على أن كل كريم يعاني  
ويقول :

وأني لمن قوم كان نفوسهم بها أنت  
في دعي مثل هذه الكبيرة ويغتر هذا الفخر ويبالغ في أنفة قومه هذه  
المبالغة فلا بد إذن لهذه الدعوى من أصل في شرف آباءه . أما أن  
لا يكون ادعواه هذه أساس تبني عليه هذه المبالغة فاني أراه غير مقبول  
في المادة ، والا فلم تر كلامها له حساده والناعون عليه وما أكثرهم حوله  
وما أحصاه لكل دقيقة وجليلة عليه ؟ وإذا لم يكن له أصل من شرف  
آباءه وهو مع ذلك يقول فيهم مثل هذا القول فكيف يسكنون عنه من  
هذه الناحية من خبره بعد أن طبلوا وزمرروا في تقضيهم له ، وكل  
ما قالوه في نسبة أن آباءه ويلقب بميدان كان خامل الذكر فقيراً ومها اشتاد  
الفقر لا يكون مزرياً بحسب الأحساب والأنساب ، وحمل الذكر منها استحكم  
لما يكون ميراناً لجد الآباء وشرف المنصر ، وأما ما جاء به بعض المخربين  
عنه أنه إنما افتخر بنفسه دون آباءه فلكي يسر وهذا في نسبة . فهو  
دليل لا يصح الركون اليه وإذا كان المتنبي يقول :

لابقوهمي شرفت بل شرفوا بي وبنفي خترت لا بجذودي  
فانها سنة كبار النفوس ، وهذا عامر بن الطفيلي العاري وهو من  
علم مقامه في العرب حسناً ونسباً يقول :

وما سودتي عامر عن كلاته أبي الله أن اسمه بأمي أو أبي  
إذا كانت نفس عاصم سودت عاصماً فليس معناه أن آباءه لم يكونوا  
ذوي سودد وسيادة بل هو على حد قول الفضل الاهي الماشمي  
الذى يقول :

لست وإن أحسينا كرمت يوماً على الأحساب تسلك

بني كاتب أواتلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا  
على أن أبا الطيب قد استدرك ما قد يتورط من قوله بل شرفوا بي  
بقوله بعده :

وبهم خفر كل من نطق الصاد وعود الجاني وغوث الطير  
وليس عجباً من ذي كبريه وطموح مفترط كالثني ان يقصد المعنى  
الذى أراده الشاعر :

وكم أب قد علا بين ذرئ شرف كا عات رسول الله عدنان  
إن المتنبي الكبير النفس المتجاوز حد التماطل بمثل قوله :  
قدع عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوق ولا أحد مثلي  
والذى يقول:

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق  
**محترق** في هني كشعرة في مفرق  
يأتي أن يستند في خبره إلى مجد عظامي ، وإن كان شاعراً باذخاً ،  
ويريد أن يتحقق بنفسه القاعدة المشهورة : « المرجع لا يحيده » على أن  
خمول ذكر والده وعدم مساعدته الزمان له على أن بنال مقاماً يعرف به  
لم يسلبه عبقرية صالحة جعلته يتعظ نفسه بولده بما حرمت نفسه منه من  
علم وثقافة ، فسافر به إلى الشام حيث الهواء العذري والماء الروي ، والأدب  
ناشر أعلامه ، وبحاله حافلة بالفحول من الشعراء وأعلام اللغة ، حيث  
منت الطائرين الذين انتهت إليها زعامة الشعراء ، حيث موطن المتنبي  
والنمرى والسلمى وابن زرعة الدمشقي وغيرهم ، « حيث رزقت الشام  
ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقان ، وهم بقية العرب والشغوفون  
بالأدب ، والمشهورون بالجند والكرم ، والجمع بين البيت والقلم » ، حيث  
ملتق أئمة اللغة ونحاراتها وغول العربية وأساطيتها أمثال ابن  
خلویه والفارسي .

ويقول الشعالي : « سافر به أبوه إلى الشام فلم يزل ينطلق من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه في المكاتب ويرددنه في القبائل ومخايله نوعان بالحسنى ، ضوامن النجح فيه حتى توعّد وشعر وبرع » .

## المتنبي بعد موته أبيه

ما زال هو الطموح يمتص في صدر أبي الطيب ويتفقد وهو منصرف إلى مقاومة المواتق ، فمكف على التحصيل ، وكان كثيراً ما يعنى الوراقين يتزبد من دفاترهم علماً ، ويجهد نفسه في المطاعمة واستظهار ما يروقه . وهو من جودة الحافظة وحضور الذهن في منزلة لا أدل عليها مما رواه بعض الوراقين ، وكان هذا في أول صباح من أنه حفظ كتاباً للاصمي يدخل في ثلاثة ورقة بنظره في نظرة واحدة ، فروى أيام العرب وتعق في درس اللغة فنفس شواردها وتأنس أوابدها حتى بلغ من ذلك النهاية ، وحسبك شهادة أبي علي الفارسي له لما سأله عن الجموع بوزان فعل وأجابه أبو الطيب بلا توقف أنها جمل وظيربي . يقول الفارسي إنه قضى ثلاث ليالٍ يراجع كتب اللغة فلم يجد لها ثالثاً .

## دعوه إلى نفسه وبرأه

أبو الطيب عربي خالص العروبة ، نفتحت عيناه على عز العرب وما هم فيه من دولة ورأى ذوي المواهب يتسابقون فيها إلى امتلاك زمام الامر والنهي ، هذا بهته وجهوده وذاته بعصبته وقومه ، وذلك بعلمه وثقافته ظليس غريباً أن زداد روح الطموح فيه نشاطاً وهو يرى أنه أعلى منهم ثقافة وأكبر همة وأعز نفساً ، فكيف لا يدفع هم استعلاتهم عليه بكل طريق بحسب القدرة من نفسه عليه .

وكأنه رأى أن أعلى مقام للسلطان هو الخلافة ، وهي فوق مقدوره لاحتها إلى يعنة شاملة أو ولادة عهد مؤيدة ولكنها فرع النبوة وعلى النبوة قامت دعائهما ، والنبوة تنتدي بالدعائية الفردية ثم تنتشر في كثير حولها إلا إنصار فتشتد فيعلو أمرها . رأى ذلك وعنته من قوة الجنان وسحر البيان وفصاحة الإنسان ما يخلب به أبواب الاعراب وكانت قد فشت في ذلك العصر بداعي المتربيين ودعوات الخالق عليها قتل ابن الشفافي والخراج وغيرهم وفشت دعوى القراءة المبنية على مثل هذا الاساس .

فتخيل أن الزمان يؤتى به حيث كانت الملائكة فوضى بعد أن ضفت الخلافة في بغداد وأصبح كل أمير مستقلاً بعمله ، في البصرة ابن رائق وفي خوزستان البريدي ، وفي فارس عماد الدولة بن بويه ، وفي الري وأصفهان والجبل ركن الدولة بن بويه وأبن زياد يتنازعان عليها ، وفي الموصل وديار بكر وريعة ومضر بنو حمدان ، وفي مصر والشام الاخشيديون ، وفي المغرب وإفريقية الفاطميون ، وفي الاندلس عبد الرحمن الناصر الأموي ، وفي بلاد البحرين واليامنة القراءة .

تخيل هذا وهو من طموحه في غرور متتجاوز الحد ، خاول دعوى النبوة أو انه أظهرها على اختلاف أمهات الروايات في ذلك ، وقد رأبت أن ألم بها لاستجليلي ما يتراءى لي من تحقيق فيها .

قال علي بن المحسن التنوخي عن أبيه عن أبي الحسن بن أم شبان الهاشمي الكوفي : « كان المتنبي ॥ خرج إلى كل وآقام فيه ادعى أنه علوى ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ثم عاد يدعي أنه علوى إلى أن أنه علوى ، عليه بالشام بالكذب في الدعويين ، وحبس دهرًا طويلاً وأشار على القتل ، ثم استتب وأطلق<sup>(١)</sup> وهذه الرواية تصلح بادعائه الملوية ، وأن جسمه كان طويلاً ، لاق في المذاقب وأشار على القتل ولكنها لا تقول بأنه اجمع

عليه أحد وبنو كلب بأرض نخلة وهي بلدة في بعلبك على ثلاثة أميال منها ، ولعلها تحلة بالخاء المهملة ، المعروفة اليوم في بعلبك وبدل على إقامته في هذه القرية قوله :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كقمام المسيح بين اليهود  
قال العكيري في شرح هذا البيت : دار نخلة على ثلاثة أميال من بعلبك وهي قرية لبني كلب .

وروى التنوخي عن أبي علي بن أبي حامد قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون - وأبو الطيب المتنبي بها إذ ذاك - أنه تنبأ ببادية الراوة ونواحجاً إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حصن من قبل الاخشيدية فقاتله وأغاره وشرد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاط وغيرهما من قبائل العرب وجسه في السجن جسماً طويلاً فاعتلى وكان قد قتل حتى سئل في أمره فاستتابه . ثم قال : وكان قد قاتل على البوادي كلاماً ذكر أنه قرآن متزل<sup>(١)</sup> .

وهذه الرواية تقول إنها سمعت بحلب وجاء بها بلفظ ( ويحكون ) وإنها حككت وأبو الطيب في حلب إذ ذاك أي في زمن سيف الدولة وبعد نيف وعشرين عاماً من خروجه وهي لا تتعرض لدعوى الملوية ، بل تقول إنه أظهر النبوة وتبعه حلق من قبائل شقي اجتمعوا عليه وإن الذي خرج إليه وجسه واستتابه هو لؤلؤ الاخشيدى .

وقال تعالى « وقد بلغ من كبر نفسه وبعد همة ، أن دعا إلى يعنه قوماً من رائبي نبله على الخدامة من سن وغضاظة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته ، تأدى خبره إلى والي البلدة ، ورفع إليه ما هم به من الخروج فأمر وجسه وتقيده<sup>(٢)</sup> » .

وبحكي أنه تنبأ في صباه وفتن شرذمة بقوة أدبه وحسن كلامه ، وبحكي أبو الفتح عثمان بن جني قال : سمعت أبا الطيب يقول إنما ثقت بالمتني لقولي :

أنا ترب الندى ورب الفوافي وسهام العدى وغيظ الحسود  
أنا في أمة تدار كما الله غريب ك صالح في نمود<sup>(١)</sup>  
وروايتا الشعالي هاتان تدل أولاهما على أنه دعا إلى يعنه ولم تصرح  
بان البيعة كانت للنبي أو الولابة . وعلى أنه قبل أن تم دعوه جسده  
الواли وأنه كان هم بالخروج أي أنه هم ولم يفعل ، فهو اذا على هذا  
لم يخرج فعلاً .

وجاء الشعالي في الثانية بلفظ ( ويحكى ) مما يدل على توهين أمرها وزاد في المتهين تعقيبه لها بما رواه ابن جني عن المتنبي نفسه في سبب تلقيه بالمتنبي وفوق ما رواه ابن جني توصل أبا الطيب من دعوى النبي والقرآن المزعوم ، فقد روى التنوخي عن أبيه أن المتنبي كان إذا شغب في مجلس سيف الدولة ونحن إذ ذاك بحلب نذكر له هذا القرآن وأمثاله مما يحكى عنه فيذكره ويتجده ويقول أنا لست أرضي أن أدعى بهذا ( أي بالمتنبي ) وإنما يدعوني به من يريد الفض مني .

فالتفق عليه إذاً من هذه الأحاديث أنه حاول الخروج على السلطان وانه جبس في ذلك جسماً طويلاً حتى كاد ينلف وانه استتب واطلق ، وهذه حبس في ذلك حسماً طويلاً حتى كاد ينلف والخطيب البغدادي وهذه الروايات إنما هي عن أقرب المؤرخين إليه عصراً فالخطيب البغدادي ولد سنة ٣٩٢ والشعالي ولد في حياة المتنبي سنة ٤٥٠ والظاهر أن اعتقاد من تأخر عنها في حديث المتنبي كان عليها ، ويظهر من التدقيق في نص هذه الروايات القول بأنه هم بالخروج وانه خرج في طلب إمارة هو أقرب

إلى الصواب من أنه تبأ واجتمع عليه جماعة من قبائل شق ومن أنه أظهر فرآنا لأن الرواية التي تقول هذا لم تخل من كاتات تحفظ مثل أستادها إلى الحكاية ومثل أن الرواية كانت بحلب وأبو الطيب إذ ذاك بها بخلاف الرواية الأولى التي أرسلت كأنها حقيقة ، وأفت تعلم أن أبي الطيب في حلب زمن سيف الدولة كان يستغث من كيد حساده وقوة باسمه وشذتهم في الفض منه والخط من شأنه فيقول له :

أزل حسد الحساد عني بكبئهم فافت الذي صيرتهم لي حسدا  
أولئك الذين أخرجوه من حلب مغاضباً سيف الدولة لأنه لم ينتصر له منهم على شدة حبه له وحنينه إليه بعد فراقه ، ويمحى عن بعضهم أنه مات حسداً لأبي الطيب وحنقاً منه .

وفي الصبح المتنبي رواية أخرى غير ما قدم وهي أن المتنبي خرج بأرض سلبية من أعمال حص فيبني عدي وان الذي قبض عليه هو ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها كوتكيين وانه أمر النجار أن يجعل في رجليه قرمتين من خشب الصفصاف وان المتنبي قال في ذلك :

زعم المقيم بكوتكيين بأنه من آل هاشم بن عبد مناف  
مذهرت في أبياتهم متباً صارت قيودهم من الصفصاف

وانه كتب إلى الوالي من السجن يستعطفه بقوله :  
ان يكن قبل أن رأيتكم أخطأ ت فاني على يديك أتوب  
عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب  
وظاهر هذه الرواية أن الذي قبض عليه وحبسه ثم تاب على يديه هو ابن علي الهاشمي ، وان خروجه كان بأرض سلبية فيبني عدي .

### رافع عن نفسه وهو في السجن

هذه هي الروايات المختلفة في ما رمى به المتنبي ، فلنرجع في التحقيق إلى ما يقوله هو في دفاعه هذه التهمة ونستخرج من قصيده التي أرسلها

من سجنه إلى الوالي ( لائحة الدفاعية ) التي يستحق عليها اجازة كلية ( ايسانس ) فهو يقول :

وقيل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعود  
فما لك قبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشهود  
فلا تستمعن من الكاشحين ولا أعيان يحك اليهود  
وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأ ويعبد  
تعجل في وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود  
وفي جود كفيك ماجدت لي بنفي ولو كنت أشق نعوذ  
ان أبي الطيب قلب الدفاع في أدبته هذه على وجوه :

الاول : أن يقابل الدعوى بإنكارها من أساسها بقوله لما لك قبل زور الكلام .

الثاني : أن يرد شهادة الشهود بجرحه لهم لأنهم سقطة سقطة ذهبية  
محك كحك اليهود بقوله : وقدر الشهادة قدر الشهود . و قوله : ولا تستمعن من الكاشحين .

الثالث : على فرض قبول شهادتهم وعدم قبول هذا الجرح فإن شهادتهم جاءت على أنني أردت لا على أنني فعلت ، والحد والعقاب لا يحياناً على معتقد الجرم ما لم يفعله فإذا هو فعله استحق العقاب على الفعل ، وأنا لم أفعل فلا عقاب علي . وذلك في قوله : وكن فارقاً بين دعوى أردت .

الرابع : وعلى فرض رد ذلك كله ، فإنما تجب الحدود على البائع وأنا صي لم أبلغ الحلم ولم تجب علي الصلاة ، فكيف يحكم على بالعقوبة والعقاب فرع التكليف ، وأنا لم أكلف فلا عقاب علي . وفي ذلك يقول تعجل في وجوب الحدود .

الخامس : وعلى فرض الاعراض عن كل ما جئت به من وجوه الدفاع فاتي أطلب المغفرة والصفح وهذا آخر ما يطالب الحكم على قوله وفي جود كفيك ما جدت لي .

ويظهر من هذا أن التهمة وجهت إليه وهو دون سن البلوغ أي دون سن الخامسة عشرة من عمره ، وهي السن التي يقع فيها التكليف ، أو كان حوالها على فرض المبالغة ، وفي تفنته في وجوه الدفاع بل في إنكاره التهمة من أساسها ما يدل على أنه ما ادعى عليه به من التنبؤ لم يكن على حد التواتر ، ولو انتشرت دعوته واجتمع عليه جماعة من قبائل مشتى وكانت لأجلها متوازرة ، وكان مثل هذا الدفاع ومثل هذا الإنكار مكابرة ونهاحة وهراء من القول فكيف يتمنى لأبي الطيب حينئذ أن ينكرها من أساسها بل كيف يتمنى مثل أبي العلاء المعربي وهو أقرب الناس إلى زمانه وأكثرهم معرفة به واعجاباً أن يشكك فيها !

### من الذي سجن

قال ياقوت « ولم يزل (المتنبي) بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال حتى الصل بـأبي العشائر (ابن حمدان) ومدحه وعرف منزله وكان والي الطاكية من قبل سيف الدولة ، ولما قدم سيف الدولة أنطاكية قدم المتنبي إليه وأثنى عليه عنده ، وعرفه منزلته من الشعر والأدب » وسيف الدولة ملك حلب سنة ٣٣٣ وعرفه سيف الدولة منذ قدمه أبو العشائر كما هو ظاهر قول ياقوت سنة ٣٣٧ ف تكون المدة بين خروجه من السجن واتصاله بسيف الدولة حوالي سبعة عشر عاماً .

وما زال أبو الطيب في ضنك عيش وسوء حال بعد خروجه من السجن يدفع به الفقر بطرق أبواب الامراء والولاة ، فلا يجدون لهم إلا خبيث العيش ولم ترفعه صلاتهم إلى أن يستبدل بنعليه مركوباً ولا برجلين راحلة فيقول يومئذ :

|                          |                          |
|--------------------------|--------------------------|
| لا ناقتي تقبل الرديف ولا | بالسوط يوم الرهان أحدهما |
| شراكها كورها ومشفرها     | زمامها والشوع مقودها     |

ويقول :

|                        |                        |
|------------------------|------------------------|
| ومهمه جبته على قدسي    | تمجز عنه العرامن الذلل |
| في سمعة الحافظين مضطرب | وفي بلاد عن أخيها بدل  |

في الكلام في أيام الوالي الذي قبض عليه وسجنه ثم استتابه وفي هذه القصيدة من صفات الوالي ما يدل عليه ، وقد سمعت مما تقدم أنه أحد الرجلين : لؤلؤ الاخشيد أو ابن علي الهاشمي . يقول أبو الطيب :

|                           |                         |
|---------------------------|-------------------------|
| فن كالأمير ابن بنت الأمير | أم من كآبائه والجدود    |
| رمي حلب بتواحي الخيل      | وسمير رقن دمأ في الصعيد |
| فولى بأشياعه الخرشنى      | كشاء أحمس بزار الأسود   |

فالوالي إذاً هو أمير ابن بنت أمير له آباء وجدد يفتخر بهم ، وليس لؤلؤ مثل هذه الصفات لا حقيقة ولا ادعاء فكونه ابن علي الهاشمي أقرب إلى التحقيق . ويدل قوله : رمي حلب بتواحي الخيل انه قاد الجيوش إلى حلب ، ولم تكن يومئذ حرب بين حلب وحمص ، فهو إذاً قد

و يقول في قصيدة الديناربة :

أظمتي الديبا فلما جئتها مستمطرًا مطرت على مصائبها  
وحُبِيت من خوس الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشي راكبا  
فكان من جلة مصائبه أن يفرغ إلى علي بن منصور الحاجب من  
جور زمامه ويندفع به مثل هذه القصيدة الغراء فيجزئه عليها ديناراً واحداً  
وكأنه أراد أن يعن عليه بهذا الدينار ليشتري به بدلاً من حذائه الذي  
قطعه في المني اليه .

وبقول المتنبي في قلة الجدوى :

برقة الحال واعذرني ولا تلم  
لم الليالي التي أخذت على جدبتي  
أرى إنماً ومحضولي على غنم وذكر جود ومحضولي على الكلام  
والظاهر أن أول من اتصل به منرؤساء هو أبو عبد الله معاذ بن  
اسعيل اللاذقي فان معاذ يقول : انه جاء اليه في سنة ٣٢٠ ولا عذر  
له وله وفرة جباه . وارجح أن الصاله بمعاذ إذا صح أنه كان سنة ٣٢٠  
كان بعد خروجه من السجن ، لأنَّه لما كان في السجن بدعوى  
الخروج (ولم يعلم أنه سجن قبلها أو بعدها) كان في الخامسة عشرة أو  
حوالياً . وأما ما جاء في حديث معاذ من أنه خرق له وأغواه بضرب  
من السحر تعلمه من اليمن ، وأن معاذ رجع عن الغواية به لما علم أن  
ما جرى منه كان قد تعلمه من اليمن بعد أن سأله هل دخلت السكون؟  
فأجابه المتنبي نعم أما سمعت قوله :

أمني السكون وحضرموتانا ووالدي وكنتة والسبيعا  
 فهو ظاهر الوضع لأنَّ البيت المذكور هو من قصيدة مدح بها  
المتنبي علي بن ابراهيم التنوخي سنة ٣٢٣ على أنه لم يرو أن المتنبي دخل  
اليمن وما السكون وحضرموت وكنتة في البيت إلا أسماء محال بالكونفة  
قال ذلك شراح ديوانه .

قضى أبو الطيب ثلاث عشرة سنة بين اللادقية ومنبع وطرا بلس وطبريا  
والرملة وغيرها من البلاد لا يروي ظماء إلى المعالي ولا يبلغ آماله من  
آمال ، وكان في تلك الحال السيئة يقول :

إذا لم تجده ما يبتئر الفقر قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يتراءعرا  
ها ختان : ثروة أو مثبة لعلك أن تبقى بوحدة ذكري  
وما زالت هذه حالة حتى نعم بكرم أبي العشائر ، فاستيقظت مع الرخاء  
ونسمة العيش روح كبرياته ، ولما أراده سيف الدولة لصحبه لم يحبه  
أبو الطيب إلا على شرط أن لا ينشده قاتماً ، وأن لا يقبل الأرض بين  
يديه كما كانت سنة الشعرا مع الملاوك والأمراء يومئذ وقبل سيف الدولة  
شرطه حرصاً على الاستئثار بفرائده وقلائد الخالدة على الدهر ، وهذه  
الميرة لم يعطها سيف الدولة لأحد من كان في حضرته من الشعراء  
غير أبي الطيب ، ولما أنشده أول قصيدة مدحه بها وقال في مطلعها  
« وفاوكا كالرابع أشجاره طاسمه » اعترضه ابن خالويه وكان حاضراً  
قال لا يلي الطيب أتفقول أشجاره وإنما هو شجاه فقال أبو الطيب له  
( استك ليس هذا من عملك إنما هو اسم لا فعل )

وابن خالويه من أمم العريبة يحبه أبو الطيب بمثل هذه النطعة لاته  
انتصر عليه وهو من الاعتداد بنفسه وبعلمه بالحل الذي علمت .  
ولعل هذا التماطم من أبي الطيب على ابن خالويه كان أساساً  
للتعادي بينها الذي انتهى أمره بآن ضربه ابن خالويه بفتح من حديد  
على وجهه في حضرة سيف الدولة فأدمه .

توالت نعم سيف الدولة على أبي الطيب فاستبدل بالأسود الدارش أفراساً  
نعلها من عسجد وترك السرى وقطع القفار لمن قل ماله وأصبح يقول :  
في الشرق والغرب أقوام نجهم فللفاظ وكوتنا أبلغ الرسول  
وخبراه بأني في مكارمه أقلب الطرف بين الجبل والخول  
حال (١٥)

ولكن أبي الطيب لم يجد بعد هذا كله قيد الاحسان بقيده في ذري سيف الدولة كازعم .  
شهرة الطارئة في شعره وأثرها في طموحه وكبرياءه .  
يقول ساحب المثل السائر : « وأما المتنبي فقد شغلت به الاذسن وسهرت في أشعاره الاعين وكثر الناسخ لشعره . والذائص في بحثه والمقتبس من جانبه ودره ، وإنما شهرة أبي الطيب إنما هي وعمت منذ اصل إسيف الدولة فأكثر هذا حساده بكثرة انعامه عليه وبعا رفع من منزلة لديه .

نشطت روح الطمود في أبي الطيب بعد أن سار ذكره في الأقطار مسير الشمس وتناول شعره البدو والحضر وعمرت به أندية الأدب ، واستعان بالفاظه ومعانيه جهور الكتاب حتى من كان شديد الكره له عظيم النعمة عليه كالصاحب بن عباد .

ويقول ابن العميد وقد مات أخته : « انه ليغطياني أمر هذا المتنبي واجهادي في أن أخمد ذكره ، فقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ، ما منهم إلا وقد صدر كتابه » يقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بأمالى إلى الكذب حتى إذا لم يدع لي صدقه أملأ شرقت بالدموع حتى كاد يشرف بي فكيف السبيل إلى إخماد ذكره ، وهذا البيتان من قصيدة أخذها أبو الطيب إلى سيف الدولة في رثاء أخيه سنة ٣٥٢ وكان اتصال أبي الطيب بابن العميد سنة ٣٥٥ ولا ريب أن غيظ ابن العميد منه كان قبل أن يقدم عليه ، فلا يكون إذاً بين نظم القصيدة وانتشارها بين المتأدبين والكتاب في كل البلاد حتى استفتح بأبياتها هذا العدد الجم من أدباء الأقطار المختلفة ، إلا عام وبعض عام ، على تباعد الأقطار وصورة الأسفار .

وجاء في الصبح النبي عن بعض أئمة الأدب أن رجلاً من مدينة السلام كان كلما دخل بلداً يسمع فيه ذكر أبي الطيب يرحل عنه حتى وصل أقصى بلاد الترك فسأل عن أبي الطيب فلم يعرفوه ، فتوطئها فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ما ذكر أئمء الله الحسنى :

أساماً لم تزده معرفة وإنما لدة ذكرناها  
فرجع إلى دار السلام .

فلا عجب إذاً لرجل ملاً ذكره الاعماع وشغل الدنيا كما يقول أن ابن رشيق أن يزداد كبراً وتعاظماً ويقول أسيف الدولة :

أنتي إذا أنشدت شعراً فاعما بشعري آنماك المادحون مردداً  
ودع كل صوت غير صوتي فانتي أنا الصالح المحكي والآخر الصدا  
وما الدهر إلا من رواة قصائدك إدافتـ شعراً أصبح الدهر منشداً  
 وأن يترفع بعد هذا عن مدح غير الملوك وأعيان الزمان ، فلم  
يحب دعوة الصاحب ابن عباد مع ما يذله هذا من الجهد لاستقاداته  
إليه ، فيقول أبو الطيب فيه : « أنت غالباً معطاه بالري ، يريد  
أن أزوره وأمدحه ولا سبيل إلى ذلك » علم أنه معطاه يعني الجواز ،  
فلم يستعمله ذلك إليه لأنه استغنى ، فلم يفعل ما كان يفعله أيام بوسعه  
اغلبة عزة النفس والكبرياء عليه .

وقد أثار إعراضه هذا حفيظة الصاحب ، فاتخذه غرضاً برشهه  
بسهام الواقعة ويتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينهي عليه  
سيئاته وهو أعرف الناس بمحسنته وأكرثه حفظاً لها وتحيلاً بها  
في محاضراته ومكتباته<sup>(١)</sup> وأعرض عن الوزير الملاي وزير الدولة البوهيمية  
في بغداد حتى أغري هذا به حсадه من شعراء العراق كابن ججاج  
وابن سكرة الماشمي والخاتمي وغيرهم ، فنالوا من عرضه وباروا في جهاته

وتحاججوا وتناذروا عليه . ولما قيل له في ذلك لم يزد على قوله « فرغت من اجرائهم يقول في من هم أرفع طبقة في الشعر منهم : أرى المشاعر عنروا بذمي ومن ذا محمل الداء المصالا ومن يك ذا فم مريض يجدد صرأ به الماء الزلا لا وختني ابن العميد وزير ركن الدولة ابن بوه و Zum الخضراء والمقيم صالح الملكة في آرستان وهو على أشد ما يكون من الرغبة في إقامته واستقدامه إليه ، أن يعرض عنه كأعراض عن زميله المهمي في بغداد ، فغرى بذمه وانتقاده حتى إذا جاءه أبو الطيب مراجعاً المهمي ، ففتح له ابن العميد صدره وأجزل توايه وأحسن وفاته ، وسل ما كان في نفسه عليه من موجدة . وأنف أبو الطيب من مدح ابن حنفية وزير كافور والمقرب منه ، وهو من بيت شريف أهيل وزارة ورياسة ، ومن الأدب والعلم بوضع جليل . فأفسد هذا عليه كافوراً بما كان يطبع أثره عنده ، وبما كان بيته على مقامنة في مدحه له حتى خرج أبو الطيب من مصر خائفاً يترقب وانخذ الليل جلاً وهرب .

روح أبي الطيب في الإباء قوية ؟ ولكن طمعه في الولاية ولذة الامر والنهي والاستعلاء وافتاطه في هذا الطمع غطى على هذا الإباء في بعض المواقف ، فاستفاد واستدل ، وإلا فما معنى قوله في كافور بعد أن ترك سيف الدولة :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا  
خافت به انسان عين زمانه وخللت سوداً خلفها وما قيا

\* \* \*

فأصبح فوق العالمين يرونه وان كان يدئنه التكرم نائياً  
ويقول فيه :

وأخلق كافور إذا شئت مدحه  
فهي علاً الْفَعَالِ رأياً وحكمة  
وبادرة ايات يرضى ويغضب

يقول هذا وكثير مثله فيه وهو العبد الزنم الذي أذنه في يد النخاس  
دامية وقدره وهو بالفلسين مردود ، ويقبل منه مالم يقبله من سيف الدولة  
فيحضره لانشاد بحضوره قائماً وهو يعلم أن الفرق بين سيف الدولة وكافور  
علماء وأدباء ونسبة وشرفًا ونواباً ، كالفرق بين الدرة والبرة لا يقاس بحد ،  
وما كان كل ذلك الا طمعاً في الولاية ، وعلم طمع في خداع هذا  
الأسود بما يحسبه من ضعف العقل في السودان فازداد في علقه اذ يقول  
له ولم يفتا يذكر الولاية :

إذا لم تُنطِّ بِي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب  
يضاحك في ذا العيد كل حبيبه حذافي وابكي من أحب وأذب  
أحن إلى أهلي وأهوى لفائم واني من المشتاق عنقاء مغرب  
فإن لم يكن إلا أبو المسك أدم فاك أحلى في فؤادي وأعذب  
وليس هذا ملق كاذب أن يجعل الأسود الذي مشفره لصفه أحلى  
في فؤاده وأعذب من أهل الدين يحن اليهم هذا الحنين ويهوى  
لقيامهم كما ترى .

دمشق : توز سنة ١٩٣٦

أفراء . او صلحاً عن خصومة . او قياماً بما يلزم المرأة عياله من  
اليتامي والاقرءين . فان هذه المددات وأشباهها اما هي من قبل افأ  
الحقوق وابراء الذم والهوض بالفرض والواجب فلا تحسب من الكرم  
في شيء كما تعلمون .

والكرم نوعان إما خاص وإما عام . فالخاص ما شمل شخصاً أو أسرة  
او جماعة في حال من الاحوال . فيكون نفعه موقتاً ومنحصراً بالمحسن  
إليهم دون سواهم . والعام ما يبذل في سبيل خيري او علمي . بحيث ينفع  
قوماً بجملتهم او أمة بأسرها أمداً مديداً . وكلها مفيدة ولازم الجامدة  
الإنسانية . وان كان الثاني أدنى وأفقاً وأعم وأتم .

ولا فرق من حيث النتيجة بين ان يكون العطاء عفراً قبل العلب .  
او تلبية للسائل بعد الطلب . وان كان الاول منها أوضح دلالة . وأنسع  
برهاناً على علو كعب الكريم الجود واتساع صرؤته وزواجه عايه .  
قال الحسن رضي الله عنه :المعروف ما كان ابتداء من غير مسألة .  
فن تمطيه بعد المسألة انا يأخذ بما يبذل لك من ما ووجهه .

وكان قد دخل على أسامة بن زيد وهو مجده بنفسه فرأه يتأوه لدين  
عليه : ستين ألف درهم لا يجد له قضاء خملها عنه قبل السؤال ومضى .  
والى فضل هذا النوع من العطاء أشار زيد بن محمد المبكي مادحاً  
الوزير سليمان بن وهب :

وكم ملحف قد نال ما رام منك ويعننا من مثل ذاك التجمل  
وعودت عذونا قبل ان نسأل الغنى ولا يبذل المعروف والوجه يبذل  
وشر العطاء ما جاء بعد وعد ومطل . وتسويف . وتاجيل . ولذلك  
قيل : « خير البر عاجله » .

مدح بشار بن برد أحد الامراء فوعده بجائزة ثم مطلع زماناً ، ثم  
حججه فاعتذر له يوماً في الطريق بعد ان سمعت نفسه وقبض على شقيقة  
فرسه وأنشد :

## الكرم وتأثيره في عالم الاجتماع

دكتور سليم عنحوري

أيها السادة : لقد أطعمكم هذا المتربي منذ عامين محاضرات جمة . وخطبنا  
عديدة في الأدب واللغة وأنواعاً شتى من العلوم والفنون . ولاقى في الآن  
ان انتقل بكم في محاضراتي هذه الى موضوع أخلاقي عمراني . هو منبة  
من مزايكم . ومكرمة من مكارم أسلافكم . له عظيم تأثير في حالة  
الاجتماع الإنساني شرقاً وغرباً ، بدروأ وحضراأ . الا وهو الكرم . وفي  
يقيني انكم تجدون فيه لذة وفكاهة . وارتيحاً وعبرة . فأقول :

الأغنية يعظمون لازم أقرى على الامداد والاحسان  
فاذابا خل ذوغنى أضحى الفقير أجلّ نفعاً منه للعمران  
فعلام يكرم منعم ذو ثروة لم يجده خيراً علم الانسان  
ولام يرزى بائس ذو حرفه يشق ليفعم ذو الغى المتوازي  
سبحان ربكم كمزى في ذالورى حيفاً وظلاماً واضح البرهان  
الكرم ، والجود ، والسعادة ، والحياة ، والراحة ، والعرف ،  
والمرف ، والمرفان ، والتوازن ، والنائل ، والرفد ، والاحسان ،  
والبذل ، والجدى ، والشدى ، والمنج ، والنفح ، والسيب ، والنفل ،  
والطيب ، والصلة ، والهدية . كلمات متراوحة تدل مع بعض الفوارق على معنى  
واحد . يراد به العطاء بسلاً وأريحية . او عطفاً وشفقة . او إغاثة  
ومعونة بلا مقابل مادي . او موجب ديني او قضائي .

فالكرم إذن يقتضى هذا التحديد والتعریف لا يكون اداء لدين او  
سابق حق . ولا وفاء لزكاة او نذر . ولا جزاً لعقوبة . او ضماناً

أَظْلَتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمًا سَحَابَةً  
فَلَا غَيْرَهَا يَصْحُو فِي أَيْسٍ طَامِعٌ  
خَلَّ الْأَمْرُ وَيَذَلُّ لَهُ صَلَتُهُ .

وقد تمجدون يا سادتي لكتمة الكلمات الدالة على معنى الكرم . ولكن هذا المجب يزول مقى عرفة ان العرب من شأنهم اذا أحبوا شيئاً ، او حابوا شيئاً ، او تفاخروا وتتفاسوا في شيء اكثروا له من اسماء الذات والصفات حتى لقد يتجاوزون في بعضها المثلث : كالا، بل والأسد والخيل والخيالة ، والسيف والرمح والمرأة ، والخمرة ، وغيرها وغيرها . تلك من زينة تفرد بها هذه اللغة الشريفة فلا يضارعها بها غيرها من سائر اللغات . والكرم كما تعلمون من مميزات هذه الامة ، واسمي مفاخرها . وبه اشتهرت في كل دور من أدوارها — اي حال جاهليتها وسلامتها . وفي أطوار بذاتها وحضارتها ، وفي عهد تقدمها وتأخرها — فلا عجب اذا تكاثرت فيها اسماً وتنوعت صفاتها . وهو في عرف اهلها سجية من سجايا النفس يهز لها الجواب اهتزاز المبنى في كف الشجاع ، ففيض بهذه بما فيض احساناً على من يريد ، فيضاً تبسط له روح الحسين كأنه نسر به نفس الحسن اليه على حد قول القائل :

تعود بسط الكف حتى لو انه  
 اراد انقباضاً لم يطمه آنامله  
 يفيض سروراً كلاماً فاض سببه  
 كأنك معطيه الذي انت ناقله  
 فلو لم يكن في كفه غير روحه  
 لجاد بها فليستق الله سائله  
 وهذه السجية موهبة من موهبـة الله عز وجل يخص بها من طاب  
 عنصره . وسمت أعرافـه من عبادـه . فلا تأتي تكلاـفا ولا تطبعـا : فـان  
 البـخيل اذا ظـاهر بالـجـود حينـا من الـدـهر لـغـرض في الـنـفـس او حـيـاـ من  
 النـاس او قـطـالـ لـمـزـلة الـاجـوـاد لا يـعـطـي اـنـتـ يـعـود الى سـالـفـ حـالـه .  
 وـسـابـقـ خـيـرـه . ولـقـدـ صـدـقـ مـنـ قالـ :

كل امرٍ راجع يوماً لشبيته وان تخلق اخلاقاً الى حين

وكنى بالكرم شرفاً أنه من صفات الجمال المطلقة والكلال الاتسعي وهذه  
فيه من الامماء الحسنة . الكريم . والا كرم . والجواد . والمعطلي .  
والحسن . والواهب . والوهاب . والرازق والرزاق . وما بعد ذلك من  
حاجة لاستزيد .

أجل ! إن أمة نبغ فيها امثال هؤلاء الاجواد في الجاهلية . ومثاث  
بل الوف غيرهم في الاسلام من تضرب بمحودم الامثال . وتفيض بذلك  
ما ثرم الاندية والاودية - بلجدرة بالقول انها الخلية في مهار البذل  
والعرفان بين أمم الكون . منذ خلق قحطان حتى هذا الزمان .  
ولم يقتصر الكرم العربي على الرجال فقط فقد نبغ في نساءهم من حاكبيهم  
فيه : فسفاتة بنت حاتم كانت كأنها تقرى الضيوف وتب الالوف وتكتو  
الفقراء الشفوف ولا تبالي .  
وأم البنين بنت عبد العزير الأممية لمعنفي في كل يوم رفة وتحمل

عنيفها على فرس ونقول « لو كان البخل قيضاً ما أبنته ، ولو كان طريراً ما سلكه » .

وعلة أم المؤمنين رضي الله عنها : أرسل إليها عبد الله بن الزبير مئة وعشرين ألف درهم فقسمتها بين الناس فما امتنت وعندها منها درهم واحد . ولقد روي عنها أيضاً أنها أحسنت بسبعين ألف درهم في يوم واحد وهي في درع مرقع لا توب لها سواه .

وسكينة بنت الحسين رضي الله عنها كان يحتمل إليها مجيد وشمراء كالفرزدق وجبريل وكثير ونصيب فتسمع ما يقولون وتحكم بينهم ثم تحسن إليهم حتى أنها أعطت جيلاً العذر في يوم واحد كسوةً وطيباً وحشاشة ديتار وكل من رصافاته مئة مئة .

وزبيدة ابنة جعفر زوج الرشيد : أقيمت نصيّب ( الصغير مولى المهدى ) في طريق الحج فترجل وأنشد إياتاً منها :

سيستبشرُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ وَزَمْنُهُ بَأْمَ وَلِيُّ الْمَهْدِي زِينُ الْمَوَاسِمِ  
وَيَعْلَمُ مِنْ وَاقِ الْمَحْصُبِ أَنَّهَا سَتَحْمُلُ تَقْلِيفَ الْغَرْمِ عَنْ كُلِّ غَارِمٍ .

والعباسة بنت المهدى مدحّتها جحنا، بنت نصيّب هذا باربعة إيات آخرها :  
عليكِ ابنة المهدى عوذى ببابها فان محل الخير في حيث حللت  
فأمرت لها ثلاثة آلاف درهم وكسوة وطيب .

وأم سلة زوج السفاح سمعت كلاماً مستحسناً قاله خالد بن صفوان لزوجها فأمرت له بخمس بدر وخمس حلل .

وفي ذكر غنىًّا عملاً لم يذكر من أمثال هذه التوارد الدالة على جود ربات المجال فإن المقام مقام إلماع والمجاز لا مقام تفصيل وإيهاب .  
ولم ينته الكرم بأهله إلى هذا الشأن ، ويرتفع بصاحبه إلى الأوج  
الإسمى من الجد والسؤدد إلا لأنه المرأة الصافية التي تجل من شعاعها  
عاطفة الإنسان نحو أخيه الإنسان . ومبلي ما تكتنه الأفئدة الندية من

شواعر الرقة والرأفة والحنان . فهو كما لا تجهلون ابن الرحمة وأثرها الفاصل للعيان : فإن الأرجحية لا تبعث في النفوس ففيض على الأكف فتهلل لها الوجه بحيث تكشف ضياءً ، وتزحزح بلا ، وتدفع مصيبة ؛ إلا إذا مسست الرحمة قلوب أصحابها ، وتررت الشفقة إلى صمم شفافها . فتحدو بها إغاثة ذي المخنة بمال الذي يسمونه سيد الأرض ، وعديل الروح وفاضي الحاجات - وما إطلاقة من الأيدي بالهين السهل - لو لا ذلك الشعور الفاعل بالإعصاب الحساسة فعل الكهرباء الا وهو الرحمة الباعثة على المكارم . ولقد جاء في الحديث النبوى الكريم : « ارحموا من في الأرض بحكم من في السماء » فالمراد من الرحمة هنا ليس التوجع والتفسح لمصاب الناس خسب ، بل يراد بها مع ذلك ظهور آثارها بالملونة والإغاثة والأمداد مالاً وجهاً وعملاً على قدر الوسع والطاقة بلا من . ولا إذاعة ولا استعلاء لأن الرحمة غير المقونة بالاحسان والاسراف لا نفع لها ولا جدوى ما دامت مقصورة على النأوه والتلثم فقط ولا تتعدا إلى الإغاثة والمساعدة التي هي أنس المعران ودعامة الحياة وركن الاجتماع .

يظن بعض الناس أن التعاون إنما يراد به أن يكون أحدنا مثلاً نساجاً والأخر حرائناً والأخر تجارةً . فيتبادل كل من حاجته من الآخرين بالشراء بحيث تستغني الأفراد عن تعدد الاعمال التي تتضمنها الحياة ؟ وهو ما يقال له ( توزيع الاعمال ) وتبادل المنافع . وعليه تجري جميع أمم الأرض ، وبه تقوم الحضارة ، ويصلح شأن الجماعات في كل عصر ومصر .

أجل إن ما وصفناه هنا إنما هو ضرب من ضروب التعاون الذي هو نتيجة ضرورية وطبيعية لحياة الجموع . وليس هو التعاون كله : فإن له ضروباً أخرى منها ما كان صادراً عن عاطفة الرحمة : فإن الحياة الدنيا كثيرة المعاشر والصدقات والحوائح والأمراض . فإذا لم يكن كل فرد عوناً لصاحبه أو لم يحوله من بيته نوعه حال عثاره . ومحنه سقط

المجموع لخاذاً الأفراد وأآل أمره إلى التمس والشقاء المؤديين إلى الصنف والبوار والانقراض وهيئات يتوفّر لأمة حظ أو يستقيم لها شأن إلا بهذا القرب من التفاوت المجناني "الطوعي" الذي تسميه هنا كرمًا وإحساناً وعاطفة ورحمة بل بقدر ما يزداد عداد الرحمة الكرماء الحسينين في قوم زادت جياثهم بسطة ومنعة ومعيشتهم راحة ودعة . وظهر في أفراد مجموعهم من آثار القوة والنعمـة ما ينبلجـهم الغبطة والسعادة والنعيم والهناء والعكس بالعكس . ولكن قل من يتذكرون .

لقد مرّ بكم يا سادتي عن الكرم وامتعاته ومعاناته وحدوده ومتراوته وأنواعه وتأثيره في المجتمع الانساني ما يحتمله المقام . ولقد رأيت قبل ان أفالج تقسيمه الى اقسام تحيّز فيها منافعه من مضاره ان أروي لكم لما من مكارم الأجواد من السلف مما فيه فكاهة وعبرة وذكرى .

فمن هؤلاء ( حاتم الطائي ) الذي مرّ بكم ذكره وهو أشهر أجواد العرب ذكرًا وأبعدم صيتاً . واليه ينسب الكرم في الجاهلية . فيقال ( كرم حاتمي ) كما ينسب في الاسلام الى البرامكة وزرارة الرشيد فيقال ( كرم برمهي ) .

وكان حاتم هذا مع جوده شاعرًا مطبوعاً وبطلاً مغواراً وغازيًا مظفراً اذا قاتل خلباً ، اذا غنم أنبهباً ، اذا مثُل وهب ، اذا ضرب بالقداح فاز ، اذا ساق سبق ، اذا أسر اطلق .

واما تحقق به على اقرانه حتى كات سبباً لشهرته وإذاعة صيته انه كان يرسل عبيده في ليالي الشتاء الباردة المظلمة فيضرمون النار على رؤوس النجاد ، وفي مفارق الطريق ، ليهتدى بها أبناء السبيل ، فيقصدونه للقبرى والمليت ، فإذا جلبت النار ولو ضيقاً واحداً عنق موقدها من الرق سروراً بضيقه وفي ذلك يقول خاطلباً عبيده :

ا وقد فان الليل ليل قرة عسى يرى نارك من يعر  
ان جلبت ضيفاً فأنت حر

وكان اذا أهل شهر الاصم الذي تعقله العرب في الجاهلية نحر كل يوم عشرًا من الابل . فيطعم الناس . فلما زاد إتقانه المال وهو لا يزال في حجر أولياته ارسله ابوه وقيل جده الى المراقي ليبعده عن الناس . ففر به هناك ثلاثة من الشعراء وهم عبيد بن الابرس وبشر بن أبي حازم ونابة بن ذيابات ؟ ففرق بينهم ما لا يحله من الابل وقتل الى الحي مسروراً كمن عاد من ظفر او غنيمة . ولما سأله جده سعد عن الابل قال له « طوق فنك بها طوق الحامة مجدًا وكرماً » فقال مفتاخاً ( شهد الله اتي لا أساكنك بعد اليوم ابداً ) ثم ترك له جارية وفرساً ذات فلو ورحل عنه . وفي ذلك يقول حاتم من ايات :

وما ضرّني ان سار سعد باهله وافردي بالدار ليس معي اهلي  
سيكفي ابتناء الحجد سعد بن حشرج واحمل عنكم كل ما ضاع من قلبي  
فما عتم ان جاءه جماعة من بني اسد وقيس . وقلوا له : ان لنا  
صاحبًا فقد راحلته فقال حاتم خذوا فرسبي هذه واجلوه عليها . فلما  
أخذوها تبعها المهر بحثت الجارية وراءه لتمسكه وتمده فصاح حاتم بالقوم  
« ما تبعكم فهو لكم » فذهبوا بالجبيح اي بالغرس والمهر والجارية . وفي  
وحده لا يملك شيئاً .

ومر في احد الاشهر الحرم بقوم من بني عترة واذا باسبر لهم يدعوه باسمه ويقول له : انقدني فقد اكلني الاسار . فقال له : وبمحك ما الصفيتى فقد نوحت بي واستجديتني وانا هنا غريب ولا مال لي . ثم ساوم القوم وافتداه منهم على مال معلوم . وقال لهم : خلثوا سبيلاً ، وانا اقيم مكانه في قيده حتى أعطي الفداء ففعلوا وما برح اسير القوم يقاسي الذل والامتنان حتى تيسر له الوفاة .

وقيل نزل عليه ضيف ولم يكن عنده شيء فنحر ثقة الضيف واطعمه منها . ثم قال له وقد نحرت ناقتك فاحتكم قال ( راحلتين ) قال حاتم لك عشرون أرضيت قال نعم قال فلك اربعون . ثم قال لمن لديه من قوته من

أناي يناثة الآن هل ناقن بمد الغارة فانوه باربعين فدفعها لاضيف .  
وأدّها لهم ثمانين .

وكان قيس بن عاصي المنقري من سادات العرب وأجوادهم فنزل به ذات يوم ضيف فأطعمه واكرمه جرياً على عادته . وإذا بقومه يتشاركون ونسائهم يبكين . فسأل ما الخبر ؟ فقالوا له إن ابنته قتلت . وإن القاتل هو الضيف . فقال ما لكم إليه من سبيل ، فقد دخل في ذمami وتحرم بطعامي ، ثم عزل من ماله دية القتيل ودفعها إلى أمه ، وما زال يرعى ضيفه ويتناحرسه حتى بلغ حماه .

وكان قيس هذا إذا قدموا له طعاماً يقول التمسوا أكيلاء اي خيفاً يا كل معي قلم يا كل مرة وحده .

وسراً تافس العرب بأبواء الضيف وإطعامه كائناً من كان إنما هو كونهم أهل مقارب وخيام واصحاب إبل وشاة . يدفعهم الاحتفاظ بها والقيام على تربيتها واعاتها إلى انتجاع منابت الكلاء وارتياض مناهيل الماء فهم أبداً متقطلون من مرتع إلى مربع ، ومن سهل إلى واد ، لا يستقر بهم مكان ، ولا يقوم لهم بنيان . فلا يجد المسافرون منهم في طول تلك البوادي وعرضها نزلاً أو خاناً أو دسكرة للمبيت أو الطعام كما يوجد في المدن والعواصم على النحو المعروف منا الآن . فيلجاؤن بمحكم الضرورة إلى استفادة بعضهم بعضاً التماساً للراحة والنوم والقوت ، وتخلصاً من وحشة الاقرداد في حنادس الليل ، ووقايةً لنفسهم مما قد يفاجئها في تلك القلوات الخالية من عدوٍ قادر ، او اسد كاسر ، او وحش جائع نافر .

فنـ كان من سادتهم وائزفهم كريم النفس ، واسع النعمـة ، طلاباً للشهرة رفع عماد سرادقه ، وتوسط به الحـي تـميزـاً له عن سواه ليقصدـه المسافرون فيـذلـ طعامـه للـصـادرـين والـوارـديـن والـراـئـحـين والـغـادـين ، ولو كـابـدـ في ذلك عـرقـ الفـيرـة وـمنـتهـيـ المشـقةـ .

ولقد شاعت هذه المـكرـمةـ فيـهمـ ، وـعـكـستـ منـ خـاصـتهمـ وـعـامـتهمـ . حقـ

"عد" الا ضرب عنها والزهد فيها عاراً وسبـةـ تـشمـ فيهاـ الـابـانـ عنـ الـآيـاءـ ، وـتنـمـ الـاحـفـادـ عنـ الـأـجـدـادـ ، وـلـقـدـ يـطـرقـ الضـيفـ اـرـملـةـ عـجـورـاـ وـحـيدـةـ لاـ مـالـ لهاـ الاـ شـاءـ اوـ عـنـ تـقـنـاتـ بـدرـهاـ وـتـكـنـيـ بصـوفـهاـ اوـ شـعرـهاـ فـتـذـبـحـهاـ اـكـرـاماـ لـضـيفـهاـ وـهيـ طـلـقـةـ الـوـجـهـ مـبـذـلـةـ الـأـلـسـ ثمـ تـبـقـ الىـ ماـشـاءـ اللهـ أـلـيـفةـ الـفـقـرـ حـلـيقـةـ الـبـؤـسـ فـيـ حـسـبـ عـمـلـهاـ هـذـاـ مـاـثـرـةـ لهاـ يـتـحدـثـ بهاـ فـتـبـاـنـهـمـ ، وـيـتـنـاقـلـهـمـ رـكـبـاـنـهـمـ اـلـىـ اـمـدـ مـدـيدـ .

ولاـ زـالـ ذلكـ شـأنـ الـبـدـوـ وـبعـضـ اـهـلـ الـمـدـرـ حـتـىـ يومـناـ هـذـاـ : فـكـ وـكـمـ فيـ بـلـادـنـاـ هـذـهـ منـ شـيوـخـ عـشـيرـةـ اوـ قـرـيـةـ لـأـطـافـاـ اـبـداـ نـارـمـ وـلـاـ تـنـزـلـ قـدـورـهـمـ يـبـسـطـوـنـ كـلـ يـوـمـ عـشـرـاتـ منـ الـاسـمـاطـ لـلـذـاهـبـيـنـ وـالـآـيـيـنـ وـيـنـذـلـوـنـ الـعـلـفـ وـالـمـاـءـ نـحـيـوـلـ الـمـقـيـعـيـنـ وـالـرـاحـلـيـنـ لـاـ يـلـتـمـسـونـ عـنـ ذـلـكـ بـدـلـاـ وـلـاـ يـبـتـغـوـنـ اـجـرـاـ ، الاـ طـيـبـ الـأـحـدـوـثـةـ وـبـيـاهـةـ الـذـكـرـ . وـنـايـةـ مـاـ يـتـطـالـوـنـ

اـلـيـهـ مـنـ دـوـاعـيـ الـفـخـرـ انـ يـنـزـلـ بـهـمـ ضـيفـ خـطـيرـ فـيـنـجـرـوـنـ لـهـ كـبـشاـ ، وـيـطـبـخـوـنـ اـرـزاـ ، وـيـجـمـعـوـنـ اـهـلـ الـحـيـ اوـ الـقـرـيـةـ عـلـىـ جـفـانـهـمـ فـيـأـكـلـوـنـ هـنـيـاـ مـرـيـشاـ ، وـيـنـقـلـيـوـنـ حـامـدـيـنـ شـاكـرـيـنـ .

وـاـذـ اـسـتـقـرـأـنـاـ يـاـ سـادـةـ مـاـ مـرـ بـكـ مـنـ اـخـبـارـ الـكـرـمـ الـجـاهـلـيـ نـجـدهـ

مـنـحـصـرـ فـيـ اـرـبـعـةـ اـنـوـاعـ : وـهـيـ بـذـلـ الـدـيـاتـ عـنـ مـتـحـارـبـيـ الـقـبـائلـ وـالـمـشـارـ

كـاـ كـانـ يـفـعـلـ هـرـمـ بـنـ سـنـانـ ، وـاستـجـيـاهـ الـمـوـؤـودـاتـ مـنـ الـبـنـاتـ باـفـدـاـنـ

مـنـ آـبـاهـمـ بـالـمـالـ كـلـلـأـتـورـ عـنـ صـعـصـعـةـ بـنـ نـاجـيـةـ جـدـ الفـرـزـدقـ . وـافتـدـاـ

الـاـسـرـىـ بـالـمـالـ اوـ بـالـنـفـسـ كـاـ فـعـلـ حـاتـمـ بـاـسـيرـ بـنـ عـزـةـ . وـقـرـىـ الـضـيـوفـ

وـابـوـاءـ اـبـنـاءـ السـبـيلـ كـاـ هوـ شـائـعـ عـنـدـ الجـمـيعـ .

وـهـذـهـ الـأـنـوـاعـ الـأـرـبـعـةـ مـنـبـعـتـهـ بـالـضـرـورـةـ عـنـ الـحـاجـةـ فـيـ وـالـحـالـةـ هـذـهـ

مـتـلـاـئـةـ مـعـ عـادـاتـ وـمـعـاـيـشـ الـوـسـطـ النـاشـيـةـ فـيـهـ . موـافـقـةـ كـلـ الـمـوـافـقـةـ لـأـقـوـامـ

رـاحـلـيـنـ ذـوـيـ غـزـوـاتـ لـاـ تـنـقـطـ ، وـأـسـفـارـ لـاـ تـهـدـأـ ، وـعـدـاـوـاتـ لـاـ تـزـولـ .

وـفـيـ ذـلـكـ بـرـهـانـ عـلـىـ اـنـ أـوـلـئـكـ الـبـدـوـ أـقـدـرـ مـنـ كـثـيرـيـنـ مـنـ عـلـىـ إـزـالـ

سـخـاـنـهـمـ موـاضـعـهـ . بـخـلـافـ مـاـ فـعـلـ حـاتـمـ مـنـ تـوزـيعـ مـلـ جـدـةـ بـمـنـهـ بـيـنـ

ثلاثة من الشعراً سرفاً وتبذيراً . واعطائهم ضيفه بدل الناقة التي نحرها لاطعامه اربعين ثم أداء الأربعين الى قومه نعازين بينما هو فقير وفقر لا يملك من حطام الا ما يؤمل اغتنامه من سلب ونهب عن طريق النزو والحرب فان في ذلك من سمه الرأي ما لا يصدر عن عاقلٍ مفكر بصير .  
يد ان ظهور الاسلام وانفسوا متفرقى القبائل وشدّاذ القوم كافية تحت لوائه بعد ان كانت اطحنتم الا حقد والضغائن ، وتماكلهم الحروب والغارات . ثم دخولهم عن طريق الجهاد والفتح في بلاد الفرس والروم وما وراءها من شواس البلاط وأطراف الملك وانتقال الخلافة من الحجاز الى الشام على العهد الاموي ثم الى العراق على العهد العباسي . كل ذلك قد وسع نطاق الكرم العربي وحوّله الى جهات اخر . فتفن فيه اجواد ذلك العصر الذي تفتناً ينطبق على حضارتهم المكتسبة وثروريهم المقتنة ، ورقيمهم الناشيء حتى سار امير كمن بن زائدة الشيباني — وهو من سائع المنصور ورجاله — يركب في قسيمه نصالاً من الذهب فيرمي بها العدو والصيد وفي ذلك يقول الشاعر :

يركب في القسي نصال تبرٍ ويرمي للعدى كرماً وجوداً  
فللسرى شفاء من جراحٍ وأكفانٌ لمن سكن اللحدودا

ومن هذا رجل عصاميٌ ، نشأ في بني شيبان وكان أدلٌ يدٌ على الخليفة المنصور بن أبيه من هملة فرفع شأنه ، وأنسني مقامه ، حتى سار اميرًا ممده حباً بشار اليه بالبيان . وتدشن شهر بالحمل كاشتهر بالكرم حق قيل انه لم يغصب ، ولم يغتصب قط .

ولما شاع عنه هذا الخلق وتدوالته الالسن تراهن احد شعراً ، الاعراب مع قوم على مئة بغير يعطاه اذا استطاع احرابه وإخراجه عن حله ويمطئه مثلما اذا اخفق . ففاجأه يوماً وهو على سريره بين اشراف قومه وخاصة اهله . وابتدره بلا تحية ولا سلام بقوله :  
أنذكرا إذ خافت جلد شاةٍ وإذ نعلاك من جلد البعير

فيهت الحضور من قحة الرجل وسوء ادبه وعمده الخط من كرامة الامير . اما معن ففي مخافطاً على سكينته وأجاته بلا حسنة ولا استئصالاً : ثم اذكر ذلك ولا انساه . فقال الشاعر :

( فسبحان الذي أعطاك ملكاً ) وعلمك الحلوس على السرير )

فقال معن : سبحانه على كل حال . فقال الشاعر :

( اميرٌ يأكل الفالوذ سرماً ) ويطعم ضيفه خبر الشعير )

فقال معن : الزاد زادنا . فأكل منه ما نشاء . ونظم ما نشاء .  
قال الشاعر :

( فلست مسأتك ان عشت دهرآ ) على معن بتسليم الامير )

فقال معن : السلام سنة تأتي بها كيف شئت . فقال الشاعر :

( سأرحل عن بلاد انت فيها ولو جار الزمان على الفقير )

فقال معن : انجاورتنا هرحبآ بك ، وان رحلت فصحوب بالسلامة  
قال الشاعر :

( بجدلي يا ابن فاعلة بشيٌ فاني قد عزمت على المسير )

فقال معن : أعطوه الف درهم . فقال الشاعر :

( قليلٌ ما أتيت به وإنني لأطعم منك بمال الكثير )

فقال معن : أعطوه الفاً أخرى . فنقدم الشاعر الى سرير معن وقد يش من إغضابه فقبل يده وقال :

( سألت الله ان يبيقيك ذخرآ ) فلما في البرية من نظير )

فقال معن : أعطيناه على هجونا الفين فأعطيوه على مدحنا اربعة آلاف .  
ولما عرف منه قصة الرهان الباءة له على هذا التهجم أعطاه ايضاً منه  
بعير مكان التي خسرها بالرهان . ومهما أخرى بدل التي كان يتوقع ربحها .  
واحاديث معن في الكرم اكثر من ان تمحى . وما قبل فيه رثاء  
له بعد موته :

٢٤٣

باقياً واعطينا مالاً زائلاً . وان ذلك لمن اكبر هي . ثم يم بث الى علي . وكان صريضاً لا يقوى على مفارقة بيته باسم دينار وما زال يبره ويواصل إحسانه اليه حتى مات .

ومن عجيب امر ابي دلف هذا انه مع فرط سخائه بالمال كان يخاف بالطعام حتى اشتهر عنه ذلك فقيل فيه :

(أبو دلف يجود بالفاف ويضرب بالحسام على الرغيف)

(أبو دلف لمطبخه قنطرة ولكن دونه ضرب السيف)

ومن أغرب نوادره في الصيلات انه لكثره جوده قد ركبته الديون حتى لزم داره واشتهر عنه ذلك فدخل عليه بعض الشعراه وأنشد :

(أبا رب المنايا والمعطاء يا طلاق الحبسا والبدن)

(لقد خبترت ان عليك دينا فرد في رقم دينك واقتضي ديني)

فقضى دينه ووصله . وأبو دلف كان مع كرمه الذي تجاوز حد الاسراف وحمله الذي لم يتقدمه ولم يتاخر عنه من يفاهيه فيه ذا رأي اصيل وغناء رخيم وشعر جيد وبأس شديد . وهي صفات ومحامد قلما اجتمعت في غيره . ومن شعره متحمساً ومفتخرأ :

(أجود بنفي دون قومي دافعاً ما ناهم قدماً واغنى الدواهيا)

(وأقبحم الامر المخوف افتحمه لادراك مجد او أعاده نواباً)

وله الايات المشهورة في الغزل المزوج بالفخر :

(أحبك يا جنان فأنت مني مكان الروح من جسد الجنان)

(ولو اني أقول مكان نفي خشيت عليك بادرة الزمان)

(لقدامي اذا ما الخيل حامت وهاب كاتها حر العطان)

فها مر بمكم من اخبار معن وابي دلف هذين يظهر لكم مبلغ اسراف أولئك الناس وإغراقهم بالجود والبذل حتى كانوا يستدينون ويهبون ويُعنون غيرهم ويفتقرون وكذا توسعوا في المعطاء على طالبي رفدهم ومستجدي فضلهما كان هؤلاء يتغدون في استنباط الخيل واحتزاع الأساليب المبالغة باستدار

(كان الشمس يوم أصيب من " من العالماء ملتبسة جلالا )

( وكان الناس " كلهم " لمن الى ان زار حفرته عبala )

وقيل دخل زيد بن منيد مسجداً باليمون فوجد في قبنته مكتوباً :

( مضى معن " وخليقني يعني على معن بن زائدة السلام )

فقال زيد عن قائله وما اهتدى اليه أعطاه الف دينار . فقال الرجل

رحم الله معنا : فقد أحسن اليه حياً وعيتاً .

ومن فتون الماحة عند العرب قبل الاسلام وبعد ان يقصد الرجل جواداً منهم يؤدي عنه مهر فتاة أحبتها خطفها ولا مال له فيحمل عنه المهر منها كان جسماً ويعطيه ما ينفق في وليمة بنائه بها . كما فعل عمر بن ابي ربيعة الشاعر غير مرة . وهو ايضاً من أفضل أنواع الكرم وأنجعها كما لا يخفى .

اما صلات الشعراه بالألاف وعشرات الألاف فهو شأنهم بداؤاً وحضرماً وجاهيلية وإسلاماً . وقد فاقت باخبارها كتب التاريخ . والادب العربي حتى لم تبق حاجة لاستزيد .

ومن اطيف فكاهات هذه الصلات . ان علي بن جبلة مدح ابا دلف القاسم بن عيسى الماجلي أحد كبار قواد المأمون ثم المعتصم بقصيدة منها هذان البيتان :

(اما الدنيا ابو دلف بين باديه ومحضره )

(فإذا ولي ابو دلف وافت الدنيا على أثره )

فأعطاه الف دينار . ثم بعها كان بعد أعوام يسir ابو دلف في بعض الأزقة مع رفيق له اذ أشرف فتاتان من قصر فسمع احداهما يقول ايا اخي " انظري : هذا ابو دلف الذي يقول فيه الشاعر " ااما الدنيا ابو دلف الخ " فماتت الآخرى : او هذا هو ؟ قد والله كنت أحب ان أرأيه منذ سمعت ما قال فيه ذلك الشاعر . فالتفت ابو دلف الى رفيقه وقال له : ما أصفنا علي بن جبلة ولا وفاته حقه . فإنه اعطانا مجداً

النعم منهم واسترادة أنواع الصلات والهبات لهم . متزلفين إليهم بضرور من الوسائل لا تغري على خيان مفكرا ولا تخطر على فؤاد لبيب . حتى سار الشعراء والرواة والملئون في تلك المصور أكثر الناس مالاً ، وأعظمهم جاهًا ، وأوسعهم نفوذاً وبسطاً وترفاً .

فالأخطل التغلبي الشاعر كان مدخل على الخلفاء والأمراء من بني أمية وهو يتبخر ثلاًّ وعجباً وفي عنقه قلادة الذهب ثم يخرج وفي يده الصلات الكبار والهبات الجسام ثم يشفع فيمن يريد ثلاً ترد شفاعته . كل ذلك لأنه مدحهم الحميد الفائل فيهم :

(تحس العداوة حتى يستقاد لهم واكرم الناس أحلاهما اذا قدروا)

وجرير التعمي اخذ من عبد الملك بن مروان عشرة آلاف درهم وعشرين راحلة وجارية حسنة . اقوله في المروانيين :

(السم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح)

ومروان بن أبي حفصة كان يرفل بالحرير والخز ويتقلب على الاستبرق والدياج ويأخذ من المهدى العباسى ثلاً بعده من الخلفاء حتى المتوكل مئات الآلوف من الدرام والدناير لانه رجح أحقيته الخلافة للعباسيين على الفاطميين من آل البيت بقوله :

(أني يكون وليس ذاك بكائني لبني البنات وراثة الأعمام)

قيل لما دخل على المهدى اول مرة وأنشده الشعر الذي يقول فيه هذا البيت وسله بسبعين ألف درهم . وقال له هي لك مني في كل حول ما دمت حياً . وفي ذلك يقول مروان مفتخرًا :

(سبعين الفارشي من جهاته وما نالها في الخلق من شاعر قبله)

وأبان بن عبد الحميد اللاحق اخذ من الرشيد عشرين ألف درهم في اول مرة دخل عليه قوله ثارباً على الوتر ذاته الذي ضرب عليه مروان بما يتعلق بآيرث الخلافة :

(نشدت يحق الله من كان مسلمًا أعم ما قد قلته المعجم والمغرب)

(أعم رسول الله اقرب زلفة لدية ام ابن الم في رتبة النسب )  
 (وأيها اولى به وبهذه ومن ذا له حق الترات بما وجب )  
 (فإن كان عباس أحق بذلك وكان على بعد ذاك على مسب )  
 (فأبناء عباس هم يرثونه كالملاين الم في الارث قد حجب )  
 وابو العناية مات عن سبع عشرة بدرة من المال لانه كان مازما  
 بباب الرشيد واعقاشه من بعده متقربيا الى قلوبهم بما يبذلو في شعره من  
 آثار الزهد في الدنيا مع انه كان من أشد الناس حرماً عليها وطعماً لها .  
 وابن الخطاط الشاعر دخل يوماً على المهدى مستجدياً مادحاً فامر له  
 بخمسين ألف درهم . فلما قبضها فرقها بين الناس واثناً يقول :  
 (لمست بكفي كفه ابتغي الغنى ولم ادر ان الجود من كفه يعدي )  
 (فلا انا منه ما افاد ذوق الغنى افدت واعداي فبدت ما عندي )  
 فأعطاه خمسين ألف دينار :  
 ودخل اسحق الموصلي المغني على الرشيد يصبحه الاصحى الرواية وكان  
 الرشيد منقبضاً كثيراً . فأنشده اياتاً معلمه :  
 (وأمرة بالبخل قلت لها اقتصرى فذلك شيء ما اليه سبيل )  
 وخاتماً :  
 (وكيف أخاف الفقر او احرم الغنى ورأي امير المؤمنين جميل )  
 فقال له الرشيد : « الله در ايات تأتينا بها ما أشد اصولها ، واحسن  
 فصوتها ، واقل فضوتها » . ثم احسن اليه بخمسين ألف درهم . وقال  
 له اسحق : ان وصفك لشاعري يا امير المؤمنين احسن منه فلامـ آخذ  
 الجائزه ؟ فضحك الرشيد . وقال اجعلوها اه مئة ألف درهم . قال  
 الاصحى الان علمت ان اسحق احذق مني بصدق الدرام .  
 ودخل يوماً ابو دلامـ الشاعر على ابي العباس السفاح وكان كبير  
 الادلـ عليه فطالـ منه كتاب صيد فاعطاه ، فطلب علامـ يغود الكتاب ،  
 فأعطاه ، فطلب دابة تحمل الصيد فاعطاه ، ثم طلب جارية تصلـ الصيد

فأعطاه ، ثم طلب منه داراً تجمعهم فأعطيه ، ثم مالاً ثالثاً ينفق عليهم من  
عنته فأعطاه أرضاً غامرة وارضاً غامرة ثم استبدل الغامرة بالغامرة بجمل  
له الاثنين عامرين .

قاموا ياراكم الله كيف فرق ابن الخياط الدرهم ليأخذها دنانير  
وكيف احتال اسحق حتى جعل الحسين ألف درهم مئة ألف وكيف  
ندفع ابو دلامة بطلب كلب لاصيد حتى توصل ببعض كلامات الى نيل هذه  
النم التوالية التي تعود عليه بالخير الس الكامل والهناء الشامل . وفي ذلك من  
شدة الحرص على ابتزاز الاول ما لا نجحون .

وكل ما اشرت اليه من احاديث الجود على افراطه ، وما في الاحسان  
على عظمها ، لا بعد نيشاً في جانب ما كان يصدر عن البرامكة وزراء  
الحادي فالرشيد من مدهشات المطاع الذي تجاوز حد المقبول . وكاد  
يحب من مبالغات اهل التاريخ : فقد كان لآل برمه في هذا الخلق  
القديح المعلى والسمى الأندى والنصيب الأول حتى قيل عنهم انهم شفاء  
اسقام دهرم ، وغياث اجداب عصرهم ، ومفرع مليوفي زمانهم لا سما  
احدم الفضل الذي قال فيه ابو النصير :

(ولناس معروف وفيهم صنائع ) ولن يحيى الاحزان الا جدا الفضل  
( اذا ما العطايا لم تكن بركية ) فذلك العطايا ما تمر وما تحلي )

وم ولن لم يكونوا عرباً في الاصل بل كان جدهم الاعلى فارسياً  
لا انهم نشأوا في العراق وترعرعوا في دور الخلفاء ، وخاطلوا خاصة  
العرب وعليتهم واقتسوا آدابهم وعاداتهم حتى أصبحوا كأنهم من صنيعهم .  
كان البرامكة يخربون بالليل سراً وهم متذكرون منهم الاموال صرراً  
بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف فيطردون الأبواب من بيوت المخاويخ اهل  
السر والحرمات فيدفعون الى اصحابها الصرة بعد الصرة . وربما طرحو  
ما هم في عتب الابواب فكان الناس لا عتادهم ذلك يعدون الى العتب  
اذا أصبحوا فيأخذون ما يجدون .

والصل بخلاف المصري" ان يحيى بن معاذ في حاجة وقد ركبه من  
الدين ثلاثة ألف درهم حتى أرغم على إغلاق بابه توارياً عن غراماته .  
فأخبر الفضل بن يحيى . فقال له : دلتنا على مكرمة ، ثم أمر له بائنة  
الف درهم . وحمل الى يحيى بن معاذ ثلاثة ألف درهم قضى دينه بها .  
وخرج الواقدي من المدينة بعد ان ساءت حاله وركبه الدين فاصداً  
البرامكة وهو لا يعرفهم وهم لا يعرفونه . فدخل على يحيى بأتمال من  
الثبات تحيط به الكابة والبؤس وقصاري ما يتناه الف درهم فدفع اليه  
كيساً ولم يعلم ما فيه . فلما تناوله خرج مهولاً حتى اذا انتهى الى بيته  
فتحه فإذا فيه اربعة آلاف دينار . فكاد يغشى عليه من السرور ثم  
ما ابطأ ان ابتع اثواباً اصلاح بها حاله وبكتير من الفد على يحيى ليودعه  
ويشكره فتوسم فيه يحيى علماً وفضلاً وادباً فقال له أقم عندنا ولتكن مثلها  
في كل عام فأقام عنده عزيزاً مكرماً موسعًا عليه حتى فرق تبناها النكبة .  
ونظم أبان ابن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة شعرأ ليسهل حفظه  
مبتدئاً بقوله :

(هذا كتاب ادب ومحنة ) وهو الذي يدعى كليلة ودمنة )

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار . واعطاه ابي الفضل خمسة  
آلاف دينار . وقال جعفر ساستظرر كتابك هذا . وحسبك مني ان  
اكون روأتك فيه .

وما المعت عنه من مكارم البرامكة ان هو الا صيابة من بحر ما يؤثر  
عن هذه الاسرة التي لم يتم بعدها ولا روى عن احد قبلها من يحاكيها  
او يتجدها بالجود الفائض والسخاء الائتم لا سيما على المخاويخ من اهل  
النعمه وبيوتات الجد والعلم والفضل . خلافاً لسيف الدولة الحمداني صاحب  
حلب الذي كان يتصادر اموال الناس ويبيت مواريثهم ينحدل افراس شاعر  
ابي الطيب المتنبي بالمسجد . وبه سائر من يقف ببابه . وبذلك حوله  
من الشمرة فارات المسك ونواوج العنبر . وتفانى الخلع والالوف المؤلفة

(الكرم العادل) ويتحقق لصاحبها أن يسعى الحسن الجود . والقسم الثاني (الكرم الجائر) ويقال لصاحبها المسرف المتلاف . والقسم الثالث (الكرم الاحمق) ويدعى صاحبها المبذور السفيه .

الفسم الدول : الكرم العادل

هو الْكَرْمُ الْحَقُّ الَّذِي يَسْتَحْقُ وَحْدَهُ أَنْ يُسْمَى كَرْمًا . وَلَهُ شَرْطٌ  
الشَّرْطُ الْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ فَضْلَةِ مَالِ الْمُحْسِنِ لَا مِنْ صَلْبِهِ ، لَأَنَّهُ إِذَا  
كَانَ مِنْ صَلْبِ الْمَالِ لَا يَلْبِسُ الْمُحْسِنَ مِمَّا كَانَ مُثْرِيًّا وَاسْعَ النَّعْمَةِ أَنْ يَفْتَرِرُ  
فِي الْفَلَمِ نَفْسَهُ وَاهْلَهُ وَبِلَادِهِ : إِذَا يَصْبِحُ عَاجِزًا عَنِ الْكَسبِ ، فَاقْسِرُهُ عَنِ  
الْإِحْسَانِ ، بَلْ عَالَةً عَلَى سَوَاءِهِ . وَهُنَّا تَجْلِي حَكْمَةُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ( وَلَا  
تَجْمَلُ يَدُكَ مُغَاوِلَةً إِلَى عَنْقِكَ وَلَا تَبْسُطُهَا كُلَّ الْبَسْطِ ) : الشَّرْطُ الثَّانِي أَنْ  
يَنْزَلَ الْمَرْءُ احْسَانَهُ مِنْ لَقَبِهِ وَيَضْعُهُ فِي مَحْلِهِ بِحَيْثُ يَنْفَعُ الْمُحْسِنَ إِلَيْهِمْ فَمَا  
صَحِحًا ، لَا يَضُرُّ بِمَسْتَقْبِلِهِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ

ولنضرب لذلك مثلاً - زيد متوسط النعمة ، ريعه السنوي الف  
دينار ، ينفق منها بلا تبذير ولا تففير ظلماً ، ثم يقسم الباقى وهو  
سبعيناً ، الى شطرين احدهما يضيفه الى رأس ماله ائمته له ، وتحوطاً  
لمئات الايام ، والآخر يرصده للاحسان . ان شاء احتجبه الى ان يخو  
وبتضايق بما يليه في مستقبل الاعوام بحيث يصبح كافياً لاحسان ثابت  
عام ، كانشاء مدرسة او مكتبة او مأوى للايتام متزدوم فائدته ، ويتم  
نعمته ، ويعي لصاحب الذكر الخالد . وان شاء أطلقه لوجوه بعض  
الاحسان الخاص كامداد عائلة أخرى عليها الدهر فسلبها نعمتها حتى كاد  
ينكشف سترها ، ويتفضح امرها ، بحيث تصبح مخففة في أفواه الشامتين .  
او إغاثة تاجر امسى على شفير الانفاس ، فينقذه من ذل التفاصي ووبال  
السجن بان يعاونه سرماً على فقاته وايفاء ما استحق اجله من دينه الى  
ان يأذن الله بالفرج . او ان يتومس باحد اولاد المؤمن النباهة والذكاء

من الدلائل لفأ ما يسمونه من الاطراء غير المقبول كقول أبي الطيب  
عن أبي طبل: إيه: (كأنك في نوب وحدرك فيها على أنه من ساحة الأرض أوسع)  
وفي ذلك وامثاله ما يخالف قواعد الاجتماع، وسفن العطاء، وقوانين  
الاقتصاد في هذا العصر الذي لكل نفقة فيه حساب، ولكل بذلك مقياس  
فإن أبواب المفرين والتمولين في الغرب من ملوك وأمراء، وسوقه عجيبة.  
وحيزاتهم مقفلة دون امثال هؤلاء المداحين الممحققين. وإنهم يبذلون  
الملايين في سبيل مشروع خيري أو معهد علمي ويرصدون مئات الآلاف  
لمن يكتشف مثلاً دواءً تاجعاً للسل أو السرطان أو الطاعون. ومهبون  
ما هو فوق المأمول لمن يؤلف أحسن كتاب في التربية أو نوع من المعلوم  
ولا يبذلون ديناراً واحداً لستجد او مدح كاذباً كان او صادقاً بل  
يقولون له النصيحة الى العمل ما دمت قادرآ عليه فان عجزت فلات من  
مالجيء العجزة ما يفتك عن التسول المنافي لسنة الحياة. فان الانسان  
المعاف خلق ليعمل. لا يعيش كلآ على عواتق الناس.

وفي هذا القول ما ينطبق على ما اوحته الشرائع التي اجمعت على وجوب العمل وكراهة البطالة حتى عدّ العمل خرباً من العبادة . وما دام الانسان معاف في جسمه وعقله لا يجدر به ان يكون ساقط المهمة ، دنيه النفس ، ببذل ماه وجهه التامماً لا في ايدي غيره من مهارات اتماميه ليعيش على بساط الراحة والدعة والتحلول متنقلاً من معصية الى كبيرة . ولا بدح ولا غرابة فان رأس البطال مخزن الشيطان . والاحسان الشخصي ابداً يكون لالارملة واليتيم والمريض والسجناء والعاجز والمرهق . لا لرجال اشداء اقوياً ، يقاسمونك مالك استجداء وتحيلاً ، ليهددوه في سبيل شهواتهم ومادعنون . والكرم بوجه علم يقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الاول ما نسبه

فينق على تتفيقه وكميلعه ما يصيده نافماً لأسراه ، جلاباً للفوائد له ولوطنه فلا يبق تمساً يعيش كالخرارات ، عالةً مفداً ، ويموت ذمهاً شقياً غير مأسوف عليه ذلك من ضروب المكارم التي تخفف الآلام ، وتزيل الحزن ، وتفرج الكروب ، وتحجب الفوائد .

هذا هو الكرم العادل الذي تهنى عليه الأمم الراقية الآن . فيرضى عنه الصواب وتقر به عين الحكمة ، وتوفر فيه شروط الاحكام والاتقان والانساف . ولا يظلم المحسن بان يستهلك ماله في سبيل اريجحته ، ويصبح من الملحقين بل يدوم رائعاً في نعمته ، مقيماً على كسبه ، قديراً على مواسلة الاحسان لبني جلدته ، مستغنياً عن استجداء من لاخلاق لهم ولا مرودة ، ولا يُظلم المحسن اليه بان يكون ميئلاً الى البطالة ، فيفرره بما يثأله منه غبطة باردةً على الكسل وبغض العمل ، وتبديد ما يعطيه في سبيل اللهو والزهو والشهوان .

أجل ان هذا النوع من الكرم يا سادة هو المعلول عليه عند بعيدى النظر من متولى الغرب . وكل ما نظره وسمع به ، او تقرأ عنه من المرافق الحيوة والمعاهد الادبية والعلمية ، والملاجيء الخيرية القائمة في طول البلاد وعرضها على تضارب أنواعها ، وتفاوت مراميها وغاياتها ، ائماً هو ائر من آثار هذا الضرب من الاحسان . وهو لسوء الطالع مفقود ، او يكاد يكون مفقوداً تحت سماء هذه البقعة التي كتب عليها منذ مئين من السنين الغبن والجحود والجهل والحرمان .

أجل ثم أجل يا سادتي فان هذا الكرم رفع منار الإنسانية ، وعنتت دعائم العمران ، وتمهدت لامم الغربة سبل السعادة والقبطة والحضارة ، وخفت عنها وطأة شقاء الحياة وبؤسها . ولو لا اكان المجزرة منهم يأنون منظرين في زوايا الطرق ومنعرجات الأزقة ، شاكين آلام الامراض والجروح والمرتبة يلتسمون الموت فلا يجدونه . واـ كان ايتامهم وناشئة النساء منهم هائجين على وجوههم ، يكتنفهم الجهل والفساد ، ويحيط

٣٣. الذل والمسكينة مما نرى أمثلته يتناقل يوم . والعين تقطر دماً ، والقلب يتفتر حزناً . فان بهذا النوع من الكرم لا بغیره أنشئت مكاتب وملاجىء للعمي والصم والخرس والمعددين . يتعلمون بها القراءة والكتابة والحساب وضرورياً من الصناعات التي تالم أحواهم . فيعيشون وخداماً آمنين مطمئنين . فلا يكونون عبئاً ثقيلاً على عواتق الناس ، فيكرهم اهلهم ، وتبنيو بهم الارض ، وتبكي عليهم السماء .

وبه لا بغیره ترقى العلوم والفنون والصناعات ، وزاد الاكتشاف والاختراع حتى سخر الانسان العناصر خدمته فغاص مسافراً في الماء ، وركب طائراً في الهواء واستثار بالكهرباء ، واستخدم البرق لنقل الاخبار والبخار لجر الاتصال وسرعة الترحال الى غير ذلك مما لو روي الى اسلافنا لمدّوه خرافات وأساطير تحكي ولا تعقل ، وتروى ولا تخيل .

هذا هو الكرم الحق الذي يرجع باصحابه الى مقام الاعلام المحمودي الامر الخالدي الذكر لا ما افتخر به عنترة العبسي بقوله :

( ولقد شربت من المدامه بعدما ركذ المهاجر بالمشوف المعلم )  
 ( بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مقدم )  
 ( فإذا شربت فاتني مستهلك مالي ، وعرضي وافر لم يكلم )  
 ( وإذا صحوت فما اقصر عن ندى وكما علمت شائلي وتنكري )  
 فإن من يفتخر بسكنه ويستهلك ماله كله في سبيل اريجحته عادلاً كان أو جائراً ميلاً أو صاحباً هو الى الجنون أقرب . وخليقٌ بعله ان يبحى عليه الى ان يصبح من العاقلين .

### الفسم الثاني الكرم الجار

وهو الذي يحور على صاحبه المثري فيستكثر ما لديه مما تركه له آباءه او جاءه عن طريق الصدف والاتفاق . فيأخذ بالتوجه في المطاع والاسراف في الإنفاق . فان مثى أحاطت به حاشيته من اهل البطالة واللهو ، وان

رويداً إلى منزلة أفالل الرجال العاملين ، يقول في نفسه اني لا أزال في  
رريق الصبوة وربيع العمر لا يطلب مني شيء ، ولا أسأل عن شيء ، لما ضرني لو  
بذلت راتبي بأسداء الجليل واصطنان الاخوان ، فيسطع صدره وبجلسه لم يعرض له  
من الآراء والأقران فيستأنسون به ويتأثرون حوله فتنفعه الكبriاء كارق  
ويتوهم انه أصبح من مشاهير الاعلام المتميزين بالوجاهة والفضل ، فإذا  
استقرضه احدهم ديناراً نفعه بدينارين ، وان استحسن لديه تحفةً أهداء  
تحفتين . ثم يذهب فرصة عطلته وأوقات فراغه فيدعوه إلى الولائم والآداب  
ومعاهد الزهرة والطرب . فلا يغيب من الشهر أسبوعاً حتى ينفد راتبه  
فيستلف من بعض الصيارة على راتب الشهر الآتي ولا يزال يتدرج في  
هذه الطريق حتى تراكم عليه الديون ، وبضميق عليه الدائون ، فيرجع  
بعضهم إلى أبيه فيشكون ، وبعضهم إلى رئيسه فيتظلمون .

هناك تنقشع الغاممة عن عيني ذلك الغرّ المسكين فتجلى الحقيقة له  
كما هي فلا يشعر الا وابوه ماقت له ورئيسه ساخطاً عليه ، وأصحابه  
متفرقون عنه ، يتجنب الظهور في الأسواق لولا يرى قيظاب أمام الناس  
وينقطع عن الأذية ، ومجتمعات الخلق ، كيلا يضرط إلى الانفاق ولا مال  
لديه ، يجلس في دائرة عمله ناكس الرأس ، خائر النفس ، متوزع  
الفكر لا تنبسط نفسه إلى عمل ، ولا تصفي أذنه إلى حديث ، ولا  
يرجع ذلك شأنه حتى ينتهي إلى أحد امرئين : اما رأف به ابوه في  
ما عليه ثم يكون مسيطرًا على حركته وسكناته إلى ما شاء الله وهو ذيل  
واجم كظيم ، واما ان يتيسر له من غامض علم الله رزق جديداً أو زيادة  
في الراتب فيتخلص من شدته بعد ان تبلغ روحه الخلقون ، فيخذها عبرة  
تنكتب به عن مثل هذه المهواء إلى ان يوا فيه الأجل المحتوم .

هذا اذا لم يدركه العزل وتنتابه الفضيحة من قبل . فساوره الفم  
وتقاسميه الامراض فيلزم البيت خالماً مخدولاً مقهوراً ، يرى الدنيا وما

جلس طوفه فريق من اهل الحرس والعلم والنفاق ، وان ركب ، ركب  
في موكب يشبه مواكب الملوك . يقصده المحتالون الممخرون من كل اوب  
وصوب . فيدق عليهم النوازل ويكلله لهم جزاً ليقال عنه انه جواد  
وهاب . يعطي بغیر حساب . ولا يعر عليه حين من الدهر حق يصبح  
ككثير من اولاد البيوتات في بلادنا حالياً الجيد بادي الانفاق  
متدهوراً في مهواه اليأس والبؤس ، فهو ظالم لنفسه ، لانه أقرها وأذطاها ،  
ظلم نمائته وذوي قرياه لانه أحوجهم وأشقام ، ظالم لمن أحسن اليهم  
لانه أغراه بالتسوّل والكسل ، وكراهة العمل . فأصحاب هذا القسم  
من الاحسان آفة الوطن الكبriء ، وبالسوء الادم ، وشره المستطير . ولو  
تدروا ووعوا لكان لهم من راث آباءهم وتلید أمواهم وظارفهم ما يقوون  
به على استدار أخلاق النعمة . واستعمال ما أودعه الله في فطرتهم من  
مزاج البذر في موضعه مع الاعتدال والروية والرفق . فعاش كل منهم  
سعیداً حميداً ، ومات فقيداً حميداً ، حافظاً له الوطن واهلوه مكارم تمود  
عليه بحسن الاحدوة وآثاراً تخليد له التواب ، ولكنهم لا يتذرون .

### القسم الثالث : الكرم الوصحي

يشاً ابن النعمة في بيت ايه طاعماً كاسياً مخدوماً مكفيًّا المؤونة لا  
يطالب بشيء الا ان يكون رجلاً كاسباً مقتضاً نافعاً . فيلح باب الاعمال  
مديراً او كاتباً في احدى الخطط الاميرية او المؤسسات التجارية براتب  
لو تدبر فاحتفظ به ، وحرس على اعماله في الطريق المشروع لائق منه  
على راشي الايام زرعة يستطيع معها عند الحاجة ان يكون رب بيت ينفق  
عليه من سعة ثم يكون من الحسينين : فان اضافة شمرة الى شمرة تؤلف  
لحمةً كما يقول العوام . ومن لا يعبأ بالقليل لا يتنسى له الكثير .

(قليل المال تصلحه فيفق ولا يبق الكثير مع الفساد )  
فيبدلاً من ان يسلك هذا السبيل المادي الأمين الذي ينتهي به رويداً

حوت من زَحْرَفَ ظَلَّاتٍ بعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ . وَلِيَئِسْتَ الْمَاعِبَةَ لَنْ  
لَا يَزْدَجِرُونَ .

وَهَذَا الْفَرِيقُ أَيْضًا حَسْكٌ يَنْشَبُ فِي حَلْقِ الْإِجْتِمَاعِ الْأَنْسَانِيِّ فَيَعْنِيهُ  
هَنَاءً، وَإِلَيْهِ قَرَارٌ، وَيَجْعَلُ حَيَاةَ الْبَلَادِ الْاِقْتَصَادِيَّةَ إِلَى الْاحْتِضَارِ أَقْرَبَ،  
فَالِّي أَهْمَّ الْمُشْتَكِيَّ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ .

\* \* \*

لَقْدْ طَالَ بِي يَا سَادَةَ نَفْسِ الْكَلَامِ حَتَّى لَمْ يَقِنْ سَبِيلُ الْمَزِيدِ عَلَى أَنِّي  
أَرْجُو أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ، وَهُوَ مِنْ قَرِيبٍ، يَقْفَ فيَهِ مَتَّمِولُونَا وَنَاسِشَتَنَا مَوْقِفَ  
الْإِعْتِدَالِ بَيْنَ مَزَلَّاتِ التَّقْنِيرِ وَالتَّبَذِيرِ، وَيَخْتَارُونَ مِنْ ضَرُوبِ الْإِحْسَانِ  
مَا يَجْعَلُهُ نَافِعًا مَفْيِدًا عَامًا مَعَزَّزًا لِلْعِلْمِ وَالصَّنَاعَاتِ وَمَلَاجِيِّ، الْخَيْرِ وَالْمَبَرَاتِ  
مُخْفِفًا عَنْ كَوَاهِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَصَابِهَا وَإِحْنَاهَا وَأَسْقَامُهَا حِينَما يَعْرُجُونَ بِهِذَا  
الْوَطَنِ الْمَزِيزِ إِلَى الْمَسْتَوِيِّ الَّذِي يَسْتَحْقُهُ أَهْلُهُ مِنْ الْفَبِطَةِ وَالسَّعَادَةِ وَالرَّغْدِ  
أَهْمَسْ بِهِ سَبَحَاهُ وَلِي التَّوْفِيقَ .

دُعْشَقُ : أَيُّولُ سَنَةِ ١٩٧٣ .

**ما هي الحقوق البدوية التي يستند إليها قضاهم**  
 هي قوانين نقلية محفوظة في البدوية مرسومة بآداب الحرمين وتهذيب  
 الأعراب، يعرفها أرباب القضاء ويجررون عليها، وبها يعوضون أصحاب الحق أو  
 لأهله ما فقدوه من الشرف أو المال أو الحياة، ومن هذه القوانين عندهم  
 أن الأخذ بالثأر لا يعد فريدة يجازى عليها المتنقم. فالانتقام عندهم من النواميس  
 الشريفة والجرائم الضرورية المقدسة التي لا يسعهم تجنبها ولو طال عمرها،  
 فالقضينة تبقى مستورة في صدورهم كالثار تحت الرماد، فتأنى الريح يوماً  
 وتكتشف الرماد وتطهر الثارات والآحقاد. وكثيراً ما يرفض الأعراب  
 حكم قاضיהם ليرووا ظلماً بهم الأعداء، ويشاروا للقتل وينالوا الطوائل  
 بأيديهم وقد يجمع الأعراب أولاده على سرير موته ويوصيهم أن يأخذوا  
 الثأر من أحد أعدائه، ولا يدعوا الدم يصرخ إلى السماء صرحاً إليها.  
 فإنهم يعتقدون أن دم المقتول يصرخ دائماً في البالي الدامس، ويطلب  
 من أولاده وأقاربه وعشائره أن ينتقموا له من قاتله .

يُنتظر البدوي الفرصة المناسبة لأخذ الثأر بصبر عجيب ، ويقدم على هذا الأمر بنفس هادئة وسرور عظيم ، لأنّه يعلم أنّ القضاء لا يطالبه بهذا الدم ، إذا كان دم القاتل نفسه أو دم أولاده أو أفراده حتى الدرجة الخامسة ، أما إذا زادت هذه القرابة على الدرجة الخامسة فيعد قتله عند ذلك جرماً . على أنّ أرباب الحق الذين يعجزون عن الأخذ بالثأر أفلتهم أو لضمفهم تجاه رسالة عدوهم ، فأنهم يتوجّون إلى أمير كبير من عشيرة أخرى يعرف بمحارته ، ورباطة جأشه ، وثبات جناته ، وهو ينتقم لهم من عدوهم أو يطلب القاتل ويلزمـه بالقيام بحق الدم .

\* \* \*

إن من يتأمل في عادة الانتقام ، أيها السادة ، يحكم لأول وهلة أنها ببرية لا يقدم عليها إلا الأئم المتواحشة . وهذا من الصحة على جانب كبير لولا وجود هذه السنة في الباادية لغدت القفار الاعرابية دار حرب دائمة ، لأنّ مجرمين لا يهابون قتل النفوس البريئة ، إذ لا رادع يردعهم ، ولا سيف يمنعهم . وسنة الدم بالدم تصد الأشرار ، لذلك يندر القتل في الباادية . وخوفاً من العقاب لا يهدى البدوي دم المساfrican ، بل يكتفي بسلبهم ثيابهم وأموالهم . ثم إن العرب يرحلون على ظهور أيامهم طلباً للرزق الحرث من الغزوات ، فهم مع ذلك يتوجّبون القتل لئلا تنزل بهم الضربات المأله التي تأمر بها شريعة الأخذ بالثأر . وهذه الشريعة تجعل البiedاء في أمن وسلام ، يسافر فيها المرء غير خائف على نفسه وإن سلبوه ماله بخلاف القفار الافريقية حيث يُقتل قبل أن يُسلب .

\* \* \*

ما هو القاضي البدوي

قاضي العرب أمير من أمرائهم تسلطه القبيلة أو العشيرة على أفرادها ،

لامهار الحق من الباطل طبقاً لاتفاق البدوية ، والموائد الفقهية الفديعة . على أنّ الاعراب قد لا يرضون بقاض واحد كبير يترأسهم ، بل يكونون القضاة إلى وجوه العشيرة وكهولها فإذاً نون اليهم ويعرضون دعوام فيحكّون بينهم بمحض عادتهم الجارية . هؤلاء الرجال لا ينالون كأقْضاة الحقيقين راتباً لقضائهم ، وإنما يعملون ذلك ، كما يقولون ، لوجه الله الكريم ، والمتخاصمون لا يلبثون أحراراً في الخصوص لحكمهم أو رفضه ، ورفع الدعوى إلى القاضي الكبير . القاضي الكبير يرث الحكم عن أبيه لأنّ العرب مولمون بحفظ الأصل والنسب . ولكنه لا يتسلط على الاعراب إلا إذا نال رضي الجميع ، ببساطة رأيه ومعرفته لحقوق البدوية . ولهذا القاضي سلطة واسعة فوق سلطة الحكام في المالك المتمدنة والرابع العاشرة . فإذا قال كلّه انقطع الحديث ، وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون . ولم يعاد حميدته تذكر بالثناء عليهم ، وهي أنّ قاضي العشيرة إذا رفعت إليه دعوى بأحد أقاربه لا يحكم فيها بل يحيلها إلى قاضٍ آخر غيره من القضاة المخاورين أرباب العدل والانصاف ، لئلا تحوم حوله الغلو .

\* \* \*

### كيف يجري القضاء عند العرب

إذا وقعت الخصومات بين العرب على ممتلكاتهم من الحيوانات والأرضين ، هاج هاجهم ، فتستفزهم في الحال زوجة الغصب ، فينتصرون من الغبيظ ، ويرتجفون من الحق ، فينتصرون السيف ويطلقون الرصاص ، لما طبعوا عليه من حدة الأخلاق ، وحفظ الحقد والضغينة . فإذا حلَّ الخصم ، وارتفعت الأصوات والشتائم ، وانتصبت السيف وسمح أزيز الرصاص ، دخل المصلحون بين المتخاصمين ، وحملوم على الكف عن الخصم ، وحلَّ المشكل بالقسم أو بحكم القاضي .

أما القسم فن أرعب الأئمّة عند العرب وأؤدّبها ، ولا يقدموه عليه إلا مضطرين ، لأنّ الاعرابي يستحبّ الحلف ولو كان به حادقاً ، ويهاب اتخاذ المولى الكريم أو أحد أوليائه وأئبياته شاهداً على صحة قوله ، ولو كان من قطاع الطرق .

والقسم عند العرب أنواع مختلفة : منه ما يسمونه القسم الجاري أو القسم الصغير ، ومنه قسم اليد ، والقسم الكبير ، ومنه قسم العُشبة ، ومنه قسم النّلة والنّملة .

في القسم الصغير يقوم الشّيخ وسط الخيمة ويقول : أقسم عليك بالله وبصلاته محمد هل فعلت الأمر الفلاسي . فيقول والله وصّلاته محمد لم أفعل . وفي حلف اليد ، يضع الخليفة يده على رأس الحلف ويقول : « أناشدك الله ، بما تحوش وتتوش ، بمحلّات الحليب ونستافات العسّيب (أي الخيل) وبالنساء وما تحيّب ، داخل عليك عمالاً والعياط ، من الحال والاستحالل ، اليوم بين عينيك وباكِر بين متنيك (أي اليوم تراني وعدّاً تحملني على النعش) بفديه عليٍّ وبدينه عليك ، إن أطْلَعْتَهَا تسرّك وإن خبيتها تضرّك ، أما صار كذا وكذا؟ فيجيب : إني بالله ورسوله صار كيت وكيت . أو بالله ورسوله ما صار ذلك » .

ويقولون أيضاً في أقسامهم « أنا حاضر بحضورك وبعوقد نارك ، أما صار كذا وكذا » .

ويقولون في حلف العشبة : « بحق هذه العشبة الملوية والنّكاذب ما له ذرة » .

أما قسم النّلة والنّملة فدونكم وصفه : حينما يكون العرب وكبارهم ملثمين في شرق الرجال من الخيمة ، وقد طال الحدّال بين فريقين على أرض أو فرس أو غير ذلك ، يقوم أمير البيت ويخرج بجلسه خارج الخيمة ، ثم ينتضي سيفاً ويخطّ به دائرة كبيرة ، ويضع في وسط الدائرة جبة حنطة ونعلة ، والحنطة تدلّ عند العرب على أكرم ما خلق الله تعالى والنّملة تدلّ الحكمة والفتنة والإدراك . ثم بعد السيف في منتصف

الدائرة . عندئذ ينزع المهم عن سلاحه ويدخل في وسطها ويضع يده على نصاب السيف ويقسم قائلاً : « والله العظيم والسيف الْكَرِيم ما فعلت الشر ولا سرقة ولا قلت الخ » .

وكثيراً ما ينفع لون الرجل ، وترنجي مفاسله ، وترنجف يداه ورجله من الرعب ، وربما رجع عن الحلف وأفرأى فعل .

والحلف بالمقامات يعدّ عند الاعراب من الاقسام المغلبي . وربما أقسم البدوي « بالله مراراً عديدةً وأبي أن يقسم بالآواية والمزارات المقدسة كزار النبي شعيب ، والنبي يوشع ، والشيخ عبد الله ونحو ذلك من المزارات المشهورة عند العرب .

على أنّ العرب يدعون غالب الأحيان القسم لرهبته ، ويلجأون إلى القاضي البدوي . وهذا ما يدعونه (بالقضوة) .

ها أجمل بيت الشعر حينما زين بأنواع الأيات ، ويفرش بالسجاد الفاخر ، ويملّق على جدرانه السلاح اللامع . يجلس الأمير في صدره للقضاء ومن حوله وجوه العشيرة . فيُسمع صوت « المياج » يدق القهوة فتطبخ ويطاف بها على الحضور دفعتاً متواالية . وبعد شرب القهوة يقوم أحد المתחاصفين وهو المدعى ، ويجلس في وسط الخيمة بين الحاضرين ويلتفت إلى القاضي ويقول : وهو عندهم عثابة الاستدعاء يفتحون به الدعوى : « وايش بك يا قاضينا ، بليلي بحقك تراضينا ، جينك هدي ومشياً قدّي ، أفلح وصلّ عالي (فيقول الجميع الصلاة والسلام عليه) ، حظّي وحظّيك يدخلان على ارميّة وأرميّن في ، من الفوط والتلوط والحق الردي ، وأنا داخل عمال والعياط من شي مبين على وعليك عني ، وأنا حاططها بعيونك السود وربعك المعود ، وبالامرأة وما تحيّب ونستافات العسّيب » . ثم يذكر ما جرى له بصوت جهوري بمحبت يسمّه الحضور

من أطراف الخيمة ، وورد البراهين في ذلك ، إلى أن ينتهي ويعود إلى مقامه الأول فيقوم المدعى عليه ويجلس في وسط المجلس ، ويكرر المقدمة نفسها : ( وأيش بك يا قاضينا ) إلى آخر الدبياجة التي أتينا على نصها بأفظاعهم ولتهم المستعملة في البايدية . ثم يفتح عن أداته . ولا أحد يعارضه في شيء . والقاضي بين كل ذلك صامت لا يبدي كلمة . وفي آخر ذلك يلتفت القاضي إلى المتخاصمين ويقول : أولحوا وأصلحوا خير لكم . فإذا آتيا إلا إظهار الحق يقول : قدموا الرزقة .

\* \* \*

### الرزقة

هي أجرة يدفعها أحد الخصمين للقاضي تقدر بربع قيمة ما ينخاصم عليه وقد يجري في هذا التقدير جدال طويل يدور ساعات من أجل تعيين مقدار الرزقة إن تقدماً أو عروضاً كفرس مثلاً أو سيف أو بغير . وربما لم يقبل بها القاضي فيرفض الحكم إلى أن يستحسن ما يقدم له . والرزقة أنواع كثيرة ، منها ما يسمونه رزقة البطل ، ومنها رزقة الحق . فرزقة البطل هي التي يدفعها المجرم أو المفترى للقاضي ، ورزقة الحق هي التي يدفعها صاحب الحق . وإذا استأنف المحكوم عليه دعواه إلى قاض أكبر وحكم له بالحق . وكان قبل ذلك قد دفع رزقات عديدة بريدها له المحكوم عليه . لأن المستأنف الساكس حقاً بجميع الرزقات التي يكون قد دفعها للقضاء من قبل .

\* \* \*

### السفراء

وبعد أن يتفق الخصمان على الرزقة يجب عليهما أن يقدم كل واحد كفلاً يتهدى أمام الشهود بدفع الرزقة إذا آتى الآخر تقديمها . فيقولون :

« ترى يا شيخ فلان هذه المسألة في وجهك ، وإن كان الكفيل غائبًا يقولون : على دفتها . فيقول القاضي للكفيل : « عندك الشيء العلاني » : « فيجيب عندي ما أطلب » وحق الله ورسوله أني ما أبوق ، ( أي لا أخون العهد ) .رأينا أن الكفيل نوعان : غائب وحاضر . فالغائب هو الذي لا يحضر مجلس القضاء حينما ترفع ( الدعوى ) فيختاره الحاضرون والقاضي لا ينفذ الأمر . والحاضر هو القائم بين الحضور في أثناء الدعوى . على أن لكل منها واجبات خاصة تختلف عن واجبات الآخر : فالغائب مضطط إلى قبول الكفالة ، والحاضر له الخيار في قبولها أو رفضها . لذلك جاء في أمثالهم : « الغائب مضطط والحاضر حر » . ولا بد للكفيل من صفات ، أخصها أن يكون معروفاً بين المشiera بصدقه واقتداره على الدفع . والذين يحرمون حق الكفالة هم شاهدو الزور ، والجبناء الذين يشرون في الحرث والغزوات ، هؤلاء كلهم مرذلون عند العرب ، لا يقبلون في مجالس الكرام ، ولا يشربون القهوة في خيام الامراء ، ولا تقبل لهم شهادة . وإذا جلس أحدهم في مجلس الشيخ صب له الشيخ القهوة ، وينما هو يرفع الفنجان إلى فمه ينزعه الشيخ بعنف منه وهرق القهوة على التراب ويقول له : أنت لا تستحق القهوة ولا لك مقعد بين الرجال .

\* \* \*

### السرور في الدعوى

وبعد تعيين الكفيل ، يتوجه القاضي نحو المدعى ويقول له : يا فلان ، إذا كان عندك شاهد لا يكذب ولا يوجد عليه اعتراف فلينقدم ويشهد . فيجيب : عندي يا قاضي العرب فلان وفلان وفلان . فيلتفت القاضي إلى أكبر الحاضرين ويقول له : وأيش تقول يا شيخ عن فلان ؟ فإن كان مقبولاً الشهادة يقول : « والله انه مقبول الشهادة ، ما أنا خار عليه الذرر الذي يذرره عن الشهادة » وإن كان مرفوض الشهادة يقول : « والله انه غير مقبول » .

## العقوبات

والعرب يدعونها الحق . فهنا حق الثنائي ، وحق البت ، وحق الوجه ، وحق الدخيل ، وحق الدم ، وحق الطيب ، وحق القبيح ، وحق المرض ، وغير ذلك .  
و قبل أن نذكر شيئاً من هذه العقوبات عند البدو ، يجعل بنا أن نأتي على ذكر عواطف الشفقة والحمل التي تغلب عند عرب اليمادية مرات على حب الانتقام ، وتحل عليهم على الصفع . سمعنا حوادث كثيرة تدل على غفو العرب عن أعدائهم ودونكم النادرة الآتية :

كانت النار تصorem ذات ليلة في معارض بي صخر ، والكلاب تتبع فتدعوا المسافرين إلى خيمة الشيخ ، وإذا بشاب اطيف قد نزل عن فرسه وحيا الضيوف قائلاً : السلام عليكم . فقالوا وعليكم السلام قال جما الله الرجال ، قالوا حيا الله الرجل . قال الموافي يا عائين ، قالوا حيا الله الثانيم . ثم جلس بالقرب من الشيخ وبات عند العرب أيام طوالاً لا يسألونه فيها جهة القصد . إلى أن حان وقت طغاء فيه الشيطان فأسفله في ثلاثة كبرى : ذلك أنه رأى ابنة الشيخ فسحر بمحالها ، وما اندل الليل هجم على خيمتها فقتل العبد الحافظ لها وخطفها وسافر . فذاع الخبر بأقل من لمح البصر ولحقه أخواتها الثلاثة . وكان كلما تقدم إليه أحد يضربه برمحه فيرميه بجدها على الأرض . أخيراً لحقه الفرسان فأنهزم إلى أن لقي خربوشَا ( والخربوش هي الخيمة الصغيرة لها عمود واحد ، وكان على باب هذا الخربوش شاب في مقتبل عمر فصاح به وقال : يا أميا رسيده أنا في وجهك وفي مرقد عمالك . قال : لقيت خيراً ومرعى وأماناً . وما أقبلت العشيرة تطلب الابنة وحق الدم أرجحها الشاب وقال : هو البيت يحمي الطريد والشريد ، وهو الوجه يدفع صدمات العدو . فرجع القوم صامتين . وسأل الخاطف الابنة عن صاحب البيت فقالت : سوؤد الله وجهك هذا ابن عمي وخطبني فد طلبني فوعد بما طلب ، وقد مهد الصعب كي يتزوجني ، إذ قاتل أولاد عمه ،

وقد تقع الخصومات في اختيار الشاهد فنهم من يرفضه ومنهم من قبله ، ويطلق الكلام بينهم إلى حد " يسام " منه الحاضرون ، إلى أن يقرّ رأيهم على شاهدين . فيقفار ويقمان القسم البدوي ، يقول كل واحد على حدة : « والله العظيم » ، والرب الكرم ، وحياة المود ، والرب المبود ، والكافر ما له مولد ، لا يحيط شافيه ، ولا طمع راجيه ، ( اي إنه لا يختلف لأخذ ثأر ولا لأجل مال ) إلا حق الله من رقبتي مؤديه ، إن هذا الرجل قد فعل كذا وكذا .

ول الشاهد حق في طلب هدية ما إذا لابد له من القسم ، والعرب كما أوفتحت يرحبون القسم ولو كانوا صادقين . لذلك هم يقدمون للشاهد هدية بدوية كيف أو عباءة أو نحو ذلك .  
والناس في جميع العثار لا تقبل لهم شهادة إلا عند عثار النصارى في الصلت والكرك ومادبا وغيرها في شرق الأردن ، وشهادتهن ثابتة قوية .

\* \* \*

## الحكم

وبعد أن تنتهي المحاكمة ينطق الفاضي بأمثال بين فيما أحكام القضاة من قبله في أمور جرت في عهد قديم . فيروي حكايات واقعة أو خالية بذلك فيها الحكم عليهم الكلام ، وربما أنى بأمثال حيوانات تطبق على الأمر الواقع ، حتى يدرك الحاضرون الحكم المراد قبل أن ينطلق به . وأخيراً يفوه بالحكم القاطع بقوله : « أنا من عندي ومن عند القضاة الذين قبلني ، ومن عند أجاؤيد الله مثلكم ، إن فلاناً هو المجرم ، وفلاناً هو البريء » . ويورد في ذلك الأدلة والبراهين والاستدلال لا يبقى في الامر ريب . وهنا ينتهي الحكم فيقوم جهور الحاضرين وينصرفون إلى يومهم وهم يرددون الحكم المبرم .

الآن نعود إلى مطلع المقال . سأذكر هنا بعض الأمثلة

فامتنع لونه وتغيرت هيأة . على أن صاحب الخربوش أكرم مثواه في تلك الليلة ، وأعد له خيمة العرس وزوجه بالفتاة ، ثم صالح العرب مع الناب وسالميم وعادهم بأن لا ينزلوا به ضرراً . هذه حكاية تدل على علو نفس وشهامة قد لا يوجد مثلها بين أصحاب التمدن ، كيف لا وقد صفع هذا البدوي عن قاتل أولاد عمه وخاطف خطيبته وصالحه مع العرب .

وهل دفعه إلى هذا الصفع إلا سوء النفس وحب الذكر ؟

### عقوبات أهل القوارع والشتم

يصر على البدوي احتمال أدنى شتيمة لأن العرب طبعوا على حب المجد والشرف ، لذلك هم يهدون الشتيمة أشد تأثيراً من حد السيف وقد تثير الشتم الحروب في الباادية وتحمل المشتوم بل وأهل المشتوم أيضاً على الانتقام .

حيث عن عبد المهي قاضي العوازم انه قال : أرباب الشتائم يعذبون باقى أنواع العذاب . وروي أن رجلاً من عرب المدوان رفع يده على أبيه قائلاً « أخسن يا شايب » فسمع بذلك شيخ المدوان فأمر بقطع لسانه . ويقال أن بدويًا بعث بوجه عدو له فحكم عليه أن تحلق لحيته إلى نصف الذقن فقط ويقي النصف الآخر . ومن شتم من عرب الصخور يدفع المشتوم فرساً أو سيفاً أو بسيراً أو ملائين ريالاً ، وعند بعض العشائر يضرب الشتامون بالساط حتى يسيل منهم الدم . وبعضهم يضعون دبسًا على وجه الشتم ، ويربطونه بأوتاد فيأكله الذباب ، أو يربطونه ويوجون عينيه إلى الشمس . وروي أن بدويًا أهان أبوه إذ رفع عليه محاجة ( والمحاجة عصا صغيرة ) فلزمه القاضي أن يحرث أرض أبيه مدة ستين .

ومن أحاديثهم أن قدم شيخ هرم إلى قاضي البلقاء بن قلاب وقال : « وايش بك يا عواد بن قلاب ، يا حامي النسب ، بولد لي ربته حتى نشأ وكبر ، واليوم قد جرني بمجدي بي إلى خارج الخيمة وشتمي » فقال له القاضي « اذهب يا شايب ، ما صنعتك بك سبصنته به أولاده في المستقبل »

وحكى على الولد بأن يبني خيمة لا يبيه ويدفع له حسين نعجة ليكرم بها الضيوف . وقد صدق كلام ابن قلاب ، فإن أولاد الابن جروا أيام إلى خارج الخيمة ، ولما افتقروا به إلى الموضع الذي أوقع أباهم فيه قال لهم : « كفاكم أيها الأولاد الاشرار إلى هنا فقط جررت أبي » ، وذكر قوله ابن قلاب .

ويروى أن شاعرًا من بني حسن هجا ذئبة ابنة الشيخ عوده أبي تايه أمير الحويطات . فلما ورد الشاعر إلى مصارب الأمير قال له عوده : « بِحَاجَةٍ لِهَذِهِ الْحَاجَةِ يَا قَدَّافَ الْمُحْسَنَاتِ ، أَسَانَكَ يَلْسُعُ كُلَّمَعَ الْحَيَاةِ ، فَهُرِبَ الشَّاعِرُ كَثِيرًا وَلَمْ يَذْكُرْ طَامِمًا عَنْهُدَ الشَّيْخِ . وَلَمْ يَأْتِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَمْرَ الشَّيْخِ عَوْدَهُ أَحَدٌ عَبِيدَهُ فَلَحَقَ بِهِ فِي الْخَلَاءِ وَقَتَلَهُ عَلَى هَجَائِهِ .

\*\*\*

### من البيت

بيت شعر في الباادية ، وإن كان خربوشًا ، هو ربيع الشأن عظيم الأكرام عند العرب . ومن أهان بيته عندم أهان أصحابه النازلين فيه ، لا بل أهان المشيرة كلها . ومن تمدي عليه نال جزاء تعديه إهانةً وعداً . وهم يعذون إهانةً تكرر شرف البيت تلك التي تحصل من بدويين يتخاصمان في بيت حتى يصل بها الخصم إلى المسبات والشتائم او رفع الاسلحه . فالبيت يطلب حقه . وإذا أهان صاحب البيت في بيته ، فالبيت وصاحبها كسر شرفها ، وصار على الشان حق البيت وحق صاحب البيت .

وبعض الاعراب يزعمون أن من ازدرى بالبيت واحتقره ، فقد صنع ذلك ليس نحو الإحياء النازلين به خسب ، بل تعمد الإهانة إلى أجدادهم وأموالهم .

إهانة البيت يحاكم عليها امام القاضي . فيتصبب المدعى وهو صاحب البيت في وسط الجماعة ويقول : « ويش بك يا قاضي العرب ، يا حامي

لان المشيرة كلها تقوم مع الوجه بدأ واحدة ، والمعتدي عليه يتجه إلى الوجه ويقول له « يا شيخ فلان ، قد صار الامر الفلانى بوجهك ، وخصوصي فلان تعمدى على» وكسر وجهك ، فيبص وجهك وجهي « فيجمع الوجه مجلساً مؤلفاً من القاضي البدوي والامراء المعروفين ويرسل رسلاً يأتوا بالمعتدي . فيقص الوجه قصته على الحاضرين ، والمعتدي في انتاه ذلك راكع والمقابل في رقبته دلالة على التذلل . ثم يحكم القاضي على المعتدي بدفع ما عليه ويعاقبه بدفع عشرة خرقان الوجه .

### حق الدليل

الدخول عند العرب هو الرجل المستجير الخائف من امر دمه او سيدمه ، فيعمد الى شيخ كبير قوي يستغث به ويطلب حماه ، ويقول له « انا دخيلك احبني وارحمني » . ورب مستجير يأتي في الليل ويرتمني على فراش الاولاد في خيمة الشيف ويقول بصوت متقطع حزن « انا بحضورك وموقد نارك ، انا داخل عليك من السيف والجف ومن فلان صاحب الحق الردي » ثم يسط له سبب اعتماده به . فيقول له الشيف « ابشر بالعز والهناء وعش في ديارنا فرجيا بك » ثم ينزع كوفته من على رأسه ويضمها على رأس الدخيل ويقول « الله رسول الله لا احد ينزع من رأسك شعرة » .

وحينما يقبل الشيف الدخيل في منزله يرسل رسلاً الى عدو الدخيل وطالبه يقولون له « ترى فلان دخيل في بيتي احضر ان تصيبه باذى » فيجيئه الرجل « اطلب خصي الى القضاء » فيقول صاحب الدخلة « أعطيه عطوة » والعطوة في الباادية هي هدنة من الزمان يمتنع فيها العدو عن الانتقام الى ما بعد الهدنة ، وهذه الهدنة تكون عند بعض المعاشر اثنان ثم تالما يقول الواحد صاحبه « ترى بوجه فلان تصاحنا ومن اضر قريبه لا يلوم الانفسه » . ومن اودع وديعة وخاف عليها من السرقة او من الاعلاف يقول المؤمن عليها « ترى فلان وجه عليك » . فلن تعمد على صاحبه في مثل هذه الاحوال يجد امامه اعداء كثیرين بسبب الوجه ،

النسب ، بفلان اتي كسر شرفه كيت وكيت ، واهانى في عشيرتي وبحضور جاعتي ، واهان ضيق ، فودتني منك ان يبص الوجه ، ثم ترد الشهود وتشهد على صحة مدعاه . فينتصب القاضي ويقول : « انا من عندى ، ومن عند القضاة الذين قبلى ، فلان كسر شرف البيت واهان صاحبه وضيقه ، ثم يحكم عليه بدفع عشرين ناقه وخمسين نعجة لصاحب البيت ، وهلتين وبالاً لضيقه المها ، فيقول المجرم « نعم انا مستعد ، امرك يا قاضينا فوق الراس ، وبعد ذلك يقوم احد الشيوخ الحاضرين ويقول لوب البت « حقك على الرأس والعين ، ولكن من شأن الشيخ فلان دع له خمس ناق » فيقول « من شأن خاطرك وخارط الساعدين تركت ما تريد » ثم ينتصب شيخ آخر ويقول « يا شيخ فلان ارك له من شأن الجماعة ومن شأن والديك كذا وكذا » فيقول « تركت ما طلبت » وهكذا الى ان يصبح المطلوب سهلاً وخفيفاً . ثم يهضون وجه رب البيت الحكوم له ، وذلک بان ينشروا له رایة بيضاء يعلوون بها حول الخيام وهم يقولون « رایة فلان بيس الله وجهه » .

\*\*\*

### حق الوجه

الوجه عند العرب هو الكفيل الموكل باجراء ما يتطرق عليه فريقان من فعل خير او اتفاء شر . والوجه لا يخون صاحبه أبداً ولو فقد ماله وحياته . فإذا باع امرؤه ارضاً او فرساً او غيرها من الاشياء يقول البائع للشاري « ترى بعثك بوجه فلان ان طلبتها ادفع كذا وكذا عقاباً على ذنبي » وكذلك الشاري يقول « ترى اشتريت بوجه فلان ، ان ارجعتها ادفع كذا وكذا عقاباً على ذنبي » . وإذا تناجر اثنان ثم تالما يقول الواحد صاحبه « ترى بوجه فلان تصاحنا ومن اضر قريبه لا يلوم الانفسه » . ومن اودع وديعة وخاف عليها من السرقة او من الاعلاف يقول المؤمن عليها « ترى فلان وجه عليك » . فلن تعمد على صاحبه في مثل هذه الاحوال يجد امامه اعداء كثیرين بسبب الوجه ،

الثار بيده ، مجتمع الشيخ فرسانه الشجعان ويقودهم إلى منزل العدو فيسلبون ما يجدونه هناك من المواتي وبقودونها إلى أرض قاحلة لا مرعى فيها يضطر حيثند إلى المصالحة . وان أصر على عناده ثوت اغناهه ويصبح فقيراً ولا يحق له ان يطالب صاحب الدخلة بشيء لأنها تحسب عقاباً له وهي حق الدخيل . \*\*\*

### عن الرسم

السنة عند العرب هي « الدم يطلب الدم » على ان من لا يقدر على أخذ ثاره يطلب الدية ، وتدعي عند الأعراب « العقلة » وقدرها ٣٣٣٣ ديناراً . وقاتل المرأة وخصوصاً العذراء يدفع أربعة اضعاف الدية ، لأن المرأة انسان ضيف وقتلها جرم كبير على الرجل وإهانة مذلة له .

فإذا ذبح أعرابياً عدوه يسعى حالاً في طلب امير كبير يتحملي في ظله ويختبئ هو وماشيته خوفاً من ان يقتل وفاقاً لسنة الانتقام العاجل التي تعطي اهل القتيل حفماً مدة ثلاثة أيام ان يأخذوا ثارهم بذبح القاتل واهله وهدم بيته وسلب ماشيته . فالامير الحمير يتلزم أن يبذل جهد طاقته لتخليص المجرم من طائلة هذا الانتقام ، ولو كان القاتل المستجير من اعداء المشيرة ، او عدوه ، او قاتل ابنته او احد اقربائه ، لأن الشهامة العربية تحيط عليه ان يحمي عن الضعف المستجير .

اذا وصل المستجير امام الخيمة وقال لصاحبها « انا دخيلك » او تمسك باطناب الخيمة او وقف امام الخيمة فقط فقد « عد دخلاً » . وان قتل احد خارج الخيمة قبل ان يلتفها وكان المدى بين مكان وقوعه قتيلاً وبين الخيمة التي اتي ليستجير بصاحبها لا يتجاوز رمية عصا ، فقاتله يضطر الى دفع دية الدم وحق الدخلة .

ويعتمد القاتل عن فرسه يذهب توتاً إلى فراش الامير فيجلس عليه ويقول « انا دخيلك بعاليك وحلاك ، من الحظ المنكود ، والسيف

المبرود ، والظالم المفود ، والكاذب ماله مولود » فيجيئه الامير « يا هلا ايشر بالعز وطيب المزبل » عند ذلك لا يتم القاتل بشيء بل يعيش بصفاء ، والسي كله يعود على الحمير . فيرسل بعثات متالية الى اهل القتيل كي يقبلوا المصالحة وبأخذوا دية الدم . على انهم يرفضون المصالحة داعين في أول مرة ، ويطلبون الدم بالدم ، ويدركون الدم المدور ، الصارخ إلى السماء ، الطالب الانتقام . فيعود الوفد الاول خائباً . على ان الحمير لا يتأسى من هذا الجواب المؤلم لأن هذه هي المادة عندهم ، فيبعد الكراهة بعد أيام مرسلاً اليهم وفداً أكبر كي يصلحوا ذات البين وبأخذوا الدية فيرجع أيضاً الوفد الثاني مكسور النفس . وفي ثالث الاجيال يصير الصلح بعد المرة الثالثة لأن العرب ترفع بهم العواطف التلبية إذا شاهدوا كبراء البيداء متذلين أمامهم . ولكن ان أبي اهل القتيل المصالحة بعد المرة الثالثة ، فتلك دلالة على انهم لا يريدون إلا الانتقام ، ويجب على القاتل حينئذ أن يهرب في ظلمات الليل الى بلاد بعيدة ويتعصم بقبيلة شهيرة .

والذين تصيبهم سهام الانتقام هم اهل القاتل وأقرباؤه إلى الدرجة الخامسة أي أبو القاتل وجدهه وأولاده وأولاده وأعمامه وأبناء أعمامه . أما الباقي من الأسرة كان العمة وابن العمة ونحوها فلا يؤذى بضرر بل يقدم لأهل القاتل بغيراً يسمى عندهم « بغير النوم » ويبيق في خيمته غير خاشٍ صولة الاعداء .

### عن الطنب

ويدعى أيضاً حق القصير ، والطنب تصغر الطنب وهو جبل الخيمة . وعند العرب الطنب هو الجار المستجير ، وبعثبر طنبينا إذا علق بعض آلات صناعته على طنب من أطناب الخيمة ، ومنهم من يكتفي بالكلام فقط فيقول : « يا شيخ فلان يا آبا فلانة أنا طنبيك » فيقول له « يا هلا بك » .

عن الاعراب من يترك عشيرته ويدت أبيه فيحمل خيمته ويرفها إلى جانب شيخ عظيم ، ويكون ذلك إذا حسي عدوا لا يقدر على مقاومته أو وجد منه عدداً وأفراً من الأعداء لا يستطيع منازلتهم أو قدم طلب الرزق والشغل عنده في حرارة أرمه . هنا من أحد إذا يضطر إلى محاورة أمير قربيب عن عشيرته ووطنه إلا أن يكون ضيفاً أو فقيراً . ويقول المارقون بعادات العرب أن الصيف يسمى عندهم ضيفاً مدة ثلاثة أيام وإن طال مكثه عدّ طنبيماً . وكم من قاتل مثلاً نزل بالقرب من أمير كبير في بلاد بعيدة عن وطنه فسمى باسمه وتطيع بطائع عشيرته وقد ذي أصله وتبه بعد طول الزمان .

ومن غريب ما يجري في هذا الحق إن بعض من التجار ينزلون في حيام العرب أو عند الشيخ ليبيعوا بضاعتهم من ملبوس وما كول في حماء ، فيصبح شأنهم شأن طبيب هذا الشيخ أو قصيري . ويلزم الشيخ أن يجمع لهم ديونهم من المديونين ، وإذا تعصّب المديون وامتنع عن الدفع يضطر الشيخ نفسه إلى الدفع كي يبعض وجهه أمام القصيري . وإذا سُرق شيء من القصيري ، فعل الشيخ أن يسمع باسترداده له .

\* \* \*

### من العرض

الباية بلاد تتحت عن المكررات ، وهي في هذا الباب أشرف من المدن المتصررة حيث يظهر المنكر ظهوراً جلياً على حدما قال الشاعر الشعبي : « ما في شيء عيب » . فالنساء في القفر على الجلة عفيقات ينجبن العرق السافلة وأبواب الحرمات . وقد تسير المرأة البدوية وحدها في الباية ترعى الأبل والنعام ، ولا يمارسها أحد أو يتهدى عليها .

على أن جرماً من هذا النوع كثير الحدوث في الباية ، إلا وهو الخطف . وكم من شيخ يرى على ابنته له كانت سعادته في هذه الدنيا ، فابتلى عن أنظاره في ليلة دامسة ، وبات هو يطوي الأيام والآيات بالحزن والبكاء . وهم يقولون فلانة خطفت فلاناً . ولا يقولون فلان خطف فلانة . إذا رأى الشاب البدوي أن يتزوج بابنته على غير إرادته إليها وافق معها على خطفها يتواطئان إلى زمان ومكان محدودين ، فإذا ستر الليل الأرض يأتي إلى الابنة ويردها وراءه على فرسه ويمربها إلى بلاد بعيدة وربعاً وجدها واردة على عين ماء أو في حقل فخطفها بعد أن يكونا قد اتفقا . ولا بد للخاطف من عقاب شديد إذا وقع .

قلتُ إن الخطف كثير في عرب الباية . وقد لا يمر شهر إلا ويسمع فيه خبر كهذا بين الاعراب ، والحق في ذلك في غالب الاجيال على أهل البنت الذين يطعمون ببيع بناتهم بائعان باهظة حين زواجهن ، فإن البنت عند العرب تكون لمن يقدم مالاً وحالاً أكثر من سواه ، لذلك يصر الزواج عندهم على غير حب ووداد .

إذا خطفت ابنة وكان خاطفها من قبيلة قرية ، ركب أهلاها وأقاربها ليرجعوا الشرف المفقود والابنة الهاجرة ، ولم يحن بأن يصنعوا ما يشاؤون في مدة أيام ثلاثة فقط يسوع لهم فيها أن يقتلوا الخاطف وبكلها عنده ، ويهدموا خيمته ، ويذبحوا فرسه ، وهم يرثون بما تصل إليه أيديهم إسرافاً لا يستيقون لأنفسهم منه شيئاً وإن هم استيقوا رذلاً وأهيناً ، وإذا مضت الأيام الثلاثة ولم يظفروا بالخاطف ولم يستطيعوا فيها إرجاع شرفهم المفقود ، حل بهم العار والخجل ، فيرحلون وبذلهم وحدهم مؤذنين العزلة والغرابة . والخاطف يتزوج بالفتاة التي خطفها لا حرج عليه

وفي حال الخطف ، فلن أقدم من البدو على الفواحش بنفس راسية ،  
يرد عليه الشيخ مع وجوه المشيرة صرارات عديدة ، وإن هو لم يرتدع يمحكون  
عليه بالنقي ، ويكون دمه مطلولاً لا يطالبه به وهي عادة محمودة تحمل  
العرب على تجنب المذكر خوفاً من العقوبات الصارمة .

وهما يخفف وطأة الفواحش في الباادية خوفهم من العار والهوان ،  
لأن البداء لها آذان تسمع وعيون تنظر ، فلا يخفى فيها خاف ، ولا  
يوجد فيها سر مكتم . قال أحدهم إن أهل الباادية كالماشرفين على رأس  
الجبل ، يراقبون الحركات والاشارات الخفية ، ومن وجد جرم فظيع  
في بيته قد تحرق خيمته وينشر رمادها في الهواء .

دمشق : سنة ١٩٣٢

## القسم الثاني

فيه أربع عشرة مخاضرة

# عدي بن الرقاع العاملية

لأستاذ خليل مردم بك

جبار

هو أبو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملية من بني عاملة . وهم من عرب اليمن ينتهي نسبهم إلى كهلان ثم إلى قحطان نزحوا عن اليمن إلى الشام مع من نزح مناليمنيين قبل الإسلام . يقول المعداني في صفة جزيرة العرب : « ديار عاملة بجاورة الأردن وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر إليها ويطال على الأردن » . ويقول أيضاً « وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية إلى نحو البحر » . ويقول ابن خلدون في كتاب العبر : « إن بني عاملة بطن متسع ومواطنهم يربى الشام » . ويقول القلقشندي في صبح الاعشى : « إن بيجمال عاملة من بلاد الشام الجم الغفير من بني عاملة » . وتُنسب الناس عدياً إلى الرقاع وهو جد جده أشهرته .

وقد زعم بعض النساب أن عاملة من معد بن عدنان وأبست من قحطان ، ولكن عدياً نفسه يتولى رد عليهم بقوله :  
قططان والدنا الذي ندعى له      وأبو حزيمة خندق بن نزار  
وفي لغة عدي أيضاً ما يصحح دعواه قال :

فإنك والشعر ذو ترجي قوا فيه      كيتنى الصيد في عربة الأسد  
يريد « الشعر الذي ترجي قوا فيه » وذو يعني الذي في لغة طبى ،  
وطبى من قحطان .

نحن لا نعلم على التحقيق في أي سنة ولد عدي ، ولكن ينبع على  
معا (١٨)

الظن أن يكون مولده حوالي العقد الرابع من القرن الأول، لأن من أول ما روي عنه من الشعر أبياتاً قالها في زمن زيد بن معاوية وأنشده إياها . وزيد بويح بالخلافة سنة ستين وتوفي سنة أربع وستين . فلا تكون خطأتين إذا قدرنا أن عدياً كان وقتئذ شاباً .

اما منزله فقد كان بدمشق كا نص على ذلك صاحب الأغاني . وقال أيضاً « هو من حاضرة الشعرا لا من باديتهم » واقبه ابن دريد في كتاب الاشتقاد بشاعر أهل الشام . وعده محمد بن سلام الجحي في الطبقة السابعة من شعراً الاسلام .

نشأ عدي في دمشق عاصمة الدولة الاموية ، وكان هواه مع بني أمية « مدح أجياءهم ويرثي أمواتهم » كما قال الوليد بن عبد الملك ، ولا يقف عند هذا الحد ، بل يرى رأيهم ويقول بقولهم ، ويؤيد سياساتهم ويتحمس لهم ، وهو سلم لمن أطاعهم وحرب على من عصاهم ، ينصرهم بلسانه وبسيفه لا عن رغبة بل عن رأي وعقيدة . قال مدح عبد الملك ابن مروان بعد أن ظفر في الواقعة التي كانت بينه وبين مصعب بن الزبير ، وانتهت بمقتل مصعب بدير الجاثليق .

اعمري لقد اصحررت خيلنا  
بـأـكـنـافـ دـجـلـةـ المـصـبـ

فـقـدـمـنـاـ وـاضـحـ وـجـهـ  
كـرـيمـ الضـرـائـبـ وـالـنـصـبـ

أـعـينـ بـنـاـ وـنـصـرـنـاـ بـهـ  
وـمـنـ يـنـصـرـ اللـهـ لـمـ يـغـلـبـ

فـدـاؤـكـ أـمـيـ وـأـبـنـاؤـهـاـ  
وـانـ شـتـ زـدـتـ عـلـيـهـاـ أـبـيـ

وـمـاـ قـلـتـهـ رـهـبـةـ إـنـاـ  
نـحـلـ العـقـابـ عـلـىـ الـذـنـبـ

إـذـ شـتـ مـازـتـ مـسـقـتـلـاـ  
أـزـاحـمـ كـالـجـلـ الـاجـرـ

فـنـ يـكـ مـنـ يـتـ آـمـنـاـ  
وـمـنـ يـكـ مـنـ غـيرـنـاـ يـهـبـ

أـفـلاـ تـرـىـ صـدـقـ الـاهـجـةـ فـ قـوـلـهـ وـ مـاـ قـلـتـهـ رـهـبـةـ . . . . . فـضـلـاـ عـنـ

بـقـيـةـ الـآـيـاتـ الـتـيـ تـنـيـ بـأـنـ الشـاعـرـ حـارـبـ فـيـ جـيـشـ عـبـدـ الـمـلـكـ .

### خليل مردم بك

٢٧٥

لما توفي عبد الملك وخلفه ابنه الوليد أخوه عدي به ومدحه بقصائد من حر الشعر بيقي منها قصيدةتان مطلع الاولى :  
عرف الديار توهماً فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها  
ومطلع الثانية :

طار الكري وألمَّ الهم فاكتئنا وحيل يبني وبين النوم فامتنا  
وغيرها من بقايا القصائد التي خلدها مأموره وأشار بعمالة العظيمة ، كما مدح ابنه عمر بن الوليد فقربه الوليد وقدمه وكان يدعوه « شاعرنا ». وثبت أحب عدي بني أمية عامه ، فلقد آخر الوليد منهم خاصة وأخلص في حبه كثيراً حتى تمنى أن يموت بمحياه ، فقال من قصيدة يمدحه بها :  
عذنا بذى المرش أن نحيا ونفقده وأن تكون لراع بعده نعماً  
ولكن هذه الامتنية لم تتحقق ، فقد توفي الوليد وبويح بعده أخوه سليمان  
بن عبد الملك ، فاستقدم عدياً وعابه على قوله هذا ووصله ، واجتمع صرعة عنده مع الفرزدق وجرير وكثير . وتوفي سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز وعدي  
حي وقد ذكره بشعره إذ يقول :

لولا اختياري أبا حفص وطاعته كاد الموى من عداه بين يترم  
ولم يذكر صاحب الأغاني ولا ابن عساكر في التاريخ الكبير ولا  
ابن سلام الجحي في طبقات الشعراء ولا ابن قتيبة في الشعر والشعراء  
خبرأً عدي بعد عمر بن عبد العزيز الذي بويح بالخلافة سنة تسع وسبعين  
وتوفي سنة احدى ومية ، فلا يبعد أن يكون عدي توفي في خلافه .  
وكأن تقدمه عند بني أمية أثار حسد الشعراء له ، فقد انعرض له جرير  
في مجلس الوليد بن عبد الملك فناقشه عدي ثم تم بينهما مواجهة لات  
الوليد منع جريراً من هجائه ، فهجاه جرير تمريضاً ولم يصرح به خوفاً  
من الوليد . وهجاه الراعي فرد عليه عدي . وكان كثير يغضه لاته كان  
يلنه عن عدي أنه يطعن على شعره .

وكان له بنت شاعرة اسمها سلمى ، فاتاه ناس من الشعراء ليما قنوه وكان غالباً ، فسمعت بنته وهي صغيرة تخرجت اليهم وقالت :  
تجمعتم من كل أوب وبلاقة على واحد لازم قيرن واحد  
فأفهمتهم . وبيستدل من كنيته على أنه كان له ابن اسمه داود وسماه بعضهم دواداً ولا نعرف من خبره شيئاً . كما أت قوله :  
« فداوك أمي وأبناؤها »  
 يعني ، بأن له اخوة حفيت علينا اسماؤهم .

وله ديوان شعر ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست . وذكر عبد القادر البندادي في خزانة الادب ج ١ ص ١٠ أنه اطلع على ديوان عدي بن الرقان وعدده في جملة الدواوين التي اعتمد عليها في تأليف الخزانة . ولكن لا يعلم الآن مكان ذلك الديوان .

### صفة وأهم رواق

لم ينص أحد من ذكر ابن الرقان على شيء من صفتة غير ابن عساكر ، فقد ذكر أنه كان أبصراً . ويصفه لنا عبيد الرايعي الشاعر بأنه قصير أوصى إذ يهجوه ويقول :

« جنادف لاحق بالرأس منكبها كأنه كودن بوشى بكلاب (١) من مشرى كحليت باللؤم اعيمهم فقد الا كف لثام غير سباب والله يعلم مبلغ هذه الصورة من الصحة . على أن بعض أخباره التي أوردها صاحب الأغاني وابن عساكر مع البقية الباقية من شعره يمكن أن تصف لنا شيئاً من نفسه وآخلاقه .

كان عدي يفخر بما يفخر به فتيان العرب : الحب والشجاعة والفصاحة وفي ذلك يقول :

(١) جنادف : قسيط أراد أنه أوصى ، والكودن : البرذون ، وبوشى : يستحب ، والكلاب للهياز ، وأقصد الكف : ما لها ، والصباب : السادة .

لـ « لي جاءلاً يسري يدي وسادها في الخيل أشهد كرها وطرادها وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسادها وكان وافياً لاصحابه في سراحهم وضرائهم لا ينحرف عنهم بالحراف ازمان والسلطان ، عزل الوليد بن عبد الملوك عبيدة بن عبد الرحمن عن الاردن وضربه وحلقه وأنقامه للناس ، وقال المتكالون به من آباء متوجهاً واثي عليه فائتنوني به ، فأتى عدي بن الرقان وكان عبيدة إليه محسناً فوقف عليه وأذنأ يقول :

فـ « فـ عـزاـوكـ مـسـبـوـقاـ وـلـكـنـ إـلـىـ الـخـيـرـاتـ سـبـاـقاـ جـوـادـاـ وـكـنـتـ اـخـيـ وـمـاـ وـلـدـتـكـ اـمـيـ وـصـوـلـاـ بـاـذـلـاـ لـيـ مـسـرـادـاـ وـقـدـ هـيـضـتـ لـنـكـبـتـكـ الـقـدـامـيـ كـذاـكـ اللهـ يـفـعـلـ ماـ أـرـادـاـ

فـ « ثـوـبـ المـتوـكـلـونـ بـهـ إـلـيـ إـلـيـ فـأـدـخـلـوـهـ إـلـيـ الـوـلـيدـ وـاـخـبـرـوـهـ بـاـ جـرـيـ ،ـ فـتـغـيـظـ عـلـيـ الـوـلـيدـ وـقـالـ لـهـ أـتـدـحـ رـجـلـاـ فـعـلـتـ بـهـ مـاـ فـلـتـ ؟ـ فـقـالـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ إـنـ كـانـ إـلـيـ مـحـسـنـاـ وـلـيـ مـؤـمـنـاـ وـبـيـ بـرـأـ فـنـيـ أـيـ وـقـتـ كـنـتـ أـكـافـهـ بـعـدـ هـذـاـ إـلـيـومـ ؟ـ فـقـالـ صـدـقـتـ وـكـرـمـتـ فـقـدـ عـفـوتـ عـنـكـ وـعـنـهـ لـكـ شـذـهـ وـاـنـصـرـفـ ،ـ وـاـنـصـرـفـ بـهـ إـلـيـ مـنـزـلـهـ .ـ

وـ « كـانـ شـدـيدـ الـعـارـضـةـ حـاضـرـ الـجـوـابـ ،ـ دـخـلـ جـرـيرـ عـلـيـ الـوـلـيدـ بـنـ عـبـدـ الـمـلـكـ وـعـنـدـهـ عـدـيـ بـنـ الرـقـانـ ،ـ فـقـالـ الـوـلـيدـ أـتـرـفـ هـذـاـ ؟ـ فـقـالـ لـاـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ ،ـ فـمـنـ هـوـ ؟ـ قـالـ هـذـاـ عـدـيـ بـنـ الرـقـانـ .ـ فـقـالـ جـرـيرـ :ـ فـشـرـ الـثـيـابـ الرـقـانـ ،ـ فـمـنـ هـوـ ؟ـ قـالـ مـنـ عـاـمـلـةـ .ـ فـقـالـ جـرـيرـ :ـ أـمـنـ إـنـيـ قـالـ اللهـ تـعـالـىـ فـيـهاـ «ـ عـاـمـلـةـ نـاصـبـةـ »ـ ،ـ تـصـلـيـ نـارـاـ حـامـيـةـ ،ـ ثـمـ قـالـ يـقـصـرـ بـاعـ الـعـاـمـلـيـ عـنـ الـنـدـيـ وـلـكـنـ =ـ الـعـاـمـلـ طـوـيلـ

فـ « قـالـ لـهـ عـدـيـ :

أـمـكـ كـافـتـ أـخـبـرـتـكـ بـطـولـهـ أـمـتـ اـمـرـؤـ لـمـ تـدـرـ كـيفـ تـقـولـ فـقـالـ جـرـيرـ :ـ لـاـ بـلـ أـدـريـ كـيفـ أـقـولـ .ـ فـقـالـ الـوـلـيدـ وـالـلهـ يـرـكـبـكـ

شاعرنا ومادحنا والرأي لا مواتنا ، تقول هذه المقالة ؟ والله أئن هجونة  
لأنفعلن ولا فعلن . فلم يصرح جرير بمحاجته وعرض دفاع قصيده التي أولها :  
حي المدملة من ذات المواجه

وقال فيها يعرض به :

أفسر فإن زاراً لن يفخرهم فرعُ ائمَّهُ وأصلُّ غير مفروض  
وأين الليون اذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البرز القناعيس  
قد جربت عرَّكتي في كل معتزلَ غلب الاسود ثما بال الضغابيس  
وكان عدي مدح الوليد بن عبد الملك بقوله : عذنا بذى العرش أن نحيا ونفقد  
عذنا بذى العرش أن نبيق ونفقد  
فلا توفي الوليد وبويح بالخلافة لسلامان بن عبد الملك ، استدعى عدياً ، فلما  
دخل عليه قال : إن كنت لكارهاً لخلافتي . قال وكيف ذاك يا أمير  
المؤمنين ؟ قال حين تقول في مدحه الوليد :

عذنا بذى العرش ان نبيق ونفقد  
قال ابن الرقاع والله ما هكذا قلت يا أمير المؤمنين ولكنني قلت :  
عذنا بذى العرش ان نبيق ونفقد  
قال من قصيدة : ومن شعره ما يدل على انه كان تيئاًهاً كثير الاعجاب والذهاب بنفسه ،  
قال او كذلك ؟ قال نعم . فوصله واذن له بالانصراف .

وعملت حتى ما اسائل واحداً عن علم واحدة لكي ازدادها  
وتفق ان عدياً لما الشد الوليد بن عبد الملك القصيدة التي منها هذا  
البيت ، كان عنده كثيير ، فلما انشد هذا البيت قال كثيير كذبت ورب البيت  
الحرام ، فليمتحنك امير المؤمنين بان يسألك عن صغار الامور دون كبارها  
حتى يتبيّن جمالك وما كنت فقط احق منك الان حيث تظن هذا بنفسك .  
فضحك الوليد ومن حضر .

وروى عن محمد بن المنجم انه قال : ما احد ذكر لي فأحببت ان

### خليل مردم باك

٢٧٩

اراه فإذا رأيته امرت بصفعه الا عدي بن الرقاع قيل : ولم ذلك ؟ قال ا قوله :  
وعملت حتى ما اسائل واحداً عن علم واحدة لكي ازدادها  
فكنت اعرض عليه اصناف المعلوم فكلما صر به شيء ولا يحسن  
امر بصفعه .

وقد سعى جرير عدياً الشاعر المغدور حين عرض به فقال :  
اني اذا الشاعر المغدور جربني جارِ اغير على مرات مرموس  
ولكنه مع هذا الاعجاب بنفسه لم يقو على مصاولة جرير بل خاله ، فقد  
روي أنه لما اجتمع بجرير عند الوليد بن عبد الملك وهدده جرير بالهجاء ،  
وبث عدي إلى رجل الوليد فقبلها وقال اجرني منه .  
وإذا صح أن تكون الصفات التي ينعت بها الشاعر نفسه دليلاً على  
أخلاقه جاز لنا أن نقول إن عدياً كان جلداً لا يتضعضع لرب الدهر بقوله :  
ونكبة لو رمى الرامي بها حجراً أصم من يابس الصوان لأنصدنا  
أنت على فلم أزع لها سلي ولا استكنت لهاشكوى ولاجزعا  
وإنه كان حمولاً على نفسه غير سؤول بقوله :  
فستر عيب معيشي بتكرمِ وآتى في سعة النعم مدادها  
ومهما يكن من مبالغة في هذه الصفات فإنها تضرب بعرق إلى الحقيقة  
في نفس الشاعر ، أما هراء السياسي فقد كان مع بني أمية كما تقدم ذكر  
ذلك في حياته .

### شعره

عاصر عدي بن الرقاع سبعة خلفاء من بني أمية ، وكان مقدماً عندهم  
لأن مذهبـه السياسي أموي ، ولا عمل له غير التمر ، وقد حدث في رمضان  
من الأحداث ما يبعث الشعر في نفس عدي ، فمن المفروض أن يكون قال  
كثيراً من الشعر . وقد ذكر له ابن النديم في كتاب الفهرست ديواناً ،  
ولكن الزمان لم يبق من شعره إلا مقداراً يسيراً مشتملاً في كتب اللغة

والآدب والتاريخ وتقويم البلدان ، من ذلك أبيات قالها في الواقعة التي ظفر بها عبد الملك بن مروان وانتهت بقتل مصعب بن الزير ، وقصيدة مدان مدح بها الوليد بن عبد الملك سبقت الاشارة إليها ، وأبيات مدح بها عمر بن الوليد ، ومقطوعات في معان مختلفة كالوصف والفن والآدب والفخر والمدح والهجاء والهستة ، وكلها لا تبلغ أربعمائة بيت ، وهو مقدار يسير لا يعطينا عن الشاعر صورة تامة واضحة ، ولكننا نحاول أن ندرس هذه البقية من شعره إلى أن يجد الزمان بشيء مما ضن به علينا .

\* \* \*

عدي بن الرفاعي شاعر إسلامي ، والشعراء الإسلاميون عامة كالفرزدق وجرير والخطاب وكثير وجبل والراعي ونصيب والقطامي ، — وعدى واحد منهم — أعدب لغة وأحسن دياجدة وأكثر طلاوة من شعراء الجاهلية ، وذلك لتأثيرهم بلغة القرآن وحسن انسجامه وسوأسلوبه ، دع ما انفسح أمامهم من ميادين الحياة الإسلامية في مثلها العليا من دين وملوك لم يكونوا في أيام الجاهلية .

وربما كان عدي من أكثر هؤلاء الشعراء انسجاماً وتنقيراً لشعره وتهذيبه وهو الذي يخبرنا كيف كان يمحى قصائده ويصلقها ويعود عليها بالتهذيب إذ يقول :

وقصيدة قد بتْ أجمع يبنها حتى أقوم ميلها وسنادها  
نظر المقف في كموب قناته حتى يقيم ثقافه من آدتها  
وهو في فنه صالح ماهر لا يكره الشعر إلا كراهاً ولا يقتصر القوافي  
غصباً ولقد أتيح له من بارع الآيات في انسجامها ما ذهب مثلاً قوله :  
صل الاله على أمري ودعته واتم نعمته عليه وزادها

## خليل مردم بك

٢٨١

ففقد صار عجز هذا البيت ربما من رسوم الكتاب في رسائلهم ، قال أبو هلال المسكري في ديوان المعاني في فصل دعاء المكانية : « فاما قولهم واتم نعمته عليه وزاد في إحسانه إليه » فهو من قول عدي بن الرفاعي :  
صل الاله ... الخ

وكتوله :

يسعدني شفقت النفس قبل التندم  
فأو قبل مبكاهما بكية صباية  
ولكن بكـت قبلـي فـهـيج لـيـ الـبكـا  
بكـاهـا فـقـلـتـ الفـضـلـ المـتـقدمـ  
وكم تـعـثـلـ النـاسـ بـهـذـينـ الـبـيـتـينـ

\* \* \*

قالوا إن عدياً من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، وأنه كان أثيناً مقدماً عند بني أمية ، ومعنى ذلك أنه من دعاة سياستهم لا من الشعراء الذين يسيرون الشعر فيما . فعل لذلك آثر في شره ؟ نعم أن اطراد شعره وتساؤل أبياته وتلامحها وتهذيب قوافيه وحسن صياغته وما في تشبيهاته من معان حضورية وفي قصائده من ماه وظل ونعم كقوله :

فقد أبـتـ أـرـاعـيـ الـخـودـ رـاقـدـةـ علىـ الوـسـائـدـ مـرـورـاـ بـهـاـ وـلـماـ

وقوله :

وـمـاـ شـجـانـيـ أـقـيـ كـنـتـ نـائـماـ أـعـلـلـ مـنـ بـرـ الدـكـرـيـ بـالـنـسـمـ  
إـلـىـ أـنـ بـكـتـ وـرـقـاـفـيـ غـصـنـ أـيـكـةـ تـرـدـ مـبـكـاهـاـ بـحـنـ الـرـنـمـ  
أـرـدـ مـنـ آـثـارـ نـعـيمـ الـمـيـشـ وـرـفـاهـتـهـ ،ـ فـانـ شـعـرـاءـ الـبـادـيـةـ يـتوـسـدـونـ فـيـ  
بـادـيـتـمـ أـعـضـادـ الـمـطـاـيـاـ ،ـ وـعـدـيـ يـرـاعـيـ الـخـودـ عـلـىـ الـوـسـائـدـ ،ـ وـيـمـلـلـ فـيـ ظـلـالـ الـأـبـكـ  
بـدـمـشـقـ بـنـوـمـ هـنـيـ تـرـنـمـ مـنـ فـوـقـهـ الـحـائـمـ .ـ

عـلـىـ أـنـ حـسـنـ قـاتـيـهـ فـيـ مـدـحـهـ لـبـنـيـ أـمـيـةـ خـلـفـاهـمـ وـأـمـرـاهـمـ أـدـلـ عـلـىـ  
لـبـاقـتـهـ وـتـخـضـرـهـ ،ـ فـوـ شـاعـرـ بـجـيدـ مـنـ شـعـرـاءـ الـقـصـورـ يـحـنـ الـقـيـامـ بـرـسـومـ

الخلفاء والأمراء في مخاطبتهما على الوجه الأكمل، ويعدهم بما هو أشبه بالدعائية السياسية، ويصنف عليهم رداء الجلال والعظمة، فاسمهم يقول في مدح الوليد بن عبد الملك :

صل الذي الصلوات الطيبات له  
والمؤمنون إذا ما جمعوا الجما  
على الذي سبق الأقوام ضاحية  
بلا جر والحمد حفي صاحباه معا  
هو الذي جمع الرحمن أمته  
على يديه وكانوا قبلاً شيئاً  
عذنا بذى المرش أن نحيا ونفقد  
وان تكون لراع بعده تبعاً  
إن الوليد أمير المؤمنين له  
ملك عليه أمان الله فارتفعا  
ويقول في مدحه أيضاً :

سلى الإله على امري، ودعته  
وأتم نعمته عليه وزادها  
أفت خزائهما إليه فقادها  
من أمة إصلاحها ورشادها  
ولقد أراد الله إذ ولاً كها  
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت  
وأنبت في أرض المدود مصيبة  
ظفرأ ونصرأ ما تناول مثله  
فإذا ثارت له النساء وجدته  
جمع المكارم طرقها وبلادها  
نائيه أسلاب الأعزاء عنوةً  
قرأ ويجمع للحروب عتادها

فهل ترى نعطاً أليق بمخاطبة الخلفاء من هذا النمط؟ تحية الخليفة  
بالصلوة عليه، وتعظيم للأمر المضطلع به، وإشادة بعظيم أعماله في سبيل  
الأمة، وإخلاص في محبيه وتأييده للملك وعرشه . بل كيف ترى الفرق بين  
هذا الأسلوب الحضري وبين أسلوب بعض باديء الشمراء، الذين اعتادوا  
أن يصفوا المدوح بالحياة الذكر، ويعدهوه بتاريخ التبران وعظم القدر  
ونحر الجوز ودعوة الجفل والنداء على الطعام وكثرة المبات . أو أن  
يصفوا عناه سفرهم إلى الخليفة وما لاقوه من المشاق وما هم عليه وعيالهم

الذين خلفوهم ورائهم من الفاقة ليزيد الخليفة في رفدهم . هذا جرير  
أطبع أهل زمانه على الشعر لم يستقم له في مدح الخلفاء ذلك الأسلوب  
الذي استقام أمدي ، فإنه في مدحه لعمر بن عبد العزيز أشبه بالمستجدي  
منه بالشاعر قال :

إنا لترجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما زرجو من المطر  
أم قد كفاني الذي بلغت من خبرى  
آذ ذكر الجهد والبلوى التي نزلت  
كم بالمواسم من شعثاء أرملاً  
ومن يتم ضعيف الصوت والنقر  
يدعوك دعوة ملحوظ كان به مساً من الجن أو خيلاً من البشر  
كالفريخ في العرش لم يدرج ولم يطر  
من يبعدك تكفي فقد والده  
خليفة الله ماذا تأمرون بنا لسنا إليك ولا في دار متضرر  
لتتشالي يوم ربئي ثم تنهضي وتنزل البسر مني موضع العسر  
وما ذلك إلا لبداوة جرير وبعده عن حياة الحاضرة ، على أنه بحر  
لا ساحل له .

ولعدي أيضاً أبيات يمدح بها أحد أمراء بي أمية وهو عمر بن الوليد  
بن عبد الملك ، تدل على لياقة وحسن تأت لو قالها أحد شعراء القصور  
في هذه الأيام لا تأثرت إعجاب الناس لما فيها من حدق ولباقة وهي :

وإذا نظرت إلى أميري زادني ضناً به نظري إلى الأمراء  
تسمو العيون إليه حين يرونـه كالبدر فرج بهمة الظلاء  
والقوم أشباءً وبين حلومـهم بونـ كذلك تفضل الآشـاء  
كالبرق منه واـبلـ متـابـعـ جـوـهـ وـآخـرـ ماـجـودـ بـاءـ  
والـاـصـلـ يـبـتـ فـرـعـهـ مـقـاهـلـ والـكـفـ لـيـسـ بـانـهاـ بـوـاءـ  
بـلـ ماـ رـأـيـتـ جـبـالـ أـرـضـ تـسـتوـيـ فـيـاـ غـبـتـ وـلـاـ بـحـوـمـ سـاءـ  
وـالـمـرـ يـورـثـ بـحـدـهـ أـبـاهـ وـيـعـوتـ آـخـرـ وـهـوـ فيـ الـأـجـاءـ

وفي شعر عدي عدا النعومة الحضريّة مفردات وممان تدل على الحضارة  
كذكر الكتاب والقلم والدواء والبريد والتجار كقوله :  
ترجي أغن كأن إبرة روفه قلم أصاب من الدواة مدادها  
وك قوله :

لن رسم دارِ كالكتاب المنعم . بمندرج الوادي فوين المهزُّم .  
وقوله :

بها العربيات الحسان الحرائر  
كثير بها الأعداء يحسر دونها بريد الإمام المستحب المثابر  
وقوله :

مستطير كأنه ساريٌ عند تجرب منشرٌ وملائِي  
على أن أثر البدائية ظاهر جلي في شعره أيضاً ، فأنت تدرك به روح  
البدائية كأن ينصر أفياء الحاضرة ، فنراه يصف المطابياً وصفاً يكاد ينفرد  
به من حيث الدقة والاستقصاء ، كما يصف المفاوز وما فيها من أعلام  
طامسة وأطلال دارسة ووحوش رائعة ، ولكنه يتفرع لها تشبيهات مما  
شاهدته في الحاضرة ، عناية رصف وقوه أسر وجزالة تركيب ، ولعل عدم  
اقطاعه عن البدائية هو الذي كفل لشعره السلامة مما يعتري كثيراً من  
شعراء الحواضر ويسميه النقاد باللين ، ويعنون به الرقة التي تفضي إلى الإسفاف ،  
ونجد هذا اللين أحياناً في شعر عدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت ،  
وابن قيس الريقيات ، والوليد بن زيد ، وكاهم حضريون .

وهكذا فشعر عدي بما فيه من روح البدائية ورونق الحاضرة عربي  
في جزائه ورسقه وخياله ومعاناته وتفكيره ونظراته ، لا تجد فيه أثراً من  
ثقافة أجنبيّة شأن جميع الشعراء المسلمين ، لأن الحياة بجميع مظاهرها  
أيام نبأ أمية كانت عربية إسلامية .

لقد أحسن عدي في الوصف فإنه وصف الطيف والغيث والبرق والليل

### خليل مردم بك

٢٨٥

والحر والمطابيا والظباء والوحوش في حر كاتها وما تثيره من الغبار في عدوها .  
قال صاحب الْأَغْنَى ، قال عبدالله بن مسلم : « وما ينفرد به (عدي) ويقدم  
فيه وصف المطيبة فإنه كان من أوصاف الشعراء لها » ،  
قال في الخيل :

يخرج جن من فرجات النقع دائمة كأن آذانها أطراف أقلام  
وقال ابن قتيبة : عدي أحسن من وصف الفلبية وولدها .  
وقال جرير : سمعت عدي بن الرقاع ينشد الوليد بن عبد الملك  
قصيدة التي أوحها :

### عرف الديار توهمها فاعتدادها

فسدته على أبيات منها ، حتى أنسد في صفة الفلبية والغزال :  
ترجي أغن كأن إبرة روفه  
فرحته من هذا التشبيه ، وقلت بأي شيء يشبه ترى ؟ فلما قال :  
فلم أصاب من الدواة مدادها  
رحمت نفسي منه وحالت الرحمة حسداً .

وقال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني ، وأما قول عدي في صفة  
قرن الطبي فليس له شبيه ،  
ولم يقل أحد كما قال عدي يصف حماري الوحش في عدوها وما

يشيرانه من الغبار :

يتماوران من الغبار ملاحة غراء محكمة ها نسجاها  
لطوي إذا علو مكاناً جاسياً وإذا استباشك أسللت ثراها  
وإلى ذلك أشار أبو تمام الطائي بقوله :  
تثير عجاجة في كل أرضٍ ٢٣٦ عدي بن الرقاع

قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني بعد أن أورد يليه عدي :  
، لا أعرف في صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا ،  
وعدي في غزله حسن رقيق عذب يغلب عليه الوصف الدقيق في  
الماء الغزالية ، من ذلك وصف تفتير العينين ولم يقل أحد مثله ، قال  
نوح بن جرود يأبى من أنساب الشمراء ؟ قال ألمعي ما فلت ؟ قال إني  
لست أزيد من شعرك إنما أريد من شعر غيرك ، قال ابن الرقان في قوله :  
لولا الحياة وإن رأسي قد عسا ، فيه المشيد لزرت أم القاسم  
وكأنها بين النساء أغارها عينيه أحور من جاذر جاسم  
وستان أقصده الناس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم  
نم قال لي ما كان يالي إن لم يقل بعدها شيئاً .

وهذه الآيات مما يتفق به . قال محمد بن عباد كنت عند أبي عمرو  
وعنه رجل اعرابي كأنه مدنى فقرأت عليه آيات عدي : « لولا الحياة  
وان رأسي قد عسا » ، فقال أبو عمرو أحسن والله ، فقال الاعرابي أما  
واه لو رأيته مشبوحاً بين أربعة وقضبان الدفلة تأخذه لكنت له أشد  
استحساناً يعني إذا كان يعني على المود .

قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب الوساطة :  
« وأما قول عدي « وستان . . . . » فقد زاد به على كل من تقدم  
وسيق بفضلة جميع من تأخر ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له وحظر  
على الشمراء ادعاه الشرك فيه لما أراني بمقدت عن الحق ولا جانب الصدق »  
وقال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني : قال أبو عمرو لا يخالط  
ما أحسن ما قبل في العيون ؟ قال بعضهم قول جرود  
إن العيون التي في طرفاها حورة قتلتها ثم لم يحيي قتلانا  
يصرعن ذات اللب حتى لا حرث بها وهن أضعف خلق الله أركاننا  
وقال آخر قول ذي الرمة :

وَيَنَانَ قَالَ اللَّهُ كَوْنَا فَكَاتَا فَمُولَانَ بِالْأَلْبَابِ مَا فَعَلَ الْخَرْ  
وَقَالَ آخَرَ بَلْ قَوْلَهِ  
يَذْكُرُنِي مِنْهَا مِنْ الطَّيِّبِ عَيْفَهِ مَرَارًا وَفَاهَا الْأَخْوَانُ الْمُنْورُ  
فَقَالَ أَبُو عُمَرُو أَحْسَنُ مِنْ هَذَا كَلَهُ قَوْلُ عَدِيٍّ بْنِ الرَّقَاعِ الْعَامِلِيِّ  
وَكَانَهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَغَارَهَا عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمِ  
وَسَنَانِ أَقْصَدِهِ النَّعَاصِ فَرَنَقَتْ فِي عَيْنِهِ سَنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ  
وَمِنْ غَزْلِهِ الْعَذْبِ قَوْلَهُ :  
صَادَتْكَ أَخْتَ بْنِ لَؤَيْ إِذْ رَمَتْ سَوَاهَا  
وَأَغَارَهَا الْحَدَنَاتُ مِنْكَ مُودَةً  
يَضَاءُ كَسْتَلُبُ الرَّجَالِ عَقْوَلَهُمْ  
يَا شَوْقَ مَا بَكَ يَوْمَ بَانَ حَدْوَجَهُمْ  
مِنْ ذِي الْمَوْبِعِ غَدْوَةٌ فَرَآهَا  
وَقَوْلَهُ :

وَنِيهٌ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ نَائِمًا هَتْوَ الدَّجْيِ مَشْفُوفَةٌ بِالْتَّرْنِمِ  
إِلَيْهَا دَمْوَعُ الْمَيْنِ مِنْ كُلِّ مَسْجُمٍ  
بِكَتْ شَجْوَهَا عَنْدَ الْفَصْحِيِّ فَتَسَاجَمَتْ  
بَعْدِي شَفَيتُ النَّفْسِ قَبْلَ اِتَّنَدْمِ  
بِكَاهَا قَلْتَ فَبَكَاهَا بِكَيْتَ صَبَابَةً  
وَلَكَنْ بَكَتْ قَبْلِي فَبَيْجَ لِي الْبَكَا  
وَلَهُ نَظَرَاتٌ فِي الْأَدْبِ وَالْحَكْمَةِ تَلْبِي السَّذَاجَةَ الْمَرِيَّةَ، زَيْنَ بَهَا  
بعض قصائده في مناسبات شقي كالأيات التي مدح بها عمر بن الوليد  
بن عبد الملك وقد سبق ايرادها وغيرها كقوله :  
أخبر النفس إنما الناس كالعيال دان من بين ثابت وهشيم  
وَقَوْلَهُ :

وَالَّدَهْرِ يَفْرَقُ بَيْنَ كُلِّ جَمَاعَةٍ وَيَلْفُ بَيْنَ تَبَاعِدِ وَتَنَاهِ  
وَقَوْلَهُ :  
وَالْمَرِءُ لَيْسَ وَانْ طَالَتْ مَعِيشَتَهِ يَرِيَ الَّذِي هُوَ لَاقٍ قَبْلَ أَنْ يَقُمَّا

وقوله : إن إذا ما لم يصلني خليٍ وتباعدت عني اغترفت بعادها  
ومن المعانى التي نظم بها عدي الشاعر حين هنا عبد العزيز بن الوليد  
بن عبد الملك زواجه قال :

فِرَالْمَاءُ وَشَمْرَا اجْتَمَعَا  
بِالسَّعْدِ مَا غَلَبَا وَمَا طَلَعَا  
مَا وَارَتِ الْأَسْتَارِ مِثْلَهَا  
دَامَ السُّرُورُ إِلَيْهَا وَلَهَا  
وَهُوَ مَعِنِي لَمْ تَقْلِ الْجَاهِلِيَّةَ فِيهِ .

### أثر الشام في سُرُور عدي

الشعر العربي ابن الباذية ، تبع منه رائحة الشيخ والقيصوم في بوادي  
الجاز ونجد وهضاب اليمن وظلال الشام وشواطئ دجلة وسوق الفرات ،  
والشاعر العربي لمهد عدي يعتقد روح الباذية عمود الشعر وقوامه ، ولكن  
بالرغم من ذلك فإن أثر الشام واضح جلي في شعر عدي ، فلقد ذكر مدنها  
وحااضرها وقرابها وربوعها وظلالها وأنهارها ومياها وجبلها  
وبادبها ، كما ذكر آرامها ووحشها وطيورها ، مثل حمص وخناصره والأحصنة  
وجاسم والمرج والمناظر والازرق واعمق وفلسطين وبيت رأس والاردن  
والغرفة وغيرها ، وطبيعة الشام المنسجمة الساحرة في أرضها وسمائها ، وما  
في دمشق يومئذ من جلال الخلافة وعظمته الملوك ، أوحي إلى عدي كثيراً  
من ذلك الانسجام واللباقه والتثقيف في شعره ، حتى صار يعتقد ذلك فناً  
خاصاً بالشاميين لا يحيده غيرهم ، ولذلك كان عدي ينتقد كثيير عزة ويفخر  
ويطعن على شعره ويقول « هذا شعر حجازي مقرر إذا أصابه قر الشام  
حمد و هلك » وهكذا فعدى فخور ببربيته وشامتته معترف بما توجهه  
طبيعة الشام الساحرة الى الشاعر العربي حتى يرى نفسه فوق شعراء العرب.

وأقى وجد عدي في بادية الشام بحالاً لرياضة الشعر على النحو الجاهلي  
في بوادي نجد والجاز ، فاعتطف مفاوزها ووقف على الرسوم وبك الاطلال  
ووصف الآل وحن إلى آكامها وداراتها وربوعها وشيب بنزلاتها واهتزاج  
المع بروقها .

وهذه أمثلة من شعره يلوح عليها الطابع الشامي :

مَنْعَوْا التَّغْرِةَ إِلَيْهِ حَمْصٌ وَالْكَهَانِينَ لَيْسَ فِيهَا عَرَبٌ  
وَإِذَا الرَّبِيعُ تَبَاعَتْ أَنْوَافُهُ فَسَقَ خَنَاصِرَةَ الْأَحْصَنِ بَغَادَهَا  
وَكَانَهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعْنَارُهَا عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمٍ

والغريب أن القاضي علي بن عبد العزيز الحرجاني صاحب كتاب الوساطة  
على نفوذ بصره وصحة أحكامه في النقد ، أساء فهم هذا البيت ، فلن أن  
ذكر جاسم من حشو الكلام لا فائدة في ذكره ، فتالي بعد أن قرأت البيت :  
« وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء ، وقد يختلف خلق  
الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والموقع ، وأما العيون فقل » أن تختلف لذلك ،  
وفاته أن عدياً شامي ، وجاسم من قري الشام ، فلجاج ذرها منزل في قلبه  
لا يختله غيرها .

ومن شعره المطبوع بالطابع الشامي :

فَكَاتِي مِنْ ذَكْرِكَمْ خَالِطَتِي مِنْ فَلَسْطِينِ جَلْسٌ خَمْرٌ عَقَارٌ  
عَنْتَقْتَ فِي الدَّنَانِ مِنْ بَيْتِ رَاسٍ سَنَوَاتٍ وَمَا سَبَبَهَا التَّجَارُ

وقوله :

حَتَّى وَرَدَنْ مِنْ الْأَزْارَقِ مِنْهَا وَلَهُ عَلَى آثارِهِ سَجِيلٌ

وقوله :

فَذَرْذَلْكَنْ هَلْ تَرَى ضَوْءَ بَارِقٍ وَمِنْضَأْ تَرَى مِنْهُ عَلَى بَعْدِهِ لَمَّا  
تَصَمَّدَ فِي ذَاتِ الْأَرَابِ مَوْهَنَا اذْهَرَ رَعْدًا خَلَتْ فِي وَدَقَّهُ شَفَّافَا  
إِلَى مَا يَشَابِهُ هَذِهِ الْأَيْمَانِ فِي شِعْرِهِ . وَهُنَاكَ أَيَّاتٌ بَلْ فِيهَا بِالْأَحْدَاثِ  
عَا (١٩)

السياسة التي جرت في الشام كوقعة مرج راهط التي كانت بين مروان ابن الحكم والضحاك بن قيس سنة أربع وستين وما كان من بلاء أهل الأردن الحسن مع مروان حتى قتل الضحاك وتم الأمر لمروان قال : اولاً إلا إله وأهل الأردن أقتُلْت نار الجماعة يوم المرج نيرانا وكانتصار مسلمة بن عبد الملك على الروم سنة سبع وثمانين عند طوانة قال :

نصر الذي فوقنا والله أعطانا  
وكان أمرك من أهل الطوانة من  
أمرأ شددت باذن الله عقدته فزاد في ديننا خيراً ودنيانا

### محنارات من شعره

ديوان عدي بن الرقاع مفقود ، ولم يبق من شعره إلا القليل ، وهذا القليل غير مجموع في مكان واحد يمكن الرجوع إليه ، بل هو مبعثر في بطون الكتب ، لذلك فقد انصرفت مدة من الزمن أجمع كل ما عثرت عليه من شعره في كتب الأدب واللغة والتاريخ والتراجم وتقويم البلدان ، فقد أجد القصيدة من شعره مفرقة في أمكنته متعددة فأضمن بعضها إلى بعض ، وقد أجد أبياتاً من بحر واحد وقافية واحدة منتشرة على سبيل الاستشهاد في كتب اللغة وتقويم البلدان كسان العرب لابن منظور ومعجم البلدان لياقوت فأجتهد في ترتيبها وجعلها قطعة واحدة متالية بعد التحري والرواية . ولم أجد من شعره قصيدة كاملة في مكان واحد إلا قصيده الدالية التي مدح بها الوليد بن عبد الملك وأولها :

صرف الديار توهاً فاعتادها من بعد ما شمل البلي أبلادها

فقد وردت برمتها في نهاية الأربع للنويري ج ٤ ص ٢٤٧ وشرح الكامل للمرصفي ج ٧ ص ٨٨ ومجلة الآثار ج ٢ ص ٤٤٤ .

وهاك طائفة مختارة مما جمعته من شعره :

قال :

لو توى لا يرعها الف حول  
أهواها يشفه أم أعيتَ

وقال :

وناعمةٌ مخلو بعود أراكَه  
كأنْ بها خمراً بعاء غمامه

أراكَ إلى نجد تحن وإنما  
وقال يحبب الراعي لما هجاء :

حدثَ أن رويعي الابل يشتمني  
فانك والشعر ذو تزجي قوا فيه

وقال :

صادتك اخت بني لوئيِّي إِذ رمت  
 وأنغارها الحدثان منك مودة  
بيضاء تستلب الرجال عقولهم  
وكان طم الزنجيل ولذة  
فإذا تجلجل في الفؤاد خياطها  
يا شوق ما بك يوم بان حدوجها

ومنها يقول في صفة حماري وحش :  
يضا، حكمة، ها نسجها

يتعاونان من الغبار ملامة  
تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً

وقال :

وفي الخدور منها حورٌ مصورة  
إذا كررَنْ حديثاً قلنْ أحسنَه

خلقنْ أحسنَ ما قالَ من يصفُ  
وهنَّ من غير سوءٍ ينْسُدُ

وقال يصف غيضاً :

مرزنٌ ترمع في ربيع شامية  
وبعس الليل حتى قد سانه  
القى على ذات أجنفار كلا كلاء  
نارٌ نماود منها العود جدته  
فأبا به بطن واد غب تضحيته

وقال في طول الليل :

وكأن ليلي حين تغرب شمسه  
أرعى النجوم إذا انور كوكبُ

وقال يصحح عمر بن هبيرة :

إذا شئت ان قلقي فتى البأس والندي  
فكن عمراً تأني ولا تدعونه  
تفقد عزلت عنه الفواحش كلها  
كان زرور القبطية علقت  
عماس أسفار إذا استقبلت له  
يكافع لوحات المهاجر بالضحى  
إذا ما رمى أصحابه بمحبته

وقال يفتح :

نسيم مساعدنا السواحل فيكم  
فلات تهدونا الجاهلية اتنا  
بلا ذاك منا ابن المعدل مرة  
يفقد علينا ابني نزار من الملا  
فلمما ظلنا انه نازل بنا  
ونحن فككنا عن عدي بن حاتم

### خليل مردم باك

٤٩٣

وقال يصحح عمر بن عبد العزيز :

جمعت الواطي يحمد الله عبده  
فأولئك البر والبر غالبٌ  
وثانيةٌ كانت من الله نعمةٌ  
وثالثةٌ أن ليس فيك هروادةٌ  
ورابعةٌ أن لا تزال مع النقي  
وخامسةٌ في الحكم أنك تنصف الفقير وما من علّم الله كالمعلم  
وسادسةٌ أن الذي هو ربنا أصلح فلان فلن يتبعك لا ينتد  
وسابعةٌ أن المكارم كائناً  
سبقت إليها كل ساعٍ ولم يتم  
وئامنةٌ في منصب الناس أنه  
يمدون سبباً من أمام متهم  
وعاشرةٌ أن البرية كائناً  
لحملك في فضل من القول عكم

وقال في الخمر :

فكان من ذكركم خالطني  
عنتيق في الدنان من بيت راس  
في بياض العينين منها احرار  
وقال :

رماداً وأحجاراً يقين به سفناً  
وحتى سرت عيناي كانها دمعاً  
إلى حجر صد رُكِنَ به صدعاً  
عقار ثُوت في دنها حجاجاً سبباً  
إذا ما أرادوا ان راحوا به صرى  
منابتها مستحدثات ولا قرعاً  
ومبيضاً رى منه على بعده لما

عرفت بعيري أو برجلاتها ربما  
فما رمتها حتى غداً اليوم نصفه  
أسرهم ما لو تقلل بمضرها  
أميد كانى شارب لم يبت به  
مقدية صهباء تخت شربها  
عصارة كرم من حديبه لم تكن  
فذر ذا ولكن هل ترى ضوء بارق

مكللاً بعاه الماء منتطلقاً  
على الرويشد أو خرجاته بدقة  
وشب نيراوه وإنجواب يأتلق  
والنار تسفع عياداناً فتحت حق  
وان راغب إلا مسفةٌ تدق

بسواد آخر مثله موصولٌ  
أبصرت آخر كالسراج يحمل

وذا الحسب الزاكي التليد المقدم  
إلى غيره واستخبر الناس وفهم  
فلم تختلط منه بلحمٍ ولا دم  
علاطفها منه بجذعٍ مقوّم  
سمومٌ كحر النار لم يتلثم  
مكافحةً للمنحرفين وللغم  
سرى الليلة الظلماء لم يهكم

وما تذكرن الفضل إلا توها  
لنحدث في الأقوام بؤساً وأنما  
وعمر وبن هند عاماً صعدوا وما  
واهل العراق ساميًّا متعظماً  
ضرينا ووليناه جمماً عرس ما  
اخي طبي لا جبال قد آخروا

تصعد في ذات الارانب موهناً  
فما تركت أركانه من سواده  
فلا هن رعداً خلت في ودقة شفها  
ولا من بياض مسترada ولا وفها<sup>(١)</sup>

وقال :

لولا الحباء وان رأسي قد عما  
يصطاد بقطان الرجل حديثها  
وكأنها بين النساء أغارها  
وسنان أقصده النعاس فرنفت

فيه المشيب لزرت ام القاسم  
وتطير بمجتها بنوم الحال  
عينيه أحور من جآذر جاسم  
في عينه سنة وليس بنائم

هذه طائفة مختارة مما جمعته من شعر عدي بن الرقاع العامل إذا أضيفت  
إلى ما ورد منه على سبيل الاستشهاد، صورت لقاري، شاعرًا خلاً من شعراه  
بني أمية الذين يمثلون الشعر العربي الخالص .

دمشق : سنة ١٩٣٦ .

## سياسة تمخضت لمعرفة

للأستاذ عبد القادر المغربي  
وهو ما وقع أنها السادة : فإن مشروعًا جغرافيًا في أوله ، دوايَا  
سياسيًا في آخره تمخض عن بحث لغوي ، جعلته موضوع حديثي إليكم .  
\*\*\*

عدت إلى طرابلس الشام سنة ١٩٠٩ م . بعد إقامتي في مصر بعض  
سنوات محررًا في جريدة الظاهر والمؤيد ، وفي السنة التالية أني في سنة  
١٩١٠ م أخبرت وأنا في طرابلس بأن سياحة من الانجليز يسألون عني ،  
ولما اجتمعت بهم ، إذا ها انجلزيان ، وناائم عربى عراقي ، وقد ذكروا  
أن غرضهم من مجئهم سورياً البحث عن الخطوطات القديمة . وبلفهم أن  
لدي منها ، فهم يريدونني بذلك .

والثلاثة في حدود الأربعين من أعمارهم ، وأحد الانجليزين من سكان  
لندن المقيمين فيها : وهو ربعة ، مهندس ، الجسم ، حنطي اللون ، وقور ،  
تلوح عليه مخايل الأصالحة ، وفيه حياة يتراءى من تحته قلق فكر ، واضطراب  
بال ، يعرف كلات قليلة من العربية ، واسمها ( السيد باكتون ) ،  
وأخبرت أنه من أشراف الانجليز . ومن كبار أغذائهم .

أما رفيقه الانجليزي الآخر فسمى لي نفسه ( الحاج عبد الله زنجياري )  
والملامح الانجليزية ظاهرة في لونه وساخته وذرقة عينيه - أكثر من  
ظهورها في رفيقه « باكتون » ، وقال إنه من أصل انجليزي ولكنه  
مولود في زنجبار ، ولذا يتكلم العربية . وهو ضابط في الجيش الانجليزي  
وكان قبل بعض سنوات قام بزيارة من زنجبار إلى أواسط أفريقيا ، وله  
اكتشافات جغرافية : منها العثور على طريق جديد من زنجبار إلى بحيرة

فكتوريا نيازرا . وقد ألف في اكتشافه هذا كتاباً طبع ونشر وانتفع به المعنيون بقارنة افريقية من رجال السياسة . وانه هو ورفيقه « باكستون » ، لكنه لا ذكر إسلامية ( باكستان ) ججم فليلا : « لما أن جنـ باكستان للغة العربية يحمله عاجزاً عن فهم شرائع الإسلام . ومن أجل هذا استطاع معلماً يعلم العربية . وأشار إلى ثالثهم العربي العراقي . وقد لحت من خلال كلام الحاج عبد الله أن « بكتون » هو رئيس ثلاثة . والمتكلف بإنفاقات السفر . وأن الحاج عبد الله كلّ ابتهم أو موئده المركـ . أما ثالثهم العراقي فـ الاستاذ او الحاج ( عبد المجيد ) وهو من مواليـ بغداد وـ قـ في لندـ يـ علم العربية وـ آدـها في احدـ معاهـها ، وقد كـ على بـ طـقه مع اـ هـ هذه الكلـات ( رقم ٢٣ شـارع فيـ هـ حـيـ ويـتـ كـرـكـنـ ) .

ولـ عـلـوا آـنـ رـجـعـتـ حـدـيـناـ منـ مـصـرـ ، وـ كـنـتـ مـحـرـراـ فيـ المـؤـيدـ اـزـدـادـواـ اـهـمـاـ بـيـ . وـ رـغـبـةـ فيـ إـطـالـةـ بـجـاسـتـيـ وـمـحـادـثـيـ .

هـذاـ ماـ كـانـ يـبـنـتـاـ مـنـ الـحـدـيـثـ فـيـ الـمـرـحـلـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ التـعـارـفـ . أـمـاـ المـرـحـلـةـ الـثـانـيـةـ فـكـانـ أـكـثـرـ تـقـتـقاـ بـالـكـلـامـ . وـ اـشـدـ صـرـاحـةـ بـالـأـسـرـارـ فـقـدـ قـالـواـ : إنـ غـرـضـ الـأـنـجـلـيـزـ بـيـنـ مـنـ رـحـلـتـهـ إـمـاـ هـوـ يـعـلـمـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ . لـ فـرـطـ حاجـتـهـ إـلـيـهاـ فـيـ الشـرـقـ . وـ أـنـهـمـ لـذـكـ يـقـصـدـونـيـ . ثـمـ طـلـباـ مـنـ آـهـيـ هـمـ درـاسـةـ فـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ تـقـرـبـ إـلـيـهـ . فـسـأـلـهـمـ وـمـاـ زـبـدوـنـ آـنـ يـكـونـ مـوـضـعـ الـدـرـاسـةـ ؟ فـقـالـ الحاجـ عبدـ اللهـ : فـيـهـ لـهـ عـلـاقـةـ بـالـطـعـامـ وـالـشـرـابـ ، لـأـنـ أـلـفـاظـهـ أـكـثـرـ دـورـاـنـاـ عـلـىـ الـأـلـنـةـ ، وـاستـعـالـاـ بـيـنـ النـاسـ .

وـجـاهـ الـوقـتـ الـمـعـينـ لـالـدـرـسـ الـلـغـوـيـ فـأـلـقـيـتـهـ عـلـيـهـ . وـكـانـ مـوـضـعـهـ طـائـفةـ كـلـاتـ الـلـغـةـ تـمـلـقـ بـالـطـعـامـ وـالـشـرـابـ وـخـاصـةـ الـكـلـاتـ الدـالـلـةـ عـلـىـ وـجـيـاتـ الـطـعـامـ الـيـوـمـيـةـ عـنـدـ الـعـربـ ، وـمـقـارـنـتـهـ بـوـجـيـاتـ الـطـعـامـ عـنـدـ الـأـفـرـانـ .

وـأـعـرـفـ لـكـ أـبـاهـ السـادـهـ بـأـبـتيـ لمـ أـكـنـ مـوـقـعـاـ فـيـ هـذـاـ الـدـرـسـ وـلـاـ مـقـارـبـاـ ، وـذـلـكـ لـأـنـ عـرـضـتـ عـلـيـهـ مـنـ الـلـفـاظـ الـلـغـةـ غـيـرـ الـمـأـوـفـةـ فـوـقـ طـاقـتـهـ ، وـمـاـ لـأـ حـاجـةـ لـهـ بـهـ فـيـ هـذـاـ الـطـورـ مـنـ تـعـلـيمـهـ . نـعـمـ إـنـ (ـالـحـاجـ عـبـدـ اللهـ) قدـ يـسـتـفـيدـ بـعـضـ الشـيـءـ ، أـمـاـ السـيـدـ (ـبـكـسـتوـنـ) فـلـاـ يـكـنـ أـنـ يـسـتـفـيدـ مـنـ دـرـسـيـ وـلـاـ قـلـامـةـ ظـفـرـ . وـقـدـ خـالـتـهـ يـعـلـمـ اللهـ كـاـمـ ظـلـمـ ذـلـكـ الشـيـخـ الـأـزـهـرـيـ مـسـتـشـرـفـاـ مـنـ الـأـوـرـبـيـنـ مـنـ أـصـدـقـاـ الشـيـخـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ : فـقـدـ سـأـلـ هـذـاـ الـمـسـتـشـرـفـ بـعـدـ أـنـ أـسـلـمـ الشـيـخـ عـبـدـهـ أـنـ يـدـلـهـ عـلـىـ شـيـخـ يـعـلـمـهـ كـيـفـ يـصـلـيـ الصـلـاـةـ الـإـسـلـامـيـةـ ، فـسـأـلـهـ إـلـيـ شـيـخـ (ـأـظـنـ أـنـ اـسـمـهـ الشـيـخـ عـبـدـ الـمـعـطـيـ) وـقـضـيـاـ أـيـامـاـ ، سـأـلـ بـعـدـهـ الشـيـخـ عـبـدـهـ حـدـيـقـهـ الـمـسـتـشـرـفـ عـمـاـ إـذـ كـانـ بـدـأـ يـصـلـيـ ؟ فـقـالـ لـاـ يـاـ سـيـديـ ، فـقـالـ : وـلـهـ ؟ ، فـقـالـ لـأـنـيـ الـآنـ فـيـ صـدـدـ تـعـلـمـ الـأـقـسـامـ الـسـبـعـةـ الـمـاءـ الـطـاهـرـ ، وـبـعـدـ ذـلـكـ أـتـعـلـمـ الـوـضـوـهـ ؟ نـعـمـ الـصـلـاـةـ . فـطـارـ صـوابـ الشـيـخـ عـبـدـهـ غـيـطاـ ، وـكـانـ حـرـيـصـاـ عـلـىـ تـبـيـتـ إـسـلـامـيـةـ هـذـاـ الـمـؤـمـنـ الـجـدـيدـ . وـنـادـيـ الشـيـخـ (ـعـبـدـ الـمـعـطـيـ) فـوـبـخـهـ عـلـىـ هـذـاـ الـمـاطـلـ ، النـاشـيـ ؛ عـنـ جـهـلـ ، فـقـالـ عـبـدـ الـمـعـطـيـ وـكـيـفـ أـسـنـ ؟ أـتـكـونـ صـلـاـةـ مـنـ دـوـنـ مـعـرـفـةـ أـقـسـامـ الـمـيـاهـ ؟ فـيـعـرـفـ الـمـرـءـ مـاـ يـجـبـزـ مـنـهـ وـمـاـ لـيـجـبـزـ ، فـقـالـ لـهـ الـإـمـامـ : وـيـحـكـ ! ! وـمـنـ قـالـ لـكـ إـنـ هـذـاـ يـخـتـاجـ إـلـيـ طـوـلـ مـدـةـ ، وـدـرـوـسـ عـدـةـ ؟ : - قـلـ لـهـ (ـتـوـضاـ مـنـ الـمـاءـ الـدـيـ لـسـطـيـلـهـ نـشـرـبـكـ) .

وهـكـذاـ أـبـاهـ الـأـخـوـانـ ، كـانـ أـمـريـ مـعـ الـأـنـجـلـيـزـ التـبـيلـ (ـبـكـسـتوـنـ) فـبـدـلـ أـنـ أـعـطـيهـ عـنـ الـطـعـامـ وـالـشـرـابـ تـمـاـيـزـ بـسـيـطـةـ تـقـيـدـهـ فـيـ لـغـةـ الـتـخـاطـبـ حـشـوتـ أـذـنهـ بـعـسـائـلـ تـصـلـحـ الـإـذـكـيـاءـ مـنـ أـبـنـاءـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ ، وـهـذـهـ مـسـائـلـ هـيـ إـلـيـ جـعـلـتـهـ مـوـضـعـ حـاضـرـاتـيـ وـشـجـعـنـيـ بـجـمـعـنـاـ الـمـلـيـ عـلـىـ أـلـقـيـهـ عـلـيـكـ ، وـمـنـ مـوـاضـعـ الـمـجـبـ أـنـيـ مـاـ كـنـتـ أـجـدـ مـنـ الـأـنـجـلـيـزـ ، وـأـنـاـ أـلـقـيـ الـدـرـسـ الـلـغـوـيـ عـلـيـهـ تـبـرـمـاـ بـدـرـسـيـ ، وـلـاـ مـلـاـ مـنـ تـشـدـيـ بـكـلـاتـ

عبد القادر المغربي

٢٩٩

جو باهتم إلية . فكنت أقرأ فيها نتفاً من حوادث تلك البلاد وأودعها مقالاتي في المؤيد . فأطرق الحاج عبد الله قليلاً و كانهاكتشف سراً . وقال أطلعني على مقالات عن وادي واسمح لي أن أخذ صورة عنه ، ثم قطع الحديث معي إلى ما بعد قراءة المقال . وبعد أن أخذ عنه نسخة عاد ثانية يوم اليّ و قال : إن ميلي الاكتشافات وولع رفيقي « بكتون » بالسياحات جعلنا نهيب حلة ، أو بعثة علمية ستقوم من طرابلس الغرب في الصيف الآتي إلى بلاد ( التيمو ) الجبولة . والحلة مؤلفة من كذا وكذا بخلافاً وبخلافاً وخيمة ومؤونة وسلاماً ، وقد وجدوا أنفسهم في حاجة إلى رفيق من علماء الإسلام يستأنسون به في سلوك تلك البلاد الإسلامية البحتة ، وإنهم وجدوا في ذلك الشرائط التي يحسن أن تتوفر في ذلك الرفيق . واتفق أن كنت يومئذ أعالج سياسة حزبية وكانت منحازاً إلى حزب الاتحاد والترقي الذي كانت يده السلطة في ذلك الحين ولم يكن انحيازي لهذا هماونا بقومي العريبة يعلم الله بل استمساكاً بـ الإسلامي . لا جرم أن قيام حملة انجلizية من طرابلس الغرب إلى جنوب ثم وادي مقر « أنس » متخصصين لدينهم ودولة خلافتهم - حملة مثل هذه من مصلحتها أن يكون برفقتها شيخ مسلم متعمم عرف شيئاً من أحوال تلك البلاد وعرفه أهلها مما كان يكتب في المؤيد ، وهو مغربي الأصل ومنسوب إلى أسرة مشهورة في تونس إلى اليوم ، وفوق ذلك كله حزبيته التي تساعده على النقام مع ( رجب باشا ) وإلى طرابلس الغرب يومئذ ، وتدرأ عن الحلة تهمة خدمة الاستعمار أو التجسس والعمل على الإخلال بـ صالح الخلافة الإسلامية . كل ذلك كان يجول في نفس الحاج عبد الله الانجليزي . ثم قال لي : ولد الحق اذا رضيت ان ترافقنا في أن « على علينا الشروط التي زرها في مصلحتك .

عندما رأيت واقفاً في مفترق الطريق حاراً متربداً بين اللب واليجبات، بين الأقدام والاحجام، وكان لي عم شيخ كبير فقيه شديد

٢٩٨

الله المُؤْمِن بـ«أجاتا» بل كانا على العكس يظاهران الارتياح ، وصراحة بأن البحث مفيد جداً ونافع جداً .

وقد رأي هذا يعلم الله منهم ، وأوقع في نفسي أن في الأمر سراً سوف يظهر ، نعم ظهر في المرحلة الرابعة التي كادت «نور طني» في أحوال : أهونها ركوب أسفار ، ومقارقة صغار ، وبعد عن الديار .

فقد صرحت ( الحاج عبد الله ) أخيراً أنه هو ورفيقه «بكستون» مهتمان في تهيئة الوسائل إلى اكتشاف منطقة مجهولة في أقصى الجنوب من ليما . قلت فزآن . قال لا ، فقلت جنوب ؟ قال أبعد منها ، قلت واداي وبورنو ؟ قال في شمالها . قلت ما اسمها ؟ قال ( تيمستي ) والقبائل الضاربة فيها تسمى ( التيبو ) قلت لم أسمع بهذا الاسم فقط . قال هي جبال عاصفة يفقار وسكانها متزاولون عن العالم تقريباً ، وقد أعددنا حلة في لندن لأجل الوصول إليها ، وسوف أعلن اكتشافها ، كما أعلنت اكتشافي الطريق إلى بحيرة فكتوريا .

فأطرق قليلاً كأنني نذكرت شيئاً، ثم قلت: كفتُ كتبت في المؤيد وأنا في مصر مقالاً أعلنت فيه أمر الزراع القائم في ( واديي ) بين أميرها صالح العباسى وبين بعض بنى عمه بشأن ميل بعضهم إلى فرنسا التي تحاول نشر نفوذها في تلك الأصقاع وميل البعض الآخر إلى الدولة العثمانية ساجدة للبلاد الشرعية . فذلك الصقع هناك كان ينهى زعيمه النفوذ الفرنسي والتركي والستنوي بل والمصري ومن ورائهم ايطاليا تجرب الفحص ، وتنزقُ الفرص .

قال لي الحاج عبد الله متفرماً في وجهي : ومن استوحى هذه المعلومات التي كتبها في مقالك عن تلك البلاد ؟ فقلت أخذتها من صدقي (السيد عبد الله الكحال) الناجر الدمشقي في خان الخليلي بالقاهرة : فلأن له تجارةً واسعةً وعملاً في واداي ، وكان يرسل إليهم البضاعة ، ويدرس فيها أعداداً من جريدة المؤيد التي أحرر فيها ، وقد أطعنني على

وخلاله ما قاله فيه : ( إنهم اجتمعوا بالكمال فأكرمهم ونصح لهم بأن السفر في مثل هذه الأوقات مستحبيل ، قال ولكن داعيكم ما زلت عازما على هذا السفر مهما كلف الأمر ، وإن شاء الله أطلع من طرابلس الغرب في آخر هذا الصيف وسأكتب إليك من لندن . والخواجه بكتون يسلم عليكم )

ثم طرأ إليها الأخوان ما لم يكن في الحسبان : ذلك ما كان من غارة إيطالية على طرابلس الغرب قبل أن يأتي آخر صيف سنة ١٩١٠ م . وانقطعت عنى أخبار أبطال قصتي هذه إلى اليوم .

ثم إني ما كنت أدرى وكانت الجملة على نفقة رفيقهم ( بكتون ) كما أوغموني أو على نفقة الحكومة الانجليزية نفسها ، أما إسلام بكتون وال الحاج عبد الله فهو من نوع الإسلام السياسي المصطنع الذي أصبح أمره معروفا ، والفرض منه مكشوفا ، وأذكر أن مسألة ( الحجاب والسفور ) كانت على أشدّها يوم بجي ، هذه البعثة إلى سوريا وجاه ذكرها أيام ( الحاج عبد الله الانجليزي ) فقال . إنه رأى وجرب الحجاب على المرأة فلا تخرج من بيتها ولا تختلط بالرجال وكل ما عليها أن تلد وتخدم زوجها وتربي أولادها . وربعاً كان قوله هذا بثابة حجة شرعية على صحة إسلامه . هذه هي أنها السادة الواقعة السياسية التي تُخْضَت بسائل لغوية اقتربها على أولئك الانجليز . وقد قلت لهم أنا أكن موقعا فيها وأرجو أن أكون موفقا ولو بعض التوفيق في إلقاءها عليكم وضم فمها إلى نعمه أنا شيد حركة ( التحرير ) التي تسمعون لها زيجها حوالي ( ١٢ نيسان سنة ١٩٤٦ )

٠٠

أشرت آنفًا إلى أن موضوع الدرس اللغوي الذي ألقته على أصحابنا الانكليز هو وجبات الطعام عند العرب ومقارنتها بوجبات الطعام عند الإفرنج .

وقد رأيت أن أميد إلى غرضي بذكر شيء له علاقة بالطعام والشراب فأقول : الذي يدعوا إلى الشراب هو المعيش . والمعيش اسم عام لكل

المحافظة على التقاليد . فارتاع لهذا النباء ، وعارضني في الرحلة أشد معارضة ، وكانت أقول له إن سفري فيه خدمة لدولة الخلافة ، وسيكون وسيلة لمعرفة أسرار تلك الأحكام الإسلامية الثانية ومقدار متعنتها ومناعة سكانها فقد تم بها تقريراً إلى الدولة ، أو أكتب سياحتي في كتاب أشره ، فيستفيد منه المسلمين السياسيون وغيرهم .

ثم عرضت عليهم شروطي فقالوا إن ميزانية الجملة تضيق عنها ، وأنهم أصبحوا بعد أن ذكرت ما ذكرت عن التاجر الدمشقي المقيم في مصر أعني السيد عبد الله الكمال - مفتخرٍ أن يسافروا إلى مصر فلندن فلبيدا ، ومن هناك يكتبون إلى رأيهم في تسوية الشروط بيني وبينهم وسيذالون كل عقبة في هذا السبيل ثم إني بعد ذلك أوافهم في طرابلس الغرب . وطلبو مني كتاباً إلى صديق التاجر الدمشقي في خان الخليلي . فأعطيتهم الكتاب وبعد سفرهم بأيام جاءني كتاباً من السيد الكمال : الأول في ( ١ ) : فيه اجتماع بأصدقائي أعضاء البعثة ونصح لهم بالعدول عن مشروعهم لوعورة الطريق وصعب السكان ضد الدسائس الأجنبية ، وخصوصاً بعد ما احتلت فرنسا ( وادي ) فانها سدت الطريق بحراً واحدة . وعما قاله الكمال في كتابه : واليوم كانت جلة الوردياني قاتل بطرس باشا غالى ولا بد انكم تعلمون عليها من الجرائم وقال في كتابه الثاني « وأفهمنا الحاج عبد الله الزنجاري بخصوصه أن لا يسافر : لأن شبهه شبه الانجليز تماماً بخلاف الحاج عبد العميد رقيقهم العراقي ، ظاهره شرق مسلم » ، قال الكمال : لكن وجدنا رغبتهم في السفر مع بعضهم فأوعذناهم عقدماً بفتح الطريق تعرفكم في طرابلس الشام فتعرفوهم في لندن ، ثم قال وقد مكثوا في مصر ثلاثة أيام . ثم سافروا إلى لوندره .

هذه خلاصة ما جاء في كتاب السيد عبد الله الدمشقي . أما الحاج عبد الله الانكليزي أو الزنجاري فأرسل إلى كتاباً أيضاً من مصر .

ما انتلخ في النفس من شهوة إلى الشرب ، فإذا صاحب هذه الشهوة ضجيج وشكوى وفقة صبر سبي العطش اذ ذاك (أواما) وإذا صاحبها دوران حول موارد الماء ، فقد أسباب الوصول إليه سعي (لوابا) . وإذا صاحب صبر الصخرين وتصوتها سعي (تصير الصخاخ) . ومن عوارضه السداد السع . وإذا صاحب العطش جفاف ريق ، سعي (طلئي) . وبقال منه (طلئي فه) . وإذا صاحب اضطراب وقلق سعي (تلعلعا) يقال مرّ ولن تطلع من العطش .

أما الجوع فإن صاحبها تعب سعي (سغبا) وإن قام الحاجع يسعى هنا وهناك في طلب ما يأكل ، سعي جوعه (علها) . وإن صاحب جوعه غضب ، سعي الجوع اذ ذاك (ضرما) . وإن صاحب برد سعي (خرسا) . وإن صاحب ضمور بطنه سعي (خوى وطوى) . وإذا صاحب جزع وشكوى ، سعي (قصقا) . وفي هذه الحالة يسترخي البطن ويفتر ، فيُوصف بالقصيف . وبقال (بطن قصيف) . والجوع الذي يصاحبه لين وتكر ، يسمى (جَخْرا) . وإن صاحب ضعف صوت سعي (خفوتا) . وإن صاحب الحنا ظهر وقرقرة بطنه ، سعي (أطيطا) . وإن اضطرب الحاجع إلى عصب بطنه ، سعي جوعه اذ ذاك (العصب) .

فإذا بادر الطهارة والنذر إلى إعانته بالطعام بأدنى يسع ما فيه كفاية رجل واحد ، سعي الإناء اذ ذاك (صحيفة) . وإن وسع ما فيه كفاية اثنين أو ثلاثة ، سعي (مشكلة) . وكفاية خمسة (صحفة) . وكفاية عشرة (قصمة) . وكفاية ما فوق ذلك (جفنة) .

فإذا قدم النذر إلى الحاجع الشيء أو الشاة المصالية من دون تقديم ما يؤكل منها عادة من حبز ومقبلات صرخ في وجوه النذر : قائل (وأين مادهها) ، أو (وأين أشخاصها) ؟ فإذا سجّلوا بذلك له ، قيل :

أكمل فلان الشاة المصالية بعادها أو بأشطاطها . وأكمل الشيء بعادها أو بأشطاطها .

وهذه المقبلات والمشيات على اختلاف أنواعها تسمى (الأبزار) . وتحجع على (أبازير) ويظاهر أن الأبزار في الأصل جم للبشر وهو الحب الذي يبذّر في الأرض لاستنبات ، ثم تصرفوا فيه ونقلوه إلى المشيات التي تكون بذور النبات مما يستعمل فيها أحيانا ، ويرادف الأبزار (الأفواه) ، وأصلها الرياحين التي تيدس ، ثم تسحق وتدحر للتطيب بها . والمشيّي اذا كان أخضر سعي في الغاب (تابلا) كالترخون مثلا . وإذا كان يابساً سعي (خنا) ، وعله اذا كان مسحوقا سعي (دقّة) وإذا كان يلوّن الطعام سعي (صياغا) .

وكأنوا يتخذون من بذور البصل أو صفاره تابلا ولذا كان (الفزح) من اسماء التوابل .

هذا هو الأصل في وضع تلك الكلمات ، لكننا نراهم أحيانا ينقولون الكلمة من معناها الأصلي أو يعمونها بعد أن كانت خاصة أو يخصونها بعد أن كانت عامة ، شأنهم في معظم كلمات لفتهم .

وهناك كلمات يحسن اطراحها لهجتها وكراهتها في السمع ، مثل (الجَخْر) وهو اسم بعض أنواع الجوع كما مر ، ومثل (الكامخ) وجمعه كوامخ وهو اسم المقبلات . قبل لأعرابي وقد حضر مائدة لأهل الحضر : هذا هو الكامخ ، كل منه . قال : وأيكم كتح فيه . ومن أسماء المقبلات ما ابتذر لكثره استعمال العامة له فيبني أن يستعراض عنه بما من الفصيح وهذا كالخلل والطري .

\*\*\*

وننتقل إلى هدف البحث أو موضوع الدرس وهو وجبات الطعام عند العرب والفرنج فأقول : تختلف المرات التي يتناول فيها الطعام (وأين مادهها) ، أو (وأين أشخاصها) ؟ فإذا سجّلوا بذلك له ، قيل :

باختلاف طباع الأمم واقليمية بلادها وثقافة الاشخاص وترف معيشتهم . والعادة الناجمة على طوائف البشر ، أن تكون مرات الطعام اليومية فيهم ثلاثة : صباحاً وظهراً ومساءً .

ولكن من الاشخاص من يأكل مرة واحدة في اليوم كالسيد جمال الدين الأفغاني ، فقد قالوا في ترجمته إنه كان يأكل الوجبة أي الأكلة الواحدة في الأربع والعشرين ساعة .

ومن الأمم من يأكل خمس مرات أو أكثر كالشعب البريطاني : بل قالوا إن بعض متربتهم قد تبلغ وجبات طعامه اليومية نحو الثمان . والوجبة اسم لا يأكل مرة واحدة في اليوم والليلة . ويقال وجّب عليه : إذا جعل فوتهم كل يوم وجبة . ويقولون في كتب الترجم : فلان من أصحاب الوجبات يعنيون أنه يأكل في اليوم مرة واحدة أقول : وإذا ضم إلى الوجبة أكلة ثانية أو ثالثة في اليوم الواحد هل يطلق على هذه الأكلة المفرونة بأكلة أخرى اسم الوجبة والوجبات والثلاث وجبات ؟ لم أظفر بنص على ذلك : والظاهر عدم الجواز بدليل استفهام فعل ( وجّب عليه ) من مادة الوجبة ليدائوا به على وقوع الأكل مرة واحدة ، ولو كانت الوجبة بمعنى المرة الواحدة من الأكل لا الأكل مرة واحدة لكان معنى ( وجّب عليه ) حدد لهم مرات الأكل : مرّة أو مرتين أو ثلاثة مع أن معنى ( وجّب ) ليس كذلك ، وبهذا يمكن فقد جوزته واستعملته في بحثي هذا تسامحاً أو استئنافاً من حديث خالد بن معدان ( من أجب وجبة الختان فقد غفر له ) ولا جرم أن من يحجب وجّبة الختان لا يجب عليه أن يكتفي بها وحدها سحابة نهاره ، فهو يأكل في بيته مرّة ثانية ويبيق اسم الوجبة على وجّبة الختان بالطبع . وأيضاً في حديث الحسن في كفارة اليمين ( يطعم عشرة مساكين وجبة واحدة ) فالتنصيص بذلك ( الواحدة ) يجوز لنا أن نقول ( لا وجبتين ) فنكون بذلك قد سينا الأكلتين في

النهار وحيثين ، وإذا لم يسلم لي هذا الاستنتاج فلا مقدورة لي عن الاعتذار بالتسامح في هذا الاستعمال وهو تسامح له نظائر في كلام البلغاء ، ولا سبب إذا كانت هناك قرينة تدل عليه وهي قولى هنا ( الوجبات اليومية ) فإن كلية اليومية تشعر بأن مرادي بالوجبات المرات وقد يقال أن التعبير عوائق الطعام يعني عن الوجبات . نعم ولكن ليس الموقف مفرد مستعمل في معنى المرة الواحدة من الطعام .

والوجبة في معناها أخوات وهن : ( الوجبة ) و ( الوجبة ) و ( الوجبة ) . وقد اشتهر استعمال الوجبة في معنى مرات الأكل اليومية أكثر من استعمال ( الوجبة ) اذ يقولون فلان يأكل أربع وجبات أو خمس وجبات أو وجبة واحدة . على أن الوجبة في كلام البلغاء أكثر ما تستعمل في معنى أن يجده المرء مرة واحدة في اليوم والليلة : في ( الحديث ) ( كنت آكل الوجبة وأنجو الوجبة ) . وسئل أعرابي : كيف كان سيرك في سفرك ؟ فقال : ( كنت آكل الوجبة وأنجو الوجبة وأسير الخبب إلى آخر ما قال ) . ويظهر من تتبع كلام اللغة أن لكل مرة من أكلات الطعام يأكلها الإنسان في اليوم أسماء خاصة بها عند العرب ، وهذه الأسماء قد تبلغ الخمسة أو ستة فتكون وجبات طعامهم خمساً أو ستة .

\* \* \*

### الوجهة العربية الدولى

العلقة ( بضم العين ) وقد قالوا في تفسيرها أنها الطعام الذي فيه بلغة أي كفاية إلى وقت الفداء . فقولهم : إلى وقت الفداء يشعر بأن طعام العلقة يؤكل قبل ارتفاع النهار وهو الوقت الذي يقع فيه الغداء كما يأتي ، فطعم العلقة إذا هو اسم الوجبة الأولى من يعتادها : إذ هي ليست عامة كالوجبات التي يمدها . والعلقة بمعنى آخر في اللغة ، وهو ما تقع به الكفاية في تخفيف لم الجوع الطاري ، في أي وقت كان لا وقت الصباح وحده . وهذا المعنى لا علاقة له بالوجبات .  
عما ( ٢٠ )

اللوقون التي نحن في صدد بيانها . ومثل المثلقة في هذا المعنى (المثلقة) و (الفؤة) و (الرمان) وهو قدر ما يمسك الرمق من الطعام . ويقابل المثلقة والرمان عند الأفرنج ما يسمونه كاس كروت (Casse Croûte) أي قدر الرغيف . وأسيحوا بريدوت به ما يكسر ألم الجوع من الطعام القليل ولو قشرة رغيف أو الامثلة الصغيرة المختصرة (Petit repas Sommaire) .

والمعنى طعام أول النهار له في الدرجات الدارجة كما يعبر تختلف باختلاف الأقوال العربية وأشهرها في بلادنا (فطور — صبحية — كسر صفرا — ترويقة) وبداعي أهل دمشق إلى الاجتماع على الصبحية في بيتهم كما يندفعون إلى الغداء والعشاء .

ويقابل الوجبة العربية الأولى اعني المثلقة الوجبة الأولى ، وهذه المقابلات التي نعدها بين وجباتنا ووجباتهم ، إنما هي من حيث العدد والترتيب في الخارج ، لا من حيث المواقف ، لأن المواقف تختلف باختلاف الأشخاص أحياناً فضلاً عن الأئم .

فوجبة الأفرنج الأولى يسمونها Petit déjeuner ويسميتها الإنكليز (بريك فاست Breakfast) ومعناها فسخ الصوم أو كسر الجوع ، وهذا كما قيل كسر الصفرة .

### الوجبة العربية الثانية

الضحاة وقاوا في تفسيره هو طعام الضحوة الكبرى ، واسم الضحاء هذا مأخوذ أيضاً من اطعام الإبل ، في المخصوص (رعنى الإبل في متوع النهار ضحاء) ومتوع النهار بلوغه غاية ارتفاعه . قال : وقد تضحت الإبل وضحأها راعيها .

وهذه الوجبة هي التي نسميتها اليوم (غداء) . وكان الاشبه باصطلاح العرب أن نسميتها (ضحاء) . ونرى العرب فاربوا بين وجباتهم الثلاث التي تقع في النصف الأول من النهار ، على فرض أنهم يأكلونها كلها ، فلا يأتي نصف النهار حتى يكونوا فرغوا منها . على أن هناك كلة الدلالة على طعام نصف النهار ، حكاها اليث وهي (الكرزمة) وقال (هي الأكل في نصف النهار) . فإذا أردنا أن نسمي

وبيقابل الوجبة العربية الثانية الوجبة الأفرنجية الثانية واسمها عندم (Déjeuner) ويسميتها الإنكليز (لانش Lunch) هذا ما درجوا عليه اليوم ، والا فإن ترجمة « Déjeuner » طعام الصباح ، أما طعام الغداء فاسمها في الأصل Diner .

ونرى المترجمين مفضّللين في ترجمة اللفظين : Diner ، Déjeuner ، واضطرا بهم ظاهر في معاجفهم نفسها : فهم تارة يترجمونها بالغداء . وتطورا بالعشاء ، وذلك لأسباب أو اعتبارات يعلمها أهلها : في القاموس المصري مثلاً تتجده يقول في ترجمة Diner (عناء : أكل المساء — غداء : أكل الظهر) . ولذا اكتفيتنا في تسمية الوجبات بما اشتهر على الآلة وتناوله الناس من أتعاجم ومستعجمين فما يسمون طعام الظهر أو بعده Déjeuner ولا لانش (Lunch) ، وبقيت كلة (Diner) تطلق على طعام المساء لمن يتناول فيه طعاماً : لأن وجبة الغداء عند الأتعاجم والمستعجمين أصبحت الم Howell عليها في قيام الجسم مدة الـ ٢٤ ساعة .

### الوجبة العربية الثالثة

الغداء . وهو طعام الغدوة عند العرب . وربما كان هذا الاسم مأخوذًا في الأصل من وقت إطعام الإبل ، في (المخصوص) (رعنى الإبل في أول النهار غداء ، وقد تغدت ، وعدها راعيها) ونحن اليوم نتناول الطعام نصف النهار وبعده ولسميه غداء ، مع أن الغداء والغدوة عند العرب هما أول النهار لا نصفه . فوقت الغداء عند العرب الأقدمين ، الذي هو الوجبة الثانية تشغله نحن اليوم بطعم الوجبة الأولى أعني المثلقة التي نسميتها فطوراً .

٣٠٨  
طعام لصف النهار بكلمة غير كلة (الغداء) فليس أمامنا سوى (الضجاء)  
و (الكرزنة) غير أن العدول عن كلة (الغداء) إلى كلة (الكرزنة)  
الأمر السهل .

ليس يؤمن بالـ *goutte* (الضحاء) العربية الثالثة وجية الافرنج الثالثة ويسمونها ويفايل وجية (الضحاء) وهي اختيارية تكون عند طبقة من الناس دون طبقة (عصر ونية) وقد نام عشر العرب فيها ، وسميناها في لمحتنا الشامية (عصر ونية) نسبة غير قياسية إلى وقتها الذي تقع فيه وهو عصر النهار ، واشهر اسم العصر ونية على الاكثر بين تلاميذ المدارس الداخلية ، فان ادارة المدرسة تقدم اليهم بين وجية الغداء والعشاء كعكاً ونحوه . ولا اعلم إن كانت وجية (العصر ونية) ما زالت إلى اليوم حية في المدارس الداخلية أو لا .

هذه عصر ونية التلاميذ في المدارس والصغر في المدارس ، أما عصر ونية  
الاعباء في الماقص ف تكون على نمط أنظام ، ويندأون إليها باسم أثخن ،  
ذلك قلهم ( حفلة شاي ) و ( حفلة كوكتيل ) . وقد قلّدنا الأفرنج  
في هذه الوجبة ، وتقيمها في الاعلب احتفالاً بضييف كريم أو تكريماً  
لصديق عزيز . ويبسط على موائدنا مع الشاي أو كواب اللبن وأفراد  
الخلوي وغيرها مما يسمونه ( كاتو ) وهو على أشكال شتى .

ويؤخرون وقتها عن العصر إلى الغروب أو الساعة الخامسة مساءً خاكاً لانكليز ، الذين هم أصحاب هذه الوجبة ، وأبناء بحدهما ، واسمها في لغتهم ( فايف أو كاك تي - Five o'clock tea ) . ويختصرن أحجاماً يتناولون Five o'clock أي شاي الساعة الخامسة .

ولا أذكر أن للعرب في جاهليتهم وجبة تقع في العصر : بين وجبتي الظهر والمساء .

الوجهة العربية الرائعة

العشاء ( بفتح العين ) وهو الطعام الذي يتع في العشاء . ( بكسر العين ) أي في المساء وهو أول الليل أو يُعْيَد أوله .  
قال في الخصص ( ورَعَيَ الابل في العشيِّ وأول الليل عشاء .  
وقد تمشت الابل وعشائها راعيها ) . و قال ابن السكبت : ( عشون  
الابل عشيتها وكذلك الرجل ) . فابن السكبت نص على أن النسبة  
بالعشاء تكرر للبشر كما تكون لالبل . أما حاحب الخصص فلم يذكر  
البشر ، فربما اتخذ قوله دليلاً على أن الأصل في العشاء أن يستعمل  
في الابل ثم تقل إلى الناس توسيعاً أو تسامحاً . وفي هذا رمز إلى ما في  
نفوس العرب لالبل من التعظيم والتكرير والتأني بهـا حتى في  
تكليف حياتها .

ووجبة العشاء، قل استعمالها أو الاحتفال بها اليوم يتناقض مع شرط سكان الأمسار العربية الكبرى بعد أن كانت أكبر وجبات الطعام وأشدّها غناية عند أجدادنا، فنخنن اليوم ولا سيما المترفين منها نخنفل لوجبة الغداء التي تقع بعد الظهر، وتصيب من أطابيه . ومخالف ألوانها ، لستغني بها عن طعام العشاء ، وإذا أصبنا منه كانت إلامة خفيفة على حد قول الإفرنج ( Casse - Croûte ) لكن " ظروفًا استثنائية أو تقليدية قد تدعونا إلى الارتفاع الشام ، وهذا ألوانه كما يختلف للغداء .

ويقابل وجبة العشاء العربية الرابعة ووجبة الافرنج الرابعة التي يسمونها Diner والتي كانت قدماً وجبة الفطور عندهم ، خلفتها الوجبة المسائية Déjeuner وفاجمت مقامها وأرجحه هي إلى المساء وأصبحت اختيارية ، وهذا كا وقع في الوجبتين العربيتين : الغداء والعشاء . فان الغداء قام مقام العشاء وسلبه ميقاته . والاحتفال له .

## الوجبة العربية الخامسة

، الفتحياء، قال ابن سيده في المخصوص ( جزء ١٦ ص ٧٠ ) ( الفتحياء طعام الليل ) وامنه هذا ما أخذ من قول العرب فتحمة الليل يريدون ذاته ، واراجح أن هذه الوجبة العربية اختيارية كانوا يفعلونها حين الحاجة إليها لفترة ما نسمع ذكرها في أخبار العرب وكتب الأدب . ويفاصل هذه الوجبة العربية الخامسة وجبة الأفرنج الخامسة ويسمونها سوبه ( Soupe - Souper ) .

وجبة الـ ( Souper ) مثل وجبة الـ ( Diner ) في أن إحداها كانت تتعلق على طعام نصف النهار والآخر على طعام المساء ، غير أن احتفاظهم للغداء ولوحجة الشاي ( فاب او كاوك ) أحياناً — جعل هذه الوجبة الخامسة ( أعني الـ Soupé ) اختيارية لمن اضطره إليها الجوع أو السهر في مشاغل العمل ، أو شهود الحفلات والمراقص ودور التثليل والسب나 وسائر ضروب اللهو — فان هؤلاء يرجعون إلى بيوتهم فيصيرون من الطعام ما يسمونه Soupé وتسميته العرب ( فتحياء ) .

على أن هذه ( الفتحياء ) تحولت في المدن الكبرى إلى ما يصح أن نسميه ( نوراء ) اشتقاقة من النور : ذلك أن الطعام في آخر الليل قد لا يتيسر في المنازل . فأعدت المدنية الحديثة لمدنى السهر خارجها مقاصف خاصة وهي المسماة ( بارات ) و ( بوفيهات ) ( Buffet ) تكون مفتحة الأبواب على الشوارع الكبرى تحت موقع الأ بصار ، منارة بأسطبل الأنوار . وعلى موائدتها صفت الصحاف والسكرنجات وفيها الضروب المختلفة من خفيف الطعام وشهي الشراب ، فترى القوم حواليها ، متهافتين على ما عليها ، وقوفاً على أمشاط أرجلهم أو جلوساً على الكراسي الخاصة بذلك الموائد . وأمثال هذا الأكل المعجل كما هو الحال في هذه المقاصف يُعتبر عنده الأفرنج بقولهم ( Restaurant à la minute )

أي طعام بقدر الدقيقة أو على مقدار ما تسع الدقيقة ، ظظير ما يقول في لمحتنا الدارجة : على المائة أو على الواقع ، ورعا كان عمناها قول المصريين « على الحر كرك » .

ويسمى بعضهم هذه المقاصف الليلية ( البارات الـ أمريكانية ) لأنها من جنوب الـ أمريكين ومحصول مدنهما ، وهي تمتاز بأشكال مناضدتها وارتفاع مقاعدها ، وصنوف أطعمتها ونفطليها ، وزياها سفاتها ونذرها .

٥٠

## وخلصة ما سرّ :

(١) أن الملائكة العربية يقابلها Petit déjeuner الـ افرنجي

(٢) والغداء العربي يقابلها Déjeuner الـ افرنجي

Lunch الانكليزي و

(٣) والعشاء العربي يقابلها goûter الـ افرنجي

وأشهر منه Five o'clock الانكليزي

(٤) والعشاء العربي يقابلها Diner الـ افرنجي

Soupé الـ افرنجي

وقد تبين مما من الوجبات عندنا خمس كا هي عند الأفرنج ، اللهم إلا ذا اعتبئنا ( الكرزنة ) العربية وجبة مستقلة استناداً إلى قول الإمام الغاوي ( الليث ) الذي قال إنها طعام نصف النهار ، ف تكون وجبات الطعام عند العرب ستة لا خمساً .

ونكرر ما قلناه سابقاً من أن المقارنة بين وجباتنا العربية والوجبات الـ افرنجية إنما هي من حيث العدد والترتيب والوقوع في الخارج ، لأن من

حيث الزمن . فان ابقاء الوجبات في الأزمان مختلف ولا يطير حتى بالنسبة الى الشخص الواحد ، فان في الأشخاص من اذا جاء أكل

ولا يتقييد بزمن . وهذه الوجبات الخمس منها ما هو أصلي راتب أو يقول أصلي ،

ومنها ما هو فرعى يرجع فعله إلى اختيار الشخص : إن جاء المقام .  
والآن . \*

\* \* \*

وهناك ما كل خفيفة ومعظمها من ضروب الحساء الذي يشرب شرباً ،  
وهي ليست ذات وجبات موقونة ، وإنما هي مقدمات للوجبات الرابطة  
يتناول قبلها بسوية ، وهي ما سنه المترافقون لا ينفكهم في حياتهم اليومية ،  
أو في مأدبهم الخاصة . حتى أن المترف من الانكليز يتناول وهو مستلق  
في فراشه قبل القيام إلى طعام الصباح المسمى بـBreak fast (Break fast )  
ـ ما يذله أو يفيد صحته من الأشربة وضروب الحساء (١) ، وكذلك يفعل  
قبل أن ينام .

أما ما يُقدم عادة أمام الوجبات الكبرى : فيكاد يكون وجبة  
سادسة لكتلة ما يهشو على مائدتها من لذذ الأشربة ، وخفيف الأطعمة ،  
وضروب المازة (المزة - أو - الماظة ) من يتعاطى الشراب من الآكلين .  
والذي يجعل هذه المائدة في عدد الوجبات أن فيها مطاعم تؤكل أكلا  
وأن لها إنما خاصاً وهو (Hors-d'oeuvre ) أي خارج الطعام ،  
عن أنه مقدم قبل وقته .

وأجدادنا العرب كانوا يعرفون هذه (الوجبة) (بالتصغير) ولها  
في لغتهم عدة أسماء (لتجة - لحنة - سلفة) بضم أوائلها ، وفروعها  
بالطعام يتعلّل به قبل الطعام . وقولهم يتعلّل به يشعر بأنه إنما قدّم  
للسخر سلفة الجوع (رقته) ربّما يتّهباً للطعام وينضج .

(١) الدقيق الذي يعالج بالسمن عند العرب إن كان مرةً يشرب معه حمام  
وإن كان جامداً فيه رخاوة سمي عصيدة . وإن كان بين بحث لا يشرب  
شرباً من سجنة .

أما أبناء هذا الزمن ، فيقصدون من تناول سلفة (الهورديير )  
(Horo d'oeuvre ) إثارة شهوة الطعام بمسكراتها . وضروب مازاتها  
لن يمسك ، وبعصير الطاطم (البندورة) أو الليمون لن لا يمسك . ومما  
يُ يكن من أمر فلا ينبغي أن تعد السلفة إلا (Horo d'oeuvre ) طعاماً  
موقوتاً وإنما هي من طلائعه ومقدماته .  
ثم إن قول علماء اللغة في تفسير (السلفة) إنها تكون قبل الطعام  
أرادوا بذلك الطعام مجرد التمثيل لا التخصيص في الفابل ولذا نحن اليوم  
أن نتوسع في استعمال السلفة أي الهورديير (Hors doeuvre ) فنطلقها  
على ما يقدم بين يدي كل الوجبات الرابطة غداء أو عشاء .

\* \* \*

ومن لطيف بحوث الطعام وجة سلبية يعتذر عنها البخلاء الآشخاص ،  
ويتبرّم بها حتى الأجواد الآشخاص ، وهي التي تتجه رَبُّ المئوي في غير  
أوقات الوجبات المعتادة ، وكما أن شاعر العرب قال :  
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة ، فارجي السلام  
كذلك مضيافهم وأحد ساداتهم قال لصديق له : (أكره أن  
تروني في الملبياء) : فهو لا يقول له ارجع السلام ، كما قال ذلك  
المالِق البعيض ، وإنما قال له أكره تلك الزيارة منك في الملبياء ،  
لولا أعجز عن القيام بحق ضيافتك .

( والملبياء ) أيها السادة هو الوقت الواقع بين المغرب والمنتها  
أي بين وجبي (العشاء) و (الفتحياء) في ذلك الوقت لا يكون الطعام  
مهماً عادة : فالطارق من الضياف ينجل المضياف وبوجه في الخبرة ،  
ولذا قال قائل الكرام (أكره أن تروني في الملبياء) . وبشهادة هذا  
قول العامة معتقدون أو مفاسدون ( ضيف الماء عشا ) .  
وتعلّق « الملبياء » أيضاً لغة على نصف النهار ، إذ لا وجية للطعام فيه

لأن العربي يكون أكل وجبة الفطور ، ولا يكون هيأ طعاماً لوجبة العشاء ، فنصف النهار عند العرب ليس وقت وجبة ، وهذا ما أراده ( ابن سيدنا ) في مختصته حينما قال : ( لأنه في ذلك الوقت - أي نصف النهار - يفوت الغداء ، ولم يهأ العشاء ) .

ويكون ابن سيدنا في قوله هذا قد أنكر وجية ( الكرزنة ) التي قال إلينا إنها طعام نصف النهار .

وللمل Isa في اللغة معنى ثالث ، وهو الشهر الذي تنقطع فيه الميرة ، أي تندى فيه الأقواف . وترتفع الغالل من البيادر والأسواق ، وهذا الوقت يعبر عنه أهل دمشق بقولهم « عصمة المنجل » أي لا منجل يحصُد ، ولا محصور بعمون . فقول الـعربي : « أكره أن ترورني في المل Isa » يصح أن يراد به أيضاً هذا الزمن الكرز ، الثقيل على الأجواد .

\* \* \*

وما يحسن التنبية إليه ، قبل إنتهاء الكلام في موضوع الوجبات ، مما فروا به كلة ( الشغيلة ) مما يشبه أن تكون إسماً لوجبة أول النهار ، مرادفة للملقة ، مع أن الأمر ليس كذلك . وهذه عبارتهم : « يقال : ما عَنْتَ شرابي بيئ من طعام » معناه ، ما أكلات طعاماً قبل أن أشرب ، وذلك يسمى ( الشغيلة ) . وربما كان مرادهم بالشراب هنا آخر .

فالشغيلة إذن هي الطعام الذي يؤكل في الشرب فوقه ، تقول لآخر : « إنْعَلْ شرابك ، أي كل قبله ولو قليلاً ، ويكون هذا بالطبع في أي وقت من أوقات الليل والنهار ، ولا ينبغي أن تُمْدَد » ( الشغيلة ) بين أمي الوجبات الصباحية ،

وما ينبغي التنبية إليه أيضاً أن استعمال الفطور يعني العلقة التي هي طعام أول النهار غير صحيح لغة ، وبيانه أن الفطر والإفطار معناهما في اللغة أن يأكل الصائم بعد إمساك عن الطعام ، والطعام الذي يُفطر عليه

يسمى ( فطوراً ) ( بفتح الفاء ) فالفطور إذن شيء والعلقة التي يأكلها الإنسان بعد أن يَهُبْ من منامه شيء آخر . وكان أصحاب هذا الاستعمال في زماننا يلاحظون أن الذي يصحو من نومه كان مسماً عن الطعام طول ليله ، فإذا أكل في ذلك الحين كان كأنه أفتر بعد صوم ، وأنشه أكله الفطور ، فسموا أكله فطوراً ، لكنهم يضمنون أوله خطاً ، ومع هذا فالإصح أن لا يقال لطعام الصباح فطوراً بل علقة حسماً ذكرنا في أول هذا البحث الفضفاض الساحب الأذياط الذي أردت بالفاته عليكم أيها السادة تذكيركم أو أقول أردت إثارة عاطفة الاشتقاق والحنان في نفسكم ، على هذه الكلمات اللغوية الفصيحة المحفوظة التي يمكن إحياؤها ، والتعيد لاستعمالها في لغة الصحافة والكتابة ، قبل أن تغادرها الكلمات الاعجمية فتصل ألسنة السوء إليها ، وتنقضي بملوت عليها .

\*\*

ونختم هذا البحث بما تضمنه من لفاظ زراها صالحة لاستعمال في موضوع الطعام

- ١ الاِذْوَام  
٢ الْلَّوَاب  
٣ نصر و المصباح  
٤ العطلى ( طلى ٢٩ )  
٥ التلمُّث ( جاء يتلمع من المطاس )  
٦ السَّقَب  
٧ الْمَلَهُ  
٨ الصَّرَم  
٩ اخْرَص  
١٠ اخْرَوى  
١١ العَلَوى  
١٢ القُصَف ( بطن قصيف )  
١٣ الْجَحَر  
١٤ الْخَنْوت  
١٥ الْأَطْبَط  
١٦ الْمَصْبُب  
١٧ الْعَلَيَا  
١٨ النَّدُول  
١٩ الشَّكَلَة  
٢٠ الْجَفَنَة  
٢١ الشَّاهَة الْمَصْلَيَة  
٢٢ أكل الشِّوَاء بِعَادِمِه  
٢٣ أكل الشِّوَاء بِأشْمَاطِه  
٢٤ الْأَزَار  
٢٥ الْأَفَوَب  
٢٦ التَّابِل  
٢٧ الْفَحَاء  
٢٨ الدَّفَقَة  
٢٩ الصَّبَاغ  
٣٠ الْكَامِنْخ  
٣١ الْوَجِيَّة  
٣٢ الْوَزْمَة  
٣٣ الْوَزْبَة  
٣٤ الْوَقْعَة  
٣٥ الْمُلْكَة  
٣٦ الْبُلْعَة  
٣٧ الْفَقَيْة  
٣٨ الرَّمَاق  
٣٩ مُسْتَوْعَ النَّهَار  
٤٠ الضَّحَى،  
٤١ الْكَرْزَمَة  
٤٢ الْفُحْجَيَاء  
٤٣ فَحْمَةُ الْلَّيْل  
٤٤ الْأَسْمَجَة  
٤٥ الْكَشَنَة  
٤٦ السُّلْفَة  
٤٧ سُخْفَةُ الْجَوْع  
٤٨ الْمُلْيَسَاء  
٤٩ الشَّمِيلَة  
٥٠ الْفَعْنَقَفَاض

دمشق: فبراير سنة ١٩٤٦

## أثر الرحلة

### في الحِيَاةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأَدْبَرِيَّةِ

للأستاذ محمد المنور مدين

يكثر الراحوون من بلاد إلى أخرى ، والغاية من هذه الحاضرة النظر في رحلات أهل العلم والأدب لنعرف كيف يكون للرحلة أثر عظيم في ترقية العلوم والأداب ، وتمذيب النفوس وإصلاح حال الأجتماع . ولعل قائلاً يقول : إن قائد الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم وتفاوت طبقاتهم فهي من المعلومات الموضوعة على ظاهر اليد ، والحدث عنها صرف الوقت في غير جدوى فأقول : إنني في شك من هذا ، فإن كثيراً من وهم الله القدرة على الرحلة وهي لهم وسائلها لا يقبلون عليها وينصرفون عنها ، انصرافهم عن الأشياء التي يرونها خالية من كل قائد .

على أنني أريد التنبيه لما في الرحلة من آثار صالحة لانضمها أمام نشأنا حتى إذا خطر لهم ما في الرحلة من حرج وعناء نظر إلى هذه الآثار الحميدة ، فيخف وزن تلك المتابع وتذهب في جانب هذه الآثار هباء .

### الرحلة في نظر الإسلام

لم يدع الإسلام وسيلة من وسائل الرقي ، إلا أنه عليها وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه في الرحلة فقد دعا إليها راجياً إلى أغراض سامية ، مثل طلب العلم قال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقه منهم طائفه ليتفقهوا في الدين ولينذرروا قومهم إذا رجعوا إلينهم بمحذرون » . ويتحقق بالتفقه في الدين كل علم يعد من وسائل الرسوخ في علوم الدين كالتحو

والبلاغة ، بل يلحق بالثقة في الدين كل علم يكسب الأمة قوة ويكون له أثر في بحاجها ، والاحتفاظ بمعتها كفن صناعة الغواصات والطيارات . ومن هذه الأغراض ، أخذ العبرة من أحوال الأمم الماضية ، قال تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عافية المكذبين » ، ويلحق بأحوال الأمم الماضية ، أحوال الأمم الحاضرة ، متى كان في النظر إليها عبرة ينتفع بها في الوصول إلى سعادة الحياة ، ومن هذه الأغراض ، الرحلة من دار العصالة والبني إلى دار الهدایة والعدل ، قال تعالى : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرةً وسعةً ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » . هذه الآية وردت في قوم كانوا يتعيرون في دار عسف وغواصة خرجمهم على الرحله إلى المدينة حيث يشدون أزر المسلمين ويقفون في سفوفهم ويكترون عددهم ، وإذا تشبثت البلاد في الاستخفاف بأمور الدين فعل العالم المصلح أن يجاهد في سبيل الدعوة إلى الحق والإصلاح بقدر ما يجد في حرية القول أينما كان .

ومن فرائض الإسلام ما لا يؤدي إلا بوسيلة الرحلة وهو حجج البيت الحرام ، وفي الرحلة إلى الحجاز في أشهر الحج جانب عظيم من معنى التجول في أقطار مختلفة ، حيث يلاقي فيها الرجل طوائف من أمم مختلفة لا يجتاز متباعدة البلاد .

ولا يسعني المقام أن أسوق شواهد من عنابة علمائنا بالرحلة لأمثال هذه الأغراض النبيلة ، وأكتفي بأن أسوق على هذه الغاية قصة جابر بن عبد الله الانصاري ، ذلك أنه سمع وهو بالمدينة أن عبد الله بن أنيس بالشام روى حديثاً عن رسول الله ﷺ فاشترى بميراً ثم شد رحله وسار إلى الشام فسمع الحديث من عبد الله ووقف راجحاً إلى المدينة .

### المبطرات عن الرحلة وعملياتها

لا أريد من المبطرات عن الرحلة المواتق التي ليس في استطاعته الشخص علاجها ، كفراغ يده من نفقات السفر وكيفاته على أسرة إذا فارقتها وقفت في حاجة ونكمد من العيش ، بل أريد من المبطرات ما يعرض للنفوس الضعيفة ويغلب على أمرها ، ولو لا ضعفها لما كان له عليها من سهل مثل استعظام مغارقة من يعز عليه من أقارب أو أصدقاء ، سئل إمام الحرمين وهو على المنبر لماذا كان السفر قطعة من العذاب ؟ فقال : لأن فيه فراق الأحبة .

وفي الناس من يذكر ما في الرحلة من متاعب بدنية فيحجم عنها ، وأكثر من يعرض لهم هذا المبطر أواثك الذين ينشرون في ترف والاحتلال عزمه فيخشون أن يفوتهم ما اعتادوا من الرفاهية ولو زماناً قليلاً ، ومنهم من يترك الرحلة حيث تضطره لركوب البحر فرقاً من أهواه ، عزم الحافظ أبو الوليد هشام الوثبي على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك فقال :

لا أركب البحر ولو أتي ضربت فيه بالعصا فانقلق .

ما إن رأت عيني أمواجه في فرق إلا تناهى الفرق .

وقد يحجم الرجل عن الرحلة خافة أن ترمي به بين أقوام لا يعرفون حسبه وأدبه فيلقي من مرافقهم أو معاشرهم مالا يليق بعمره وبرناح له ضميره وقد أشار إلى ما يعرض الرجل من هذه الآلام النفسية الرحلة ابن جبير إذ قال :

لا تفتر عن وطن . واذكر تصاريف النوى

أما روى الفصن إذا ما فارق الأصل ذوى

وأشار يحيى بن حكم المعروف بالغزال إلى أن الغربة سبب لفقد جانب من العزة . فقال :

فصمصام عمر وحين فارق كفه رموده ولا ذنب اعجز المضارب  
وما عزّة الفرس غام إلا عربه ومن مكّسات لؤي بن غالب  
وتالم الرحالة ابن سعيد الأندلسي حين نزل بعض بلاد الشرق وناداه  
بعضهم باسم المغربي فقال :

لم أكن للغرب يوماً أنسابْ  
وأنادي مغرباً ليتي لم أكن للغرب يوماً أنسابْ  
ذات الاوي من رامة وبراق  
وكأس سقاها في الا زاهر ساق  
أزاني ليس لي جد له شهرة أو ليس يدرى لي أب

وعلاج أمثال هذه المنشطات الناشئة عن ضعف النفس وقلة تعرّفها على  
احيال المكاره أن يذكر الرجل ما قاتل في به الرحلة من ثمرات علمية أو أدبية  
علمه أو خاصة ، فإذا وقفت نفسه بنيل عايتها وحسن عايتها سهل عليها  
كل صعب واستهانت بكل خطر ، قال عبد الملك بن سعيد في وصية ابنه  
علي بن سعيد عندما عزم على الرحلة إلى الشرق :

وكل ما كابدته في النوى إياك أن يكسر من هتك  
وعزم الأمون الخروج إلى بعض الحروب فوقفت له جارية من شرف  
هن ورغبت إليه إلا يخرج فقال لولا قول جرير :  
قوم إذا حربوا شدوا مازرهم دون النساء ولو باتت بأطهار  
لما خرجت .

وأذكر أن أبا يكر بن العربي الأندلسي الذي قضى في رحلته ثمانية  
أعوام أورد في بعض كتبه مسألة من مسائل الخلاف حررها وهو في  
العراق وقال : لو لم أظرف في رحلتي إلا بهذه المسألة لكتفي ، على أن  
ابن العربي قد أتي في رحلته نصباً في البحر ومخاوف في البر(١)

ليذكر الراحل أن ثمرة الرحلة للذيدة باقية ، وأن تلك الآلام

(١) انظر كتاب القواسم والمواسم له .

النفسية والمتاعب البدنية زائلة ، قال القاضي محمد بن عيسى أحد الرجالين  
من الاندلس إلى الشرق بعد أوبيه :

إذا كان من بعد الفراق يلاق  
كان لم تؤرق بالعراقيين مقلتي ولم تعر كف الشوق ماه آمافي  
ولم أزر الأعراب في جنوب أرضهم بذات الاوي من رامة وبراق  
ولم أصطبح بالبييد من قهوة الندى وكأس سقاها في الا زاهر ساق  
وجاء في كتب الأدب أشعار يرد ناظموها على من يحاول تثبيطهم  
عن الرحلة كما قال بعضهم :

تقول سليمي لو أقت بآرضاً فقلت إلى ذاك المقام أطوف

وقال ابن دراج :

أمّا علمي أن الثواب هو التوى وان بيوت العاجزين قبور  
وربما كان المتبطل عن الرحلة إعجاب الرجل بوطنه إذ يخطر له أنه  
لا يرى في غير وطنه أحسن مما يرى فيه كما قال أبو القاسم عامر  
ابن هشام :

يا من يزني لي الترحال عن بلدي كم ذا تحاول نسلاً عند عذيب  
وأين يعدل عن عرجاء قرطبة من شاء يظفر بالدنيا وبالدين  
وإعجاب الرجل بوطنه واعتقاده أنه أجمع إطلاع الحياة قد ينفعه  
من رحلة الانقطاع ولا ينبغي أن ينفعه من الرحلات المحدودة بزمان .  
وترى من الأدباء من يعتلي قلبه حباً لوطنه ولكن ينطبق على هذه  
المماطفة ويدرك الداعي إلى الرحلة فتطمئن إليها نفسه كما قال ابن سعيد  
لما خرج من حدود إفريقية :

صحبنا بها الأيام طلقاً مجاهداً  
رفيقاً جاوزنا حدود مواطن  
ولكن ثنت علينا أعنابة سقياها  
إلى أن عن الله يوماً يلقياها  
فسرنا نحث السير عنها لغيرها  
إلى أن عن الله يوماً يلقياها  
(٢١) معاً

محمد الخضر حسين

中華書局影印

٣٢٣  
والمراحلة آخر في تهذيب الطياع ورقى الآداب ذلك أن كثرة ما يلاقه  
الرجل في السفر من الشاق يقوى في نفسه خلق الحلم والمداراة وقد قال  
بعض الحكماء للغريب :

إِنْ تَرْمِكُ الْفَرْبَةَ فِي مَعْشِرِ طَالِبِوْ فَلَكُ عَلَيْهِ

فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم

وقد تكون رحلة العالم أو الأدب من أسباب ظهور علمه أو أدبه  
وانتشاره في الآفاق ، قال الأديب أبو بكر المرحوم بابن بيقي :  
ولي هم ستفذف بي بلادا نات إما العراق أو الشام

فِرَايَرُ الْعَدْنَ

إذا درستا تاريخ الملل والادباء الذين رحلوا عن أوطانهم ووجهنا  
النظر الى ما تقع عن رحالتهم من قوائد عادت عليهم أو على قومهم أو على  
الأوطان التي نزلوا بها ، وجدناها من الأهمية عكاظ يدعو الى أن تعمد  
في مقدمة وسائل الرفق والتهذيب .

ما زال يستقر الرهيل من الرهبة

من أنفس ما يكتب الرجل في رحلته أن يعلم ما لم يكن يعلم ،  
كم من علم لم يبلغ المقام الذي يشار إليه بالبيان الا بالرحلة ، والباحث  
في تراجم العلماء يقف على أسماء رجال كثيرين بلغوا في العلم الذروة ،  
واغروا بلغوها بما قاموا به من رحلات تقلبوا بها في مدن زاخرة بالعلوم  
ولاقوا بها كثيراً من أكابر العلماء مثل الامام الشافعي والحافظ ابن عساكر  
وأبي الوليد الباجي وأبي بكر بن العربي وأسد بن الفرات ، ولايين  
خلدون في مقدمته التاريخية فصل افتتحه بقوله : ان الرحلة في طلب  
العلم من يد كل في التعلم ، وختمه بقوله فالرحلة لا بد منها في العلم لاكتساب  
الفوائد والكمال بقاء المشايخ والتنقى عن الرجال .

ولمرحلة أثر في سمو الفكر اذ يأخذ الرجل فيها من التجارب ما لا يأخذنه وهو مقيم في بلد لا يخرج منه الى غيره ، وقد يكنون بها عن قوة العقل وحسن التصرف في الامور ، وانظر الى بديع الزمان المحدثاني حين أراد الدلالة على كمال عقله كيف عبر عنه بركوبه ظهري البر والبحر ، إذ قال في كتاب كتبه الى القاسم المرجعي : « فاني وان كنت في مقتبل السن وال عمر ، قد حلبت شطري الدهر ، وركبت ظهري البر والبحر » .

محمد الخضر حسين

四

صادراتي في قوم الرجل صون رحلته

قد تحظى البلاد بالعلم بعد انقطاعه عنها ، أو تقوم سوقة فيها بعد خمولها ،  
والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم ، ثم  
يعودون وقد امتلاّوا بما اغترفوه من المعرفة والفنون ، وقد بلغت الحالة  
المالية بالأندلس بعد عودة أبي الوليد البايجي من رحلته الشرقية مرتلة  
أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود ، وارتاحل أبو القاسم بن زيتون  
التونسي في أواسط المائة السابعة إلى المشرق فبرع في العقليات والنقليات  
ورجع إلى تونس فأتمها بعلمه الكثير وأسلوب تعليمه البديع .

ويرحل العالم أو الأديب من وطنه وهو يحمل علمًا عزيزًا وبتحلى  
بأدب مني وينزل بين جمادات من بلاد مختلفة فيرونه مثالاً لأهل العلم  
والأدب من قومه فيرتفع شأن قومه في أنظارهم ، هذا إلى ما يصفه لهم  
من محسنات قومه أو ينقله إليهم من ثمرات أفكارهم .

مأذون البراءة

يرحل العالم أو الأديب ، وينزل يلد ، فينذر بما متى كانت في حاجة إلى أمثاله — علمًا أو أدباء ، ومن ذا ينكر أن بلاد الاندلس قد استفادت من العلماء الذين رحلوا إليها من الشرق ، مثل تاج الدين بن جوبيه السرخسي ، وأبي علي القالي ، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك وابن السبيكي ، واستفادت مصر من أمثال أبي حيان وابن خلدون .

لكيها تحمل الركبان شمرى  
 بوادي الطالح أو وادي الخزامى  
 وكجا أعلم الفصحاء، أفي  
 خطيب علم السجع الحماما  
 وقد أطلمتهن بكل أرضٍ  
 بدوراً لا يفارقون التاما  
 ورعاً أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخنثي أن يعوقه عن الازدياد  
 من العلم أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة ، فيرحل حيث ياقت  
 كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة :  
 رحل القاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى مصر ، ونبه على سبب  
 رحلته فقال :

سلام على بغداد في كل موطن  
فوالله ما فارقتها عن قiley لها  
ولكنها ضاقت على "بأسرها"  
و كذلك قال أبو سعد التبرماني :

وقد سرت في شرق البلاد وغربها  
 فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً  
 ولا مثل أهلها أرق شعاعاً لا  
 وكم قائل لو كان جب صادقاً  
 يقيم الرجال الموسرون بأرضهم  
 وما يخلف به الرجال الفلانا في

وكان يغفر به الرجل الفاضل في رحلته أن يتخذ في البلاد التي ينزل بها أصدقائه يغطيه بصداقتهم ، والصداقة الخالصة من ألد ما يجتمع الإنسان به في هذه الحياة ، وكتب الأدب ملودة بالرسائل والقصائد التي دارت بين علماء وأدباء اختللت مواطنهم وهي عامرة بروابط صداقات ناشئة بوسيلة الرحلة ، وهذا ابن خلدون ارتبط بصداقات كثيرة من علماء البلاد كـ ابن الدين بن الخطيب وابن زمرك ، وجرت بينه وبينهم مراسلات ، وأذكى من قصيدة بعث بها إليه ابن زمرك بعد نزوله مصر قوله :

ومن فضل الرحلات أنها حفظت جابها علماً من التاريخ ، حفظته الكتب التي يودعها مؤلفوها ما شاهدوه في أسفارهم من وقائع وأحوال ، مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة العيدري ورحلة ابن حبير ورحلة خالد ابن عيسى البلوي وغيرها ، فانا نرى في هذه الرحلات أشياء لا نجد لها فيها بين أيدينا من كتب التاريخ .

أثر الرهن في تراو الأود

لمرحلة أثر في ثراء الأدب لا يقل عن أثرها في ثراء العلم ، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلا حين يعزم على الرحلة لاقاً ما بين يدي ملك أو وزير أو وجيه مثل قصيدة :

أدرك بخيالك خيل الله أندلسماً إن السبيل إلى منجاها درساً  
فإن صاحبها أبو عبد الله بن الأبار الراحل من الأندلس قد نقل  
استنجاداً لـ أمير تونس وألقاها بين يديه .

وَمَا يُرْجِعُ الْفَضْلَ فِيهِ لِلرَّحْلَةِ ذَلِكَ الشَّعْرُ الْوَارِدُ فِي التَّشْوِقِ إِلَى الْوَطَنِ  
أَوِ الْأَهْلِ وَالْأَخْوَانِ ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ مُحَمَّدٍ بْنِ يُوسُفَ الدَّمْشِيقِيِّ  
يَتَشَوَّقُ إِلَى دَمْشَقٍ وَهُوَ بِلَادِ الرُّومِ :

بعاد يزيد الجوى والحنينا  
فأجرى بصافى الدمام العيونا  
فراقه أذاب الحشا أدمعا  
إلى أن قال :

أي ان قال :  
 وجاد الحبا أربعاً بالشام وسلم صحيحاً بها فاطلينا  
 رحلنا فما تابعتنا القلوب وسرنا فظللت لدبم رهوانا  
 واذ كر بهذه المناسبة أن أستاذنا المرحوم الشيخ سالم إبا حاجب كان  
 قد سافر إلى إيطاليا وبعث برسمه إلى بعض أصدقائه في تونس وكتب  
 عليه البيتين :

٣٢٦  
أثر الرحلة في الحياة العلمية والآدبية  
وهذا الميري يحمد السفر الذي جاء بالقاضي عبد الوهاب بن نصر من  
يقداد إلى المعرفة فقال :  
بِلَادَنَا فَمَدَنَا النَّاسُ وَالسَّفَرُ  
وَالْمَالِكِيُّ بْنُ نَصَرٍ زَارَ فِي سَفَرٍ  
إِذَا تَحْدَثَ أَحْبَابًا مَالِكًا جَدَلَ  
وَيَنْشِرُ الْمَلَكَ الصَّنْعَلِيَّ إِنْ شَعْرًا  
وَتَفَقَّهَ الْبَرُّ فِي عِلْمِ الدِّينِ عَنْ عَشْرَةِ مِنْ فَقَاءِ التَّابِعِينَ بِعُمُرِهِ  
إِنْ عَبْدَ الْمَزْرُ لَهُذَا الْفَرْضُ خَاصَّةٌ .

وزرى في ترجم كثیر من العلماء الراحلين أئمہ كانوا يلقون في  
البلاد التي ينزلون بها دروساً أو يدرسون بها علوماً يتلقاها عنهم بعض  
أهل العلم .  
فرحلات العلماء والأدباء، تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه  
أنته وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها .

أثر الرهان في تسمية العالم

الرحلة فضل في عالم المعلوم واتساع دائِرتهَا ، وكم من كتاب يُعد في علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة ، ذلك أنَّ أسد بن الفرات الراحل من الفيروان إلى الشرق ورد مصر بعد أن تلقى العلم في الحجاز والمراغ ، وأتَى على ابن القاسم أستلة يطلب الجواب عنها على مفتني مذهب الإمام مالك ، وجمع تلك الأسئلة وأجوبتها في كتاب كان يسمى الأُسْدِيَّة ، ثم رحل سجانون من الفيروان بالأسدية إلى ابن القاسم ، وعرضها عليه ، وهذبها ، وأخاف إليها مسائل أخرى وصارت تسمى

، وهي المشار إليها بقول بعض أهل العلم :  
أصبحت فيمن له علم بلا أدب ومن له أدب عار عن الدين  
أصبحت فيهم فقيداً الشكل منفرداً كبيت حسان في ديوان سعدي  
وبيت حسان الذي لم يرد في المدونة ذيروه من الشعر قوله :  
وهان على سراة بني لوي حريق بالبويرة مستطير

لأنك شط النوى روسي التي أبقيتها عند الأجنة بالوطن  
أرسلت تمهلاً لها بـ (١) على كلو فلا تبني التحاقاً بالبدن  
أثر الرحلة في تعارف الشعوب

لابعن الرجل الفاضل بوطن إلا التي بعلائفة من فضلاه ، والشأن  
أن يسف لهم بعض التواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية ، ثم إذا  
عاد إلى قومه ، وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها ، فيكون كل من  
الشعوب التي رحل منها أو نزل بها على خبرة من حال الشعوب الأخرى .  
وقد بهذا على أن الرجل الطيب السريرة ، يتخذ في كل وطن أصدقاء ،  
وهذه الصداقات تند فيها يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة ، وتعارف  
الشعوب بوسيلة العلماء والآباء ، يشير في نقوسهم عواطف  
الائتمان والاحترام .

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة عقد رابطة التعارف والتعاطف  
بين الشعوب ، فعلى المستطاعين منا أن يخوضوا البلاد الشرقية بجانب عظيم  
من رحلاتهم ولو وجدوا في سبيل ذلك مشاق فوق ما يلاقونه في سبيل  
الرحلة إلى البلاد الأجنبية .

### أدب الرحلة

الأدب السندي ككل الإنسانية ، فيجب على الإنسان الاحتفاظ بها  
في وطنه ، كما يحفظها في غير وطنه ، ورأينا بعض الحكماء يوجهون  
إلى الغريب أو من رام الغربة عنابة خاصة ، فيؤكّد عليه في الاحتفاظ  
بالآداب الشرقية ، فقال بعضهم يا غربياً كن أدبياً ، ومن هذا القبيل  
وصحة عبد الملك بن سعيد الأندلسى لابنه علي عند عزمه على الرحلة إلى  
بلاد الشرق ، تلك الوصية التي يقول فيها :

أودعك الرحمن في غربتك مرتقباً رحماه في أوبتك  
فلا تعطل جبل النوى إني والله أشتاق إلى طلمتك

(١) إيو : جلد الموارد يحوى عاماً أو تعبأ فيقرب من ام الفصل فتطاف عليه ، فتدر .

وقال :

فليس بيدي أصل ذي غربة وإنما تعرف من شيعتي  
ونبه لأداب سامية فقال :

وامش المولينا مظلوراً عفة  
وأين رضا الاعين عن هينك  
وكل ما يفضي لمذر فلا  
تجعله في الفربة من إربنك  
ولا تحجادل حاسداً أبداً  
فإنه أدعى إلى هينك  
وقال :

وانطق بحث الهي مستقبح  
واصمت بحث الخبر في سكتك  
ومن أدب الراحل أن ينصف البلاد التي ينزل بها فيذكر محسنتها  
وبغبط بما يلاقيه بها أهلها من احتفاء ومؤانسة . ورد تاج الدين ابن  
حوه السريسي بلاد المغرب ، فسألته سلطان المغرب يعقوب بن يوسف  
بن عبد المؤمن قائلاً : أين هذه البلاد من بلادك الشامية ؟ فقال  
السريسي : « بلادكم حسنة آية ، وفيها عيب واحد ، فقال السلطان :  
ما هو ؟ قال : إنها تهي الأوطان » .

ومن قاموا على هذا الأدب الجليل العلامة المقرى صاحب كتاب فتح  
الطيب ، فقد نظم في الثناء على دمشق أشعاراً ، وتمثل فيها باشعار ،  
وما أنسده قوله شمس الدين الأستدي :

إذا ذكرت بقاع الأرض يوماً فقل سقيماً جلقاً ثم رعاها  
وقل في وصفها لا في سواها بها ما شئت من دين ودنيا  
وأختم هذه الماحضرة بأبيات خطرت لي معانها عندما زلت دمشق ،  
واني لست بشاعر ولكني درست علم العروض ، فأستطيع أن أقول كلاماً  
مزوجنا ، وإلى حضراتكم هذه الآيات :  
زارها بعد نوي طال مداعها فشها قلياً بحداً في هواها  
راح نشوان ولا راح سوى أن رأى الشام وحياة شذها  
نظرة في ساحها تذكرة كيف كان العيش يخلو في رياها  
ما شكا فيها اعتراها وإذا حدثته النفس بالشكوى لها  
\* \* \*

رحلة إلى العراق

للمزيد راجع المراجع

## ذکریات و ضوابط :

ولم يغب عن أعيننا زيتون دومة وكرمهها حتى بدت لنا ثانية العقاب  
حيث وقف خالد بن الوليد ناثراً راية العقاب في وجه ذلك السهل الأفيف ،  
فودعت هنالك دمشق والفوطة وأنا أترنم بأبيات حسان بن ثابت التي مطلعها :  
لله در عصابة فادمتهن يوماً بخلق في الزمان الأول  
وأعدت الى المذكرة أبيات حسان بن ثمير ولا سما الآيات الآية :  
ويابردى لا زال ماؤك بارداً وما الحيا من ساحتيك ثمير  
ولا زال ظل النيرين فانه طويل ويوم المرء فيه قصير  
أبا العيش إلابين أ كناف جلق وقد لاح فيها أشمس وبدور  
وما كدنا نقيامن في « خان عياش » على بعد ٢٦ كيلو مترا ونصفاً  
من دمشق ، ونختار قبيل الغروب قرية ضمير ومعبدها القديم « ٤٠ كم  
من دمشق » وحان أبي الثامات « ٥٦ كم من دمشق وفيه مخفر

بُرَدِيْ يَحْمَدُ لِلْعَدِيسِ سَرَاها  
 تَبْلُغُ النَّفْسَ بِلِقَائِهِ مَنَاها  
 أَرْشَفَتْهُ السَّحْبُ مِنْ خَمْرِ نَدَاها  
 نَاصِحٌ لَا تَخْذُنْتَ مِنْهُ حَلَاهَا  
 إِلَيْهَا طَلَقَ الْحَيَا كَعْصَاحَاها  
 مَرْهَفَاتُ الْعَزْمِ طَعْنَاهَا فِي طَهَاها  
 مِنْ بَحْثِ الْعَيْسِ فِي الْبَيْدِ إِلَى  
 فَهَا قَامَ وَادِي فَتِيهِ  
 أَدْبُرَ رَزْعُو كَزْهَرَ بَحْجِ  
 خَلْقٌ لَوْ نَاصِحُ الْخَلْوَةَ بِهِ  
 مَلَأُوا جَلْقَ أَنْسَأَ فَارِي  
 شَدَّ مَالَاقَدَا حَطَلَدَا فَانْتَضَوا

\* \* \*

عزّة الامّة في نشُّ و إِذَا نشبَتْ في خطرٍ كانوا فدّاها  
و جناحاً فوزها استمساكها  
بهدى الله وإلهاف قناتها  
فإذا ما فسقَت لاقت عماها  
هي عينٌ والهدى إِلَيْهَا

رِتَّلُ الْذِكْرِ مِلْيَا زَهْرَةٌ يَغْرِسُ الْحَكْمَةَ أَوْ يَدْنِي جَنَاحَاهَا  
 أَطْلَقَ الْإِفْكَارَ مِنْ أَصْفَادَهَا فَعْنَتْ تَرْعِي التَّرْبَى وَسَهَاهَا  
 خَضَ عِلْمَ الْكَوْنَ أَحْقَابًا وَسَرَّ  
 لَأَرَى فِي الدِّينِ إِلَّا مُغْرِيًّا لِقَذَاهَا

ذكرونا سلفاً قاموا على سيرة غراء والدهر طواها  
أمة يذكي التق غيرتها مثلما يذكي الندى نار قراها  
شرف لوانته الشمس في أفقه الاعلى اظنته أباها

أو يجدي بعد أسلاف إذا غرقت أحغان خائف في كراها  
آمة تابو بذكرى تالد من طريفي لم ترم عهده بغاها

فابعثوها همَا تسمو كَا  
سَمْتُ الْحِوَزَاءِ زَهْوَ فِي سَنَاهَا  
ما الفخار الحق إلا تهنةٌ  
أَحْكَمَ الْإِعْانَ وَالْعِلْمَ عَرَاهَا

دمشق: آب متنہ ۱۹۳۶

ومكس ، حتى احتوتنا الصحراء ، وحق دخلنا في غمرتين من ليل وجوجي وبردا عزامية الآفاق . وربما كان من أشق الأمور على المسافر أن يكون في سيارة تهب به الأرض نهائاً ، فلا الغلام الدامس يتبيح له أن رى شيئاً خارج السيارة ، ولا اهتزازها يمكنه من القراءة أو النوم . والشيء الوحيد الذي يستطيع أن يأتيه ، هو أن يتسود وسادة وثيرة ، ويطلق العنان لأفكاره ، ويفرق في خضم من الأختيلة الشعرية ، ومن التصورات التي تحس أو لا تحس ، والتي لها ظل من الحقيقة أو لا .

وهكذا انقضت ليتنا في بادية الشام . فلقد كنت فيها رفيق أقدم مدنيات عرفها التاريخ على هذه الكرة الأرضية . وإذا بي أتصور في الخيال ما كانت عليه أجيال السومريين ذوي الحروف المسمارية ، الذين عاشوا في أسفل سقي الفرات منذ أربعين قرناً قبل الميلاد في أريدو ولكان وآور « المغير » وأوروك « الوركاء » وغيرها ، وما خلفوه من نقوش وتماثيل وهياكل ومعابد ، وما أنقذوه من علوم الحساب والهندسة والفلك ، وما سنته من الشرائع المعقولة في تلك الحقب الخواли .

وتحليلت موجات الساميين ، أي العرب الأقدمين ، من قلب جزيرة العرب ، كوجهة الآكديين إلى الفرات الأوسط ، في أوائل الألف الرابع قبل الميلاد ، ومدنיהם الساطعة في كيش « الأحيمر » وبابل وبورسيا « برس غرود » ، قبل أقدم مدينة مصرية . وكوجهة العموريين في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وأشهرهم حمورابي صاحب الشريعة . ومواحة الآراميين إلى الشام والعراق في فاتحة القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وذكرت تناقل بابل وآشور ، ومظالم الآشوريين ، وسقوط دولتهم ، وقيام دولة بابل الكلدانية الجديدة ، ومنها يختصر صاحب الحديثة الملة الشهيرة . وأعدت إلى الخاطر استيلاً الفرس على بابل ، وفتحات الاسكندر الكبير ، ودولة السلوقيين ، ودولة البرئين ، وتسلط

الروم ، وقيام الدولة الساسانية ، وانقسام العرب في أطراف العراق والشام قسمين قسماً مع الروم وآخر مع الفرس .

ثمرأيتني أبتسم ، وشعرت بفؤادي يهفو لانشق الكون بقوله النبي العربي ، واتطهير الجزيرة من رجس الأصنام ، ولاجتثاع العرب على عقبة واحدة وفكرة واحدة ، ولتكون فوة عظيمة من قوى العرب المبعثرة ، ولتولد روح الطموح في نفوسهم ، ولا جماعهم على ضرورة إعادة « الحال » إلى أمه الجزيرة ، وتجادهم في سبيل الله ، وفي بث كلمة الله العليا في مشارق الأرض ومغاربها .

واشتدت السيارة في عدوها ، وهي تطارد الغلام في ذلك السهل الأفيع . وصحوت قليلاً من غفوتي على ذكريات تارikhنا العذاب ، فإذا بي أرى جيش سعد بن أبي وقاص وقد كتب له النصر في القadesية ، وأرى المشي بن حارثة الشيباني يستولي على السواد كفراً كفراً ، وألمح عياض ابن غنم يفتح الجزيرة أي ديار ريمه بلاداً بلاداً . وهو ذا الصحابي عنبة ابن غزوan قائماً يخنط البصرة ويحصرها . وهو ذا سعد فارس الإسلام وفاتح مدائن كسرى وأحد العشرة المبشرين بالجنة قائماً في الكوفة يعلم على مواقعها ويحملها خططاً لقبائل العرب .

وتناثلت في الخاطر قيام أسواق العلم والأدب واللغة في هاتين المدينتين وسابقاها في هذا المضمار ، وكيف وضع أبو الأسود الدوري أنس علم النحو ، وكيف نقل أهل البصرة والكوفة اللغة وأساليبها عن أعرق القبائل العربية وأبعدها عن الأعاجم والمعجمة ، ثم كيف بث هذان المcrسان كعبية اللغة والأدب حتى بناء بغداد وانتقال العلوم والعلماء إليها . وبينما أنا غارق في لجة هذه التأملات ، وقد رد المواه ، وكاد الدليل ينتحض ، وإذا بزمر السيارة يدوي طويلاً ، وإذا بنا نقف أمام باب عظيم ، وعلى جانبيه سور شاهق ، والعلم العراقي المرتعن الألوان يرفق فوق الرؤوس ، والشرطى العراقي يهدى الناس إلى غرفة المكس متربقاً

مڪافِ الشہادی

四

٣٣٥  
ولا سيما بعد ان اتقضى عليها من الشرق برارة المغول والتنز ، وعلى رأسهم  
مدمر المدنية والعمارات ، أمثال جنكيز وهو لا كونتيبور ، وكيف  
استولى الترك العثمانيون على البلاد العربية ، وتحكموا فيها بضعة قرون ، ثم  
خرجوا منها بركبات البقر ، كما دخلوا اليها ببركتات البقر ، على حد  
قول أحد المؤرخين الاوربيين ، فلا هم احتفظوا بمدنية العرب ولغتهم ،  
ولا أوجدوا مدنية خاصة بهم ، ولا اقتبسو شيئاً يذكر من مدنية الغرب ،  
وكل ما عملوه أنهم ناموا هادئين على ما فات المغول والتنز من بقايا المدنية  
العربية ، ثم غطوا في سباتهم ، بينما كان العالم الاوربي يصعد في مراقى  
العلوم والمعارف بخطى الجباررة .

وأعدت على الباب وقائع الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ - ١٩١٨ م) وذهب الاتحاديين إلى أنها فرصة يجب اهتمامها للفضاء على الروح الوطنية في غير الترك من أقوام الدولة ، ومظالم الاتحاديين الفاسدة لا سيما في ديار الشام ، وقيام الثورة العربية في الحجاز ، والتحق نفر كريم من الضباط العرب بها ، وخروج فيصل بن الحسين من الشام واعتلاء عرش العراق ، وانتهاء الانتداب في العراق ، وبلوغه في مراحل المعاهدات درجة الاستقلال . ورأيتني ابتسم لهذه اللحظة الأخيرة ، وإذا بالصبيع آذن بالسفر ، وإذا بنا نترسم معالم الصحراء في غبش الليل ، حتى إذا برب الصبح الذي عينين ، وامتد النظر إلى الأفق ، لاحت لنا عن بعد أشجار وبساتين ، فسألت خادم المسافة عينا ، فقال هذه هي الرمادي .

والرمادي بلدة على الفرات بين هيت شمالاً والفلوجة جنوباً، تبعد  
738 كيلومتراً عن دمشق بطريق الصحراء. وهي اليوم قاعدة متصرفية  
الدائم. رأيت فيها شارعاً عريضاً نظيفاً منفتاً، وحدائق بلدية غناءً.  
وهي مركز مهم المكوس تمر بها قواقل السيارات بين العراق والشام  
محترفةً البايدية. ولم يمكث فيها إلا ربما خص عامل المكس بعض حقائب  
المسافرين برفق وأنانة، ثم استأنفنا السير إلى الجنوب، ووجهنا الفلوحة،

مبتمها . وسألت خادم السيارة أين نحن ؟ فقال في « الرطبة » . وهي  
واحة صغيرة ، بل محطة قائمة في وسط الصحراء ، في منتصف الطريق ،  
بين دمشق وبغداد ، على بعد ٤٢٠ كيلو متراً من دمشق ، فيها فندق  
ومعالم ومكتب البريد والبرق والهاتف ، وأآخر للمسك وجواز السفر ،  
وفيها مدرن لاجية ينظر في شؤون الادارة ، ولا سيما ما يتعلق منها  
بالأمن العام .

وما ان ولخا مقهى الفندق النظيف ، حيث وسائل الراحة موفورة ، حتى بزت لا يعيننا صورة الملك عازى رحمة الله يحيط بها العلم العراقي . وقد استوقف نظارتنا فيها بعد أن صور فيصل الاول وغازى وفيصل الثاني وبعد الله يجدها المرء لا في دوائر العراق الحكومية وحدتها بل في معظم الأبنية العامة كالفنادق والمقاهي ودور السينما والنادي وأبنية السباق والفتواة والالامانات الرياضية وغيرها . وما دخلت داراً من دور رجال الدولة وأرباب الوجاهة والزراعة في بغداد إلا وجدت في بهوها عملاً او صورة لفيصل الأول ففي قيام العرب وباعث نقطة العراق الحديثة .

ولم تكدر نسغريخ ساعة في فندق الرطبة حتى دعينا إلى استئناف المسير ، فعادت السيارة تطوي بنا الأرض في الليل البهيم ، وعاد السفر إلى تخيلاتهم وأحلامهم . وألفيتني أشاهد زوال دولة الامويين ، وانتقال الخلافة إلى العباسين وعلى رأسهم أبو العباس السفاح ، وكأني أرى أبا جعفر المنصور يخط مدينة الزوراء ، وأرى بغداد في عصر الرشيد وعصر المؤمن ، وقد صارت حاضرة العلم والأدب والشعر والفلسفة ، وارى المعتصم يخط الخطاط في مدينة سامرا فتصبح عاصمة الدولة الثانية .

مَّا سَعَتِ النَّفْسُ إِذْ اتَّقْبَضَتْ مِنْ تَذَكِّرٍ أَفَاعِيْلُ الشَّعُوبِيَّةِ وَالْجَمَارِ  
وَالْتَّرَكِ الْمَالِيَّكِ ، وَتَذَكَّرَتْ نَشَوُهُ الدُّولَ الْفَارَسِيَّةِ وَالْتُّرْكِيَّةِ كَالْبُوْهِيَّةِ  
وَالْعَلَوَلِيَّةِ وَالْأَخْشِيدِيَّةِ وَالْغَزَوِيَّةِ وَالْسَّلْجُوقِيَّةِ وَدُولَ الْإِثْبَاتِكَةِ وَغَيْرُهَا ،  
وَكَيْفَ اضْمَحَلَتْ مَدِينَةُ الْعَرَبِ الزَّاهِرَةِ فِي الْعَرَاقِ ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهَا الْمَرْمَ ،

ونحن نلقي نقترب من الفرات وطوراً ينبع . ولاحت على إسارتنا سفائف المغار الانكليزي في سن الذبان ، وهو ما لبث لأنكلترا في العراق بعوجب معاهدة تحالف بين الدولتين . وفي سن الذبان أو الخباقة تقيم حكومة العراق اليوم سداً عظيماً على الفرات تخرن الماء وسد عاديته عن المدن والقرى أيام الفيضان . وسيكون هذا السد صالحأً أيضاً لاسقاء مساحات واسعة من الأرض بين الفلوحة وكوت الامارة .

### السواد وبغداد :

ولم يطل بنا المدى حتى بلغنا الفلوحة (١) . وهي بلدة جميلة على الفرات قبالة بغداد . وقد أقيم حديثاً عندها جسر من حديد عظيم متين تمير عليه السيارات من الشامية إلى السواد . والسواد هو تلك البقاع والكور التي تقع بين دجلة والفرات من الجزيرة شمالاً إلى شط العرب فبادان جنوباً . فهو إذن معظم سهل العراق وأجوادها . وقد ساء أجدادنا العرب سواداً لخضراته بازروع والأشجار . وكانت معظم أراضيه تتقى سباحاً بالأنهار والحداول العديدة التي تتفرع من دجلة والفرات والخابور عند السدود التي كانت تقام على تلك الأنهار العظام . وكان السواد عامراً عند الفتح الإسلامي ، فأقرّ المسلمين ولاجئه على أرضهم ، وجيوا خراجها برفق ، وسدوا البيوق في السدود ، وكرروا ما ردم من الأنهار . ولم يكتفوا بذلك ، بل أقاموا سدوداً جديدة ، وحفروا آلافاً مؤلفة من الأنهار والحداول ، ولا سيما حول المدن التي مصروها كالبصرة والكوفة وبغداد وسامراء وغيرها

وقد وصف الأصطخراني ألف الأنهر التي حفروها في كورة البصرة وسقاً يكاد لا يصدقه العقل إلا أنه حقيقة . وما قاله انه كان يرى أحياناً

في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار الصغار نجيري في كلها زوارق صغار ، وكل نهر اسم ينسب به إلى صاحبه الذي احتفظ ، أو إلى الناحية التي يصب فيها . وجوز عندئذ أن تكون أنهار كورة البصرة قد عدت أيام بلال بن أبي بردة بعائنة وعشرين ألف نهر وجدول كبار وصغر .

أما بين بغداد والكوفة فقد وصفه الأصطخرني بقوله انه سواد مشتبك غير مشتبك تسقيه أنهار تتدنى من الفرات إلى دجلة . ويتبين من ذلك أن معظم سهل العراق والجزيرة وأخصها كانت تسقي سباحاً أيام الامويين وفي صدر خلافة العباسيين . وقد تبعت موافع السدود التي كانت على الخابور مثلاً « في القسم السوري من الجزيرة » ، ورأيت الأنهار المردومة التي كانت تشتق منه . ولم استغرب بعدئذ قول أحد مؤرخي العرب بأن جميع مياه الخابور كانت تسقي الأرضين في الصيف فلا ينصب منها شيء في الفرات في قرقيسيا « البصيرة » وأنيس لي في رحلتي إلى بغداد أن أرى عشرات الأنهار المردومة بين الفلوحة وبغداد وسامراء ، وبين بغداد والنجف . وفي الحقيقة أينما سار المرء في السواد فهو يسير بين الأنهار والنجف . والحقيقة التي جعلت العراق أيام الرشيد والأمويون جنات من الزرع والشجر . ولا غرابة بعد هذا أن يقدر سكان العراق في تلك الأيام بعشرين مليون نسمة ، وأن يبلغ خراج السواد مائة ملايين دينار (١) .

ويقول المنصوبون من الكتاب الاوربيين ان ازدهار السواد أيام البابليين والساسانيين أخذ يزول أيام العرب إلى أن أصبح معظم السواد خراباً في أيام الناس هذه . والحقيقة أن السواد لبث على حاله ، بل ازداد ازدهاراً وتوسعاً ، طيلة القرنين الاولين الذين كان فيما الحكم الصحيح

(١) الدينار القديم يساوي نصف دينار ذهبي من دنارات هذه الأيام أي نصف جنيه انكلزي ذهبي تقريراً .  
عما (٢٢)

(١) الفلوحة في اللغة : الفربة والارض المصلحة المزرع ، وابن الفلاح . ومنها قلابيج السواد .

العرب . والبئوق التي حصلت في حروب الامميين والخوارج سدت في صدر الدولة العباسية ، ولم يبدأ حرباً السود الا بعد أن أخذ الانجام بانتصارات على العرب ، ولم يتم الا بعد هجوم المغول والتنز وانتقال الحكم الى الدولة العثمانية .

اعدت الى الخاطر هذه الذكريات والسيارة تهب الارض بين الفرات ودجلة . والارض معظمها براح . وفي كل بعض دقائق تجتاح نهرأ او جدولأ قدماً مردوماً . وما اين اقتربنا من بغداد « وهي على بعد ٨٥٠ كيلو متراً من دمشق » حتى أشار أحد المسافرين الى بي « يلمع عن بعد في الجهة الشمالية من الطريق ، فنطأوا لما عساها نحر ما يكون . واذا بالخادم يقول لنا اتها قبة جامع الكاظمية شمالي بغداد ، وانها مصفحة بصفائح الذهب ، ولهذا يكون لها في الشمس ذلك البريق . ولقد أتيح لي بعدئذ ان اشاهد هذا المنظر قبيل الغروب من المكان نفسه ، فاذا به منظر فريد لا شبيه له على الكرة الأرضية . فهناك قبتان عظيمتان وماذن شاهقة في صفرة الذهب الابريز ، تلاّلاً وتتلمع ، وتكسر أشعة الشمس ، وتثثرا على شجر النخيل قلائد من العقيقان . وكلما مشت السيارة خطوة تبدل شكل ذلك المثير من الاشعة الذهبية ، وترافق بين خوص النخيل ، وانثر في الفضاء انتشار الدر من العقد ، او انتشار حباب الماء من فواره اضيئت بالكهرباء في الليل البهيم .

ولم نسر قليلاً حتى بدأ بغداد دورها وقصورها ، ثم دخلنا في شارع عريض مزفت غرس جاباه بأنواع الشجر ، ووقفنا في محطة شركة السيارات « زن » وهي أمام بناء مطار الكرخ المدني ، على بضعة كيلو مترات من قلب المدينة . ووجدنا في المحطة لفيفاً من الأصدقاء ، ومرافق العميد الركن السيد طه الحاشمي وزير الدفاع ، ومثلاً لوزير المعارف السيد صادق البصام ، والماري الكبير العلامة ساطع الحصري مدير الآثار ، وجهوراً من الأدباء والوجهاء والأساتذة غمرتنا بأنفسهم وأدبهم العجم .

وكان شارع الملك فيصل أول شارع مأهول مررتا به من شوارع الكرخ <sup>(١)</sup> وهو من درج زرعت الازهار وبسط الخضير في وسطه . وقام في ساحته بين الزهر والريحان ثنا فيصل بن الحسين في بذاته العالية جواداً عربياً ووجهه يستقبل الآتين من الشام . وبعد التمثال جسر الملك فيصل على دجلة طوله ٢٥٠ متراً ، وهو من أعظم الجسور الحديدية ، لا يقل رونقاً وعظمة عن أجمل جسور القاهرة . وبعد الجسر يمتد شارع الرشيد من الشمال الى الجنوب موازياً للدجلة . وهو شارع الفنادق والمتاجر الكبرى ودور السينما والمالهي ، وفيه حركة مستديمة من السيارات والمعجلان

### عمران بغداد :

قال لي أحد الوزراء في بغداد : يا ليتك عرفت هذه المدينة قبل عشر سنين أو قبل عشرين سنة ، اذاً لامكك ان تتبع حركة عمرانها خطوة خطوة ، فلقد كانت بغداد أيام الترك العثمانيين « كسائر المدن في تلك الدولة » مجموعة دور متلاصقة مكتظة يبلغها سكانها في ازقة ضيقة موعنة قلما يتتجاوز عرض الواحد منها ثلاثة أمتار أو أربعة . وكان الجسر الذي يصل أحد قسمي المدينة بالثانية ألواماً من الخشب « مدلت على عدد من الزوارق . وربما طغى النهر في الشتاء ، بغرف هذا الجسر ، فلبت جزءاً المدينة أبي الرصافة والكرخ منفصلين أيام عديدة . وكل ما عمله الاتراك انهم فتحوا شارع الرشيد خلال الحرب الكبرى ، فأكمل فتحه وبعد عقب انسحابهم ، وقامت الفنادق والمتاجر في جانبيه ، لانه كان الشارع الوجيد الذي يبلغ عرضه خمسة عشر متراً .

اما اليوم فقد شملت الشوارع العريضة معظم بساتين الكرادة جنوب بغداد القديمة ، وكثيراً من بساتين الاعظامية شمالها ، وأصبحت الشوارع

(١) الكرخ جزء بغداد الواقع غرب دجلة أبي في جهة الوداد او جهة الجوزة .  
اما الطرف الثاني فيه الرصافة وهي معظم بغداد .

التي عرضها ١٥ متراً الى أربعين متراً تند بالمتربات ، كما بلغ ما بين طرفى المدينه ، من الكراده على مقرية من المدرسه العسكريه جنوباً ، الى معظم قيادة الكاظمية شمالاً ، نحو خمسة عشر كيلو متراً ، أي كما بين الروبة ودومة . لكن عمروان بغداد يبعد مع التهر ، ولا ينتد كثيراً الى سائر الجهات .

وما استوقف نظرنا في بغداد كون عدد كبير من الشوارع الجديدة قد فتحت وبعدت وزفت وأثيرت قبل أن يبني كثير من الأبنية في جوانبها ، أي أن فتح الشارع سبق البناء ، وهذا دليل على حيوية أمانة العاصمة . وما يستوقف النظر أيضاً كون جميع الدور تبنى بالآجر لفقدان الحجر ، وكونها منها معظم فسيق قلما تزيد على طبقة واحدة تعلو الطبقة الأرضية . وقد سألت عن سبب ذلك فقيل لي أن حر الصيف (١) الشديد يضطر السكان الى أن يلتجأوا الى الأقباء في النهار ، والى السطوح في الليل ، وكلامها لا يتيسر في الأبنية الكثيرة الطبقات ، عدا ان التربة حول دجلة لا تحمل ثقلات الأبنية .

وما يبلغ صدر العربي ان الشوارع سميت باسماء عربية ، وإن بعض الأسماء انما وضعت تنزيهاً بذكر رجالات العرب في القديم والحديث كالرشيد والمؤمن وفيصل وغازي والسودون والبحري وابي العتاهية وأبي تمام وغيرهم من لهم فضل على هذه الأمة في السياسة والعلم والأدب : وقد حظر على أصحاب المؤسسات العامة كالفنادق دور السينما والملاهي وأضرابها أن يسموها باسماء أجنبيه ، كما حظر عليهم اعلانها بلغة أجنبية دون العربية .

(١) تزيد حرارة بغداد في الصيف على حرارة القاهرة ، وتتفق عنها في الشتاء وتتراوح أعلى درجة للحرارة في أشهر الصيف بين ٤٠ و ٤٩ درجة . وتبعد الحرارة في بعض أيام الشتاء الى ما دون الصفر . ومتوسط الحرارة السنوي في بغداد ٢٢،٨ درجة أي فوق متوسط القاهرة .

وشكل الدور الخارجي لا يظهر جلياً في المدينة القديمة لضيق الأزقة واكتفاظ الدور . ومن المعروف ان أصحاب الدور القديمة ما كانوا يتمون لشكلها الخارجي ؛ أما في الداخل فمعظم تلك الدور تتألف من قذاء مكشوف مربع او مستطيل تحيط به الغرف من جهة الأربع . ويكون وسط الفناء حدائق لازهر والشجر وحوض فيه ماء او لا ماء فيه . وهذا الوضع الداخلي هو ما نراه في الدور القديمة بدمشق وحلب وسائر المدن الشامية ، وهو أصلح ما يكون للمعادن الإسلامية ولبلاد الحارة . أما الأبنية التي تبني اليوم في بغداد على أطراف الشارع الجديد فلا يعرف لها طراز داخلي أو خارجي . وإذا استثنينا بناء وزارة الدفاع العربي الجليل ، وبناء وزارة الخارجية ، وبعض القصور والدور المائمه او المقاربه ، أمكننا القول بأن الفوضى خاربة أطاحتها في انماط البناء في بغداد الجديدة . ولمل ابشر الأبنية تلك التي على جانبي شارع الرشيد . فقد قامت فوق رصيف الشارع على أحمردة لا يدرى المره وهي رومانية او يونانية . وإذا ألمعت النظر في جهة بعض دور السينما او في قوشها الداخلية صوب عليك أن تحكم هل أنت في الهند او في إيران او أنت تحلم في أخيلة ألف ليلة وليلة . ولا شك أن فوضى البناء موجودة في الشام وجودها في العراق . وهي في البدن تحتاج الى ضابط .

ويربو سكان مدينة السلام اليوم (١) على أربعين ألف نسمة . وكانوا أيام الدولة العثمانية دون نصف هذا المدد . أما في إبان بجد هذه المدينة أيام الرشيد والمؤمن فكان سكانها مليوناً ونصفاً أو مليونين ، كما أن مساحة أبنيتها وحدائقها بلغت في تلك الأيام نحو خمسين كيلو متراً مربعاً ، نصفها في الرصافة ونصفها في الكرخ . ووسائل إلينا هذه لا تجعل مجالاً

(١) من المعلوم ان ذلك كان يوم إقام العاشره اي في اوائل سنه ١٩٤١

الخضرا، وقصر الخلد وقصر الذهب التي شادها المنصور ، وكدار القرار لرئيسة زوج الرشيد ، وكقصر الامين وقصور البرامكة وقصر التاج للمعتصم ، وقصور الامراء والوزراء مما أنفق عليه ملايين من الدنانير . ومن المؤسف أن الأيام قد طمست معالم هذه الأبنية العظيمة ، وذهبت بما كانت تحظى به من تقوش وزخارف وآثار فنية .

### التعليم في العراق

كان في بغداد أيام الدولة العثمانية مدرسة حقوق فتحت في أواخر أيام تلك الدولة ، ومدرسة إعدادية ومدرسة عسكرية متوسطة وبضع مدارس ابتدائية . وكل هذه المدارس الحكومية كانت تدرس بالتركية ، ولم يكن للأجانب ولا للشعب العراقي مدارس خصوصية تذكر . وكان التعليم في مدارس الحكومة المذكورة موجهاً إلى إعداد فاشئة تتقن التركية وتتدرب بالجامعة العثمانية ، وتحتخدم إما في الجيش العثماني أو في وظائف الحكومة الثانوية . وكانت اللغة العربية لغة ثانوية تدرس بالتركية ، كما كانت القومية العربية تحارب من قبل المسلمين الأتراك والمتركين . وقد شملت هذه الوضاع يومياً سائر البلاد العربية . لكن المدارس الأجنبية والمدارس الاهلية كانت منتشرة في ديار الشام منذ أواخر القرن الماضي . ولذلك لم يكن مدارس الحكومة العثمانية كبير تأثير في تلك الديار ، كما أن الالمية فيها لم تكن منتشرة انتشارها في العراق .

ويتبين من ذلك أن العراق عندما بدأ يعارض استقلاله وجد نفسه في حاجة قصوى إلى نشر التعليم على أنواعه ، وإلى توجيهه وجاهة القومية العربية الصحيحة . ولم يقصر الفائوت على شؤون العراق في الناحتين المذكورتين ففتحوا حتى سنة ١٩٣٥<sup>(١)</sup> من المدارس الابتدائية

(١) عن كتاب زين بن هناء ( وجاهة التربية والتعليم في العالم العربي وخاصة في العراق ) الدكتور فاضل الجمالي مدير التدريس والتربية العام بوزارة المعارف العراقية . وللرواية فيه اختصاصي بشؤون التعليم معروفة بـ « المطالع والخبرة » .

٧٤٧ مدرسة بمجموع تلامذتها ٨٦٠٠٠ ، وقد بلغ عددهم ٩٠٠٠ في سنة ١٩٣٧ ، ولهم بلغوا اليوم مائة ألف ، و٧٤٧ مدرسة متوسطة ، الصنوف الأولى من الدراسة الثانوية ، بمجموع تلامذتها ٩٠٣٩ ، و١٤ مدرسة ثانوية ، الصنوف العليا من الدراسة الثانوية ، فيها ١٣٤٦ تلميذاً ، وأربع دور معلمين منها اثنان للذكور واثنان للإناث ، وكان فيها سنة ١٩٣٥ نحو ألف تلميذ وتلميذة ؟ أما اليوم فدار المعلمين في الرستمية وحدها فيها ألف تلميذ تقريباً . ودور المعلمين هذه على قسمين قسم لآخر معلمين يدرّسون في مدارس المدن الابتدائية وقسم لآخر معلمين يدرّسون في مدارس الريف الاؤولية .

وفتح أيضاً في بغداد مدرسة للبنات تدرس الفنون المزالية والأشغال اليدوية ، وفتح في الموصل مدرسة منها . أما التعليم العالي فقد فتح له معهد لحقوق ، ودار معلمين علياً تخرج أساندته المدارس المتوسطة ، ومعهد لطب والصيدلة . وأعتقد انه صار بإمكان وزارة المعارف اليوم أن تجدها في جامعة تمنع استقلالاً إدارياً وماياً .

وأما المدارس الفنية فقد أسس منها مدرسة عسكرية ومدرسة للهندسة ومدرسة لشرطة وأخرى لضبط الشرطة وواحدة للطيران . وأوجدت في محمد الطب مدرسة الممرضات والقابلات وأخرى لوظيفي الصحة ، كما أوجدت صنوف تجارية في بعض المدارس التجريبية . وفتحت مدرسة صناعية في بغداد ومدرسة في الموصل . وكانت فتحت مدرسة زراعية في الرستمية ثم أغلقت على أن ترسل بعثات مدرسية تعلم الفنون الزراعية في مصر وكيفيرنيا وغيرها من البلاد التي تشبه العراق بجوها .

ويتبين من هذه الخلاصة الموجزة أن هناك جهداً عظيماً بذل في سبيل التعليم في السنوات القليلة التي مارس فيها العراق استقلاله . ولا شك أن مجال العمل ما يزال واسعاً . ولكنه ما دام العزم موجوداً والتوجيه حسناً والمآل متيسرًّا فلن يمر بضع سنوات حتى يصبح العراق في مستوى مصر

والشام بل حتى يفوقها في بعض فوائج التعليم . وما يستوقف النظر كون وزارة المعارف العراقية لم تأتِ من استدعاء معلمين شاميين ومصريين وبريطانيين للتدريس في مدارسها المختلفة ، وهذا ما يفعله كل شعب ناهض في بده نهضته . وسيستغنى العراق عن هؤلاء المعلمين رويداً بازدياد التخرجين من دور المعلمين والمعلمات العراقية وازدياد العراقيين الذين ينخرجون في كل سنة من جامعات ديار الشام وديار الغرب .

ولقد زرت عدة مدارس في بغداد ، ودخلت الصفوف ، واستمعت إلى إلقاء الأئمذ والمعلمين ، وسألت بعض التلاميذ أسئلة في علوم مختلفة ، وخرجت وإنما لأن التعليم في العراق على أنواعه سائر سيراً يدعو إلى اغبطة القائمين عليه . ولقد استوقف نظاري كون التعليم مشتركاً بين الذكور والإناث في بعض المدارس العليا كالطب والحقوق ودار المعلمين العليا ، وكون عدد الطالبات ليس قليلاً في المدارس المذكورة . وإذا جوزت لنفي الافتقاد فإن إناثاً مدرسة الحقوق وأبنية المدرسة العسكرية لا تهان على ما لها من شأن . فمن المفيد أن يوسع عليها في تشيد الأبنية المناسبة كما وسع على مدرسة الطب ومدرسة الهندسة ودور المعلمين وغيرها من المدارس التي شيد لها أبنية حسنة .

والمربيه هي لغة التعليم في مدارس الحكومة العراقية ، عدا مدرستي الطب والهندسة ، فإن معظم الدروس فيها تلقى باللغة الإنجليزية . وهذه اللغة تدرس تدريساً حسناً في مدارس العراق . ويلاحظ أن عدد المثقفين تقافة انكليزية يفوق كثيراً عدد المثقفين تقافة لاتينية . والمدارس الأهلية قليلة في العراق ، لا تزيد على سبعين مدرسة فيها نحو عشرين ألف تلميذ . أما المدارس الأجنبية فهي اثنتا عشرة مدرسة تضم ألف تلميذ . ويدل ذلك على أن الدولة هي التي تسيطر في مدارسها على تعلم الأحداث وعلى تربيتهم وعلى توجيههم وجهة واحدة . وهذه الوجهة تستهدف الاحتفاظ بتراث العرب الأدبي والروحي ، واقتباس المفید من علوم الغربيين وأساليبهم

العلمية ووسائلهم المادية . أما المبادىء القومية فهي تثبت في جميع مدارس الدولة على شكل يدعوه إلى الارتياح .

وحكومة العراق مهتمة كل الاهتمام بنشر المعرف في جميع أنحاء الفطر ، ولا سيما التعليم الابتدائي ، حتى أن ميزانية وزارة المعارف تربوّ اليوم على مائة ألف دينار ، وهو مبلغ لا يستهان به في قطر لا يزيد سكانه على أربعة ملايين نسمة ونيف . ومع هذا ما يرجح أمام الحكومة مجال واسع لنشر التعليم الابتدائي خاصة لأن تلاميذه المدارس الابتدائية وتلميذاتها لا يبلغون جمعاً ربع الأولاد الذين هم في سن التحصيل الابتدائي . وتلائمة أربعاء الأحداث أو أكثر يليثون أميين . لكنه يلاحظ كون نشر التعليم رباعاً أدى إلى ازدياد البطالة والشكوى إذا لم يكن مقروراً بجهد كبير يبذل في سبيل إيجاد عمل للمتعلمين على مختلف درجاتهم . خير يجو المدارس العليا والمدارس الثانوية يجدون اليوم عملاً في الحكومة والجيش والمعامل الحرة كالتطبيب والخاتمة . لكن خريجي المدارس المتوسطة وخربي المدارس الابتدائية من أبناء القصبات والقرى لا يجدون أمامهم متسعاً من المتاجر والمعامل والأرض . فاتجارة معظمها يد اليهود (١) . والارض الزراعية يملكونها أفراد معدودون . والمعامل الصناعية قبلة . فالنفقة الثقافية في العراق يجب إذن أن تقتصر بنسبة اقتصادية قوامها الرى والإيجاد الملكية الصغيرة في الأرض الزراعية وتأسيس المعامل الصناعية ونقل المتاجر إلى مختلف طبقات الشعب فلا تظل محبوسة على اليهود . وهكذا يجد المتعلمون أبواب الرزق مفتوحة فيستفيدون ويفيدون بما قرأوه في المدارس من مبادىء العلوم .

(١) لقد سهلت حكومات العراق أخيراً هجرة يهود الفطر ، فهاجر معظمهم إلى فلسطين ، على ما هو معروف .

نظرة اقتصادية

اما جداول الاصقاء سيعجاً فهـي تكفي لاسقاء نحو ثلاثة ملايين وسبعين  
الف هكتار . وأهم هذه الاراضي تروى اولاً بسبـب إقامة سد المندية  
على الفرات في اواخر أيام الدولة العثمانية على يد المهندس الماني الشهير  
ويلكوكس الانكليزي . وقد امـكـن بهذا السـد اـبرـواـه أـرـضـيـنـ وـاسـعـةـ في  
الوـبـةـ الحـلـةـ وـكـرـبـلاـ وـالـدـيـوـانـيـةـ . ثـانـيـاـ بـسـبـبـ اـقـامـةـ سـدـ الكـوـتـ «ـمـشـروعـ  
الـغـرـافـ»ـ عـلـىـ دـجـلـةـ مـنـ قـبـلـ حـكـوـمـةـ عـرـاقـ أـخـيـراـ . وـهـذـاـ سـدـ يـضـمـنـ  
إـسـقاـءـ سـبـعـاـتـ وـخـمـسـيـنـ الفـ هـكـتـارـ فـيـ لـوـاءـ الـكـوـتـ وـلـوـاءـ الـعـمـارـةـ . ثـانـيـاـ  
بـسـبـبـ اـقـامـةـ سـدـ عـلـىـ نـهـرـ دـيـالـةـ . وـبـهـذـاـ سـدـ اـمـكـنـ تـنظـيمـ تـوزـيعـ المـاـءـ  
فـيـ جـدـاـوـلـ النـهـرـ الـقـدـيـعـةـ . رـابـعـاـ بـسـبـبـ المـدـ وـالـجـزـرـ فـيـ شـطـ الـعـرـبـ .  
فـكـلـاـ حـصـلـ مـدـ يـرـتفـعـ اـلـاـ وـيـنـسـابـ فـيـ جـدـاـوـلـ إـسـقاـءـ التـخـيلـ بلاـ مـشـفـةـ .  
وـهـذـهـ الـجـدـاـوـلـ اوـ الـأـنـهـارـ مـعـظـمـهاـ قـدـيـعـةـ . وـقـدـ فـتـحـ أـجـدـادـنـاـ الـعـرـبـ مـثـانـ  
مـنـهـاـ . وـنـخـيـلـ جـنـوـيـ الـعـرـاقـ يـشـرـبـ بـهـذـهـ الـعـلـيـقـةـ السـلـهـ خـامـساـ بـسـبـبـ  
كـرـيـ أـنـهـارـ قـدـيـعـةـ فـيـ لـوـاءـ بـغـدـادـ وـالـدـلـيـمـ تـأـخـذـ المـاـءـ أـيـامـ الـفـيـضـانـ مـنـ  
الـفـرـاتـ وـتـسـيـرـ بـهـ فـيـ اـتـجـاهـ دـجـلـةـ أـيـيـاـ إـلـىـ الشـرـقـ . وـقـدـ فـتـحـ الـحـكـوـمـةـ  
حـدـيـثـاـ بـمـضـ الـأـنـهـارـ الـقـدـيـعـةـ فـيـ تـلـكـ الـبـقـعـةـ كـنـهـرـ الـطـيـفـ وـنـهـرـ أـيـيـ

وَمِنْهَا يُكَلِّنُ مِنْ أَمْرِ الْأَسْقَاءِ فِي الْعَرَاقِ فَهَذَا لِكَ حَقِيقَتَانِ يَجِبُ ذِكْرُهَا  
الْأَوْلِيَّ إِنَّهُ لَا يَرَى فِي الْعَرَاقِ مَتَّعٌ لِأَعْمَالِ الْأَسْقَاءِ ، وَلَا يَرَى قَمَ  
كَبِيرٌ مِنَ السَّوَادِ غَيْرَ مَسْقَيٍ . وَأَهْمَّ الْمَشَارِيعِ الَّتِي تَسْتَوِفُ النَّظرَ مُشْرُوعٌ  
الْحَبَانِيَّةُ الَّذِي أَشَرَتْ إِلَيْهِ وَمُشْرُوعُ نَهْرِ الْأَسْحَاقِ " وَدِجَبَلُ عَلَى دَجَلَةَ ،  
وَمُشْرُوعُ الْحَوَيْجَةِ بَيْنِ الزَّابِ الْأَشْفَلِ وَدَجَلَةَ ، وَمُشْرُوعُ النَّهْرَوَانِ الْأَخِ .  
وَكُلُّ هَذِهِ الْأَنْهَارِ وَالْمَدَاوِلِ الْقَدِيمَةِ مُعْرَوَّفَةٌ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ . وَالْحَقِيقَةُ  
الثَّانِيَّةُ أَنَّهُ لَا يَرَى سَنْوِيَاً فِي الْعَرَاقِ الْيَوْمَ سُوَى قَسْمٍ مِنَ الْأَرَاغِيِّ الَّتِي تَسْقَى سِيقَامِ  
أَوْ بِالْمَطَرِ . وَالْسَّبِيلُ قَلَّةُ السُّكَانِ وَقَلَّةُ رُؤُوسِ الْمَالِ . وَلَوْ أَنْجَزَتِ الْحُكُومَةُ  
شَيْئاً مِنَ الْمَشَارِيعِ الَّتِي ذُكِرْتُهَا لَا وَجَدَتْ عَرَاقِيَّينِ يَسْتَمْرُونَهَا . وَيَنْفَعُ

من المفيد ان نذكر كلة موجزة عن الحياة الاقتصادية في العراق  
نأيداً رأينا في ضرورة جعل النهضة الاقتصادية تسير مع النهضة الثقافية  
جنياً الى جنب . مساحة العراق ٥٦٥٠٠٠ كيلو متر مربع (١) وسكانه  
أربعة ملايين نسمة ونصف ، فيصل الكيلو متر المربع الواحد سبعة أشخاص  
وهو قليل ؟ اذا قابينا بين العراق والشام نجد أن مساحة الاول تكاد  
تلغ ضعفي مساحة الثاني ، أي ضعفي مساحة سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي  
الأردن جيناً . وبينما في العراق أربعة ملايين نسمة في الشام خمسة ملايين  
 عربي ونحو نصف مليون يهودي وأجني . ولكن شتان ما بين قابلية  
العراق وقابلية الشام للاسكان . فالعراق كما هو معروف مؤلف من جزأين ،  
جزء في الشمال أراضيه الزراعية أعداء ، أي تزرع على المطر ، كالنوبة  
الموصل وكركوت وأرييل والسليمانية ، وجزء في الوسط والجنوب لا يمكن  
زرع أراضيه إلا بالاسفاف لقلة الامطار . وهو يمتد من جنوب الموصل  
حتى البصرة ، أي يتناول معظم الوجهة العراق . وفي هذا الجزء الثاني  
الصحراوي أنهار تخترق أراضيه وهي دجلة والفرات والزاب الاكبر والزاب  
الأسف وديالة وغيرها من الانهار الكبار والمتوسطة . والارض الزراعية  
تسق هنالك على شكلين اما برفع الماء بالمحركات والتواعير والمزفات « كردة »  
وامثلها من الوسائل ، وإما بالاقامة سدود في وجه الماء وفتح أنهار وحداول  
للاستفادة . فوسائل الرفع تسقي اليوم مليونا ومائة الف هكتار تقربياً (٢)

(١) عن الكتاب الفرنسي « جغرافية سوريا ولبنان والشرق الأدنى » المطبوع سنة ١٩٤٠ مؤلفه دو بيرتره Dubertret وفولرس Weulersse أما في كتاب « الخريطة الجغرافية لسوريا ولبنان والشرق الأدنى »

(٢) من اراد الحصول على معلومات وافية ومضبوطة في هذا الباب عليه براجعة كتاب «جغرافية العراق» للطبعون سنة ١٩٣٧ لرجل الدولة العالم والمعيد الركن طه الهاتشي رئيس الوزارة ووزير الدفاع في العراق.

من ذلك أن في العراق مجالاً هجرة الفلاحين والأموال العربية بقيمة استهلاك الأرض ، وإن في ذلك القطر متسعًا خمسة عشر مليون نسمة في المستقبل القريب إذا سير في شؤون المиграة والصحة والاقتصاد على سياسة حكمة .

وليس الزي رزة العراق الوحيدة بل فيه النفط والغاز وهو من أعظم الثروات ومن أداتها إلى انتشار مختلف الصناعات . وقد زاد في أيامنا هذه ما يستخرج من النفط سنويًا على أربعة ملايين طن . ولائحة كانت الزراعة أم ركن من أركان الحياة الاقتصادية في العراق ، لأن هلاة أرباع سكانه يشتغلون في الزراعة ، فالمصناعة فيه مستقبل لا يستهان به بسبب وفرة النفط ومشتقاته خاصة . وقد أسس حديثاً معمل للفوز والنسيج في بغداد ، وأخر في الموصل ، ومعمل لخليج الأقطان ، وأخر لتفطير الكحول ، ومعامل للدبياغة ولصباغة الأسلحة والطيارات وصنع الكبريت والأجر ونوايد الكهرباء ولصباغة السيارات الخ . وذلك عدا المنتوجات اليدوية الكثيرة من نسج وصياغة وتجارة وغيرها مما عرف القطر به . وقد أثبتت الاحصاءات الأخيرة ولا سما احصاءات سنة ١٩٣٧ ، أن العراق استورد ما قيمته تسعة ملايين دينار ، وأصدر ما قيمته خمسة ملايين دينار وثلث . أما اليوم فالفرق بين ثمن الوارد وثمن الصادر قد قلل ولا يبعد أن يحصل التوازن عمما قريب .

### أماكن العراق المقدسة

لا شيء أدعى إلى التأمل والاعتبار والخشوع من زيارة أضرحة سيدنا علي كرم الله وجهه وبعض آنسائه الائمة رضوان الله عليهم ، وزيارة بعض الجوامع القديمة التي تثير في النفس ذكريات كثيرة من تاريخنا العظيم . ولقد تفضل العلامة السيد ساطع الحصري فكان خير مرشد لنا في الت berk زيارة النجف حيث مقام الامام علي ، وكربلاء حيث مقام وأرانا شيخ المقام الكريم في النجف عدداً من السجادات والستائر

وقد اذربى عظامها هدايا من أبناء الملوك الفارسية او بناتها . وبعض السجادات مرصعة باللآلئ منها الصحيحة ومنها الكاذبة . وأشار الشيخ الى أحد جدران المسجد وذكر أنه يشتمل في داخله على كنز من الجوائز القديمة يقدرون ثمنها بما لا يقل عن مليون ليرة ذهبية . وقال إن الجدار لا يفتح اليوم إلا بارادة ملوكية ، وأنه فتح مرة أيام أولي العثماني الشهير مدحه باشا ، ومرة أيام الملك فضيل بن الحسين طيب الله ثراه .

وداخل المساجد والقباب مكسو بالقاشاني وقطع البلور والمرايا . وقد كتبت آيات قرآنية على عدد كبير من قطع القاشاني ، ورسم على بعضها رسوم مختلفة . ومن أغرب ما استوقف نظري في مدخل الجامع الذي يشتمل على ضريح العباس في كربلاه أن الرسوم التي على بعض قطع القاشاني هي رسوم أوروبية ، مما يدل على أن تلك القطع قد شرئت من معامل لآخر في أوروبا ، على حين أن معظم القطع الأخرى هي من صنع فارس وغيرها من الديار الإسلامية . وبها يكن من أمر القاشاني فلا شك أن معظمها حديث لا يتجاوز عهد الصفوين والفارسية ، ولهذا ليس له رونق القاشاني القديم .

ورووعة هذه الأماكن ليست في أبنيتها ولا في كنوزها ولا في أوقافها القديمة بل فيما يحيطها من رفات أئمة هداة أتقياء صالحاء لهم في تاريخ العرب والاسلام وفي قلوب المسلمين جميعاً مقام أي مقام . ومن المعروف أنه يحج إليها عشرات الآلاف من المسلمين في كل سنة . ولكن عدد الحجاج الارمنيين قد قلل في السنوات الأخيرة كما فلت الأموال التي كانت تخصها بها الدولة الارمنية . وأعلمك من المفید ذكر ملاحظتين ترددان على السنة كل من يغار على الأماكن المشار إليها ، أولاهما ضرورة منع الأكل والتدخين في سجون الجواجم ، وإخراج الذين لا عمل لهم منها ، ولا سيما الأولاد والأطفال ، وثانيةهما تأسيس متحف خصوصي ملاصق لجامع النجف تحفظ فيه التحف والكنوز الموضعية في بعض المعرف وفي أحد

الجدران ، فإن هذه الموضع تحملها عرضة اعيث المحنرات ولأنه العوامل الطبيعية فيها ، على حين أن المتحف يجعلها في مأمن من التلف ، وبضمن المقام الشريف مورداً لا يستهان به .

أما مسجد الكوفة فلم يبق منه إلا صحن العظيم تحيط به جدرانه الشاهقة وأمامها أروقة بسيطة حديثة . وفي أحد الأروقة عند المحراب قاشاني حديث يستوقف النظر . وهذا المكان هو الذي طعن فيه الإمام علي بيد ابن ملجم عنه الله . وفي أحد جوانب المسجد أقيم مصلى جديد صغير رأينا الناس يتبركون به ويصلون فيه . ولا شك ان مسجد الكوفة ، على سعة صحنها وبساطة ما تبقى منه ، يثير في نفس المسلم ذكريات تاريخية مشجية . وعندما يبلغ الزائر هذا المسجد قبيل الغروب ، وهي الساعة التي بلغناها فيها ، ويدخل صحن العظيم الذي كان يتسع لآلاف المسلمين ، يشعر بخشوع زائد امام روعة هذه البقعة الفردوسية ، ولا سيما إذا كان ملماً بتاريخ صدر الاسلام .

### الآثار في العراق

من المعروف في التاريخ أن أقدم حضارة شريرة كانت في موضعين متباينين : الاول سقي الفرات الأسفل والوسط حيث كان السومريون والاكيون ، والثاني غربي إيران حيث كان العيلاميون . وترجع حضارة هذه الأقوام إلى نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، أي أنها قامت قبل حضارة الفراعنة الاول ببضعة قرون<sup>(١)</sup> ، ولم يكن السومريون ساميين . أما الاكيون فقد كانوا ساميين من جزيرة العرب ، وكذا سائر الأقوام الذين قذفت بهم تلك الجزيرة الاسم إلى الهلال الخصيب في موجات

(١) من أراد الإطلاع على مجلدين من حضارات البشر الأولى عليه بطالعة كتاب «التاريخ والحضارة في الأزمنة القديمة» تأليف السيد ابراهيم البهبهاني . وهو مطبوع في بغداد .

متقدمة ، كالمورين الذين سكناوا بادية الشام وجنوب فلسطين ، ثم دخلوا العراق واستولوا على بلاد السومريين والاكدية ، وأسسوا دولة بابل ، واشتهر قبهم حمورابي صاحب الشريعة المدونة على مسلته المعروفة . وكالاشوريين أبناء عم البابيليين ، وقد عرفوا بالحروب والفتح والقسوة ، ولم يؤسروا مدينة خاصة لهم . وكالآراميين الذين سكناوا على ضفاف الفرات والخابور ، وأسسوا دولات في دمشق وحلب وحران وحماء . وكان كلدانيين الذين حكوا بلاد بابل بعد زوال دولة الاشوريين وكانت منهم يختصر « بوخور أصر » صاحب الحدائق المعلقة في بابل . وكالفينيقين الذين توانوا سواحل الشام الشهادية ؛ والكنعانيين الذين سكناوا سواحلها الجنوبية ؛ والاساعيليين الذين أسسوا دولاً في مشارف الشام ولا سيما دولة سلم « البطرا » في وادي موسى ومدائن صالح ، دع الملك الذي كان للمرأة قبل الاسلام في الحيرة « جنوبى النجف » ، وفي حوران وغيرها من أصقاع الهلال الخصيب .

واما لا مرية فيه أن أعظم موجة قذفتها جزيرة العرب هي الموجة الاسلامية منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن . فقد خلص الهلال الخصيب العرب عقب تلك الموجة المباركة . وقامت في أيام الامويين والعباسيين خاصة حضارة عربية راهنة لا تزال آثارها آتشية بمعظمها في جميع الاقطار العربية .

وأنم الآثار العربية التي شاهدناها في العراق آثار مدينة سامراء « سر من رأى » على بعد ١٤٠ كيلو متراً شمالي بغداد (١) وهي المدينة التي بناها الخليفة المنصور أحد أبناء هرون الرشيد سنة ٢٢١ من الهجرة ليجعلها عاصمة لملكته ، ثم وسعا ابنه الواثق ، ثم ابلغها أوج عظمتها جعفر

(١) لقد قال العلامة السيد ساجع المصري مدير الآثار القديمة في العراق نضل اطلعنا على ام الآثار والتحف وتزويدنا بما طبعه فيها من كتب وكراريس مصورة لينة .

### مضطبي الشهابي

٤٥٣

المتوكل . ولم تدم هذه المدينة السحرية إلا نصف قرن أو أقل لأن مقر الخليفة أعيد إلى بغداد فدرست سامراء بسرعة كما أوجدت بسرعة . وبعد أن كان الناس يسمونها « سر من رأى » ساروا يسمونها « ساء من رأى » . ولكي تعرفوا عظمة الأجداد إبات مدنهم الراهنة ، تصوروا مدينة طول أطلاها الحاضرة ٤٣ كيلو متراً ، ينصفها شارع عرضه مائة متراً ، يظل مستقيماً على طول سبعة كيلو مترات ، وتنفرع منه شوارع عرضانية مستقيمة عديدة يبلغ عرض كثيرة منها ٥٠ متراً . وقد قالت الدور والقصور على خطوط مستقيمة حول هذه الشوارع ، حتى أن الناظر إليها من طيارة يظن أنه فوق أطلاع أحدث مدينة أوربية أو أميركية . والذي ينعم النظر في الآثار الباقيه من تلك المدينة كالمسجد الجامع والمئذنة الملوية وجامع أبي دلف وقصر بلکوارا ودار الخليفة وباب العامة وقصر المشرق وغيرها كثير ، لا يستغرب الوصف الذي وصفها به اليقoubi في كتاب البلدان ، ولا تعاظمه ملامين الدنائير التي انفقها الخلفاء المشار إليها ووزراؤهم وقوادهم في جلب الماء من دجلة إلى المدينة الجديدة وفي تشييد القصور التي وصف على ابن الجهم أحدها بقوله :

بدائع لم ترها فارسٌ ولا الرومٌ في طول أعمارها  
صحون تsofar فيها العيون وتحتسر عن يمئذ أقطارها  
وقدْ ملكَ كان النجو متفقى إليها بأسرارها (١)

وقد شاهدنا آثار البركة العظيمة أمام باب العامة من الفخر المعمي « سر من رأى » على بعد ١٤٠ كيلو متراً شمالي بغداد (١) وهي المدينة التي بناها الخليفة المنصور أحد أبناء هرون الرشيد سنة ٢٢١ من الهجرة ليجعلها عاصمة لملكته ، ثم وسعا ابنه الواثق ، ثم ابلغها أوج عظمتها جعفر

\*\*\*

(١) صحة روایة الأبيات من دیوان علی بن الجهم تتحقق العلامة خليل مردم بك

رئيس المجمع العربي .  
معا (٢٣)

تذهب فيها وفود الماء معجلة  
كأنها الفضة البيضاء سائلة  
اذاعتني الصباً أيدت لها حسناً  
خاجب الشمس أحياناً يصاحكمها  
إذا النجوم رأت في جوانبها  
لا يلعن السمك الحصور غائبتها  
والقصيدة طويلة فيها أجمل وصف املاك البركة التي يلعن طول كل ضلع  
من أضلاعها الاربعة ١٢٥ متراً . وشاهدنا أيضاً مضماراً لسباق الخيل على  
شكل مبتكر وهو اجتماع أربع حلقات أو دوائر متقابلة حول مربع  
مركزي . فانخلقية ورجاله كانوا يجلسون في ذلك المربع ، والخيل تجري  
في الحلقات فتبعد عن المركز سبعة متراً ثم تقترب منه وهكذا أربع مرات  
دون أن تغيب عن النظر . وطول المضمار الذي تقطعه خمسة  
كيلو مترات تقريباً .

و لما استوقف نظرنا في دار الخليفة حفرة كبيرة مربعة الشكل منقرفة  
في الحجر في عمق عشرة أمتار وفي وسطها حوض لاسباحة ، وفي كل  
جانب من جوانبها الاربعة ثلاثة أبواب لا تزال زخارف الجص على  
بعضها ، ولا شك أن هذه الحفرة التي تفدينا فيها مع عدد من الصحابة (١)  
كانت معدة للتبريد أيام الحر شأنها شأن السراديب التي تكثر في العراق  
ولا سبأ في النجف .

ومن دواعي الالسف أنه بعد انتقال دار الخلافة الى بغداد تحظف  
الناس ما حوتة سامراء من رخام ومرمر وآجر وفسيفساء . لكنه لم يث  
فيها كثير من زخارف الجص الذي كان يلتصق على جدران البيوت . وهذه  
الزخارف وما فيها من تزاوج وتحاريم وتعاريف ببعضها هندسي وبعضها نباتي

(١) م السادة سعد الله الجابري ، ولطفي المختار ، وسامط الماهري .

الشكل هي من أسطيع الادلة على عظمة تلك المدينة . وقد ملأت جانباً  
كبيراً من متحف الآثار العربية في بغداد . وهي أجمل من زخارف قصر  
الخير التي نقلت الى دمشق لكنها أحدث منها . وبين قصر الخبر وسامراء  
قرن ونيف .

ولم تبق الأيام في بغداد على قصور العباسيين التي طالما فرنا عن سمعنا  
وعظامها ونقوشها وزخارفها في كتبنا التاريخية . والقصر الوحيد الذي ابى  
جزء صغير منه قائماً بنا . أسميه العامة « قصر المأمون » ، وهو في الحقيقة  
يرجع الى أواخر عهد العباسيين . وفي هذا القصر زخارف بد菊花 جداً  
من قطع الأجر الحفور والنقوش على أشكال هندسية او بنائية . وقد  
اختذ قسم منه متحفاماً لذكرى فيصل الأول ، وقسم اخذاً معرضًا لصور  
الآثار العربية في أنحاء الأرض بغية تنمية ذوق الزيارة « فن البناء » على  
الطراز العربي الجميل .

ومن الآثار العربية التي زرناها في بغداد ، بدلالة الاستاذ الأثري  
السيد عبد الرزاق أمين المتحف العراقي ، المدرسة المستنصرية الشهيرة التي  
بنانا المستنصر بالله العباسي في أوائل القرن السابع من الهجرة . وهي  
متخذة دائرة مكوس بغداد منذ أيام الدولة العثمانية . وقد بني السكان  
أبنية ودكاكين كثيرة على قسم من بقاياها . وأجمل ما تبقى من زخارفها  
براء المرء على طاق إيوان كان أحد السوقه جاعلاً إياه فرناً للخزب  
و« الكعك » الى عهد قريب .

ومن آثار العباسيين باب خراسان ، والبرج الذي يسمى « البرج  
الوطاطني » ، وقد اتخداليوم متحفاماً للأسلحة . وهو من أبواب سور  
بغداد ولا بد من رحل إلى عاصمة العراق من مشاهدة مأدنة سوق  
الغزل لقدمها « القرن السابع من الهجرة » وارتفاعها ، والجامع الذي  
يرقد فيه الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وجامع الجدر خاتمة حيث كانت

يحيى الشعب في الحوادث السياسية المأمة . وقباب معظم جوامع بغداد مكسوة بالقاشاني البديع .

ومن الابنية القديمة في بغداد خان مرجان وهو بناء عريض جميل بني في القرن الثامن من المهرة وأصلح حديثاً واتخذ متحفًا للآثار العربية . وأهم محتواه الزخارف الجصية الفتامة التي نقلت من سامراء . وقد علق على جدرانه صور وخرائط عديدة مفيدة ، كما أن بعض غرفه قد اشتغلت على أضرحة ومحاريب وأبواب خشبية وأوان من خمار وأوان من نحاس ومقدار من التقويد القديمة .

ولم تتمكن من زيارة الآثار التي بقيت من مدينة سومر وأكاد وأشور ، لكننا زرنا بابل الشهيرة وهي تقع على ٩٥ كيلو متراً جنوبي بغداد . وأطلالها الباقي لا يرجع إلى أيام الأكديين ، ولا إلى عهد العموريين الذين منهم حمورابي ، بل ترجع إلى أحدث من أيام تلك الدول ، أي إلى أيام الدولة الكلدانية التي عاشت في الآلف الأول قبل الميلاد . وكان منها نيوپولاس وبحتنصر الثاني ، ٦٠٤ - ٥٦١ ق . م ، ولم تبق حوادث الدهر إلا دعماً من قصور بابل وأسوارها وبرجها وحدائقها المعلقة وأهم ما فيها الأسد البافلي ، وهو تمثال أسد فائم فوق رجل مدد ، وكلامها من صخر أصم ، وما فيها أيضاً باب اشتار وما على جدرانه من أسود وثيران وتنانين مفتاة بالميناء . وقد بنت مديرية الآثار متحفًا صغيراً في خرائب بابل حوى صورات جميلة لما كانت عليه تلك المدينة في أيامها السالفة .

ولا بد من يعني الاطلاع على آثار أقدم مدينة عرفها البشر ، من زيارة المتحف العراقي في بغداد . وفي هذا المتحف من نفائس مدINETات سومر وأكاد وبابل ما يسر النظر . فكثير منها يرجع عهده إلى الآلف الرابع والآلف الثالث قبل الميلاد . وقد كانوا في تلك الأيام السجدة يقتلون في الحجر والنحاس ، ويصنعون التأليل والفيسيفاء ، ويصوغون

الذهب والفضة حلياً وعائلاً جليلة ، وينزلون فيها حجارة كبريتة . وكان النساء يترنّن ويتبرجن كما في أيام الناس هذه . وما استوقف نظارتنا معزف خشي محل بالذهب والصدف واللازورد وجد في المقبرة الملكية في أور ، وخوذة من الذهب الخالص عليها نقش تحبط بالشعر ، وعدد كبير من الخلي على أشكال شقى كالقراءات والخواتم والقلائد كلها من ذهب ، وكثير منها مرصع بالإنجارات الكبريتة ، وبمجموعة من الاختام ومن الخارج الذهبية ، وأحد الاختاجر له غمد من ذهب مزخرف الخ . وفي الحقيقة أن نفائس المتحف العراقي شيء كثير . ومن الصعب تصوير صورة لهذه النفائس في معاشرتنا هذه . وحسبنا أننا ألمينا بها إلاماً .

\* \* \*

### نهاية العراق الحديثة

لعل أهم ما في العراق استقلاله وخلوه من جيش أجنبى إلا في مطارات . فقد قفت معاهدته الأخيرة مع إنكلترا ، وهي المؤرخة في ٣٠ حزيران سنة ١٩٣٠ ، بأن لا يكون لها فيه سوى مطارات ببعدين عن المدن ، الواحد في سن الذبان ، بين الرمادة والفلوجة غرب الفرات والثاني في إحدى جهات البصرة ، وما يسمى الإنسان في الوزارات وفي الجيش العراقي وفي القوة الجوية الملكية وفي الشرطة وفي المدارس وفي سائر دوائر الحكومة أن السلطة فيها لابناء العراق دون سواهم ، ولهذا يستطيع المرأة أن يجزم أن العراق يمارس السيادة بين الداخلة والخارجية شأنه في ذلك شأن البلاد المستقلة . والمستشارون البريطانيون ، على ما قيل لي معلومون يرشدون إذا استنبروا ولا سلطة تنفيذية لهم ، ولهذا يطابق اسمهم المسعي ، والقضاء الإنكليزي الذين قفت المعاهدة بوجودهم يتقنون العربية ، ولذلك تكون المرافقة أمامهم بلسان العداد . والسفارة الانكليزية في بغداد لا تتم بغير ما ورد في المعاهدة

من مصالح بريطانيا الجوهريّة . ولو أرادت التدخل في شؤون العراق الداخلية لتها عن ذلك قوة شكيمة العراقيين . ومن المعروف أن الانكليز يمت قبّع في برجه العاجي فهو لا يزعج نفسه إلا إذا "مست" مصالح أمبراطوريته الحيوية بسوء وفي هذه الحال يكون له تدخلات وتمرارات عجيبة . وعارة الاستقلال أوجدت في العراق رهطاً من رجال السياسة ورجال الدولة ومدربي الدوائر الحكومية من ترسوا بالاعمال الداخلية والخارجية وتملوا تحمل ثبات الأمور الجسام . وقد كانت الأعمال الحكومية في بادئ الأمر تقع على عاتق الفنادق الأشتوس الذين اشتراكوا في الثورة العربية في الحرب الماضية . وما برح الأحياء من هؤلاء السادة يعدون في طليعة رجال الدولة العراقية . لكنه لشأ اليوم عدد من الشبان والكهول الخلقين من برهنوا على ذكاء وكفاية في تصريف شؤون الحكومة . وأعتقد أن العراق ببني المستقبل في هذه الناحية الهامة من نواحي النهضة ، ويتحذّل الوسائل التي تأتيه للقطع في مستقبله البعيد رجال دولة قدرين خلصين .

وقد استقرت الأوضاع السياسية في العراق منذ أيام الملك فيصل على شكل دولة ملكية دستورية ثابتة الأركان . والنف الجموع حول فيصل وذراته ، وهو فوق التحزيات السياسية وفوق الغايات الفردية ، كما أنهم رهن استقلال البلاد ورعن مجدها وعظمتها . وهذا ما يجب أن يكون في كل شعب يشعر بواجبه تجاه رئيس دولة المستقلة .

ولئن سمعنا من حين إلى آخر بحوادث سياسية داخلية فهي لا تتجاوز أبواب الأحزاب ، ولا تتناول الأمس التي يقوم عليها استقلال العراق . وجميع من عرفت من رجال الدولة وأركان الجيش ، أيها كانت آراءهم الفردية ، بلتفون دائمًا عند تلك الأمس ، ويدافعون عنها بالنفس والنفس . و تقوم الفكرة العربية في العراق على أساس قويم : وهو من حيث السياسة التمسك بالقومية العربية ، والعمل على تساند بلاد العرب اقتصادياً

ومثقفياً ودفعياً ، على شكل عصبة دول عربية منازلة ربنا يساع الحادها . أما من حيث الثقافة فالأساس الذي تقوم عليه الفكره العربيه هو أوله التمسك باللغة العصبية وتراثها الأدبي والروحي ، ثانياً اقتباس المفہد من علوم الغربيين الحديثة ووسائلهم المادية وأساليبهم في العلم والتفكير . ثالثاً الاحتفاظ بالسليم من عادات العرب وأخلاقهم ، كالاحتفاظ بالأسرة ، واحترام الصغير للكبير ، والدفاع عن العرض ، والشتم وإباء الشيم والكرم والنجدة وأمثالها من الصفات الحميدة .

ومما يدعوا إلى الارتياج كون مبادئه الفكرة العربية تثبت في أنحاء العراق على شكل منتظم سواه في مدارس الحكومة ، أم في نوادي الجميات القومية كنادي المشى ونادي الجوال ، أم في الجميات الرياضية كالكتافة وأمثالها ، أم في جمعية الشبان المسلمين حيث اتساع أفق العمل لا يحول دون بث المبادئ القومية الصحيحة . ولا يوجد في العراق قوة داخلية أو خارجية تستطيع التأثير في اتجاه الحركة القومية أو تستطيع عرقلة سيرها المستمر . فالشيعة والسنّة العرب ، وهما الأكثريتان الكبار ، سواسية بالوطنية العربية الراسخة . وأكراد شمالي العراق ، وهو سبعين بالمائة ألف ونيف ، يشعرون بأن ما يلقونه في العراق لا يجدونه في بلاد أخرى . فكيانهم ولسانهم وعاداتهم كلها محترمة . وهو يعودون مع سائر العراقيين أبناء وطن واحد في الحقوق والواجبات . ومن أسهل الأمور عندهم وأدعاها إلى اغباضهم تشقفهم بالثقافة العربية ومشاركة العرب في خدمة وطن هو وطن الفريقين . وقد ألف الكرد الثقافة العربية منذ قرون ، وخدمها بعضهم خدمات معروفة في التاريخ . أما المسيحيون في العراق فقد ددم اليوم نحو مائة ألف نسمة ، ومعظمهم ساميون استعربوا منذ القدم ، وشاركون المسلمين في اتجاهاتهم القومية سياسياً وثقافياً . وأما بود العراق فقد ددم مخالون ألفاً تقريباً وهو يسكنون العراق منذ زمن طويل ، وليس لهم فيه مطامع سياسية على ما يقولون . وهم الأكبر أن يظلو محتفظين بركزهم

الاالي والتجاري ، وهو حال او هو احتكار لا يجوز بقاوئه . وخمسة أسداس سكان العراق عرب والملايين اكراد وأتراء . ولا زيد الا زراك على ٥٥٠٠٠ نسمة اي على واحد ونصف في المثلث من بجموع السكان . ويتبين من ذلك أنه لا يوجد داخل العراق عناصر ذات شأن تجحد الفكرة العربية أو تكيد لها . ويشعر كل عربي بكل العراق بأنه في بلده .

وقد ذكرت أن الحكومة العراقية هي التي تهيم في مدارسها على تقافة الأحداث ، وهي التي تعليمهم بطابع الثقافة العربية الشاملة . أما

الجيش العراقي فهو يت لهم بمقدار فكرة الایثار والتضحيه والعمل جماعات منظمة معالمة في سبيل الامة والوطن . ويكون عمل الجيش إما في الثكنات ، وإما في المدرسة العسكرية ، وإما في جماعات الفتوة في مدارس التجيز حيث شاهدنا خاتطا يدرس في أحد الصفوف ، وشاهدنا متودعا فيه لكل تلميذ بندقية وحربة وبمجموعة من الأسلحة العسكرية . وهكذا يخرج كل تلميذ من مدارس التجيز « أو من المدارس العليا » وهو خابط احتباطي في الجيش العراقي الباسل . ومتى علمنا أن العراقيين شجعان أشداء الشكيمة لم تخنثهم رذائل المدينة الحديثة ، وعلمنا أن في أعمال الري وفي تأسيس المعامل الصناعية متsuma لأن زداد سكان العراق أضعافاً ، أدركنا على الفور ما سيكون للعراق من شأن عظيم في العالم العربي .

وفي العراق نهضة أدبية لست أنها في اجتماعنا إلى أعضاء نادي القلم ، وم عصبة فيه الكاتب والشاعر والأديب والعالم . ولا شك أنهم يمثلون فاجية بارزة من نواحي الثقافة العامة في العراق . أما الصحافة فقد تقدمت تقدماً عظيماً ، سواء من حيث المادة العلمية في الموضوعات التي تطرقتها ، أم من حيث لغة الكتابة . ومن الصحفيين نواب وأدباء ووطنيون صادقو الوطنية . لكن في العراق كما في الشام إقبالاً على اتخاذ الصحافة منه سهلة . وهذا سار يصدر في بغداد وحدها عشر صحف يومية أو أكثر

وهو عدد كبير إذا قيس بعدد قراء الصحف في العاصمه العراقيه وفي الأطراف . ومن الجلات الراقية التي أطالعنا عليها مجلة « المعلم الجديد » ، كصدرها وزارة المعارف ، ومجلة « العالم الاسلامي » ، كصدرها جمعية الشبان المسلمين . وأسفنا لاحتياجنا لاحتيجانا لغة العرب ، لأنسباب مالية . وهي المجلة العربيه اللغوية المقيدة التي كان يصدرها العلامه الأب السادس ماري الكرمي . ويقرأ العراقيون كثيراً بعض الجلات التي تصدر في مصر كالقطعنف والهلال والرسالة والثقافة .

وتتجلى النهضة الرياضية في النادي الاولى العراقي وبنائه الكبير وملعبه الحسنة ، وفي بناء السباق الفخم ومطاره الواسع ، وفي جامعة الكشافة والألعاب على أنواعها ولا سيما الكرة والتنس . وللرياضة شأن في مدارس العراق ، لكننا لاحظنا أن بنية عدد من تلميذات المدارس التي زرتها ضعيفة تدل على أمهن في حاجة إلى تزويدهن ساعات الرياضة البدنية .

ولم أتمكن من درس النهضة النسائية وأهدافها وتقديرها ، إلا أنني لاحظت كون تعلم البنات ينتشر بسرعة ، وشاهدت عدة تلميذات بدرسن في دار المعلمين العليا ومعهد الطب والحقوق . ووقفت في قاعة التدريج بمهد الطب أمام طابة عاكفة على رأس مبت تذكر أجزاءه بشرط في يدها . خدقت في وجه الطابة أترسم الخوف أو الاشمئزاز في ملامحها ، وإذا بها باسمة كأنها تنشر تقاحة ! ولعلها خذلت أن تكون أنا الصاب بالخوف أو الاشمئزاز ! .

وذكر لي من شقيقه أن المرأة العراقية تقدمت كثيراً في تفكيرها وثقافتها ، منذ أخذت مدارس البنات تنتشر ، ومنذ سهلت وسائل الاتصال في السنتين الأخيرة . والمحجب في العراق كالمحجب في الشام لا يوجد إلا في المدن . ومع هذا فقد كنت أرى عدداً من النساء يستعنن إلى الوطنية . لكن في العراق كما في الشام إقبالاً على اتخاذ الصحافة منه سهلة . وهذا سار يصدر في بغداد وحدها عشر صحف يومية أو أكثر

## الأندلس

«عِبْرَةٌ وَذَكْرٍ»

مُلْسَانِ عَارِفٍ لَّهُ يَرِي

ما ذكرت الا نداس مرة إلا امتنكت نفي بمحنة ونفعه ، ما زال ان  
في تتجاذبان دمعة من عبني حتى أرسلها ، وأنا بعد لا أدرى أجدلاً  
أرسلتها أم جزعاً .

وكيف لا أجتذل وذكرى الانداس أعود بصحابها إلى السنة الثانية  
والتسعين للهجرة ، إذ نحن والامر أمرنا ، وإذا الوليد ، وقد ربع  
في هذه العاصمة : دمشق ، ربضة الأسد ، وانتشرت ولاته فيها فتحه  
العرب من البلاد شرقاً وغرباً ، فكان منهم على افريقية<sup>(١)</sup> موسى بن تسيير ،  
وتابى على موسى همته أن يقف دون الفتح بحر ، فيغزى مولاه طرفاً  
إسبانيا فيلم بها إماماً ليناً لا يتعذر ما يعرف إلى اليوم عدinya طريف  
أو طريقة كما يقول الإسبان . فيبعث موسى ثانية حيث أكابر ، يقصد  
لواءه مولاه طارق بن زياد ، فيكون طارق فوق ظن مولاه به ، يواعظ  
الجزيرة ويظهر على أصحابها ، ويهزم جيشه الضخم ، ويتابع دلوه حتى  
يقضي عليها ويتوغل في البلاد غازياً فاتحاً ، فتعود له مستسلمة ساغرة ،  
ويحتاج هذا الفتح طاعية موسى فأمر طارقاً بالوقوف ، حيث انتهى به  
الفتوح ، ويختار بنفسه البحر في جيش لجب ، فيمضي في الفتح ، وقد  
جعل هدفه القسطنطينية يقطع إليها البلاد فاتحاً حتى يعود إلى المشرق  
عن طريقها .

(١) افريقيا لحظ أطلقه الرب على المغرب الافني عامه وتونس منه خاصة لا كا  
يطلق اليوم على القارة بمحملتها .

الهجيات في الشوارع ودور السينما ، ولاحظت أن عددهن هناك يفوق  
كثيراً عدد التجنيسات . ولا يعكتي أن أتبين دينهن لأن كل النساء  
وتقدن فوق تيامن عباءات سوداء جميلة على ذوق واحد معظمها من حرير .  
ولا تقتصر النهاية المعاشرة على العاصمة وحدها بل تعمسائر مدن  
العراق . ولقد شاهدت شوارع واسعة نظيفة وحدائق بلدية ودوراً جليلة  
في المدن الصغيرة التي زرتها أو مررت بها كالنجف وكربلاء والحلة  
والرمادة وغيرها . وقيل لي إن في الموصل حديقة بلدية من أجمل الحدائق ،  
وان فهان شوارع نظيفة عريضة منفتحة .

وبعد ، إن العراق ابن عشر سنين أو عشرين سنة في الفرط ، ولهذا لم يبلغ إلى اليوم أشدّه ، ولا يزال أمامه متسع للعمل في نواحي الحياة العامة ولا سيما فيما أشرت إليه من أعمال الاسقاء ورفع مستوى الفلاح « بإيجاد الملكية الزراعية الصغيرة وتحسين وسائله الصحية » والعمل في تجارة البلاد وسائر اقتصادياتها . لكن العراق عرف الطريق القومى فبدأ يسلكه . وهو اليوم يسير إلى الأمام بخطى واسعة مردداً قول القائل :  
بني كا كانت أوائلنا  
تبني ونفعل مثلما فعلوا

دمشق : شباط سنة ١٩٤١ .

وتحتى الولاية في هذه الجزيرة إلى عبد الرحمن الغافقي فيجتاز جبال البراءة أو الشنaya ويصل إلى تور<sup>(١)</sup> وهي في قلب علقة شارمان . أيام المري مع هذه الذكرى ، إن هوأخذته عظمة الماضي فنبي لحة من المحات انه ابن هذه الأمة العربية المستضعة اليوم لكل جيل ، المستمرة في كل قطر ، فذهب به إليه بهذا الحمد الغابر ، حتى خيل إليه أنه يسير في حيش الفتح ، يسمع قصمة السيف ، وجر جرة الرماح ، وعجمجة المجاهدين .

\* \* \*

ثم كيف لا يتقطع القلب حزارة ، متى رجعت الذكرى إلى ما كان من فشل هذه الفزوة ، وكيف ملاً قومنا أيديهم بالغنايم فشقق لهم عن الحرب ، وعن كل تفكير إلا فيها ، فأصيب صاحبنا الغافقي إصابة كانت فيها روحه .

ثم كيف تفرق العرب في الأندرس نفسها وتنازعوا الرئاسة فانشق الآخ عن أخيه ، وثار الابن على أبيه ، ففشلوا وذهبوا ريحهم ، استسلموا لمدوم فراراً من الموت ، فوقعوا في الماء وفي الماء .

ما زاك الأسپانيون حيلة في الظلم والنفطيع إلا أوقتما بهم . حُرِّقوا ، وغرقوا ، وبقرت بطونهم ، وسللت عيونهم ، وقطعت أيديهم وأرجلهم ، واستعبدوا وأذلوا ودجعوا . ثم انهم أزعجوا عن ديارهم - إلا من بدل دينه تبدلا سجحا - خرجوا خروج الغريب عن البلد الغريب .

اذكر هذا فاحس في قلبي وقع هذه المظالم ، وأسمع بأذني أبا البقاء يقول :

دهي الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أحد وانهد هلان  
أصابها العين في الاسلام فارتزأت حق خلت منه اقطاع وبلدان

## عارف النكدي

٣٩٥

فأسأل بلنسية ما شأن مرسيه وأين شاطبة أم ابن جيان  
من عالم قد سما فيها له شأن  
ونهرها العذب قياض وملائكة  
عن البقاء فإذا لم يبق أركان

وأين قبر طيبة دار العلوم فكم  
وأين حمص وما يحويه من نزه  
قواعد كن أركان البلاد فما  
عن البقاء إذا لم يبق أركان

\* \* \*

يا من لذلة قوم بعد عزم أحال حالم جور وطنين  
بالآمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الضد عبادان  
عليهم من ثياب الذل ألوان  
فأتو راهم حيارى لا دليل لهم  
لما لا من رأيت بكاهم عند بيهم  
يا رب أم و طفل حيل بينها  
وطفله مثل حسن الشمس اذ طاعت  
كأنما هي يافوت ومرجان  
يقودها العلج المكره مكرهه  
والعين باكية والقلب حيران  
لمثل هذا يذوب القلب من كدره إن كان في القلب اسلام وإيمان  
الأخي أنت بعد ، إذا أنا لم أدر أدمعه الجzel أرسلت أم دفة الجzel ؟  
بلى لقد صدق أبو البقاء ، فما لصالب العرب بالأندرس عزاء ، ولا لجرحهم  
فيها شفاء ، وأنى يكون ذلك والخطب منقطع النظير ، خص العرب وعم  
الإنسانية جمعاء .  
وإذا كان العرب قد تركوا التفجع والتوجع فما فعلوا ذلك بعد  
الصفع ، والمربي الحق يرى في كل بلد عربي موطن له ، ولا بعد  
العهد ، وأربع مئة سنة ليست في التاريخ شيئاً ، فتنى بلدان كالأندرس  
عمره أجدادنا ثمانية قرون كامنة فأنشأوا فيه حضارة عزّ منها ، وكانت  
أحدى مفاخر العالم على وجه الدهر .  
كلا لا هو بعد الشقة ، ولا دو بعد العهد ، أذى العرب ذلك العهد ،  
ولكنها المصائب تترى آخذًا بعضها برقب بعض ، المحت كل قطر عن غير

(١) عاصمة مقاطعة تورينا على ٢٢٦ كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من باريس .

نفسه . فـأي بلد عربي وليس فيه جراحة ما تأثـلـي بعض أحـشـاءـه ، وتنـفـصـ أـجزـاءـه ، حتى شـفـلـتـهـ عنـ البـكـاءـ عـلـىـ أـمـسـهـ بـاـبـكـاهـ عـلـىـ نـفـسـهـ . « يـكـيـ وـمـنـ شـرـ السـلاـحـ الـاـدـمـعـ »

ولـسـاـ مـنـ الـبـالـغـةـ فـيـ ذـيـ « إـنـ نـحـنـ فـلـنـاـ انـ حـضـارـةـ الـعـرـبـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ » كـانـ إـحـدـىـ مـفـاـخـرـ الـعـالـمـ وـانـ مـصـابـ الـعـرـبـ بـهـ عـمـ الـإـنـسـانـيـ جـمـعـاـ .

فـنـ كـانـ قـدـ عـلـقـ بـذـهـنـهـ شـيـءـ، عـمـاـ عـلـيـهـ اـرـسـالـيـاتـ الـفـرـبـ فـيـ كـصـغـيرـ شـائـنـاـ، وـتـهـوـيـنـ أـمـرـنـاـ قـدـ دـاخـلـهـ شـكـ فـيـ كـلـتـنـاـ، فـلـيـرـجـعـ إـلـىـ مـاـ وـصـفـ بـهـ الـمـؤـرـخـ الـافـرنـيـ « لـافـالـلـهـ Lavalléeـ » مـدـنـيـةـ الـاسـلـامـ باـسـبـانـيـةـ وـمـاـ أـتـىـ بـهـ مـنـ يـبـانـ مـنـ إـيـاـ الـعـرـبـ هـنـاكـ فـيـ الصـنـاعـةـ وـالـزـرـاعـةـ وـالـفـرـاسـ وـالـبـنـاءـ، وـوـصـفـ قـصـرـ اـشـبـيلـيـةـ، وـحـمـراـ غـرـنـاطـةـ، وـجـامـعـ قـرـطـبـةـ، وـخـصـائـصـ الـهـنـدـسـةـ الـعـرـبـيـةـ، وـالـزـخـرـفـ الـشـرـقـيـ، وـأـسـلـحـةـ الـأـنـدـلـسـيـنـ . وـقـدـ قـرـرـ أـنـ الـعـرـبـ هـمـ أـوـلـ مـنـ اـسـتـعـمـلـ المـدـافـعـ التـارـيـةـ فـيـ اـوـرـباـ، وـاـنـهـمـ هـمـ الـذـينـ هـدـواـ الـأـوـرـيـنـ إـلـىـ صـنـاعـةـ الـبـارـودـ، وـعـرـفـوـهـ بـصـنـاعـةـ أـخـرـىـ أـشـدـ تـأـثـيرـاـ فـيـ الـاجـمـاعـ الـإـنـسـانـيـ وـهـيـ عـمـ الـوـرـقـ .

قالـ : « وـاـنـهـمـ فـيـ جـمـيعـ الـفـنـونـ فـاقـواـ الـمـسـيـحـيـنـ وـبـلـغـواـ الـدـرـجـةـ الـقصـوـيـ منـ الـحـيـاـةـ، جـيـنـاـ كـانـ أـقـرـانـهـمـ مـلـفـوـقـينـ فـيـ حـنـادـسـ الـجـهـاـلـةـ وـالـبـرـبـرـيـةـ، فـكـانـوـ فـوقـهـمـ فـيـ الـعـلـمـ، وـمـثـلـهـمـ بـالـبـأـسـ، وـكـانـوـ حـكـامـ فـيـ الـمـجـالـسـ، أـشـدـاءـ فـيـ الـمـاـزـقـ، (١)ـ .

ثـمـ أـلـقـ بـسـعـكـ إـلـىـ مـاـ يـقـولـهـ « كـوـلـوـدـ فـرـرـارـ Claude farrèreـ » عـنـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ، فـيـ مـقـدـمـةـ الـعـبـاسـةـ أـخـتـ الرـشـيدـ نـقـلـهـ كـلـةـ كـلـةـ :

« أـنـاـخـتـ عـلـىـ الـإـنـسـانـيـةـ فـيـ السـنـةـ الثـانـيـةـ وـالـثـلـاثـيـنـ بـعـدـ السـبـعـائـةـ الـمـيـلـادـ كـارـتـةـ اـعـلـمـ أـسـوـاـ مـاـ شـهـدـهـ الـقـرـونـ الـوـسـطـيـ، تـنـجـبـطـ مـنـ جـرـائـهـ الـعـالـمـ

الـغـرـبـيـ سـبـعـةـ قـرـونـ أـوـ ثـمـانـيـةـ قـرـونـ بـلـ تـرـيـدـ، فـيـ لـجـةـ مـنـ الـمـعـجـيـةـ، بـدـأـنـ « الـنـهـضـةـ » تـفـشـعـ ظـلـامـاتـهاـ، فـعـادـتـ حـرـكـةـ « الـإـلـاحـ » تـرـيـدـ فـيـهاـ مـنـ جـدـيدـ . هـذـهـ الـكـارـتـةـ الـتـيـ أـرـبـدـ أـنـ أـحـتـقـرـ ذـكـرـاـهـ، هـيـ ذـكـرـ النـصـرـ الـهـائـلـ الـذـيـ أـحـرـزـهـ غـيرـ بـعـيدـ عـنـ « بـوـاتـياـ »، جـمـاعـاتـ، الـمـهـرـكـاسـ، الـمـتوـحـشـينـ مـنـ مـقـاتـلـةـ « الـفـرـنـكـ » يـقـوـدـهـ شـارـلـ مـارـتـالـ الـكـولـوـنـيـجـيـانـيـ عـلـىـ فـيـرـقـ مـنـ الـعـربـ وـالـبـرـبرـ فـشـلـتـ لـأـنـ الـخـلـيقـةـ عـبـدـ الرـحـمـنـ؟! أـخـطـأـ فـلـمـ يـحـشـدـهـ أـكـثـرـ مـاـ كـانـ عـدـدـهـ . فـيـ هـذـاـ الـيـوـمـ الـمـشـؤـومـ تـقـفـرـتـ الـحـضـارـةـ ثـمـانـيـةـ مـائـةـ سـنـةـ . وـحـسـبـ الـإـنـسـانـ أـنـ يـكـوـنـ قـدـ تـرـزـهـ فـيـ جـنـائـنـ الـأـنـدـلـسـ، أـوـ خـطـرـ بـيـنـ أـطـلـالـ لـاـتـزالـ بـعـدـ تـبـهـرـ الـإـبـصـارـ، مـنـ عـوـاصـمـ السـحـرـ وـالـجـيـالـ الـتـيـ كـانـ عـلـيـهـ اـشـبـيلـيـةـ وـعـرـنـاطـةـ وـطـلـيـطـلـةـ، اـيـرـاءـيـهـ لـهـ فـيـ شـيـءـ مـنـ الدـوـارـ الـمـعـجـبـ مـاـ كـانـ يـكـنـ أـنـ تـصـلـ إـلـيـهـ فـرـنـسـاـ، لـوـ أـنـ الـإـسـلـامـ الـصـنـاعـيـ الـحـكـيمـ الـرـصـينـ الـمـتسـامـحـ — إـذـ الـإـسـلـامـ هـوـ كـلـ هـذـاـ — اـسـتـطـاعـ أـنـ يـنـزـعـ وـطـنـاـ فـرـنـسـاـ مـنـ فـطـائـعـ لـاـ تـجـدـهـ أـسـماـ اـجـتـاحتـ بـعـدـ ذـكـرـ الـفـوـلـ الـقـدـيـمـ : اـسـتـبـدـهـ بـادـيـ، الـأـمـرـ « الـأـوـسـتـرـازـيـانـ Austrasiensـ » اوـلـئـكـ الـسـلـاـبـونـ الـضـوارـيـ نـمـ اـقـطـعـ الـقـرـصـانـ الـنـورـمـانـدـ » Normandesـ، اوـلـ قـمـ مـنـهـ . نـمـ نـجـزـأـنـ مـنـ اـقـطـعـ الـقـرـصـانـ الـنـورـمـانـدـ » Normandesـ، اوـلـ قـمـ مـنـهـ . نـمـ نـجـزـأـنـ وـتـعـزـتـ وـغـرـقـتـ فـيـ بـحـورـ مـنـ الـدـمـاءـ وـالـدـمـوعـ، وـأـخـلـتـهـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـعـيـةـ مـنـ السـكـانـ، وـمـلـأـتـهـ الـحـرـوبـ الـخـارـجـيـةـ وـالـأـهـلـيـةـ جـشـاـ، كـانـ ذـكـرـ يـوـمـ كـانـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ يـقـعـ بـلـذـةـ السـلـمـ مـنـ نـهـرـ وـادـيـ الـكـبـيرـ إـلـىـ نـهـرـ الـمـنـدـوسـ، فـيـ كـنـفـ الـخـلـافـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ الـأـرـبـعـ : الـأـمـوـيـةـ وـالـعـبـاسـيـةـ وـالـسـلـجـوـقـيـةـ وـالـعـمـانـيـةـ .

وـإـذـ كـانـ « فـرـارـ » خـتـمـ مـقـالـهـ ذـاهـبـاـ مـذـهـبـ الـجـيـالـ وـالـأـغـرـافـ، فـيـ السـلـمـ الـذـيـ وـصـفـهـ فـيـ ظـلـ الـخـلـافـةـ، فـلـقـدـ كـانـ مـؤـرـخـاـ حـقـاـ وـهـوـ يـنـفـيـ بـحـضـارـةـ الـأـنـدـلـسـ، وـكـانـ مـخـلـصـاـ سـادـقـاـ وـهـوـ يـنـعـيـ عـلـىـ قـوـمـهـ أـنـ يـفـخـرـوـاـ

(١) خـلاـصـةـ تـارـيخـ الـأـنـدـلـسـ الـلـامـيـ تـكـبـ اـرـسـلـانـ مـ ٣٦٥ـ .

يوم « بواتا » اليوم الذي تراجعت فيه جيوش العرب مندجرة ، فصدرت الحصارة العربية صدمة لم يكن من مصلحة العالم المتقدم أن تكون . بل مالتا قله ، لافاله ، المؤرخ الفرنسي الخطير ، وما كتبه « فرار » ، الكتاب الفرنسي الكبير ، ولنعد إلى ما كان من الإسبان أذففهم في الفترة الأخيرة .

فلا إسبان وهم الذين لا يفتلون مختلفون باليوم الثاني من شهر كانون الثاني ، وهو اليوم الذي في مثله من سنة ١٤٩٢ خرج أبو عبد الله آخر ملوك الأحرar من عاصمة الإندلس ، ذلك الاحتفال الفخم ، فتقرع فيه أجراس كنيسة الحمرا ، أربعاً وعشرين ساعة قرعاً متواصلاً .

هؤلاء الإسبان أنفسهم قام منهم نفر من علماء المستشرقين ، تحملوا من قيد التعب ، فزعوا ما ألقاه على أيديهم من غشاوة ، فإذا هم يبصرون تلك الحصارة العربية الفتانة ، وما فيها من عظمة وفن وجلال ، فتنجذبهم سبابة منها ، أبقيت عليها نزعات الجهل القديم ، والتعصب الذميم ، فإذا بها إلى اليوم مفخرة إسبانيا الكبرى ، وموارد الرزق فيها .

ويبنوا الإسبانيون مختلفون بذلك جلاء العرب عن بلادهم ، شفاء لزعنة الدين ، وقضاء لحق الوطنية ، ينهض هذا النفر فيحتفل بذلك كري قيام الخلافة الاموية بالإندلس تقديراً للجهود الإنسانية ، وإعجاضاً بالحصارة العربية .

أليس حقيقة أن تتحدث إليك على ذكر هذه الحفلة يقوم بها أعداء تاريخنا بالأمس ، وأصدقائه حصارتنا اليوم ؟ بكلمة عن هذا البلد الطيب تكون كالعبرة والذكرى ليس إلا . أقول عبرة وذكرى ، ذلك أني لا أطبع آن أقف فيك موقف المؤرخ ، والكلام عن الإندلس حديثه وقدمه ، عربيه وغربية ، ملـ الكتب وملـ دورها ، فهو من سبيل الى غير مكرر هول ؟ وإذا كان من حاجة لمزيد في ناحية من نواحي تاريخ هذا

الفطر ، أو في ما كان فيه من علم وأدب ، وصناعة وزراعة ، وسائر مقومات المهران ، أو كان في رجال هذا الفطر ودولاته وسياساته ما تفضي غواصاته شيئاً من النور يكشف عن أسراره ، فهذا مالا تسع له الحاضرة والحاضراتان ومن حق رجال التاريخ أن يفردوا لكل فرع من هذه الفروع التي أشرنا إليها كتاباً قاتماً برأسه ، بل في رجال الإندلس من يستحق أن يؤلف فيه الكتاب المستقل .

أما أنا ، فأكفي بالعبارة أبسط فيها دخولنا الإندلس وخروجنا منه ، وقد توافقت فيها الإسباب ، وانحدرت العلل في القبيلين العرب والإسبان ، وبذلك كرى أعبد عليكم فيها لحة موجزة عن هذا التاريخ تكون كالفذل لهذه القرون المئانية التي عمرنا فيها هذا الفطر . نسرد فيها الأحداث الخطيرة ، ونسلسل أدوار الحكم ، بما يمكن حفظه .

ولعل الموضوع يكون أقرب تناولاً أن نحن قمناه إلى خمسة أدوار ، نهد له بمجمل تاريخي جغرافي عن الإندلس العربي وتاريخها القديم ، أما الأدوار الخامسة فهي :

١ - الفتح وأسبابه .

٢ - الحكم الاموي .

٣ - ملوك الطوائف .

٤ - حكم أمراء المغرب المرابطين والموحدين .

٥ - الجلاء وأثر العرب في الإندلس وعاداتهم وأخلاقهم .

### لحوظة بغرافية

الإندلس أو فندالوسيا اسم مقاطعة من شبه جزيرة البرانة ، حيث فندالوسيا أو فندالوشيا باسم الفندال « Vandales » وهي أمّة تزرت شبه هذه الجزيرة في أوائل القرن الخامس .

وقد عرفت هذه المقاطعة بـ « بيتاكيا » *Bétique* باسم *Bétis* ، الذي رواها وهو وادي الكبير اليوم .

## مادتها وحدودها :

طول هذه الجزيرة من رأس *بيناس* في استورياس « أشتوريش » شمالاً إلى رأس طريف في *بوغاز* جبل طارق جنوباً ٤٤٠ ميلاً، ومعظم عرضها من رأس كروس في قطلونية شرقاً إلى قرب رأس فينستر في جليقية غرباً نحو ٦٣٠ ميلاً .

ويمدعاً من الشهاب سلسلة جبال البرانس الفاصلة بينها وبين فرنسا وهي بثلاثة بروزخ عرضه ٢٤٠ ميلاً وبحر بسيكي المسحي ببحر فرنسا ومن الغرب الأوقيانوس الأطلنطي ومن الشرق والجنوب البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق الفاصل بينها وبين أفريقيا .

وتقدر مساحة هذه البلاد وما يتبعها من جزر متجمدة لها بنحو سبعمائة ألف كيلومتر مربع « ٦٠٠٠٠ » منها اليوم لاسبانيا « ٥٠٤٥٢٠ » كيلومتراً و « ٩٢١٥٧ » للبرتغال .

ويقول جغرافيونا أن مسيرة دوارها أكثر من ثلاثة أشهر ليس فيها ما يتصل بالبر إلى مقدار يومين .

## معادتها :

وأرجحها غنية بالمعادن ، منها : الرصاص ، والزئبق ، والتنك ، وال الحديد ، والفضة ، والنحاس ، والملح ، والفحם ، والرخام ، وحجر الدم . وقد عرفوا منها الذهب .

## هراؤها :

يختلف باختلاف أقاليمها منه الحار والمعتدل والبارد .

دخل الفينيقيون هذا القطر سنة ١٠٠٠ قبل المسيح ، فأنشأوا في سواحلها مستعمرات عديدة منها : طرطوشة *Tressus* ، وقادس . ثم تبعهم اليونان فبنوا أيضاً عدة مستعمرات منها : أمبورية على ساحل قطلونية ، وساغونتم « صريدر » في بلنسية . وظل داخل البلاد بمثابة لم يعرفه الرومان إلا في الحرب البوتقة الثانية .

وأطلق اليونان على الساحل الشرقي اسم *إييريا* ، وسموا القسم الغربي من شبه الجزيرة *ترتشيش* وأوسطها *كلتيكا* ثم توسعوا بعد ذلك فأطلقوا لفظ *إييريا* على البلاد كلها ثم سماها الرومان إسبانيا<sup>(١)</sup> .

ومن أمم إسبانيا القديمة الاستوريون « *Asturiens* » ، كانت مواطنهم في *استورياس* « *Asturie* » والقسم الشمالي من مملكة لاون ، وكانت قاعدة بلادهم « *أستوريكا أو غسطا* » وهم آخر من خضع للرومانيون .

أما أول من عرف من سكان هذه الجزيرة فهم القلطيريون « *Celtiberiens* » ، وهم خليط من القلط « *Celtes* » ، والإير « *Ybères* » ، ثم أنشأ الفينيقيون واليونان على ما قدمنا مستعمرات وأسواناً تجارية « وكالات تجارية » على شواطئ هذه الجزيرة . وفي القرن الخامس امتدت إليها سيادة قرطاجة « *Carthage* » إلى أن تقلب عليها الرومان وظلوا أصحاب السلطان فيها إلى أن غزاهم الهيلانيون « *Alains* » ، والسواف « *Suaves* » ، والفتدار « *Vandales* » سنة ٤٠٩ ، وفي ذلك المعر أنشأوا فيها

(١) قبل أخذ هذا الاسم من لفظة « *شارغان* » السامية ويعندها الارب لكنزة ما وجد الفينيقيون منه في هذه البلاد . وقبل من لفظة « *ازبابا* » البشكية ويعندها شاطئي .

القريقوط » Wisigoths « دولة عظيمة ما زالت قائمة إلى أن قضى عليها العرب يوم استولوا على الأندلس في توز من سنة ٧١١ بعد معركة شريش أو شرس « كارييس Xerès » .

## ملك العرب :

دخل العرب إسبانيا فأطلقوا عليها اسم الأندلس ، إذ كانت هذه المقاطعة أول ما استولوا عليه من شبه هذه الجزيرة ، وغلبوا عليها اسم الجزيرة على أصالها بالبر — كما سميت شبه جزيرة العرب أيضاً جزيرة . وبسط العرب ملوكهم على هذه الجزيرة جزرها وياستها ، ساحلها وداخلها ، شرقها وغرتها ، إلا جزءاً يسيرًا من الغرب الشمالي قرب خليج خصونيا في ولايات جبلية يسمى الإسبان استورياس ، وسماعها العرب استورش والصخرة .

## عدد السلطان :

ليس عندنا ما نقول عليه في عدد سكان الأندلس أيام العرب فقد أوصله بعضهم إلى العشرين مليوناً وهذا عدد نشك في صحته وإن قيل إنه يبلغ من عمران الأندلس أن كان على وادي الكبير أربعة عشر ألف قرية حتى كان المسافر لا يكاد ينقطع من العماره ما بين قرى ومياه ومنارع والصحاري معدومة » .

## النفح :

قلنا : إن موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك على إفريقية ، أغزي مولاً طریقاً الأندلس ، فسار في أربعة مراكب فيها أربعين رجل

ومئة فارس ، فنزل في موضع سمي به<sup>(١)</sup> على المضيق الذي عرف بعد ذلك مضيق جبل طارق فأغار وأصاب شيئاً ثم دفع وذلك سنة ٩١ هـ . وفي سنة الـ ٩٢ بعث موسى مولاً طارقاً في سبعة آلاف<sup>(٢)</sup> جنهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب إلا القليل . فنزل طارق جيلاً متبوعاً على شاطئي البحر يعرف إلى اليوم به . وجعل السفن مختلف بارجال والخيل حتى توافق إليه جميع أصحابه . قبل وكان في جيش طارق بوليانوس أحد رجالات إسبانيا<sup>(٣)</sup>

(١) طريف أو طربقة ثغر إسباني حصن على مضيق جبل طارق سكانه اليوم ١٢٥٠٠ فيه حصن منيع بناء العرب تكتنفه الأسوار للنبية وال أبراج . وفي البلدة داخل الدور ثغر مغربي المخزوء الآن سجنًا . وظلت طريف في حوزة العرب إلى سنة ٦٩١ - ٦٩٢ . وفي أيام العرب كانت السفن التي تحمل مسبيق جبل طارق تقف في طريف وتدفع رحماً وهذا زعم بعض كتبة الفرنجة أن لفظة Tarif « يعني الترفة بالفرنسية والإنكليزية وما اشتملها في اللغات الأوروبية مأخوذ من لفظة طريف لتنافي رسم السفن فيها . وكانت طريف من أعظم ثغور العرب شأنها في تلك الاتجاه بل كانت أم ذلك الثغور وريشه ، لأن توعلها على بحر الزرقاء « لاروس ودائرة للمعارف الغربية » .

(٢) في دائرة للمعارف الغربية : إن طارقاً جاز في نحو ثلاثة أيام من العرب احتتم عليهم من

البر نحو عشرة آلاف صيرها عسكرين أحدهما على نفسه ؛ ونزل به جبل الفتح وهو جبل طارق والآخر على طريف بن ملك النخعي وتزل به بيكان مدينة طريف ثم اداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن وبين الماء وودريل فنهض البهم بجيش يبلغ الأربعين ألفاً فلقيتهم في فحص شرقي فهزمه طارق وطريف .

(٣) في صبح الاعتي الحجزه الـ ٥ من ٤٤٢ وبعض الكتب العربية : كان من

سير الاعاجم أن بعثت إمبراطوراً بولادم ذكوراً كانوا أو اثنا إلٰي بِلَطْ لِكَ

أيضاً بدوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى إذا بلغوا إنكلترا يضمهم بما

استلابوا لأبابهم . وكان المدرب عامل على سبعة من بر الماء يسمى ببيان ،

وله ابنة فاقحة الجمال ، فوجه بها إلى دار طريف على عادتهم في ذلك فونق

نظر طريف عليها فأعجبته ، فاستقرها على نهرها ، فاحتاث حتى اهلت

ابنها بذلك سراً . فشق ذلك عليه وجنت ببيان سلطان طريف ، ثم لطف

حتى اندفع بناته من بيت طريف ، ثم لم يلبث ببيان أن كتب إلى موسى أن

نصره أمير إفريقية من جهة الوليد بن عبد الملك يحرسه على غزو الأندلس

وحتى على ذلك ووصفت له حسنه وروادها ما دعاه إلى ذلك وهو من عليه اسر

فتحها ، فتوافق منه موسى ودعا مولى له كان على مقدمة يقال له « طارق

بن زياد » فتقدله وبعثه إليها في سبعة آلاف ، وهيا له ببيان للراكب ...

في جماعة من أهل البلد بدمتم على العورات ويتجسس لهم الأخبار .  
وبلغ الامر رودريك « لدرير أو رزريق » ملك طليطلة فجمع  
جوعه والتق طارق في موضع يقال له البحيرة ، فانهزم رودريك . وسار  
طارق متبعاً لاصحابه الى مضيق الجزيرة قدينة استجدة فلقيه أهلها ومعهم  
من المهزعين خلق كثير ، فقاتلوه قتالاً شديداً ثم انهزموا . ونزل طارق  
على عين ييتها وبين مدينة استجدة أربعة أميال فسميت عين طارق ، ومن  
استجدة فرق جيشه على مدن الأنجلس ، فوجده فرقه الى قرطبة ، وأخرى  
إلى رية ، وثالثة إلى غرناطة ، وسار هو في عظم الجيش يريد طليطلة  
ففتحت كلها وكذلك قدمير . وخلق طارق رجالاً من أصحابه وسلك إلى  
وادي الحجارة واستقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق . فكان  
فتح الأنجلس يوم الأحد في الخامس من شوال سنة اثنين وسبعين .  
وكتب طارق إلى موسى بالفتح والنفاذ ، فركته الغيرة وكتب إلى  
طارق يأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يصل إليه .

استخلف موسى على القิروان — عاصمة ولادته المغربية — ولد  
عبدالله ونهض سنة ملايين وتسعين وعمره حبيب بن منهه الفهري في جيش  
غير من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ، قيل انه ١٨ الفاً فأتم  
موسى الفتح متوجلاً الى برشلونة في الشرق وأربونة في الجوف ، وصنم  
قادس في الغرب ، ثم أجمع أن يأتي الى الشرق من ناحية القدس الفلسطينية  
ويتجاوز الى الشام ويخوض ما بينها من أعم الاعاجم بجهاداً إلى أن  
يلحق بدمشق دار الخلافة .

وبلغ ذلك الوليد فاشتد قلقه بـكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن  
ما هم به موسى غدر بالمسلمين ، فبعث اليه بالتوجيه والانصراف وأسره إلى  
سفيرة أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع موسى عن عزمه ، ففُعل بذلك موسى

عن الأنجلس وولى عليها ابنه عبدالمجيد واصله بـمدينة قرطبة وأنى القิروان  
سنة ٩٥ وارتحل الى الشرق سنة ٩٦ بما كان معه من الفنان والذخائر  
والآموال ، وقدم على سليمان بن عبد الملك فسخطه ونبأه . . . .  
أصبحت الجزيرة كـها في يد العرب إلا ولايات جليلة منها إشتوريش  
وقنطيرية ونوارة التي لقبها العرب بالصخرة فانها دافت عن استقلالها ولم  
يـهم العرب أمرها خلوا عنها . فجعلت بلا جيوش ملكاً عليها ثم الفونس  
الاول الكاثوليكي من بعده فكانت هذه الصخرة الأساس الذي بنى الإسبان  
عليه ملوكهم القومي أول فأول .

لقد أجمعنا حكاية هذا الفتح فيـ علينا أن نذكر عليه وأسبابه ،  
وفي رأينا أنها تـحصر في عوامل أربعة :  
(١) العوامل الطبيعية . (٢) العوامل السياسية . (٣) العوامل الاقتصادية  
(٤) العوامل الدينية . ونحن بـحملون هذه العوامل من وجهتها :  
الإيجابية والسلبية .

### العوامل الطبيعية :

محاورة الجزيرة الأنجلوسية بـملك العرب في الغرب فـلقد كان بين المدعويين  
مضيق لا يتجاوز عرضه في بعض المواقع اثنتي عشر ميلاً « نحو ١٢ كيلومترًا »  
بحيث يرى أهل الجانبيـن بعضهم بعضاً ويتبنـون زروعهم وبادرهم .  
انكشاف البـلـاد للعرب وسهولة اجتيازها .  
هـذا ما سهل الفتح ويسـر نـقل المـقاتـلة من العـدوـة إلى الـجزـرـة .

### العوامل السياسية :

توحيد أمر العرب ، وتنظيم الـقيادة ، واعـتـيـادـهـمـ علىـ الجـهـادـ ، وـعـدـلـ  
أـسـرـهـمـ ، وـاشـتـهـارـهـمـ بـذـلـكـ . وـمـنـ الجـهـةـ الـآخـرـىـ تـضـعـفـ  
جـهـةـهـمـ ، وـمـنـ الـآخـرـىـ تـضـعـفـ

ل揆اتهم بعضهم على بعض ، مقاطعة وقومية ، وتشتت آرائهم في انتخاب ملوكهم ، وقيام بعضهم من حراء ذلك على البعض الآخر ، وخراب البلاد بالحروب الأهلية وظلم أولى الأمر فيهم ، وسوء ادارتهم ، وإسرافهم في سفك الدماء ، واضطهاد اليهود واستباحة مواههم وأرواهم .

ظهر أثر هذه العوامل في تحريض نفر منهم العرب على فتح البلاد وفي ضعفهم عن مقاومة العرب وفي التحاقيق قسم منهم بالفاحشين يدللونهم على عورات البلاد ، وعمود القسم الآخر عن مقاومة تذكر .

#### العوامل الوفصمادية :

جهل الإسبان استئثار أرضهم ، والجماعة التي وقعت قبيل الفتح ، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك الوباء الذي أصاب هذه الجزيرة في ذلك المهد ذهب بعد عظيم من السكان قدره بالنصف .

ثم رغبة العرب والبربر بما يجربه الفتح من الكسب والغنائم .

#### العوامل الربحية :

انشقاق الإسبان بعضهم على بعض ديناً .

ثم رغبة المسلمين في نشر دينهم وما نفعه هذا الدين في صدورهم من الإغاثة بالقضاء والقدر .

هذا كل ساعد العرب على الفتح ، دع ما كان في صدور القواد من حب الشهادة . وهل وقف موسى طارقاً عن الفتح ، وعزمه على التوعيل في بلاد الأعاجم إلى القسطنطينية الا دليل على ذلك ؟

#### الحاكم الراصمي

يقسم الحكم الاموي في الاندلس الى ثلاثة عبود : الولاية - الامارة - الخلافة .

#### الولادة الراصمية :

بدأت بالفتح سنة ٩٢ - ٩٣ وانتهت بإمارة عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ . وأول وال عليها عبد العزيز ، ولها لائحة موسى بن نصير على ما تقدم ذكره ، فثار به العسكر وقتلوه لستين من ولاته . وتابعت ولادة الامويين عليها تارة من قبل الخليفة بدمشق ، وطوراً من قبل عامله على القيروان . وكان مقتل الوالي الاول فتح باب اللد على مهراعيه ، فظلت هذه الولاية ومدتها ست واربعون سنة وبضعة أيام ، مضطرباً للنزاع والصدام ، قل ان استقام لوال أمر ، أو طال له حكم ، حتى نيف عدد الولاية في هذه الفترة من الزمن على بضعة وعشرين وایاً<sup>(١)</sup> .

(١) وهذه اماموام من اختلاف يسير في ترتيبهم :

من سنة الى سنة مدة ولاته

|                                |     |     |    |   |
|--------------------------------|-----|-----|----|---|
| عبد العزيز بن موسى             | ٩٥  | ٩٦  | ٩٧ | ستنان                                     |
| ابو بن حبيب المخمي             | ٩٧  |     |    | ستة اشهر                                  |
| المر بن عبد الرحمن بن عثمان    | ١٠٠ |     |    | ستنان وثمانية اشهر                        |
| الصح بن مالك الحولاني          | ١٠٠ | ١٠٢ |    |   |
| الفمني عبد الرحمن بن عبد الله؟ |     |     |    | من قبل اهله                               |
| عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي | ١٠٣ | ١٠٧ |    | اربع سنين واربعة اشهر «من قبل زبه»        |
| عليسة بن سعيد                  |     |     |    | ابن ابي مسلم عامل افريقية                 |
| عذرة بن عبد الله النهري        |     |     |    |   |
| مجبي بن سلمة الكلبي            | ١٠٧ | ١١٠ |    | ستنان وستة اشهر «من قبل بشر بن حب الشهرة» |
| عنان بن ابي نعمة الحنفي المخمي | ١١٠ | ١١٠ |    | صفوان الكلبي عامل افريقية                 |
| الرحن الحلى ساحب افريقية       |     |     |    | عن عبد الرحمن بن عبد الله                 |
| خذيفة بن الاخوص القيسي         | ١١٠ | ١١١ |    | سنة «من قبل عبيدة بن عبد الرحمن           |
| السلفي ساحب افريقية»           |     |     |    |   |
| المهيم بن عبيد الكلابي         | ١١١ | ١١٣ |    | ستنان «من قبل عبيدة بن عبد الرحمن         |
| الذى ساحب افريقية»             |     |     |    |   |

عارف النکدی

رعم عصبية ، يتسبّب لذويه ، ويتحمّل على أعدائهم . فكان من ذلك أن انشقت الجماعة ، وهاجت الأحقاد ، ونقدّمت الناس بأحزان لا على أقدارها .

ومن طبيعة السياسة الخزيرية أن تستند معها المداواة ، وتسنحkm البغضاء ، وأن يتربص كل فريق بصاحب لوثة يهتela منه ، فيُدال له عليه ، القبسي من يعني ، واليعني من القبسي ، وكان الأمر بينها دوايلك . وهُرِلَ الأمر حتى بلغ أن لا يكون للوالى حكم نافذ إلا على قومه ، والوالى القبسي يطعنه القبسيون ، وينحاز عنه اليانيون ، والياني يخضع له اليسيون ، ويعصيه القبسيون . وزاد هذا الخلاف الثبات أمر أمية بالشرق ، وتضعضع أحواهم فشلوا عن قاصية التغور ، بكثرة الخوارج . فبقي أهل الاندلس فوضى : فتن دائمة ، وولاية متداولة ، وحال لا تستقر من الفلق . وافق جند الاندلس آخر الأمر أن يجعلوا الولاية في القببية واليانية مداولة بين الجندين ، سنة لكل دولة . وقدم المضري على أنفسهم سنة ١٢٩ يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، فاستلم ولايته بقرطبة . ثم وافته اليانية بمعاد ادالهم ، وانقضى مكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم ، ففيتهم يوسف في قري قرطبة عملاً القببية وسائر المضري فاستلهموهم ، وتحت الغلبة القببية في معظم أنحاء الجزيرة ، إلى أن كان من أمر عبد الرحمن ما نحن ذاكروه ، لهذا ، ولما انبعث عن ذلك من تبدل الولاية ، ظلت الولاية الاموية في الاندلس متناقلة ، غير متواتلة بين الآباء والابناء ، على ما وقع من ذلك في كثير من الولايات الاموية ، ولا سيما ما بعد التفتة بينه وبين دار الخلافة كالأندلس .

شَفَّلَتْ هَذِهِ الْفَتْنَ وَلَاهُ الْأَمْوَيْنَ عَنِ الْفَتْحِ فَلَمْ يَهُضْ  
إِلَّا مَا كَانَ مِنْ فَتْحِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى . ثُمَّ عَقْبَةُ بْنُ الْمَجَاجِ السُّوْلِي

والسبب في ذلك مطامع الرؤساء ، وتضارب الأهواء ، ونزعة العرب إلى العصبية الجاهلية الأولى . فقامت الفيسيّة واليمنيّة تتنازعان على السلطان - وفيسيّة واليمنيّة حربان كان لها في تاريخنا إلى أجل غير بعيد شأن خلير . كان عامل الاندلس منقطعاً به في أقصى ثغور المسلمين ، بعيداً عن قلب الدولة ومادتها ، فكان لا بد له من عصبية تؤيده في ولايته ، وتحتفظ له بها ، ولا تكون هذه العصبية مخلصة ثابتة ، الا اذا كانت منه ، وكانت منها في عصبية واحدة . ففزع كل والي من ولاة هذا العهد إلى عصبية القبيسي إلى المضريّة ، واليهاني إلى اليمنيّة . والعصبية تقتضي الرجل أن ينصر أخيه ظالماً ومتّالوماً ، فخرج الوالي عن أن يكون حاكماً عاماً ، وأصبح

من سنة الى سنة مدة ولايته

— عبد الله الأشجمي ١١٣ ١١٣ شهران

عبد الرحمن بن عبد الله الفاتحى ١١٤ سنة و تعاشر شهر « من قبل هميد الله ابن المجاپ صاحب افريقيه »

عبد الملك بن قطن للفهري ١١٤ ١١٦ سنتان « من قبل عبيد الله بن الحجاج  
صاحب افريقيا »

عقبة بن الحجاج السلوى ١٢١ ١٢٦ خمس سنين « من قبل عبدالله بن الحجاج  
صاحب اذريقية »

**«من قبل نفسه ناشرًا»** بِلَحْ بْنُ بَهْرٍ ١٢٤ ١٢٤ جَدُّ لَكْلَكَ بْنِ هَعْنَ الْفَهْرِيِّ ١٢٦

ابو الحطام حسام بن ضرار السكري ١٢٩ سفوان بن سلامة ابن مسعود وان صاحب افريقية « من قبل حنظلة اربعين سنين وتسعة اشهر »

١٤٩ عبد الرحمن بن سلمة « من قبل عبد الرحمن بن جبّاب صاحب افريقية »

**يوسف بن عبد الرحمن الهمري** **«من قبل أهله»**

الذي جاهد مظفراً حق بلغ سكى المسلمين في أيامه أربونة ، وسار رباطهم على نهر ردونة . والمهيم بن عبيد الكلابي عزا مقوشة فافتتحها . والسع بن مالك الخولاني نمض بالفتح إلى جنوب فرنسا . وعنبسة بن سحيم مات — وقيل قتل — وهو على حصار تولونة « تولوز » . وعبد الرحمن بن عبد الله الفافق فتح قرقشونة ، ونيم ، وغيرهما من جنوب فرنسا ، واستولى على أرل ، وليون ، وزانسون وانتهى إلى تور . وعبد الملك بن قطان الفهري غزا البشتكش « البسكة » . وأكثر هؤلاء كان جهاده في العدو أقرب بنتيجه إلى الغزو منه إلى الفتح . ومن يقى من هؤلاء الولاة لم يذكر لهم عزو ولا فتح بل انشغلوا في أنفسهم ، وفي عصباتهم ، وفي المباحثة عن كراساتهم أو صحوتهم عن لمة السياسة اليوم — عن المفي فيما كانت يربده موسى بن نصير أو في بعضه .

ونحن وإن لم نكن من يستهينا بيسط ذلك الفتح إلى أبعد مما وصل إليه ، بعد أن خاع الفتح كله ثمرته ونواته .  
كان لم يكن بين الحججون إلى الصفا أليس ولم يسمى بـ **بـ** سامر وبعد أن انتهت تلك الأقطار التي كانت تهدى تلك الجزيرة إلى ما انتهت إليه . غير أنا نود لو هذبت حواشي ذلك الفتح بتطهير مخارقه ومفازعه ، فلعل ذلك كان يكون أحفظ الملوك ، وأبقى عليه ، وهو ما نشير في موضعه إليه .

**موقف أرسطيان :**  
وينماهيل الإنسان بعد أن صورنا له هذا العهد ، عما كان من أمر الاندلس أصحاب البلاد الأصلين ، وقد رأوا هؤلاء الذين سلبوهم ملكهم منتفقة كلهم ، مت分成ين أحزاباً يقاتل بعضهم ببعض .

لقد كان فتح الاندلس أمراً خطيراً كان له دوي كبير ، فاصبح اسم العرب ملء الانسحاء والابصار ، فانصدعت من جراء ذلك قلوب الاسبان ، وصغرت نفوسهم عن مقاومة العرب أول الأمر ، فلم يشجعهم هذا الخلاف الذي نجم بين العرب عن منازلهم وعدهم بالفتح وبأس العرب قريب . وأخرى هي أن العرب كانوا في حكمهم أعدل من الاسبان ، فلم يكن يبال الاسبان الذين تفأوا ظل الحكم الاسلامي وبقوا على تصرائتهم ، شيء من الظلم الذي كان ينالهم أيام حكم امرائهم المسيحيين ، ولاعدل روعة في النفوس وجلال ، حملوا إثبات الاسبان الجليلين الذين انتصروا بذلك الولايات الجليلة أن يتربصوا إلى حين .

فاما أكثر بين العرب الخلاف واستحكم أمره ، وكان قد مضى على الفتح ربع من الزمن ، أخذ الاسبان يتحيفون أطراف الملك العربي فنغلبوا على جزء من بلاد برشلونة ثم على برشلونة . وهذا الذي استخلصوه من العرب ان لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الجزيرة ، فهو شيء كبير بنفسه . وأخرى أنه فتح على العرب بباباً من مطامع الاسبان يدخلون منه إلى سائر أنحاء الجزيرة ، فيعيذونها إلى حيازتهم وهو ما قد كان .

### الحضارة وال عمران :

شجع عبد المنذر بن موسى الهجرة إلى الاندلس ، فوفد عليه الناس من الشام والعراق ومصر وغيرها ، فأقطع كل قبيلة ناحية ، وازدحمت الاندلس بالعرب ، وكثير أهل الشام في قرطبة عند أبي الخطار حمام ابن ضرار الكلبي الوالي اليمني ، حتى لم تتحملهم دار الولاية ففرقوهم في البلاد . أنزل أهل دمشق البيره لشبعها بها وسماها بمنشق ، وأنزل أهل حمص الشبلية وسماها حمص ، وأهل قيشرين وأهل الأردن رية وملقا

وسمها الأردن ، وأهل فلسطين شدونة وهي شريش وسمها فلسطين ، وأزل أهل مصر تدمير وسمها مصر .

وانتشرت اللغة العربية في الجزيرة بانتشار العرب أنفسهم فيها أولًا ، وتغلبها على لغة البلاد بقوه الفتح ثانياً ، وأنشا عبد العزيز بن موسى ديواناً للتوفيق بين الشريعة الإسلامية السمححة ، وقوانين أهل البلاد المفتوحة وعاداتهم ، رعاية للصالح . ووضع السمع بن مالك التولاني بأمر عمر ابن عبد العزيز نظاماً للأرض ، وبني قنطرة قرطبة الشهيرة .

#### الإمارة الاموية :

مدتها مئة وسبعين سنة ، بدأت في العاشر من ذي الحجة من سنة ثمانين بعد الميلاد ٧٥٦ « بصغر قريش - عبد الرحمن الملقب بالداخل . وانتهت سنة حس عشرة وثمانين ، في عهد عبد الرحمن الناصر . فتعاقب على هذه الإمارة بعد عبد الرحمن الداخل ، ابنه هشام الرضي - فانه الحكم بن هشام - فابنه عبد الأوسط بن الحكم - فابنه محمد بن عبد الرحمن - فابنه المقتصد بن محمد - فأخوه عبد الله بن محمد - ثم حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله وهو ثامن الامراء الامويين وبه ختمت الإمارة . فهو لما بلغه أن يؤتى بالخادم قتل المقتصد بالله العباسي بالشرق ، أعلن خلافته وتسمى بأمير المؤمنين وضربت السكة باسمه .

#### عمر الإمارة :

هذا العهد هو خير العهود التي عرفتها الاندلس العربية فقد كان فاتحة عبد الرحمن الداخل ، وواسطته عبد الرحمن الأوسط ، وخاتمه عبد الرحمن الناصر : ثلاثة لا تدرى أيم أفضل من صاحبيه ، فكانوا رجال أمية بالغرب غير منازعين ولا مدافعين ، بل كانوا عرائين أمية عامة في الشرق والمغرب ، ومن رجالات الدهاء والجزم والسياسة في العرب .

#### عبد الرحمن الداخل

لما انقرضت الدولة الاموية بالشام ، وصار الامر إلى بي العباس ، تتبعوا بقابياً بي أمية ، ووضعوا فيه السيف ، وفر من نجا منهم واستخف . وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إذ ذاك ذات الزيتون<sup>(١)</sup> ففر منها إلى فلسطين ، وأقام هو ومولاه بدر يتجسس على الأخبار ، ويتنقل من موضع إلى موضع ، إلى أن دخل بلاد الاندلس . وإليكم حدث خروجه من الشام يقصه نفسه على مثال المذكرات السياسية اليوم . قال :

« لما أعطينا الأمان ثم نكسنا بنهر أبي قطروس ، وأتيحت لنا دعاؤنا ، أنا الخبر ، وكنت منتبذاً من الناس فرجعت إلى منزل آيساً ، ونظرت فيها يصلحي وأهلي ، وخرجت خائفاً حتى صرت إلى قرية على الفرات ذات شجر وغياض » فيينا أنا ذات يوم وولدي سليمان يلعب بين يدي وهو يومئذ ابن أربع سنوات ، خرج بي ثم دخل إلى باب البيت فرضاً باكيًا فتعلق بي ، فجعلت أدفعه وهو يتعلق بي ، خرجت لأنظر ، وإذا بالخوف قد نزل بالقرية ، وإذا رايات السود منحوطة عليها ، وأخ لي حدث السن يقول : النجاة بهذه رايات السودة . فأخذت دنابير معي ، ونجوت بنفسي وأخي ، وأعلمت أخواتي بعنواني بعتوبي فأمرتهن أن يلحقني مولاي بدرأ .

(١) لم أجده فيما عندي من الكتب ما يعرف منه موضع ذات الزيتون . وفي معجم البلدان الزيتونة موضع كان ينزله هشام بن عبد الله في بداية الشام فلما عمر الرصافة انتقل إليها فسكنات منزله إلى أن مات ، فهل الزيونة هي ذات الزيتون ؟ إن عبد الرحمن مات أبوه وهو سغير فسكنه جده هشام صاحب الزيونة ، فلملل للوضعين واحد ، فيكون عبد الرحمن قد جا إلى موضع له سابق عهد فيه والله أعلم . أو أن ذات الزيتون في جبل حوران المعروف اليوم بجبل الدروز .

وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لي أرضاً ، فأتتت رجلاً من معارف ، وأمرته فاشترى لي دواب وما يصلحي ، فدلّ على عبد له العامل فأقبل في خيله يطليني ، خرجنا على أرجلنا هرابةً والخيل تبصرنا ، فدخلنا في بساتين على الفرات فسبقنا الخيل إلى الفرات فسبحنا ، فاما أنا فنجوت والخيل ينادونا بالامان ولا أرجع ، وما اخي فانه عجز عن السباحة في نصف الفرات فرجم اليهم بالامان واخذوه فقتلوه ، وانا انظر اليه وهو ابن هـاث عشرة سنة . فاحتفلت فيه ثكلاً ومضيت لوجهي فنواريت في غيبة أشبة ، حتى انقطع الطلب عني وخرجت فقصدت المغرب فبلغت افريقية ، ثم ان اخته ام الصبع الحقة بدرأ مولاه ومعه نفقة له وجهر ، فلما علم به عامل افريقية وهو يومئذ عبد الرحمن بن حبيب بن ابي عبيدة الفهري ، لج في طلبه ، واشتد عليه ، فهرب منه فانى مكناسة — وهم قبيل من البربر — فلقي عندهم شدة يطول ذكرها ، ثم هرب من عندهم فانى نفزاوة — وهم اخواله — وبدر معه . قيل وخلص عبد الرحمن الى المغرب يحاول فيه ملكاً فلما أعياه الامر ورأى شدة عامله عبد الرحمن بن حبيب ، وما كان من فتكه بال العاص وعبد المؤمن ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، رأى الاندلس أوسع اعمله ميداناً ، وأضمن مثلاً بعد الشقة ما بينها وبين بغداد : دار الخلافة العباسية ، وما بين اهلها من تافس وشقاق . فرمى بهمته اليها .

وجه عبد الرحمن مولاه بدرأ الى من في الاندلس من موالي المروانيين وأتباعهم يدعوهم الى نفسه ، فاجتمع بهم ، وبثوا له في الاندلس دعوة ، ونشروا له ذكرأ ، ووجهوا اليه مركباً مع وفد منهم وأبلغوه طاعتهم له ، ورجعوا به الى الاندلس .

جاز سفر قريش — وهو اللقب الذي أطلقه عليه عدوه وابن عميه المنصور العباسي — البحر الى الاندلس . وما لبث ان سار الى قرطبة فانفذها له عاصمة ، وجعل يقاتل من نازعه ، ويقضى على من خالفه ،

وبعد قتال شديد ، وفنن متعاظلة ، تمت له الغلبة على جميع من ناوأه : من عرب وإسبان ، وظهر على جيشي المغرب والفرنجية الذين فاتحه نصرة للعباسيين ، او بمحجة النصرة لهم .

وواجهته نفسه حيناً من الزمن بالزحف على بغداد ، وارتفاع الخلافة من العباسيين ، كما انتزعوها من قومه ، وهو بذلك لو لا ان شفنه الاسبان والفرنجية ، والخارجون عليه ، يعدم العباسيون بالمال والرجال . والذي ساعد عبد الرحمن على أمره ، وأعانته على ما كان فيه من خلق الرئاسة الموروثة ، وأسبابها المكتسبة عوامل اربعة :

الاول : ما أنفقته اليه احنته من المال .

الثاني : أتباع الامويين ومواليهم ، الذين كان يؤثثهم ان يذهب الملك من أصحابهم بني أمية ، لهوى لهم معهم ، او لعصبية كانت لهم فيهم . الثالث : اليانية المعاذبة التي تغلبت عليها القيسية فسلبتها حقها من الولاية ووترتها وترأ مضاضاً .

الرابع : استعانته بموالي والبربر النافقين لاستثار العرب دونهم بالحكم والرئاسة .

جمع عبد الرحمن هذه القوى اليه ، بدهائه و مضاء عزمه ، حتى تم امره ، وانقادت اليه الاندلس قاصيها ودانيرها ، على شرتها وعراها . وليس من شيء يدلاك على انانة الرجل وسعة حيلته ، وصبره على ما يكره ، مثل ان يدعو للعباسيين على منابر بلاد غالب ولائهم عليها ، بعد حروب حسي وطيسها ، وبعد ان كان من أفاعيل العباسيين بقومه ما يضيق عليه حلم الحليم . لم يقطع لبني العباس خطبة الا بعد ان تم له الاستقلال . ولبي عبد الرحمن الحكم ٣٢ سنة وكان فصيحاً لسنّا ، غالباً شاعراً ، حليماً حازماً ، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، لا يخلد الى راحة ، ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الامور الى غيره . شجاعاً مقداماً ، بيد الغور ، شديد الحذر ، سخياً جواداً .

ومن شعره وقد نظر إلى تحفة منفردة بالرصفة وقيل انه هو زارعها فقال :  
تبعد لنا وسط الرصافة تحفة تبادت بارض الغرب عن بلاد التخل  
فقلت "شبيهي في التغرب والنوى وطول الثنائي عن بيتي" وعن أهلي  
نشأت بارض انت فيها غريبة فذلك في الاقصاء والمتباين مثلني  
سقاك غوادي المازن من صورها الذي يسمى ويستمرى السماكين بالوبل  
ومن قوله يتلوك الى معاشه بالشام :

إها راكب الميم أرضي أقر من بعض السلام ببعضي  
ان جمي كعلم بارض وفؤادي ومالكيه بارض  
قدر البين بيننا فاوترتنا وطوى البين عن جفوني غمحي  
قد قضى الله بالفارق علينا فعن باجتمعنا سوف يقضي

وخلف عبد الرحمن ابنه هشام بمهد منه اليه ، وكان هشام ذا رأي  
وشجاعة عادلاً مدوحاً يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز - وبيت  
عيونه ينسقطون له شكاوى الناس ومظالمهم فيشكيمهم ، غير ان اخوه  
سلمان وبعد الله شاقاه وخرج عليه فقاتلها حتى تغلب عليها .

وشق عليه عصا الطاعة غيرها ، منهم سعيد بن حسين الانصاري بطرطوشة ،  
ومطروح بن سلمان بن قيظان بيرشلونة ، وغيرهما في غيرها ، فقتلهم كلهم . وجاء  
بعد هشام ابنه الحكم سنة ١٨٠ فكانت مدة ولايته ستة وعشرين سنة تعاظمت  
فيه الفتن وقام عليه ايضاً عمراه ، سلمان وعبد الله ، صاحبا الفتنة أيام ابنه ، واستنصر  
عبد الله شارمان ملك الفرنجة فكان اليه سريعاً . وهو الذي كان لا يبني  
يعمل على إبقاء النار في بلاد المسلمين . وانتهى الامر بان تغلب الحكم على  
معظم المعاوب التي واجهته ، أوقع بأهل قرطبة ، وبأهل طليطلة ، وبأهل  
ماردة ، ورد غارات الفرنجة عن بلاده ، واعتدى عليهم بأشد مما اعتدوا  
عليه ، وفتك بهم فتك عزيز مقتدر . فعاد الامن الى نصابه .

وأحاديثه بالفتوك وسفك الدماء طوبية مستفيضة . وما يدل على تجدده  
وبطشه ، انه لما كثرت عليه الفتن الداخلية ، واشتغل بعصيان اهل ماردة  
طبع الفرج في ثبور المسلمين فقصدوها بالغارة والقتل والنهب والسي .  
فأناه الخبر بشدة وطأتهم . وقيل ان العباس الشاعر كان قد مر بوادي  
الحجارة فسمع امرأة تقول : وا غوتاه بك يا حكم ! لقد أهملتنا على كاب  
المدو علينا ، فأينا وأيتها . فسألها عن شأنها فقالت : كنت مقبلة من  
البادية في رفقة ، خرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت . فنظم العباس  
قصيدة يعرض فيها بذلك وأنشدها الحكم وأخبره بأمر المرأة . فهز  
الجيوش وخرج غازياً ، وقصد الناحية التي أقبلت منها تلك الخيل ، واتى  
بالأسرى فذبحهم بمحضرة تلك المرأة وأهل بلدها . وقال العباس قل لها :  
هل أنتما الحكم ؟ فقالت اقْد شفني الصدور ، ونكى المدو ، وأنك  
الملاوف . فأغاثه الله ، واعز نصره . فارتاح لقولها وبدأ السرور في  
وجهه وأنشد :

ألم تر يا عباس اني آجتها على البعد أقناط الحبس المفitra  
فأدراكـت او طارـأـ او برـدـتـ عـلـةـ وـنـفـسـ مـكـرـوـ بـأـوـاغـنـيـتـ مـسـراـ  
وعـلـىـ الجـلـةـ فـقـدـ كـانـ عـدـ الحـكـمـ عـدـ ذـانـ مـتـصـلـةـ ، وـفـيـ اـيـامـ كـانـ  
وـقـعـةـ الـرـبـضـ فـنـسـبـ اـلـيـاـ ، وـوـقـةـ الـحـفـرـةـ ، وـكـانـ عـلـىـ صـرـامـتـهـ وـبـطـشـهـ  
مـسـتـهـرـاـ يـمـيلـ اـلـىـ الـلـهـ وـالـصـيـدـ ، وـيـؤـرـ بـجـالـسـ الـمـغـنـيـنـ وـالـشـمـرـاـ ، عـلـىـ  
بـجـالـسـ الـعـلـمـاءـ وـالـفـقـهـاءـ ، وـهـوـ اـوـلـ مـنـ اـسـتـكـثـرـ مـنـ الـمـالـيـكـ بـالـانـدـلـسـ وـأـنـظـرـ  
خـاصـةـ الـمـلـكـ وـأـسـرـفـ فـيـ تـأـيـدـ هـيـدـهـ . اـرـتـبـطـ الـخـيلـ عـلـىـ شـاطـيـءـ الـنـهـرـ قـبـلـ  
فـصـرـهـ ، أـلـفـ فـرـسـ ، وـبـلـغـتـ مـاـيـكـهـ خـمـسـةـ آـلـافـ ، وـكـانـ يـسـعـيـمـ الـخـرسـ  
أـمـصـرـهـ . وـتـشـبـهـ بـالـجـبـاـرـةـ ، وـكـانـ يـاـشـرـ الـأـمـرـ بـنـفـسـهـ ، فـأـنـكـرـ عـلـيـهـ  
أـعـجـمـتـهـ . وـتـشـبـهـ بـالـجـبـاـرـةـ ، وـكـانـ يـاـشـرـ الـأـمـرـ بـنـفـسـهـ ، فـأـنـكـرـ عـلـيـهـ  
أـلـقـاءـ اـسـتـهـارـهـ وـاـهـاجـوـ الـعـامـةـ عـلـيـهـ ، فـشـدـدـ هـوـ عـلـيـهـ وـمـنـعـهـ اـنـ يـدـاخـلـهـ  
عـلـيـهـ ، وـفـتـكـ بـهـمـ فـتـكـ عـزـيزـ مـقـتـدرـ . فـعـادـ الـامـنـ اـلـىـ نـصـابـهـ .

الحضارة والعمارة:

لم يصرف عبد الرحمن ما عاناه من الفتن والمحروب ، وتأسيس الملك ،  
عن اعمال الحضارة وال عمران . فلقد أنشأ المدارس ، ودور الكتب ،  
شجّنها بالمؤلفات النفيسة . وبنى الحدائق الغناء ، منها الرصافة أشبهها بجده  
هشام الذي بني الرصافة بالشام . وبنى مسجد قرطبة الاعظم « وكان  
بعدها للفيرقوط ملكه المسيحيون واحد المسلمين نصفه . ولا شرع  
عبد الرحمن في بنائه ابتع النصف الآخر » (١) فما جله الموت عن إقامته .  
وأطلق الحرية للنصارى بدينهم ، وكتب لهم عهداً بذلك ..  
وأما هشام بن عبد الرحمن فقد أتم مسجد قرطبة الذي شرع فيه  
ابوه ، وبنى عدة مساجد غيره ، وجدد قنطرة قرطبة التي كان عقدها  
السمح الخولاني .

السعِ حُمَّادٌ  
وَجَنْدُ الْحَكْمِ الْأَجْنَادُ، وَجَمِيعُ الْأَسْلَحَةِ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الْخَمْ وَالْخَوَانِيِّ.  
وَامَّا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ فَقَدْ كَانَ عَصْرَهُ عَصْرًا زَاهِيًّا زَاهِيًّا  
بِالْخَضَارَةِ وَالْعِلْمِ، وَبِكُلِّ فَنٍ مِّنْ فَنَّوْنَ الْأَدْبِرِ، وَأَحَدَثَ أَشْيَاوْنَ مِمْ بِكْنَ  
بِالْبَلَادِ سَابِقٌ عَهْدَهُ بِهَا . شَادَ الْفَصُورَ الْفَخْمَةَ وَالْمَنْزَهَاتِ، وَجَاءَ إِلَيْهَا بِالْمَاءِ  
الْعَذْبِ مِنَ الْجَبَالِ، وَبَنَى الْمَدَارِسَ وَالْجَوَامِعَ الْكَثِيرَةَ، وَمَهَدَ الْعَرْقَ،  
وَنَظَمَ الشَّوَارِعَ، وَأَقَامَ بِهَا الْجِسْوَرَ، وَجَمِيعُ الْيَهُ ذُوِيِّ الشَّهْرَةِ مِنْ شُعَرَاءِ  
الْعَرَبِ وَذُوِيِّ الْفَضْلِ مِنْهُمْ .  
وَإِلَيْهِ وَفَدَ زَرَّابُ الْمَقْتَى مُعَلِّمُ ابْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ فَأَوْرَثَ صَنَاعَةَ الْفَنَاءِ بِالْأَنْدَلُسِ .  
وَيَعْتَرِفُ الْأُورْبِيُّونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهِ دَارَ مَلْكٌ كَدَارِ مَلْكِهِ  
أَبْهَةً وَمَجْدًا (٢) .

١٩٢٩ : دمشق

"શ્રીમતી માય

(١) غرائب الْأَنْوَارِ الْأَسْنَادُ حَمْرَدَ كَرْدَ عَلَيْهِ .

٢) دائرة المعارف العربية للإسكندراني

الفضل ، وبؤاسي اهل الحاجات ، وإيشتهي بأبي منصور في شدة الملك ،  
وتوطيد الدولة وفع الاعداء .

ثم ولي الامر عبد الرحمن الاوسط سنة ٣٠٦ فكانت مدة ثلاثة عازفين  
سنة . ولم تكن ولايته اقل اضطراباً وفتنا من ولاية ابيه الحكم . وكان  
هو لا يقل عنه يأساً وسطوة . صرف عمره لاخحاد الفتن داخل بلاده ، ورد  
عزووات الافرنج ، فكان منصوراً في أكثر الحروب التي كانت بينه وبين  
العرب ، وعماليه ، والاسبان ، والافرنسيس ، والترمذيين المعروفة غزواتهم  
عند العرب بعزووات الجوس . فنقلب على اعدائه كافة بعد جهد جاهد

وكان عبد الرحمن أديباً شاعراً عالماً بالشريعة، وغيرها من علوم الفلسفه، وكثرت عنده الاموال فصرفها في المearة.

واخذت الامور بعد عبد الرحمن بالضعف ، فاضطرب الأمن ، ونجمت قرون الفتن في ثغور الاندلس ، واشتعلت الثورات في جوانبها ، حتى كادت تعمها فتلتها بحملتها ، لو لا ان قبض الله لهذه الجزيرة عبد الرحمن الناصر ، ففجأ عين التوراة ، ونظم عقد الدولة ، وأعاد الجزيرة سيرتها الأولى ، أيام جديه : وسميت عبد الرحمن الأوسط ، وعبد الرحمن الداخل .

موقف ایروان

قوت هذه الفتن من عزائم الاسبان ، وزاد في الامر نصرة الافريقي لهم ، واستنصر بعض الامراء بهم ، فكثر اعتداوهم على الاندلس العربية وعملوا على التدخل في سياستها الداخلية ، ينصرون الامير الاموي على أخيه الاموي ، والمعامل على أميره . وعلى الجملة فقد كانت نصرتهم للثورة على السلم ، وللفرضي على النظام .

مسنونوا من جراء ذلك فسماً كبيراً من ولاية قطاع الونية.

مِنْقَدُوهُ وَعَابِرُوهُ مِنْ حَسَادَهُ وَمِنْ تَرْفَعٍ عَنْ مَدْحُومٍ وَمِنْ أَشْيَاعِهِ ، وَفِي  
مِقْدَمَةِ هُولَاءِ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَادٍ فِي فَارِسٍ وَالوزِيرُ الْمَلِيُّ فِي بَغْدَادٍ  
وَأَبُو الْفَضْلِ بْنُ حَنْزَابَةَ فِي مِصْرٍ ، فَإِنْ هُولَاءِ لَمْ يَدْخُرُوا وَسِعًا فِي الْكِيدِ  
لَهُ ، وَإِنَّارَةُ الشُّعْرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمَلُوكِ عَلَيْهِ ، رَدِّ الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ عَنْ مَسَاوِيهِ  
هُمْ وَأَشْيَاعُهُمْ .

وَتَوَفَّى العَلَمَاءُ وَالْأَدْبَارُ عَلَى دراسَةِ شِعْرِهِ ، وَرَأَى فَرِيقٌ مِنْهُمُ الْحَقَّ فِي  
جَانِبِهِ فَتَوَلَّ الاتِّصَارَ لَهُ وَالرَّدَّ عَلَى خُصُومِهِ الَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَطْعَمُوا  
نَجْوَمَ السَّمَاءِ بِأَكْفَاهُمْ وَيُطْفَئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، فَظَاهَرَ مِنْ هَذَا وَذَاكَ  
مَا كَانَ فِي كَلَامِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْمَعْجَزَةِ وَالرَّوَانِيَّةِ الْبَاهِرَةِ ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهَا مِنْ  
قَصْرِ فَهْمِهِ عَنْ إِدْرَاكِهِ ، فَازْدَادُوا إِعْجَابَهُ بِأَدْبِهِ وَحْسَدًا لِفَضْلِهِ وَتَنْقِيَّاً  
عَنْ مَسَاوِيهِ وَمَثَابِهِ ، وَازْدَادَ الْآخَرُونَ إِظْهَارًا لِحَاسِنَهُ وَمَنَاقِهِ .  
وَقَلَّا وَجَدَ الْبَاحِثُ نَاحِيَّةً مِنْ نَوَاحِي هَذَا الشَّاعِرِ الْفَذِّ ، إِلَّا وَقَدْ  
قَتَلَهَا الْعُلَمَاءُ بِحَيْثُ أَوْشَبَوْهَا تَعْجِيزًا وَتَحْقِيقًا ، مَا خَلَّ مِنْ قَافَهُ وَمَصَادِرِهِ فَلَمْ  
يَحْظُهَا مِنْ ذَلِكَ قَلِيلٍ مِنْذَ الْمُتَقْدِمِينَ وَأَقْلَى مِنْ الْقَلِيلِ عَنْدَ الْمُتَأْخِرِينَ ،  
لَا يَنْقَعُ غَلَةٌ وَلَا يَشْفِي عَلَةٌ ، وَهُوَ عَلَى قَلْتَهِ مَحْفُوفٌ مِنَ الْفَمْوَضِ وَالشَّكْوَكِ  
بِمَحْجُوبٍ مُصْمَتَةٍ لَا تَنْفَذُ مِنْهَا أَشْعَةُ الْبَحْثِ ، مُحَاطٌ بِمَوَاجِزِ مِنَ التَّنَاقِشِ  
فِي الْأَقْوَالِ وَالْتَّنَاضِرِ فِي الْآرَاءِ الَّتِي قَتَلَهَا الْمُتَأْخِرُ عَنِ الْمُتَقْدِمِ وَطَبَعَ فِيهَا  
الْآخِرُ عَلَىِ غَرَارِ الْأَوَّلِ مِنْ غَيْرِ تَعْجِيزٍ وَلَا تَدْرِي ، فَكَانَتِ الْحَقِيقَةُ فِيهَا  
أَخْفَى مِنِ السَّهْيِ وَأَغْمَضَ مِنِ السَّرِّ فِي الصَّمْبَرِ .

### مِفَافُ الْمُنْبَتِي

مِبْدُوهُهَا ، مِنْتَهَاها ، مَكَانٌ كُلُّ مِنْهَا

(١) لقد تصدى كثيرون من العلماء والأدباء لذكر النبي وأطلوا القول في  
تبنيه ومدحه بجودة شعره، وانتشاره واطلاعه على غير العربية وما شاكل ذلك

## شَفَاقُ الْمُتَبَّتِي وَمَصَادِرُهَا<sup>١١١</sup>

لِدُسَارِ مُحَمَّدِ سَلِيمِ الْجَنْدِي

فِي فَاتِحَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ لِلْهِجَرَةِ وَلَدَ أَبُو الطَّلِيبِ أَحْمَدَ بْنَ الْحَسِينِ الْمُتَبَّتِي  
فِي الْكُوفَةِ وَفِيهَا نَسَأَ وَرَعْرَعَ وَشَبَ ، وَفِيهَا تَلَمَ وَتَنْقَفَ ، وَفِيهَا ابْنَجَسَتْ  
فَرِيحَتَهُ بِالشِّعْرِ ، خَوْدَهُ وَأَحْكَمَهُ ، وَفِيهَا بَلَغَ دَرْجَةَ الشُّعْرَاءِ الْمَفْلِقِينَ .

نَمَ شَاءَ الْقَدْرَ أَنْ تَبْنُوَ بَهُ وَأَنْ يَجْتَوْهَا ، فَأَجْمَعَ أَمْرُهُ عَلَى مَفَارِقَتِهِ  
وَضَمَّ جَرَامِيزَ إِلَيْهِ ، نَمَ سَارَ مِنْهَا إِلَى بَلَادِ الشَّامِ ، فَوُضِعَ فِيهَا عَصِيَّ "الْحَاضِرِ"  
الْمُتَخَمِّ ، وَفِيهَا غَزَرَ أَدْبِهِ وَحَصَفَ عَقْلَهُ ، وَظَهَرَتْ مَقْلَدَاتُ شِعْرِهِ ، فَسُطِعَ  
نَجْمُهُ ، وَذَاعَ سَبِّهُ ، حَتَّى مَلَأَ الدُّنْيَا وَشَغَلَ النَّاسَ .

وَقَدْ رَزَقَ أَبُو الطَّلِيبِ السَّعَادَةَ النَّاَمَةَ فِي شِعْرِهِ ، وَكَتَبَ لَهُ مِنَ الرَّوَاجِ  
فِي آهَاءِ الْمَلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْوَزَرَاءِ وَأَعْيَانِ الْأُمَّةِ وَرِجَالَاتِ الْعِلْمِ وَالْأَدْبِرِ  
مَا لَمْ يَكْتُبْ لِغَيْرِهِ ، وَنَالَ شِعْرُهُ مِنْ سَرْعَةِ الشِّيُوعِ وَالْاِنْتَشَارِ فِي الْقَاسِيَّةِ  
وَالْدَّائِنَيَّةِ مَا لَمْ يَنْلِهِ شَعْرُ آخَرٍ ، حَتَّى سَارَتْ بِهِ الرَّكَبَاتُ ، وَأَنْسَتْ بِهِ  
الشَّارِ ، وَعَمِرَتْ مُجَالِسُ الْعِلْمِ وَالْأَدْبِرِ .

وَطَمَعَ كَثِيرٌ مِنَ الطَّالِمِينَ فِي الشَّهْرَةِ الطَّالِمِينَ إِلَى الْخَلُودِ أَنْ يَخْلُدَ  
ذَكْرُهُ فِي شِعْرِ الْخَالِدِ ، وَاسْتَدْعَوْهُ إِلَى قَصْوَرِهِمْ وَمَقَارِ عَظِيمَتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ ،  
وَيَذْلِلُوهُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ أَمْوَالًا عَظِيمَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ وَعَدَهُ أَنْ يَشَاطِرَهُ مَالَهُ  
وَيَغْزِرَهُ بِالْمَبَاتِ وَالْأَعْطِيلَاتِ ، فَلَبِسَ فَرِيقًا وَتَرَفَعَ عَنْ إِجَاهَةِ آخَرِينَ .

وَحَسَدَهُ النَّاسُ عَلَى فَضْلِهِ وَأَدْبِهِ وَنَقِيسُوا عَلَى مَدْحُوِيَّهِ مَدْحَهُ وَكَثُرَ

(١) ألقبَتْ فِي مِهْرَاجَنَ لِلنَّبِيِّ الَّذِي أَفَامَهُ الْجَمِيعُ الْمُدْرِيُّ الْمُرْبِيُّ فِي تَمُوزِ سَنَةِ ١٩٣٦ .

ولكن منهم من أعرض عن التصدى لثقافته ، ومنهم من أوجز فيها إيجازاً مخلاً .

ومن ذكره من هؤلاء ابن الاتباري في نزهة الاباء في طبقات الادباء ، والبدري في الصبح المني ، والاصفهاني في إيضاح المشكل ، والتمالى في يتيمة الدهر في نحو تسعين صفحة ، وابن تغري بردي في النجوم الراهرة ، وابن المداد في شذرات الذهب ، وابن خلkan في وقيات الاعياد ، والمهانى في معاهد التنصيص ، وابن نباتة في سرح العيون ، والبغدادي في خزانة الادب ، وأبو الفداء وابن الوردي في تاریخیها ، وابن حجر في اسان المiran ، والخطيب في تاريخ بغداد ، والعکبری في شرح دیوانه ، والواحدی كذلك .

وابس في كلام هؤلاء الاعلام ما ينير السبيل للباحث عن ثقافة المتنى إلا ويفض يسر على ضوهه الفضيل في هذا الجبل القائم ، وإن كان الجم بين ما فيه من التناقض أشقر من عقد شعيرة على الاجذم ، وأصعب من الجم بين الماء والنار .

ويُعْكِنُ أَن يلْخُصَ كلام هؤلاء القوم وَمَنْ احْتَذَى عَلَى مَثَلَّهُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، بَأْنَ فَرِيقًا مِنْهُمْ زَعَمَ أَنَّ أَبا الطَّيْبِ وَلَدَ فِي الْكُوفَةِ وَفِيهَا تَرَعَّرَ ، وَأَخْتَلَ إِلَى كِتَابِ فِيهِ أَوْلَادُ أَشْرَافِ الْكُوفَةِ ، فَتَعْلَمُ دُرُوسَ الْعَرَبِيَّةِ لِغَةً وَشِعْرًا وَإِعْرَابًا ، وَخَرَجَ إِلَى الْبَادِيَّةِ ، فَصَحَّبَ الْأَعْرَابَ ، وَعَادَ بَعْدَ سَنِينَ بِدُوَيْأَ قَحَّا ، وَنَظَرَ فِي أَيَّامِ النَّاسِ ، وَأَكْثَرَ مَلَازِمَ الْوَرَاقِينِ ، فَكَانَ عَلَيْهِ مِنْ دَفَارِهِ ، وَقَالَ الشِّعْرَ سَيِّدًا ، وَوَقَعَ فِي صَغْرِهِ إِلَى رَجُلٍ بِالْكُوفَةِ مِنَ الْمُنْقَلَفَةِ يَكْنِي أَبا الْفَضْلِ قَبُوْسَهُ وَأَنْشَأَهُ كَائِنَ ضَلَّ .

وزعم فريق آخر أنه ، وإن كان كوفي المولد ، شامي المنشأ سافر به أبوه إلى بلاد الشام وهو صبي ، فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى برهما ، ويسمه إلى المكاتب ، ويردد في القبائل ،

ويشتغل فيها في فنون الادب حتى مهر فيها وتفلح من علم اللغة ؛ وأنه تخرج بها ومنها خرج نادرة الفلاك .

ومنهم من جمع بين الامرین : تعلمه بالکوفة وتعلم بالشام .

وفي هذه الاقوال على تبانيها شيء من الحقيقة ، ولكنها منتشرة في تصاغيف الكلمات انتشار ذرات الذهب في معدنه بين التراب والصخر ، لا يتسنى أن يصاغ منها شيء من الحلي ، حتى ينخلوا المعدين ، ثم يحصلوا وينقبها ، ثم يؤلف بينها ، ثم يصهرها ، ثم يفرغها بعد ذلك في الفالب الذي يريد .

وهذا ما نريد معالجته في هذه الكلمة الموجزة في الوقت الموجز .

قد رأينا هؤلاء العلماء اتفقت كلتهم على أنه ولد في الكوفة واختلفت

في المكان الذي نشأ فيه ، وليس في أقوالهم ما يكشف الفناء عن وجه الحقيقة الناصعة ، إذ لم يبين فيها ما درسه في الكتاب من اللغة والشعر وغيرها ، ولا ما هو سره به أبو الفضل العمال المعلم ، كما لم يبين من هم الاعراب الذين صحبتهم ، والوراقون الذين لازمهم ، والعلماء الذين لزمتهم في الكوفة أو في الشام ، ولا ما هو الذي أخذه عن كل

منهم ، ولا ما تعلمه في مكاتب الشام ، ولا ، ولا .

وكل ما ذكره مما أسلفنا ذكره وأمثاله مما ضربنا عنه الذكر صفحات كتاب بمحملة يقول مثلها المادح أو القادح يقتضي منها حاجة في نفسه ، ولكن الباحث الذي يتوكى البسط والإباهة والتفضيل لا يستطيع أن يتخذها أساساً يقيم عليها صرخة بحثه .

وقد يخيل إلى "أن أقرب شيء لسكن إليه النفس في هذا أن يقال :

إن المتنى درس في الكوفة اللغة ، وفيها نتفق وقال الشعر الجيد ، ولكن لم يشهر كثيراً ، ثم خرج إلى الشام سنة ٣٢١ ، وكان عمره إذ ذاك ثمانين عشرة سنة ، فاطلع على ثقافة أهلها ، واجتمع بطالقة من علمائهم

محمد سالم الجندي

۱۴۰

فكان كل سحابة وكفت بها  
ليس القباب على الركاب وإنما  
يت الذي خلق النوى جمل الحصى  
ويتخلص إلى المدح فيقول :  
لم يتركوا لي صاحبا إلا الآنسى  
وتعدر الاحرار صير ظهرها  
أنت الغريبة في زمان أهله  
ملك ذُّخت بعكانه أيامه  
وتخاله سلب الورى أحلامهم  
ويقول فيمن عصوا الامير :  
فتركتهم خلل البيت كأنما  
أحجار ناس فوق أرض من دم  
ورروا له شمراً كثيراً قاله في صباحه فيه من عيون الكلام وروائع  
الشعر ما يندر مثله في غير كلام الفحول .  
وهذا الشعر المذكور وأمثاله شعر حكم التأليف مصفول الدبياجة  
صحيح المعنى مشتمل على شيء من مصطلحات المعلوم كجمع الأضداد في  
مت Başba و المفم والجوف و الجوهـر و اللاـهـوتـيـةـ و العـيـانـ و اليـقـيـنـ و الـثـوـمـ و الـنـوـحـ،  
وعلى الاـشـارـةـ إـلـىـ رـجـلـ اـشـهـرـ فـيـ التـارـيـخـ بـحـبـهـ وـهـ عـرـوـةـ بـنـ حـزـامـ ،  
وـعـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الطـبـاقـ وـالـجـنـاسـ وـغـيـرـهـ مـنـ صـنـاعـةـ الـبـدـيـعـ كـلـمـوـيـ وـالـنـوـيـ  
وـالـغـرـمـ وـالـمـفـمـ وـالـنـقـمـ وـالـأـنـمـ وـنـوـحـهـ ، وـعـلـىـ ضـرـوبـ مـنـ الـجـازـ الـأـطـيـبـ  
وـالـتـشـيـهـ الرـائـعـ وـالـكـنـيـاتـ الـجـيـلـةـ وـمـاـ شـاكـلـ ذـلـكـ هـاـ لـاـ يـقـنـىـ لـشـاعـرـ أنـ  
يـأـتـيـ بـعـثـلـهـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ يـعـهـرـ فـيـ الشـعـرـ وـيـحـتـنـكـ .  
ولـئـنـ كـانـ فـيـاـ قـالـهـ المـتـنـيـ مـنـ الشـعـرـ بـعـدـ هـذـاـ مـاـ هـوـ أـجـودـ مـنـهـ وـأـعـلـىـ  
فـانـ كـلـ شـاعـرـ لـاـ يـكـونـ شـعـرـهـ فـيـ أـوـلـ عـهـدـهـ بـالـشـعـرـ أـعـلـىـ مـنـ شـعـرـهـ بـعـدـهـ  
أـنـ يـتـعـرـسـ بـهـ عـهـداـ طـوـيـلاـ وـلـاـ تـلـغـ بـاـكـورـةـ شـعـرـهـ فـيـ قـرـيـحةـ ثـيـابـهـ

وأدبائنا ، وتابع الدراسة ، فازدادت ثقافته وغزرت مادته واستحضر شعره  
وصحف عقله وشاع ذكره ونضج أدبه ..  
والدليل على هذا أمران ، الأول : أن المؤرخين رواوا له أبياتاً قالها  
في صباح في المكتب وهي :  
أقبل الهوى أسفًا يوم النوى بدني  
روح تردد في مثل انخلال إذا  
كفى بجمعي نحولاً أني رجلٌ  
ولولا مخاطبتي إياك لم ترنني  
ورروا له قصيدة مدح بها رجلاً يقال له أبو الفضل ، وقد أراد  
أن يستكشفه عن مذهبة ، ولا أعلم إن كان أبو الفضل هذا هو الذي  
دوّسه وأضلَّه أم غيره ، يقول فيها متغزاً :

يا أبا الملك المصفى جوهرا  
بور ظاهر فيك لاهوتية  
كبير العيان على حق إله  
يا من جلود يديه في أمواله  
وذكروا له قصيدة قالها في صباح حين اجتاز برأس عين سنة ٣٢١  
وذلك أن سيف الدولة أوقع يعمر وبن حابس من بني أسد وبني ضبة  
ورياح من عيم ، ثم دحه بها ولم ينshedه إياها ، فلما أقيمه دخلت في جملة  
المدح ، مطلعها :

عن الصبا ومرافع الآرام  
عن "تكلذت المعلوم على" في  
و فيها يقول متغزاً :

<sup>٣٩٧</sup> البدية وصحبته الأعراب وملازمته الوراقين ودفاتره وزرمه العلماء، وبما شاكل هذا من المصادر المبهجة الجبوة التي لم يبين ما تعلمها وما أخذها من كل منها .

ولكل قسم مصدر آخر معلوم تخته أنواع متعددة أو مصادر أخرى معروفة يتعين بها من الأقسام الأخرى وقد يشارك غيره في بعضها.

نماذج المعرفة :

من مصادرها كلام الشعراء الذين زعموا أنه أخذ معانبه منهم كاميри، الفيس والنابغة وزهير وغيرهم من سياني ذكرهم في ثقافته الأدبية . ومنها أنه وجد في أشعاره وأخباره ما يدل على تضليله باللغة وإطلاقه على أسرارها ودقائقها وغريزها اطلاقاً حمله على الإعجاب بنفسه والتمرد على بعض مذاهب النحاة ، واحتفاره مثل ابن خالوبه في مجلس سيف الدولة ، وأبي الفرج الأصفهاني وغيره من الأدباء والعلماء في مجلس الوزير الهلي ، وأبي علي الأ Amendi شيخ الجماعة في حضرة الوزير أبي الفضل بن خزاعة في مصر .

فما ورد في شعره قوله :  
إذا كان ما تنويه فهلاً مضارعاً  
مني قبل أن تلق عليه الجوازم

وقوله : **أَنْ يَتَبَرَّزَ فِي الْقُدُّوسِ** واستقرب الْأَقْصى فِيمَا لَهُ هَذَا

وَتَوْلَهُ : كَاثِرَاهُ سَدِّو اِبْنَا وَكَانَ يَسِيَّانُ حِرْفَهُ يَاءُمِي لَهُ

وقوله : تختلي إذا جئت باسته، أمها بين حولي بكل مكان منهم خلقٌ  
وَمَا رُوِيَ فِي أخْبَارِهِ : أَنَّ أَبَا عَلِيِ الْفَارَسِيَ قَالَ لِهِ يَوْمًا : كَمْ مِنْ  
الْجَمْعِ عَلَىِ فِعْلٍ ، فَقَالَ فِي الْحَالِ : حَجْلٌ وَظَرْبٌ .

ويمضي هذا في توضيح لنا أن قول الشعالي وابن خلكان ومن تبع خطأهما أنه قدم الثامن صباحاً وجال في أفظالها ودخل المكاتب وتخرج بها الح ..  
قول لا بؤيده الواقع ولا تقره الحقيقة .

الامر الثاني : ما رواه المؤرخون من أنه كان يصحب ديواني أبي عام والبحري حتى أنه لما قتل وجدا معه بخطه وعلى الحواشى علامات كل بيت أخذ منها وسلحه ، وأنه كان له دفاتر كان يصحبها حيثما رحل وكان كثير الإشراق عليها لاتهماه انتخابها وأحكامها قراءة وتصحيمها ، وأنها وجدت معه حين قتل . وهذا دليل صريح على أنه ما فارق الدراسة والمطالعة حتى فارق الحياة وكان فوق هذا يخالط جماعة من الشعراء والآباء والعلماء في بلاط سيف الدولة وغيره .

وهذا القدر كاف في الدلالة على أن المتنى ابتدأ تتفقه وقوله الشمر  
الجيد في الكوفة وأنم الامر في بلاد الشام ، ومنه يتبيّن لنا المكان  
الذي ابتدأت فيه تفاصي والمكان الذي تمت فيه .

نمایش نگاره و مصارف

ومن المفيد أن نقسم ثقافة المتنبي إلى أقسام تتميز كل واحدة منها من الآخر ببساطة ونفرتها من غيره وإن كان بعضها مشتركةً مع غيره في بعض الوجوه، ثم نبين مصدر كل منها بقدر ما سمحت لنا النصوص فهي تقسم إلى ثلاثة أقسام لغوية وأدبية وعلمية ولكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة مصدر مجهول ومصدر معلوم؛ أما المصدر المجهول فتشترك فيه الأقسام الثلاثة على السواء، وهذا المصدر لم يسعف البحث بمعرفته معرفة تكشف النقاب عن حقيقته، وذلك ما تقدم ذكره من مثل دخوله الكتاب في الكوفة والمسكاب في الشام «إذا صع ذلك» . وخروجه إلى

أو اسم جمع لها نوع من الطير وظبي جمع ظربان ، وهو دويبة شبه الكتاب أصم الأذين طربيل الخرطوم أسود السراة أبيض الظهر كثير الفسو منتن الراشحة ، قال أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث أيام على أن أجد لهذا الجمدين ثالثاً فلم أجده . وقال في المتنى : ما رأيت رجالاً مثله في معناه ،

وأن الحامي لما ناظر المتنى في بغداد ، سأله : ما الفرق بين القديس والقداس والقادس ، فقال له المتنى : أي شيء غرضك في هذه المذاكرة بل المازرة ، ثم قال له : القديس النطير ولذلك سمى القدس قدساً لاشتراكه على الذي يكون فيه الظهور وكل هذه الأحرف تؤول إليه ، فقال ما أحسبك أمعنت النظر في كتب اللغة وعلوم العرب ولو تقدم هناك مطالعة لها ما جمعت بين معاني هذه الكلمات مع تباينها لأن القدس حجر يلقى في البشر ليعلم غزارة ما فيه من قلته ، والقداس يشبه الجمان يعمل من الفضة ، والقادس السفينة .

وإذا فاملنا جواب المتنى على إيجازه وعلى أنه جواب على سؤال متعنت فوجي به . تبين لنا أنه جواب علم باللغة مطلع على أسرار وضعها واشتقاقها ، فإن علماء اللغة قالوا : القدس العطر والبيت المقدس لأنَّه يتظاهر فيه من الذنوب ، والتقدس العظير ، والقدس الظاهر ، وقدس لاث نظائر أنفسنا لك ، والأرض المقدسة المطردة ، وروح القدس روح العماره أي خلق من طهارة ، ولا قدست ينطهر به ، ومن أسماء مكة قدس والمقدسة لأنَّها تقدس من الذنوب أي تظاهر ونحو ذلك ، ولا يضر المتنى أن لا يعرف معنى القدس والقداس والقداس ، فإنَّ كثيراً من أئمة اللغة توافقوا على معانٍ لا يعرفونها وما صرف التاريخ رجالاً وهي صدره معاني اللغة كلها حتى العرب أنفسهم ، فإنَّ قريشاً قال له ملك حمير « أَبْ » فلم يفهم معناه بلغة حمير قوله « ... لطوى الجلة العقد » ، وإنَّ عمر بن الخطاب توقف في معنى الأَبْ ؛ وإنَّ كثيراً من

أئمة اللغة جملوا معاني بعض الكلمات وأخطأوا في تفسير بعض آخر . فالكتابي لم يفرق بين معنى عبّيت وأعبيت حتى ثبّت إلى ذلك ، عبيدة مثل عن أمها ، أعضاء الفرس فتوقف وقال است بيطار . وكفى المتنى فضيلة أنه لم يعرف بما لم يجرب بغير ما يتفق بعلمه ، على أن ما ذكره الحاتمي في تفسير القدس لم أمر من ذكره من أئمة اللغة ، وإنما قالوا : هو حجر يوضع في حوض الأبل أو وسطه إذا غمره الماء روبر الأبل ، أو يطرح فيه يقدر عليه الماء يقتسمونه بينهم ، أو حصاة بقسم بها الماء في المفاوز .

والحامي إنما اطلع بمناظرة المتنى ليظهر على أكتافه ، ويتحدث الناس أنه ظهر عليه وأفحشه ، ولينفع من ذلك غلة معز الدولة ووزيره الملاي الذين توقيعاً من المتنى أن يدحهما فترفع عن ذلك ، والحامي على صلفه وتعنته لم يستطع أن يجحد فضل أبي الطيب وتفوقه وتفرده ، فقد قال في رسالته التي ضمنها مناظرة المتنى : فلما علوته بالكلام قال : يا هذا اللغة مسلمة لك ، فقلت : كيف تسلّمها وأنت أبو عذرها وأولى الناس بها وأعرفهم باشتقاها والكلام على أفانيتها ، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبيها منك ؟ ثم قال في موضع آخر منها : ورأيت له حق التقدم في صنعته فطأطأت له كتفي .

هذه شهادة خصم لدود وعدو شديد للمتنى « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

وقال ابن خلkan فيه : إنه كان من المكررين من نقل اللغة والمطعنين على غريبيها وحوشيها ، وإنَّه لا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب . وقال الأصبهاني في إيضاح المشكل : وجملة القول فيه أنه كان من حفاظ اللغة ورواية الشعر ، وكل ما في كلامه من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو في كتاب الجهرة وهو قوله : « ... لطوى الجلة العقد » وهذا من بيت وهو :

مقافن اور دیتہ:

وللقاءه الادبية غير ما سبق ذكره من المصادر مصادر أخرى منها  
اقوال الشعراء الذين زعم حساده انه اغار على معاذبهم وسلحها ، ثم تصرف  
فيها بما شاء من زيادة ونقص وتوسيع ونقص وقلب ، وهؤلاء الشعراء  
كثيرون منهم : امرؤ القيس ، والافوه الاودي ، والنابغة الذبياني ،  
وزهير ، والحسين بن الحنام المري ، وعنترة ، وذو الاصبع المدوانى ،  
والاعنی الاكبر ، وعروة بن الورد ، وحاتم الطائي ، وربعة بن مرداس ،  
وابو صخر المهنلي ، والمنقب ، وعروة بن عشبة ، والعام بن عمرو ،  
دواوس بن حجر ، وابو جويرية العبدى ، وخفاف بن غصن البرجمي ،  
وحطاطبط بن يعفر ، والحزين الدؤلى ، وقيس بن الخطيم ، وقيصر الاسد ،  
وعين بن مالك ، وعلقة بن عربي ، ولبيد ، وإياس الكلابي ، ومعاوية  
بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وذؤيب بن كعب التميمي ، وعبد يقوث ،  
ومضرس بن راعي ، والخادرة ، وجابر بن حباب ، وتأبط شرما ، وسويد  
ابن ابي كاهل ، وأمية بن ابي الصلت ، وخدان بن زهير ، وعنترة بن  
الاخرس ، وزياد العبدى ، وطارفة ، والنابغة الجعدي ، وحسان بن ثابت ،  
وعمرو بن معد يكرب ، والباس بن مرداس ، والاهم بن سنان ، وعلقمة  
بن اسوي ، وأبيحة بن الجلاح ، والفرزدق ، وجري ، والاختلط ،  
وكثير ، والطرماح ، وعمر بن ابي ربيعة ، والراعي ، وذو الرمة ، وقيس  
ابن ذريع ، ويزيد بن الطايرية ، وعقيل بن غفلة ، والكبت ، والجلاح ،  
واعشى باهلة ، ونصر بن سيار ، وسالم بن وايصة ، ومتنم بن نورة ،  
والبيث ، والاعور الشي ، وعدى بن الواقع ، والمؤرج بن عمر ،  
وابو العبيش ، والخطيبة ، وزياد الاعجم ، وعمران بن حطان ، وعبد الرحمن  
ابن دارة ، وعميرة بن جعيل ، وعمر بن الاهم ، ورؤبة ، وعبد الله  
ابن الزبير الاسدي ، وثابت بن قطنة العتيكي ، وعبد الله بن معاوية ،  
وابن الرقيات ، وهدبة بن الخشم ، وزفر بن الحارث ، وابن هرمة ،  
محا (٢٦)

وقال أيضاً : كان المتنبي يغنى أبا الفضل بن العميد كل يوم ، وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتعجب من حفظه وعزارة علمه .

و ديوانه طافح بالآيات والكلمات الدالة على غزاره مادته و سعنه اطلاعه  
وأجاره مكتفية بالادلة على هذا .

وكان أبو الطيب فوق هذا حسناً ماهراً في صوغ الكلمات وتأليفها ،  
لبقاً بارعاً في تحير ما يلام منها كل غرض ، حاذقاً في وضع كل كلمة  
في موضعها .

قال ابن فورجية أو فوزجية : قرأت على أبي العلاء المعربي ، ومنزلته في الشعر ما قد عليه من كان ذا أدب ، فقلت له : ما ضر "أبا الطيب" لو كان قال مكان هذه الكلمة كلة أخرى أوردتها ، فأبان لي عوار (١) الكلمة التي ظنتها ، ثم قال : لا تظن أنك تقدر على إبدال كلة واحدة من شعره بما هو خير منها بغرب إن كنت مرتاباً ، وها أنا ذا أُجرب هذا المهد فلم أقدر ، وليجرب من لم يصدق يجد الامر كما قلت . وشهادة أبي العلاء هذه تعذر شهادة أممها بأسرها أو تزيده ، وإنما يقدرها حق قدرها من عرف من هو أبو العلاء ، وما هو في اللغة والادب والشعر ، وإن كانت لا تخلو من شيء من المبالغة التي سببها حب أبي العلاء المنسي وتواضعه .

١٠٦ امداد بالفتح العيب وقد يفهم .

وبشار ، وحاج ، والعتابي ، وأبو العتائية ، ومروان بن أبي حفصة ، وأبو الشبع ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، والبحتري ، وابن الرومي ، والباس بن الأخفف وابن المعز ، وأبو هفان ، وابن الخطاط ، وعبد الله بن طاهر ، وأشجع السلمي ، وعلي بن جبلة ، وبكر بن النطاح ، والناثي ، الـ كبر ، وعبد الله بن محمد المهلي ، وموسى بن جابر الحنفي ، وأبو دلف ، ومسلم بن الوليد ، وديك الجن ، ودبيل ، ومحمود الوراق ، وعلي بن الجهم ، ويعقوب بن الربيع ، ومحمد بن وهيب ، ومنصور النمري ، وأبو سعيد المخزومي ، وأبو عطاء السندي ، وأحمد بن أبي فتن ، والمتني ، ومنصور الفقيه ، وابن المعدل ، والخليل ، وعلي بن الخليل ، والخنزير ، والحدوني ، وابن الناصر ، وخالد الساكت ، والخزاعي ، وأحمد بن طاهر ، وسعيد بن حميد ، وأبو طاهر ، وابراهيم بن المهدى ، ويزيد المهلي ، ومحبى بن زياد ، والسيد ، والخيم الراسى ، وصالح بن عبد القدس ، ومحنة بن يعيسى ، والطارمى ، وأبو حفص الشترنجي ، وإسحاق بن خلف ، والناتج ، ومنصور بن بسام .

وكتير من الشعراء الجاهلين والمخضرمين والاسلاميين والمولدین من سموا وبنن لم يسموا .  
زعموا أن أبا الطيب أثار على معانيهم فانتزعها ، أو أغار على من أغار عليها فانتزعها منه .

ومن مصادر ثقافته الأدبية أقوال الحكماء ، فقد زعم فريق من المؤمنين بالامغرب من شراح ديوانه وغيرهم ، أنه أخذ كثيراً من معاني الحكماء وجعلها في شعره ، وذلك مثل قوله :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها إلا جسام  
قالوا : إنه أخذه من كلام أرسطاطاليس : إذا كانت الشهوة فوق  
القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة . قوله :  
أرى أنا وأعصو على غنم ذكر وجودِ عصو على الكلام .

من قول الحكم : من كانت همته الاكل والشرب والتلذذ فهو بطمع البهائم ، لأننا لعلم أنها مت خلي بينها وبين ما تريده لم تفعل شيئاً غير ذلك . قوله :  
ورب مال فقيراً من مرونته لم يثر منها كأثرى من العدم  
من قول الحكم : من أثرى من العدم افتقر من الكرم ، قوله :  
وشبه الشيء منجذب إليه وأشارها بدنبان الطعام  
من كلام الحكم : الاشكال لاحقة بأشكالها ، كما أن الاختلاف مبادلة  
الاختلاف . قوله :  
رب عيش أخف منه الخام  
ذل من يغبط الذليل بعيش  
من كلام الحكم : إذا لم تصرف النفوس في شهواتها : خيانها موت  
وجودها عدم . قوله :  
كل حلم أتى بغیر اقتدار حجة لا جی إليها الاشام  
من كلام الحكم : الفرق بين الحلم والعجز أن الحلم لا يكون إلا  
عن قدرة ، والعجز لا يكون إلا عن ضعف . قوله :  
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخوه الجهالة في الشقاوة ينعم  
من كلام الحكم : العاقل لا يساكن شهوة الطبع لعلمه بزوالها ،  
والجاهل يظن أنها خالدة وهو باقٍ عليها ، فهذا يشقى بعلمه وهذا ينعم  
بجهله . قوله :  
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم  
من كلام الحكم : الصبر على مرض الرياسة ينال به شرف النهاية . قوله :  
الظلم من شيم النفوس فإن تجده ذا عفة فلعلة لا يظلم  
من كلام الحكم : الظلم من طبع النفس ، وإنما يصدّها عن ذلك  
أحدى علتين : إما علة دينية أو علة سياسية كخوف الانتقام . قوله :  
ـ هوـن على بصر ما شق منظره فانما يقطنات العين كالحلم  
من كلام الحكم : كرور الأيام أحلام ، وغداوها أسماق وألام قوله :

كلام الفحول من حكاء وشعراء ، وأبصراهم بالمعاني الحديدة ، وأبرعهم في انتقادها ، وأقدرهم على النصرف بها زيادة وتفصيلاً وتوليداً وقلباً ، وأخذتهم صوغًا وتأييفًا .

وقد شهد له فريق كبير من خصوصه بتفوقه في مواطن كثيرة على من زعموا أنه أخذ منه في قوة السبك ، وروعه الألفاظ ، وجمال المعاني . ولو ادعى مدع أن هذا الحكم المعلوم أو المجهول خلقه حсад المتنى ونسبوا إليه تلك الأقوال ليسليوه محسنه ، لكان ذلك غير بعيد ، وشهد له ما في أقوال أوائل الحكاء من الركاكة في التأليف ، والتفصير عن الإبهاطة بالمعنى ، وإن جاء بعضها مسجماً .

ومن أمعن النظر في كلام أبي الطيب ، وكلام ذلك الحكم ينفع له في موضع متعددة أن لا علاقة بين الكلامين إلا من حيث اشتراكهما بعض الألفاظ أو بطرف من المعنى ، وأن المعنى في شعر أبي الطيب أجل وأتم منه في كلام الحكم ، والشاهد على هذا كثيرة ، منها قوله :

كلا أبنت الزمان قناءَ ركب المرء في الفتنة سناناً  
قالوا : إنه من قول الحكم : من صحة السياسة أن يكون الإنسان

كلا ظهرت سنة عمل بها بحسب السياسة .

وعند التأمل لا يجد الباحث بين الكلامين رحمةً وشجنةً ، ولا نسباً جاماً ، ولا رابطةً بينهما إلا تعلق كل منها بعمل الإنسان ، ولكن هذا العمل مختلف في كليهما جداً الاختلاف من حيث الغاية والقصد والسبب

والعلة . وكذلك قوله :

دع النفس تأخذ وسعاً قبل بيتها ففترق جاران دارها العر

قالوا : إنه من قول من قول الحكم : من قسر عن أخذ ذاته عدمها

وعدم صحة جسمه .

والفرق بين المعنيين من حيث الصحة وجمال كالفرق بين اللفظين من حيث البلاغة وقوة الأثر ، وصفاء الدبياجة ؛ فإن المتنى يقول : أعط

سبحان خالق نفي كيف لذاتها فيها النفوس تراه غابة الائم من قول الحكم : النفس الشريفة ترى الموت بقاء لدركتها أماكن البقاء ، وهذه حالة تعجز الخلق عن ركوبها . وقوله :

كثير حياة المرء مثل قليلها زوال وباق عمره مثل ذاهب من قول الحكم : آخر حركات الفلك كأوائلها ، ونهاية العالم كلامه في الحقيقة لا في الحس . وقوله :

فهذه الأرواح من جوّه وهذه الأجسام من تربه من قول الحكم : اللطائف سماوية والكتائب أرضية ، وكل عنصر عائد إلى عنصره . وقوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه من قول الحكم : إذا كان تناشو الأرواح من كرور الأيام فالناعف رجوعها إلى أماكنها . وقوله :

وغابة المفرط في سله كغاية المفرط في حربه من قول الحكم : آخر إفراط التوفى أول موارد الخوف . وقوله :

أرى كلنا يسيي الحياة بسيه حرباً على هامستها مها صبياً خب الجبان النفس أورده البقا وحب الشجاع النفس أورده الحربا من قول الحكم : النفس التجوهرة تأبى مقارنة الذل جدماً وترى فناءها في طلب العز حياتها ، والنفس الدنيا بضد ذلك . وقوله :

إلف هذا المهواء أوقع في الآخرة نفس آن الخاتم من المذاق كذلك تصعب عليها مقارقة أجسامها ، والنفس الصافية بضد ذلك . وآمثال هذا كثير في شعره ، مما زعموا أنه اقتبسه من كلام الحكم

ولو استطاع خصوصه انتسبوا كل حيد من معانيه إلى غيره من الشعراء والحكاء ، وإذا صح كل ما قيل فأبو الطيب أوسع الشعراء اطلاعاً على

عن النابغة والافوه ثم فارقه في بقية المغني وهو على غاية من الجودة ،  
ورحمة الله التي وسعت طائفة كبيرة من الشعراء الذين أملوا بهذا المغني  
ـ اخذوا به لا تضيق عن أبي الطيب .

وكان ابو الطيب سئل مرة عن اتفاق الخواطر فقال: الشعر ميدان  
 والشعراء فرسان فربما اتفق توارد الخواطر كما يقع الحافر على الحافر .  
 وهذا مما لا ريب فيه فانا قد نرى شاعرًا وافق غيره في معنى من غير  
 أن يطلع على شعره ، ونرى أيضًا شاعرًا أعجميًا قد يوافق شاعرًا عربياً  
 وبالعكس من غير أن يعلم أحدهما أمة الآخر فضلاً عن أن يطلع على  
 شعره ويقتبس من معناه .

وأيس القصد من كلامنا هذا أن نبرئ المتنى من السرقة المعانى ،  
وانما نريد أن نبين أن كل ما نسب إليه من ذلك غير صحيح ، وأن  
دعوى خصومه مبالغ فيها ، وأن غيره شاركه في مثل هذا ولكن لم  
يكن له من الخصوم والمتقددين ما كان للمتنى .

يُكَلِّنُ لَهُ مِنْ الْخُصُومِ وَالْمُسْعِدِينَ - بِهِ يَرْتَدِدُ الْمُجْاهِدُونَ  
وَبَعْدَ كُلِّ مَا تَقْدِمُ فَإِنَّا لَا نَنْكِرُ أَنَّ الْمُتَنَبِّيَ كَانَ كَمَا قَالَ الْخَالِدِيُّونَ  
كَثِيرٌ الرِّوَايَةُ جَيِّدُ النَّقْدِ ، وَقَدْ أَسْلَفَنَا قَوْلُ ابْنِ خَلْكَانَ : إِنَّهُ كَانَ مِنَ  
الْمُكَثِّرِينَ مِنْ نَقْلِ الْأَلْفَاظِ وَالْمَاطِلِعِينَ عَلَى غَرْبِيَّهَا وَأَنَّهُ لَا يَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا  
اسْتَشْهِدُ فِيهِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ ؛ وَلَكِنَّنَا نَنْكِرُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَعَايِّنِهِ أَوْ جَلَاهَا  
مَا خَوْذًا مِنْ غَيْرِهِ .

وأغرب من كل ما سبق ذكره ما ذكره بعض حصومة المعنيين  
الذين عانوا من سرقته : وهو أن قصاراً كان يعمل على شاطئ النهر وكان  
يرى كل يوم كركي يجبيه فيلقط من الحماة دوداً وبقى في القوت  
عليه ، ثم رأى الكركي يوماً صقرأً ارتفع في الجو وانقض على حمام  
فاصطادها وأكلها ، فقال الكركي : مالي لا أصطاد الطيور كما يصطاد هذا  
الصقر وأنا أكبر منه جسماً ثم ارتفع في الجو وانقض على حمام  
فأخطأها وسقط في الحماة فتلطخ رأسه وتلطخ ريشه ، ولم يمكنه أن يطير

نفسك حطها قبل أن تموت ، فإن الحياة لا تدوم . والحكيم يقول :  
لا تفتر عنأخذ الذك فانك تمسلم تلك اللذة وتعدم صحة جسمك .  
ولا علاقة لاحد هذين المعنيين بالآخر إلا من جهة الحسن على التمتع باللذة ،  
ولكن علة ذلك مختلفة في كل منها ، والامر المترتب على الحالفة مختلف  
فيها أيضاً .

وهذا شأن أكثر الآيات التي زعموا أنه أخذها من قول الحكمة، وكثير من الآيات التي ادعوا أنه سلخها من معاني الشعراء، كقوله: حسان التي ينش اللوبي مثله إذا مسن في أجسامهن النواعم قالوا إنه من كلام امرى القيس :

من الفاسقات الطرف لو دب "محول" من الدر" فوق الابت منها لا"زرا  
وقد رأيت نحواً من ثلاثة شاعر أ بين امرىء القيس والمتني أخذوا  
هذا المعنى ولم يستطع أحد أن يوجد فيه بعد صاحبه مثل المتني ،  
كذلك قوله :

له عسکرا خیل و طیرِ إذا رمى  
صحابُّ من العقبان يزحف تختها  
سحاب اذا استسقت سقطها صوارمه  
بها عسکر ام يبق إلا جاجده

خر عليه الشمس وهي ضعيفة  
اذا ضرورها لاق من الطير فرحة  
قالوا إنه من قول أبي تمام :

وأصل هذا المعنى للافوه الاودي أخذه منه التابعية الذهبياني فزاد فيه  
زادة حسنة ثم تابع عليه شعراء كثيرون مثل أبي نواس ومسلم بن الوليد  
وغيرها ثم جاء أبو تمام فزاد فيه ما زاده حسناً وجاء المتنبي فزاد فيه  
زادة حسنة ولم يأخذ معنى أبي تمام كله بل وافقه في أصل المعنى المأخوذ

ومن تفكير في الدنيا ومحاجته أقامه الفكر بين العجز والتعب  
فإن فيه إشارة إلى اختلاف الكلمة في فناء الجسم والروح مما ، أو  
في فناء الجسم وحده ، وكلاهما قول بعض الحكماء ، وأبو الطيب وقف  
بين العجز والتعب ولم يصرح بما ارتضاه من القولين على ما في كلامه  
من احتيال وقبول للتأنويل .

وقوله من قصيدة يعزي بها عضد الدولة بمعته :  
 نحن بنو الموتى فما بالفنا  
 تدخل أيديينا بأرواحنا  
 وهذه الا رواح من جوه  
 تعاف ما لا بد من شربه  
 على زمان هن من كسبه

فإن فيه إشارة إلى مذهب الفائلين أن الروح جوهر أطيف يصعد إلى الجو بعد مفارقة الجسم ، وإن الجسم جوهر كثيف يعود إلى عنصره الأول ، ويصلح أن يكون فيه إشارة إلى مذهب الفائلين أن المادة تبقى ولا تفنى .

وقوله في هجو كافور :

الله في سبب رزقك  
ألا فتى يورد الهندي هامته  
فإنه حجة يؤذى القلوب بها  
فإن فيه إشارة إلى مذهب الدهريّة القائلين إن العالم موجود أزلًا  
وأبدًا لا صانع له ، والمطلة القائلين إن العالم فارغ عن صانع أتقنه وزينه ،  
وقوله في مدح كافور :

وقوله في مدح كافور :  
وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب  
فإن فيه إشارة إلى مذهب المانوية الفاثيين إن مبدأ هذا العالم كونان  
أحدوا : الآية خالقة ، وإن الخير من النور والشر من الظلمة .

وقوله من قصيدة يمدح بها طاهر العلوى :  
إذا عاوي لم يكن مثل طاهرٍ فما هو إلا حجةٌ للتواصي

فأخذوه الصياد ورجع إلى منزله فاستقبله رجل فقال ما هذا ؟ قال : كركي  
يتصرّف ، فسمع المتنى هذه الحكاية فأخذ منها معنى قوله :  
ومن جملت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى  
وهذا البيت من قصيدة قلمعا حين هرب من مصر ووصل إلى  
الكونية مظلما :

الا كل ما شئت ان تخبرني فدا كل ما شئت الميدبني  
يصف فيها رحلته ما يليها ولا نعلم في أي موضع سمع هذه الحكاية ،  
وقد كان فارأ من كافور يختبئ في مكان بعد آخر وليس يصحبه غير  
غلانه ، فمن قص عليه ذلك ومن رواه عنه ٤ .

وهذا يؤيد ما قلناه أن خصوصه لو استطاعوا لنسبوا كل معنى جيد في شعره إلى غيره ، ولذلك قال ابن باتة في سرح العيون : وهذا من فوادر المقيمين على سرقات المتنبي ، ومن نادر التغصب على هذا الرجل الفاضل المحسود .

## **نقاوة العلمية و مصادرها :**

وأما تفاصيل الملحمة فهي أشد غموضاً من سابقتها وأخفى طریقاً وأقل عناية في كلام المقدمين .

وقد دن أبو العبيب في عصر ذخرت فيه بحور العلم وانتشرت كتب الفلسفة وفشت فيه آراء الحكمة والفلسفه والزنادقه ، وأصحاب الاتهام والنحل بين طبقات العامة والخاصة .

ومن استقرى كلامه ، وجد فيه كثيراً من الآراء والمنازع الفلسفية والآملاع إلى بعض المذاهب ، وما يعتقد بعض الفرق في الافتالك المعلوية وهو ذلك كقوله :

فقبل تخلص نفس المرأة سائحة  
لا اسس حتى لا افاق طم  
ما على شجب والخلف في الشجب  
وقبيل تشرّك جسم المرأة في العطب

فإن فيه إشارة إلى فرقة يقال لها الناصبية وهي تدين ببغضه  
علي بن أبي طالب .  
وقوله :

ـ هون على بصر ما شق متظره فلما يقطات العين كالحمل  
ـ شاهدت رسطاليس والاسكندر  
ـ من خبر الاعراب أني بعدم وسمعت إطليجوس دارس كتبه متسلكاً متبدلاً متحضرا

ـ قوله :  
ـ إذا داء هفا بقراط عنه فلم يعرف لصاحبه ضريب  
ـ وربما جرى على طريقة الحكاء في الاستدلال والتعليل كقوله :  
ـ إذا غارت في شرفِ مرؤوم فلا تقنع بما دون النجوم  
ـ فطعم الموت في أمرِ حقير كطم الموت في أمر عظيم

ـ قوله :  
ـ وإذا لم يكن من الموت بد فلن العجز أن تكون جبانا

ـ قوله :

ـ من يهن يسهل الموان عليه ما لجرح بيت إيلام  
ـ ومن تتبع كلام أبي الطيب بأمعان ، وجد فيه كثيراً من الآراء  
ـ والمنازع الفلسفية ، مما يدل على أنه كان مطلعاً على شيء من هذا العلم  
ـ عارفاً بأخبار رجاله ، وما اشتهر به كل منهم من الخصائص ، عارفاً  
ـ بمذاهبهم واحتلاظهم في فناء الروح والجسم وبقائهم وبما يعتقدونه فريق منهم  
ـ في النجوم وما شاكل ذلك .

ـ ولكنه لا يجده في كل نوع من أنواع الفلسفة العلمية والمعملية ،  
ـ بل لا يكاد يجده للفلسفة الطبيعية والرياضية والاهمية إلا أثراً ضئيلاً يتراوح  
ـ في الآيات المتقدمة وأشباهها . ومثل هذا القدر يجوز أن يكون شائعاً  
ـ فيه الحكاء بعد أن اطلع على أقوالهم أو سمعها ، ولكنه لا يدل على أنه  
ـ درس هذا العلم درساً وافياً وانخذ لنفسه فيه طريقاً اختص به كما يفعله  
ـ الرأسخون في هذا العلم .

ـ فلم يبق من الأقسام التي يرع فيها براعة فائقة إلا طرف من  
ـ الفلسفة المعملية وأكثره مما يتصل بالأخلاق ، وليس له في نظريات ينتها

ـ قوله :  
ـ فالغا يقطات العين كالحمل  
ـ فإن فيه إشارة إلى مذهب السوفسطائية المنكرين لحقيقة الأشياء ،  
ـ وقد استدل فريق بهذا البيت على أن المتنبي كان يعتقد هذا المذهب كما  
ـ استدل آخرون بقوله :

ـ تعن من سعاد أو رقاد ولا تأمل كري تحت الرجام  
ـ فإن ثلاث الحالين معنى سوى معنى انتباحك والمنام  
ـ على أنه كان يدين بالتتساخ الذي يقول أصحابه إن الروح تنتقل من  
ـ جسم إلى آخر مكافأة لصاحبه على خير قدمه ، أو مجازة على شر  
ـ اجترمه . وقوله :

ـ يقولون تأثير الكواكب في الورى ما باله تأثيره في الكواكب

ـ وقد زعموا أن النجوم خوالد ولو حاربته ناح فيها التواكل

ـ فتباً لدين عبد النجوم ومن يدعى أنها تعقل  
ـ فإن في هذه الآيات الثلاثة إشارة إلى مذاهب بعض الحكاء وما  
ـ يعتقدونه في الكواكب المعلوية من تأثير في علم الأرض ، وقد يستلزم  
ـ ذلك ، وإثبات العقل لها وإشارة إلى أن كلية القوم لم تتفق على  
ـ ذلك ، وإن كل معتقد من مخالفه ، ولهذا عبر بكلمات : يقولون وزعموا ،  
ـ ومن يدعي ، ولم يبين رأيه في ذلك ، ولكن التعبير بالكلمات السابقة  
ـ يدل على أنه لا يشایع هذه الفرق في اعتقادها هذا .

ـ ووقع في شعره ذكر رجال من الحكاء المشهورين في مثل قوله :  
ـ يحيوت راعي المتنبي في جبله ميتشة جاليتوس في طبله

بأبراهيم وأراؤه يدعاها بالآلة وإنما هي "جمل" "محكمة" رائعة بليغة ينبعق  
بها الحسكة، إذا تصدوا لبحث في الأخلاق وإن كان كلامهم أدنى في  
باب البلاغة من كلامه .

وليس حكته كلها مقتبسة من كلام الحسكة، ولا كلامها خطرات نفسية،  
 وإنما هي مزيج مما اقتبسه من غيره وما هدته إليه فطرته وأرشدهه  
إليه تجاريته .

ولعل أعلم مصدر حكته هذه هو حياته لأنها تعاقبت عليه أطوار  
من الحياة مختلفة الأشكال من سعادة وشقاء وفاقة ورخاء وروعة وأمن  
وقد جرب الناس وذاقهم وأكلهم ، ودرس الحياة درساً دقيقاً وافياً واستقصى  
كثيراً من سجايا الناس وطبائعهم ولعى عليهم كثيراً منها ، وقد كان حيد  
النقد دقيق الحس شديد الطموح إلى الإمارة شديد الاعتداد بنفسه  
عظيم الاعجاب بشعره عجباً للحال جماً متبدلاً في سبيله مفتوناً بالقوية  
منذ الخدابة كثير التقى بها فأثرت هذه العوامل المختلفة في نفسه وكان  
من آثرها ما تعلمه أبياته في الحسكة كقوله :

أنم إلى أهل الزمان أهله  
وأنكر لهم كلب وأبصر لهم عمر  
وقوله :

فأعلمهم قدم وأحزنهم وعد  
وأسدهم فهد وأشجعهم قرد

ومن نكدة الدنيا على الحرآن روى  
وقوله :

عدوا له ما من صداقه بد

وقوله : شر على الحر من سقم على بدن  
إنما نحن في جيل سواسية

يتارسن حجرة واغتيالا  
واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا  
أن يكون الفضifer الرثيل  
 وكل حجر أني بغير افتدار

حجنة لاجي إليها اللذام

وقوله :

عش عزيزاً أو متواتراً كريم بين طعن الفنا وخفق البنود  
فرؤوس الرماح أذهب للفي ضل وأشق اغيل صدر الحسود  
فاطلب العز في اظى وذر العذل وإن كان في جنان الخلود  
يقتل الماجز الجبان وقد يعجز عن قطع بخنق المولود  
ويُوقق الفتى الخشن وقد خوض في ماء لبة الصنديد  
وقد يجد الباحث في شعره غير ما تقدم كثيراً من الاشارات إلى  
المصطلحات الفقهية كقوله :

لأنعلنْ بعث الطلاق آلية  
وآخر لنا في شربها وشربت غير أئم  
جعلت ردي عرسه كفارة

وقوله :

إذا ما فارقني غسلتني  
كانا عاكفان على حرام

وقوله :

شيخ يرى الصوات الخمس نافلة  
ويستحل دم الحجاج في الحرم

وقوله :

وزارك بي دون الملوك تحرّجي  
إذا عن بحر لم يجز لي التبع  
وكذلك يجد كثيراً من أماء الأمّ والقبائل والرجال الذين اشتروا

في التاريخ بحوادث معروفة كقوله :

فكان كل سحابة وكفت بها  
تبكي يعني عروة بن حزام

وقوله :

لو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لاعبا عبي  
ويجد كثيراً من أماء الأمّ ما كان من أودية وجبال وهضبات وأنهار  
ومبارق وقرى وأمسار كما يتمثل ذلك في قصيدة قالها عند رجوعه من  
مصر ووصوله إلى الكوفة وغيرها .

ويجد كثيراً من آيات الكواكب وما يتعلق بطلعها وغربها من  
الحوادث المزعومة كقوله :  
إف هذا الماء أوقع في الاٰذن فـ أن الـ حـام مـرـ المـاذـقـ  
والـ اـسـى قـبـلـ فـرقـةـ الرـوـحـ عـجـزـ وـالـ اـسـى لـاـ يـكـونـ بـعـدـ الفـراقـ  
وقوله :

أـجـبـكـ يـاـ يـنـدـ الزـمـانـ وـشـمـهـ وـإـنـ لـامـنـيـ فـيـكـ الشـىـ وـالـفـرـاقـدـ  
وهـذـاـ وـأـمـتـالـهـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ أـبـاـ الطـبـ كـانـ عـارـفـاـ بـعـلـومـ الدـينـ عـلـمـاـ بـأـيـامـ  
الـنـاسـ وـأـخـارـمـ وـاسـعـ الـاطـلـاعـ عـلـىـ التـارـيـخـ وـعـلـىـ تـقـوـيمـ الـبـلـدـانـ عـلـمـاـ بـكـثـيرـ  
مـنـ الـأـمـكـنـةـ وـمـاـ يـتـصـلـ بـهـ مـلـمـاـ بـعـرـفـةـ الـأـفـلـاكـ وـمـاـ يـرـتـبـطـ  
بـهـ مـاـ كـانـ يـعـنـقـهـ أـهـلـ عـصـرـهـ .

ولولا خـيـةـ الـاطـلـةـ لـأـورـدـنـاـ أـمـثـلـةـ مـتـمـدـدـةـ تـدـلـ عـلـىـ عـلـوـ كـعبـهـ فـيـ  
كـلـ مـاـ قـدـمـ .

وـلـمـ فـيـ هـذـاـ قـدـرـ مـاـ يـبـيـنـ أـنـ الـمـنـيـ وـلـدـ وـنـشـاـ وـشـبـ وـدرـسـ وـقـالـ  
الـشـعـرـ الـجـيدـ فـيـ الـكـوـفـةـ وـاهـ استـمـدـ ثـقـافـتـهـ الـلغـوـيـةـ وـالـأـدـبـيـةـ مـنـ الـكـتـابـ  
وـالـأـعـرـابـ وـكـتـبـ الـوـرـاقـينـ وـأـفـوـالـ الشـعـرـاءـ وـالـحـكـمـاءـ الـمـعـلـوـمـينـ وـالـجـهـوـلـينـ ،  
وـثـقـافـتـهـ الـمـلـيـةـ مـنـ مـصـادـرـ سـبـقـ ذـكـرـهـاـ وـمـنـ مـصـادـرـ أـخـرـىـ لـمـ يـسـعـ الزـمـنـ  
يـكـشـفـ النـقـابـ عـنـهـ بـعـدـ ، وـمـنـ الـعـلـومـ الـلـاسـانـيـةـ وـالـشـرـعـيـةـ ، وـأـنـ فـلـسـفـتـهـ  
تـكـادـ تـخـصـرـ فـيـهاـ يـتـصـلـ بـالـخـالـقـ ، وـأـنـ إـسـتـمـدـهـاـ مـنـ حـيـاتـهـ وـفـطـارـتـهـ  
وـتـجـارـبـهـ وـأـمـدـهـ بـعـاـ اـطـلـعـ عـلـيـهـ مـنـ كـلامـ الـحـكـمـاءـ ، وـانـ ثـقـافـتـهـ عـلـىـ عـلـاتـهـ  
عـالـيـةـ جـداـ لـأـسـيـ الـأـدـبـيـةـ وـقـدـ ظـهـرـتـ آـثـارـهـ فـيـ أـيـاتـ مـنـ شـعـرـهـ بـلـغـتـ  
قـدـرـهـ أـهـلـ الـفـضـلـ حقـ قـدـرـهـ مـنـهـ قـوـلـهـ :

لـاـ يـسـمـ الشـرـفـ الرـفـيعـ مـنـ الـأـذـىـ حـتـىـ يـرـافـعـ عـلـىـ جـوـانـبـهـ الدـمـ  
قالـ أـبـوـ الفـتحـ بـنـ جـنـيـ : أـشـهـدـ بـأـنـهـ لـوـلـوـ قـدـ رـصـعـ  
الـحـيـدـيـنـ وـلـكـانـ لـهـ أـنـ يـتـقـدـمـ عـلـيـهـ . وـقـوـلـهـ :  
مـنـ يـهـنـ يـسـهـلـ الـهـوـانـ عـلـيـهـ مـاـ لـجـرـحـ بـعـيـتـ إـيـامـ

قالـ الـمـكـبـريـ : هـذـاـ مـنـ أـحـسـنـ الـكـلـامـ ، وـلـوـ خـرـسـ بـعـدـ الـكـفـاءـ . وـقـوـلـهـ :  
إـفـ هـذـاـ الـمـوـاءـ أـوـقـعـ فـيـ الـأـذـنـ فـيـنـ فـيـ الـحـامـ مـرـ الـمـاذـقـ  
وـالـ اـسـىـ قـبـلـ فـرـقـةـ الرـوـحـ عـجـزـ وـالـ اـسـىـ لـاـ يـكـونـ بـعـدـ الـفـراقـ

قالـ أـبـوـ الـعـلـاءـ الـمـعـرـيـ : وـلـوـ لـمـ يـقـلـ شـاعـرـهـ سـواـهـ لـكـانـ لـهـ شـرـفـ  
مـنـهـ وـجـالـ . وـقـوـلـهـ الـذـيـ قـالـ فـيـهـ أـبـوـ الـعـبـاسـ النـامـيـ : كـنـتـ أـشـتـهـيـ أـنـ  
أـسـبـقـهـ إـلـىـ مـعـنـيـنـ قـالـهـاـ مـاـ سـبـقـ الـيـهـ ، أـحـدـهـاـ :  
رـمـانـيـ الـدـهـرـ بـالـأـرـزـاءـ حـتـىـ فـوـادـيـ فـيـ غـشـاءـ مـنـ بـيـالـ  
فـصـرـتـ إـذـاـ أـصـابـتـيـ سـهـامـ تـكـسـرـتـ النـصـالـ عـلـىـ النـصـالـ  
وـالـثـانـيـ :

فـكـانـاـ يـصـرـنـ بـالـأـذـانـ  
فـيـ جـحـفـلـ سـتـ الـمـيـونـ غـيـارـهـ  
وـكـانـ النـامـيـ عـاتـبـ سـيفـ الـدـوـلـةـ اـتـفـضـيلـهـ الـمـنـيـ عـلـيـهـ وـسـأـلـهـ عـنـ سـبـبـ  
ذـكـرـ فـأـمـسـكـ عـنـ الـجـوابـ ، فـلـمـ أـلـحـ عـلـيـهـ قـالـ لـهـ : لـاـنـكـ لـاـ تـحـسـنـ أـنـ  
تـقـوـلـ كـوـلـهـ (ـ أـيـ الـمـنـيـ )

يـعـودـ مـنـ كـلـ فـتـحـ غـيـرـ مـفـتـخـرـ وـقـدـ أـغـذـ إـلـيـهـ غـيـرـ مـخـتـفـلـ  
وـلـكـثـرـةـ مـاـ فـيـ شـعـرـهـ مـنـ الـمـيـونـ وـالـمـلـدـاتـ ، لـاـ يـكـادـ الـأـنـسـانـ يـسـتـطـعـ  
أـنـ يـعـلـمـ مـاـ هـوـ الـأـفـضـلـ فـيـهـ . فـلـهـ فـيـ بـابـ الـغـزـلـ أـيـاتـ فـذـةـ كـوـلـهـ :  
أـزـوـرـهـ وـسـوـادـ الـلـيـلـ يـشـفـعـ لـيـ وـأـشـنـيـ وـيـاضـ الصـبـحـ يـغـرـيـ بـيـ  
وـقـوـلـهـ :

كـانـ عـلـيـهـ مـنـ حـدـقـ نـطاـقاـ

وـخـصـرـ ثـبـتـ الـأـحـدـاقـ فـيـهـ

وـقـوـلـهـ :

سـفـرـتـ وـبـرـقـهـ الـحـيـاءـ بـصـفـرـةـ  
فـكـانـهـاـ وـالـدـمـ يـقـطـرـ فـوـقـهـاـ  
كـشـفـتـ تـلـاثـ ذـوـائبـ مـنـ شـعـرـهـ  
وـاسـتـقـبـلـتـ قـرـ السـاءـ بـوـجـهـهاـ  
وـقـوـلـهـ :

حسان الثاني ينقش الوشي مثلك  
ويسمى عن در تقلدن مثله  
وله في المدح أبيات منقطعة القرین كقوله في مدح علي بن ابراهيم التنوخي :  
كأنه الهم في الهيجا عيونه  
وقد حابعت سيفوك من رقاد  
ذا يخطرن إلا في فؤاد  
وقد صفت الاسنة من هنوم  
وقوله في مدح عضد الدولة :  
حي أطراف فارس شري  
بضرب هاج أطرب المانيا  
فلو طرحت قلوب العشق فيها  
وقوله في مدح سيف الدولة :  
ندوس بك الخليل الوكور على الذرى  
إذا زلت مشيتها يبطونها  
كما تختى في الصعيد الارقام  
وله في باب الوصف ما يقتصر عن إدراكه المتطاول إليه ك قوله في  
وصف خيمة كان تحتها سيف الدولة :  
عليها رياض لم تحكها سجاية  
و فوق حواشي كل ثوب موجة  
تزي حيوان البر معطلها  
إذا ضربته الريح ماج كأنه  
وقوله في وصف أغسان شعب بوان :  
عدونا تنفس الاغسان فيها  
فشررت وقد جبن الشمس عي  
وألق الشرق منها في نياي  
لها نهر تشير إلىك منه  
وله كثيرة من الوصف الراهن في وصف الأسد والصيد والخليل

## الخلاصة :

صفوة القول أن أبي الطيب أمة وحده في شعره وأدبه وحكمه وإن  
محاسنه لا تكاد تُحصى وطراائفه لا تستقصى .

وإن هذا الموضوع على قلة مظاهره متراجعي الأطراف صعب المراس  
يفتقر إلى معارضة الآيات التي قالها بالآيات التي زعموا أنه أخذ معانيه  
منها وبيان ما بينها من الفروق وإراد الشواهد من كلامه لتأييد ما  
أسلفنا ذكره .

وهذا كله يستدعي زمناً طويلاً ، ولكن ضيق الوقت المحدود تجبر  
واسماً ، واضطررنا إلى أن نبلغ بالإيجاز درجة الإفراز ، وإن تخسر المباحث  
الواسعة في عناوين ضيقة ، وندمج نوعاً من تفاصيله في آخر ، وإن تضرر  
صفحاً عن إراد آيات آخر من شعره هن المثل الأعلى في تفاصيله الإبداعية  
والملحية ، حتى جاءت كلتنا هذه كقاعة التجار يسرد فيها أعداد الثواب  
ولكن لا يبين فيها ما لكل واحد منها من الخصائص والمميزات ولا  
ما في كل منها من روعة في الوشي ودقة في الصنعة وجمال في الهيئة والشارع .  
وعسى أن تسامح الأيام بوقت يتسع لنوفية هذا الموضوع حقه  
والسلام عليكم .

دمشق : توز سنـة ١٩٣٦ .

هذا ما قاله الاستاذ «ريشه» فلم يتتجنب نهج الصواب في وجيز كالدعا  
لقد ظهرت علوم في أيامنا لم تظهر من قبل ، فانبعاث آفاق المقول فتبعد  
بأنساطها طراز التفكير وتغير نظر النقد ، وتحقق الكتاب يتعللون في  
حقائق الامور ، فظاهرت على كتاباتهم آثار هذا الاقلاق واختلفت  
أصولهم في التفكير عن الأصول التي كانوا يبنون عليها من الف سنة ،  
لقد تبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، واستفحى العرائف  
واستفاقت مذاهب الحضارة فأصبح المجد على القديم متلفة لقرائح ، إلا  
أنه ما كل قديم فاسد ولا كل حديث صالح ، وإذا جاز لنا أن نستهجن  
البكاء على الاطلال أو وصف مرابض الغم ومعاطن الابل في عصر طارت  
فيه الطيارات ودببت فيه الدبابات ، وإذا جاز لنا أن نستشنع الكلام على  
قبة من أدم أو مظللة من شعر أو خباء من صوف أو بجاد من وبر  
أو خيمة من شجر أو قنة من حجر في دهر ذهبت فيه الفصور في السماء  
فلا يجوز لنا أن نشد عن لغة نسيجت أفواها الليالي وطرزت أبرادها  
الأنعام فوسعت ما في السموات والأرض .

لقد انقلب العقول والافكار فنثأ النمط الحديث في الادب وليس في هذه الثورة الفكرية شيء يستكروه إذا لم يكن مما ثوره تذهب بمحاسن اللغة والاسلوب فان الحياة تستلزم الحركة ولا ريب ، قال أبو الحسين

احمد بن فارس بن زكريا المقم :  
« ومن ذا حفار على المتأخر مضادة المتقدم ، وله نأخذ بقول من  
قال : ما ترك الاول لآخر شيئاً ، وندع قول الآخر : كم ترك الاول  
لآخر ، وهل الدنيا إلا أزمان وإنكل زمان منها رجال ، وهل المعلوم  
بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الاوهام ، ونتائج العقول ، ومن قصر  
الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ، وله لا ينظر الآخر  
مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ، ويري في

## شیء عن آناتول فرانس

لِلْأَسْتَاذِ سَفِيرِ بِهْرَبِي

سر العلم . الفرم و المدحث . المصادر على أنماط فرنس .  
زاهي الكتاب . مذهب أنماط في ذلك . المفاؤل . الحزن  
وأبياته . الساخر . الحب . الروسوب المدرسي . الروسوب  
الوجوداني . طرز أنماط في النثر . لغة لافوتيين . ميل  
أنماط إلى لغة . هرصنا على اللغة .

قال الأستاذ شارل ريشيه أحد أعضاء معهد باريز في كتابه «المعلم» : «يسير العلم في سبيله سيراً تجاه ثوابت الانظار في سرعته ، على أن العلم لا يزال في عنفوان أمره وربما عمره ، فالعالم «أرخميدس» على نبوغ فضله وبراعته كان يجهل ما يملئه المعلوم اليوم في المدارس الابتدائية ، وأجهل تلذذ من قلاميد المدارس التجهيزية يعرف من العلوم أموراً يجهلها العالم «غاليليو» نفسه ، ما بين العالم «فرانكلان» وبين العالم «أنشتاين» مائة وخمسون سنة ، فتصور مسیر العلم في مائة وخمسين سنة ! ما أعظم انتقالات الأفكار ! لم يكن من قبل علم «الاحافير» ولا علم الجراثيم ولا علم التصور ولا الطيران ولا خطوط الحديد ولا حل «الطبف الشمسي» ، فلا يتتجاوز عمر علوم البشر قرناً ونصف قرن وما هو قرن ونصف قرن . المثير غير وثيد ، إنما نسير إلى معرفة الأشياء على سلسلة هندسية متزايدة ، وفي يوم من الأيام سيكون للرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على المادة منها اختفت أشكالها » .

كل ذلك مثل رأيه ، وما تقول لفتها زمامنا إذا نزلت بهم من نواشر الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، أو ما علمت أن لكل قلب خاطراً ولكن خاطر نتيجة ، وله حجرت واسعاً وحضرت مباحاً ، وحرمت حلالاً وسدلت طريقاً مسلوكاً ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب أدب غزير ولضات أهلام ثاقبة ، ولكن ألسن لسنة وما توشى أحد خطابه ، ولا سلك شعباً من شعوب البلاغة ولمجئ الاسماع كل مردد مكرر وللفظات القلوب كل مرجع موضع » .

أبو الحسين هذا حفظه الله من المجددين أو المتجددين على ما يستنبط من كلامه ، إلا أنه نشأ في عصر انتهت فيه اللغة إلى أبعد غایات الحسن وبلغت أقصى نهايات الجودة والظرف ، فكانوا إذا نزعوا عن اللغة بردأ فشيداً خلعوا عليها بردأ أقبح ، وإذا جردوها من ديباجة طريقة البسوها ديباجة أطرف ، وحيي أن أذكى من أئمة ذلك العصر ابن العميد والخوارزمي والصابي والبديع والثعالبي وأمثالهم من الذين حسنت لهم صناعة الإنشاء ، وما بينهم وبين الجاحظ وابن المقفع وعبد الجيد الافيفي من الدهر ، فكانت اللغة في حصن حسين وركن ركن فلم يكن في تحجيم خوف عليها ، وما انحطت اللغة عن طبقتها إلا لا ذهبوها بين سع الأرض وبصرها . أما المجددون في هذا العصر فقد بالغت طائفة منهم في الامر حتى أصبح جديدهم خلقاً ربيعاً . فذهبوا إلى اطراح كل قديم وجاهلي وغضرم ، واعرابي وموالد ، فلم يستملح ذوقهم كلام الجاحظ وابن المقفع وعبد الجيد وأشباههم من أمراء البيان . وزعموا أن أساليب المقدمين لا يسع علوم هذا العصر ولا تستوعب طرائف الحضارة وبذاته فإذا بدأوا أنماط التفكير لزمهم أن يبدوا أساليب الكلام ، وهذا موطن الغلو في آرائهم . لكن ارتقى الفكر البشري في هذا العصر فان

كلام العرب منحط عن طبقته في الجاهلية والاسلام . فإذا لم يبلغ كلامنا اليوم مبالغ كلام المتقدين فأي عذر لنا في الشذوذ عن أساليبهم ، وكيف نزعم أن لغتنا أعلى من لغة القرآن والمسحيين على أذىل القرآن .

ترجم الدكتور ماردوس القرآن إلى لغته الفرنسية بعد أن استعد لهذا الأمر عشرين سنة وقد كتب عن هذه الترجمة الاستاذ باولوسكي في مجلة ( Les Annales ) جاء في خاتمتها ما بلي :

« لقد بلغ من قاتير القرآن في قلوب ثلاثة مليون مسلم مبلغاً أجمع معه البشر عن الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا أن يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم . واستنتاج الدكتور من ذلك أن الكلمة إذا وضعت مواضعها وأنزلت منها كانت سحراً حلالاً » .

فن الذي يتبع اليوم بأن يأتي بكلام ينزل على أكباد ثلاثة مليون رجل نزول الماء الزلال على الكبد الحرجي . فاللغة التي تخرج عليها طائفة المجددين هي لغة جهور من الكتاب والخطباء والشعراء تدارسوا كلام القرآن حيناً من الدهر طويلاً حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من شعب البلاغة ، تزعم هذه الطائفة أنها تذهب مذاهب الغربيين في كتابتها فكأنما خيل إليها أن أدباء الغرب لا يبالون بقدماء كتابهم وشعرائهم .

هذا أناقول فرنس باقمة دهره !

تحدرت إليه بلاغة المتقدين سفل في الانشاء الحال الارفع حتى أطبق أدبها وطنه وفيهم عدوه وصديقه على الاعتراف بأن أناقول حفظ اللغة في القرن العشرين ، فلم يتطرق إليها الفساد ، فلولا حرص أناقول على اللغة القديمة وتعلقه بأهدابها لم يكن له المزلة الرفيعة في الأدب .

وما اللغة القديمة التي يحرص عليها أناقول إلا لغة المدرسيين أي لغة القرن السابع عشر ، والقرن السابع عشر أطيب عصور الأدب الفرنسي ،

فقد بلغت فيه اللغة المبالغة وبينما وبين لغة كتابنا البلغاء أمثال ابن المقفع شبه عظيم وإن رجلاً حفظ لغة قومه بلديه بأن نعرف سيرته، وتقبل طرقته.

الكلام على «أناتول فرنس» بعيد الشقة، متراخي الطرف، فلا يأمن الفائز على هذا اللذاؤ المكتنون أن يعرف في لجة خضم ملقطام الأمواج. واني أخاف إذا حاولت أن أقول فيه كل شيء، أن لا أقول شيئاً. وإلى لاحق إذا أردت أن أعرض على الجمهور كل طرائفه أن لا أعرض طرفة. فأذرت أن ألم بأناطور إللاماً دون الافاضة في مطولات أخباره وآرائه. ولو أردت أن أشبع القول في عبريته امتدت إلى كتب وبجلات وصحف شئ توغل أصحابها في هذا الأفق المنبسط كل متوعل. ييد أنني أحبت أن أبرز آثاراً بقيت في نفسي ورسوماً رسخت في ذهني من معالعة بعض كتب ألقها أناطور فرنس. واني أرى أن الباحث عن أديب من الانباء إذا اجتمع له عناصر البحث وتوفرت لديه مواد التنقيب، لزمه أن يكون مستقلأً في حكمه، حتى يكون هذا الحكم صادقاً، ولكنه إذا قلل ما قاله الناس دون إعمال فكره كانت الصورة التي يعرضها ممزوجة مرئية.

ولد أناطور فرنس في باريس سنة ١٨٤٤ فكان مشاهد جواد باريز الجليلة تأثير كبير في ذهنه فقد كانت هذه الجواد يومئذ هادئة مختلفة فكان أناطور يسرح الطرف في قصر «الموفر» ويصوب النظر ويسعده في قصر «مازاران»، فلما تفتح هذه المباني عينيه، وغمرت قلبه فتح خلقه بروتها ومرج قربحته برقتها، ولم يصدق أنها من آثار البشر. فكان الشك يخليج في صدره، وقد بعثه تأمله هذا على الشفف بالفنون وال حسين إلى الماضي وكانت أبوه كتبها فأيقتضت فيه هذه الحرفة ولما بالآدب القديم وبالكتابات.

من محاسن أدب الانحراف إنك إذا تفرغت للكلام على أديب من أدباءهم أو شاعر من شعرائهم أو خطيب من خطبائهم إلى غير هذه الطبقات من الناس الذين يقلبون العالم بنسج طبائعهم وسمك أفهامهم وصوغ أذهانهم وجدت في بعض الأصحابين مجال القول ذا سعة، فانك لا تشاء أن تعرف شيئاً عن أخلاق هذه الطبقات وأراءهم وعاداتهم وتقاليدهم وأوضاعهم ونشائهم وسجنهنهم وهياجهم إلا عرفته وقد بالغوا في ذلك فوصفو في كتبهم كيف ولدوا وكيف عاشوا وكيف رباهم أهلهم . ووصفو أخلاق آباءهم وأمهاتهم فيقيدون كل شاردة وبدونون كل نادرة وقد يتولى أدباءهم وصف حياتهم بأقلامهم، والمرء أعرف بيواطنه وكوامنه من غيره ، وهذا النمط قليل في أدب العرب .

من هؤلاء الكتاب الذين وصفوا في كتبهم بدأة حياتهم وميئعة شبابهم أناطور فرنس فهو يرى أن اتفاق الكتاب لهذا الطراز أشد من إتفاقهم لغيره فائهم يجدون لذة في هذا الوصف فيحملون القراء على مشاركتهم في اللذة وقلما ينزل الوحي على كاتب مثلاً ينزل عليه وهو يكتب عن خواجه ولواعجه، فأجمل كتب روسو «اعترافاته» وأجمل كتب شاتوريان «مذكرات ما وراء القبر» .

ألف أناطور فرنس أربعة كتب رائعة تصرف به الكلام في تصوير حياته كل متصرف ، وأناتول فرنس كلف بالاستطراد في كتاباته فهو يخرج من الجد إلى الم Hazel ، ومن الحزن إلى السهل نفياً للتكلل وبعداً من الملل فكثيراً ما يحب أن يلهو في سبيله ، فإذا مضى لطيفه ولم يلو على شيء وصل إلى غرضه في طرفة عين وهذا ما لا يريده ، فإنه يرى اللذة في الجيضة والذهب لأن التنقل في الكلام مدرجة إلى الله وهذا هو طراز الاحاطة في الكتابة والتأليف .

كان والد أناطور يرى في أول نشأة ولده أن عقل كلبه نحو أكثر من عقل ابنه ، فلم يقع في خلده أنه يأتي يوم يصبح فيه أناطور مفرداً علاماً يعلّم الدنيا ويشغل الناس .

وقد كان بين أناطول وبين أبيه اختلاف في المعتقد والذوق فكان والد أناطول يؤمن بالله مختلف عن هذا العالم ، وبروح مختلف عن هذا الجسم ، أما أناطول فإنه لم يؤمن بما وراء الطبيعة ولم يصدق كل ما يقال له . وقد شرع وهو طفل صغير في قلم الكتابة خاول أن يكتب في الالهوت والأخلاق فافتتح كتابه بهذا الكلام « ما هو الله » وعرض العبارة على أمه فأوزعت إليه في وضع علامة الاستفهام بعد الكلمة « الله » إشارة إلى أنه يسأل عن أمر يحمله ، فاستعنى وقال : أني أعرف الله ولا أستفهم وطال الجدال بينها وامتنع عن وضع العلامة .

قال أناطول : وقد تغير طبقي من ذاك الحين فاني لا أمتنع عن وضع علامة الاستفهام في كل مقام مناسب وقد أتعرض لوضع هذه العلامة في كل ما أكتب وأقول وفي كل ما أفكّر فيه . ولو تراخي أجد أمري لفالت لي « لقد جاوزت الحد يا أناطول » وفي هذا الكلام إشارة إلى أن أناطول يشك في كل شيء في العالم . فان فلسفة الشك ، ووضع علامة الاستفهام بعد الكلمة لامع إلى الشك ، على أنه يقول مهباً كان شيئاً الفلسفي فانا مصطرون إلى أن نعمل في الحياة كأننا لم نشك في شيء . فلم يكن مذهب أناطول الشك المطلق فهو يخشى هاتين الساحتين الجافتين « أنا أشك » لأن المرء إذا كان شك في الأمور وجب عليه أن يسكت فالكلام إثبات وأنطول لم يجرأ على السكوت والاعتزال فقد شاء أن يؤمن فآمن إلا أنه آمن بآن الأمور نسبة في هذه الدنيا .

كان أناطول يرى أن إيمان أبيه بالله هو الذي جعله متفاهلاً بالحياة ، إلا أن هذا الوالد كان مع تفاؤله سعيداً ويا قليل الضحك قليل الميل إلى المهزيمة ، أما أناطول فقد أخذ عن أبيه مذهب التفاؤل إلا أنه كان فرعاً في حياته على خلاف أبيه ، فقد نظر إلى الحياة من وجهاً الصحيح فلم

تفلب عليه السويداء التي غلت على أبيه ، ولا مثلك له الاوهام أموراً لا حقيقة لها ، فليس الدنيا على ما يقول حياة حسنة ولا حياة سيئة ، لا شيء شريف أو مميب في ذاته ولا شيء عادل أو غير عادل ، لذيد أو أليم ، صالح أو فاسد . واما الرجل هو الذي يجعل صفات الآثياء كما يجعل الملح طماً للماكل . هذا هو رأي أناطول في الحياة وهو يقول : من عانى طمعت نفسه فطلب المطالب وبقدر ما يحسب المرء أن مطلبـه حلو أو مر تكون الحياة في نظره حسنة أو سيئة . يالم الرجال لا يهم ليس في أيديهم ما يظنون أنه خير أو إذا صار إليهم هذا الخير خافوا ضياعه ، ويأملون أيضاً لاتهم يكابدون ما يظنون انه شر من الشرور فإذا بطلت هذه المعتقدات ذهبت آلامهم ، والناس سواء في عجزهم عن عمل الخير والشر فان الخير والشر لا أثر لها الا في الرأي . والعاقل من الناس يرى العادة والمصطباح أصل كل شيء . هذا هو معنى كلامه : الامر نسبية في هذه الدنيا » . وقد قدم أبو الطيب المنبي هذه الفلسفة في بيت فقال :

راعتكم رائعة البياض بعمرقى ولو أنها الأولى لراع الأسمى  
البشر في نظر أناطول هم الذين يستجلبون العذاب إلى قلوبهم ويدخلون الآلام على نفوسهم فاسمع ما قاله في الحزن وكيف عللـه :

« أشد ما يكون حذقنا باستجلاب العذاب إلى قلوبنا ، وأعظم ما تكون مهارتنا في جر الآلام إلى نفوسنا ، لقد خاعقنا آلامنا وتمعنـنا تقـعـها لما زيناـنا اللذة لحواسـنا . لقد ظهرـتـ منذ بدء الخليقة ونشـوءـ العالم امرأـةـ مـقـنـعـةـ اسمـهاـ السـويـداءـ ، ولـكـنـ فـلنـعـدلـ دونـ شـيءـ منـ الاـشتـطاـطـ قدـ أـضـفـناـ وـلـأـرـبـ بـعـضـ الشـيءـ إـلـىـ أـحـزانـ النـفـسـ وـلـكـنـ مـنـ نـصـبـ فيـ إـنـشـاءـ هـذـهـ الـآـلـامـ ، آـلـامـ الرـوـحـ .  
الـعـلـمـ لـاـ يـنـشـيـءـ شـيـئـاـ مـنـ السـعـادـةـ ، فـقـدـ قـطـفـناـ مـنـ شـجـرـةـ الـعـلـمـ وـأـكـلـنـاءـ ، وـلـمـ يـبـقـ مـنـهـ فـيـ الـأـفـوـاهـ إـلـاـ طـعـمـ الرـمـادـ . لقد مـشـيـناـ فـيـ مـنـاكـبـ الـأـرـضـ

وخلطنا أمّا ثق منها السود والحر والصفر ، وبان لنا اختلاف البشرية ، ورأينا أن هذا الاختلاف أعظم مما كنا نتصوره ، ووجدنا أنفسنا أمام إخوان أحباب لا تشبه أرواحهم أرواحنا إلا بقدر ما تشبهها أرواح الحيوانات ، ثم جلنا في الفكر كل مجال فقلنا ما هذه البشرية التي تتغير سحبها وأرواحها وآلهتها بتغير مبارياتها ، كنا لا نعرف من الأرض إلا حقوقها التي كانت تخرج لنا الخيرات وكانت هذه الأرض كبيرة في أعينا فلما عرفنا مقامها في العالم تصورنا صغرها ، فقد علمتنا أنها ما كانت إلا قدرة طين ، فوضع هذا العلم هنا ، وكنا محظيين على الفتن بأن أشكال الحياة والعقل كانت أعظم مما تتعذر لنا ، وأن في الكواكب والعالم عجائبها مخلوقات تفكر ، ففهمنا بعد ذلك أن عقلنا صغير . إن الحياة في ذاتها لا هي طويلة ولا هي قصيرة . والأغوار الذين يعيشونها بالنسبة إلى مدتها الوسطى يقولون والحق يقولون أن المرأة إذا ماتت بعد أن يخطئه الشيب فقد قضى لبانه من الحياة ، أما نحن فماذا صنعتنا ؟ فقد شئنا أن نحزر عمر الأرض القديم وعمر الشمس وهذا نحن الآن نقيس حياة البشر على أدوار حلقات الأرض وعلى أعمار العالم فرأينا بعد هذا القياس أن الحياة قصيرة ، غرقنا في بحر الزمن والمسافة فتبين لنا أننا لم نك شيئاً فقل علينا هذا الأمر ولم نشا أن نقول شيئاً بسبب كبرياتنا نفجينا واصفرت وجوهنا وانطبع الجلل أن إعانتنا ذهب بذهب جهالتنا الحسنة ذهب رجاؤنا وأضحل أملاكاً فلم نؤمن اليوم بالذي كان عزاء لأبائنا وهذا شديد علينا ، فقد كان الإيمان بجهنم نفسها يطيب ويعدب .

فإن الجمادات الحديثة قد جوزت خروب الأئماني فاستشارت بذلك كل مجدهد . وأصبح الزحام على الحياة والتنازع فيها أشد من كل دهر وصار الظافرون أحق ، والمنكرون أعظم انكساراً ، لقد أضعنوا حب الخير بضياع الإيمان

والرجل وكانت هذه الفضائل الثلاث تحمل الأرواح البالسة على ظهر هذا البحر بحر العالم ، فمن الذي يأتينا اليوم بالإيمان والرجل وحب الخير ؟ .. \*

كان أناتول سعيداً في حداهنة سنّه ولكنه يقول : السيد ، لا يعرفون أموراً كثيرة عن الحياة فاللام هو مهذب الرجال الاكبير واللام هو الذي عالمهم الفنون والشعر والأخلاق وهو الذي أوحى إليهم البطولة والشفقة وهو الذي جعل قيمة للحياة عندما يغامر الناس في حياتهم .

ومن كان متفائلاً بالحياة فأخلق به أن يكره الموت ، وبخاف شدته ، وأناتول من الذين يكرهون الموت قال :

كان الموت في كل دهر من الدهور مخوفاً فظيعاً ، ومهما قالوا لك لا يبني للمرء أن تأخذ المخافة من ظلمة اللحد وضيق الارماس فما الموت الا العدم فالرجل يحيي عن مقاومتهم هذا بأن الساعة الاخيرة غالباً القلوب خوفاً ورعباً . كان الاغريق يرهبون غم الضريح ويخشون هول الموت الا أنهم لم يقبعوه ولا شفعوه ، فإن مخاراتهم قد زينت كل أمر من أمور الدنيا وجعلت لقلع الحياة بهجة وروقاً أما القرون الوسطى فقد هولت علينا بatar جهنم وخوفتنا بمخارات كئيبة مستكرهة فصورت لنا شياطين تمر بنا فتفترع من بين جوانب المذنبين أرواحهم ورعبتنا بصور المقابر المهزنة وأشكال المياكل العظيمة والمديدان التي تأكل لحم الأجسام الفاسدة وعلى هذا كان الموت شديداً .

ولم يذهب هول المقابر الا في القرن الثامن عشر فقد كانوا يحملون في أعلى القبور الاولاني المستطرفة والرياحين والازاهير فكانت هذه القبور زينة بساتين الانكليلز وحدائقهم .

لم تفجع باريز وحدها بـأناطول فرنس وإنما فجعت به البشرية برمته ، لأن أناطول رجل الإنسانية وليس حظ وطنه منه بأوفر من حظ العالم بأسره . يقول أناطول : لا يكون الواحد منا إنساناً إلا إذا أشفق على أخيه ، ولا يليق بنا أن نتجاهل جمود صخر فلتشقق على الصعفاء لا... يملون من الأقواء ، ولترأف بالسعداء في هذا العالم فقد جاء في الكتاب « ويل للذين يضحكون » .

كان أناطول شفيراً على الصعفاء وقد بلغت به شفنته المبالغ فكانت عطفه على الصعفاء الذين يملون من الضماد مثل عطفه على الصعفاء ، الذين ينشأ ضعفهم عن أعصابهم فيذهبون في الحب كل مذهب . التف الكساندر دوماس رواية بحث فيها عن مقتل رجل لزوجته نتروجها عن المقاوم . قال أناطول : لو كنت قاضياً لما برأت القاتل من جنائيته اللهم إلا أن يطبق أطباء الشرع على أنه مصاب بفالج في جملة أعضائه ، ولا عجب في ذلك ، فإن قتل المرأة لأمر عجب وهيأت ما يطاق الذين يحيطون على أشياء هذه المذابح . لا ريب في أن زوجة هذا القاتل كانت فاسدة أخلاق ، ذات غرائز سيئة ، ولكن هل نسأل عن غرائزها ، ألم يكن للتربية والميراث تأثير في أعمالنا . فمن موجب الأسف أننا نولد معوجين لا سبيل إلى هؤم اعوجاجنا ، إننا نولد شيئاً لا شيئاً . لو فكر القاتل في المناصر التي تؤلف جسم زوجته الطيف لا حطم هذه الآلة الدقيقة ، ولكن غفر هذه الروح المظللة جنابة أعصابها . ودمها . اسمع ما تقوله الفلسفة الطبيعية في شعرها : إن لا مور الحب أسراراً غامضة ، إن غرائز المقدمين التي كانت في الأصل تجتمع في بطون الغاب بين أطراف الأبدان المعاشرة هي نفسها التي تلقى اليوم المرأة تحت ثيابها النفيضة . ما فتئت المرأة تحفظ دم حواء الغابات الكبيرة على عليها بالخلف ، وحرصها على القوانين » .

يعرف أناطول كل ما يستوجهه الأدب ومعاذ الله أن يدخل عنه ، ولكنه يرى أن الرقة هي أحسن الفضائل وأن الفلسفة الطبيعية تعلم المساعدة وفضلاً عن ذلك فإذا جاء أمر الحب فلا تجده إلى التمييز سبيلاً : « حبك الشيء يعمي ويصم »

الحب في رأي أناطول فرنس هو اللذة التي تحمل الأنواع الحيوانية على التزاوج والتناسل ، فهو عنده عزلة بقاء النوع عند عامة التاريخ الطبيعي ، وقد أطلقه في كتاباته فهو في نظره أقدم الآلهة .

« ولد هذا الإله لم يكن في العالم أمر من آثار العدل والعقل فلم يجد هذا الإله التمس شيئاً يخلق به دماغاً وعيوناً وأذاناً . ولد أعمى فهو الآن على الصورة التي ولد عليها وسيبقى على هذا الشكل في كل دهر ، يعمل فيigkeit في أعماله خبطاً دون شيء من الروية ، أول نظرة على أعماله أنها عظيمة ! لقد خلق كل شيء ولكنه خلق بغير عقلٍ ولا فهم ، لقد برأ في أول الأمر حيوانات لله درها من حيوانات ! أنه خلق أصدافاً وأسماكاً وزواحف ، وقد كان هذا الإله يومئذ يعيش في الماء ثم حسن على سبيل الإنفاق والتدرج طرائفه خلق الحيوانات البدنة ، التي أتعبه وأوجهته ثم خلق القردة فبقيت القردة زمناً طويلاً آياته الرائعة ، وقد خلق الإنسان بعد القردة فلم يغير هذا الإله من طبيعته ، ولم يبدل من طريقته ، فبقي أعمى كما كان ولم يستعن بالعقل وإن يستعين به سجينيالي وهو عق في ذلك لأن الحياة سرعان ما تنتهي فإذا كان ثرها معقوداً بالعقل .

إن هذا الإله أعمى ولكنه يقودنا والشر كل الشر في ذلك ولكنه شر أبيدي ، لأن الحب يدوم ما دامت العوالم ، إننا نقاومه ونستولي عليه إذا كان أضعف منا ، ولكنه إذا اشتد استولى علينا وهذا ما يسموه :

منازعة الموى ومثل الارادة والغريزة كمثل كفني ميران فالكلفة القليلة  
هي التي ترجح وتعيل .

هذا هو الحب في نظر آناتول فرنس فقد كان سبب حياة الحيوانات  
من أدناها إلى أرقاها ، وهو غريزي في البشر من مبدأ الخلية الى منتهاها .  
وهذا ما حمل آناتول على الرأفة بالفاجرة التي خرجمت عن العفاف لانها  
لم تخرج عنه الا بعوامل غريزية متمكنة من لها ودمها وأعصابها فلا  
 سبيل لها الى التخلص منها . . . .

فُلت في صدر الحاضرة كان بين أناطول وبين أبيه اختلاف في المعتقد وقد امتد هذا الاختلاف إلى الذوق فقد كان أناطول عيل إلى النمط المدرسي ، ما هو النمط المدرسي ؟ بعد أن هممت شأبيب الثورة الفرنسية ولدت عوارضها انفجرت ثورة أديبة خلقية قلبت طرائق التفكير والحس وأسمى النمط الوجداني بدأ بها مدام سنال وشاتوبريان وتجسست في أربعة شعراء كبار وهم : لامارتين وموسه وفبني وهوغو كان المدرسيون أمثال الشاعرين يوالو وراسين يرون أن يمثلوا في فنهم جمال الحياة ويعتبرون العقل في الشعر الملكة الغابية ويقتبسون عن التاريخ القديم نماذج فنهم ويستنزلون وحيهم من سماء الأئم المتقدمة خخرج الوجودانيون على هذه القواعد بمخالفتها وهدموا بناء المدرسيين ، فرأوا أن يمثلوا في فنهم كل ما هو شنيع ومضحك في الحياة ، وأن يكون الخيال الملكة الغابية ، وأن يستنزلوا وحيم من أدب الأمم المصرية فأخذوا عن غبتي وشلائر وباريون وشكسبير ، فبدلاً من أن يكتبوا عن أساطير الاولين كتبوا عن الفن النصراوي في القرون الوسطى .

فأنا نول فرنس كان يميل الى الفن المدرسي اي انه كان على النمط القديم ، وله في النقد اسلوب خاص فهو من فرقة النقد الذاتي فانه يغتنم فرصة ظهور كتاب من الكتب فيفصح عن خواج نفسه ، ويعرب عن

رأى مخامر ضميره وقد جمع رسائل تقدّه في أربعة كتب سماها «الحياة الأدبية»، نكاد هذه الكتب تكون معلمة يرى أنّاتول أنّ النقد إنما هو ضرب من الروايات على نحو الفلسفة والتاريخ تستعمل العقول الفطنة الظلمة وكل رواية إذا فهمناها كل الفهم إنما هي ترجمة المؤلف بقلبه، فالنقد الحاذق هو الذي يروي خواج نفسه في أثناء روائع المؤلفات وهذا الطراز في النقد يسمى النقد الذاتي، قال أنّاتول: «لا يوجد نقد موضوعي أكثر مما يوجد فن موضوعي»، وكل الذين يتبعجون بأنّهم يضمون في مؤلفاتهم شيئاً غير لواعج أنفسهم فهم واهمون، فالحقيقة ان المرأة لا يخرج من نفسه إنما وهذا من أكبر شفاء الإنسانية.

اننا محبوسون في أنفسنا فكأننا في حبس أبدى ، فالذى يليق بنا  
أن نعمله هو أن نعترف بحالتنا الفظيعة ونقر " بأننا تكلم على أنفسنا كل  
ما عجزنا عن السكوت فإذا كان الناقد حرّاً وجب عليه أن يقول :  
« سادتي أني أريد أن أتكلم علي » في أثناء كلامي على شكسبير  
أو باستيل أو باسكال أو غيبي فان في ذلك فرصة جميلة » .  
قال أناقول : تعرفت إلى السيد كوفيليه فلوري وقد كان ناقداً قدماً ،  
وفي ذات يوم انطلقت نحوه وهو في داره الصغيرة فأراني مكتبه الحافرية  
التي كان يفتخر بها وقال :

يَذَّلِّلُ بِعَصْرِهِ وَمَنْ . كَالبِلاَغَةِ مَكْتَبَةٌ هَذِهِ فِي الْأَنْوَاعِ مِثْلَهُ كُلُّ الْأَنْوَاعِ لَتَجِدُ إِفْكَ سَيِّدِي « ، وَكُلُّ الْأَنْوَاعِ يَحْبِطُهُ كُلُّ الْأَنْوَاعِ ، وَالْأَدَابِ الرَّفِيعَةِ وَالْفَلْسَفَةِ وَالتَّارِيخِ مَا خَلَا النَّقْدَ فَانِهِ يَحْبِطُ كُلُّ الْأَنْوَاعِ ، نَعَمْ يَا سَيِّدِي فَالنَّاقِدُ يَكُونُ تَارِيْخَ حَطِّيْمَاً ، وَتَارِيْخَ فِلْسَوْفَاً ، وَتَارِيْخَ مُؤْرِخَاً ، لَقَدْ أَصَابَ السَّيِّدَ كَوْفِيلِيَّهُ فُلُورِيَّ فِي كَلَامِهِ فَالنَّاقِدُ يَجْمِعُ كُلَّ هَذِهِ الصَّفَاتِ أَوْ أَنَّهُ قَدْ يُعْكِنَهُ جَمِيعًا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَبْرُزَ أَنْدَرَ الْقَوَىِ الْعَقْلِيَّةِ وَأَشْدَدَهَا تَنوِّعًا وَأَخْتِلَافًا أَمْكَنَتْهُ مَنَاهِزُ الْفَرَصِ ، وَهُوَ يَعْمَلُ تَارِيْخَ الْبَشَرِ الْعَقْلِيِّ

من دون أن يخرج من نفسه ، فالنقد من حيث التاريخ هو آخر صيغة من الصيغ الأدبية كلها وربما وصل إلى استغراق هذه الصيغة كلها فإنه يلين كل الالاقية بالخاعة الممدة التي تكون ذكرها كثيرة وتقاليدها طوبية وعلى الخصوص فإنه مناسب لاجماعات الطلائعة ، المتعلمة ، المصقوله ، وتقدم النقد يستلزم تقافة أكثر مما تستلزم كل الصيغ الأدبية الباقية . يتندع النقد موئنان وساينتوف وبييل ومونتسكيو فإنه يتحدر من الفلسفة والتاريخ وقد استوجب اقتشاره وترقيه جيلاً أطلق فيه الحرية المقلية » .

هذا هو نظر أناتول فرانس في النقد وقد كان تقدّه أشبه شيء بأحاديث يطارحها أهل وخلفاءه وكان يسير فيه سير المتنزه . فيقف حيث يطيب له الوقوف ويسترسل إلى أذواقه وخيالاته على شرط أن يكون في هذا كله صادقاً ، أميناً ، رؤوفاً فلا يريد أن يمرف كل شيء ولا يشاء أن يفسر كل شيء ويعتقد باختلاف الآراء وتبادر المواطض ويتكلم على ما يجب أن يحب .

شفف أناتول فرانس بالتعط القديم شففاً عظيماً ، فانظر إلى رأيه في هوجو وهو من أكابر الشعراء الجددin :

« لا جرم أن علاج هوغو للكلامات كان أكثر من علاجه للافكار فقد ظهر أنه أدمج في اسمى الفلسفات طائفة من الخيالات والاحلام متقطعة مبتدلة ، والذي يقولنا ويفزعنا أنها لا نرى في تآليفه الكبيرة بين الكثير من أشخاصه الغليظة صورة بشرية . قال الاغريق : الرجل مقاييس كل شيء إلا أن فيكتور هوغو جاوز كل قياس لأنّه غير انساني ولم يكتشف له فقط سر النقوس . لم يخلق هوغو ليفهم وليرحب ، وقد شعر بذلك من غير ربه وهذا فقد أراد أن يدهش الناس وقدر على ذلك حيناً من الدهر طويلاً ، ولكن هل يستطيع المرء أن يدهش غيره في كل وقت . عانى

فيكتور هوغو تماماً تسکره اللوان ورنات الاصوات وقد أسر العالم بذلك . هذه هي عبقريته كلها ، انه ذو أفكار غريبة وانه متفانٍ منقطع النظر وهذا شيء كثير ولكنه ليس بكل شيء .

هذا هو رأي أناتول في هوغو فإن أناتول شفف بلغته القديمة ، وذهب في الحرص عليها كل مذهب ، وولع بغيرات اللغة لأنّه يرى في اللغة صورة وطنه وقومه من قديم الدهر وحديثه ، ومرأة تدعى فيها حضارة أمته ، فاللغة ملكت عليه عقله وأبهه فهو يحب معجمات اللغة لأنّها تحتوي على شيء جميل نعم فقد قال :

« انظر إلى معجم غازيه أو غيره من المعجمات ، وتصور انك ترى روح وطننا في هذا المعجم ليتصور ذهنك أن في هذه الصفحات عبقرية فرنسية وطبعتها . ليتصور ذهنك أن فيها أفكارنا وأفكار آجدادنا ، وأفراحنا وأفراحهم ، وأعمالنا وأعمالهم ، وألامنا وألامهم ، ليخطر بالك أن في هذا المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، آثار الذين استنشقوا الهواء الصالح وشموا النسم الرقيق الذي نشهده اليوم . ليخطر بالك أن كل كلمة في المعجم يقابلها فكر من الافكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عددهم ، وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمّور من الناس لا يحصى مقدارهم ، ليهوس في صدرك أن كل هذه الكلمات المجموعة إنما هي لم الوطن والبشرية ودمها وروحها » .

بحث أناتول فرانس في كتابه « العبرية اللاتينية » عن لغة الشاعر لاوفونتين فقال :

كان لاوفونتين يواع بالكلمات ويعرف كيف ينتجهما ، ولا يكون المرء كاتباً إلا إذا حسن اختياره لللفاظ . فالكلمات هي أفكار ، ولا سبيل إلى الاصابة في الحكم إلا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة . وأنّ أن الشعب الاول في العالم إنما هو الشعب الذي يملك أحسن الاصول (٢٨) حما

في النحو وتنبيه الماء . وقد يقع في أغلب الحالات أن الرجال يتناحرُون  
إسب كات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض اتفاقوا .  
ولا شيء يعمل على رقي المقال البشري مثل معجم يضي " ظالمة  
كل شيء .

أني لا أجد عنا في بيان المأخذ الذي أخذ عنها لا لافوتين أسلوبه ،  
لقد أخذ عن المتقدمين من الشعراء والقصاص ، يحب لافوتين المباريات  
القديمة فإذا وقع نظره على كلية قديمة حزلة المعنى استخرجها من موضعها  
 واستعملها في شعره في المقام المناسب وقد استعمل أيضاً في أشعاره عدداً كبيراً  
من التعبيرات التي استعملت في عصر غير عصره ، ولكنه أعاد إلى هذه  
العبارات شبابها .

فلا ينبغي لنا أن ننفع شيئاً مما يمكن أن ينفعنا ، وهذه حركة  
افتراضية تتعلق على كل الخيرات ، فهي تتعلق على خيرات اللغة كما تتعلق  
على غيرها فإذا أمعنت كلية طيبة الأصل معناها الأول وأصبحت لا تستعمل  
إلا في معناها الخاص أو في معناها المحرف ، فجدير بالكاتب الحكيم أن  
يعيد إلى هذه الكلمة سعة معناها الأول وفتحه وعلى هذا مishi  
راسين ولافوتين . ثم قال :

يتبع لنا أن لافوتين الذي استعمل هذه الكلمات كلها لم يخترع شيئاً  
منها ولعلم الإنسان أن حذف الكتاب هو في الأعم من الأحوال قليلاً  
الجليل إلى توليد الإفاظ ، فإن كنز اللغة المشترك كاف وهذا الكنز  
لا ينبع فيه الذين يكتبون على السواء ، فكثير منهم لا يجدون فيه  
ما يحتاجون إليه إما لكتابهم وإما لفقدان عبريتهم . أما لافوتين فقد  
استخرج منه كنوزاً .

وبعد أن أشبع أناطور الكلام على لغة لافوتين قال :  
« أني لو أن آراني هذه تقويم في بعض المقول عجبة لغتنا ، لقد  
تغيرت هذه اللغة مرات كثيرة ، ولكن لم تغير إلا عاستها . لقد تقوى  
أسراها ، وابتسط أفقها وأنساحتها كل نشء من عنده بكلمات تدل على

أفكار وعواطف وأفراح وألام وعلى عبود ملايين من الناس ، لقد جاءت  
الينا على هذا النحو متربعة الجوانب من قرن إلى قرن ، وهذا الميراث  
الوطني عزيز على كل النفوس التي تحب وطنها .

\*\*\*

هذا بعض ما قيله الخاطر وتصوره البال من آيات أناطور فرنس ،  
وما ذكرته إنما هو غيض من فيض . وأئن فاني كثير من صوب عقله ،  
ونسج طبعه فلا يفوتي حفظه لغة قومه في القرن العشرين ، ودعوه  
شباب وطنه إلى محبة لغتهم . فقد ملكت عليه لغته مشاعره ، أحسن لها  
 ولم يسيء ، وبرّها ولم يعوق ، وأشفع عليها ولم يك جياراً عنيداً ، ولم  
ر فيها رأي طائفة من أدبائنا في هذا العصر رغبوها عن لغتنا القديمة كل  
مرغب ، وانقضوا عنها كل منقبض على أنه ما دخلت الآباء لآباء ،  
ولا أبقيت المأوى للاحيا شيئاً أفضل من هذه اللغة . وأئن عيّنت الأيام  
بمديد ملكنا فانها عجزت عن العيش بغيرها الوطنية وهو اللغة . حارعت  
لغتنا لغات شتى كما قالت في آفاق الشام من قديم الدهر<sup>(١)</sup> فصرعت هذه  
اللغات بحذا فيرها ، بعد أن سلبت حضارات أهلها أجمل جمالها وأحسن  
حسنها وتمكنت في ربوع الشام وكثير من بقاع الأرض تكن الاحياء  
الذين صار عتهم الطبيعة وصار عوها ومارستهم ومارسوها فبحرت عنهم فتركتهم  
وأشأنهم يستضيئون بضيائهما ويستنشقون من نسيئها ، اشتغلت لغتنا على بدأوة  
الجاهلية وحضارة الاسلام . واستواعت شدة بني أمية ورخاؤة بني العباس .  
وأئن درست رسومنا وطممت آثارنا فأضاعنا ما أضاعنا فقد بقي لنا رسم حفظ  
انا ما قدفت به الخواطر وجاشت به الصدور . فرحم الله أمره ألمد هذا  
الرسم وتقادمه ، فزاد في محاسنه ونقص من مقابله !

دمشق : كانون الثاني ١٩٢٧

—

(١) الـ نظرـة عـلـى الجـزـء الـأـوـل مـن خطـط الشـام الـأـيـادـيـة المـلـامـة عـمـدـكـرـدـ عـلـي دـيـسـيـسـيـسـيـاـلـيـ ، وـنـدـبـرـ فـيـه فـصـلـ « لـغـاتـ الشـامـ » الـبـارـعـ .

من عهد إلى عهد ، ومن عهد إلى عهد ، ومن بلد إلى بلد ، تحمل في طوابيتها نفحات الحكمة المشرفة العالمية ، وعطاور الأزمنة البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الإنسان ، لأنها ظاهرة طبيعية من ظواهره : كالفنون والشعر والرقص فلا تعرف لها أواية ، ولا تحدد في الفنون ظواهرها علة . ولكن علماء الأساطير يزعمون أنها نشأت في الهند ، وهاجرت منها إلى بلاد الفرس ، ثم رحلت إلى بلاد العرب ، ثم استقرت بها النوى في أقطار الغرب ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتقسم بمحات المقيدة .

وأما أبطالها الذين وجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونماذجها أبطال التاريخ توب الخلود ، فقد كان بعضهم ولا شك حظ من الحياة ، وشهرة يلازمها الاسفار وملاسسة الغير ، فتحدث الناس أولاً بما فعلوا ثم سرجوا حول أسمائهم وأبنائهم الاكاذيب والاعاجيب حتى أصبحوا أعلاماً على شخصيات متغيرة في البطولة وال Herb والحب والحبكة والكرم : كددع وليلي في الشعر . وأبكي نواس وجحا في التنادر .

أما أكثر الابطال فمن خلق الجنان ، ابتدعهم رموزاً للمثل الأعلى ، أو الفدر المايت أو الجد المايت ، أو السلطان الجائز ، أو الهوى المسلط ، أو الامل الآسي ، أو الحظ السعيد .

وعلى ذكر الطفولة ومناغيات الأمومة أراكم ولا ريب تركته وهي من طلاوة الحديث وجاذبية الحادث وبشاشة الحديث في حال لا يصف الشعور بها غير الشاعر ، ثم لا يليث هذا الرحيم العجيب أن يخدر الأعصاب الطفلية الرقيقة ، فتفقد تحت جناح الكري ، وتسمع بقيه الحديث الشهي في الحلم !

أنا كذلك يا سادي ذكرت حين كتبت هذه المعاور - هانك

## الفيلمه وليلة

« ساروخ حياتها »

### المؤسس لأمر من الزيات

ينطأ الدهر دائمًا في وناء وكمبريا وصمت ، فيعفو الاز ، ويغري الحجر ، ويرى الحديد ، وثال يده العاشرة كل شيء في حياة المرء بالتشير والنقص ، إلا شيئاً واحداً يلوذ منه بسود القلب فيستقر في قراره ويكون السر في دخلته وإضماره ، أريد به ذكريات الصبي ، وأحلام المداعنة ، فهي باقية والجسم يتخونه البلى ، ثابتة والعيش نزعزعه الاحادات ، ناضرة وللنبي يصوّحها اليأس ، مشرفة والنفس يغشاها من الهم ظلام وسحب ، فمن منكم يا مادة لا يذكر أول بيت أبصر فيه الوجود ، وأول معلم عرف فيه الرفيق ، وأول مكتب رأى فيه المعلم ، وأول موعد لاق فيه الحبيب ؟ ومن منكم لا يذكر ساعات السحر الزيادة المداعنة ، في غرفة النوم الوريرة الدافئة ، حيث كان أطفال الأسرة يتجمعون حول الحدة الحنون ، أو الأم الرؤم ، أو الفائز الحافية ، فينستون في سكون وشوق إلى ما قصه عليهم من رواية الأشجار ، وبدائع الأقاصيص ، وممن طلاوة الحديث وجاذبية الحادث وبشاشة الحديث في حال لا يصف ذكرها ، وتصيخون إلى ذلك الصوت الحنون ، ينبعث خافقاً من أحصار الماضي القريب أو البعيد ، مردداً أسماء أوائل أبطال الذين طالما اكتنأتم لاكتنابهم ، وتألموا لاصابتهم ، وشاركتنهم بالمعطف في نهاء الحب ، وبأنباء الحرب ، ولا واء الخطاب : من أمثال حسن البصري ، ونور الدين المصري . واساطير محمد ، والشاطر حسن ، إلى آخر ما سجلتهذاكرة

هذه الأقاصيص الشائقة التي كانت لمقوانا الصغيرة سحراً ، ولعواطفنا المشبوهة سكرة ، ولقلوبنا الغضة فتنة ، هي نوع من الاحلام والأمنيات تراثت في ايل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن القديم ، وتنقلت

القبور التي ضمت هواي ، ورقة صباغي ، ونوعاً من الحنان والاخلاص لم أدق له طعماً منذ عاشر في هودة البلي منبعه . . . . . نعم ذكرت شيئاً آخر : ذكرت بحلي من مجال الائنس في القاهرة كانت جمعة القلوب ، وألفة النفوس ، ومستجم " الخواطير ، فعصفت به روح المدينة الحديثة ، ذلك منظر الحدث أو القساس أو الشاعر في مقهى الحي وهو في حلمه الشرقية المفوقه العنايف ، فوق صفة الخشبية البالية العالية ، وقد تجمع بين يديه ، وعن يمينه ، وعن شماليه ، أوزاع العامة ، وشيخوخة الخلة يستجذرون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية ، وتدخين الترجيلة العجيبة ، وتبادل المواطف الاخوية ، ثم الاصناف المشتركة إلى « أبي درويش » وهو يقص بصوته العريض المتند ، وجرسه المحادي ، المترن — حروب « عترة » أو « قائع » « أبي زيد » أو « مخاطر » ابن ذي بزن » في neckline بقوه تثنيله أو بحسن ترتيله ، على جناح الخجال — إلى عصور هؤلاء الانطلاع ، ويشهدون بعد البطولة وسلطان الحب وفتى السحر وبطش المردة . ثم رى الخبيث أن فورة الحماسة أو الشوق قد طفت في النفوس لوقوع البطل في أسر أو شدة ، فيسكن ليجمع النقوط من الشمار والناظار فلا يجد هؤلاء متذوقة عن تمجيده ليجعل هو إلى إطلاق البطل من إساره ، وإيقاد الجهور من شدة قلقه ومرارة انتقامه . . . .

وفي ليلة من هذه الليلات الظاهرة تجدون هذه القهوة ذات الغزو الشاحب ، والسمت الحالم ، والمنظر الكثيف — قد خفقت فوقها الرایات ، وأشارت في جوها الزريات ، وتهالات في سمائها المصايبخ ، وأخذت زخوفها بالسامرين ، وقد جلسوا متقابلين على الدكاك العالية يطوف عليهم غلام بأكواب من ذوب السكر المعطر بعاء الورد ، وصاحبنا الحدث قد خرج إلى القوم بتهدى في عمته المكورة وجبهه المتصفرة وقفطانه الاينق الأسفر . وقد تذلت من حزامه الحريري ذلاذل تنوس على بطنه المتنفس الضخم . فإذا استوى على عرشه المنجد — توجه البخور من جانب

وكضوعت العطور من جانب ، ثم خشعت الاصوات ورفت إليه العيون وأنشأ بحدوث . فإذا بدا لاحد أن يسأل بعض الحالين عن سبب هذا المهرجان عجب أولئك من أنه لا يعرفه ، ثم أجا به بلهجة البخور المازه : هذه ليلة زفاف عبلة إلى عترة . . . فإذا كانت القصة قصة بني هلال — وجدتم هذا المهوى الجمیع قد استحال إلى عصبية شنيعة . ورأيتم إخوان الائمه قد أصبحوا أعداء اليوم : فطائفه تعصب ببني هلال . وطائفه تعصب ببني زنانة ، وهؤلاء يريدون الشاعر على أن يقص واقعة . وأولئك يسألونه أن يقص أخرى ، والشاعر لا يحب إلا من يحصل له العطايا . فإذا رجحت كفة وشالت كفة أخذ يروي من ذاكرته وغيمه — على هوى الفضة الغالية ما لم يسجله تاريخ . ولم يدونه كتاب . فيزور الغرائب ، ويختلق الواقع ، ويقعن مما حزنه في حافظته — من مختلف الانتماء ورقائق الاشعار ليحوك منها للبطل حلة هز العجب في قلوب أشياعه ، وتذهب الغيرة في صدور خصومه ، فابما ذفتحة أخرى تميل به إلى الجهة الثانية ، وإما معركة بين الحزبين تكون هي الفاضية .

هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتراءبة ، هذا الرجل الذي ينام النهار ويجلس الليل يحدث أربع ساعات متتابعة ، هذا الرجل الفكه الباقي الحافظ الوعاظ — هو الائز التاريخي والمودع الحقيقي ، لذلك الفصاص البارع الذي خلَّف لنا كتاباً العالمي الخالد « ألف ليلة وليلة » يرجع تاريخ هذا الفصاص يا سادة إلى صدر الاسلام ، والفضل في وجوده كان أيضاً لاقرآن الكريم . فقد اشتغل كما تعلمون على بمحلات من أخبار القرون الخالية والنذر الأولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفاصيلها — من أسلم من أهل الكتاب كتعيم الداري ووهب بن منبه وكعب الإيجار وبعد الله بن سلام : فكان هؤلاء ومن أخذ منهم يجلسون إلى الناس في المساجد ، يفصلون ما في كتاب الله من قصص الائبياء ، ويسررون في ثمويل هذه الائبياء ، ابتغاهم للعبرة ، والتجسس الموجة ، ووافق هذا الغرض من الوعاظ هوى النفوس فازداد إقبال الناس عليه ، وكثير الفصاص الواقف فيه ،

المتعصبين من الفرنك ، فطلبهم العامة تفريجًا للكرب ، والخاصة تشجيعها على الحرب ، ولكنهم كانوا في مصر أربع صناعة ، وأنفق بضاعة ، وأرفع مكانة ، لأن طبيعة إقليمها ، ونظام اجتماعها ، وطبع سكانها كانت تمثيل على ذلك : فهي قطر زراعي مأهوم الرقعة ، متصل العماره ، يوجد بالخير الكثير ، على الجهد القليل ، فكان لذلك أهل قليلي الأسفار يؤمنون بكل خبر ، كثيري البطالة ييلون إلى الله والسر ، وكانوا لا يفكرون بين يسر متذوق طلق - إذا عم الفيضان ، وعدل السلطان ، وافتقد الموت - وعسر متوجه كنز - إذا خش الذلة ، وألح الوباء ، وبغي الحاكم - وعلى الحالين كان السامر أو المسامر عنصرين من عناصر الحياة ينتشران بهجة العيش في الرخاء ، ويسرّيان كربة النفس في الشدة .

وكان أول من تولى القصاص الرسمي في مصر سليمان بن عبد النجبي سنة ٣٨ تولاه مع القضاة ثم أفرد به ، ثم تعاقبت القصاص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والمفرض ، فكانوا أصدقاء للعقبيدة ، وأبواباً للسياسة ، تسمع منهم في كل عهد لهجة ، وكل دولة سندًا وحجة . وترون ذلك أقوى ظهوراً في عهد الفاطميين . فقد كان « يعقوب بن كلاس » وزير المعز يعتمد على المآذن في نشر فقه الشيعة ، وعلى القصاص في جذب القلوب لأهل البيت . وكان مقتل الإمام « علي » ومأساة الإمام « الحسين » موضوع المذاهب والسوامر في شهر رمضان والمحرم . وقيل أن ريبة حدثت في قصر « العزيز بالله » ، فتناقلتها الأفواه ورددتها الأئمة فطلب إلى شيخ القصاص يومئذ « يوسف بن إسماعيل <sup>(١)</sup> » أن يلمي الناس عنها بما هو أروع منها ، فوضع قصة عنترة ونشرها تباعاً في اثنين وسبعين جزءاً سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين إلى

حق عزدم أمير المؤمنين علي من المساجد ، ما خلا الحسن البصري . ولكن دهاء السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول وقوة آثره في توجيه الميل - فاتخذوه لساناً الدعاية وسبيلاً لافعال الأحاديث . واحتكاك الأقاصيin في الأغراض الخزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية فولى رجالاً على القصاص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم دعا بالخطيئة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحربه . وكانت هو إذا اقتل من صلاة الفجر جلس إلى الفاسح حتى يفرغ من قصصه ، وكان ولاته وقواده يقدمون القصاص في بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ، وجراه فيه من حربٍ من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٧٧هـ أن عتاب بن ورقه سار في أصحابه قبل المعركة بمحرضهم على الفتال ويفسّر عليهم . ثم قال : أين القصاص ؟ فلم يجيء أحد . فقال : أين من روي شعر عنترة ؟ فلم يجيء أحد .

وسار الشعر والقصاص في ركب السياسة جنباً إلى جنب يشهان على الناس وجوه الرشد ، ويعوهان على العقول صور الباطل ، والقصاص كانوا في ذلك أشد وطأة على الحق ، لأنهم ينسبون ما يفترون إلى التاريخ أو إلى الدين . فلما هدأت نيرة الأحزاب ، وسكنت طائرة الفتن ، ونضجت العقول ، عاد القصاص إلى المسجد ، فوجد الواقع قد علبه على مكانه ، والعالم قد فطن إلى كذبه وبهتانه ، والخلفية قد استغنى عنه برواته وندهانه ، فانتقل إلى العامة يسامرهم في أيامهم وأعراصهم بما أثر من أيام العرب ونقل من أساطير العجم ، وروي من أخبار الفتوح .

وانتشر القصاص في المواصم المربية حتى صاروا ظاهرةً من ظواهر اجتماعها ، وحاجةً من حاجات عامتها ورعايتها ، واشتبدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهي على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعد ذلك : من عنت المسلطين من السلاجقة ، وعصف المغول ، وغزو

<sup>(١)</sup> وقبل انه الشاعر الطيب او المؤيد محمد بن الصانع الخوزي . ومن قال بهذا الرأي الاستاذ كوسين برسينا الذي طبع هذه السيرة ملخصاً في ماريس

اليوم وهي الراذة العرب لا ينزعها هذا الشرف إلى الآن عمل في آخر .  
وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته في بغداد  
والقاهرة . في عهدى « المقتدر بالله العباسي » و « العزيز بالله الفاطمي » ،  
كان القصاص الحكميون والشعبيون يحتشدون لوضع الأخبار ، ويتنافسون  
في جمع الأخبار ، من الوراقين والوحالين والعامرة .

ولكن القصص في العراق كان من عمل الكتاب ، يصورون فيه  
أفضل عواطف الناس ، وأجمل مواقف الحياة ، ويلقوه زهوراً وعطوراً  
في مجالس الخلق ، وسوامر الملوك ، فكانت بلاغة الحديث وجلالة السامع  
وبناء الموضوع تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر ، وتتراء بها  
إلى السليقة العربية المحيرة على الإيجاز والقصد في الشعر والخطاب  
والرسائل والقصص .

فما جمعه ووضعه « الجشباري » و « ابن دلان » و « ابن العطار »  
في القرن الرابع من الأقاصيص في الحب الطروب ، والترف المسرف ،  
وما وضعه من قبل هؤلاء « سهل بن هرون » و « علي بن داود » ،  
و « أبيان بن عبد الحميد » من الأسماك في الأمثال الرمزية والحكمة العالية  
والسياسة الرشيدة ، وما صنعه من قبل هؤلاء « عيسى بن دايب » و « هشام  
الكري » و « الحبيب بن عدي » من الأجيال في الهوى العذري والسخاء  
العربي في الإسلام والجاهلية — كل أولئك موسوم باسمة العقلية العربية  
الخالصة من حذف القصوص وترك الاستطراد وقلة المبالغة .  
أما القصص في مصر فكان غالباً من عمل القصاصين والمسارعين ،  
يلقونه من الكتب ، ويتلقفونه من الأفواه ، ويحددون به الدهاء في المجالس  
العامرة . ورزق هؤلاء القصاص على قدر ما عندهم من القصص . فإذا  
ما انقطع أحدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسباب العيش ، فهم  
لذلك مضطربون إلى تطويل الموضوع بالاستطراد . وبسط الحديث بالتزيد ،  
وجذب القلوب بالغريب والبالغة .

ومن ثم اتخذ الأدب القصصي في مصر شكلًا لا عهد للأدب العربي  
به ، ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة رومان « Roman »  
في اصطلاح الفرنك ، فإن المعروف الشائع من قبل — إنما كان المثل  
، Fable ، والقصصية « Conte » والحكاية « Nouvelle » وهذه  
الأنواع قد تولد بعضها من بعض على نحو ما يرى الاستاذ « بروتيير »  
الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب « داروت » على أنواع الأدب ،  
فالقصصية نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من القصصية ، والقصة  
نشأت من الحكاية ، باتساع المجال ، و فعل المبالغة ، وحكم الزمان .  
ولكن القصة العربية قد تأخر نشوئها إلى القرن الرابع حتى ظهرت  
بعصر ، لأن عملها يتطلب التعليل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف  
الشعوب ، والعرب في عهودهم الأولى كانوا أبعد بطبيعتهم وعبيتهم عن  
هذه الأمور ، ثم كانوا في عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة  
بأنهم فيضطرون في حضرة الملوك أن يراعوا أدب الحديث فلا يفرقون  
في الحادث حتى يحاجب العقل ، ولا يسيرون في السر حتى يجاوز المجلس ،  
ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق ، أما القصاص المصري فقد  
تهيأت له الأسباب الازمة لخلق القصة : كان سمير الأوزاع والعامرة فلم  
يقيد معهم بقوانين الخلق ، ولا يقتضي المتعلق ولا بوقائع التاريخ ، فهو  
يصطعن الأوجه الصريحية ، ويستعمل الألفاظ القبيحة ، ويبالغ في الخلط  
والتفريق ، فصدأ إلى الأغرب والتشويق ، ويعتمد غالباً على المفاجآت القوية ،  
ويستطرد كثيراً إلى الحوادث العرضية ، ثم يصادم الواقع ويشهوه الخفائق ،  
لأنه يجهلها ، والجمهور الذي يسمعه لا يعلمها ، فاستطاع بذلك أن يزور  
مغرب الحوادث ، ويجمع شتى الأحاديث ، وبترك لها هذه المجموعة القصصية  
التي كانت ولا تزال لاختصار مبعث لذة ، ولعامامة مصدر ثقاقة .  
كان القصاص المصري يعتمد في مادته على ما يصدر عن بغداد من  
الأقاصيص الموضوعة والمنقوله ، والروايات القديمة الصحيحة والمدحولة ،

تم يضيف إلى ذلك ما تقول في مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحابين والبحارين ، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يذوتون مارأوا من الاستعجيب ، كما فعل العقوبي وابن فضلان وبزرك بن شهر يار مثلاً ، إذ يحدثون بها الناس كأن يقولوا لهم ما حكاه ابن خرداذبة من أن في بعض الأئم رجالاً عراظ الوجوه ، سود الجلود ، لا تزيد قامة أط OEM على أربعة أشبار ، وفي جلودهم فقط حمر وسفر وبيض ، وإن قبهم من له أجنة يعطيها ومن رأسه كرأس الكلب ، وجسمه كجسم الثور أو الأسد ، وما جاء في كتاب « المستطرف » من أن في « البلغار » من طوله أكثر من ثلاثة ذراعاً ، بأخذ الفارس تحت إبطه ، كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمه البقال . وما رأى الرحالون بالطبع هذه الأشياء ، وإنما رأوا صورها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس فظنواها حقيقة .

كان الفصاص يتناول هذه الالحاد فيؤلف منها قصة كثيرة الفصول والفضول ، تدور حوادثها على بطن واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد إلى حوادث شتى ، لا يصلها بمحبة البطل إلا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة « عنترة » : بناتها على حادثة أصلية صحيحة هي « حرب داحس والغبراء » التي ثبت افلاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام . ثم دارت رحاحها على قطب من أقطابها وهو « عنترة بن شداد » البسي . فذكر شأنه في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رحوانه وبطولته وفصاحته وجبه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة والخاتمة والاجارة والشعر والغزو والسلب والثمار ، ولكن حروب عبس وذبيان منها هوّل فيها وطول لا تشغل بال السامعين طويلاً ، ولا تدرّ عليه من المال كثيراً ، فهو يقع الخصومة بين عنترة وبين فرسان العرب فيقابلهم ويقاتلهم ويسمم جميعاً بالنكلوك والمجز . والصاص في آننا ، ذلك ينقلنا في السهل والأودية ، ويقلينا بين المصارب والآنجية ، حتى جلا

لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لا تمثل في خواطركم من طريق التاريخ المقتنص المفكك إلا بعد جهد . ثم يرى مع ذلك أن الشوق شديد ، وان الأسد الذي يريده بعيد ، فيخرج البطل من الجزرة العربية ويقدم به إلى مصر بلد الفصاص فيقود عنترة بها حرباً ، ويملاك شعوباً ، ويتيقظ حضونا لا تزال العامة تعرفها إلى اليوم باسمه ، ثم يذهب إلى القسطنطينية وزوجه من امرأة رومية . حتى إذا ظفرت المنون أخيراً بالشجاعة الخارقة عاد ابنه من « إيزنطة » إلى الحجاز فطالب بعرش أبيه وحارب معاديه ومغتصبيه ، والمليئة التي اختارها الفصاص لمنتهى تدل على قدرة فنية عجيبة ، وكان « لامرتين » لا ينفك بها معجباً ، ومنها طروبياً ، فقد ذكر أن « الأسد الرهيف » أحد خصوم « عنترة » المقربون المؤتمنون رماه غيلاً بهم مريش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت في جسمه الوثيق خطي على قومه من بعده شرّ الهزيمة وعار الفشل ، فرفق حال العدو التأثر ممتطياً جواده ، متكتماً على رمحه ، وأمر جيشه بالتققر والنجاة . فارد الجيش وبقي هو وافقاً يعالج سكريات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ولكنه لا يجرؤ عليه خرقاً من عنترة حتى فاضت روحه على صهوة جواده ، وكان الجيش المانعه قد بلغ مأمه ، فلما طال وقوفه ، وجاز الخد سكونه ، ارتتاب الجيش الماجم ، فدر الحيلة لكشف الامر فأرسلوا إلى جواده حجراً تهيجه ، فلم يكدر راحها الفرس حتى وتب وثبت خرّ لها فارسه على الأرض صريحاً .

والغالب فيما أظن أن الفصاص الماهر قد أخذ هذا الختام البارع من مصرع « سليمان بن داود » أمام عماله المسخرن من الجن ، وقد أجملته البلاغة المعجزة في هذه الآية الكريمة « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منهاته . فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما ابثوا في العذاب المبين » . ظهرت هذه القصة الحاسية الجليلة في عصر كان وادي النيل فيه منع

ومدينة « سمنود » أصلها سما، بودلان الحكم « نودا » صاحبها قد عقد عليها سماء بالسحر توقماً لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل إلى مصبه . تم دفنه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم ، وقال أن قبره هو الذي يعرف الآن بالجيوشي .

ولقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا الدور ، فان المواطف الدينية والخاتمة القومية التي ألمتها في قلوب المسلمين هذه الغارات حملت القصاص على أن يتملق هذه المواطف وينذها بما يلتفق من الاشمار والاخبار في فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر .

فسيف بن ذي زن كان حنيفاً مسلماً يقتتحم العاقول والارصاد على الوثنية والشرك في معالم الارض ومجاهلها ، وهو يقول : « لا اله الا الله لا يراهم خليل الله » . وكذلك سائر الابطال في سائر القصص ، الا انهم كانوا بعد الاسلام لا قبله .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم المماليك بفساده ، وحكم الارراك باستبداده ، قد أتيا على ما بقي من أركان الاجتماع ، وحلوا أواصر الاخلاق والطبع ، ومسى الناس باللحاج الأوبة ، وشرافة الحياة والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهقر ، فأخلدوا إلى التصوف أو إلى الجنون ، وعالجوا همومهم بالخشيش والافيون ، وحارب بعضهم بعضاً بالشطارة والخيالة ، وتقاتلوا على حطام الحياة بالخدامة والغيبة ، وحال نظام الفتوة في مصر إلى مناسير من الاصوص والمعيارين ، يقطعون متون السبل ، ويعيثون بالآمن والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء ، ويجلوئونهم بإجلال الزعماء ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجبات والبالغة فظاهر حينئذ ذلك القصص الوسيع الذي يمثل هذه الحال بمحارتها وسفاتها ، ويصور تلك البيئة بخراقاتها وجهاتها ، كالقصص الذي يدور على « علي الزريق » و « أحمد الدنف » و « حسن شومان » و « دليلة المحتالة » أو « دالة إلى الشمال » . واتجه الملك بالشطر الآخر إلى اليمين .

النورة » باهر الخلالة ، صافي المورد ، لا يكدره والغ ولا واغل ، فكان استقلاله يعلم العزة ، وعروته توحى الشهامة . فلما هبت الانعاصير الموج بالبربرية الخاتمة ، فاعطافات منهاز انداد ، وزعزعت عرش الخلافة ، وعبدت المجمعه الخاطلة بتراث العرب : من علم وأدب ، وخلق ودين ، وعدت ذات الغرب باسم الصليب على الشام ومصر ، تنجح الهلال الأول ، وتهش المجد العاريد ، رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الخزينة تصويراً عجيباً ، ورأينا القصاص قد اكتسح خياله ، يقدر ما ضاق عالمه ، فهو يخلق بلا دأ لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والخوارق .

في القرنين السادس والثامن من الهجرة ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة عقباً من أسماء مؤلفها : لأن القصاص الخنزفين إما كتبوا لأنفسهم فيما أرجح ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عبد المطبيعة ، فنشرت على شكلها ، دون اسم ولا وسم ولا تعريف . وأشهر قصص هذا الدور سيف بن ذي زن ، والاميرة ذات الهمة ، وفيروز شاء ، فاما أنها كتبت في هذه المهدود فذلك واضح لا دنى نظر من لغتها وأسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وصور ، وأما أنها كتبت بعصر فذلك ثابت من أماكن وقائمه ، وأسماء ، أشخاصها ، فأبطالها جميعاً عاشوا بعصر ، حق الذين لم يروها أقدمتهم إليها . . .

فالمهمل بن ربيعة كان الوجه البحري ميدان حروبه ، وسيف بن ذي زن هو الذي أجرى النيل من جبال القمر بكتابه البحري الذي دفنه في حزرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجزرة اسم من أسماء زوجاته ، وسبك الثلاث ودمنهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع إلى فرعى رشيد ودمياط : لأن الملك « سيفاً » وهو قادم به من السودان وقف يقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف النيل بوقفه ، ولكن الماء وراءه قد عب عبايه وطفخت أواديه فاندفق شطر منه إلى الشمال . واتجه الملك بالشطر الآخر إلى اليمين .

كزناً دفيناً — من هذا النوع له في أدبهم أمر قوي وشأن نابه . ولكنهم لم يخلدوا بدياً إلى هذا القول بشدة . واستثنوا على هذا الكتاب الخرافي السوفي أن يذكر في الكتب ويوضع في المكاتب وبينه الناس إلى فضله وبهذا العرب بانتاجه حتى رأينا بعيوننا أنه تقل منذ أوائل القرن التامن عشر إلى كل لغة . وحلّ الموضع الأول من كل أدب ، وظفر باعجاب النواuges من كل أمة . حتى قال « فولتير » انه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرّة ، وتعني الفصعي « الفرنسي » استندال » أن يعمّ الله من ذاكرته « ألف ليلة وليلة » حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته .

نعم قرأتنا أن أفلام المستشرقين أخذت تتجاذل منذ أوائل القرن التاسع عشر في أصله ، وتكتشف عن مناحي جماله وفضله ، وان دوائر المعارف الكبرى سجلته في حقوقها ، وخصته بالطريف الممتع من فصولها . وان الاستاذ « فكتور شوفان » أورد لها في كتابه « تاريخ المؤلفات العربية » جزئين سرد فيها مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته ، وجزئين آخرين تخص فيها طائفة كبيرة من حكاياته ، وان الكتاب الروائيين قد استغلوه للسينما والمسرح فاستخرجوا للأول رواية « لص بغداد » وللثاني « قسمت » أو « القضاء والقدر » ، وان رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وإنكلترا — قد اقتبسوا منه أدبياً للاطفال فاختصروه وصوروه ، وأقيمت أنا منذ عامين في القاهرة مستشرقاً إسبانياً وآخر أميركياً قد أرسلت الأول جمعته ، والثاني جمعيته ، ليتقا في مدن الشرق عن مخطوطات « ألف ليلة وليلة » .

حيثند أخذت خاستنا تقرؤه وتسمعه ، وطالعها الرافية تصحّحه وتطيعه ، وأدباؤنا المترفون يشيرون إليه في تاريخ الأدب . ولكنهم إلى اليوم لم يدرسوا دراسة علمية تكشف عن لبابه ، و تستطرد النطف العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه ، قد سجل على توالي القرون عما (٢٩)

الحالة ، كما يسمى « المعاودي » . وأصبح أسلوب القصاص في هذا المدور دائراً بين الملة والقحة . فهو يستعمل في قصصه أفةً مبنية وراكب فاحشة وجلاً محفوظة ووقائع واحدة يرددتها في كل قصة . وبكررها في كل مناسبة . وكانت شهرة الشهر والشهر قد بلغت مداها في ذلك الحين لتغلب البطلة على أهل الفاهر واعتماد الناس في جمع انزوءة على الجنة والشعودة والسر والفدر . فتكلّموا في السوامر حول القصاص وقد تجتمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وفيرة من الأساطير والأسحار . فهو يدونها كما دونت تلك السير من قبل . فكان مما دون في تلك الحقبة الغريبة كتاباً وموضوعاً معاً « ألف ليلة وليلة » .

« ألف ليلة وليلة » يا سادة كتاب شعبي تخللت فيه طوائف الشعب وطبقاته ، وتراءت من خلاله ميله وزعاته ، وتكلمت فيه أساليبه ولهجاته ، فهو كالشعب وكل شيء للشعب . قد لقي من جفوة الخاصة وترفع العلية أذى طويلاً ، اغفله الأدب فلم يتحدث عنه ، واحتقره الأدباء فلم يبحثوا فيه ، ورآه « محمد بن اسحق المعروف بابن النديم » فقال إنه غث « بارد ، لأنّه نظر إليه نظرة إلى الأدب الاستقرائي الذي يصور ترف الحبائل وجمال الصناعة . فلما حقق العصر الحديث تغلب الديمقراطية وسيادة الشعوب ، واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي « الروماناتكيين » في الغرب بحياة السوق والدهاء ، عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء ، وهب « رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينتقبون عن « فولكلور (١) الشرق أخذ أدباؤنا بحكم التقليد والعدواني — يعطّلون على أدب السود ، فدونوا اللغة العامية ، وجمعوا الأغانى الشعبية ، ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا في رحقة من الذهب — إلى قول الأوروبيين : إن في أدبنا الموروث

(١) فولكلور « Folklore » كامة انكليزية براد بها في الأدب الأوروبي — مجموع التقاليد والأساطير والأشعار الشعبية لأمة من الأمم .

أطوار اجتاحتنا ، وصور بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ، ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ، وأتم قص الناقد الاجتماعي والمؤرخ الفيلسوف والاديب الباحث والكاتب القصعي منه تراثه اليابس ، صافي المورد . وهو — فضلاً عن ذلك — كان الشعب العربي في زمن انحداره ، وضياع استقلاله ، وصعوبة اصاله قسماً يبعث الحرارة في النفوس الخامدة ، وذكري قلوب أسي على الجد الذاهب ، وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون « ألف ليلة وليلة » علمًا ثانياً على بغداد ، بل ربما كان أولها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة ، ومكانتها البارزة في التاريخ : ذلك لأن آثارها المادية قد ألح عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محوها . أما هي في هذا الكتاب فلا يزال سلطاناً باعياً لم يمح ، وصداتها داوياً لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية في « بغداد » متحف زاخر بالاعجوبة ، دونه ما للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لأنه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث إلى جميع الشعوب وهي حامضة ، حتى أصبح لفظ « بغداد » في جميع اللغات مرادفاً للعمران الراهن ، والترف العجيب ، واسم الرشيد رمزًا للعدل الشامل والزمن الحصين . ذكر أحد كتاب الانكلترا فترة من الزمن الرئيسي فقال : كان ذلك في العصر الذهبي إذ كان يحكم الخليفة العادل هرون الرشيد .

ذلك بعض فضل الكتاب على « بغداد » . وقد ذكرت من قبل أنه لم يُنزل على هذه الصورة فيها ، ولم يتوافه أحد من بنديها ، وإنما جمع في مجلس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة

وطبع أول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة بالقاهرة . ثم كان حظ القاهرة من كتاب « ألف ليلة وليلة » أن سورها للناس مثابة الاختيار والشماردة والشعودة والجمل يلتقطا بصور « بغداد » مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبيل ، ومعدناً للكرم ، وعشناً لاحب ومظيرًا للترف ، حتى كان من جرأة ذلك أن أهل « بغداد » لا يزالون يقولون « عياق مصر وحيال مصر » ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : « بدد فالآن إذا ظهر البغدادة » . وهي كلة مشتقة من « بغداد » تدل على السرف والترف والبطر والنبل !

وبسبب اختلاف حظ البلدان من الكتاب أن الفصاص المصري إذا تحدث عن مصر — وهو منها وفيها — تحدث عمّا يرى ، وعبر عمّا يسمع ، وقد علمنا في أي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . أما إذا تكلم عن بغداد فأنما يتطرق بعوامل أربعة : يتطرق بما وُضع من الأفاصيص الجميلة في بغداد ، ويتطرق بما ملا الآدان وشغل الذهان عن عظمة بغداد وأبهة الخلافة ، ويتطرق بما ركب الله في طباع الناس من تقديس الماضي ، وتعظيم البعيد ، ويتطرق بمحمله أحداث التاريخ وتطور الأمم ، فيأتي وهو في القرن العاشر من المجرة أن يعترف بعوتوت « الرشيد » ، ومصرع « بغداد » ونكبة الجد الائبل .

أما بعد فاني أحياول الآن يا سادي أن أكشف عن حقيقة « ألف ليلة وليلة » بقدر ما تهيأت لي المراجع في « بغداد » ، بعد أن توفرت على قراءاته ودراسته في مختلف العلوم ، ووقفت على ما نشر عنه من الابحاث في بعض اللغات . وما أريد بالطبع أن أدفع السأم في نفوسكم بذكر ما لا يحتمله المقام من التحليل المفصل ، وإنما أجزي به بذكر ما لا يسع الرجل المثقف جمله من أمر هذا الكتاب .

ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب ألف ليلة وليلة أصله مفقود ، وموزعه بجهول ، وزمان وضمه مجهول ، ومكان حواضنه مشتبه ، لاكتنا إذا قررنا إلى التاريخ نسألة قال : إن ما يحصل بالآفاق ليس إلا ساطير كان خارجاً بطبعته عن اختصاص الأدب ومنهاج المؤرخ ، وإذا رجعنا إلى نص الكتاب فدرسه لنقينه من لغته وأسلوبه وأسماء أبطاله ومواطن رجاله وعوائل أهله ، نصيبي كل جنس وجيل في تكوينه ، وجدناه من هذه الجهة ضيق الحجة خادع الرأي قليل الفناء ، لأن كثيراً من الساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه فنقلوه على وفق همجاتهم ، وعيثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لا تتجدد نسيختين منه تنفقان لا في الترتيب ولا في النص . وفي حكاية البنات مع الحال والصماليك اليلالية مثلاً يقول الصعلوك الثاني : انه قرأ القرآن بالروايات السبع ، وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراءات كالافية في علم النحو ، وفي بعض النسخ لا يذكر الشاطبية وبكتفي بذلك الروايات السبع . فلو أن ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكتنا بأن هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ وهي السنة التي توفي فيها الشاطي . وفي حكاية مزينة بغداد يذكر المزني الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى أي الرفرين نعتمد في تاريخ هذه الحكاية ؟ إذن لم يبق للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تاريخ الحضارات المقارن ، وعلى ما يبقى في الكتاب من صور الالسالب ورسوم التقاليد التي لم يشهدها الناسخ ، ولم يعف عليها الزمن .

كان أول من ذكر الف ليلة وليلة من المؤرخين علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ في كتابه مروج الذهب ، فقد قال حين عرض لأخبار مارم ذات العاد : « ان هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نقلها من قرب من الملك بروايتها وإن سهلها سهل الكتاب المقولة اليانا

والمترجمة لنا من الفارسية والهنديه والروميه » - وفي رواية أخرى الفارسية بدل الهندية - مثل كتاب هزار أفسانه ، وتفسير ذلك بالفارسية ألف خراقة وأسم الخرافات بالفارسية « أفسانه » . والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة . وهو خبر الملائكة والوزير وابنه وجاريها شهرزاد ودنيازاد ، ثم جاء بهم محمد ابن اسحق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ فقال في الفهرست : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتاباً وأودعها الخزان الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشفانية وهم الطبقية الثالثة من ملوك الفرس ، وقتلهم العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء ، فهذبوا ونقاوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ومعناه ألف خراقة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد ، فتزوج بمحاربة من أولاد الملك لها عقل ودرأية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرقه وتصل الحديث عند انتهاء الدليل بما يحمل الملك على استبقائها وبتألمها في الدليل الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها الف ليلة . . . رُرقت في أثناها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه ، فاستعقولها ومال اليها واستبقها ، وكان الملك قهراً ماهنة يقال لها دنيازاد فكانت موافقة لها على ذلك ، وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحباً ابنة بهمن » .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : « وال الصحيح ان شاه الله أن أول من سر بالليل الاسكندر وكان له قوم يضحكونه ويخرفوه لا يريد بذلك اللذة وإنما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بمده الملك هزار أفسانه ويحتوي على ألف ليلة وعلى دون المائة سر لآن السمر رعا حدث به في عدة أيام . وقد رأيته بهامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث » .

فاز جلان كا زون متفقان على أن الكتاب منقول عن هزار افسانه الفارسي ، وأنه موضوع في خبر الملك والجاريين شهرزاد ودنيازاد ، وإن اسمه في عصرها كان الف ليلة لا الف ليلة وليلة « ولا عبرة بمحضي » . اسم الكتاب كاملاً في الطبعة الحديثة المصرية ملروج الذهب فأن ذلك من زيادة المصحح » . ويختلفان في نسب البت والجارية ، فيقول المسعودي أن شهرزاد بنت الوزير ودنيازاد جاريها وهو الصحيح ، ويقول ابن النديم أن شهرزاد من أولاد الملك وإن دنيازاد قورمانة الملك ، ويزيد أن الكتاب يحتوي على الف ليلة وعلى دون إمامي سمر وأنه ألف تحيياً أو هياً أو حماني أو حمانة أو حمانى على اختلاف الروايات وهي بنت الملك بهمن بن أسفندبار .

هذا إنها الويفنان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ولا يوجد غيرها فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء ، اللهم إلا إشارة إلى وثيقة ثلاثة مفقودة تقل عنها المقريري في الخلط والمقريري في نفح الطيب وعزواها إلى مؤرخ مصرى اسمه الفرطى الف كتاباً في تاريخ مصر على عبد الخليفة العاشر الفاطمى ، ذكر فيه الف ليلة وليلة وقايس بين قصصه وبين ما يتناوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا دليل على أن الكتاب على أي صورة من الصور كان معروفاً في مصر على عبد الفاطميين ، وإن اسمه كان إذ ذاك الف ليلة وليلة ، وإن عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله . ثم تجاهله بعدئذ أدباً ونحونا لم يتحققوا مصدره ، ولم يسجلوا نعوه وتطوره ، حتى جاء رأس المستشرقين البارون سانستر دساي ، فبدأ البحث العلمي في أصله بمقابلين نشرها في جريدة العلما ، Journal de savants أولها في سنة ١٨١٧ والآخر بعده بأحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد

وانه مؤلف في العهد الاخير ، وانه عربى الوضع من فاتحته الى خاتمه ، ودفع قول المسعودي أن فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية . فناقش أداته قوم آخرون وأشهرهم الاستاذ يوسف فون هامر ، الالماني فقد نشر في سنة ١٨١٩ مقالاً في احدى المجالات الالمانية ، وفي سنة ١٨٢٣ مقالاً آخر في المجلة الآسيوية أيد فيها رأي المسعودي تأييداً لا سيل عليه لاخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الاستاذ « وليم لين ، الانكليزي قياماً من الف ليلة وليلة وقدم له مقدمة حاول أن ثبت فيها أن الكتاب تأليف رجل واحد وأنه ألف فيما بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ الميلاد . ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفتين من ثغات العلماء أشهرهم : كوجي وموالر ونولدى واوستروب وكريمسكي وشوفان وكارادفو ، فاستجلوا على قدر إمكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب حتى أصبح من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ما جلوه أن ثبت في هذا الاصل رأياً بقارب الصواب ان لم يكبه .

### أصل الكتاب وطبقاته

أصل هذا الكتاب نواة من الاقصيص الهندية والفارسية تسمى هزار افسانه ترجم الى انگلية من الفهلوية في اواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان « الف ليلة » وهو الذي رأه المسعودي وانتقده ابن الذدم . ثم تجمع حول هذه النواة في الازمنة الواقمة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان طبقة بغدادية صغيرة ، وطبقة مصرية كبيرة . فاما النواة او الاصل او الاطار كما يسميه الباحثون فهو لف من الحكايات الباقةية الآتية : حكاية الملك شهريلار وأخيه شاه زمان ، وهي مقدمة الكتاب ، وحكاية التاجر والجنى ، وحكاية الصياد والجنى ، وحكاية حسن البصري ،

وحكاية الحسان الآنسوس ، وحكاية الامير باسم وجهر السمندية ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قر الزمان بن الملك شهرمان والاميرة بدور ، وحكاية سيف الملوك ويديعة الجمال .

وقد اختلفت كلة الباحثين في أصل هذا الأصل كالمعنـا إلى ذلك من قبل ، ففريق يرى ورأيه الأرجح أن المقدمة وبعض حكايات الأصل هندية وبينـا هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب ، وأما المشابهة والموضوع فانـ في حكاية الملك شهريار وأنـيه مشابهـ من «كتـاسـات ساجـلـارـا» الهندية . وأما المشابهة في الطريقة فـ انـ إدماـج حـكاـية في حـكاـية وـتوـلـيد قـصـة منـ آخـرـىـ أحـدىـ خـصـائـصـ الـأـدـبـ الـقـصـصـيـ الـهـنـديـ وهي مـلـحوـظـةـ فيـ قـصـةـ «ـمـهـاـبـهـارـاتـهـ»ـ وـ«ـبـنـجـهـ تـنـتـرـيـ»ـ أـصـلـ كـلـيلـةـ وـدـمـنـةـ، لـآنـ الـبـاعـثـ الـأـولـ عـلـىـ الـفـصـصـ فيـ أـدـبـ الـهـنـدـ كانـ اـيـنـاءـ الـفـرـصـةـ وـاـكـتسـابـ أـوقـتـ حـتـىـ يـوـفـكـ الـمـهـورـ عـنـ عـزـمـهـ، وـيـحـجزـ الـمـتـسـرـعـ عـنـ وـجـهـهـ، كـاـفـعـلـ الـبـيـغـاءـ مـثـلاـ مـعـ زـوـجـهـ صـاحـبـهـ فيـ حـكاـيةـ «ـسـوـكـاسـبـاتـيـ»ـ فـقـدـ كـانـ يـقـضـ عـلـيـهاـ كـلـ يـوـمـ أـحـسـنـ الـفـصـصـ يـمـعـوـقـهاـ بـلـهـ الـحـدـيـثـ عـنـ زـيـارـةـ خـلـيلـهاـ فـيـ غـيـةـ خـلـيلـهاـ وـيـقـطـعـ حـدـيـثـهاـ دـائـمـاـ بـقولـهـ: سـأـقـصـ عـلـيـكـ الـبـقـيـةـ غـدـاـ إـذـ بـقـيـتـ فـيـ الـبـيـتـ . وـهـذـهـ الـطـرـيقـةـ وـذـلـكـ الـبـاعـثـ نـجـدـهـاـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ حـكاـياتـ الـفـ لـيـلـةـ وـلـيـلـةـ فـلـاـ تـرـاعـ اـذـنـ فـيـ اـنـهـاـ هـنـدـيـةـ . وأـمـاـ المشـابـهـةـ فـيـ الـأـسـلـوبـ فـانـ مـنـ لـواـزـمـ الـفـاسـ الـهـنـدـيـ أـنـ يـقـولـ: لـاـ تـقـعـلـ ذـلـكـ إـلـاـ أـصـابـكـ مـاـ أـصـابـ فـلـانـاـ، فـيـسـأـلـهـ السـامـعـ وـكـيـفـ ذـلـكـ؟ فـيـجـبـ الـفـاسـ عـلـىـ هـذـاـ السـؤـالـ رـوـاـيـةـ الـقـصـةـ . وـهـذـاـ الـأـسـلـوبـ نـفـسـهـ مـسـتعـملـ فـيـ ذـلـكـ الـحـكاـياتـ مـنـ الـفـ لـيـلـةـ ، وـقـوـلـهـ فـيـهـ وـكـيـفـ ذـلـكـ؟ تـرـجمـةـ حـرـفيـةـ لـهـذـهـ الـجـلـةـ الـسـنـكـرـيـةـ «ـكـاتـامـ إـنـاتـ»ـ، ثـمـ يـعـنـيـهـ هـذـاـ الـفـرـيقـ فـيـ تـطـبـيقـ نـظـارـيـتـهـ عـلـىـ بـعـضـ الـحـكاـياتـ، وـيـنـتـهيـ إـلـىـ أـنـ هـنـاكـ طـائـفةـ مـنـ الـأـقـاصـيـصـ لـاـشـكـ فـيـ أـنـهـاـ

فارسية ، وهي حـكاـيةـ الحـسانـ الآـنسـوسـ وـحـكاـيةـ حـسـنـ الـبـصـرـيـ وـحـكاـيةـ سـيفـ الـمـلـوكـ وـبـدـيـعـةـ الـجـمالـ وـحـكاـيةـ قـرـ الـزـمـانـ وـالـأـمـيرـ بـاسـمـ وـالـأـمـيرـ جـوـهـرـ السـمـنـدـيـةـ وـحـكاـيةـ أـرـدـشـيرـ وـحـيـاةـ الـنـفـوسـ .

وفريق آخر يرى أنـ الأـصـلـ كـالـهـ فـارـسيـ تـأـثـرـ بـالـعـقـائـدـ الـيـهـودـيـةـ وـالـأـغـرـيقـيـةـ وـالـأـسـلـامـيـةـ، وـيـرـيدـ أـحـدـهـ وـهـوـ الـإـسـتـاذـ كـوـجيـ أـنـ يـجـعـلـ بـيـنـ هـيـكلـ الـفـ لـيـلـةـ وـلـيـلـةـ وـبـيـنـ قـصـةـ اـسـتـرـ الـيـهـودـيـةـ صـلـةـ وـنـسـبـةـ . ذـلـكـ لـأـنـ اـبـنـ النـدـيمـ فـيـ الـفـهـرـسـتـ يـقـولـ أـنـ هـنـارـافـسـانـهـ الـفـ لـيـلـةـ حـيـاـ بـنـتـ بـهـمـنـ، وـالـطـبـرـيـ يـقـولـ أـنـ اـسـتـرـ هـيـ زـوـجـهـ بـهـمـنـ، وـالـمـسـعـودـيـ يـجـعـلـ اـسـتـرـ زـوـجـهـ بـيـختـنـصـرـ وـيـسـمـيـهـ دـنـيـازـادـ، ثـمـ يـعـلـقـ اـسـمـ شـهـرـزـادـ أـيـضاـ عـلـىـ أـمـ حـيـاـ بـنـتـ بـهـمـنـ أـيـ عـلـىـ زـوـجـهـ بـهـمـنـ وـهـيـ الـنـيـ سـاـهـاـ الـطـبـرـيـ اـسـتـرـ . وـيـقـولـ الـمـسـعـودـيـ أـيـضاـ فـيـ مـوـضـعـ آـخـرـ أـنـ أـمـ حـيـاـ يـهـودـيـةـ، وـيـعـودـ الـفـرـدوـسـيـ وـالـطـبـرـيـ وـالـمـسـعـودـيـ فـيـ طـلـقـوـنـ اـسـمـ شـهـرـزـادـ عـلـىـ حـيـاـ نـفـسـهـ وـهـيـ بـنـتـ الـمـلـكـ بـهـمـنـ وـزـوـجـهـ عـلـىـ عـادـةـ الـفـرـسـ الـأـوـاـيـنـ . أـمـاـ وـجـهـ الشـبـهـ بـيـنـ قـصـةـ اـسـتـرـ الـمـذـكـورـةـ فـيـ التـوـرـاـةـ وـبـيـنـ مـقـدـمـةـ الـفـ لـيـلـةـ وـلـيـلـةـ فـهـوـ أـنـ الـمـلـكـ أـسـرـيوـسـ كـانـ كـلـلـكـ شـهـرـيـارـ لـاـ يـرـىـ الـمـرـأـةـ إـلـاـ لـيـلـةـ وـاـحـدـةـ، فـتـرـفـ إـلـيـهـ الـبـكـرـ مـسـاءـ لـيـطـرـدـعـاـ مـنـ قـصـرـهـ صـبـاحـاـ دـوـنـ أـنـ يـقـتـلـهـ كـمـ يـفـعـلـ شـهـرـيـارـ، وـاـسـتـرـ كـانـ كـشـهـرـزـادـ تـسـتـهـويـ الـمـلـكـ وـتـخـلـبـ لـهـ فـيـسـتـبـقـيـهـ، وـهـيـ بـنـتـ الـوـزـيـرـ وـشـهـرـزـادـ بـنـتـ الـوـزـيـرـ، وـهـيـ كـفـرـرـ بـنـفـسـهـ اـنـقـذـ بـنـاتـ جـنـسـهـ مـنـ شـرـ الـفـضـيـحةـ وـالـذـلـ، وـشـهـرـزـادـ تـفـعـلـ ذـلـكـ الـفـعـلـ اـتـدـرـأـ عـنـ بـنـاتـ قـومـهـ خـطـرـ الـسـيـاـءـ وـالـفـتـلـ .

أـمـاـ عـلـةـ هـذـهـ الـآـرـاءـ الـمـتـنـاـكـرـةـ إـلـيـهـ تـجـمـلـ هـذـاـ الـأـصـلـ عـرـيـاـ بـخـنـاـ أوـ فـارـسـيـاـ بـخـنـاـ أوـ هـنـدـيـاـ مـشـوـبـاـ، فـهـيـ أـنـ الـفـصـاصـ الـعـرـبـ قـدـ عـبـثـواـ بـهـ عـبـثـاـ شـدـيدـاـ فـيـدـلـوـاـ أـسـمـاءـ وـغـيـرـوـاـ أـسـلـوـبـهـ وـمـوـهـوـاـ لـوـنـهـ وـاـخـرـعـواـ بـهـصـهـ وـطـبـعـوـهـ بـطـابـعـ اـسـلـامـيـ حـضـ، ثـمـ بـثـرـوـهـ فـيـ جـوـانـبـ الـكـتـابـ وـثـنـيـاـ الـفـصـصـ حـتـىـ الثـاثـ عـلـىـ الـمـقـايـيسـ الـفـنـيـةـ فـرـزـهـ وـنـجـدـيـهـ .

أحمد حسن الزيات

50A

التي تجري بين المأثرين إذا عز اللقاء وغسل الصبر . ثم حكاية أنس الوجود وورد الاكام ، وهي قطعة حب وشعر وغزل . تجدون من فيها : اما محباً او حبيباً او واصلاً <sup>بینهما</sup> ، والشعر الذي كضمته ائمـاً انتـي ، لها خاصة فهو مطابق لما تضى احوالها ، مشتمل على اسماء ابطالها ، وذلك فليل في سائر الكتاب كقوله من آيات :

ما خاب من ساك أنس الوجود . يا جامعاً ماين أنس وجود  
يا طلعة البدر الذي وجهه قد نور الدنيا وعم الوجود  
ثم حكاية المبنات الثلاث مع الجمال والسمالك الثلاثة . ثم حكاية  
النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليل ، ثم حكاية بدور وجعير بن عمير  
الشيباني ، ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهرى ،  
ثم حكاية المعتصم مع أبي الحسن الخراسانى ، وهي تدور على السرف والترف  
والحب وتفص علينا مصرع المأوكل ، ثم حكاية الشاب البغدادي مع  
جاريته . ثم حكاية الجواري الضرائر . ثم حكايات السندياد البحري ، وهي  
وصف جذاب شائق لسبعين سفرات مخترات في مياه الهند والصين قام  
بهن السندياد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ في  
المuran والمعلمة .

وما لا جدال فيه أنها كانت في الأصل رحلة حقيقة شوهدوا الناس  
بالمبالغة ، وزيفها القصاص بالافتعال والتزييد ، وامل صاحبها هو الذي نجا  
بها هذا المنحى من الاغراب كفعل بزرك بن شهريلار في كتابه عجائب  
الهند . فلو صفيتها من سخف الاساطير وصرف الحديث كاسمعة  
العقل التي يظنها الملاحدون جزيرة ، ويصفه الرح الي محبها الراؤن قبة ،  
إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون في هذا  
الموضوع كوصف جزر المهراجا أو المهرجان كما يسميه السندباد ، والبحث

وأما الطبقية البغدادية فتتألف من أقاصيص عرامية صغيرة انتشرت من حياة العرب وأسمت بسمة الاسلام وفاقت بنعيم الحب والتزف . تتمثل حياة الطبقية الوسطى بأسلوب صحيح عذب وتصور حضارة بغداد في أيام المروان<sup>(١)</sup> بخيال قوي حصب ، وتشهدكم سورة العني في الاسواق ، وضجة الفلان في الافنية ، وقصف الجواري في المقاصير ، ومداعبة الزوارق اللاحية في دجلة ، وتجمل من الخليفة الرشيد ملاك رحمة ورسول عناء يحيى . منتكرأً وظاهرأً في كل مكان بالتروء المحروم والعدل المظلوم والوصل للماشق البائس . ولا أقصد بذلك الى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون بغدادية ، فان افتتان الناس ب مجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعله رمزاً للرخاء والعدل حتى في زمن غير زمانه ووطنه .

تجمعت هذه الطبقية في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن الرواية  
ودون في الكتب مستقلاً وغير مستقل ، فهي على ما أرجح بقايا القصص  
التي نشرها الادباء البغداديون ثم طواها الزمن ، وقد عد ابن النديم في  
الفهرست عشرات منها كقصة علي بن اديم ومنهلا ، وقصة عمرو بن صالح  
وقصاف ، وقصة أبي العناية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ،  
وقصة احمد بن قبية وبانوحة ، وقصة ريحانة وقرنفل ، وقصة سكينة  
والرابي الم . . .

وأشهر حكايات هذه الطبقة حكاية علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقة الائى على جدهما العازر وبهايتها المحزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة واثنتملت على نوع من الادب يكاد يخاو منه أدب الخاتمة وهو الرسائل الفرامية

(١٠) العروس اسم كان يطلقه البدائيون على عصر الرشيد (السمودي)

عن الناس بواسطة التسor في سيلان ، وما ذكر عن الفيل والكركدن وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ . . .

وأصدق ما في حكايات السندياد تصويرها لمسيرة الرحالة الذي يشنف قلبه حب الأسفار وممارسة الاعظار وجهاً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض غمارات المهوو ويكتايد عصص الغرق وبأخذ على نفسه الموثق الغليظ إلا يوم رحلة يهد هذه المرة . فإذا ما عاد سالماً غائماً إلى دياره ، ونعم حيناً بالعيش الرخي بين ندامه وسماره ، عاده الوله الشديد إلى البحر القادر ، ونازعته نفسه الظلمة إلى الأفق البعيد ، فيجتوي الراحة ، ويغاف النعيم ، ويندّاع البستان ، وبكتري السفينة ، ثم يقلع من البصرة !!

وأما الطبلة المصرية فهي أوسع الطبقات وأجمعها وأصلحها للبحث وأصدقها في الدرجة وأقلها في البلاغة . تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخامس والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الإسلامية والسير اليهودية والأساطير الفرعونية . وقد قسمتها حين حللتـا إلى طبقتين قديمة تنتهي بالقرن الثامن وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبلة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريقة الغرض تدور على المغامرة وال الحرب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلامـم والارصاد والجن والبحر والقدر ، حكـيـة جودـرـ النـاجـرـ وـماـخـوـتهـ ، وـحـكـيـةـ الـوزـيرـ نـورـ الدـينـ وـشـمـ الدـينـ ، وـحـكـيـةـ مـسـرـورـ وـزـيـنـ الـمواـصـفـ ، وـحـكـيـةـ قـرـ الزـمانـ الثـانـيـ ، وـحـكـيـةـ الـخـاطـرـ وـالـاحـدـ ، وـحـكـيـةـ مـنـينـ بـغـدـادـ ، وهي قطعة فنية قوية رائعة ، ثم حكـيـةـ بـلـيـ شـارـ أوـ بـشـارـ معـ زـمرـدـ . والطبلة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيزة الأسلوب جريئة العبرة تدور تارة على جبل المحتالين وكتايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الأخلاق وتذكير النقوس العاقلة بالمبر . وظهور القصص المختال

الداعر ، بمحاجـبـ القصصـ المنـصـوفـ الزـاهـدـ فيـ هـذـهـ الطـبـقـةـ ، إـنـماـ اـقـفـنـهـ طـبـيـعـةـ الـجـمـعـ الـمـصـرـيـ يـوـمـنـدـ مـنـ التـجـاـءـ فـرـيقـ مـنـ النـاسـ إـلـىـ اللهـ وـانـصـرافـ فـرـيقـ آـخـرـ إـلـىـ الشـيـطـانـ . وـقـدـ كـانـ مـنـ الـمـمـكـنـ أـنـ تـبـدوـ هـذـهـ الـظـاهـرـةـ أـيـضاـ فـيـ قـصـصـ بـغـدـادـ لـوـلـاـ أـنـ مـغـامـرـاتـ الـأـهـوـ وـالـحـبـ فـيـهاـ قـدـ غـلـبـتـ فـيـ نـفـوسـ الـقـصـصـيـنـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ ، وـهـمـ إـلـىـ ذـلـكـ كـتـابـ يـتـأـبـهـونـ عـنـ حـيـاةـ الـعـامـةـ . وـقـدـ كـانـ فـيـ بـغـدـادـ عـلـىـ عـهـدـ الـخـلـيـفـةـ الـمـعـتـضـدـ بـالـهـ رـجـلـ إـسـمـهـ الـمـقـابـ وـكـيـنـهـ أـبـوـ الـبـازـ شـهـرـ بـالـكـيـدـ وـالـحـيـلـةـ حـتـىـ قـالـ فـيـهـ الـمـسـعـودـيـ فـيـ الـجزـءـ الـثـانـيـ مـنـ مـرـوجـ الـذـهـبـ صـ ٧٩ـ مـنـ طـبـعـةـ مـصـرـ «ـ إـنـهـ بـرـزـ فـيـ مـكـائـمـ وـمـاـ أـوـرـدـهـ مـنـ حـيـلهـ عـلـىـ دـالـلـةـ الـمـحـتـالـةـ وـغـيـرـهـ مـنـ سـاـئـرـ الـمـكـارـيـنـ وـالـمـخـاتـالـيـنـ مـنـ سـلـفـ وـخـلـفـ مـنـهـمـ »ـ ثـمـ ذـكـرـ بـعـضـ حـوـادـهـ وـهـيـ غـرـيـبةـ .

وـكـانـ فـيـ بـغـدـادـ كـاـكـاـ كـانـ فـيـ الـقـاـفـاهـ رـنـاـمـ وـالـتـوـاـيـنـ ، وـهـمـ الـلـصـوصـ الـذـيـنـ إـذـاـ أـقـمـهـمـ الـكـبـرـ عـنـ السـرـقةـ تـابـواـ وـرـسـمـهـ الـخـلـيـفـةـ شـيـوخـاـ لـاـ صـنـافـ الـلـصـوصـ فـاـذاـ حـدـثـتـ حـادـثـةـ عـرـفـواـ فـعـلـ مـنـهـ . ذـكـرـ ذـلـكـ الـمـسـعـودـيـ أـيـضاـ فـيـ صـ ٤٧٣ـ مـنـ الـجـزـءـ الـثـانـيـ نـفـسـهـ وـكـانـ بـغـدـادـ وـالـقـاـفـاهـ تـبـادـلـانـ هـذـاـ الصـنـفـ مـنـ الـرـعـمـاءـ وـالـشـيـوخـ كـاـ يـقـصـهـ عـلـيـنـاـ الـفـيـلـ وـلـيـلـةـ .

تأثر الفصاصون المصريون في حكايات الجبل إذن بطبيعة المعرات ، فضلاً عن تأثرهم بما يقى مذكوراً على بعض الالسنـةـ منـ أـسـاطـيرـ الـمـهـودـ الـفـرـعـونـيـةـ ، فـاـنـ قـصـةـ عـلـىـ بـاـباـ وـالـلـصـوصـ الـأـرـبعـيـنـ مـثـلـاـ تـشـبـهـ قـصـةـ وـرـدـتـ فـيـ «ـ كـتـابـ الـأـقـاصـيـصـ الـشـعـبـيـةـ فـيـ مـصـرـ الـقـدـيـمةـ »ـ لـكـبـيرـ الـأـثـرـيـنـ الـإـسـنـادـ «ـ مـاـسـبـيـرـوـ »ـ . ثـمـ تـأـثـرـواـ فـيـ أـقـاصـيـصـ الـمـبـرـ وـالـعـغـلـاتـ بـالـإـسـرـائـيلـيـاتـ ، حـكـيـةـ الـوـزـيرـ نـورـ الدـينـ وـشـمـ الدـينـ ، وـحـكـيـةـ مـسـرـورـ وـزـيـنـ الـمـواـصـفـ ، وـحـكـيـةـ قـرـ الزـمانـ الثـانـيـ ، وـحـكـيـةـ الـخـاطـرـ وـالـاحـدـ ، وـحـكـيـةـ مـنـينـ بـغـدـادـ ، وهي قطعة فنية قوية رائعة ، ثم حكـيـةـ بـلـيـ شـارـ أوـ بـشـارـ معـ زـمرـدـ . والطبلة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيزة الأسلوب جريئة العبرة تدور تارة على جبل المحتالين وكتايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الأخلاق وتذكير النقوس العاقلة بالمبر . وظهور القصص المختال

وأشهر أقايسص هذه الطبقة حكاية علي بابا والصوص الأربعين ، وحكاية علاء الدين أبي الشامات والمصالح العجيبة ، وهي التي اقتبسوا منها لص بغداد لسيها ، ثم حكاية معروفة الاسكاف ، وحكاية أبي قير وأبي صير ، وقصة حاسب كريم الدين وملكة الحيات ، وقصة مدينة النحاس ، وحكايات أحد المدفون وحسن شومان وعلى زيق ودبلة المحتالة وزينب النساء ، وحكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة ، وحكاية الرجل الصعيدي وامرأته الافرنكية .

وفوق هذه الطبقات الثالثات أو الأربع تراكم في المصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والآقايسص الصغيرة ليبلغ الكتاب القافية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد كقصة عجيب وغريب وسميم الدليل ، وهي من قصص البطولة وال الحرب تستعر وقائمها في العراق بين العرب والمعجم أو بين دين الحشفيه والمحوسية ، وتستغير صورها من قصة عنترة وسيرة ابن ذي زن ، ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي مضمورة على قالب أردشير وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والأميرة دنيا وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جان شاه وهي تقليد سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جلبيعاد وهي ملقة من أمثال كلبة ودمنة .

وطائفة أخرى يغلب فيها أثر التجديد كحكاية هكتار الحكم ، وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد ، وهي حكاية ثقافية علمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحاديث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد ، وقيام المناظرة برئاسة النظام المنكلم في مجلس الرشيد ، فان الجارية كانت تحب السائل في الفقه على المذهب الشافعى وتصرح بذلك ، وذكر في التقويم الزراعي الشهور القبطية ككيهك وبرمودة وبشننس ومسرى وأمشير ،

### أحمد حسن الزيات

٤٦٣

ثم تقول في حضرة الرشيد : الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان . ومن الغريب أن الاستاذ اوستروب يقول في دائرة المعارف الاسلامية ان هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان « لا دون زلانزبور » أو تودور . ويظن أن تودد تصحيف تودور . ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لارى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية المحدثة .

وهناك عدا ما ذكرت بمجموعة من أقايسص الفرسان والاجواد ونواذر الاولياء والزهاد نقلت من العقد الفريد المستطرف وعروض المجالس ومناقب الصالحين لم يقصد بها الا توسيع الكتاب .

### مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسمية

ذهبت جهود الباحثين باطلاً في تحقيق هوية المؤلف ، لأن هزار افسانه نقل إلى العربية عفلاً لم يتم واضحه ، ثم غشيتها الطبقتان البغدادية والمصرية على التدرج ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع في عصره من ثمرات الفرائج وقطارات الاقلام دون أن يستدعاها إلى راو أو يعزوها إلى مؤلف . ولماذا يفعل ذلك وهو يريد أن يحفظ وبقى لا أن يروي وينشر ؟ فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في المهد الذي ذكرته قيس الله لها من ضم شتات الفتها ونسق نظام وحدتها ثم دونها على هذه الصورة . ولم يستطع ذلك الجندي الجبور أن يعلي اسمه على الخلود ، إما امتواضع فيه حمله على إنكار ذاته ، وإما اتواطه من النكران والنسيان أمات اسمه بعد مماته ، ومن التوافق الغريب أن أحباء الكتاب الذين وضعوا الفصص الفرنساوية الكبيرة في المهد الذي دون فيه الف ليلة وليلة قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك ، كأغاني رولان وقصص المائدة المستدركة وقصص الحكام السبعية مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة، ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً لأن الكتاب تكون على اليقين من أعمال مستقلة تم تناهياً بالاتفاق على توالي الحقب، فوضمه وتكوينه إذن عمل جمع، ووجهه وتأديبه عمل فرد، وتحليله إلى الأعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الامكان. أما التاريخ الذي قرر فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الأول من القرن العاشر من تاريخنا، ومن الممكن أن يحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و ١٣٣ وما تواتر في ١٥١٧ و ١٥٢٦ من التاريخ المسيحي. وقد حصره الاستاذ وليم ابن الانكشاري بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٣٥ للميلاد أي في مدى خمسين سنة فوافقناه في الغاية وخالقناه في البداء، ولم نر هذا الرأي اعتباطاً من جهة، ولا استنباطاً من النص الظاهرين من جهة أخرى، وإنما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي وهو أن الاستاذ الفرنسي « جلان » قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب ببلاد الملك لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٤ وقد نقله عن نسخة عربية خطوطية في ثلاثة مجلدات أرسلت إليه من سوريا بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بعمر غ فلا من التاريخ، ولكن الذي قلمها إلى الشام وهو من طرابلس كتب عليها بخطه أنه امنلكر سنه ٩٤٣ للهجرة ثم انتقلت من بيده إلى يد آخر من حلب فكتب عليها أيضاً تاريخ هذا الاتفاق وهو سنة ١٠٠١ فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل سنة ٩٤٣ بزمن قدره كما قدره « ابن » بعشرين سنين.

هذا من جهة الطرف الأعلى أما من جهة العارف الأدنى فاما نجد ذكر القهوة المعروفة يتعدد في بعض الحكايات كحكاية أبي صير وأبي قير وحكاية علي نور الدين ومريم الزناربة مثلاً وذلك لا يكون قبل العهد الأول من القرن العاشر لأن القهوة لم تنتشر في الشرق إلا في هذه المدة، ثم نجد افظ الباب المالي وبعض النقام المعنوية تذكر من حكايات أخرى

كتاباً معروفاً الاسكاف وهي مصرية قطعاً والغثائيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دون بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣.

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة، أما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل ان تيسر في حكاية تعدد في أخرى، ويensus الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالأستاذ وليم بور الامريكي فإنه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من الجلة الآسيوية جزم فيه بأن حكاية الوزير شمس الدين وتور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ويرجح أنها كتبت سنة ٧٠٦ وإن قصة الخياط والحدب بما تشمل عليه من الحكايات الأخرى كفنين بغداد قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة والدخول في هذا الموضوع يخرج بما إلى التفصيل الذي يذكر في الروح ويمحمد نشاط الحديث.

سمى العرب هزار افسانه الف ليلة ولو أرادوا الترجمة الامينة لقالوا الف خرافه أو أسطورة، فمدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين: إما ان الليلة كانت في اصطلاحهم ترداد الأسطورة باعتبارها زماناً لها وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد بن اسحق الوراق: « اهدا أبو عبدالله الجهمياني صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه الف سحر من أسماء العرب والمجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذلك لا يتعلق بغيره وأحضر المسارعين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة في الانمار والخرافات ما يحمل بنفسه .. فاجتمع له من ذلك اربعاء ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سحر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر، ثم عاجلهته المنيه قبل استيفاء ما في نفسه من (٣٠) عا

تبيّن الف سر . . . ، وإنما أن يكون عدد الألف في الأصل إنما أريد له التكبير لا التحديد على حد قوله تعالى : « إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » وأحرّ به أن يكون كذلك فإن ابن النديم قد رأه بقامة مراراً وقال إن فيه دون المائة سر وهو اليوم بطيقاته وزرياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٦٢ حكاية قسمها المؤلف على الف ليلة وليلة تقسماً فيه عبث المهزل أو سخف الصناعة فإن شهرزاد يدركها الصباح دائمًا ولا يُغض على حدتها غير بعض دقائق على أنه لم يبق منها رأه ابن النديم إلا تلك الحكايات التي سردتها عندما تحدثنا عن الأصل .

اما زيادة الليلة على الألف فمن عمل القرن السادس لأن النسخة التي رآها القرطبي يحصر على عبد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم الف ليلة وليلة . ويقول « جيلدستر » في تعليم زيادة الليلة ان العرب يطلقون بالأعداد الزوجية وهو زعم غريب ما رأيت في تاريخنا ولا في أدبنا ما يؤيده . ولقد ظلل الكتاب أكثر من قرنين يسمى الف ليلة وكان الجهمي يزيد أن يسمى كتابه الف سر وعندنا الفية ابن معطي والفيه ابن مالك ، وأغرب من هذا الزعم أن يؤيده او مستروب في دائرة المعارف ويزيد عليه أن ميل الناس في تلك العصور الى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث أيضاً على هذه التسجيع ! وليس في قولنا الف ليلة وليلة كما تملئون تسجيع ولا مزاوجة . والغالب في رأيي أن الليلة إنما زيدت فوق الألف لفائدة السكاك كطفحة الاناء ورجحة الميزان ، لأن الألف عدد قائم بالنسبة الى هذا الكتاب فإذا زيد عليه الواحد كان كاملاً . والسكاك درجة فوق الخام ، وإن في لغة التخاطب ما يشبه ذلك فقد يقال في المن قصنت لك الف حاجة وخاصة وفي المبالغة زرتك الف مرة ومرة وهي جراً .

## طريقة الكتاب وأسلوبه

كانت طريقة العرب في القصص أن يسردوا الأسماء والآحاديث على نصّ يجمل كل حكاية قائمة بذاتها لا يربطها بما يسبقها ولا بما يلحقها علاقة . وترون ذلك واضحاً في أمثال لقمان وكتب التوادر فلما نقلت الأقايسن الهندية إلى العربية في القرن الثالث عن طريق الفارسية ادخلت في أدبنا القصصي طريقة تجعل الحكايات سلسلة متصلة بالحلقات متتابعة الخطوات متتابعة النسق ، وذلك على ضررين : الاول أن تتعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية تكون فاتحة لبدايتها وسبباً لروايتها ابتداء التوعيق عن فعل ما لا يحمل ، وذلك في العربية مذهب كتاب الوراء السبعة وكتاب كليلة ودمته وأغلب كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو في الفارسية مذهب بختيار نامه وقصة جهار درويش وقصة نوروز شاه وكتاب طوطى نامه وأنوار سبيل مثلاً . والضرب الثاني أن تروي الحكايات موزعة في الكتاب على عدة أبواب بحيث تكون الحكاية في أي باب من هذه الأبواب مقدمة لحكاية الباب الذي يليه . ومن هذا الضرب في أدبنا كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع لابن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥ ، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكرة الفارفاه لاحمد بن عربشاه الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ ، وفي أدب الغرس كتاب مرزبان نامه لمرزبان بن رستم بن شروين ، وقد ترجمه ابن عربشاه واستمد منه ، ذلك فضلاً عن الطريقة الفارسية التي احتذيناها في الأقايسن الغرامية المطولة . فألف ليلة وليلة إذن يجري على ثلاث طرق : يجري على الطريقة الهندية في الحكايات المتداخلة المتسلسلة حكایات الأصل وحكایات البنات الثلاث والعماليك الثلاثة وحكایة الحباط والأحدب والطبيب وحكایة جان شاه وحكایة وردخان . . . الخ . ويجري على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة المجردة كحكایات المشاق في بعض أقايسن الأصل وما جرى بحراها من حكايات الطينة

البغدادية فإنها مفروبة على قالب القصص الفارسي في الاعتماد على الحب الوهبي الذي يصيب طرفاً، الشباب على أثر طيف يزور في الكرى ، أو صورة تعرض في الغرب ، أو حكاية تلقى في المجلس . ثم يجري على الطريقة الأمريكية الخالصة في الأقايس الصغيرة المقتبسة من كتب الأدب كحكاية حاتم الطائي وحكاية معن بن زائدة وحكاية إبراهيم بن المهدى وحكاية خالد بن عبد الله الفسري مثلاً ، أما أسلوبه فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص ، فإذا حكينا عليه فاما نحكم على جملته لا نفصيله وتتوخى الصفات العامة في تقدمة وتحليله ، فهو في عمومه أسلوب سهل المأخذ مضطرب بالسايق ، سوفي اللفظ بيسوط العبارة كثير الفضول كثير التضمين جريء الاشارة لا يعرف الكتابة ولا يقى الحياة ولا يصطنع التحفظ ، لأن سبيله سهل العامة فهو يسارهم في ثرثرتهم وفضولهم وسذاجتهم وصراحتهم وبالادهم ولا يستطيع أن يكون إلا كذلك . يسير سير الأعرج المفلوج وراء المذهبين الكتابيين الذين راجوا على التماقب في عهده وها مذهب ابن الصيد في العراق ومذهب القاضي الفاضل في مصر . فهو يسرف في السجع ويكتنر من اقتباس الأمثال وتضمين الملح ، ويتطرف أحياناً بذلك مصطلحات النحو على سبيل التشبيه أو التورية كقوله في قصة قر الزمان الثانية : « باتا على ضم وعنق ، وإعمال حرف الحر باتفاق ، واتصال الصلة بالموسول ، وزوجها كشنون الاضافه معزول » وهو يغالي في تضمين الآيات في خلال الحكابيات ويعمن في ذلك غالباً حتى يدل . وترصيع النثر بالشعر اسلوب لا يألمه الأدب العربي ولا الأدب الفارسي ، وإنما هو ميزة من مزايا الأدب الهندى أيضاً . اقتبسه الفرس ثم نقله كتابهم إلينا في منتصف العصر العباسي وروجه في عهدبني بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات كان العميد والصاحب والبديع والخوارزمي ومن ترسم خطام أو سار على هدام . وموضع هذه الأشعار يكون عادة في مواقف السرور والحزن والوصف ونورات العواطف .

ولكن الفصاص يسيء في الغالب استعمال التضمين في خطبيه . مواضع الأشعار ، أو يجمل محل المناسبة ، أو يردد الآيات نفسها في كل موقف . وقد تدفعه الحاجة إلى الاستطراد فتقول : « وقال الشاعر أيضاً في المغني » ثم يورد آياتاً لا يصلها بالموضوع سبب ، كما فعل في مقدمة علي نور الدين ومريم الزناريه مثلاً ، فإنه حين وصف البستان لم يترك نوعاً من أنواع الفاكهة إلا ذكره وروى ما قيل فيه من الشعر حتى استغرق في ذلك خمس صفحات من الكتاب !

إن خير ما يمتاز به اسلوب ألف ليلة وليلة هو الوضوح والصدق والصراحة والجاذبية ، فالمعاني تسقى الافاظ إلى الذهن ، والصور تسقى الوصف إلى الخاطر ، والشوق يبعث اللذة وبثير الاهتمام ومحرك الانتباه ويربط السامع أو القاريء بموضع القصة . على أن الفصاص يماجي التصور والخوار بدقة وبراعة في كل ما يتصل بأحوال الشعب وأخلاق العامة ، فإذا سما إلى مقام الملوك والخاصية خاتمه قدرته وغلبت عليه بيته وطبيعته ، فيفقد ما يسمى في الفن الكتابي بالصبغة الحالية ، وهي أن يسند إلى الشخص ما يلامس طبيعته وطبقته وبيته من قول أو فعل . فالآقايس الهندية والفارسية تشوبها روح الفصاص الاسلامية كحكاية قمر الزمان بن الملك شرمان ، والحكابيات البغدادية تظهر فيها اللهجة المصرية كحكاية أبي الحسن الخلبي ، ثم زاهي يجري على لسان الخليفة الرشيد ما يأتي عليه جلاله وكالم أنه يقوله وبجمله يفعل ما لا يجوز في العقل أن يفعله ، كأن ينادي وزيره جعفرأً بقوله : يا كلب الوزراء ويكافه في قصة الفتاة المقطرة بالعنور على القائل في مدى ثلاثة أيام وإلا شنقه هو وأربعين من بي برمك . وكان يخلع في حكاية علي نور الدين مع أنيس الجليس حلة الملك ليرتدي مرقة مالية قدرة لكرم الصياد فيفيض قعلها على أطراقه ، ويسهل قدرها على متكيه وأعطيه ولو أن ما كلف به الرشيد من التعجب المزري كان اضرورة ملحة لوجودنا له مسامعاً من الفن . ولكنه جشه ما جشه يتسع للخليفة أن يسمع عنه

أليس الجليس وهي في قصر من قصوره وفي ضيافة خادم من خدمه ! فهو يدخله في هذا الزي الزري على الحبيبين والبستانى ليقدم إليهم ما معه من السمك فيكافوه شيء في المطبخ فيشو به !!

وكثيراً ما تدفع القصاص شهوة الأغراب إلى تجاوز المبالغة المعقولة فتفوته من الفن صفة الامكانية ، وهي أن يلبس القصعي الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة فيقرب ما بينها من الفارق ويعهد لها أسباب الواقع حتى لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد . والالمثلة على هذا العيب مستفيضة في كل قصة . وفي الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت شروط الفن القصعي كلها كقصة الصياد والجني وقصة مزين بغداد ومقدمة حكايات المستبداد وقصة علي بن بكار وشمس النهار .

هذا إذا نظرنا إلى الأسلوب في جملته وعمومه ، أما إذا تبعناه بالمعنى الخاطئ في نواحي الكتاب وجدناه فيها بي من الأقاصيص الهندية والفارسية وما جرى عبرها من الحكايات الحديثة المقلدة بين السذاجة أبله الاشارة لأنها من نوع الخوارق التي تدخل على القلوب الغريرة ، ولا تظفر إلا بتصديق العقل البسيط ، فهو جار مع طبيعتها منافق اللون مع صورتها ، وفي الطبقة البغدادية تراه مزين العبارة عفيف اللفظ حسن السبك دقيق الوصف كثير السجع قليل الفضول لأنها في الغالب مكتوب بمحذى على المثل العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب ، وقد يسف في بعض الأقاصيص أسماءاً قبيحاً فيتغلب بسخنه على الطبع ويعتدى بضعفه على الذوق ، كما زاه في قصة الخليفة مع النائم اليقطان مثلاً .

أما الأسلوب في الطبقة المصرية فهو في قسمها الأول وخاصة الأقاصيص المكتوبة منه أشبه بي ، بإسلوب الطبقة البغدادية مع اتساع في السجع وجراه على الحشمة ، والغالب عليه التقليد ، فنارة يجري على منهاج الطريقة الهندية كما زاه في حكاية وردخان والملك جليماد ، وتارة ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعاه في قصة قمر الزمان الثانية وحكاية سرور وزين المواتف ، وقد يجري في مجراته

الخاص من التهم الساخر والمزاح المضحك فيكون ريقاً كما زاه في قصة الأحدب وخاصة في مزين بغداد ، ولكنه في القسم الثاني وفي سائر القصاص الاقائية التي ألفها القصاص ليلقواها في السوامر مهلهل النرج عامي اللفظ مرذول المبالغة سيء التلقيق شديد الوطأة على الحياة والرواية لصدره عن قصاصين محترفين جهلاً يتملقون فيه شهوات الماء بالاختصار ، ويستفزون فضول الجمهور بالبالغة ثم يكثر فيه ترداد الجمل المحفوظة المتردمة فيقال دائمًا في وصف القيمة المازفة : « فعملت على العود من غرائب الموجود إلى أن طرب الحجر الجامد وصاح العود في الحضرة يا داود » وفي إثبات البعد : « بعدك عن الحبيب أجمل وأحسن . عين لا تنظر وقلب لا يحزن » وفي غرابة الحادثة « لو كتبت بالابر على آماق البصر ل كانت عبرة لمن يعتبر » وفي وصف الشيخ الفاني « قد أبقى ما أبق وعركه الدهر فما استبقى ، كأنه مفتني ملقي ، في خرقه زرقاً ، تمر بها الأزياح غرباً وشرقاً » كما قال فيه الشاعر :

أرعشني الدهر أي رعش والدهر ذو قوة وبطش  
قد كنت أمثي ولست أعبا واليوم أعبا ولست أمري  
وفي وصفه ساحة الحرب و المجالس الانس ورياض الأرض وأناث البيت  
لا يكاد يغير شيئاً من الاسجاع والاواع ومقطوعات الشعر .  
ذلك يا سادي ما استطعت استشفافه من سور الاسباب الازية في  
الكتاب ، وسترون حين تعيدون قراءته أن القصاص والصنفين والصحابين  
في مصر قد أخذتهم اخضاعاً شديداً للباحثين وأساليبهم وأمثالهم ، حتى  
حملوا البحث اللغوي الفني من البعد بحيث لا تبلغ إليه وسيلة .

### فلسفة ومراميم

صيادي وسادي : إن من يطلب من ألف ليلة وليلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة كان كمن يطالب من كافة الناس عقيدة واحدة وطبيعة

تابة وأغراضًا منفعة ، فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبي يصور الحياة الدنيا كما هي لا كما يتبين أن تكون ، فإذا رأينا مذاهبه تتناقض ومراميه تتعارض وآراءه تختلف ، فذلك لأن المجتمع الذي يصوره كذلك .

وم يكن الكتاب متاج قريحة معلومة ولا نتيجة خطة مرسومة حتى تنس في جوانبه الدوافع والتوازع والغاية ، إن هو إلا صدى يتعدد خافياً لمقاصد الشرق القديم وعقلياته وعاداته ، وفي الفلسفة تراه يتأنى بالـ «فلاطونية الحديثة» والأخلاق الإسلامية فيدعى إلى الفناء باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال في الذلة والبالغة في الحذر والتقويض المطلق للقدر ، فروجه من هذه الجهة متنافر مع صوره البراقة ووسائله الطاحنة وحوادثه المغامرة ، ثم زراه في أقصاص أخرى ولا سما الحديثة زين الاتانية ، ويرتفي القسوة ، ويتشوف إلى المكاسب الدنيئة ، وبشره إلى الذلة الخسيسة ولا يكاد يعتقد بالعواطف الكريمة ، وقد يصور المتع الحسي واللهو الجلوح بما لا يتمثل في الذهن إلا على سبيل التخيال كالذى يحكى عن فتى من أبناء الملوك رسا إلى جزيرة كل من فيها من تجارة وصناعة نساء كائنن الأئاؤ المكنون قضى بينهن في هذا النعيم أيامًا أقل ما أصاب فيها من الذلة أنه كان يلقي الشبكة في الماء على سبيل الهبو فتخرج إليه من الأصادف خريدة من بنات الجان كانوا حوريين من حور الجنان الخ .. فإذا اختبرناه في السياسة والمجتمع رأينا ملكاً يقيم في كل مدينة عرشاً وينصب على كل مجتمع من الأحياء ملكاً حتى الحيات والمحشرات والطبلور والوحوش والقردة ، ديمقراطياً يشرك الملك والسلوك في «منع الحياة وبمحال الإنس عائلاً» يبني نظام البيت وتأمين الحجد على الزوجة والولد . لذلك تتجدونه يستهل معظم أقصاصه بجين الوالدين إلى النسل ، وفرزها إلى الله أو إلى المنتجم من داء العقم . وقد يسمو مفازاته إلى الفلسفة الاجتماعية العالمية ، مثل ذلك حكاية الاستبداد والخال .. فالخال يزوده الجل الفادح ، وبنفسه الحر اللافح ، فيلقي حلمه

على مصطبة أمام بيت من بيوت التجار يتتردد إليه النسم الرطب ، وتغوص منه رواحة المطر والطيب ، ثم يرى عظامه ذلك التاجر في كثرة خدمه وغماته ، ويسمع تغريد البلابل والفواثت في بستانه . وبصفي إلى ربين أوتاره وغناء قيائه ، وينشق أفاويه الطعام الشهي من صحافه وألوانه ، فيرفع طرفه الحائز إلى السماء ويقول سبحانه يا رب لا اعتراض على حكمك ولا معقب لامرک ! أين حال من حال هذا التاجر ؟ أنا مثله وهو مثلی ، ولكن حمله غير حمي !!

على أن أسوأ ما سجله ألف ليلة وليلة من ظلم الإنسان وجور النظم هو القسوة الجائرة على المرأة ، فإن حظها منه منكود وصورتها فيه بشعة ، وكيف تنتظر من كتاب بني على خيانة المرأة أن ينصف المرأة ؟ إن شهرزاد المسكينة إنما تسهر جفتها وتكد ذهناً لنقص على الملك شهريلار أتعجب القصص ابتغاء الحظوة لديه حتى تدرأ القتل عن نفسها وانخرط عن بنات جنسها ، ومن الخطأ الائيم أن يSEND القصاص كل هذه الفائقين إلى النساء على لسان واحدة منهن في مقام الدفاع عنهن ، وإن يجري على فها في حضرة الملك تلك الكلمات الجريئة الخنزية في وصف بسيمة الرجل !!

ألف ليلة وليلة يصور لنا المرأة في القسم الهندي الفارسي خطالة خائنة تبيع عرض الملك للعبد في قصة شهريلار وأخيه ، لوجة جوحة أنانية في قصة الحمار والثور تصر على أن يبوح لها زوجها بسره ، وهي تعلم أن في افشاه ضياع عمره ، حاقدة كائنة متنقحة في قصة الوزراء السبعة ، فاسية عاتية مرهوبة في حكاية قمر الزمان الأولى ، وهي في بغداد سجينه في قصرها ، مغلوبة على أمرها قد اتبذلها زوجها وأتقى زمامه في أيدي الجواري والقيان ، وعلى كلتا الحالتين من حرية ورق زراها وسيلة لذة وغرض شهوة وأداة خدمة ، أما هي في مصر والشام فوجودها عدم ، لا تسع لها صوناً في بيت ولا ترى لها أزواً في سوق ، فإذا خرجت من

ظلام النtar إلى ضوء النهار كانت طاغية جاهلة كزوجة معروفة الاسكاف ، أو لصة جالة كدلالة وبتها زينب ، أو قوادة مرتدة كأولئك العجائز اللائي ينقلن الفتنة من مكان إلى مكان ويصلن المنكر بين فلانة وفلان .

أما تصور الكتاب لما ظهر في المجتمع الشرقي في الفرون الوسيطة من العادات والأخلاق والمراسم في السوامر والولائم والأعراس والماائم والأسواق والمحاكم فقد بلغ الغاية من ذلك كلها ، إلا أن الطبقة المصرية في هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع لأن الفcasas وهم مصريون تكلموا عن علم ووصفوا عن رؤبة ونقلوا عن ساع ، فإذا قرأت مثلاً حكاية نور الدين وشمس الدين وجدهم المصريين كانوا في حفلة المقد يطلقوون البخور ويشربون السكر وينضحون الوجه بعاء الورد ، وفي زفاف العروس ينقطون المواشط والقیان بالفقاء التقد في الدف أو الإطار كما يسميه ألف ليلة أو الطار كما يسمى الآن في مصر ، وفي جلوتها على المنصة يجلسونها بين صفين من كرام السيدات في يد كل منهن شمعة موقدة ، ثم يلبسونها حلقة بعد حلقة في فترة بعد فترة حتى يخلع عليها سبع حلقات ، ومع كل سيدة من المدعوات إلى الحفل صرة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ، فكلها خلعت العروس حلقة خلع المدعوات كذلك حلقة إلى عام السبع ، ولا تزال هذه المدادات باقية في بعض البلاد وبعض الأسر في مصر . وإذا قرأت حكاية علاء الدين أبي الشامات وجدتهم كانوا يستعملون الحشيش قرة لازوج ويتخذون المخلل خلاصاً من العائلة الثالثة وهو خلتان شالستان اليوم في الطبقة الدنيا ، أقرأوا حكاية معروفة الاسكاف تتجدد مثلاً سادساً ببعض الناس هناك في ضعف الإرادة وسلامة الصدر وحب الآية وتبذير ما في الجيب انكلاً على الغيب واحتضاماً لاحق ، وتجدوا زوجه فاطمة المرأة التي فرَّت من جبروها وخفوها وقسواها وعنادها إلى أقصى عجائب الأرض فتبعته ، لا يزال لها شبه في الباقيات الصالحة بعصر من بعد الجاهلة .

أما الطبقة البغدادية فقد عبَّرت بها الفcasas وشاووها بهجاتهم وعاداتهم ولكنها مع ذلك حرية بشقة الباحث إذا استطاع تقبيلها من شوائب الهرج والمدخل .

بيَّن علينا أن نعرف وجهة كتابنا في الدين ، وليس من المسير على القاريء المادي أن يتبيَّن تلك الوجهة فان في كل صفحة من صفحاته دليلاً على أنه مسلم صادق الاعان قوي المقيدة يأخذ تقالييد الدين صححة أو مشوبة مأخذ العامي الواهن المطمئن فلا يبحث ولا يستنبط ولا يطبق حتى في مقام الحكمة والموعظة ، لا يكاد يذكر حدثاً أو آية وإنما يستند في ذلك إلى مؤثر الشعر ومنتور الحكم ، فسبيله في الدين إذن أن يدعو إليه ويهتف به ويتعصب له ، لذلك زراه لا يتحدث إلا عن المسلمين ، ولا يتخذ أشخاصاً لقصصه حتى الاجنبية منها إلا من المسلمين ، فإذا كان أحد الجنة أو الناس غير مسلم واضطر إلى الحديث عنه ، انتهى به إلى الاسلام أو دبر له عقبى سيئة وذلك نادر ، كما فعل في حكاية مسror المسيحي وزين الموصاف وزوجها اليهوديين ، فالحبيب والحبية أسلماً فورفت عليهما ظلال النعيم والحب وظل الزوج يهودياً فدفنته امرأته جاً . وألف ليلة وليلة بعد ذلك سني لا يكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الاسلام حتى الشيعة ، وكان لهم على عهده في مصر دولة الفاطميين ، وفي العراق نفوذ البوهيميين لم يذكرهم إلا في حكاية علاء الدين وهي مكتوبة بعصر على عهد الملائكة ، ولقد دل " حين تعرض لهم في هذه القصة على جاهلة قبيحة أو دعاية سيئة ، فقد أشار في موضع منها إلى أن الروافض كانوا يكتبون اسمي الشيخين على بوابن الاعقاب ، وقال في موضع ثان أن أهل بغداد كانوا يغلقون الابواب خوفاً من الروافض أن يلقوا الكتب في دجلة ، وقال في موضع ثالث : إن الرشيد سأله الرجل الذي هُـ باختياله وهو يلعب الكرة والصواريخ فنجاه أصلان بن علاء الدين : أما أنت مسلم ؟ فقال كلا وإنما أنا رافضي .

## مخطوطات مطبوعات وترجمات

صنف المقربون ما عزروا عليه من مخطوطات ألف ليلة وليلة فكان هنالك بجموعات مختلفة : مجموعة آسيوية وبمجموعتين مصريتين ، فاما المجموعة الآسيوية وهي أقدمهن فلا تشمل إلا على القسم الأول من الكتاب واحدى نسخها مبتورة ، وأشهرها نسخة كلكوتا وهي تحتوي على مائتي ليلة وقد شرع بطبعها الشيخ اليمني في جزءين بمدينة كلكوتا سنة ١٨١٤ م وأتمها سنة ١٨١٨ م فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب في الشرق والغرب . ثم نسخة « برسلو » وهي التي طبعها الاستاذ « هبيكت » في ائمته عشر جزءا ، ظهر الجزء الاول في سنة ١٨٢٥ والآخر في سنة ١٨٤٣ .

واما المجموعتان المصريتان : فهنا أحدث من الاولى وبين نسخها اختلاف شديد في الأسلوب والترتيب والمددة والقصص ، ومن هاتين المجموعتين نسخة كلكوتا الثانية التي جمعها وطبعها الاستاذ « ماك نوكتن » في أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤٢ ، ثم نسخة بولاق التي طبعتها الحكومة المصرية في مطبعتها بالقاهرة سنة ١٨٣٥ في مجلدين وهي أكمل النسخ جيماً وأصحها ونتها صدرت جميع الطبعات في مصر والشام وبومباي ، ونقلت جميع الترجمات إلى جميع اللغات ماء دا ترجمة « جلان » . فاما الطبعات : فكلين سواسية في قبح الشكل وسوء النقل وقلة المعايير الصدورهن عن أرباب المكاتب وأصحاب المطابع وهم لا ينتفعون بأوفر ربح في أيسر كافية . على أن أديماً من الآباء اليهوديين قد طبعه بيروت جيماً جيلاً في أربعة مجلدات بعد أن قص من قصصه واقتضب من جمله وهذب من عبارته ، ثم جاء متني « الهايال فاربي » عليه في الحذف والبتر والاختصار وطبعه بعصر خمسة أجزاء صغار ، وهاتان الطبعتان ولا سيما الاولى أليق الطبعات بالأخلاق الفنية وجاه الفناء ولكنها لا تتعان غلة الأدب الباحث .

واما الترجمات فأولها في الوجود ترجمة الاستاذ جلان وهي أنيقة الأسلوب رائعة السبك إلا أنها غير دقيقة ولا أمينة ولا وافية ، على أن

لها البد الطولي على الكتاب في التعريف به والتزويد باسمه والدلالة على فضلها ، طبعت هذه الترجمة بباريس في ائمته عشر مجلداً ابتدأها من سنة ١٧٠٤ إلى سنة ١٧١٧ ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة انكليزية مختصرة في ستة مجلدات بعنوان « الديالي العربية » ، وأشهر الترجمات بعد ذلك في السنة والمدة والصدق ترجمة بورتن بالإنجليزية ، وترجمة ماردووس بالفرنسية ، وترجمة هبيكت بالألمانية .

\* \* \*

ذلك يا سادتي ما يتحمله المقام والوقت من تاريخ ألف ليلة وليلة ، وانكم لترون من هذا الاجمال فعل القرحة العربية فيه ، ومظاهر العقيدة الاسلامية في جميع نواحيه ، وطابع العقلية السامية في أخبلته ومراميه ، حتى أصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عنوان آدابنا ، وشاهدنا جديداً على الحيوية القاهرة والشخصية الآمرة في آدابنا ، والا ، فهذا نفسر هذا ؟ لقد خلعوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائعاً في رسالة محمد ، وخلفوا اليونان على العلم فعاد عربياً ساطعاً في فلسفة ابن رشد ، وخلفوا الرومان على الحضارة فبهرت العالم بالعمران والمعدل في عصر الرشيد ، وخلفوا الفرس على الأدب فأخصموا أنفسهم وأفندتهم لأدب القرآن ، وخلفوا المهدود على القصص فأرموا روعة الخجال وقوة الالهام في ألف ليلة وليلة ، وخلفوا الأمم المظلمى على أكثر الأرض فأوشكوا أن يرموا العالم ! فللت شعرى ألمغيرة الصحراء ، أم فسدت الدماء ، أم ضربت الآدبان ، أم هي ربضة الأسد واستجامة المتعب واستجاعة الوائب ، ثم استثناف المجمدة الأولى على الموقع الأول في الحياة .

لقد اعتنكم طويلاً وأتبتمكم كثيراً وكدت أخرج من المخاضرة إلى الخطاقة فعذرآ يا سادتي وشكراً .

دمشق : شباط سنة ١٩٣٥ .

وقد فسر هذا تفسيرًا عجيباً ذاك أن الكاتب بالخط الفهلوi القائم  
كان إذا خشي أن تفهم الكلمة إذا كتبها باللغة الفارسية وضع مكانها  
كلة آرامية تتضمن في هذا الخط ، فإذا أراد أن يكتب « كوشت » مثلاً  
وهو اللحم بالفهلوi كتب « بسرا » بالآرامية وقرأها « كوشت » ، وإن  
أراد أن يكتب « نان » وهو الخبز بالفهلوi كتب « خا » بالآرامية  
وقرأها « نان » وهكذا ... .

ومعنى هذا أن الكاتب الفهلوi على هذه الطريقة كان يعرف الآرامية  
فيستعين بها في مواضع اللبس .

\*\*

وأما العرب فقد جاوروا الفرس وخالفتهم وكان بين القبائل العربية  
والدولة الفارسية احداث وغيّر من سلم وحرب وموادة ومعاداة ، وسيطر  
الفرس على أقاليم عربية . وقد روي أن سابور الملك الساساني صالح  
العرب وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان  
ونوج والهواز .

وقد ذكر مؤرخو الفرس أن بهرام كور الملك الساساني نشأ في  
الخير في كفالة المنذر أحد أمرائها ، وتأدب بآداب العرب وعرف لغتهم  
ونظم بها الشعر وكان أول من نظم الشعر الفارسي ، وقد انكره عليه  
الموابدة ونحوه عنه .

وكذلك دخلت الفاظ فارسية في العربية وعرف بعض العرب الفارسية ،  
وكان عدي بن زيد ، وابنه زيد بن عدي يكتبان لكتوي  
بالعربية والفارسية .

وفي أساطير الفرس صلات كثيرة بين العرب والفرس لها دلالتها .

## الأدب العربي في بلاد فارس

واللغة العربية في البلاد الإسلامية غير العربية

للسکرر عبد الرحاب عزام

### الساميون والبرازيون قبل الاسلام

ليس من قصدي أن أتكلم في الصالات اللغوية والأدبية التي كانت  
بين الساميين عامة والمرب خاصه وبين البرازيين قبل الاسلام . فأجزي  
بأن أقول إن الآشوريين والبابليين كان لهم سلطان سياسي ، وسيطرة  
أدبية على ايران ، ولا سيما غربها منذ الف سنة قبل الميلاد ويتبين هذا  
في الأمور الآتية :

١ - إن آثار الدولة الفارسية الأولى التي تسمى الآثار الفارسية  
هي خامتشني ، ويسمى الاوريون الاكمين ، وتسمى باسماء أخرى في أساطير  
الفرس ، آثار هذه الدولة كتبت بلغات احدها سامية وكتبت بخط  
مساري مشتق منه الخط الآشوري .

٢ - وإن لغة ايران أيام الساسين اللغة التي تسمى الفهلوi ،  
كتبت بخط مأخوذ من الخط الآرامي ، واشتتملت على كثير من الالفاظ  
السامية ولا سيما الآرامية منها .

وكان من أثر هذا الاختلاط هذا الخط العجيب الذي سماه ابن النديم  
هزدارس . وهو خط تكثر فيه الكلمات الآرامية بل تجد فيه ما لا يستumar  
من لغة إلى أخرى من الضمار وأسماء الاشارة والاستفهام والmosولات  
وحرروف العطف والجر ، وعلامات الجم والاعداد .

## في العصر الإسلامي

فتح العرب إيران لنشر الدعوة الإسلامية وشحل الفرس عدل المسلمين وإحسانهم ، وسارعوا إلى الدخول في الإسلام فعمتهم الأخوة الإسلامية . قال الطبرى : « فكانوا كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوف لهم وأعدل عليهم ». فاغتبطوا وغبطوا بل أسلم بعض الإرانيين ونصروا العرب في وقائع الفتح . أسلم الدبیم بعد الفادسية وشارکوا في فتح جلولا ونزلوا الكوفة ، وشارک أحد أعيان الفرس في فتح الري وتولاهما بعد الفتح ، وطلب سياه أحد زعمائهم أن يفرض له كأكثرا ما يأخذ عربي ليشارک في الفتح .

وقد انساح العرب في أرجاء إيران منذ عهد عمر ، أذن لهم الخليفة في الانساح حين ثار أهل فارس والجبال . وقد روی الطبرى قول عمر : « ألا وإن المصري - البصرة والكوفة ، من مصالحها اليوم كأنتم والمصريون فيما مضى من بعيد . وقد وغلوا في البلاد والله بالغ أمره .

وبالفتح صارت لغة القرآن لغة الدولة ولغة العلم والأدب في إيران ، يستعملها العربي والمعجمي في علوم الدين وغيرها . وبقيت زهاء مائتين وخمسين عاماً متفردة بالعلوم والأداب لا تشارکها لغة أخرى الا كتب دينية قليلة كتبها المحبوس بالفهلوية تبليغها لدينهم ودفاعاً عنه .

ومارت العربية كذلك لغة الخطاب بين المثقفين ، وفي الامصار الكبيرة ولا سيما في خراسان وغربي إيران .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شرع الفرس يستقلون عن الخلافة في أرجاء من إيران ، وكانت دولهم كعظام على مقدار تأخرها زمناً وبعدها عن دار الخلافة مكاناً .

عبد الوهاب عزام

٤٨١

نشأت امارة الصفاريين في سجستان شرق إيران وامتدت شطر المغرب حتى قاربت العراق وبدأت عهدها بانتوره على الخلافة . وقد قرنت الاساطير الفارسية نشوء هذه الدولة بنشوء أبيات من الشعر الفارسي . ثم قامت فيها وراء الهر وشمال إيران الدولة السامانية وقد انتقل مؤسسوها من ولاة للعباسيين إلى ملوك مسلمين يقررون بالخلافة للعباسيين قولها .

وفي رعاية هذه الدولة التي نشأت في إقليم قصي نشأ الأدب الفارسي وحاولت الفارسية أن تشارك العربية في العلوم والآداب .

فسرع الفرس يترجمون الكتب العربية إلى لغتهم ، كما ترجم العرب من قبل الكتب الفارسية إلى العربية ، فترجم تاريخ الطبرى وتفسيره مختصرى . وشرع الفرس يؤلفون بالفارسية ابتداء ، ككتاب أبي منصور المروي في الطب .

وشرع الشعراء ينظمون بالفارسية وتبغ الرودي السمرقندى أول شعراء الفرس الكبار أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، وقد ذكرت كتب الأدب الفارسي ثلاثة شاعرآ في عهدبني سامان .

وأما الدولة البوهيمية التي قامت في غرب إيران سنة ٣٢٠ هـ واستمرت على بغداد بعد أربعة عشر عاماً ودام لها السلطان على دار الخلافة أكثر من مائة سنة ، فكانت في سلطان الأدب العربي ونظم معظم أمرائها بالعربية ، وكان من كتابهم أمثلة في الكتابة العربية وحبيب بن العميد ، والصاحب بن عباد ، والوزير الملبى ، وأبو اسحق الصابي .

وما يصح به القياس بين اللغتين في دولة البوهيميين أن الصاحب مدحه بالعربية خمسون شاعرآ ولم يدحه بالفارسية إلا شاعران : المنطقي والخسروي .

(٣١)

عبد الوهاب عزام

245

كان مكانة العربية في العلم والادب بعد أن نشأ لاران لمة علمية أدية .

تختلف أحوال اللغتين في الشعر ، وفي النثر ، وفي كتابة التأليف ،  
أعني في البيان الذي يغلب فيه الماطفة والخيال ، وبالبيان في الحقائق التي  
لا شيء فيها من الماطفة والتخيل ، وما هو وسط بين هذا وذاك .

فاما استغرق وقد ادعى به الفرس متن نشأت اغتهم ، وكثير الشعراء  
على مر العصور ، وبنفع عظمه الشعراء فيستطيع مؤرخ الادب أن يعدد  
منذ القرن الرابع الهجري من آنذاك الشعر الفارسي من لا يجد نظيره  
كثرة ومكانة من شعراء العربية في ايران ، ولقي هؤلاء الشعراء من الملوك  
تأييداً وتشجيعاً فالتذوقوا حولهم ونظموا لهم القصائد والقصص المطلولة .

ولكن الشعر العربي لم يضمحل بظهور الشعر الفارسي ، بل يقى من ذهراً  
شائماً في أرجاء إيران . عد "التعالي" في الجزأين الثالث والرابع من  
كتاب البتيمة مائة وواحداً وخمسين شاعراً نظموها بالعربية في عصره .  
وهؤلاء أكثر من كل من ذكرهم محمد عوفي في لباب الالباب من شعراء  
الفارسية منذ نشأ الشعر الفارسي إلى حين تأليف الكتاب .

وقد ألف في أوائل القرن السابع الهجري وعدد صاحب دمية القمر  
ملاًمائة شاعر بالعربية وسبعين بعد أثر الشعر العربي في هذا الشعر  
أفاده الذي زاحمه منذ القرن الرابع كما قدمت .

ويدل على أن إيران بقيت إلى غارات التتر على الأقصى ، موطننا رحيمًا  
لأشعر العربي ، أن ثلاثة من كبار شعراء العرب عاشوا فيها ووجدوا مجالاً  
ومستقراً ، وحسبنا أن ينشأ في إيران في القرن الخامس الشاعر الفرنسي  
الآموي ، الذي أشاد بـمجد العرب وأخلاقهم وأدبهم ، ومثل في شعره  
طموحهم وإيمانهم ، وصور مواطنهم وعاداتهم وبيئتهم وهو أبو المظفر  
الإبوردي المتوفى سنة ٥٥٧ هـ فقد نشأ في أيرلندا من خرمان ، وبنع في

والدولة الزيارية التي سيطرت على الأقاليم الذي بين جبال البرز وبحر قزوين ، وهو الأقليم الذي احتجز عن سائر أقاليم ایران واستعصى على العرب سبع طوالاً بعد أن فتحوا ایران - أعني اقليم طبرستان . فقد تسمى ملوكها وتلقبوا بالاسماء والا لقاب الفارسية مثل : قابوس وکیکاوس .

وقد مدح قابوس صاحب الرسائل العربية المعروفة باسم كتاب البلاغة شاعران من شعراء الفارسية : الخروي والمرخوي ، وألف كيكاووس حفيظ قابوس كتاب « قابوس نامه » بالفارسية .

وأما الدولة المزنوية فهي دولة تركية النسب وقد امتد سلطانها على ايران الشرقية والشمالية وبلغت من السطوة ما لم تبلغه دولة قبلها في ايران في العصور الاسلامية . وكان الادب الفارسي قد ازدهر فاجتمع حول السلطان محمود بن سبكتكين كثير من شعراء الفارسية ، والى محمود أهدى الفردوس الطوسي كتاب - الشاهنامة - المنظومة التي اضمنت اساطير الفرس وتاريخهم منذ العصور الخرافية الى الفتح الاسلامي . وكانت بالفارسية كتب قليلة : كتب اليماني الشاعر تاريخ السلطان محمود ، وكتب البيروني كتاب التفہیم في التنجیم بالفارسية والعربیة ، وترجم نصر الله بن عبد الحمید كتاب کلیله ودمنة الى الفارسية .

وحيماً امتد سلطان السلجوقية على إيران في القرن الخامس والسادس ، و كانوا تركاً بدأة ، كان الأدب الفارسي استحكم ونضج ، وقد عدّ عوقي مؤلف إباب الاباب في تاريخ شعراء الفرس أكثر من مائة شاعر عاشوا في ظلال هذه الدولة .

نشأ الأدب الفارسي الحديث في أواخر القرن الثالث الهجري ونما وترعرع على مر الزمان ، وبنج الشعراه والكتاب باللغة الفارسية . فكيف

الشعر هناك ، وتردد من بعد بين العراق وإيران ، ومدح خلفاء العباسيين وأمراء العرب من بنى سرة أمراء الحلة وغيرهم ، ومدح ملوك الدول الأعجمية كذلك ؟ وما يخرج شاعراً كلايوردي إلا موطن لآدب العربي حصيف ، وحيثاب لغة العرب رحيب .

والشاعر الثاني الفاضي ناصح الدين الأرجاني ، ينتسب إلى أرجان في إقليم فارس وهو الصقع الجنوبي الغربي من إيران ، وهو شاعر أنصاري يُعدّ من كبار شعراء العربية ولد سنة ٤٦٠ وتوفي سنة ٥٤٤

وأدل من هذا على تمكن الآدب العربي في إيران حتى القرن السادس المجري أن آبا اسحق الغزي الكلبي هاجر من بلاد العرب إلى إيران ، فامضى النصف الثاني من عمره فيها ومات بها ومدح كثيراً من ملوكها ورؤسائها . ولد الغزي سنة ٤٤١ وتوفي سنة ٥٢٤ .



والنثر يخالف الشعر وقد يقى السبق فيه للعربية إلى غارات التتر ، سواء في هذه الرسائل الديوانية والرسائل الخاصة المأروفة بالأخوان زيد ، وقد حاكى الفرس كتاب العرب ولم يدركوا شاؤهم .

ولستنا في حاجة إلى بيان مكانة الكتابة العربية في دولة بنى بويه ، وحسبنا أن نذكر من وزراء هذه الدولة آبا الفضل بن العميد والصاحب بن عباد .

ولم تكن العربية دون الفارسية فيما وراء النهر في دولة السامانيين ، ونجده تتفا من الاخبار تدل على أن كبار كتاب الدولة كانوا يكتبون بالعربية : مثلاً الاسكافي كاتب نوح بن منصور السامي كتب حينما هزمت الجيوش السامانية ما كان بن كالي : « وأما ما كان فقد صار كاسمه والسلام » .

وأحمد بن حسن اليمندي ، وزير للسلطان محمود الغزنوي ولا به مسعود عشرين سنة ، وكان يكتب بالعربية في هذه البقة النائية ، ومن توقيعاته المأثورة ما كتبه جماعة طلبوا أن يخط الخراج عنهم : « الخراج خراج ، دواوه أداؤه » .

ومن الدلائل على أن العربية كانت ذات المكانة الأولى في دواوين هذه الاصفاح وإن كانت لغة العامة أعمجية ، أن أحد وزراء الغزنويين اتخذ الفارسية لغة الدواوين ، ولو أن العربية كانت غريبة في تلك الاقتدار لوجد هذا قبولاً ، واستمرت الدواوين بالفارسية لغة البلاد ، ولكن الوزير أحمد بن حسن اليمندي ردَّ الدواوين إلى العربية . ومن الممتع في هذا أن نقرأ ما كتبه في هذا الصدد الغني الذي كتب تاريخ محمود بالعربية مسجوعاً كله ، قال في كتابه :

« وكان الوزير أبو العباس قليل البضاعة في الصناعة لم يمت بها في سالف الأيام ، ولم يرض بناته بخدمة الأفلام ، فانتقلت الخطابات مدة أيامه من العربية إلى الفارسية ، حتى كسدت سوق البيان ، وبارت بضاعة الاجادة والاحسان ، واستوت درجات العجزة والكفاءة ، والنقي الفاضل والمفضول على خطى الموازاة .

وألا سعدت الوزارة بالشيخ الجليل ... . فلزم على أوشحة ديوانه أن يتنكبوا ويتحاشوا الفارسية الا عن ضرورة من جهل من يكتب اليه .

وعجزه عن فهم ما يتعرّب به عليه » .

فهذه حال العربية في أفغانستان في القرن الخامس المجري . وأما الرسائل الأخوانية فلم تبلغ الفارسية فيها هذه القرون مبلغ العربية ، ولم تنشيء الفارسية كتاباً كبدیع الزمان والخوارزمي وابن الصید وأبيه والصاحب ورشید الدين الوطواط .

وكان البديع والخوارزمي يكتبان بالعربية إلى أمراء البلاد وأعيانها شرقاً وغرباً كأنهم في بلاد العرب، ولو لا معرفة المكتوب اليهم العربية ونقلهم هذا الرسائل بقبول حسن ما كتب كتابها بالعربية.

عبد الوهاب عزام

٤٨٧

ويقول عوفي في أوائل القرن السابع: إن كل مستعرب يعرف الفارسية، وليس كل فارسي يمْرُفُ بالعربية. وقد اتفَكَّرَ به في العروض بالعربية، فلقد عليه أدباء زمانه، فكتب ما يتعلّق بأشعار العجم بالفارسية،

وأما اللغة العلمية لغة التأليف فقد كانت العربية مسيطرة عليها إلى غارات التتار، ثم شاركت فيها بعد التتار، وما زال التأليف بها يقل على مر الزمان ولكنَّه لم ينقطع حتى عصرنا هذا.

وقد قال أبو الريحان البيروني: إن الكتاب إذا ألف بالفارسية ذهب بهاؤه، وقال إن لغته الخوارزمية، وإن الفارسية والعربية سواه، لدبه ليست أحداً لها لغته، ولكنه يرى الفارسية لا تصلح لتأليف.

قال: «والى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدادت وحلت في الأفئدة، وسررت محاسن اللغة فيها في الشرايين والأوردة». وقال: «والهجوء» بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية، وسيعرف مصدق قوله من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسي» كيف ذهب رونقه، وكسف باله، واسود وجهه، وزال الارتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة إلا لأخبار الكروية والأسفار البدائية».

وقال أبو هلال العسكري في القرن الرابع: «ولا نعرف اليوم علمًا جاهلياً ولا إسلامياً إلا وأهله عربون ومنعربون يكتبون باللغة العربي وانلحوظ العربي».

وإذا نظرنا إلى جماعة من كبار المؤلفين كان سينا، وأبي الريحان البيروني، والغزالى، والرازي، والزوذنى، والبيضاوى، ونصر الدين الطوسي، وهم من مؤلفي القرن الرابع و الخامس والسادس والسابع، وجدنا لغة التأليف عندهم العربية، لم يكتبوا بالفارسية إلا كتبًا صغيرة لا تقايس بما كتبوا بالعربية.

وما يبين ما بين اللغتين من صلات في تلك المصور الترجمة من العربية إلى الفارسية، والاتساع باللغتين.

ولم تقتصر الترجمة على الكتب التي ألفت بالعربية قبل أن تكون الفارسية لغة كتابة كالطبرى وكليلة ودمنة، بل ترجمت كتب وضعت بالعربية بعد أن صارت الفارسية لغة تأليف: كتاریخ بخاري للترشخى. كتب لوح بن فصر الساماني سنة ٣٣٢ وترجم إلى الفارسية ٥٢٢. وكتاب اليعنى الذي ألفه العتبى للسلطان محمود بالعربية ترجم من بعد إلى الفارسية. وكتب كثير من الأدباء باللغتين شعرًا وثراءً وسي كل منهم ذا لسانين «دوزبار» وعطاء بن يعقوب له ديوانان عربي وأعجمي. ولابستي والباخرزى شعر فارسي ولابن سينا والشيخ سعدى الشيرازى، بل بديع الزمان المخذانى نظم بالفارسية قليلاً.

ويقول صاحب المعجم في معاير أشعار العجم وقد ألفه في أوائل القرن السابع أن شعراء زمانه يعرفون اللغتين، والحق أن معظم شعراء الفرس كانوا يعرفون العربية على اختلاف حظهم منها، وكثير منهم أنشأها كثيراً أو قليلاً.

على أن أمر العربية كان بضعف على مر الزمان شيئاً فشيئاً، فهؤلئك كتاب راحة الصدور في تاريخ السلاجقة يروي شعراء عربين، ويقول أن قليلاً في زماننا من يفهم مثل هذا الشعر.

عبد الوهاب عزام

٤٨٩

متواالية ليست لفارسية فيها إلا التراكيب والصلات . وقد استمر هذا إلى يومنا ولا زال العربية في هذا المضى تتدفق الفارسية بالفاظ جديدة ، إلى الألفاظ التي أمدتها بها في المصور الخالدة .

وكذلك استعمل شعراء الفرس الأوزان العربية والقوافي ، ولكن تصرفاً بها بعض التصرف فزادوا في البحور وفي التفعيلات ، والزحافات والملل ، وأفتقنوا في نظام النغمة .

وبقيت الأوزان العربية في معظم أشعارهم وبقيت اصطلاحات المروض والقافية كلها . ومن العجيب أن شعراء الفرس شجروا الأوزان الثالثة في الشعر العربي ، وأكثروا من أوزان لم يكن النظم فيها شعراً عربياً . شجروا أوزان الدائرة الأولى كلها فلم ينظموا في الطويل والمديد والبسيط ، إلا حاولة بعضهم أن يستكمل الأوزان العربية ، ويبين عن قدرته على استيعابها .

وعمدوا إلى أبخر الدائرة الرابعة التي فيها المقاييس والجثث والمعابر ، الأبخر التي يندر فيها النظم العربي فأكثروا النظم فيها وفتقنوا ، وشاركوا العرب في الأبخر الأخرى .

وفي هذا برهان على اختلاف مزاج الامتنين ، وبيان أدواتهما في توالي الحركات والسكنات في الأوزان . وعلم البلاعة العربي يسيطر على الفارسية بقواعد وألفاظه ، وكتاب حدائق السمر لرشيد الدين الوطواط لا يختلف عن الكتب العربية إلا بأمثلة فارسية معها أمثلة عربية .

وأخذ الأدب الفارسي موضوعات الأدب العربي كذلك ، فهو يستمد من الإسلام وتاريخه ومن تاريخ العرب ، ويزيد موضوعات مستمدة من تاريخ الفرس .

ويمتاز من الأدب العربي امثيازاً وانحياً في موضوعين :

فإن سمعنا وتألیفه بالعربية لا يحتاج إلى بيان ، كتب بالفارسية دانش نامه علانى لملأ الدولة كاكر به أمير أصفهان . والبيروني كتب بالعربية كتبه الخالدة ، وكتب بالفارسية كتبها في الترجم وكتب بالعربية أيضاً .

والفرزالي لا يعرف له بالفارسية إلا كيبياء السعادة ، وقد كتبها بالفارسية لافتتاح العامة كما يقول ، وكتاب آخر يسمى نصيحة الملك ، كتب بالفارسية كذلك .

والرازي له هلاة وهلاتون كتاباً منها واحد بالفارسية . والبيضاوي له كتاب بالفارسية صغير اسمه نظام التواريخ ، وسائر مؤلفاته بالعربية .

والطوسى وهو من علماء القرن السابع وقد صحّب هولاكو ، له زهاء خمسين كتاباً قليل منها فارسي .

وقد استمرت العربية لغة للتأليف في إيران بعد غارات التatars على قلب الغير بها وتحريف الزمان إليها . ولم يخل عصر من التأليف بها إلى عصرها هذا ، وحسبنا أمثال صدر الدين الشيرازي والسيد الشريف الجرجاني وسمد الدين التفتازاني .

### أثر العربية في الفارسية

وهذه اللغة الفارسية التي نشأت وترعرعت في رعاية العربية وكفالتها هي اللغة الفيلولية التي كانت لسان الدولة ولغة العلم أيام الساسانيين ، ولكن كانت بالطبع العربي واشتغلت على الفاظ عربية كثيرة . وقد أمدت العربية الفارسية غير متينة ، والألفاظ العربية في الفارسية تختلف كثيرة وقلة باختلاف الموضوع ، فهي في الشعر أقل منها في التراث ، وهي في التراث الأدبي أقل منها في لغة التأليف ، وبعيد فارسي . التراث الفارسي أحياناً ألفاظاً عربية

فأما تركستان الغربية فهي التي ساها جغرافيًّا العرب ما وراء النهر وتسمى اليوم تركستان الروسية لاستيلاء الروس عليها. وكان نهر جيحون في المصور المختلفة يمتد حداً بينها وبين إيران. وأما تركستان الشرقية فتسمى كشغر وتسمى اليوم تركستان الصينية.

وفي الأقلعين زهاء ستة ملايين يعيشون في أكثر من مليونين من الكيلومترات المربعة. ونهر جيحون قد عُدَّ في أساطير الفرس وتاريخهم حداً بين إيران وتوران، ودارت على ضفافه المعارك المتمادية بين الإيرانيين والتورانيين، المعارك الهائلة التي صورتها الشاهنامة. ولكنه لم يكن في الحق فاصلاً بين الأمتين اللتين تعيشان شماليه وجنوبيه على مر الزمان. فقد عاش الفرس شمالي النهر منذ عصور بعيدة، وعبر الترك النهر، ولا سيما في المصور الإسلامية، وانتشروا في إيران. وفيما وراء النهر اليوم قرى كثيرة لغتها الفارسية، ومعظم القرى التي لغتها التركية تعرف الفارسية.

ومن الابحاث الفارسية اللمحة الصغيرة وهي لمحة الصند في تركستان. وقد قامت الدولة السامانية فيها وراء النهر وكانت حاضرها بخاري فنشأت في عهدها الفارسية الحديثة وترعرعت في ظلها فصارت لغة كتابة وعلم.

ولو كانت هذه البلاد خالصة لغة التركية ما كانت لغة الدولة السامانية ولغة شعريها الفارسية دون التركية.

وأول شاعر فارسي كبير هو أبو جعفر الرودي السمرقندى، فقد ترعرع الشعر الفارسي أول ما ترعرع شمالي نهر جيحون.

وقد ألف جار الله الزمخشري مقدمة الأدب لعلمائهم أهل تركستان الأدب العربي، بفضلها معجناً من العربية إلى الفارسية، ولم يحاول تعلم أهل البلاد باللغة التركية وإنما صارت التركية لغة أدبية في بعض أفظارها في عصور متأخرة.

الأول : الشعر الصوفي : فقد ذهب فيه شعراء الفرس مذاهب عجيبة، وأيقووا عن دقائق النفس الإنسانية ، ونظموا المنظومات المطلولة كحديقة الحفائق بعد الدين سناني ، ومنطق العاير افريد الدين المطار ، والمناوي لحال الدين الروسي ، ومنظومات أخرى يضيق بها العدد . وما أحسب أدبًا يحارى الأدب الفارسي في هذا الصدد .

وال موضوع الثاني القصص : فقد اذن فيه شعراء الفرس بين قصص حاري مستمد من أساطير الفرس وتاريخهم كالشاهنامة ، وقصص غرامي قصة ليلي والجنون ، وخسرو وشيرين ، ويوف وزي�ا ، وم في هذا لا يعلوون الأطالة وقل أن تنقص القصة عن خمسة آلاف بيت وكثيراً ما تجاوز عشرة آلاف . وقد نظم القصة الواحدة شعراء عدة في عصور مختلفة .

## في بعد الترك والهندر

أسلفت القول في مكانة اللغة العربية في إيران قبل أن تصير الفارسية الحديثة لغة علم ، ثم بذلت كيف سايرت العربية الفارسية بعد استعمالها في الشعر والكتابة وكيف بقيت غالبة في التأليف .

وأين اليوم حال اللغة العربية في بلاد الترك والهندر ، وليس غريباً أن يتناول الكلام بلاد الترك والهندر في بحث واحد ، فكلتاها تجاور إيران ، وكلتاها أثررت فيها العربية مباشرة وبتوسط الفارسية ، ثم العربية أثرت في الفارسية ، وهذه أثرت في التركية ، وتلال اللغات أثرت في الأردية . فكان القول في بلاد الترك والهندر متشابهاً متشاركاً .

## بعد الترك

أعني تركستان الشرقية والغربية وموطن الترك العثمانيين .

عبد الوهاب عزام

147

العربية كانت كراهيتهم في صيغها لانحو لا لغة العربية نفسها . ثم قيل  
ازمخنثري عن هؤلاء :

« وبهذا اللسان » يعني العربية « مناقلتهم في العلم ومحاورتهم ونذر لهم ومناظرهم وبه تقطر في القراطيس أفلامهم »، وبه تغار الصكوك والسجلات حكامهم . فهم ملتبسون بالعربية أية سلكوا ، غير منفكين عنها أينما وجوهوا ، كلّ عليها حيثما سيروا . ثم انهم في تصاعيف ذلك يجحدون فضلها ، ويدفعون خصلها ، ويدهبون عن توفيقها وفضليتها ، وينهون عن تعلمها وتعليمها ، ويعزّزون أديمها ، ويغضبون على لغتها . فهم في ذلك على المثل الساشر « الشعير يؤكل ويذم »، ويدعون الاستفباء عنها وأنهم ليسوا في شيء منها ، فان صع ذلك فما بالهم لا يطقون اللغة رأساً والإعراب ، ولا يقطعون بيتها وبيتهم الأسباب ، فيطمئنوا من تفسير القرآن آثارها ، وينقضوا من أصول الفقه غبارها » إلى أن يقول : « وما لهم لم يترأتنا في مجالس التدريس وحلق المناظرة ، ثم نظروا هل تركوا للعلم جمالاً وأبهة ، وهل أصبحت الخاصة بالعامة مشببة وهل انقلبوا هؤلاء للساخرن وضحكه للناظرن » .

أبان الزمخشري في هذه الكلمات عن تبرّم قوم بالعربية وبين أنها ، على هذا ، لغة العلم ولغة القضاء ولغة التعليم والمناظرة ولغة الأدب وإن التدريس بغيرها يذهب بمحاجل العلم ، ويجعل الخاصة كالعامة . فلغة الخاصة العربية ، ولغة العامة الرطانة المحمية .

وألف الزمخنثري مقدمة الأدب ، وضعه على نسق كتاب الشعالي ،  
فغه اللفة ، وجعله <sup>عدة</sup> لطاب الأدب العربي ، وفسر الكلمات العربية  
بالفارسية فلقاء الناس بالقبول كما قال :

« لأن هذا الكتاب قد أصاب قبولاً من القلوب » وهب في البلاد  
هـ « الصبا والجنوب » وقال المؤلف في فاتحة الكتاب عن اللغة العربية:

فَادَّا تَعْرِفُنَا حَالَ الْمُرْبِيَةِ فِي تُرْكِسْتَانِ وَمَكَانَتِهَا فِي الْعِلْمِ وَالْأَدْبِرِ ،  
وَقَسَّا إِلَيْهَا لُغَةَ الْبَلَادِ الْأَدْبِرِيَّةِ ، وَجَدَنَا أَحْوَالَ اِكْتَشَابِهِ مَا بَيْنَنَا فِي إِرَانِ ،  
مِنْ أَحْوَالِ الْمُرْبِيَةِ وَالْفَارِسِيَّةِ ،

حال الشعر الفارسي في تركستان حاله في إيران ، ومسيرة العربية  
الفارسية في الشعر هنا كما رأينا إليها هناك فلا نحتاج إلى إعادة القول ، وغلبة  
النثر العربي في إيران تفاصيلها غالباً فيما وراء النهر أيضاً . وقد نشأ  
هناك من كتاب العربية أبو بكر الخوارزمي الكاتب المعروف « توفي  
سنة ٣٨٢ » ، والعميد والد أبي الفضل ابن العميد ، والزمخشري « توفي سنة  
٥٣٨ » ، ورشيد الدين الوطواط العمري « توفي سنة ٥٧٣ » .

وأما لغة التأليف في العلم والآداب فكانت العربية إلا قليلاً. وحسبنا  
أن نذكر اسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصلاح، وخاله اسحق  
بن ابراهيم، والفارابي، والفقـال الشانـي « توفي سنة ٣٦٦ »، والخوارزمي  
سنة ٣١٥، وأبا الرحـان الـبيـروـنـي .

ولا بد من وقفة عند الزمخشري لنستدل على مكانة العربية ، بما أفاد فيها وما بين من مكانتها في مقدمة كتابيه المفصل ومقدمة الأدب . فالزمخشري قد عاش بين منتصف القرن الخامس الهجري و منتصف القرن السادس في تلك البلاد ، وكان من آباء العربية في اللغة والنحو والآداب ولم يؤثر عنه أنه كتب بالفارسية أو التركية . وقال في مقدمة المفصل :

« ولعل الذين يَغْضِبُونَ من العَرَبِيَّةِ وَيَغْضِبُونَ من مَقْدَارِهَا وَيَرِيدُونَ  
أَن يَخْفِضُوا مَا رَفَعَ اللَّهُ مِن مَنَارَهَا ، حَيْثُ لَمْ يَجْعَلْ خَيْرَ رَسُولِهِ وَخَيْرَهُ  
كُتُبَهُ فِي عَجَمٍ خَلَفَهُ وَلَكِن فِي عَرَبِهِ ، لَا يَعْدُونَ عَن الشَّعُوْبِيَّةِ مُنَابِذَةً لِلْحَقِّ  
الْأَبْلَجِ ، وَزِينًا عَن سَوَاءِ الْمَهْجَبِ » .

ويسير من لفاسيف كلام الزمخشري ان هؤلاء الذين يغضون من

وأنشئت منظومات وكتب قليلة بلهجات مختلفة ولكنها لم تبلغ ، قبل نشوء الأدب العماني في رعاية الدولة العثمانية ، أن ”تنافس العربية أو الفارسية في النظم أو النثر أو التأليف .

وأعظم ما وعنته اللغة التركية الشرقية لغة جغتاي ، منظومات على شيرنواي وبابر نامه وهي سيرة السلطان بابر التي كتبها نفسه .

فاما على شيرنواي فكان وزيراً أو مشيراً للسلطان حسين يقرأ أحد الملوك من سلاطنة تيمورلنك وله في العدل والبر ”أياد يمساء ، وله في الآداب العربية والفارسية والتركية مكانة ، وقد حاول أن يذلل التركية للنظم الادبي فنظام قصصاً خمساً من القصص المعروفة في الأدب الفارسي ، وطبع سنة نظامي الشاعر في خمسة . وكتب في الفياس بين التركية والفارسية كتاباً سماه « محاكمة اللغتين » ، يبين فيه فضل التركية على الفارسية في بعض الخصائص . وكتب في اللغة العربية معجماً جمع فيه بين سبعة من معاجم العربية وسماه « سبعة أبخر » .

ولكن هذا الشاعر القدير سلك طريقاً وعرأً كان فيها فريداً لم يسبقه مثله ولم يلحقه ، وبقيت منظوماته منقطعة النظير في لغة جغتاي .

وعلى شير توفي سنة ٩٠٦ هـ فتارikhه يرجع إلى عصر متاخر ولكن اللغة التركية الشرقية لم تكن قد مهدت للأدب فلم ”نجده عليها عيقرية هذا الشاعر الكبير كثيراً .

وكتب محمد ظهير الدين باركتاته « بار نامه » في مصر الذي أنشأ فيه نوائي منظوماته ؛ كتبه في لغة طبيعية خاصة لا تكافف فيها ولا زينة لكنها كانت كمنظومات على شير ، مثلاً فريداً في لغة جغتاي .

التركية العثمانية  
لم تتحذق التركية الغربية لسان أدب وعلم قبل قيام الدولة العثمانية

، ولحللة هذا اللسان ، وما جعل الله له من نهاية الشأن ، وأن الحاجة إليه سائحة في الملة الإسلامية في أنواع علومها وفنون آدابها ، كان المتعاطلون لاقائه والتبحّر فيه معدودين في علماء هذه الأمة ، المذكورون في طبقات الآئمة ، ومن ”صنع الله لهذه الطيبة“ ، أن الملوك لم ”عطر سحائبهم ولا فاقت عطياتهم“ ومواهيبهم ، على أحد فيضتها على هؤلاء من أدباءهم وخطبائهم ومرتضياتهم . ولم يخل بعد انتقامه دولة العرب عصر من الأعصار من ملك فاضل جواد يرغب فيهم ويكتفلهم ويكتفيهم ، ويتصبب لصناعتهم ويحرس على تنفيق بصناعتهم . وأما الذي اصطفاه الله في زماننا لنصرة الأدب ، وقدف في قلبه الرغبة في كلام العرب فالإمام الأجل الأسفه الراوري شاه الدين علاء الدولة الإمام أبو المظفر آنسز ابن خوازمشاه ، له .

وآنسز هذا أحد ملوك خوارزم تولى الملك من سنة ٥٢٢ إلى سنة ٥٥١ هـ وقد تولى رشيد الدين الوطواط المعربي ”الكاتب المعروف ديوان الرسائل لهذا الملك“ ملائين سنة وله رسائل عربية ذاتية تدل على متأنة أسلوب العربية في ذلك العصر .

وقد عرفت محاولات لكتابته بالتركية بلهجات مختلفة منذ القرن الخامس الهجري فنظم يوسف خاص حاجب في بلاساغون وكتافر منظومة باللهجة الأيفورية اسمها ”قداتفوبليليك“ . ونظم أديب أحمد رباعيات سمها « عيبة الحقائق » في القرن السادس الهجري ، وفي هذا القرن نظم الصوفي الكبير أحمد بسوئي ديوان الحكمة .

وكذلك نظم بعض الأدباء من بعد غارات التتار في صحراء القفقاج وغيرها ، فنظم الشاعر قطب قصة خسرو وشيرين في القرن الثامن الهجري . ونظم في هذا القرن أيضاً الخوارزمي منظومته المشهورة ”محبت نامه“ .

إلا في الندرة . اتخذها أمراء قرمان لغة ديوان في ثورتهم القصيرة الامد ، قبيل نهاية الدولة السلاجوقية ، وأثر فيها ، نظم جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٢ ولابنه سلطان ولد .  
وكان سلاجقة الروم — أي سلاجقة آسيا الصغرى — يلقبون بالألقاب الفارسية ويزبون قصورهم بأيات من الشاهنامة ، وهي منظومة الفرس التي تروي جلاد إيران وتوران وتنتصر للإيرانيين على التورانيين أي الترك . وكانت العربية والفارسية لغتي العلم والادب في تلك الأقطار أيام السلاجقة .

وما قامت الدولة العثمانية شرعت تستعمل التركية في رسائلها مع استعمال الفارسية والعربية .

وفي منشآت السلاطين — وهي الرسائل التي جمعها في القرن الحادي عشر الهجري أحد فريدون بك — عاذج من رسائل السلاطين العثمانيين باللغات الثلاث . ثم نظم شعراء باللغة التركية وكتب فيها كتاب . وتطورت الصناعتان تطورهما . فنبع شعراء كثيرون وكتب قليلون حاكاة للأدب الفارسي . وصيغت أوزان الشعر وقوافيها على غرار الشعر الفارسي ، وقد أسلفنا القول فيه ، واتخذ شعراء الترك موضوعات الشعر الفارسي وطرائفه ، وأكثروا من استعمال الألفاظ الفارسية والتركيات والألفاظ العربية ، حتى لغيره فاري ، الشعر التركي بأيات فارسية ليس فيها من التركية إلا حرف أو فعل ، وبقي تسلط الفارسية واضحاً حتى عصر عبد الحق حامد وأخراه ، وقد توفي عبد الحق منذ بضعة عشر عاماً .

ويعكن أن يقال في حالة الأدب التركي بالأدب العربي ، ما قيل من قبل في الصلات بين الأديرين العربي والفارسي . إذ كان الشعر التركي ، كما قلت ، حاكاة للشعر الفارسي في ألفاظه ومعانيه وموضوعاته . وأكثر الترك من تسجيل تاريخهم بلغتهم ، فتشتت اللغة التركية

بسلاسل من كتب التاريخ قيمة ، والأسلوب القديم في النثر ينبع به التكامل والزينة اللفظية .

وأما التأليف في المعلوم العقلية والشرعية واللغوية فقد غابت عليه اللغة العربية شأنها في إيران وتركستان . وحسبنا أن ذكر من المؤلفين صدر الدين الفوني « توفي سنة ٦٧١ » ، والكلال بن الحمام السيواني « توفي سنة ٨٦١ » ، ولطف الله بن حسن التوفاقي الذي ألف في موضوعات المعلوم للسلطان بايزيد الثاني « توفي سنة ٩٠٠ » ، وأحمد بن سليمان المعروف بابن كوك باشا وهو من أكثر المؤلفين في العلوم الشرعية واللغوية . وعصام الدين أحمد بن مصطفى المعروف باسم طاشكيري زاده وهو مؤلف الشقاقي النعانية في علماء الدولة العثمانية ، وله مؤلفات بالعربية زيد على الثلاثين أجملها كتاب موضوعات المعلوم المسجى مفتاح السعادة « توفي سنة ٩٦٨ » ومحبي الدين الفوني « المتوفى سنة ٩٥١ » ومصطفى بن شعبان صاحب الحاشية على تفسير البيضاوي « توفي سنة ٩٦٩ » ، وحامد الفوني صاحب الفتاوى « توفي سنة ٩٨٥ » ، والأنقرمي صاحب الفناوى « المتوفى سنة ٩٩٨ » ، وال حاج خليفة صاحب كشف الغنوون « المتوفى سنة ١٠٦٧ » . ولم يخل عصر من التأليف بالعربية في بلاد الترك العثمانيين على اختلاف أطوار العربية والتركية في التأليف على مر العصور . ولم يخل أدب أو شاعر من معرفة العربية قليلاً أو كثيراً حتى عصرنا هذا .

### اللغة العربية في الرسند

- ٦ -

لما امتد الفتح بالعرب شطر المشرق حتى جازوا أفغانستان ، هبطوا إقليم الملاستان من الهند ولكنهم لم يستقروا فيه . ثم حاولوا فتح الهند من جهة الساحل حيث يصب نهر السندي في البحر المحيط فهزوا عزوات هناك . فلما كان زمان الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك سير الحجاج ابن يوسف الثقفي حيث افتح الهند وجعل إمرئه لابن أخيه محمد بن القاسم ، ففتح العرب إقليم السندي حتى الملاستان ولم يتغلوا في الهند .

ودام لهم سلطان فيها فتحوه زهاء مائتي سنة وبنوا هناك المدائن وعمرها الأرض .

وفي القرن الرابع الهجري اتخذ المسلمون افتح الهند طريقاً آخر وتولى الفتح سلطان محمود الغزوي أحد ملوك الدولة الغزوية « ٣٥١ - ٥٧٩ » وقد أعد العدة وحشد الجيوش واحتفل للغزو وهبط سهل الهند بجيشه أكثر من خمس عشرة مرة ما بين سنة ٣٩١ وسنة ٤١٧ قد دانت له بنجاب وكشمير و JKرات واستقر سلطان المزنوين في بنجاب .

وما غلبو على غزنة دار ملوكهم - غلبهم عليها الدولة الغورية - اتخذوا لاهور حاضرة الملك سنة ٥٥٣ . فكانت لاهور أول حاضرة في الهند لدولة إسلامية .

ومنذ فتح الغزوين طريق الدول الإسلامية إلى الهند ، وهيئاً البلاد لنشوء دول إسلامية فيها ، ففتح الفوريون طرفاً من البلاد ، ونشأت في داخلها دول كثيرة منها دول سلاطين دهلي التي سيطرت على دهلي وما يتصل بها من سنة ٦٠٣ إلى سنة ٩٣٢ . وقد فتحت الدول " الإسلامية شمالي " الهند حتى خليج بنغال وبسطت سلطان الإسلام وحضارته هنالك .

وفي القرن العاشر الهجري توجه إلى الهند داهية عبقرى لا تنتهى . الأجيال مثله إلا قليلاً ، فأقام فيها أعظم الدول الإسلامية الهندية . ذلكم محمد ظهير الدين بابر من حفيدة الفاتح الجبار تيمورلنك .

ورث هذا الأمير من أبيه إمارة فرغانة وسمرقند سنة ٨٩٩ وهو في سن الثانية عشرة وتقلبت به رغبة ، وتداوته خطوب حـٰ غالب على إمارته الموروثة بعد سبع سنوات . ولكن هذا الشاب العبقري كان أجرأ وأصبر من أن يستكين للعاديات ، فبقي ثلاث سنين شريداً ليس في يده من الملك شيء ، ولكن كان في ضمانته ومهنه أن يكون ملكاً في بلاد أوسع من فرغانة وسمرقند . فتوجه تلقاء كابل ففتحها سنة ٩١٠ . وتمكن ملكه من كابل وأنجده طلاجه وهذه إلى الأرض الواسعة الفنية ، عزم

على فتح الهند . فأخذ يغير على أطراها منذ سنة ٩٢٥ حتى مكنته شجاعته وهنه ودهاؤه أن يزعم السلطان إبراهيم الودي سنة ٩٣٢ في موقعة بانيات التي سقط فيها السلطان بين خمسين ألفاً من جنده . وبعد هذه الموقعة بستة أيام خطب ظهير الدين بابر في دهلي يوم الجمعة الرابع عشر من رجب سنة ٩٣٢ .

ولم يثبت له جيش بعد ذلك حتى الجيوش التي حشدتها أمراء الهند وحضرها فيها من الجندي والفييلة جموعاً يقودها مائة وعشرون قائداً على رأسهم سانجا زعيم أمراء راجبوت . فلقي بابر بعد ستين من موقعة بانيات ظفرأً أعظم من ظفرها في موقعة كندها . لم يثبت أحد من بعد لسطوة بابر ، فأقام دولة في الهند دام سلطانها ثلاثة قرون ونصف على اختلاف الغير وتبدل الحالات .

تواتى على عرش الهند ملوك عظام مدوا سلطانهم على أرجاء الهند ، وأفروا فيها القانون ، والمعدل ، وأشاعوا فيها الحضارة والثقافة ، ولا سيما السنة الأولى من ملوك هذه الدولة من بابر إلى أورنك زيب ، فقد تداولوا السلطان مائتي عام ، وبلغت الدولة في سلطانهم أوجها . وقد شرعوا شرائع عادلة ، وسمّوا سنناً حسنة ، وجمعوا حولهم العلماء وال فلاسفة والأطباء والأدباء والصناع من أقطار الأرض ، وشادوا من الآثار ما لا يزال يحدث بقوتهم وحضارتهم . وقد بقيت هذه الدولة إلى سنة ١٢٧٤ هـ حين أزالتها الانكلترا بعد أن نقصوا أطراها وزلزلوا أركانها .

### - ٣ -

هذه الدول الإسلامية التي تواتت على الهند منذ الفتح العربي الأول عملت في نشر الحضارة الإسلامية واللغة العربية . نشر العرب لغتهم هناك ، واتخذ مسلمو الهند ، كسائر مسلمي العالم اللغة العربية لغة علم وأدب على مر العصور . وكان دخول العربية إلى الهند على طريقتين : الأولى : في ثانياً اللغة والأداب الفارسية . فالفارسية قد أخذت من

واسع العلم بها . ومن كبار المؤلفين عبد الحليم السباعي الكوفي المتوفى سنة ١٠٦٧ ، ومؤلفاته في علم الكلام معروفة . ومن الفقهاء محب الله البهاري ، له مؤلفات في الفقه والمنطق . ومنهم الشيخ نظام الذي أشرف على جمع الفتاوي الهندية في عصر السلطان اورنك زيب « ١٠٩٩ - ١١١٨ » . وفي مقدمة هذه الفتاوي ما يدل على التائق في العربية والادلال بعمارة غريبها ، جاء فيها :

« وبمد فان الفقه حاجز بين المداية والضلال ، وقططاس مستقيم  
لمرفة مقادير الاعمال ، وعيم الله الزاخره لا يوجد لها قرار ، وأطلاوه  
الشامخة لا يدرك قنونها بالابصار . . . فهن الله عليهم باستنارة صديع  
سلطنة الملائكة الصالحة ، وانفلاق صبح دولة السلطان المدعى بـ القائم ،  
القائم المقرم ، والقيدم القيلهمدم ، روزم آجام الوعي ، وفقصل غياض  
المزدحـم المـطـامـعـ على العـدـلـ وـالـشـجـاعـةـ وـالـنـادـىـ ،ـ وـالـمـفـطـورـ تـقـنـهـ منـ  
الـزـهـدـ وـالـوـرـعـ وـالـتـقـوىـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ وـرـئـيـسـ الـمـسـلـمـيـنـ ،ـ إـمـامـ الـغـزـاـةـ  
وـرـأـسـ الـجـاهـدـيـنـ ،ـ أـبـوـ الـمـظـفـرـ أـورـنـكـ حـيـيـ الدـينـ مـحـمـدـ زـيـبـ هـادـرـ عـلـمـ كـبـيرـ  
يـادـشـاهـ غـازـيـ آـيـدـ اللهـ تـعـالـىـ سـلـطـانـهـ ،ـ وـعـمـمـ عـلـىـ الـبـرـيـةـ كـافـهـ اـحـسـانـهـ .ـ  
وـمـنـ الـمـؤـلـفـيـنـ بـالـعـرـبـيـةـ الشـيـخـ وـلـيـ اللهـ الدـهـلـوـيـ مـؤـلـفـ «ـ حـجـةـ اللهـ  
الـبـالـةـ »ـ ،ـ وـكـتـبـ أـخـرىـ .ـ

ولا يزال علماء المسلمين وأدباؤهم في الهند يُؤلفون بالعربية وينشرون  
القيمة من كتبها ، ويشرحونه أحياناً ، ولا تزال الهند مواطناً من مواطن  
لغة القرآن .

ومن المؤلفين بالعربية في عمرنا الشيخ شibli التعماني وأصحابه من رجال ندوة العلماء ، والسيد صديق حسين خان مؤلف كتاب حقوق النساء وكتب أخرى قيمة ، وكرامت حسين مؤلف قمة اللسان في اللغة ، والشيخ عبد العزيز المبعني ، له كتب قيمة في الأدب منها كتاب سبط أبي العلاء و « زيادات شعر المتنبي » وقد نشر في القاهرة كتاب سبط

العربية على النحو الذي يمتنع من قبل ، ثم سارت لغة الدولة واللغة  
التدوين في الهند منذ عبد الغزويين . لا سيما في عهد الدولة المغولية  
التي ذكرتها آنفًا . وقد عد "الشيخ شibli النعاني" في كتابه «شعراء  
المجم» واحداً وخمسين شاعراً فارسياً جاءوا إلى الهند في عهد السلطان  
جلال الدين أكبر « ٩٦٣ - ١٠١٤ » وعدد المداوين أكثر من هؤلاء .  
ومعظمهم فارسي الأصل ، منهم من نشأ في الهند ، ومنهم من طرأ عليها .  
كما عد من العلماء وال فلاسفة والاطباء الذين عاشوا في كتف هذه الدولة  
أكثر من مائة وخمسين .

وأما استعمال العربية لغة مستقلة فقد عرف في عصور الهند كلها منذ الفتح العربي الأول ، ولا سيما بعد أن توغل المسلمون في أرجاء الهند وشرعوا لغة القرآن ، فكتب فيها مؤلفون على مرّ الزمان .

ومن المؤلفين بالعربية فيفي الم توفى سنة ١٠٠٤ ، وهو صاحب التفسير المعنى « سواطع الاطم » وقد الزم أن يخلص تفسيره من الحروف المعجمة كلاما . وهذا ، على قلة جدواه ، لا يباح إلا لاتمكن في العربية

اللالي في شرح الائمي لازبيدي . ومنهم زاهد علي " ناشر ديوان ابن هانق " ، وكثيرون غير هؤلاء . وقد نشروا من كتب العربية القبعة كتاباً كثيرة منها الجبرة لابن دريد ، ولزوميات المعربي .

وقد أن تقيت في مصر من مسلمي الهند عالماً أو متعلماً إلا يعرف العربية وتكلم بها على حداته عده بالبلاد العربية ، ولو لا عنائهم بتعلمها والتكلم بها في ديارهم ما تيسر لهم كتابتها والتحدث بها في بلاد العرب بعد إقامة قصيرة . وكثيراً ما أطلق رسائل عربية من علماء في الهند لم يقيموا بالبلاد العربية ، وهي تشهد بتمكنهم من العربية ، ومسايرتهم تطورها في هذا العصر .

دمشق : ايلول سنة ١٩٤٦ .

—

## الديمقراطية وأهدافها في التعليم والبرهنة

للدكتور عبد الرحمن الكباري

### ١ - ما هي الغاية من الاستقلال ؟

إن الحصول على الاستقلال الناجز لا يعد الغاية من جهادنا الذي استدام خمسة قرون . فما هي غايتنا ؟ لماذا تشتكى وتشتكي وتنسلم وتصبح وقد أصبحنا سادة بلادنا أححراراً فيها نريد وما لا نريد ؟ هل يوزننا المال والزمن والرجال ، أم تموزنا الإرادة والعمل والثبات حتى يخيب أملنا ولا تكاد تليس فرقاً بين الأمس الغابر واليوم الحاضر ؟ هل مبعث شكوكانا حبيبيتنا الوثابة ، وطبيعتنا الحساسة أم أهدافنا السامية وآمالنا العديدة ؟ كيف نعالج بلوانا ونتحرر من القيود التي غلت أيدينا ؟ وما هي الوسائل التي تنقذنا من أخطاء الجهل ومساوي الاستكانة ، وأسباب التذمر ونهض بنا بسرعة وحماس كما نهض غيرنا وتدفعنا للأمام كما دفعت من سبقنا فارتقي وتقدمن ؟ هل تنقصنا الموهاب والاستعداد الفطري أم ينقصنا شيء آخر بدعوه لا تستطيع ادراك ما يلزمها ، وتدارك ما يحوجنا ؟ وإذا سعينا تكون من الناجحين في علومهم ، وتجاربهم وصناعاتهم وتجاربهم وأدابهم وأخلاقهم وزراعاتهم وشرفاتهم فما هو العامل لبلوغ النجاح ؟ وما هي أدلة النجاح ومقاييس الرقي ؟

### ٢ - ما نطلب الديمقراطية :

لا شك أن هذه المسائل وأنماطها وما لها من أهداف ووسائل مما يجب معالجتها بعلم ، وتحقيق ، وإخلاص ، في جانب عليها ونشر وبشر

وعدم الاجتماعية « الاجتماعية » ومعناه أن هذا الصالح العام يدل على جميع المسائل التي بطبعتها إما ان تكون خيراً للشعب أو شرراً له ويدل على ضرورة اتفاق الأفراد على وجود الارادة العامة أو وجود مبادئها على الأقل » .

— ما بقوله ادوار بنس هن المیغراطیہ :

وتائيداً للتعریف المذکور يقول رئيس جمهوریة تشکو-سلوفاکیا في كتابه  
الديمقراطیة « ان الديموقراطیة لا تزال في نظری عیل ارفع درجة في سلم  
البناء الاجتماعي ، لأنها تدعو الى تшибید البناء على أساس احترام القيم المعنوية  
للفرد ، ولذلك لم يكن نضالنا ضد النازية والفاشیستیة حریماً على أحلام  
ال Germans الطالحين إلى السيطرة على العالم حسب ، بل كان جهاداً في سبيل  
هذه الدعوة الديموقراطیة أيضاً ، وفي سبيل إخراجها إلى حيز التطبيق »  
ويختتم كلامه بقوله : « وما غایة الحرب التي خاضتها الامم المتحدة الا تحریر  
الإنسان وصون كرامته ، وأن تصبح حقوقه الأساسية الى جانب الحرمات الأربع  
— حریة القول والمعقیدة ، حریة الرأی والعبادة ، التحرر من العوز  
والفاقة ، التحرر من الظلم والاستعباد — محور الوجود الانساني في  
العالم كله . فعلى ديموقراطیة المستقبل ان شاءت بلوغ هذه الغایة أن  
تؤمن المساواة الفكریة والاقتصادیة مع المساواة السياسية التي حملتها في  
الماضی الى أبناء الامة الواحدة ، وعليها أن تدرك جيداً أن المبادی  
الديمقراطیة يجب أن تتعدى حیاة الامة الداخلية ، لتصبح شریعة سیاستها  
الخارجیة . وهذا هي عبر الحرب تعلم الدول الكبیرة والصغریة ان المجتمع  
البشري لن يتقدم مالم تقم فيه سلطة سیاسیة عالمیة تحکم النظام والقانون  
المقام الاول حتى في العلاقات بين الدول »

بها ، ويعلمها طلاب العلم ورجال الدولة وأصحاب العمل وكل مؤمن بالديمقراطية وساع العزة قومه وكرامة وطنه .

وما دام الاستقلال كذا يقول علماء الاجتماع « و وسيلة لا غاية في كل استقلال لا يؤدي إلى حلم أيقونة النفوس ، ورفاهية الشعب ، ولا يهيء الأجيال للبقاء والتقدم ولا يضمن للأفراد والجماعات حرياتهم التي هي من حقوقهم المقدس ، ولا يصون الحقوق ، ويحمي المصالح والعلاقات التي تربط الأفراد والجماعات والدولة ، ولا يرعى ارادة الأمة ورفاهيتها باستتاباب الأمان وفرض النظام وادارة الامور بعدل وتحبرد ونزاهة ، يورث الاختراب وينشر الفوضى ، ويعرض كيان الوطن إلى أخطر العواقب .

وإذا كانت المدنيات قد اختلفت أنواعها وأنظمة الحكم قد تعددت أشكالها ما بين ، استبدادية ، ومطلقة ، واقطاعية ، وملكية ، واشتراكية ، ونازية ، وفاشية ، وديكتاتورية ، وديمقراطية ، وجمهورية ، فان خيرها وأبهتها ما كانت مبادئها مستقرة في روح الشعب ، ونظامها صادرًا عن ارادة الشعب ، وغاياتها خير الشعب ولها دستورها ومتلوها المنتخبون ، وحكومتها ، ومؤسساتها ، وعمالها ، وجمعياتها ، وشركاتها ، ومعاهدها تدين بمقيدة وطنية موحدة وتتبع غاية واحدة وتتخضع لنظام عام واحد .

٣ - ماهی الدین فراتریه؟

لعرف الفلسفة السياسية الديقراطية بأنها «نظام موضع للاحتفاظ على قرارات تشريعية تتحققصالح العام يجعل الشعب تصدر عنه تلك القرارات بواسطة انتخابه أفراداً يمثلون ارادته ، ويجتمعون بهذه الراية ، ويعتمد أن هنالك صالحاً عاماً هو منار السياسة التي هي بسيطة بحد ذاتها يستطيع كل عاقل أن رأها ويتناقشها ولذا لا يعذر من لا يقررها ولا يراها ولا يعني لوجود شعب لا يفهمها ولا يرى إلا الجمالة والبلادة

## ٦ - أهداف الديمقراطية في التعليم والتربية :

وما كانت الديمقراطية لا تقوم على أساس الجهل بل لا بد لها منوعي قومي ومن تطور اجتماعي في الأفكار والأخلاق فان أهم ما يهتم به هو التعليم والتربية . ولماذا ؟ لأن الموهب القومية تحتاج لنمو وتنمية وكفاءة ، والادهان تتطلب تنويراً وارشاداً لا حسن الطرق والوسائل وفاقاً لاستعدادها حتى تتبع الافراد والجماعات أهدافها ومثلها العليا في الحياة والتنظيم والانشاء . اذا صح أن الرقي مقاييس وللديمقراطية أدلة فائقة لأن أحدها معاهد العلم والتربية ، ومخابر الدرس والتجربة . ولكن ما هو الرقي وأي تعلم يبعث النهوض والتقدم ؟

## ٧ - أدلة الرقي والنهوض

أجيئكم وتسليمون معي بأن الرقي ليس في الزينة وجمالها ، ولا في الملبس وأناقته ولا في المأكل ونقاسته . والمدنية ليست في كثرة الطرق والبنية ، والنهاية ليست بانساع المعمار وجمال المنشآت . إنما في أمور أخرى في الإنسان هي مصدر الحركة والنمو ، وباعتنة التجدد والتطور وسبب الازدهار والتقدم . في الفرد « الوراثة ، والفعالية ، والاستعداد ، والمقاومة ، وقابلية التكيف والاختلاف والملائمة مع المحيط ، ومقدار النمو ، ونسبة نتاج العمل » وفي المجتمع « سيادة الامة على قوى الطبيعة وخيراتها والمقدرة على استخدامها واستئثارها ، ونمو الأخلاق ، وحسن العلاقة ، والادب الفكري ، ورفاهية العموم ، ورضاؤه في الحياة » .

ومن لا جدال فيه أن السيادة على قوى الطبيعة لا تم بدون العلم ، واستئثارها لا يكون بغير العلم وتعاليمه في كل وجوه الحياة ومرافقها . إذ كيف نسيئ قوى الطبيعة ومعظم أفراد الامة يجهلون ثوابتها ، وخصوصاً جواهرها وفوائدها قواها وموادرها . وهل من يجهل الكبعباء

## ٨ - مباري، الديمقراطية

ويستنتج من كل ما تقدم أن الديمقراطية سوا، وكانت عامة أم حسنة ، اجتماعية أم اقتصادية ، سياسية أم ثقافية تنطوي على مبدأ « ارادة الشعب ، والصالح العام » . وهي خلافاً لبقية المذاهب الاجتماعية والأنظمة الحكومية التي منها من اعتبر الفرد الدولة وحده من حريته وتصرفاته لسلامة الدولة ، فإنها أخذت بعيداً المدخل الاجتماعي والتعاون الاجتماعي لسلامة الجميع وجعلت الدول الظافرة التي أراقت دماء الملايين من أبنائها للفضاء على السيطرة الديكتاتورية وعلى فكرة النصر بقول الشعب وحرياته وجموده لحساب طبقة مستأثرة تحكم تحت ستار مصلحة الدولة ، تعديل قوانينها ونظمها لتمكن السوداء عظم من اقتسام ثمرات الظفر وثروات الدولة لتأمين حياته ومستقبل أبنائه وترفيه أفراده .

ونحن الذين قبلوا النظام الديمقراطي كما تجلى في ماضينا العظيم وفي دستورنا الحكيم وأسلوب حكمنا الحاضر وفي تشريعنا الصادر عن ممثلينا لهذه الفانية يجدر بنا أن لا نفصل عن تيارات المدنية وتطورات الدول وأن لا نهين حق الشعب وأعماله فنسعى إلى تحقيقها . والعرب أحق الآئم وأولئك بهم الديمقراطية التي لم تتجلى في أي عصر منها تجابت في عصر الرسول وخلفائه الراشدين .

وعلينا أن نربي أولادنا وأنفسنا على تأدية ما تفرضه علينا من واجبات وفضائل فنحمد إلى محاربة الأمية ، والقضاء على الجهل بنشر التعليم الصحيح بين جميع الأفراد وإلى احترام الرأي وصيانة الحقوق ، والطاعة للنظام ، وتكون الأحزاب لالمنافسات وخدمة الأشخاص ولكن لتنفيذ برامج تعايا البلاد ؛ وإلى حسن انتخاب النواب بوعي ، وإدراك المسؤولية ، وإلى العمل التعاوني المشترك .

عبد الرحمن الكباري

89

وقضايا الحياة ؟ أم نريدهم قبعاً لنا مستسللين لارادتنا ، منكلاين على مواردنا  
من تزقين من الوظائف مسيرين بقيارات المجتمع وتقايد المجتمع ، أسيرين  
الإلهواه والمطامع ؟ وأي سياسة تعليمية تتبعها ؟ أسياسة التعليم الحر النظاري ،  
أم التعليم المهني العملي ، أم التعليم الزراعي الصناعي ، أم التعليم العالمي  
الجامعي ؟ أسئلة هي من صميم الحياة ومن ضروريات المستقبل ، ولا بد  
لذوي الامر من آباء ، وحكومة ، و مجلس أن يفكروا بها ويقرروها ،  
ويفسدو الجيل لما يجدونه خيراً لهم وله في تطبيقها .

## ٩ - صدر العلوم وشروط :

على أننا نتأكد من صلاح التعليم وملائمة التربية لأهدافنا وحاجاتنا  
ما لم يقم أساسها على الثقافة القومية ، والتفكير العلمي ، والوحدة الوطنية  
والتعاون الاجتماعي ، والمساواة في الفرص .

ولن تقيينا التربية المدرسية في جميع أنواع العلم و مختلف المدارس ان لم نعمل لانماء الشخصية ، و تقوية الخلق الادبي و تنوير الذهن بالحقائق الواقعية والمعارف العملية ، والاقياد إلى المثل العليا في المعاملات والسياسة والاقتصاد وما لم تكون الطالب بعد الاتهاء من تحصيله أن يفهم غيره وينقل اليه أفكاره بلغة فصيحة ومنطق سليم وما لم يكن له المثل الصالحة مستحقة من أسفار التاريخ والادب والاجماع والأخلاق ومن انتطيفها في أعماله وعلاقاته ، وما لم يدم نشاطه متراجعاً ، وفما يشهده من زيادة بمحبت يتسع علمه وتسعو مداركه كلما تقدم في التجارب ، وما لم يوفق نفسه بأي عمل وفي أي محبط وهم لا يريد له ثبات ونجاح .

وتطبيقات الارض والمعادن ، ووظائف الجسم ومتانع الصحة وخصائص  
النباتات والحيوانات وفوائد العقاقير والادوية وما يعتري الجسم من امراض  
اوبياء وكيف تقاوم و تعالج الجراثيم الفتاكه وغيرها من العلوم والفنون  
 يستطيع مقاومة الحيط ومؤثراته وسد احتياجاته ؟ وهل ينعم العقل البشري  
وتنعم امداداته ويقوى الانسان على الاختراع والاكتشاف وهو بعيد عن  
الظلم ، مقيد بقيود الاهال والجهال ؟ وهل تؤسس المعامل وتتشكل الصناعات ،  
وتحج الشرکات بدون معرفة علمية ؟ وهل يستتب الامن والنظام وتعارض  
السيادة وتنتهي بالحرية دون حکومة ديمقراطية ، ودستور محترم ، وجيش  
مدرب منظم ومعدات كاملة ؟

وأما سمو الأخلاق المنطلقة على الصدق ، والنبل ، وحب الخير وأداه ،  
الإمامية وتحذيف المعاشرة وحسن الطبع ، ورقة الشعور وصفاء القلب  
وحدة إخبار ، ولا نهاية التصور بما وراء الكون ، فهزايا وصفات  
لا تتأني إلا عن العلم والتربية .

٨ - مفهومنا

وَمَا أَنَّ الْأَهْدَافَ المُذَكُورَةَ غَايَةً مَا تَتَطَلَّبُهُ الْمِعْرَاطِيَّةُ وَهِيَ أَسَاسُ  
الرِّقْيِّ ، وَمَا دَامَ التَّعْلِيمُ وَالتَّرْبِيَّةُ وَالْإِدَادَةُ الصَّالِحةُ لَهَا ، وَمَا دَامَ وَاجِبَنَا  
فِي عَهْدِنَا الْإِسْتَقْلَالِيُّ التَّأْسِيسِ وَالْإِنشَاءِ لِيَكُونَ وَطَنَنَا حَرَّاً كَامِلَ السِّيَادَةِ ،  
كَافِلَ الْعِيشِ الْحَنِيِّ ، وَمَا دَعَنَا نَعْشُقُ بَحْرَ الْآبَاءِ وَنَعْمَلُ لِاستِعْدَادِ بَجْدِهِمْ  
وَأَدَاءِ رِسَالَتِهِمْ فِيَا تَرَى أَيِّ تَعْلِيمٍ يَنْفَعُنَا وَأَيِّ الْمَدَارِسِ تَحْسِنُ تَرْبِيَّةَ أَوْلَادِنَا  
وَأَيِّ مَنْجَعٍ مِنْ مَنَاهِجِ التَّرْبِيَّةِ وَالْتَّنْقِيفِ خَيْرٌ لَنَا؟ هَلْ نَعْلَمُ أَوْلَادَنَا لِيَكُونُوْنَا  
لَنَا أَمْ لِذُوْهُمْ أَمْ بِلَدَهُمْ أَمْ لَاْمُهُمْ ، أَمْ اطْلَاقَتِهِمْ ، أَمْ حُكْمَهُمْ؟ وَهَلْ  
تَرْبِيَّهُمْ لِيَكُونُوا أَصْحَابَ إِرَادَةٍ وَعَزْمٍ ، وَكَثْبَتْ ، أَقْوَيَاءَ الْجَسمِ ، أَصْحَاءَ  
الْفَكْرِ يَعْتَمِدُونَ عَلَىْ أَنْقَبِهِمْ وَأَقْبَقِهِمْ مِنْ نَجَاحِهِمْ يَعْرَفُونَ مَتَاعِبَ الْحَيَاةِ

## ١٠ - كيف يُؤثـي رجال التعليم هذه المـرآمة

والـذي أعتقدـه أـن رـجال التعليم إـن يـوفـقـوا فـي أـداء مـهمـتهم إـن لـم يـفـقـدوا عـلـى هـذـه الـمـبـادـيـة، وـيـعـمـلـوا بـعـجـبـها، وـيـعـلـمـوا حـاجـاتـ الـوـطـنـ وـطـبـيـعـةـ الـمـبـيـطـ وـتـارـيخـهـ، وـمـوـارـدـ التـرـوـةـ فـيـ وـمـوـقـعـهـ، وـيـعـثـحـثـوا عـنـ قـوـىـ الطـبـيـعـةـ وـاسـتـهـارـهـاـ وـعـلـيـهـمـ أـنـ يـقـهـوـاـ تـكـوـنـ الـأـمـةـ الـاجـتمـاعـيـ وـأـحـواـلـهـاـ الـرـوـحـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـأـدـمـيـةـ وـمـنـ الضـرـوريـ لـتـجـاحـبـهـمـ أـنـ يـحـيـطـواـ بـالـظـلـمـ الـقـائـمـ وـالـمـادـاتـ الـجـارـيـةـ وـالـتـقـالـيدـ السـائـدـةـ، وـأـعـتـقـدـ أـنـ يـنـالـواـ نـعـرـةـ أـنـعـابـهـمـ وـعـلـمـهـمـ مـاـ لـمـ يـعـرـفـواـ نـفـسـيـةـ الـطـفـلـ وـذـهـنـيـةـ الـأـدـوـارـ الـتـكـوـيـنـيـةـ الـتـيـ يـعـرـبـهـاـ دـمـاغـهـ وـجـسـمـهـ وـمـاـ يـطـرـأـ عـلـيـهـاـ مـنـ عـلـلـ وـتـحـولـاتـ وـمـاـ لـمـ يـدـرـكـواـ كـيـفـ تـنـمـيـ قـوـاهـ الـبـدـيـنـةـ وـالـفـكـرـيـةـ وـالـرـوـحـيـةـ وـأـعـتـقـدـ أـنـهـ مـنـ الضـرـرـ الـفـادـحـ تـسـلـيمـ أـوـلـادـنـاـ وـمـ نـعـرـةـ حـيـاتـنـاـ وـسـبـبـ وـجـودـنـاـ إـلـىـ مـرـيـانـ لـاـ يـعـرـفـونـ الـغـرـائـزـ وـقـائـيرـهـاـ عـلـىـ الـعـقـلـ الـبـاطـنـ وـنـحـكـمـهـاـ فـيـ الـطـبـاعـ وـالـأـعـمـالـ الـلـاشـعـورـيـةـ وـمـنـ الـوـبـيلـ أـنـ تـنـاسـواـ مـاـ جـهـرـتـنـاـ بـهـ الـطـبـيـعـةـ مـنـ وـرـاثـةـ، وـأـفـعـالـ مـنـعـكـسـةـ، وـعـادـاتـ وـعـيـطـ، وـجـهـ ذـهـنـيـ وـاستـهـارـ لـحلـ قـضـائـانـاـ الـحـيـاتـيـةـ.

## ١١ - حاجـاتـاـ الـحـاضـرـةـ

أـجـلـ !ـ لـقـدـ يـبـنـاـ الغـايـةـ مـنـ الـاسـتـقلـالـ، وـعـرـفـنـاـ مـعـنـيـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ، وـذـكـرـنـاـ مـبـادـيـهـاـ وـأـهـدـافـهـاـ، وـشـرـحـنـاـ ضـرـورةـ الـتـعـلـيمـ وـالـتـرـبـيـةـ، وـقـصـلـنـاـ مـقـاـيسـ الـرـقـيـ وـأـدـلـةـ الـتـمـدنـ ؟ـ وـبـحـثـنـاـ أـهـدـافـ الـتـرـبـيـةـ وـالـقـافـافـةـ ؟ـ وـعـدـدـنـاـ مـطـالـبـ الـحـيـاةـ وـمـاـ أـعـدـتـهـ الـطـبـيـعـةـ لـنـاـ وـمـاـ هـيـ أـدـلـةـ النـجـاحـ وـأـنـوـاعـ الـمـادـارـسـ وـمـاـ يـتـحـتـمـ عـلـىـ الـآـيـاءـ اـخـتـيـارـهـ، وـشـرـحـنـاـ مـاـ يـجـبـ عـلـىـ رـجـالـ الـعـلـمـ وـالـتـعـلـيمـ مـعـرـفـهـ وـكـيـفـ تـؤـدـيـ هـذـهـ الـمـهـمـةـ وـبـقـيـ عـلـيـهـاـ كـثـيـرـةـ لـمـ تـقـدـمـ أـنـ نـبـينـ مـاـ هـيـ حاجـاتـاـ الـحـاضـرـةـ مـنـ الـتـعـلـيمـ وـالـتـرـبـيـةـ وـأـيـ الـمـادـارـسـ وـالـمـعـاهـدـ أـفـيدـ لـنـاـ فـيـ عـهـدـنـاـ الـاسـتـقلـالـيـ الـدـيمـقـراـطـيـ .

انـ حاجـاتـنـاـ مـهـاـ اـخـتـلـفـنـاـ فـيـ تـعـدـادـهـاـ وـبـحـبـهـاـ تـبـدوـ صـرـيـحـةـ إـذـاـ أـخـذـنـاـ بـعـينـ الـاعـتـبـارـ أـولـاـ :ـ انـ بـلـادـنـاـ زـرـاعـيـةـ وـنـحـنـ أـمـةـ تـعـيـشـ مـنـ مـوـارـدـ الـزـرـاعـةـ وـمـنـ خـيـرـاتـ الـأـرـضـ وـمـوـقـعـنـاـ يـقـعـ فـيـ مـلـتـقـ مـوـاسـلـاتـ الـشـرـقـ وـالـغـربـ وـبـحـكـمـ الـطـبـيـعـةـ وـرـثـاـ الـمـيـلـ لـلـتـجـارـةـ وـالـصـنـاعـةـ .ـ ثـانـاـ :ـ انـ الـأـمـةـ لـاـ تـرـازـ مـتـفـشـيـةـ يـبـنـنـاـ فـيـ الـمـدـنـ وـالـقـرـىـ وـهـيـ عـلـةـ الـتـأـخـرـ .ـ ثـالـثـاـ :ـ انـ مـاـ مـرـبـنـاـ مـنـ أـدـوـارـ الـحـكـمـ وـأـنـوـاعـهـ وـمـاـ خـلـفـهـ الـسـنـونـ فـيـ نـفـوسـنـاـ وـجـمـعـنـاـ وـأـخـلاقـنـاـ مـنـ أـسـوـاءـ ،ـ وـعـادـاتـ ،ـ وـمـاـ أـبـقـتـهـ يـبـنـنـاـ مـنـ مـقـوـضـاتـ تـحـتـاجـ إـلـىـ مـعـالـجةـ .ـ رـابـعاـ :ـ انـ أـمـرـ الـمـرـأـةـ وـالـعـائـلـةـ أـسـاسـيـ فـيـ تـكـوـنـ الـجـمـعـ وـلـهـ الـتـأـثـيرـ الـأـكـبـرـ فـيـ كـلـ اـسـلاـحـ وـنـهـضـةـ .ـ أـقـولـ إـذـاـ أـخـذـنـاـ هـذـهـ الـأـمـورـ بـعـينـ الـاعـتـبـارـ وـقـدـرـنـاـ مـالـلـنـظـامـ وـالـتـنـظـيمـ وـالـدـفـاعـ ،ـ مـنـ ضـرـورـةـ اـسـطـعـنـاـ أـنـ نـوـجـهـ تـعـلـيـمـنـاـ وـتـرـبـيـتـنـاـ كـمـ تـفـرـضـهـ الـحـاجـةـ وـبـفـرـضـهـ نـظـامـنـاـ الـدـيمـقـراـطـيـ وـيـقـولـ بـهـ الـعـلـمـ .ـ وـنـظـرـةـ إـلـىـ مـاـ بـلـفـتـهـ الـمـادـارـسـ الرـسـمـيـةـ فـيـ سـوـرـيـاـ مـنـ جـبـ الـمـدـدـ وـالـنـوـعـ تـرـيـنـاـ أـنـ الـتـعـلـيمـ الـأـوـلـيـ وـالـابـدـاـنـيـ وـالـثـانـوـيـ وـإـنـ اـزـدادـ اـتـسـاعـاـ وـتـنـاـوـلـ الـبـيـنـنـ وـالـبـيـنـاتـ وـفـاقـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ أـيـامـ الـعـمـانـيـنـ وـالـأـفـرـنـسـيـنـ فـانـهـ مـنـ حـيـثـ الـحـاجـةـ الـمـلـحـةـ ،ـ وـالـفـرـورـاتـ الـتـرـبـوـيـةـ الـمـهـمـةـ لـاـ يـزالـ دـوـنـ الـفـاـيـةـ .

فـالـمـادـارـسـ الـابـدـاـنـيـةـ بـلـغـ عـدـدـهـاـ «ـ ٨٥٥ـ »ـ مـدـرـسـةـ رـسـمـيـةـ تـحـوـيـ «ـ ١١٣٥ـ »ـ تـلـيـدـاـ وـالـمـادـارـسـ الـثـانـوـيـةـ بـلـغـ عـدـدـهـاـ «ـ ٣٠ـ »ـ مـدـرـسـةـ تـحـوـيـ «ـ ١٤٣٢ـ »ـ تـلـيـدـاـ وـالـمـادـارـسـ الـمـهـنـيـةـ بـلـغـتـ «ـ ٦٠ـ »ـ مـدـرـسـةـ تـحـوـيـ «ـ ٩٦٢ـ »ـ تـلـيـدـاـ .ـ وـهـنـالـكـ «ـ ٩ـ »ـ مـعـاهـدـ أـهـلـيـةـ تـحـوـيـ «ـ ١٧٢٢ـ »ـ تـلـيـدـاـ فـيـلـ يـكـفـيـ هـذـهـ الـمـقـدـارـ لـلـقـضـاءـ عـلـىـ الـأـمـيـةـ ؟ـ وـلـوـ فـرـضـنـاـ أـنـ رـبـ الـسـكـانـ يـحـتـاجـونـ إـلـىـ الـعـلـمـ وـيـجـبـ أـنـ يـكـوـنـوـاـ فـيـ الـمـادـارـسـ كـمـ دـلـتـ عـلـيـهـ اـحـصـائـنـ الـأـمـ الـرـاقـيـةـ ،ـ وـإـذـاـ فـرـضـنـاـ أـنـ نـفـوسـ سـوـرـيـاـ يـلـاثـةـ مـلـاـيـنـ فـالـوـاجـبـ أـنـ

يكون هناك « ٧٥،٠٠٠،٠٠ طالب وطالبة ، وإذا كانت النفوس بمسد الاحساء الفي الدقيق تبلغ أربعة ملايين لكان الدين يجب أن يكونوا في المدارس مليون شخص ، فكم يقتضي هؤلاء من المدارس ، ومن المعلمين ومن الابناء ومن الزمن ؟

وإذا نظرنا إلى الكلمات الثانوية وإلى عدد المتخرجين منها بالاعتبار الحاضر لفانا عددهم ولو جدنا أن لا يخرج نهايأ لهم سوى التحصيل الجامعي وهو غير كاف لتأمين مستقبلهم ولتأمين حاجة البلاد . ألا يبقون حيارى مزودين بنظريات العلم ومحروميين من تطبيقاته العملية ؟ ألا ينقصهم أدلة النجاح ، ويقتضي التوجيه المقيد ؟ إن التعليم الجامعي مفيد ولكن البناء يبدأ من الأساس لا من الرأس .

أين التعليم الزراعي ؟ وأين التوجيه الزراعي ؟ وأين المدارس الصناعية الزراعية ؟ وأين كليات الهندسة الزراعية ؟ وأين الخبراء والحقول الزراعية الفتية ؟ إن هذه غير موجودة والموجود هزيل وناقص . والبلاد بلاد زراعية وخمسة وسبعون من في المائة سكانها يتعاطون الزراعة ؟ فكيف تزداد البلاد وتتلاطم أحطمار الثقافة الناقصة ، وكيف يزيد انتاجها وتزداد روتانا ومصادر اتنا والمزارعون يزرعون ويحصدون وهم على ما هم عليه منذ القرون الوسطى لم يتقدموا إلا قليلا ؟ هذه بعثاتنا العلمية تذهب إلى الغرب فكم عددها وكم خصص منها للزراعة وفروعها والدراسات الزراعية وهندستها . كان الواجب أن نوجه تعليمينا بهذه الغاية منذ الابتداء وأن نرسل البعثات من شبابنا للترؤد بها في الغرب من رقي زراعي وعلم زراعي حتى اذا عادوا تولوا التعليم ، والتطبيق والارشاد .

ان لكل تعليم فوائد ومحاسناته وزيادة المدارس وكثرة انتشاره  
وانتشار التعليم مفيدة ولكن حاجتنا إلى المدارس العلمية العملية الزراعية  
والصناعية أهم من كل شيء، ويجب أن تدار كها قبل استفحال داء الحبر.

والتوظيف . إننا بحاجة إلى مدارس لكل منها طابعها الخاص واحتياطها العلمي فبعضها للاتئمار وبعضها للجذبوب ، وبعضها لالبان والمواشي واللحوم والمراعي وبعضها المروج والغابات ، وبعضها لالغنم والأواجن والصوف ، وبعضها الزهور والعطور والنحالة ، وبعضها للكيمياء الزراعية ودراسة التربة والاسناد ، وبعضها لاققطان والري ، وبعضها لامصالات الزراعية التي لا تهدى .

ولزرقية الصناعات تحتاج إلى مدارس مهنية ترفع مستوى الصناعة ومستوى الحياة وتستخدم العلم والفن وتخدم الشعب والحكومة والجيش وحسب علاقتها تضم إلى مهن ميكانيكية ، ومنهن بدوية . فالميكانيكية تتناول مهنة الحركات ، والسوافة ، والسيارات ، والمطاحن ، وتركيب المعامل والآلات ، والكهرباء وما يشتق منها كالبرق اللاسلكي ، والراديو ، والتمديدات ، والتؤيرات وغيرها ، والسكك الحديدية والمباني والتسييج ، والأنوال . والمهن البدوية تتناول شتى الصناعات كالخزف ، والبلور ، والقزاز ، والنحارة ، والنحت ، والخدادة ، والخياطة ، والنحاسة ، والزخرفة ، والدهان ، والجياكة وغيرها مما يدخل في حاجات الإنسان والعمaran .

ولجعلها تتفق والنظريات العلمية والترقي العلمي يجب تعليمها في المدارس  
علميًا عمليًا . ونظرًا لأنهم فان البلاد الأمريكية ، والإنكليزية ،  
والسوفياتية عممتها وزادتها بصورة لم يسبق لها نظير . لأن المدارس العالية  
والجامعة لا يستطيع معظم الطلاب الوصول إليها واتمامها لأسباب عديدة  
ولذا كي يتبع كل ما يستطيعه وحق لا يتحقق حالة على المجتمع يعيش بوجي  
القليل والاستسلام أحدثت هذه المدارس ، ونظمت ، واعني بها حتى غدت  
محببة إلى النفوس وضامنة للنجاح .

الألعاب الرياضية وتمارس التسليات البرئية ويجب أن يكون نظام الادارة والاشراف يشبه نظام الحكم القائم على المباديـة الديمقراطية فيكون بجانب جهاز الادارة والتعليم هيئات للطلاب ينتخبون من قبلهم عثرون مصالحهم ومصالح المدرسة ويشرفون على المنظمات المدرسية والجمعيات كما يشرف النواب على جهاز الحكومة ويشرعون لصالح الطلاب والمدرسة . ومن المفید تعويذهم كيفية الانتخاب ومارسته والبحث والمناقشة وتقديم الاقتراحات ونقد الآراء ووضع القرارات في المسائل التي سيجدهونها يوماً ما في مستقبلهم . ومن الواجب ايفاظ شعور الاحترام والمحافظة على موجودات المدرسة وكتبها وأدواتها وجهازها ولكي لا تقطع صلة المدرسة بين انجذبـتهم من طلابها ولمعرفة ما يؤول أمر كل منهم بعد خروجه يتـخذ سجل خاص لتأريخ حياتهم وأعمالهم ويسعى لادامة العلاقة معهم والالـصال بهم ويـان مراجعتهم ومشاكلـهم وابداعـاً لروح التربية الحديثـة يجب أن يكون للرياضة جمعية وناد وللطالعـة مكتبة وناد وجـمعية ، والباحثـة العلمـية ناد وجـمعية ، وهـكذا لكل عمل تـماـوني وكل عمل علمـي ناد وجـمعية وقـانون ويـجب أن تـتزـج الزـعـات البيـسيـكـولـوجـية والـعلـمـية مع الزـعـات الـاجـتمـاعـية لـجـعـل التربيةـ العملـ الـاـنـهـاـيـيـ المـقـصـودـ منهـ تـكـيـفـ الفـرـدـ جـمـاـهـيـاـ وـروحـاـ وـعقـلاـ معـ مـحيـطـهـ العـلـمـيـ ، وـالـمـاطـفـيـ ، وـالـارـادـيـ . وإـلاـ كانـ منـ الفـرـرـ جـعـلـ المـدارـسـ قـاطـاتـ لـلـعـقـلـ ، وـمـكـابـسـ لـلـعـواـطـفـ ، وـزـرـاـبـ لـقـتـلـ النـفـوسـ وـمـرـاتـعـ لـأـفـسـادـ الغـرـائـزـ ، وـسـجـونـاـ لـقـيـدـ الـحـرـيـاتـ . وـلـأـدـلـ علىـ هـذـاـ منـ قـوـلـ الـلـوـردـ يـفـرـدـ الذـيـ يـنـادـيـ «ـ إـنـ قـيـامـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ دونـ تـعـلـيمـ الشـعـبـ وـتـقـيـفـهـ لـاـ بدـ أـنـ يـؤـدـيـ إـلـىـ جـلـمـاـ سـتـارـاـ خـدـاعـاـ لـطـقـيـاتـ جـبارـ لـأـخـلاـصـ مـنـهـ ، وـإـذـاـ كـانـتـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ هيـ الـغاـيـةـ الـىـ كـتـهـدـفـ خـلـفـ التـؤـونـ حـتـىـ يـتـعـاوـنـ الطـلـابـ عـلـىـ الـأـعـمـالـ الخـيرـيـةـ وـيـتـعـودـواـ عـلـىـ رـغـبـةـ وـتـقـدـيرـ . وـلـتـخـفـيـفـ مـنـ مـتـابـعـ الـفـكـرـ يـجـبـ أـنـ تـقـامـ فـيـ الـمـدارـسـ

أـمـاـ مـاـ يـخـصـ الـمـرـأـةـ وـحـاجـانـهاـ فـلـاخـتـلافـ حـالـةـ الـبـلـادـ عـنـ عـيـرـهـاـ وـأـضـرـورـةـ فـتـحـ الـجـيـالـ طـاـكـيـ تـكـونـ عـضـوـاـ صـالـحاـ يـؤـدـيـ وـظـيـفـتـهـ وـيـتـبـوـاـ مـكـانـتـهـ فـيـجـبـ أـنـ يـكـونـ لـهـاـ مـدـارـسـ مـهـنيـةـ خـاصـةـ تـلـاثـمـ مـعـ حـاجـانـهاـ وـطـبـعـتـهـاـ . وـمـعـ أـنـهـاـ قـوـمـ الـيـوـمـ دـورـ الـمـعـلـمـاتـ ، وـالـحـقـوقـ وـالـطـبـ وـالـآـدـابـ وـالـحـقـوقـ لـاـنـهـاـ لـاـ تـجـدـ سـوـاـهـاـ فـيـ حـاجـةـ لـمـؤـسـسـاتـ أـخـرـىـ تـكـفـ لـلـعـدـدـ الـوـافـرـ مـنـ الـطـلـابـ تـعـلـمـ فـيـهـاـ مـاـ يـضـعـنـ لـهـاـ حـسـنـ الـأـمـمـةـ ، وـبـنـاءـ الـعـائـلـةـ ، وـكـسـبـ الرـزـقـ وـخـدـمةـ الصـنـاعـةـ الـنـاسـيـةـ الـيـدـوـيـةـ وـالـفـنـيـةـ .

وـالـمـدارـسـ الـمـهـنيـةـ الـمـوـجـودـةـ وـالـمـدارـسـ الثـانـوـيـةـ وـالـكـلـيـاتـ الـجـامـعـيـةـ لـاـ كـسـطـطـعـ بـعـلـومـهـاـ وـتـأـسـيـسـهـاـ أـنـ تـمـدـ الـطـلـابـ لـمـكـافـحةـ الـحـيـاةـ وـتـأـمـينـ حـاجـاتـ الـوـطـنـ وـحـسـيـانـ الـعـقـيـدـةـ وـالـضمـيرـ مـاـ لـمـ تـكـنـ نـمـوذـجاـ صـالـحاـ لـلـعـائـلـةـ وـالـحـكـومـةـ وـالـمـعـدـ ، وـالـشـرـكـةـ ، وـالـقـرـيـةـ يـخـضـعـ فـيـهـاـ الـطـلـابـ إـلـىـ الـفـاقـونـ لـاـنـهـ مـنـ مـنـقـعـهـمـ ، وـيـقـومـونـ بـالـوـاجـبـ لـاـنـهـ وـاجـبـ وـأـدـاؤـهـ فـضـيلـةـ ، وـيـعـنـونـ أـبـداـنـهـمـ لـاـنـ التـمـرـينـ يـكـسـبـهـمـ النـعـوـ وـالـصـحـةـ وـيـعـدـونـ رـبـهـمـ لـاـنـ الـعـبـادـةـ غـذـاءـ رـوـحـهـمـ وـيـحـتـرـمـونـ الـحـرـيـةـ لـاـنـهـ حـقـهـمـ وـالـإـسـاءـةـ لـهـاـ إـسـاءـةـ لـأـنـفـهـمـ ، وـيـفـكـرـونـ بـمـاـ يـعـمـلـونـ لـاـنـ الـعـمـلـ بـدـوـنـ تـفـكـيرـ ضـيـاعـ لـلـعـمـرـ ، وـيـشـعـرـونـ بـالـثـقـةـ لـاـنـ شـعـورـ الـثـقـةـ يـتـوـيـ اـرـادـهـمـ وـيـعـدـعـهـمـ مـرـكـبـ الـنـفـصـ ، وـلـتـكـونـ الـمـدرـسـ الـعـالمـ الـحـبـبـ الـيـمـ يـجـبـ مـعـرـفـةـ رـعـائـهـمـ وـفـهـمـ مـسـائـهـمـ وـمـعـالـجـةـ مشـاكـلـهـمـ بـرـوحـ الـعـطـفـ وـالـتـقـدـيرـ وـيـجـبـ أـنـ تـكـونـ صـلـةـ الـمـلـمـ وـالـمـعـلـمـاتـ مـعـ الـطـلـابـ صـلـةـ الـوـالـدـيـنـ مـعـ اـوـلـادـهـمـ وـالـصـدـيقـ مـعـ أـصـدـقـائـهـ . وـالـمـدرـسـ لـاـ تـكـونـ مـحـبـةـ إـلـاـ إـذـاـ وـجـدـ الـطـلـابـ فـيـهـاـ مـاـ يـرـيـعـ رـوـحـهـمـ وـيـهـذـبـ عـوـاطـفـهـمـ بـاـنـشـاءـ الـنـوـادـيـ الـمـخـلـفـةـ وـالـجـمـعـيـاتـ الـمـفـيـدـةـ الـجـدـيـةـ . وـمـاـ هوـ ضـرـوريـ أـنـ تـكـونـ الـمـدرـسـ فـطـيـقـةـ وـمـرـتـبـةـ وـمـنـسـقـةـ وـأـنـ تـكـونـ عـنـيـةـ الـنـوـادـيـ وـالـجـمـعـيـاتـ الـتـوـجـيـهـ فـيـ خـلـفـ التـؤـونـ حـتـىـ يـتـعـاوـنـ الـطـلـابـ عـلـىـ الـأـعـمـالـ الخـيرـيـةـ وـيـتـعـودـواـ عـلـىـ رـغـبـةـ وـتـقـدـيرـ . وـلـتـخـفـيـفـ مـنـ مـتـابـعـ الـفـكـرـ يـجـبـ أـنـ تـقـامـ فـيـ الـمـدارـسـ

المبادئ أو الأخلاق العامة  
في تكوين وتطور الأمم  
للدكتور أسد العابد

آماده :

وَمَا هِيَ إِلَّا نَظَرَةٌ فِي نَفَاضَاتِ هَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ حَتَّى يَدْرِكَ أَنْ هَذَا

لـ زـانـةـ خـادـعـةـ ، وـيـؤـيدـ هـذـاـ القـوـلـ الـحـكـيمـ يـيـانـ اـمـبرـاطـورـ اليـابـانـ  
ـهـيـروـهـيـتوـ ، لـشـعـبـهـ ، بـعـدـ ماـ اـسـتـسـلـمـتـ بـلـادـهـ إـلـىـ الـحـلـفـاءـ فـقـالـ لهمـ  
ـأـقـدـ عـلـبـنـاـ لـأـنـاـ لـمـ تـعـلـمـ »ـ وـمـعـنـ أـنـاـ لـمـ تـعـلـمـ أـنـ تـرـيـةـ الشـعـبـ وـعـلـومـهـ  
ـوـمـعـارـفـهـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـحـلـفـاءـ كـانـ نـاقـصـهـ فـلـمـ نـمـدـ الـعـيـدةـ ، وـلـمـ نـفـهـمـ مـطـالـبـ  
ـالـحـيـاةـ .ـ .ـ .ـ الـيـسـ فـيـ قـوـلـ الـخـلـيقـةـ الـثـانـيـ عـمـرـ بـنـ الـخطـابـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ :ـ لـاـ تـرـبـواـ  
ـأـلـاـدـكـمـ نـزـمـنـكـ فـاـنـهـمـ خـلـقـواـ لـزـمـنـ غـيـرـ زـمـنـكـ ، وـمـاـ يـؤـيدـ هـذـهـ الـحـقـيقـةـ  
ـوـمـخـنـرـتـاـ مـنـ الـوـقـوعـ بـعـاـ وـقـمـتـ فـيـ اليـابـانـ .ـ

يقول المربى « جاكوب فام » وهو من علماء أمريكا في بحثه عن التعليم وأهدافه « إن التعليم في كل زمن ومكان عملية يقوم بها جيل بعد جيل قصد اعداد الجيل الآتى للحياة والانطلاق بمسؤولية الحياة ولا يخرج التعليم عن كونه تجربة قد تصيب وقد تخاطىء وقد تنفع وقد لا تنفع شأنه في هذا شأن جميع التجارب التي يقوم بها الناس » .

١٢ - الخمرفنة

وأخيراً ان محاضري ليست برنامجاً دينياً قراطية والتعليم ولكنها ، فكرة توجيهية قصدت منها تنبيه المسؤولين املها تفتح أمامهم مجالاً لابحث والتقليب والنقد وتنير لهم طريق الاصلاح بأفضل الوسائل فيختارون ، لا جيال املهاً صحيحاً مفيداً ينقدون من الحيرة ويعكسنهم من العمل ويجعل دينقراطيتنا لصالح الشعب وإرادته وهذا ما يتبنيه ولباقيكم والسلام .

دمشق : كانون الثاني سنة ١٩٤٧

العالم لم يخلق سدى ، ولم يترك أمره فوضى . بل قدر تقديرًا ، وأحكم كل شيء . ولكل أجل كتاب ، وان العلة لازمة لمخلوقها ، والقضاء مرهون بأسبابه . والقدر مرتبط بأحكامه . فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك الفجر ولا الليل سابق النهار ، ولا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإن الأرض لله يورثها عباده الصالحين حكمها ، المسلمين لأمرها . سنة الله في خلقه وإن تجد لسنة الله تبديلاً .

فائز لازل في زوالها ، والبراً كين في انفجارها ، والزوايد في عصفها ، لا تختلف في قانون نشوئها ، عن الأئم في تطورها ، والمالك في تقلبها . بل كل يخضع لقانون طبيعي واحد : قانون الحركة الدائمة والقوى المتنازعة . فالنار والهواء والماء والتراب ، والنبات والحيوان ، ما هي إلا مظاهر للقدرة كيقتها الحركة الدائمة وميزتها القوى المتباينة . فاختلفت في طباعها وتباعدت في أشكالها وكذلك الأئم من حيث النشوء والتطور فهي واحدة في جوهرها ، متباعدة في حركتها ، وبقدر اختلاف تلك الحركة . تختلف عناصرها ، وتتكيف أحواها ومقاييس القوى الفعالة هي الأفعال . ومعيار القوى الاجتماعية : هي الأخلاق .

حيث إن متساويان بالعدد والعدد ، والدثرة والنظام ، والقوية والمناعة ، فالغفر لا يعلمها خلماً .

وآخران متفاوتان بالعدد والعدد . هذا صغير منظم وذلك عظيم أمره فوضى فالغلبة للنظام على الفوضى .

وأمثالان متساويان بصلة الأخلاق ، فالغفر بمحاذيب المآلة على الجاهلة والكثيرة العدد والعدد على قليلها .

وامة مجتمعة على خلاة أوفر حظاً في الحياة من أخرى متفرقة على حق سنة الطبيعة في أبنائها .

دعا موسى قومه يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم

ولا ترتدوا على أدباركم . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنما إن ندخلها ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، فناهوا في الأرض أربعين سنة ، ثم عادوا فتغلبوا على تلك الأرض المقدسة ، وذلوا أولئك القوم الجبارين ، وظفروا بما تقاعدو عنهم بلا مس ، فما السر في هذا الانقلاب العظيم وما علة هذا الاقدام بعد ذلك الا حجام ؟ تلك الاخلاق وركب البحر طارق بن زياد باطي عشر ألف مقانيل من عناصر شتى ، مختلفي الوجه متحرجي الارواح ، حصونهم سبوفهم ، وقوتهم زاد عددهم ، فنزل الاندلس غريباً وفيها من العدد والجيوش ، والقلاع والحسون ، ما لا يقع عليه حصر ، فشتت جموعها ، ودك حصونها ، وفتح بلادها وأخضم رجالها ، وأسر ملوكيها وامتلك كنوزها ، ثم وفت ملوك الطوائف ومعها الجيوش الجرار ، والفرسان الكرارة ، ومن خلفها الحصون والقلاع ، والذخائر والعتاد . والعلوم والفنون والحضارة والمدنية . فلم يعن العلم المتخاذل من صولة الجمل المذكوف شيئاً . ولم تدفع المدنية المترفة من الهمجية المتحدة شيئاً . وما هو إلا حين من الدهر آن ، حتى باتت تلك المملكة العربية العظيمة كأن لم تكن شيئاً مذكورة ، فليت شعري مما علة هذا الاندحار ، وما كان السبب في هذا الانتصار ؟ تلك الاخلاق .

وانفجرت قبليتان في عام واحد ، إحداهما تركية والآخر عربية فتداعت لهول صدى الاولى حصون اليونان وقلاعها وتغير نظام العالم ومحن لوزان من سفير عهودها . ولم تهتز لصوت الثانية ذرة التسم وباء بالخران رماتها ، فاعلة هذا التباين الفاضح ياترى وهما يهان راشتها قوس واحدة وإلى هدف واحد ؟ تلك الاخلاق ، تلك الاخلاق .

فالاخلاق أئمها الساده - وأريد بها الاخلاق الاجتماعية العامة - هي الروح الحيوية التي تتجلب بها الامة في كل طور من اطوار حياتها ، قوية أو ضعيفة ، صالحة أو فاسدة ، هي الجلة العصبية التي تربط الفرد بالجميع

والجموع بالفرد ، فيتداعى الأول لنصرة الثاني وينثر الثاني لنصر الأول . وما الامر في بنائنا إلا كالجسم في تكوينها ، هذه تألف من حجيرات مسفلة في ذاتيتها ، مختلفة في أشكالها متباعدة في أحجامها ، غير أنها متعددة في روحها مرتبطة في كيمنتها ارتباطاً يحار العقل البشري في انتظامه . لكل منها عرولاً مختلفاً عن هذا خاص بذاتها فهي تتكون وتتشكل وتتوات . وذلك عام تفرغه حفظاً لكيان المجموع . فيما زرى الحجرة الواحدة تستمد من المجموع جميع مقومات حياتها ، نشاهدها تهدى بكل قواها ونتائج عملها الخاص الذي تتألف من مجموعة تلك المقومات . ونسبة قوة هذا التبادل النفسي بين الجزء والكل تسمى قوة الجسم الحيوية التي يتوقف على شدتها ووهبها صحة الجسم وضمه . يحيى ما دامت ويعود إذا تلاشت . وكذلك الامر أيضاً الساده ، فهي تتألف من أفراد يتباينون في صورهم وأعمالهم ، غير أنهم متحددون اتحاداً قوياً بروحهم ، مرتبطون ارتباطاً حكماً بحفلة تارixinum ، لكل منهم حياة ذاتية خاصة مستقلة ، وعمل فردي مختلف عن عمل جاره ولكن من شأن كل من تلك الحياة وهذا العمل أن يتلاشى في حفظ كيان المجموع كما أن المجموع من شأنه أن يتداعى المحافظة على كل من أفراده . ونسبة قوة الرابطة ما بين الفرد والمجموع هي قوة الأمة الحيوية أو الأخلاق العام .

فالأمة وأفرادها بمجموع قوى مختلفة محسناًها قوة الأمة الحيوية أو الأخلاق العامة ، وبعبارة أوضح الأخلاق العامة حاصل قوة ارتباط الفرد بالمجموع والمجموع بالفرد . ومن هذا يتضح لنا أن قوة الأمم الحيوية لا تقاد بعدد القوى الفردية التي تتألف منها . بل بحاصل اتحاد هذه القوى بعضها بعض . فقد يكون في الأمة حين سقوطها أفراد ذوو عقول وذكريات ودراءة أكثر بكثير مما كان فيها أيام صعودها . ولكن قوة الرابطة أو الأخلاق العامة تكون على الدوام في هذا العهد أضعف

بكثير منها فيما قبل . فقد كان في آخر عهد الملكة الرومانية والعربية فيها من عوامل الحضارة والمدنية . ورجال العلم والآدب والذكاء والدهاء ما يربو كثيراً على ما كان إياً نشوئها . فلم يعن ذلك عندها من أمر الإضيحال شيئاً . لأن نسبة الرابطة ما بين الفرد والمجموع كانت ضعيفة لا تكفي لفواه ذلك الجسم العظيم . فانتشر عقده وتساقطت جدرانه وبيان أرأً بعد عين .

ولا غرو فالأنظمة من حيث كيانتها كابنيان الحجري لا تقاد متناه أو قوة مقاومته العمومية بصلابة كل حجر من أحجاره خشب . بل بقوة تلاصق تلك الأحجار بعضها بعض . فإذا كانت الأحجار صلبة وليس فيما بينها ارتباط تام يتداعى ذلك البناء لا أقل زوال يحصل . وهكذا حال الامم فإنها لا تكون حية ذات كيان قوي لها توفر فيها من أفراد تضارع تلك الأحجار صلابة بعلوها وزراياها الخاصة إذا لم يكن في نفوس تلك الأفراد أخلاق شريفة تربطهم ومباديء سامية تجمعهم .

تلك ماهية الأخلاق . ومنها يتضح أن الأمة هي الأخلاق تحجا بقوتها وتلاشى بضمها . ترقى بصلاحها وتحطم بفسادها . وفي حلة الأمة والأفراد سداها وهل يقوم سدى بلا حلة وهل يقف بنيان بلا أوصال . وإنما الأمة الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا

وقد ذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن الأخلاق هو الطبع . بينما الفرق بين الاثنين كبير . فالأخلاق مظاهر من مظاهر النفس يبعثه الفكر وينبهه الحوادث فيظهر عفواً مجرداً ارتياح النفس واطمئنانها . فهو معنوي بالدرجة الأولى لا عملي للوراثة فيه . إنما العمل للتزمية والبيئة . أما الطبع فهو ينبع عن الجبلة وتجلى به المشاعر . فهو مادي في خاصيته تمثل فيه الوراثة ويؤثر اختلاط الدم . فالأنكابري لا يستطيع أن ينقلب فرنسيماً . ولا الهندي أمير كينا من

حيث الطياع ولكن يوسع جميع الشعب أن يماري بعضها بعضاً بالأخلاق فالوطنية والقومية والمعصية والشجاعة والإباء ، كالعلم والأدب ليست ملك أمة دون سواها إنما هي مثاع . لكل من الشعب نصيب منه قدر سعيه وجاده .

وإذا كان الطياع تأثير في تباين الأمم واحتلافها فللاخلاق القول الفصل في تطورها وكيفيتها . وإلا لاندثرت الشعوب الضعيفة . وقلشت الأمم المبنية الطياع ولا ضاهي الياباني الأميركي والجرماني ووقف التركي امام الفرنسي والبريطاني .

فللاخلاق بلغت روما قبل أوج العذمة والمجد ، وبالأخلاق حطم العرب عروش القياصرة والا كاسرة وبالأخلاق يحكم المستعمرون اليوم أضعاف أضعاف عدهم من الأمم المتقطعة الاوصال وفيها من ذوي المقول والسيجايا الحديدة ما لا يرجح عليه عقل الأوروبي ، ولا تقاس به أخلاقه الفردية .

ومما تفاربت الآراء في كنه الأخلاق فالحقيقة التي لا يشوبها ريب هي أن الأخلاق العامة معيار قوى الأمم الحيوية . وإن نصيب كل أمة من الحياة يقدر ما عندها من الأخلاق . وإن الأمم ذات الأخلاق الصالحة لا تغلب قط على أخلاقها إنما تستعبد الأمم بالسلاح الذي لا يخرج مبادئها .

وقد أدرك الفاتحون المستعمرون ولا سيما في العصر الحاضر هذه الحقيقة الزاهنة . فيه لا يوجهون قواهم إلى مراكز الانفعال في نفوس الأمم التي يطعنون بها ، إنما يعدون إلى هذه المراكز الحساسة فيخدرونها بكل ما أوتوه من حكمة ودهاء . يملؤنها بما تصبو إليه من لفاظ الانسانية والمدنية وخدمة البشرية وحرمة ما هو مقدس في عرفها إلى غير ذلك من المخدرات المعنوية التي لا تفارعها فعلاً أشد المخدرات المادية ، حتى إذا

فلج بها خلق الأمة العام الذي به قوام كيانتها ينتهر عقدها وتتفرق كلها ويغلب فيها الشفاق والنفاق والفساد وتروج في سوقها الدسائس والفنون ويسهل على الفاسق أخذها وعلى المستعمل حكمها .

ولاعمرى إن من الانسانية والمدنية وما رادفها من اللفاظ التي في ظاهرها الرجمة ما هو أشد فعلاً في استعباد الامة وتنذيلها من قذابل المدفع وحراب الائمة . وما من خطأ أشد على حياة الامة من قتل خلقها العام على مذبح خيال حلت تنصبه الامم القوية شركاً في سبيل مطامعها يسمونه : الانسانية .

وخلالمة القول الاخلاق قوى نفسانية كامنة تثيرها مؤشرات خاصة كما يشتعل البارود لا فل شراره ، وهي كما قدمتنا معيار قوى الامم الحيوية تعرف عن شدتها وضيقها وصلاحها وفسادها كما تعرف الاعراض عن حالة الجسم من حيث الصحة والمرض . وقد يتوصل الحكم الاجتماعي إلى تعيين أحوال الامم بالنظر إلى أخلاقها ، كما يشخص الطبيب المرض الملم بالجسم بالنظر إلى أعراضه ، وكما أن الاعراض الصحيحة والمرضية ليست علاجاً بل مسببات حادثة تعرف عن حدوث انفعال بالجسم تكشف بمحسنه ، كذلك الاخلاق فإنها حالات روحية تعرف عن انفعالات في النفوس تثيرها مؤشرات معنوية مختلفة من أهمها فيما يتعلق بـ— هذا الموضوع : الدين . والوطنية والقومية .

\*\*\*

### الخلق الديني

فالخلق الديني هو الحالة الروحية التي تتجلى بها النفوس عندما يمتلك ما أوتوه من حكمة ودهاء . يملؤنها بما تصبو إليه من لفاظ الانسانية والإيمان جسم قواها ومشاعرها فتقنطر لسلطانه عفواً بلا تردد ولا تفكير . فقد تكون الامة متدينة علة وليس عندها خلق ديني شأن العرب في هذا العصر . كما أنها تكون ذات خلق ديني متين وللاممها باحكام دينها ضعيف شأنهم في بدء الاسلام . والخلق الديني أقوى المؤامل الفعالة في حياة الامم وتطورها . وأشد الروابط التي تجمع ما بين أفراد الشعوب

الخلفة العناصر والمواطن . فالحوادث الدينية أعظم حوادث التاريخ وأجل أعمال الأمم ما جاء في عصر تدinya وما من مؤثر ذي سلطان على النفوس كالدن لأن فيه السعادة المثل التي تصبو إليها النفوس البشرية وسكن طيبة الانسان البالية إلى البقاء الواجبة من الفناء المفادية بالعرض في طلب الجوهر ، فهو خير عمل توحد به مشاعر الأمة ومنافها وأفكارها . وسيظل الدين حياً لا يفنى ما يقي في العالم أسرار ونومض لا يقوى العلم على حلها والعقل على إدراك كنهها : « وما أتيت من العلم إلا قليلاً ، إنما الأخلاق الدينية تضعف وتقوى وتموت وتتحجا وحسب تطورها هذا تتطور حال الأمة التي قامت عليها وتكونت بها . والأمم التي يسود فيها الخلق الديني أمنع الأمم وأشدتها بأساً وقوه وتحملها المثاق وصبراً على المكاره وتصحية بالنفس والنفيس . ولم يذكر التاريخ أمة نسامى فيها الخلق الديني غابت على ميدانها الأهم إلا إذا كان القاتل أسمى منها اعتقاداً وأوثق إيماناً . والأمم التي يسود فيها الخلق الديني كبير في منهجها الاجتماعي أما إلى أسمى منازل الرقي أو إلى أدنى درجات الانحطاط المدني وفقاً لرمى تعاليها الدينية ولكنها تحتفظ بكليتها وحياتها .

وفي تاريخ العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام وبعده أجمل مثال لتطور الخلق الديني في الأمم وتطورها بحسبه . فالمغرب في الجاهلية لم يكونوا أقل منهم في صدر الإسلام أخلاقاً . فقد كانوا على جانب عظيم من الكرم وال毅اء والشهامة والشجاعة والمصدبة والفروسية والنجدة والوفاء . بيد أنهم لم يكونوا أمة ذات كيان اجتماعي إنما كانوا قبائل وشعوب لا حضارة لهم تذكر ولا مدينة تحمل لا يعبأ بهم الجار ، ولا يرعى لهم جوار وذلك فقد رابطة تجمعهم وخلق عام يوحدهم . فلما جاء الإسلام بدعوهه وألف ما بين نلوبيهم بحكمه وصار لهم خاتماً نالاشت فبرهم نفوسهم وإنقادت لسلطانه مشاعرهم ، مدفوعاً ولا السبيل في طغيانه من أقصى صحاري

البداوة إلى أسمى انحاء العالم المتعدد بغرفوا . عروش الـ"كاسرة ونكروا" يجان الفياصرة ورروا غليل الأرض عدلاً وكرماً فأثبتت من الحضارة "أكلها ومن المدينة أجهها" . ثم لما تغيرت الحال ، وغدت النفوس على سلطان الـ"إيان" ، واستولت المشاعر على الدين فاصبح خلقة لا خلقاً ونسبة لا نسبة ، وعلم لا عملاً . ومذاهب لا مذهبها ، تغيرت الأرض غير الأرض وتبدل العرب غير العرب فباتوا كالغراب لا عصبية ولا سجابة جاهلية تجتمعهم . ولا أخلاق إسلامية تهض بهم حق القول عليهم « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وقد أطلق بعض الناس تبعة هذا المسيح على الإسلام لغوله بالقضاء ، والقدر تارة وآخرياته روح العصبية والشعوبية ونشره مبدأ الإباء والمساواة بين جميع العناصر البشرية التي تدين به تارة أخرى ، فأنجوا باللائمة عليه كأنه لم يأمر بالعدل والاحسان والعلم والعمل والسي والجهاد والخزم والشورى والنضام والعزם قبل التوكيل والحد والإستعداد للطواريء إلى غير ذلك من دعائم الملك ومناهج الرقي والحضارة ، أو كأنه خفي عليهم أن العرب لو لا الإسلام لما كانوا أمة تعرف وان العربية لو لا القرآن لما استطاعت أن تنتشر في سائر الملك إسلامية المختلفة اللغات . ولو لا كتاب تركه الإسلام حرزًا واقياً على صدورهم لاندجوا بغيرهم من الأمم الحاكمة من عهد بعيد ولباتت العربية طلسم لا تحمل رموزها معبر الأمم الغارقة واللغات المتنية .

أما العوامل الحقيقة التي قذفت بالعرب إلى أقصى درجات الانحطاط فهي معقدة كثيرة لا يسمح مقتضى الحال بطرق بها أنها ضعف الخلق الديني القوم في نفوسهم .

وخلاله القول : لم يتمسك العرب بخلقهم الديني القوم فضلوا السبيل وتفرقوا شيئاً . ضعف الجسم وتشوه الرسم فمن المبت وحالته هذه بمحاولون النهوض والرقى قبل أن ينبعث في نفوسهم خلق علم جديد يحييها . خلق

يجمع أبناء هذا الجسم الكبير المبعثرة في جميع أنحاء الأرض بعد شتاها وهذا الخلق هو الوطنية ، هو القومية .

\*\*\*

### الوطنية

خلق الإنسان حراً ، وخلق الزمان له عبداً ، وأعطي الأرض ملكاً ينحدر من مشرقها فيروح إلى مغاربها ، وينادر شمالها فجنوبها . لا حاجز يمنع ولا حد يوضع ، إنما الأرض لله أورثها الناس جميعاً ، ملكاً مشاعاً لانسان متاعاً ، يأكل ثمارها ويشرب ماءها وينشق هواءها ويفترش أديمها ويتحف بهاها ، فآقام من الدهر ردحاً يمر فيها مرحاً . من اجهه من اجهها وطبائعه طباعها . لا يلتجئ حرها ولا يؤذيه قرها . ثم لما تبدلت منه الحال وآنر الخل على الزحال أو العبودية على الاستقلال ، نحت من الجبال بيوتاً . كانت لسعادة الطبيعية حوداً . ثم حرث الأرض وحرسها فكانت لحريتها الأولى قيوداً . وكان كلاً ازداد ثراءً . يزداد شقاءً . وحساداً واعداً . فيعتصم بالجبار ، وحق الجوار يشد به ازره ويرهب عدوه ، فتشأ البيوت ثم القرية ثم المدينة ثم المملكة . وكانت الأرض كلها طال بالانسان عبدها تصبغها وتفرغه بقاليها وتكيفه وفقاً لطبيعتها وعنابرها فتعارف من البشر من اختلف ، وتناكر منهم من افترق فكانت القبائل والأقوام والشعوب والأمم . ولا غرو فالمرء من حيث الطبع ابن الأرض التي جعل من تربتها ومن حيث الخلق ابن الأمة التي نشأ في حجرها من ماء الأولى ونارها وترها وهو أنها فطرت حجيرات جسمه ، ومن روح الأخرى بعثت قوى نفسه ، فهو لا يسكن إلا فيها ولا يرتاح إلا إليها . فلكلها عليه حق وفي ذمته عهد . وحق الأرض حب الوطن . وعهد الأمة الوطنية .

تفاوتت الحدود في تعریف الوطن ، فهو في معناه الحقيقي البيت أو القرية

أو المدينة التي نشأ الانسان فيها وترعرع بين جدرانها وشب تحت سعادها وشاخ على موتها وعمرها . فكانت له أمّا في طفولته ، وأباً في شبابه ، ومسرح سي وجهاً في كهولته ، وجنة خلد يسكن إليها فيشيخوخته . الفها فأحبها والآلاف مدعاة للحب . فكان لذلك حب الوطن أي المكان والسكان غريزة تنشأ مع المرء ولا تولد ، وتعود ولا تورن . فهو حس طبقي كامن في نفوس الناس جميعاً . يهيجه البعد ويسكنه القرب كالصحة تاج على رؤوس الاصحاء ، لا يراه إلا المرضى . وهل من غرب لا يحن إلى أهله ومبعد لا يشوقه ذكري وطنه . وفي دواوين الأدب وبين أوتار ربات الطرف من الشعارات والألحان في وصف هذا الحب الطبيعي ما لا يسعه حصر .

وفي عرف السياسة والمجتمع الوطن حيث يتحقق الواء ويرتهم العلم ويتجلّى سلطان الأمة ، أو هو حيث يرقد الأجداد وينبع عرق الأمة ، ذلك هو الوطن الصحيح الذي قامت عليه حضارة الأمم الحية وسياستها لا تبني به بدلاً ولا تخشى به تصليلاً .

أما الوطنية فهي غير حب الوطن والمكان . هي خلق تبعه القرية في النفوس الحرة فترى في معنى الوطن حياة تبعها ودينها قوياً تجاهد في سبيله بالنفس والنفيس . هي إيمان بعمود معنوي لا يدركه الأ بصار إنما تخلج لذكره القاوب التي في الصدور ، هي خلق نفساني ، بينما حب المكان غريزة حيوانية ، فكل امرئ يحب وطنه بالطبع وليس كل امرئ وطنياً .

والوطنية خير خلق عام الممالك المختلفة العناصر والأديان تحفظ به كيانها واستجتمع قواها وتؤيد وحدتها الاهم إذا قام على أساس العدالة العامة أي الحرية والرقى . وذلك لأن الوطنية لا تنبت إلا في ظل الحرية والعدالة . في متاع الأمم الراقية الحرة وضالة الأمم المغلوبة على أمرها تتشدّها ولا تتجدد وانما يتجددها وليس هناك وطن تأويه ولا سلطان تحميه . قال النازاري دي جوكور :

وحيث لا توجد الحرية هناك قطعاً من الرقيق وليس هناك شعب ذو وطن . لأن الوطن من خصائص الرجال الاحرار ، ولا غرو فإن الحياة الاجتماعية لم تنشأ وتنمو الا لغرض واحد هو الحفاظ على حرية أعضائها وسائر حقوقهم المتبادلة . فإذا فقدت تلك الامنية فسد المتن الذي بني عليه معنى الوطن . فيتمزد ذاك نمو الفكرة الوطنية في نفوس تلك الجماعة » .  
وإذا استقر أنا روح الوطنية في حياة الامم في مختلف أدوارها نجد أنها لم تك شيئاً في عهد الانسان الاول حينما كان متفرداً مستقلاً في حياته بدويآ رحلاً بطبعته . لأنها بنت الاجتماع وربية الحضارة والمدنية . أما في الفرون الاولى والوسطى فقد كان للوطنية فيها عند سكان بعض المدن كاثينة ورومية وقرطاجنة وغيرها حظ عظيم ، لكنه غير تام من الوجهة السياسية ، وذلك لأن فكره الوطن كانت محدودة في تلك العصور لا تتجاوز أسوار . فهي لم تتدع عند الاغريق دائرة المدينة . فكانت مدنهما في حرب مستمرة فيما بينها تنظر كل واحدة منها بشقيقتها بعين ملؤها المداء والازدراء . وعاشت الهند من ذلك العهد إلى ما يقرب من هذا اليوم وهي لا تعرف غير وحدة القرية . ففللت اسيرة الفتح وربينة الاستعمار ومسرح أطماع الطامعين . ولم تتجدد الوطنية في نفوس الامم بظهورها الحالي الا من عهد قريب .

أما العرب فإنه لم يكن للوطنية حظ عند بالرغم من شدة محبتهم أو طائفتهم حتى عدوا جبها من الأعداء ، وذلك لأن نفوسهم كانت مشبعة بكليتها بفكرة المذهبية وبفكرة الاسلامية في صدر الاسلام . أما بعد ذلك حينما بات الاسلام بمعناه لا جاماً والاسلامية مذهبًا لا خلفاً . ظهر في نفوسهم شعور جديد ليس هو من المذهبية الجاهلية في شيء . ولا من الوطنية والاسلامية في شيء ، بل هو مسيخ من كل ذلك دعوه المذهبية الطائفية كان من عواقبه اضمحلال دولهم وقد مجدهم وضياع سلطانهم .

وهما تقدم يتضح لنا أن الوطنية لا تكون عاملًا صالحًا في حياة الامم إلا إذا كانت خلقاً عاماً تتأثر به نفوس جميع أفرادها . أما الوطنية المنجزة الخاصة فهي كالاطلاقية الدينية أشد خطراً على حياة الامم من أشد أعدائها . فهي رهن على انحلالها وهلاكها . لأن العهد من طال على المدن والاقاليم الصغيرة ذات العنصر الواحد وبعضاً مستقل عن البعض الآخر تتولد في كل منها روح اقليمية خاصة يتغير معها تأليف جسم واحد من بجموع تلك الاعضاء المتفرقة فتيلابي وحدة الامة وتضعف قواها ويتقلص رويداً رويداً ظلها من علم الامم الحية ، شأن العرب في الماضي وشأنهم في الحاضر ، فإن فكرة الوطن يعني الفعلة الحقيقة المجردة من ذلك البيت الكبير وفكرة الوطنية يعني الطائفية الصغيرة المبتورة من جسم تلك الاممة العظيمة مصر باستقلالهم باعت على ضعفهم وانحلالهم . . .

فعبيتاً تحاول الامم المشتلة أن تنهض وتحيا قبل أن تنزع من صدورها ما فسد فيها ، قبل أن تغير ما بأنفسها ، قبل أن تخلق بخلان عام يدين به جميع أبنائها على السواء تصبح به بلادها من أفرادها الى أفرادها هيكل عبادة يتراصون في صفوفه جنباً لجنب وكتفاً لكتف لا تفرق بين أحد منهم يتقربون جميعهم الى جامعه واحدة هي القومية .

\* \* \*

### الفوضية

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . حكمة اجتماعية ، وحقيقة عملية ، آمن بها السلف . واحتللت في حكمها الخلاف . فنفرقا شيعاً ، وذهبوا في أمرها مذاهب شتى . فهن مؤمن بخاصية الاصل الانساني ووحدة حما (٣٤)

جنه ، ومن معتقد بوحدة الاصل ونشوء المجلس وتطوره ، ومن قائل بتعدد الاصل والجنس معاً . ولكل من أئمة هذه المذاهب العلمية أدلة على تأييد دعواه وبراهين أقرها علم الائمه وأخذت ينقض دعائهما علم اليوم ، وذلك لأنها لم تتقييد بقيوده ، ولما توقف في دائرة حدوده . ولعمري إن في تعدد المذاهب العلمية واختلافها دليلاً على غموض الحقيقة وضياعها . فالعلم الطبيعي لم يهدى بعد إلى مصدر الحياة . ومعرفة أصل الاجسام الحية وادراك كنه تلك النفس التي خلق الناس منها . وصدروا عنها . كما أن التاريخ وعلم الآثار لم يتوصلا إلى تعليل تطور البشر ونشئه تعليلاً علمياً يتفق مع الطبيعة وعلم النفس . وآخر كلمة فاء بها عالم القرن العشرين حتى سنتنا هذه على لسان أجل أعلامه الاستاذ فيالتون في كتابه « أطراف ونطق ذوات الفقرات الرباعية الأربع » الذي تقد فيه مذهب النشوء والتتطور تقداً علمياً أباطل الغطاء عن وهن الاسس التي ارتكز إليها ، وخطأ الأدلة التي قام بها . وأئمها ناشيء عن عدم ادراكه ان استحالة الأجهزة الى غير أشكالها بعد تكاملها مستحيل الواقع . لأنها تستلزم انتقال بعض الأقسام وتقطع أو صاحها ما لا يلتئم مع الحياة . ومنها تصنيفه الأعنة حسب مظاهرها الخارجية بصرف النظر عن ارتباطاتها . إلى غير ذلك من الاخطاء العلمية . وتلك الكلمة هي قوله : « إن النشوء لم يحدث قط وما يقع طبق النظريات الموضعية ، وإن الأدلة الرشيمية والتربيحية المقادمة على تأييد هذا المذهب ليس لها القيمة العلمية التي صفت بها . وأنه من الواجب أن نتعرف ونقر بأننا لا نعلم شيئاً من أصل الحياة ومن مصدر الموجودات الحية . وأنه قد يسهل علينا هذا الاعتراف بمحبتنا فيما إذا فكرنا أننا لا نعلم أيضاً من أصل الأجسام الجامدة شيئاً ، وفي ذلك بيان عن وهن الدعائم التي أقيم عليها بناء فكرة النشوء والتتطور .

ذلك كلة العلم الاخريرة في هذا الموضوع . ومنها يتضح لنا أن ما قيل فيه وتنسب إلى العلم الصحيح المجرد عن الاهواء والاغراض لا يقرره العلم . إنما هنالك نظريات تحتمل الخطأ والصواب لم يتوصل العلم بعد إلى درجة الحكم فيها . تنازعتها الاهواه . وعندتها المنافع الخاصة ، وروجت سوقها سياسة العصر الماضي والحاضر لأنها روح الام المستعمرة وموافقتها مطاعم الدول العظمى ائمها نظريات النشوء الفجائي الموضعي التي أيدتها مكتب الاجتماع البريطاني الفرنسي ونظريات مذهب اختلاف العناصر البشرية التي نشرته المكاب الجرمانية . وأجل أنه الكون دني غويينو وجيمها يرمي إلى القول بتعدد الجنس البشري واختلاف أصوله وإلى أن الاقوام البشرية لم تنشأ من أصل واحد إنما لكل منها جوهر وأصل خاص . ونشوه تاريجي محدود بنسبة ذلك الجوهر . وإن الامم مسيرة . منها ما تؤهلها قابليتها الخاصة إلى الرقي المتواصل ومنها ما تقضي عليها طبيعتها بالانحطاط الدائم . وإن ذلك الرقي وهذا الانحطاط مقدaran وواعمان حنها بعامل القوى الحيوية . وإن العنصر الآري أشرف العناصر البشرية وأفضلها . فهو الشعب المصطفى الذي لأنها لمناعة لمراج رقه . جنته الطبيعة بأكرم موهبها . فاليه تنتمي سيادة العالم وقيادة الامم . وما الشعوب الباقية إلا أنواع بشرية متفاوتة في الموهب إلا أنها محدودة الرقي . تقضي عليها طبائعها الخاصة بالخضوع الدائم لسلطان القوى المطلقة . وقد كان لانتشار هذه المذاهب في أوربة سرعة البرق . ولا عجب فأنها خير مؤيد لسياسة حكوماتها الاستعمارية . وأعظم مجرد لما ترتكبه في معاملة الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها من ضروب المظالم والقصوة .

وقد كاد سبات الشرق العميق يُلْبس هذه النظريات ثوب الحقيقة الراهنة لو لم تزلزل النهضة اليابانية دعائهما وتفوش الحرب العالمية الاخريرة

في جوهرها متباعدة في طباعها وأمر جها وأشكالها تباين القوى الطبيعية مبانيها . فأسفر الصبح الذي عينه وانكشف الغطاء عن فساد المبادىء التي قالت بها وأخذت الآثار العامة تتراجع نحو نظرية النشوء التاريخية القائلة بوحدة الجنس الشري . وبأن الناس ينتون جميعاً إلى أصل واحد أو نفس واحدة . وإن ما يشاهد بينهم من الفروق إن هي إلا صفات حديثة وإن البشر لم يبعث وهلة في جميع أنحاء البسيطة إنما ظهر المرة الأولى في بقعة من الأرض محدودة ومنها انتشر كالماوج المتتابع في سائر أنحاء الأرض المختلفة الأقاليم والطائع والعناصر ، فاختلت طباعه وتباينت أشكاله . ولا غرو فالجسم المقيم في القطبين يخضع لنوميس وقوى فعالة طبيعية تختلف كل الاختلاف عن المؤثرات التي تعمل في الجسم المقيم في خط الاستواء والمعكس بالعكس . فكان الإنسان يتكيف في هجرته حسب الأقليل الذي يستقر فيه . فنشأ اختلاف العرقوب البشرية . وكانت الأقوام النابية والفرق المشاهدة بين جميع الأمم التي حافظت على دمها وموطنها . وقد أيد هذا المذهب اكتشافات علم نشوء البشر الحديثة . فإن اليوسيت Elliot Smith في كتابه : تأثير المدينة المصرية في جزر الهند وأمريكا . المطبوع عام ١٩١٦ لم يرهب الاقدام على استقرار الحضارة المصرية في أمريكا والجزر الهندية . وكذلك استقرارات علم اللغات ومقارنة الألسنة فإنها تويد نظرية الهجرة البشرية بكل جلاء . فقد أثبتت تبعيات فرانز بوب . عام ١٨٣٦ فكرة تقارب اللغات الأوروبية من اللغات المقدمة الهندية التي ألم بها وليم جون والأخوان شيليفل عام ١٧٨٦ فأحدثت هذا الاكتشاف دوياً عظيماً في العالم المتعدد وفسح مجالاً للاعتقاد بأن أصل الشعوب الأوروبية يعود إلى الهند ومنها تقدم رويداً رويداً من الشرق إلى الغرب . هكذا نشأت الشعوب في البدء حسب النظرية التاريخية . وهي واحدة

في جوهرها متباعدة في طباعها وأمر جها وأشكالها تباين القوى الطبيعية المختلفة الدائمة الحقيقة بها منذ الأزل ، فهي صناعة الأقاليم ووليدة الوراثة . ثم ان المиграة والفتورات والحروب العظيمة التي قام بها البشر منذ بدء التاريخ أحدثت اختلاطاً عظيماً بين الشعوب المختلفة اللغات والطائع والمعروف فامتزج بعضها ببعض وتولد منها مع الزمن شعوب جديدة عظيمة ذات صبغة جنسية واحدة هي الشعوب التاريخية ، ولا يكاد يوجد اليوم في العالم شعب خاص خالص حافظ على تقافة دمه منذ الفقدم المهم إلا الشعب الياباني . فإنه لم يتبين أنه اختلط بغير دمه حتى الآن ، سنة ( ١٩٢٤ ) وما الأمم الأوروبية العظيمة التي شاهدها تفاخر العالم بقومياتها إلا أمم تاريخية ولدتها عوامل شتى ذات هدف واحد ، فهي مزيج من عناصر مختلفة منها من ثبت اتحاده بكثرة الأيام كالآمة الانكليزية ومنها ما هو في دور الاتحاد كالآمة الفرنسية ومنها ما هو في دور الاختلاط كالآمة الإيطالية .

ولم يكن اتحاد هذه العناصر ببعضها ونأي بها أمم ذات كيان واحد نتيجة الاتفاق أو بسائل الطبيعة . إنما كان بعامل قوى فعالة وحروب وضغط شديد ، فاتحاد فرنسي الجنوية بفرنسا الشمالية ، كان نتيجة مذابح واضطهاد وضغط وارهاب دامت ما يقرب من قرن . وهذا ما حمل أرنست رينان على القول : « إن النسيان والخلط التاريخي عاملاً أساسياً في تكون الأمم . وإن رقي الدروس التاريخية خطط على القومية لأن التبعات والاستقرارات التاريخية تحوي ذكر الفظائع وأعمال البأس والشدة التي حصلت في بدء كل التشكيلات السياسية حتى التي كانت تائهة حسنة للغاية . إذ الوحدة لا تحصل إلا بالضغط الشديد . وما اتحاد فرنسة الشمالية بفرنسا الجنوبية إلا نتيجة مذابح وإرهاب دام ما يقرب

من قرن . إلى أن قال : وقد كان التفريق الجماعات حسب المعتقدات الدينية التي اتبعتها تركية أسوأ عاقبة عليها . وهي سبب خراب الشرق . إلّكم مدیني سلاطينك وازمير تجدوا فيها خمس أو ست جماعات لكل منها خاطراتها الخاصة . وقد لا يوجد بينها جامعة البتة . يتنا روح القومية تتطلب أن يكون ما بين جميع الأفراد جوامع كثيرة وأن يتناسوا أشياء كثيرة . فما من وطني فرنسي يدرى إذا كان بورغوني أو أليناً بفالينياً أو فيزيوفيا كل فرنسي نبي سانت برتراندي ومذايحة فرانسية الجنوية في القرن الثامن عشر .

هكذا تتألف الأمة إليها السادة . وهي صنيعة التسامح والنسيان ، والتحاب والاتحاد . وإذا لم ينس العرب أو يتناسوا كثيراً من حوادث تاريخهم المؤلمة التي كانت السبب الأقوى في تفرق كلّهم ويشيوا في أذهانهم كثيراً من مخاسن ماضيهم الحميد التي أنسنهم إياها الضفائن والاحقاد فمن العبر أن يؤلفوا أمة ذات كيان واحد يعود اليهم فيها سالف مجدهم وغابر حضارتهم .

وقد كان الدين أو العصبية المذهبية حتى أوائل القرن التاسع عشر أشد العوامل فعلاً في تأليف الأئم ومناج الشعوب المختلفة بعضها . أما مبدأ القوميات فإنه لم ينشأ إلا من عهد ليس منا يبعيد ، فهو وليد القرن الماضي ووريث الجيل الحاضر ، نفخته من روحها في نفوس الأئم الأوروبيية العظامية أو حق الدم وفكرة الفتح والاستعمار والفلسفة الاجتماعية الحديثة فلقت به قلوبها وحملته كرهاً في سويدتها ردحاً من الزمن غير قليل إلى أن تمحضت به انثورة الفرنسية بأشد الآلام وأعظم الانساح قبيلة الحرب الإيتالية بالظفر والنصر . فبدأ عام ١٨٥٩ في علم حقوق الدول غضاً نظيرًا يدعو الناس في المهد وهو سي إلى دين

جديد أو جامعة واحدة . دين فيه الحق لجسم الأمة أن يطالب ولو بالسلاح بضم جميع أعضائه المبعثرة فيسائر الأقطار إليه . جامعة إسلك فيها الحق أن تنفصل ولو بالقوة عن الحكومة المنسبة إليها سياسياً بصورة مشروعة أو غير مشروعة لتنضم إلى الأمة أو الحكومة التي تربطها بها صلات وجوامع قومية . دين وجامعة أضمرت وستضرم في سبيلها حروب هائلة ما الحرب العالمية الأخيرة إلا شرارة من شرارها . ألا وهما دين الحرية . وجامعة القومية . قال جون ستوارمبيل « حيث يوجد شعور القوميّة فهناك حق قادر لتوجيد جميع أعضاء الأمة تحت حكم واحد خاص منهم ولهم » .

وقد كان لانتشار هذا المبدأ في أوروبا سرعة هائلة . فإنه لم يدْ حتى اعتنقته جميع شعوبها . فكانت من معجزاته الوحدة الإيتالية والألمانية والدول البلقانية وبولونيا والتشكولوفا كبا وتركية الجديدة والنمسنة المصرية الحديثة . أما بقية الأمم الشرقيّة والافريقيّة فإنها لم تشن من جنات هذا الدين الجديد حظاً . ولا عجب فهي لم تؤمن بعد بقراره ولما تجاهد بالنفس والنفيس في سبيل أحکامه .

وقد ذهب علماء الاجتماع في تعريف القومية وتأمين الشروط التي تقوم بها مذاهب شتى . فقال قوم إنها جامعة الأصل والعرق . وقال آخرون إنها جامعة اللغة لأنّها مرآة العادات والأخلاق والافكار العامة وعنوان الامتزاج القديم والاتحاد الشديد . وذهب فريق إلى أنها جامعة الدين والمنافع العامة وانتاريخ والحدود الجغرافية . إلى غير ذلك من الجواب العام . ولكل من هذه الآراء حجج لها وعليها . أماحقيقة الناصعة فهي أن الأمة تتألف من كل ما ذكر ، قال توينيار Topinard الأجتماعية الحديثة فلقت به قلوبها وحملته كرهاً في سويادتها ردحاً من الزمن غير قليل إلى أن تمحضت به انثورة الفرنسية بأشد الآلام وأعظم الانساح قبيلة الحرب الإيتالية بالظفر والنصر . فبدأ عام ١٨٥٩ في علم حقوق الدول غضاً نظيرًا يدعو الناس في المهد وهو سي إلى دين

ذلك ماهية الأمة من حيث التاريخ والنشوء البشري . أما من الوجهة الاجتماعية في عصرنا الحاضر فالامة جم معنوي قوامه الشعور . وما يدرأك ما هذا الشعور . هو شعور القومي . ذلك الخلق العام أو الروح الملبية العامة التي تبعثها الجموع الطبيعية الحيوية والتاريخية المشتركة في نفوس أفراد الجماعات المتحدة . فيرى كل منهم في معنى الأمة جم حيوياً مستقلاً هو عضو عامل من أعضائه . لا يعيش إلا فيه ويعيش إذا يفتر عنه . فيعمل فيه وإليه » قال موريس بارس « شخص فعل عن قومه ووطنه أشبه بغيره انتزع من أصله لا يثبت أن يذيل ويحيط » . وقد ظل هذا الشعور الطبيعي كامناً في نفوس البشر حتى أوائل القرن المنصرم حيث تزلزلت دعائم السلطة الدينية في أوروبا . وبأن الدين لله كانه وقامت السلطة الزمنية المؤسسة على مباديء الفلسفة الحيوية الفائلة بتنازع البقاء وحق القوة ، وطأ في نفوس الدول المظمى شره الفتح والاستيلاء والاستعمار فاصبحت أوروبا ميدان حروب هائلة خليفة فسويرة وبمحكم أدبار حيتان بالرغم من اختلاف الألسنة والمعانيس والمعتقدات المذهبية فيها . وجمل الأمة الآسيوية والأفريقية لا تعد أبداً حية على ما فيها من وحدة العرق والأفلام وذلك لعدم نشوء أو تكامل شعور القومي فيها . وكذلك العرب أنها السادة من حيث بجموعهم ، أقول ذلك والحزن ملء القلب والوجه يصيغه الحigel . فانهم بعد أن كانوا خير أمة أخرجت للناس . بعد أن كانوا أفضل الأمم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً خلقهم العام الدين وجماعتهم اللغة باتوا على الرغم من توفر جميع الجموع الطبيعية الحيوية التي يقوم عليها بناء الأمة والقومية الطبيعي فيهم مما يندى أجتماعه في أمة سواهم ، باتوا على الرغم من ذلك لا يطلق عليهم في عرف السياسة الاجتماعية الحاضرة لقب أمة . إنما يدعون شعوبًا وقبائل . لأن الحال رابطهم وتشتت أهواهم وعدم وجود خلق عام يتحلقون به على اختلاف مللهم ومواطنهم .

قال جون ستوارت ميل « ليست الأمة جمًا أو وحدة طبيعية تحد بشارات وأوصاف خاصة . وإنما هي جم معنوي قوامه الشعور . وما يدرأك ما هذا الشعور . هو شعور القومي . ذلك الخلق العام أو الروح الملبية العامة التي تبعثها الجموع الطبيعية الحيوية والتاريخية المشتركة في نفوس أفراد الجماعات المتحدة . فيرى كل منهم في معنى الأمة جم حيوياً مستقلاً هو عضو عامل من أعضائه . لا يعيش إلا فيه ويعيش إذا يفتر عنه . فيعمل فيه وإليه » قال موريس بارس « شخص فعل عن قومه ووطنه أشبه بغيره انتزع من أصله لا يثبت أن يذيل ويحيط » . وقد ظل هذا الشعور الطبيعي كامناً في نفوس البشر حتى أوائل القرن المنصرم حيث تزلزلت دعائم السلطة الدينية في أوروبا . وبأن الدين لله كانه وقامت السلطة الزمنية المؤسسة على مباديء الفلسفة الحيوية الفائلة بتنازع البقاء وحق القوة ، وطأ في نفوس الدول المنظمى شره الفتح والاستيلاء والاستعمار فاصبحت أوروبا ميدان حروب هائلة خليفة الناس فيها الناس وخافت الشعوب منها الشعوب وشعر كل قوم بروحه العزلة وضرورة التعارف والانضمام إلى أشد الناس بهم صلة وأقربهم رحمة وأقدمهم عهداً اتقاه الفاتح أو طمعاً بالفتح . وما كانت المعتقدات الدينية لا تصلح أن تكون أساساً لهذا الانحاد الشدة اختلافها بين أبناء البلد الواحد نشأت في النفوس عاطفة المحبة القومية فكان لظهورها في أوروبا أعظم مؤثر على تكوين ممالكتها وعلى حيانها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحاضرة . وما زال الشعور القومي حكر الأمة الأوروبية ومثار عظمهم وافتخارهم إلى أن أضرمت فيما بينهم نيران الحرب العالمية الأخيرة التي زلت كأقاليم سيرفالاين شيرول : إعنان آسية القديم بسر التفوق الأوروبي المادي والأخلاقي فكان للشعوب الشرقية والأفريقية في ميادينها مواقف عظيمة وضحايا كبرى ملأت نفوسهم عصبية قومية أورت آيات الرئيس ولسن الأربع عشر زنادتها فاستعرت على ما يواريها من رماد الجهل واقتصرت

المبودية . اشتعلت ولا بد لاشتعالها من ضرامة يلتهم أفراد الاستعمار ويدبر قيود القلم والمبودية . في مصر طيب ، وفي السودان أجيج وفي مراكش استعار وفي الهند شرار وفي نيجيرية دخان وفي البلاد العربية زفير يستمد جمعه من بركان واحد حق اذا انفجر تغير الارض غير الارض ويتبدل العالم غير العالم .

وقد أهاب هذا المنظر الرهيب عقلاً الام المستعمرة فأخذوا يصيرون بأيديهم بحذرونهن من هول ذلك اليوم العصيب . ولكن انى للثمن أن يعي وللعالم الشره أن يرعوي . قال الدكتور دي بو في مقدمة كتابه Daker Water : « اذا لم يقدر العالم الايض عن ظلم العنصر الاسود والاحمر والاصغر وعن اختفارهم واذلامهم فان أهوال الحرب الاخيرة سوف لا تكون شيئاً مذكوراً أمام تلك الحرب الطاحنة التي سوف تضر بها الشعوب المستعمرة لنيل حريتها » .

وقال ماركس غاري Marcus garvey : « كما يتطلب الانكليز انكلترة والفرنسيين فرنسة والايطاليون ايطاليا وطننا لهم كذلك تتطلب الامم الافريقية وسيريون دماءهم في سبيل خلاصها . وان أشد الحروب الدموية هي الحرب التي ستظهر في المستقبل حينما توجه اوروبا قواها على آسيا فيستدل الافريقيون سيفهم لتحرير بلادهم » .

وقال سيفيل سigar في كتابه الذي نقد فيه مذاهب العناصر البشرية : «أخذت الامم المستعبدة اطهاب بساواتها مستعمريها باسم المباديء التي أعلنتها شعوب الحلفاء أثناء الحرب الكبرى . وإن مذاهب الفوبيين والتيليشيين والمسترلانيين قد فتحت لأمراء مجالاً واسعاً للاستعمار كفاحل في أحشائه بيد أتنا أخذنا بصر اليوم ظهر الجن وتنسامل مع الدكتور جاندر الى أين انت ذاهبة يا أوربة . فلنتراجع بكل جرأة ولنعرف

بخاطئنا بلا تردد . ولنعلم أن تلك الالفاظ الخالبة كالعنصر وشرف الدم والنجابة القومية لا تحمل لنا ذلك المشكل المعقد الخطير الذي يهدى اليوم لاعينا بكل جلاء ألا وهو مصير علاقتنا في المستقبل مع الآسيويين والافريقيين ، هكذا دبت روح القومية في نفوس الشعوب الشرقية والافريقية فأخذوا يصررون موقع الضغف فيهم ومواطن القوة في مستعمرتهم . ولعمري أن في معرفة الداء وصف الدواء ونيل الشفاء .

وباعتبار القومية شعوراً قد تكنن وقد تبدو وقد تسكن وقد تثور وقد تظاهر في طبقة من الناس دون سواها كما أنها قد تم جميع أفراد الأمة وذلك بتغيير عوامل مختلفة أهمها ماهية العناصر التي تتألف منها الأمة ودرجة امتصاص بعضها البعض . في الام المؤلفة من قومية واحدة كاليابان أو من عناصر مختلفة تلاشت اصولهم في قومية واحدة كفرنسا ، أو من شعوب مختلفة اللغات تربطهم علاقات تاريخية ودية كسويسة وبليجيكا لا يكون شعور القومية ثائراً هائجاً إنما يكون ساكناً وينتشر بشعور الوطنية .

أما في أعضاء الامم المبتورة من أجسامها الخاضعة لغير سلطانها كالآرم واليونان العثمانين قبل الحرب الأخيرة وفي الحكومات المؤلفة من عناصر مختلفة متوازنة القوى كاوستريا قبل الحرب أو متباعدة كالدولة العثمانية سابقاً فان شعور القومية في هذه المواطن يكون شديداً متوجهاً بعامل الانفعال المبعث عن تنازع السلطة والبقاء . خلافاً لشعور الوطنية فإنه يكون ضعيفاً ضئيلاً في هذه الاحوال .

وإذا نظرنا إلى العرب قبل الحرب وبعدها نجد أن روح القومية كانت أشد في نفوسهم قبل الحرب منها في هذا المهد ، وذلك لأن الانفعال الذي كانت تحدده القومية التركية المتأججة في نفوسهم خد بجلاء الازراك الذين ولدته التشكيلات الادارية بينهم من عدم الاعتماد على النفس بدلاً منه . ولما ولدته التشكيلات الادارية بينهم من عدم الاعتماد على النفس

ومن التغرة الاقليمية والغائبية التي هي أشد خطراً على وحدتهم واستقلالهم من قيود الاستعمار وبرانى القلم والاستبداد . على إننا إذا استقرأنا تاريخ نشوء هذه الروح فيبع نجدها ترجع إلى ما قبل الحرب الكبرى بستين ، وإن سوريا كانت أسبق البلاد العربية إلى اعتناق المذهب القومي والجهاد في سبيله . ففي البؤرة التي اقعدت فيها تلك الروح الشريفة ومنها انتشرت في جميع البلاد العربية ، وما الإخاء العربي والمستدي الأدبي والفتاة والجمعية الفتحطانية والمهد والثورة والنهضة والصلاح والامركزية والاستقلال إلا يالق ولل السوريون قيادتها وراس في صفوفها أبناء الأمة العربية البررة للجهاد في سبيل الدعوة القومية العربية وأحياء مجد العرب ، وما النفوس الزكية التي زهرت على أعداد الشافق والدماء الشريفة التي اهربت على الروع والعلول إلا شهادة الإخاء العربي وضحايا سوريا المحبوبة على مذبح القومية العربية . . . .

تلك ماهية الأخلاق إليها السادة وتلك الأخلاق العامة التي تكيفت بحسبها أحوال الأمة منذ بدء التاريخ إلى يومنا هذا اللهم بصورة عامة لا تتجزء عن الشاذ والغريب . أما كيفية نشوء الأخلاق في الأمة وأسباب فسادها فليس لي أن أخوض في البحث عنها الآن لأن لأن المقام الحال لا يساعدان على ذلك .

وما قدم يتضح لنا ما عرضته في صدر محاضري من أن الأمة هي الأخلاق لصلاحها وتقصد بفسادها لأنها روح اجتماعها وقوام اتحادها . وإن بنائها وإن الأمة كالبنيان المرصوص يشد بعضه ببعض ما اتحدت أحجاره أما إذا تخلخلت فلا يثبت أن يندك وينهار . وأنه يتعمذر على الأمة العربية المتفرقة المتمزقة أن تستجتمع قواها وتوحد كيانها وتبرز للعالم يظهر الأمة المستقلة الحية قبل أن تخلق بخلق عام واحد يكون لها روحًا تتعش بها وجمعة توحد فيها . وليت شعرى أبي المباديء أو الأخلاق قاله أمنيتها وتنحد به عناصرها ؟ هل الدين ؟ وهو كا

## أسعد الحكم

٥٤١

جعله فراق مثار عصبيتها ومصدر اختلافاتها ومنبع تفرقها لمدد أيامه وتشوه محاسنه ولا أصيب به من كثرة المذاهب ووفرة الطرق وما دخل عليه من البدع وطرق إليه من العلل مما هو براء منه وإن لا سبيل إلى إصلاحه إلا بصلاح الأمة نفسها . . . هل الوطنية ؟ وإن الوطنية أن توجد وليس هناك وطن . وإن الروح أن تتجلى وليس هناك جسد . وهل ينمو الحب قبل أن يخلق المحبوب ، وينبت الحب قبل أن ترضع الأرض ؟ فالوطنية بنت الحرية وريبيبة الاستقلال ونماء الأمة الحرة . تنشدها الأمم المستعبدة ولا تجدها ولن تجدها ما دامت ايديها مغلولة ورقيابها مرهونة .

هل القومية ؟ بلى أنها السادة إن القومية خير جامعة تجمع شتات الأمة العربية على اختلاف اديانها ومذاهبها ومواطنها يدين بها المسلم والنصراني عراقياً أو سورياً ، مصرياً أو حجازياً ، نجدياً أو عانياً . هي الجامعة الطبيعية التي تجمع ابنه بأبيه والآخر بأخيه . هي البقية الباقيه من ذلك الارث التاريخي العظيم الذي لم تقو الأيام بعد على اختلاسه ، ولا جرائم السياسة على افسادها . هي الغيث الوابل الذي ينهر على الأرض الجافة فيحييها حتى إذا رويت يتدفق سيراً يحرف الحدود الصناعية ولا يتعدى الحواجز الطبيعية .

هذا هو الدواء الناجع لذلك الداء العضال ينظر إليه العليل وقد أضنه المرض فهو لا يقوى على أخذنه . فليت شعرى هل يبـ الله له من نفسه قوة تحمله إليه فيشربه أو يقيض له مرضًا حـكمـاً مخلصاً يحقن به قلبه فينفعـشـ به . هذا سؤال سـيـجيـبـ عليهـ الغـدـ وـانـ عـدـاـ لـنـاظـرـهـ قـرـيبـ .

دمشق : تشرين الأول سنة ١٩٢٤ .

مروجـ

وكثر أعداء الارادة ، وقل حلفاؤها . وأصبح الانسان كريشه في مهب الريح . ومتى ضفت ارادة الانسان عجز عن الاقدام والمشقة ، وأصبحت الامة ضعيفة خاملة . فلن واجب المربى ، والمصلح الاجتماعي أن يُغنى بترية الارادة ، وأن يبحث عن أسباب ضعفها ، وبين طرق الوقاية وأساليب العلاج .

\* \* \*

ولنبحث أولاً في الارادة الصحيحة والارادة القوية . لا يمكننا الاطلاع على صفات الارادة الصحيحة إلا إذا حللنا الفعل الارادي وأحاطنا بشرائطه . ولكن المجال لا يتسع الاآن لقيام بهذا التحليل ، فلنقتصر إذن على الاشارة دون الابانة وعلى الاقتضاب دون الاسباب . لنبين أن الفعل الارادي يستعمل على عدة مراحل : أولها التصور ، ثانياً المذاكرة ، ثالثها العزم ، ورابعها التنفيذ . فإذا أردت المجيء إلى هذا النادي مثلاً تصورت الاسباب الباعثة على ذلك ، والمواءم الدافعة إليه . ثم قايسْت بين هذه البواعث والمواءم ، فوجدت بعضها يدفعني إلى المجيء وبعضها الآخر يعنفي .

فنـ المواءـلـ الـيـ تـدـفـعـ إـلـيـ المـجيـ . اليـكـ أـنـيـ أـحـبـ رـؤـيـةـ اـخـوانـ كـرـامـ تـعـودـ أـلـفـتـهـ وـالـاسـتـشـناسـ بـهـمـ ، وـانـيـ أـحـبـ السـرـ فيـ أـيـامـ الصـيفـ ، وـالـتـحدـثـ إـلـيـكـ فيـ مـوـضـوعـ فـلـسـفـيـ ، وـانـيـ أـحـبـ أـنـ أـرـكـ أـثـرـ طـيـاـ فيـ نـفـوسـكـ ، إـلـيـ غـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـبـوـاعـثـ الـقـلـبـيـ وـالـاسـبـابـ الـمـقـلـيـةـ . وـمـنـ المـوـاءـلـ الـيـ تـمـعـنـيـ منـ المـجيـ . كـثـرـةـ أـعـمـالـيـ فيـ أـيـامـ الـامـتـحـانـ وـمـرـضـ

ـأـحـدـ أـفـرـادـ أـسـرـتـيـ ، وـخـوـفـيـ مـنـ التـعبـ ، وـمـيـلـيـ الطـبـيـيـ إـلـىـ الـكـلـ ، فـتـجـاذـبـيـ كـاـلـ قـلـتـ قـوـيـ مـخـلـفـةـ ، وـتـصـبـحـ نـفـيـ فـيـ وـقـتـ وـاحـدـ سـرـحاـ

ـلـمـذـاكـرـةـ وـالـمـقـارـنـةـ وـالـمـقـايـسـةـ وـالـمـنـاقـشـةـ ، حـتـىـ اـنـخـذـ قـرـارـمـ ، فـإـذـاـ انـخـذـهـ

ـنـفـذـهـ ، وـحـظـيـتـ بـرـؤـيـتـكـ . وـلـيـسـ التـصـورـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ يـتـقـدـمـ عـلـىـ المـذـاكـرـةـ ،

## قوّة الارادة

للدكتور جميل صليبا

سر ارسطو ارادة الصحبة

لم يعن الفلاسفة الاولون بالارادة عنايتهم بملكات النفس الأخرى . فكان أهلاطون يقول : إن النفس ثلاث نفوس : نفس عاقلة ، ونفس غضبية ، ونفس شهوانية . فالنفس العاقلة مبدأ الحكمة . والنفس الغضبية مصدر الشجاعة . والنفس الشهوانية منبع الرغائب . ولم يزد أرسسطو على تصنيف أهلاطون شيئاً ، بدل على اهتمامه بقوة الارادة . كما أن فلاسفة العرب ، لم يشيروا إلى قوة الارادة ، إلا عند كلامهم عن الصفات الالهية ، والمناعة الربانية ، ومقامات المارفين ، والتکلیف والاستطاعة ، وحرية الاختيار . ثم جاء « ديكارت » أبو الفلسفة الحديثة ، فأعطى الارادة الخل الارفع ، وازداد اهتمام المتأخرین بقوة الارادة حتى جعلها « شوبنهاور » أساس مذهبـهـ فيـ كتابـهـ : «ـالـعـالمـ اـرـادـةـ وـتـصـورـ»ـ . وـلـمـ بـرـزـ عـلـمـاءـ المـصـرـ

ـالـحـاضـرـ يـهـمـونـ بـالـارـادـةـ حـتـىـ جـمـلـوـهـ أـسـاسـ الـحـيـاةـ . فـكـانـ الـاـنـسـانـ فيـ زـعـمـهـ اـرـادـةـ قـبـلـ كـلـ شـيـ »ـ . وـكـانـ الـحـكـمـ وـالـاعـتـقادـ ، وـكـلـ مـلـكـةـ منـ

ـمـلـكـاتـ الـنـفـسـ ، وـكـلـ فـعـلـ مـنـ أـفـعـالـ الـاـنـسـانـ ، وـكـلـ عـاطـفـةـ مـنـ عـوـاطـفـهـ ، وـنـزـعـةـ مـنـ نـزـعـاتـهـ ، نـتـيـجـةـ لـوـحـيـ الـارـادـةـ وـهـدـيـهـ .

ويظهر أن اهتمام المعاصرین بالارادة ، إنما كان نتیجة طبيعية لما شاهدوه في أيامنا هذه من ضعف إرادة الشبان ، وتشتت عزائمهم ، ونقص نباتهم ، وعجزهم عن الاقدام والشجاعة والصبر . حتى اقدام تشرت الروح الرومانية الكبيرة في جميع نواحي الحياة ، وعمت نفوس الشبان والشابات ،

كما ان المذكرة ليست عبئاً على العزم ، بل الارادة كلها فعل واحد مشتمل على التصور والمذكرة والعزم والتنفيذ .  
ان هذا التحليل البسيط يدلنا على شرائط الارادة الصحيحة والارادة القوية . فالارادة الصحيحة هي الارادة التي تستطيع أن تدرك أفعالنا وتوجهها توجهاً منظماً . لا يكون الانسان صحيح الارادة الا اذا تصور لفعله غاية . وفكراً في الاسباب التي تحجب هذه الغاية عنه . وهذا يدلنا على أن الارادة الصحيحة تخضع لشريطيين اساسيين هما : كصور المثل الاعلى ، والابعاد بالنفس .

اما تصور المثل الاعلى فهو ضروري لكل انسان . وهو مختلف باختلاف الناس ، ويتبدل بتبدل ظروفهم المادية والنفسية والاجتماعية . فالمثل الاعلى عند الشاعر هو التعبير عن الجمال . والمثل الاعلى عند العالم هو الكشف عن الحقيقة ، والمثل الاعلى عند القائد هو الانتصار في المعركة ، والمثل الاعلى عند الطالب هو النجاح في الامتحان ، والمثل الاعلى عند القاتنة الحسنة هو أن تحظى بفقي جميل غني حلو الحديث ، يحبها وتحبها . وهذه المثل الاعلى سلطان قوي على النفس . ان التلميذ الذي يدرك ان نجاحه في الحياة متوقف على اجتياز امتحان ما ، يزدرى مباحث الحياة كلها ، وبصطنع لنفسه حياة كادحة ناقبة . ان مثله الاعلى هو الذي يوجه أعماله ومحشد قواه النفسية في خدمة غاية واحدة . وكل ما كان هذا المثل الاعلى أسمى وأرفع ، كانت القوى التي يستدعها لتحقيقه أكثر وأغزر . هناك من يتطلع إلى اللذة وهناك من يتطلع إلى المال ، وهناك من يتطلع إلى الحسد والشرف والشهرة والجمال . واتساع مدى التطلع هو الذي يخلق الرجل الناضج . واذا فقد المثل الاعلى خدمت جذوة الحياة ، لأن الطبيعة تعيث من القوة مقدار تفوق حاجتنا . فإذا كنا ننجي في سبيل غايات صغيرة وأباطيل حقيرة حرمتنا الطبيعة هباتها السخية .

وهكذا ، فالهدف العظيم يخلق الرجل العظيم . ونحن جميعاً نعيش في عالم أوسع من العالم الذي يشير إليه عنواننا البريدي ، لأن دعوانا - كما يقولون - أكثر مما تحتاج إليه آلامنا ، كما أن اتساعنا أكثر مما تحتاج إليه أفراحنا .

وأما الشرط الثاني في قوة الارادة فهو الابعاد بالنفس . إذا لم يؤمن الانسان نفسه خسر معركة الحياة . وإذا لم يحارب شعوره بالملل عبط إلى المهاوية . إن الشاب الضعيف الارادة يقول في نفسه : أنا لا أستطيع أن أقوم بهذا العمل ، وإذا أنا لا أصلح شيء . أما القوي الارادة فيجد نفسه قادرًا على القيام بكل عمل . ولكن لما كانت الحياة لاتسع للقيام بجميع الاعمال التي يتصورها الانسان في ريعان他的 الحداقة ، كان لا بد له من الاقتصار على عمل واحد معين موافق لمواهبه ومنسجم مع ميوله . فعلى المرء أن يبحث إذن عن العمل الذي يستطيع أن يقوم به ، وأن يقبض عليه بقوة ، وأن يؤمن بكافأته ويثق بنفسه ، ويقدم عليه بجهة ، فإن من فساد المنطق أن نستنتج أنا لا أصلح شيء . لجرد أنا لا أقدر على كل شيء ، كما أنه من السخف أن نبدد قوانا في أعمال ليس في متناولنا الطبيعية ما يساعدنا على النجاح فيها .

فافت ترى أن قوة الارادة تستلزم تصور مثل أعلى قابل للتحقيق ، كما أنها تتضي الإبعاد بالنفس . وإذا فقد أحد هذين الشرطيين اضطررت حياة الانسان وكان نصيحته الفشل والاختناق .

وفي الارادة الصحيحة تنظيم للافكار والمواطاف ، وسيطرة على النفس . إن أعاظم الرجال أكثر الناس سيطرة على عواطفهم وأهوائهم وإدارة أنفسهم بأنفسهم . لأنهم يريدون ما يفعلون ، ويفعلون ما يريدون ، والناس يختلفون في قوة الارادة كما يختلفون في قوة المقل ، وهناك ارادات قوية وارادات متوسطة وارادات ضعيفة ، إلا أن صحة الارادة (٣٥) عما

شيء، وقوتها شيء آخر. لا تكون الارادة قوية إلا إذا كانت الافكار والانزعات المفهومة لها قوية أيضاً، كما أن الجسم الصحيح لا يكون قوياً إلا إذا كان قوي الوظائف والاعضاء، إن الحسان الجموج يحتاج إلى سائل قوي، والملائكة القوية لا ينتظم أمرها، ولا ينسجم فعلها إلا إذا دبرتها ارادة قوية.

## أعرا، الارادة

وهذا البحث في شرائط الارادة الصحيحة والارادة القوية يكشف لنا في الوقت نفسه عن أسباب خطف الارادة، ورشدنا إلى معرفة أمر أرضها. لا تضعف الارادة إلا إذا أضاعت سيطرتها على الافكار والعواطف. وهي أضاعت سيطرتها هذه اختل توزن الوظائف النفسية المختلفة وخسر المرء وحدته.

وقد بين العلماء أن الارادة أعداء، تضعف سيطرتها، وتخل بتوازن الوظائف النفسية المفهومة لها وإنذكر الآن بعض أعداء الارادة. فمن أعداء الارادة العواطف الغامضة، والخيال الوهمي، والاحلام. والرفيق السوء، والاهواء الخسيسة، والميل الطبيعي إلى الكسل.

أما العواطف الغامضة فتستولي على الشبان في نهاية الدراسة الثانوية أو عند دخولهم معترك الحياة. إن حياة الطالب في المدرسة الثانوية مقيدة على الاعباء بنظام ثابت. ولا تترك له مشاغله الدراسية وقتاً لابتعاد عن الواقع. ولكنه إذا ما أدرك سن البلوغ وقرأ الروايات الفرامية، وشاهد الافلام السينائية ابتعد بخياله عن الواقع وعاش في عالم مفهوم بالعواطف الغامضة. عرفت شابة نشيطة من طلاب المدارس الثانوية. كان لا يهمل درساً من دروسه، ولا يتقاuss عن القيام بواجباته. فلما قرأ رواية « ماجدولين » التي ترجمها مصطفى لطفي المنفلوطى تغيرت حاله تماماً. فانقلب نشاطه إلى يأس، وقاده إلى فنور، وسروره إلى حزن

حتى أنهل دروسه كلها، وعاش في عالم من الوساوس والاحلام. وأصبح ضيق الصدر كثيماً، سيء الخلق، خائفاً الذرع بنفسه، ومن عجيب أمره أنه أراد أن يقلد بطل الرواية في عواطفه وموبله، فاصبح عاشقاً ولكن من غير أن يكون له معشوق، ومحباً للحب نفسه، يعشق آلة خيالية، لا وجود لها في الواقع. ولم يكن تأثير رواية آلام « فرتر » التي ترجمها الاستاذ أحمد حسن الزيات في نفوس شبابنا أقل من تأثير رواية « ماجدولين ». فقد كادت تودي بحياة أحد الشبان لو لم أطلمه على أن « غونه » صاحب الرواية لم ينتحر كاً انتحر « فرتر »، وإن الفرق ينه ويدين بطل روايته انه كان قوي الارادة، فأنقذته ارادته من الانتحر. أما « فرتر » فقد كان ضعيف الارادة، فأظلمت الحياة في وجهه وقضى عليه الحب.

وأما الخيال الوهمي فيرفع الشاب إلى عالم مفعم بالاحلام اللذيدة. فيرى نفسه في هذا العالم مجردً من قيود الواقع، ومن قيود الزمان والمكان. وينسى ما هو فيه من الالم والحزن. يحب هذا العالم الخيالي، ويفضله على العالم الحقيقي لما يجده فيه من المسؤولية في ارضه رغابه وموبله. فالفقير يصبح فيه غنياً، والضعيف قوياً. ولا يحتاج الانسان في الوصول إليه إلا إلى قليل من الخيال، فانخيال الوهمي عدو من أعداء الارادة لأنّه يبعدها عن الواقع، وينسى ما يجب عليها اتخاذ من الوسائل للوصول إلى ما تصبوا إليه من الخير المتوفّم والنفع المؤمل.

نعم ان قليلاً من الخيال ضروري للنجاح في العمل، وتحقيق النجاح في العمل هو في الحقيقة، بدء له. والماء إنما يقطع أول مرحلة من مراحل النصر ساعة يفكّر في النصر ويتخيّل نتائجه. ولكن ما نعم عليه يجب أن يجد طريقه الإيجابية في العمل والحمد المستمر. فإذا أفسحنا المجال للخيال الوهمي انتصب خيالنا لمقابلة الارادة وخررنا المعركة.

وأما الرفيق السوء فيسرق الوقت ويلهي عن العمل المنظم ، ويشتت الذهن ويسئر الشخصية ، فهو يمود صاحبه لارتكاب المفاهيم والحالات والاعمال والتواطيء وخلافات الرقص والملائكة وأماكن الاله ، فيبعدي عبد شهوانه ، وأسير عاداته المألافة . تصوروا شاباً قضى ليلته في حفلة راقصة بين فجيج الآلات واختلاف الصور والأشكال والحركات ، في جو محموم من المحبجان والهوى : هل يستطيع في غده أن يذكر إلى عمله ويطرد من ذهنه تلك الصور ، ويسطير بارادته على عواطفه وغرازه . وتصوروا شاباً آخر قضى ليلته في أحد التواطيء على مائدة الميسر الخضراء تتقاذفه آمال الريح ومخاوف الحسارة ، وتجاذبه شقي العواطف والآفكار ، هل يستطيع أن ينظم أعماله وبيوجه أفكاره ، ويكون سيد نفسه في الحكم على الاشياء بهدوء واعتدال . لا اعمري إن شر الاهواء الاهواه الخبيثة ، لأنها تنتج من الاخلاق قبائحها ، وتظهر من الاعمال فضائحها ، وتحجعل ستر المرأة مهتوكة ومدخل الشر مسلوكاً . وقد قبل في منتشر الحكم : « من أطاع هواه أعطى عدوه متأهلاً » .

وما يضعف الارادة أيضاً الميل الطبيعي إلى الكسل . ان الكسل يعني من القيام بواجبنا ومحول يبتعدنا وبين العمل المثير والمعني المتصل . والكسلان يتغلب الفكر في تمييز ما اشتبه من الامور فيطلب الراحة في اتباع ما استöhله . وأكثر الناس يفضلون العمل السهل على العمل الصعب ، ويتبعون في أعمالهم طريق الاصدار دون طريق الصعود ، وفقاً لقانون الجهد الأقل . فإذا جلسوا للطالعة مثلاً استلقوا على ظهورهم في أسرتهم حتى يغطيمون النوم ، وإذا قرأوا كتاباً قلباً صفحاته بعقول شاردة ، فلا يفقهون ما يقرؤون ولا يعرضونه على ميزان الروية والفكر ، وترى انتباهم المفوي أقوى من انتباهم الارادي ، وهذا كرتهم أكثر إحاطة بالأشياء من عقولهم .

وجائز أن يكون ضعف الارادة راجعاً إلى أن جزءاً هاماً من شخصيتها يخضع لنوع من الكبح والكبت . وقد يرغب الانسان في شيء ويكون في الوقت نفسه منجدًا بفطرته وغريزته إلى أمور أخرى . مثال ذلك : قد تقرأ كتاباً وتنصرف إليه بارادتك اتصاف المضموم المازم ، ولكنك تجد نفسك عاجزاً عن تركيز أفكارك وجمعاً حول موضوع الكتاب لانشغال عقلك الباطني في نزعات مخالفة لرغباتك الواقعية . وقد تحاول بارادتك التقلب على هذه النزعات فيأخذك صداع ويسبيك سداد وأرق . وكلما حاولت تركيز انتباحك حول موضوع الكتاب هام عقلك في أودية من الاحلام . ان موضوع الكتاب يعني على سطح الشعور . ولكن ميولك المكبوتة تعمل في الخفاء ، وتسمى اناكيد ذاتها وتعنفك من النجاح في العمل . مثال آخر : قد يتلقى الشاب أو الشابة صدمة من فسخ عقد الزواج فيحاول كل منها أن يلطف من خاورتها فيقول في نفسه : ان هذا الزواج غير موافق لي ، ومع ذلك فيها يكتنان أبداً هذه الصدمة التي أصابت كبريات الذات والغرائز الجنسية . والمصدوم لا يستطيع أن يواجه الحياة بابتهاج وقوه . إن عقله منقسم ، فصفاته يصلح للعمل اليومي في حين ان نصفه الباقي يقف حراساً على ذلك الجزء من الشخصية ويصرخ بأعلى صوته مطالبًا بحفلة ، ولا يستطيع الانسان أن يتغلب على هذه الحالة إلا إذا حول ميوله الغرائزية وصعدها حتى تصبح منسجمة مع المثل الاعلى الذي يصبو إليه .

والفعل الارادي أعلى من الفعل الغرزي والفعل المنعكس . فإذا اتبع الانسان غرازه وغلبت شهوته عقله ، ضعفت ارادته ، وقاده الهوى إلى كل ما فيه لوم عليه ، فلا وجود لارادة عند أسير الهوى ، ولا عند التاجر الذي يعيش على هامش الحياة الاجتماعية ، ولا عند الفوضوي الذي لا يحب النظام ولا يقييد نفسه بعمل دائم ، والارادة ضعيفة أيضاً عند الذي

لا يستطيعون أن يتضمنوا إلى جماعة من الجماعات ، قال « بلوزدل » : « من ضعفاء الارادة الظرفاء الذين يميلون إلى جميع الاعمال للنيلذ بها بدون نظام ، ومنهم أيضاً المقلدون الذين يشبهون خراف « بانورج » في أعمالهم ، فيتبعون عاداتهم أو عادات غيرهم كالآلات المتحركة » ، ويدورون في دائرة واحدة من غير أن يخرجوا منها ، ويكررون أعمالهم بدون تفكير ، لعجزهم عن تفهم الأشياء الجديدة .

والارادة الصحيحة تتفضي أن يكون الفكر ذا مرونة ، إلا أن ضعفاء الارادة لا يستحسنون من الآراء ، إلا ما ألقوه ، فإذا جاءت الأشياء مروقة لتقاليدهم تصيبوا لها ، وإذا خالفتها أنكروها . لأن تقاليدهم تقي على أعينهم حجاباً يعنهم من ادراك الحق فيحكمون المادة في معارفهم وأفكارهم ، ويسطير الجمود على عقولهم ، حتى تصبح ارادتهم عمياً وإنما أصبحت الارادة عمباً صعب عليها الخروج على العادات المألوفة ، حتى لقد تهيأ أشبه شيء بالآل تكرر الحركات المرسومة أو تعبر الحركات الجديدة سيرتها الأولى ، فإذا أطلعتها على الأمثلة الجديدة المقيدة من التجربة والحياة ردتاك إلى الناريق والماضي ، والماضي عندها أصدق من الحاضر ، والعادة أقوى من العقل ، والغريرة أكمل من الفكر . دع أن العادة تقلب مرونة المقل إلى جمود وحربيته إلى اضطرار ، ونوره إلى ظلمة دامسة . ومتى أضاءت العقول مروتها شاق أفقها وصقرت أحلامها . لا يبلغ المقل هذه الحالة الآلية الجامدة إلا إذا أهل الرياضة الفكرية واكتفى بالتقليد وهبط من فضاء الحرية إلى حضيض المادة . إن شر القيود أقيود الفكر ، فقد يفقد الانسان حرفيته المادية فيعتقل وينافق ويسجن ويقيد بالسلسل . وقد يجارى عادات بلاده ويداري زمانه ويجامل الناس ، ويقييد بكثير من الاعتبارات

السياسية والاجتماعية ، ولكن هذه القيود لا تفضي على ارادته إلا إذا أفقدته حرية فكره . ما أكثر الذين لا يستطيعون أن يتحررُوا من تقاليد المجتمع الضيقة ! إنك إذا طلبت إليهم أن يطلقوا نفوسهم من عقالها لفقيت عجبًا عجباً . فهي لا تنطلق من أسرها مرة حتى تقع في الحيرة والارتياح ، ولا تنجو من حيرتها وارتياها حتى تقع في الاسر مرة ثانية . فكل من تعود السير متکلاً على غيره يعجز عن السير وحده في فضاء الفكر لمجرد أنه عن التحرر من العادات المألوفة وخوفه من النبعة وضعف ارادته وكسله عن الابتكار .

وهذا كله يدلنا على أن ضعفاء الارادة في زماننا هذا كثيرون : فهم السلفي الجامد الذي لا يستطيع أن يعيش إلا بالتقليد و منهم المجدد الاهوج الذي لا يتبع إلا قلبه ، و منهم الطالم الذي يجب أن يختر الناس لارادته المميأ ، و منهم الحكم السخيف الذي لا يستطيع أن يبدل أحکامه بحسب الزمان والمكان ، و منهم صاحب العواطف القائمة والخيال الوهبي الذي لا يعرف ما يريد ، و منهم رجال الاعمال الذين ليس لهم مثل أعلى ، و منهم الموظف الذي لا يحترم نفسه ولا يؤمن بكفايته ولا يشعر بكرامته ، و منهم المرأة العصبية التي تظم زوجها وأولادها ، و منهم الصحافي أو الحامي أو السياسي الذي يبدل الحقائق و يجعلها خاصة لصالحه ، و المتقلب الذي لا ثبات عنده ولا قدرة على إيجاد ، و منهم أسير الهوى الذي يكتب ميله وعجز عن تصعيدها وتحويلها ، و فقد بذلك ازانة العقلي والعاطفي . فهو ضعفاء الارادة و نحوهما ، و فقد بذلك ازانة العقلي والعاطفي . فهو ضعفاء الارادة لتشتت ميلهم وعدم انسجام أفكارهم وسرعة انتقادهم لفرازيم ، وقد يبلغ فقدان التوازن بين الافكار والعواطف حدًا ينقلب فيه الضفتان إلى مرض ، والاضطراب إلى علة مزمنة .

أمراض الارادة كثيرة والمصابون بها كثيرون . ولو استقصينا ان امراض الارادة كثيرة وعريضاً على الناس لوجد الناس في نفوسهم كثيراً منها . الان اعراضها وعراضها على الناس لوجود الناس في نفوسهم كثيراً منها . ولكن الحال لا يتسع لاحاطة بجميع الامراض . فلنقتصر إذن على الاشارة إلى المسائل الرئيسية منها . لقد قسم « ريو » امراض الارادة إلى ثلاثة أنواع وهي فقد الاندفاع ، وفرط الاندفاع ، وفناه الارادة . ولنبحث الان في كل من هذه الامراض على حدة .

١ - فقد الاندفاع — يكون المصاب بهذا المرض ضعيف الحس ، قليل التأثر ، وتكون فاعلية الحياة عنده بطيئة ، والنزاعات راكدة . وأكثر المصابين بهذا المرض النفسي يشكون المصابين بمرض الارتخاء العصبي . فهم لا يستطيعون أن يتحرّكوا بأنفسهم ، بل يحتاجون إلى إرادة أخرى تحرّكهم . وقد وصف « غيزلان » هذا المرض فقال : إن المريض يريد ولكن بارادة داخلية ، ويحب أن يفعل ولكنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً . حتى إن بعض المرضى ليتحمرون من عجزهم ، فإذا بقي أحدهم وحده أقام في داره ولم سرره أو جلس على كرسيه عدة أيام . وذكر « بنيت » رجلاً لا يستطيع أن يتجز ما يرغب فيه ، فإذا أحب أن ينزع ثيابه مثلاً فكر في ذلك عدة ساعات دون أن يقترب تفكيره بتنفيذ . فقد كانت ملائكة المقلوبة صحيحة ، ولم ينقذه إلا الاقدام على الفعل . طلب مرة قدر ما قدم له على طبق فلم يستطع أن يتناوله رغم رغبته فيه . وكان يقول عن نفسه يظهر لي أن شخصاً آخر قد سلبني ارادتي . والسبب في فقد الاندفاع ضعف قابلية الحس . وبيان ذلك أن المريض نفسه يملأ بعد شفائه أنه كان لا يشعر في داخله بقوة تدفعه إلى الفعل . فهو لم يفقد وظائف الحياة المادية ، ولكنه فقد الاحساس بها والقدرة التي

كان يجدها فيها . وعما يؤيد ذلك أن فتاة ايطالية مهدبة تمدّها غالباً عشقها رجلاً . فلما هجرها حزفت حزناً عميقاً أدى بها إلى الجنون ، فلما شفيت من مرضها هذا أصبحت بحالة الركود الانفعالي ، وأصبحت لا يُؤثر فيها شيء ولا يهيجها أمر ، ولا تشعر بمحب ولا ببغضاء . وكانت لا تعرف هل هي في قيد الحياة أم ميتة ، أم هي في سبات عميق ، حتى أخذت كان العالم الخارجي محجوباً عنها برداء من سحاب ، وكان الاشخاص ، المحظوظون بها أشبه شيء بالظلال . وكان يخجل إليها أن أصواتهم ضعيفة كأنها دوي خفيف منعكس من عالم بعيد .

والضعف في قابلية الحس ينشأ عن انحطاط عام في وظائف الحياة وقد يبلغ هذا الانحطاط درجة يشعر بها المريض أنه أصبح جاداً ، أو خطياً يابساً ، كما في حالات الملايخوليا ، فتبطئ دورته الدموية ، وتبطئ حرارته وكضعف حركات جسده .

وشبيه فقد الاندفاع مرض التردد . وهو لا ينشأ عن ضعف الانفعال بل ينشأ عن فرط التفكير وكثرة التصور ، وقد يتولد من فقدان الازان في الحياة الانفعالية ، مثال ذلك أن امرأة ذكية فطنة كانت لا تخترق من بيتها الا بعد أن تعاور نفسها قائلة : إذا سرت في الطريق فربما وقع على جم من احدى الشرف . وقد يكون هذا الجسم رجلاً أو امرأة . وقد يموت أو يجرح . فإذا جرح فربما كان جرحه في رأسه أو في احدى ساقيه . وقد يجري دمه على الطريق . فإذا مات ذعرت واستفجت بأحد الناس أو هربت أو تلوت بعض الصوابات . وقد يتهمي الناس بقتله فأساق إلى المحاكم ، وقد يحكم على بالسجن وقد تظهر براءة . فالمتردد كثير التصور . ومن أجل ذلك يستفهي جميع الوجوه . فيمنه فرط التفكير من الفعل . فإذا كتب كتاباً قرأه عدة مرات ، ثم وضعه في الملف ، ثم فتح الملف لاعادة قراءته . عرفت رجلاً بمثلاً كان

لا يخرج من بيته الا إذا خص صندوقه عدة مرات . وقد ذكر لي بعضهم أن أحد المصلين كان لا ينوي وضوئه الا بعد مسح رأسه عشر مرات . وإن بعض علماء اللغة كان يحتاج عند الكتابة الى مراجعة كل لفظة في القاموس لعدم اعتياده على ذاكرته وتردد وشكه في علمه . والمسابون يفقد الاندفاع أكثر الناس حالاً . فهم يدعون أنهم أقوى الإرادة ، وأنهم قادرون على جلائن الاعمال ، وأنهم سيطعون على الناس بكتاب جديد أو رسالة جديدة أو اختراع عظيم . فعقولهم مفعمة بالمشاريع الجميلة والنيات الطيبة والاحلام الرازية ، ولكن هذه المشاريع لا تقترب أبداً بالتنفيذ .

٢ - فرط الاندفاع - إن أعراض هذا المرض تختلف عن أعراض فقد الاندفاع تماماً . لأن الملكات العقلية إنما تكون فيه أضعف من الدوافع الحسية والانفعالية . وهي ضعف العقل أمست الإرادة آلة في يد الغرائز والنزوات قسيساً على غير هدى . وقد تكون الدوافع الحركية شعورية ، وقد تكون لا شعورية . ولكنها في كلا الحالين مقرونة بالتنفيذ السريع . والفعل الذي يتلوها شبيه بالفعل المنعكس . مثال ذلك إن امرأة قعدت على حافة غدر وهي في حزن عميق ، فلما وقعت عينها على إمام ألقف نفسها في كفن يريد أن يتنحر . ثم انقطت من الغرق فلما عاد إليها وشدتها أعلنت أنها لم تفك في الانتحار فقط . وشبيه بذلك أيضاً مرض الفكرة الثانية وجنون السرقة والميل إلى القتل قال الدكتور « بيرجانه » اجتمعت إلى خمس أمهات يوم أقيمت محاضرة عن هذا الموضوع في مستشفى « سالبوري » ، فقالت لي كل واحدة منها وهي باكية إن شيئاً أقوى منها كان يدفعها إلى طعن أولادها الصغار بعوسق حادة . وقال « مارك » عرفت امرأة كانت تضرب أولادها بالرغم منها وتعالب إلى الناس أن يقيدها وينزعوها من ضربهم . وذكر أن أحد المصابين بمرض المليخوايا استيقظ

من نومه ذات ليلة وقمع باب أخيه وهو يصرخ تماشياً إلى ببرقة الأقدنني . إن فكرة الانتحار قد ملكت علي مشاعري . وذكروا أيضاً طفلًا فقد أباه فهذا أمر تهذيباً حسناً فلما بلغ السادسة عشرة من سنّه تغيرت حاله تماماً فأصبح سعيداً الخلوق سريع الغضب . ولما سأله والدته عن سبب حزنه قال لها انه يجبها حباً عميقاً ولكن فكرة قتلها قد اقفلت عليه مضجعه وشوشت عليه عقله . ثم طلب إليها أن تتقى شره ثم تركها وانخرط في الجيش . وذكر « تولستوي » أن أحد الأطفال أضرم النار في بيت أبيه وهو يتسم مع أن أباه وأمه وآخوه كانوا نائمين فيه . وأن أحد القرؤيين نظر إلى حد الفأس المستونة فأمسك بها وضرب أباه وهو نائم ، ثم نظر إلى الدم الجاري على الأرض نظرة الفضولي البليد .

كلكم تعلمون أن الإنسان لا يستطيع في الغضب الشديد أن يملك نفسه . ففرط النهيج يؤدي إلى فرط الاندفاع ، كما أن فقدان الفكر في حالات الطيش وارتكاب النفس يؤدي إلى فقدان الإرادة . وهي كانت الأهواه شديدة والتهيجات عظيمة ملكت على الإنسان عقله . وقادته إلى الفعل كأنه آلة عمباء ، أو كان هناك قوة داخلية تسيره أو قوة خارجية تدفعه إلى الشيء وهو لا يريد .

٣ - فنا الإرادة - وقد تنحل الإرادة المحلاً تماماً كما في حالات التشوش الذهني وفقدان التوازن والفوبي النفسي ، والتجبل . فلا يستطيع المريض كبح جماح نفسه ولا السيطرة على حركاته ، ولا مقاومة الدوافع التي تختليج في صدره . وقد يؤدي تشوش الذهن وفقدان التوازن وارتكاب النزوات إلى محو الإرادة وفاتها ، كما في حالات المفتريا والوجود النفسي . وربما كان مرض المفتريا أحسن مثال يدل على انحلال الإرادة . إن إرادة الإنسان تستعمل في الحالة الطبيعية على هلاك مراتب . فالإله هي

مرتبة الافعال الارادية من افعال منعكسة وعادات . والمرتبة الثانية هي مرتبة الافعال الصادرة عن العواطف والتهيجات والاهواء . والمرتبة الثالثة هي مرتبة الافعال الصادرة عن العقل . أما في حالة المهستريا فان قائلية الانسان تقتصر على المرتبة الاولى والثانية فقط ، إذ تنحل ضوابطه العقلية ، ويفقد توازنه العاطفي لفقد توازنه العضوي ويجمع بين المتناقضات وينتقل من حالة إلى صدتها من غير نظام ولا وحدة .

ومن الاحوال التي تفني فيها الارادة حالة الوجود . الوجود أنواع مختلفة فيها ما هو صوفي ومنها ما هو مرضي ، ومنها ما هو طبيعي ومنها ما هو كسي . ولغيراء المهنـد أساليب مختلفة في الوصول إلى الوجود منها السكون النام والتحديق في المـاء أو في جـسم مضـي . وتكرار صـوت واحد على نقطـ واحد وجـسـنـ النفس أو التنفس يـيطـءـ ، ونسـيـانـ الزـمانـ والمـكانـ ، حتى يـصـبـحـ المـريـدـ كـاـيـقـولـونـ أـشـبـهـ شـيـ . يـصـبـحـ سـاكـنـ وضعـ في مشـكـاةـ لا تـهـبـ عـلـيـهـ الرـيحـ . وقد ذـكـرـتـ الفـدـيـسـةـ «ـ تـرـيزـ »ـ الـوـجـدـ أـرـبـعـ مـراـحـلـ : فـالـمـرـحـلـةـ الـأـوـلـىـ هي مرحلة المـناـ، ومـثـلـاـ كـانـسـانـ يـسـقـيـ حـدـيـقـتـهـ بـدـلـوـ يـغـرـفـ بـهـ المـاءـ منـ الجـبـ . ومـثـلـ المـرـحـلـةـ الثـانـيـةـ كـانـسـانـ يـسـقـيـ حـدـيـقـتـهـ بـعـاءـ النـاعـورـةـ . ومـثـلـ المـرـحـلـةـ الـثـالـثـةـ كـانـسـانـ يـسـقـيـ حـدـيـقـتـهـ بـعـاءـ الجـدـولـ . ومـثـلـ المـرـحـلـةـ الـرـابـعـةـ كـانـسـانـ يـسـقـيـ حـدـيـقـتـهـ بـعـاءـ الغـيـثـ الـعـمـيمـ . فـالـلـهـ فيـ هـذـهـ المـرـحـلـةـ الـرـابـعـةـ يـرـسـلـ عـمـاماـ يـسـقـيـ بـهـ قـلـوبـناـ الـيـابـسـةـ منـ غـيرـ تـعبـ ولا جـهـدـ اـرـادـيـ . وفيـ هـذـهـ المـرـحـلـةـ الـأـخـيـرـةـ تـفـنـيـ الـارـادـةـ وـيـتـحـدـ الـاـنـسـانـ بـالـلـهـ .

ووصف ابن سينا في كتاب الاشارات مقامات المارفين وفناء ارادتهم فقال إن أدنى درجات السلوك درجة الارادة .

ثم تأتي درجة الرياضة وهي نهي النفس عن هواها وأمرها بطاعة مولاها ومنها من الانتفاثات إلى سوى الحق . وقد يرتقي المريض أكثر من ذلك فيرى الحق في كل شيء . ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغاً يصير به المخلوق مألفاً والوسيع شهاباً .

نعم يعبر درجة الرياضة ويتقرب من الحق فتفيض عليه اللذات الحقيقة . ثم انه ليغيب عن نفسه فلا يرى الا المعبود المبدع ، ولا يلاحظ الا المجال المطلق وينسى ذاته وارادته . وهذه الدرجة هي أعلى درجات السلوك . وبليها درجات الوصول . وهي تذهب عند بعض المتصوفين الى المحو والفناء . فالمزيد اذا بلغ درجة الوصول غابت ذاته وفديت ارادته في ارادة الله . وربما خلع بدنه وخرج عن العالم كما قال « افلاطن » فصار جوهراً مجرد بلا جسم .

في هذه الاحوال الصوفية تدل على أن الارادة قد تفني بالرياضه وتنقلب نفسها بنفسها كـاـتـفـنـيـ اـرـادـةـ النـائـمـ فيـ نـومـهـ نـومـاـ مـفـنـطـيـساـ وـتـصـبـحـ تـابـعـةـ لـارـادـةـ المـنـوـمـ ، وـكـاـتـفـنـيـ اـرـادـةـ المـصـابـ بـعـرـضـ الجـهـودـ «ـ كـاتـالـبـيـ »ـ . وـهـوـ مـرـضـ عـصـيـ يـفـقـدـ المـصـابـ بـهـ الـاحـسـاسـ وـالـحـرـكـةـ جـمـعاـ وـلـاـ يـخـلـفـ عـنـ الموـتـ الاـ بـعـدـ فـسـادـ الجـسـدـ وـاـنـحـالـالـهـ . وـفـيـ الـاـمـرـاـضـ الـعـصـبـيـةـ التـائـجـةـ عـنـ خـلـلـ دـمـاغـيـ اـحـوـالـ اـخـرـىـ تـنـحـلـ فـيـ الـارـادـةـ اـنـحـالـاـ تـاماـ لـاـ يـتـعـجـلـ اـجـالـ الذـكـرـاـ الـآنـ .

هذه لحة بسيطة عن امراض الارادة وفي وسعنا الآن بعد أن ذكرنا أسباب ضعف الارادة وأشارنا إلى امراضها أن نتبعد إلى بعض طرق الوقاية وأساليب العلاج .

### طرق الوقاية

ان خير طريقة للوقاية من امراض الارادة هي في محاربة اسبابها . وقد ذكرنا جملة من هذه الاسباب كفقد المثل الاعلى وعدم الاعان بالنفس والعواطف الغامضة والخيال الوهمي وتآثير الرفيق الدو و المهوی والميل الطبيعي إلى الكسل . والارادة مثل الفرع تنمو بالامتداد . وكما مررنا الانسان نفسه على الجهد الارادي اكتسبه الترين عادات نافعة . والمر

لا يولد قوي الارادة كما أنه لا يولد كامل المقل فيجب عليه أن يعمر نفسه في كل وقت وان يتعدد حرية الاختيار . وكثيراً ما يكون ضعف الارادة ناشئاً عن مرض الجسم والتعب والشيخوخة والكسل . ولكن تربية الارادة يمكنها في كل سن فلا يظن الشيخ أن زمن تربية ارادته قد اقضى ، بل التربية لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة . ولذلك الآن بعض طرق الوقاية .

١ - صحة الجسد - ان الارادة القوية لا تكون الا في الجسم السليم . وصحة الجسد هي القاعدة الاساسية في امتلاك النفس . فلا بد إذن في تربية الارادة ووقايتها من الاخذ بقواعد الصحة الموافقة كالغذاء والراحة والتعرق الرياضي . لا يكون الانسان قوي الارادة الا إذا كان ذا جملة عصبية صحيحة . ولا تكون جملة العصبية نشيطة الا اذا اعتنى بغذيتها وتنفسه وراحتها . ان الاطعمة الثقيلة تتعب الجملة العصبية وتضعف الارادة .

فلنأكل قليلاً ولننضم جيداً . ان رأس الحكمة هضم الطعام . وأول الجنون النهم وإنعام المعدة والاعصاب . والتنفس الجيد لا يقل خطورة في وقاية الارادة عن الغذاء الجيد ، ويشرط فيه أن يكون عميقاً وان يكون الهواء نقياً مطرياً للدم . ولا بد في ذلك كله من ممارسة الرياضة . وأعني بالرياضة التمارين البدنية المعقولة على الاعمال الطبيعية لا تمارين البطلة التي تؤدي في أكثر الاحيان إلى انماء عضو من الاعضاء على حساب الآخر . وما يتحقق بالتمارين الرياضية المثلى في الهواء الطلق والرحلات المائية والكشفية ومارينا الفتوة وتماطي بعض الاعمال اليدوية في أوقات الراحة . والراحة المنقولة تختلف عن الكسل . ان تنظيم أوقات الراحة يقوى الارادة . أما الكسل فهو عدو الارادة اللدود . وقصاري القول ان التمارين الرياضية هي مدرسة الارادة الابتدائية . والجهد العضلي هو الصورة الاولى للجهاد الارادي . والجهد العضلي هو

٢ - روح النظام - ومن شرائط تربية الارادة محبة النظام والميل إلى التعاون والعمل المشترك . ان ضعفاء الارادة لا يحبون النظام ولا يميلون إلى العمل الدائم والجهد المستمر ، ولا يطمعون رؤساهم ولا يسعون إلى حاكم العقل ، بل يعيشون في قلق نفسي شديد ، ويفقدون نوازفهم العقلي والعاطفي ، ويفضلون الفوضى على الحرية المعقولة ، والنقبيل الاعمى على الابداع المنظم . لذلك كان لا بد في تربية الارادة من تعويد الاطفال الطاعة والنظام ، لأن ذلك يعلمهم قدر النفس والتغلب عليها ، وسيجيء لهم أسباب النجاح في الحياة . وبين تعلم الطاعة عرف كيف ينظم أعماله ويدبر نفسه ، وكيف يسوس غيره من أبناء جنسه . وللأسرة والمدرسة أثر عميق في خلق روح النظام . وكلما نعمت مدارك الطفل اتبع النظام عن ارادة ورضى ، لا عن قسر وقوه وقهراً . وارادة النظام تقتضي الاعتماد على النفس ، و تستلزم الثبات والشعور بالتعاون الاجتماعي .

٣ - تقويف الذهن - ثم ان الارادة حليناً قوياً وهو العقل . لا ننمو ارادة الانسان الا إذا تعلم التفكير وتعود الاتباع الارادي . وكثيراً ما ييشن العلماء اضرار الطيش والذهول ونشتت الافكار . انا لا نريد فعلاً من الافعال ارادة صادقة الا إذا فكرنا فيه تفكيراً واضحاً وتصورنا غايته تصوراًيناً . قال « ويليم جيمس » : ان الرجل القوي الارادة يصبح بسمعه من غير تردد إلى صوت العقل منها بكل ضعفاً ، ويصنفي من غير خوف إلى فكرة الموت . فيربح بها وبصدقها وبمحارب اعداءها ، هكذا تغلب الفكرة الجديدة على اعدائها . مستعينة بالاتباع الارادي والجهد والاجزم . فتجمع حولها اصدقائها وتغير في النهاية بجري المواقف . ومتى أصبحت الفكرة الجديدة سيدة الموقف سيطرت على الافعال والحركات ، فالصعوبة كل الصعوبة هي في ابقاءها في النفس . والانسان إنما يتمعود الاتباع الارادي شيئاً فشيئاً . اطلبوا إلى الطفل ان

٥٦١  
كل يوم ، وإن يتعدد التفاصيل والبطولة المنظمة ، وإن رغم نفسه كل يوم  
مرة واحدة على القيام بأمور لا تخيل إليها . فإذا دقت ساعة الشدائد وجد نفسه  
قادراً على الصبر والمشقة والمقاومة . تلك هي ضانة الحياة . وقال أيضاً :  
لو عرف الشبان أنهم سيعذبون يوماً كثلاً متجركة من العادات لا ينتبهوا  
إلى سلوكهم وهم لا يزالون في نضارة الحياة . فالماء ينسج مصيره بيديه  
وسواء كان ذلك خيراً أم شرّاً فإن خيطه المنسوج لن يحمل .

هذه بعض القواعد التي يجب على الانسان أن يعمل بها لاحياء إرادته وانماطها ووقايتها والمحافظة على صحتها . فإذا عملنا بها عثنا في أمن وسلام وأدركتنا السعادة بالارادة . فات الارادة الصالحة تبعدنا ، والارادة الفاسدة تشقينا . وربما كانت الارادة أدل على حقيقة الانسان من العقل . وممّى فقد الانسان ارادته الصالحة أمنى كالحيوان لا بل أضل سبيلا . والمرء يحتاج الى قوة الارادة في السلامة ونعمى العيش أكثر مما يحتاج اليها في الشدائد . وحاجة الامم اليها في زمن السلم أكثر من حاجتها اليها في الحرب . ولنحن اليوم أحوج الامم الى قوية ارادتنا الشخصية وتوحيدها وجعلها منسجمة مع الخير العام . وكما أن ارادة الفرد الشخصية لا تكون صحيحة الا اذا اتحدت نزعاته ووازن قواعده الفكرية والافعالية فكذلك ارادة الامة لا تكون قوية الا اذا اتّظمت اعمالها واتّحدت ارادات جميع افرادها واتّجت الى غاية واحدة . ولا كمال الارادة الفردية الا اذا خضعت للمقفل ، واستقرت عن الاهواء ، كما أنه لا كمال لارادة الامة الا في ترفهم عن الانانية الفردية ، وتقليلها الى المثل الاعلى ، واستقلالها ، وابعادها بعستقبليها ، وابعدادها عن الاحلام والتفايلد البالية ، واعيادها على العلم ، وتفضيلها المصلحة العامة الواسعة على المصلحة الشخصية الضيقة .

دمشق : كانون الاول سنة ١٩٤٤

حصر انتباذه في شيء من الاشياء مدة دقيقة واحدة . ويفكر في لونه وشكله وفائدته والمادة التي صنع منها . انكم إذا فلتم ذلك عدّة مرات استطعتم أن تعودوه الانتباه الارادي . ان جهد الانتباه هو العامل الأساسي في بناء الارادة . ولنكن كان التفكير لمحمة الارادة فالانتباه سداها . وقوّة الارادة إنما تقوم على جهد الانتباه كما تقوم على وضوح الفكر .

٤ - تهدیب العواطف - ومن حلفاء الارادة أيضاً العواطف المنظمة  
التي تجذب إلى الإنسان ادراك المثل الأعلى . لا يستطيع الإنسان أن ينجز  
أمراً من الأمور إلا إذا رغب فيه رغبة شديدة وتحمس له واراده بكل  
نفse ونظم عواطفه . فينبغي له أذن أن يصقل عاطفته ، وان ينظمها ،  
وان يتحمس لامر الذي يريده وان يروي أفعاله بعاء العواطف الشديدة  
وان يتعود تحمل الالم . فالالم أشبه شيء بأتون يصهر النفس ويولد فيها  
العزز والقوة .

٥ - تنظيم المعدات - ولا بد في تربية الارادة من استخدام المعدات  
الصالحة وتجنب المعدات السيئة ، وتنظيم الحركات الانلارادية والمعدات  
الآلية وإخفاء االراداة الوعائية . انا لا نستطيع أن نفكر في كل  
حركة من حركاتنا . ومتى انصرف العقل الى أجزاء هذه الحركات  
ناعت عليه المفاسد . وينبغي أن تكون حركاتنا متصفه بشيء من المرونة .  
إذا تحركت الآلة المطلقة في حركاتنا عجزنا عن تبدل اتجاهها وانقلبت  
حياتنا الوعائية إلى آلة عمباء . لا تم تربية الارادة الا إذا أفلح  
الإنسان عن عاداته السيئة وتجنب نتائجها الخلة بصحة النفس والجسد .  
لان المعدات السيئة تقييد النفس بسلسل من حديد وتعنتها من بلوغ  
غايتها . قال « ولئم جيمس » : « يجب على المرء أن يقتسم كل فرصة لتحقيق  
كل رغبة من رغابته . فالرغبات لا تبدل الجملة المضطربة الا إذا انتهت من  
الفترة الى الفعل . وعلى المرء أن يتحلى في نفسه قوة الجهد بالتمرن عليها

وحضروا الكتاب على أمانة النقل حرصاً على الفائدة ولا يدرك الناية التي وضع التاريخ من أجلها ، فليس هو مضماراً تباري فيه قرائح الشعراء أو تخدم بواسطته الآهواه . ولذلك نرى مؤرخي العرب مثل الطبراني وأبي الزرج وابن الأثير وابن خلدون وابن عساكر وغيرهم قد نهجوا نهجاً جديداً في تدوين الحوادث والأخبار حتى أصبحت مصنفاتهم من مفاخر الحضارة العربية لما امتازوا به من الضبط والدقة والصدق في إيراد الأخبار ويأخذنا لو أصول سلسلة تلك التواريخ العربية حتى يومنا هذا . وقد توسع علماء الغرب بالضبط والدقة منذ ظهور الطباعة وانتشارها في العالم حتى أنه لا يقدم أحدهم على سرد حادث دون أن يؤيده بادلة راهنة أو الإشارة إلى المصادر والماخذ مع ذميين الصفحة والسطر وإذا لم يتوصل إلى معرفة أمر أقر بعجزه بكل صراحة دون أن يرى بذلك ما يحيط من قدره ولا يستنكره عليه أحد . وما لم يجد علماء التاريخ في النأييف القديمة ما يفي بحاجتهم وضاقت بهم سبل المداية لمعرفة الماضي عمد بعضهم إلى بطن الأرض يستنتظرون دفائنها ويستغيثون بقبس كنوزها . وأطلق على هذه الفتية اسم علماء الآثار لأنهم يعتمدون على الآثار دون سواها .

إن علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ ومن أصبه مراضاً إذ يحتاج صاحبه إلى اقتداء قوي وذوق سليم فإن هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها بل الصعوبة كل الصعوبة في حل رموزها وفهم كنهها واستجواب تلك الشهود الصامتة واستنتاج الحقائق منها وقد قال Volney ، مترجمته : « إن مهمتنا أصعب من مهمة علماء الطبيعيات لأننا لا نشتغل منهم بأجرام ملموسة أو بحوادث واضحة لاحواس بل نعمل كوبئة تحقيق لدبها حوادث أدبية غائبة وربما

## شعوب سوريّة

وآثارها القديمة

للهذهب جعفر الحسني

عينت الإمام منذ القدم بالعنون الجليلة وخاصة منها الصنائع وكان حظ كل أمة من هذا شأن بحسب رقيها وحضارتها وكان الملوك والعلماء يجمعون آثار مشاهير فناني العالم ويتنافسون بافتتاحها لا لغاية علمية بل للزينة والتغافر ودام هذا حالمهم حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلاد لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الأقدمين مؤلفه Winckelmann ، وهو أول من وضع أساس هذا العلم الحديث علم الآثار القديمة ومنذ ذلك اليوم أصبحت المجموعات الاميرية مكتبة يرجع إليها بعد ما كانت من جملة المناع زين بها القصور .

لم يقتصر التجدد في عصرنا هذا على العلوم والفنون فقط بل تمدأه إلى التاريخ ونهج المشتغلون به نهجاً جديداً . فقد كان التاريخ فيما مضى كتاب أدب يجمع بين الأخبار والفكاهات ويدرس فيه حوادث ما أنزل الله بها من سلطان رغبة في تأييد مبدأ أو خدمة حاكم حتى أصبح الكثيرون يشكرون بصحة ما ورد في أكثر هذه الكتب وأطالاماً قرأتنا روایتین أو أكثر حادث واحد تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً كبيراً حتى أصبح التاريخ القديم في ارتباك عظيم .

إن مؤرخي العرب هم أول من أدرك وبال هذا المنهج المقيم لـ عاليه من المشاق في استنتاج الحقائق من المصادر التي دوتها الأقدمون

كانت مختلفة قليلاً عيناً بعض شهود عيان أو اتصلت بهم أخبارها من الرواية ويتكلّم هؤلاء المحدثون لغات مختلفة قد تلاشت فيطلب منها لغتها وهي المرة الأولى في بدء الأمر وقد نجحت في ترجمتها . ثم يجب علينا البحث عن الحوادث أو الواقع المبعثرة التي تؤيدتها وتكون هذه غالباً معرفة يتناقلها من فم إلى فم ويطلب منها بعده مقابلة هذه الروايات والتثبت من أخلاق محدثها وصدق تحقيقاتها ويكون التناقض في بعض الحوادث واضحًا فينشأ عنه حمومات لا مخرج منها . اهـ .

وقد أصبح النظر اليوم في آثار علماء الآثار وتحقيقاتهم من الواجب على كل مؤرخ ومحقق كما يستثير بها كل لغوي ومفسر . فنكم معرضة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا العلم . وكم من حوادث جاءت في كتب السلف بل وفي الكتب المزيفة فذهب الناس في تأويلها وشك بعضهم في صحتها ولو لا علم الآثار الذي أماط عنها اللثام وأظهرها لعيان ملوك محسومة لقالوا عنها أساطير الأولين . أليس أشور والكلدان ومصر وفارس ويونان شهود عدل على جهود الذين اكتشفوا آثار تلك البلاد وبعثوا ذكرهم بعد أن كانوا نسياناً منيماً لوفاً من السنين .

لم يدون الأقدمون غير النذر اليسير الذي وصلهم من أخبار الشعوب القديمة وأغفلوا ذكر أكثر الأمم البائدة التي ذهبت أخبارهم زوال أصحابها ولو اكتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا أوفر حظاً من تقدمنا بمعرفة أخبار السلف . وبفضل هذا العلم نعرف اليوم أكثر أخبار هذه الأمم كما نعرف حوادث الأمم في القرون الوسطى . وقد توصلوا إلى معرفة ما كان عليه الإنسان قبل عشرات الآلاف من السنين يوم كانت الأرض وطاءه وأديم السماء غطاءه يقتات بالنبات ويفترس الوحش مع أنها تحمل اليوم ونحن في القرن العشرين كثيراً من عقائد بعض الشعوب المعاصرة وعاداتها من تعفن عاجل إفريقياً

وسوها من القارات الخمس، ومن الانصاف أن لا نذكر فضل من قلوا علينا أخبار السلف لأن هذا الشيء البسيط هو الذي أثار في فئة من الناس حب الاستطلاع فدفعهم في هذا السبيل . وكانت هذه النصوص على عالاتها نوراً يستضاء به ومرجعاً يستأنس به ، وعلماء الآثار أصدق الناس في هذه الروايات وإن كان لا ينكرون وقوعها فهم لا يجزمون بصحتها إلا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدتها . ولا يجاح علماء الآثار ميزة جدرة بالاعتبار فهي في أكثر الأحيان تكون ممزوجة عن الأغراض والغايات والاهواء . وقد يخطئ الاري في استنتاجه ولكنه لا يعتمد تشويه الحقائق لأن هذه الوحيدة أن يحيي الماضي البعيد ويجعل المعاصرين كأنهم يعيشون في ذلك العصر وذلك المحيط . ومن هنا لا يشعر بهيل هذا الشعور عندما يزور منحضاً أو ميدانياً أو أطلالاً قدمة . وكيف يمكنه أن ينكر الحقيقة ولسان حال هذه الأمم البائدة يقول :

إن آثارنا تدل علينا فاظروا بعذتنا إلى الآثار  
لتقي هذا العلم الحديث أقبلاً عظيمًا في بلاد الغرب فنبت حكومتها به وأرصدت للمشتغلين به أموالاً طائلة ، وأنشأت له المدارس والمجامع العلمية أسوة بحقيقة المعلوم وقد أبدت هذه الفئة ذمة الآرئين رغم قلة عددها نشاطاً عظيماً ووضعت في مدة قصيرة كثيراً من المؤلفات القيمة المفيدة وأحيطت كثيراً من اللغات القديمة المدرسة وحلت رموزها . وقد نال الشام قسطاً وافراً من هذه الابحاث فهي أول بقعة انجذبت نحوها الانظار وخاصة فلسطين لكانه الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الاطول وأهمها الشعب الإسرائيلي وعلاقة الأمم الغربية بكتابهم المقدس . فقد أوفدت أكثر حكومات الغرب ببعثات علمية للتنقيب عن آثار سورية وأول بعثة رسمية وطافت بلاد الشام هيبعثة الفرنكية التي رافقت الجملة الفرنسية في سنة ١٨٦٠ .

يقسم التاريخ القديم في سوريا كما في غيرها من البلدان إلى عهدين واضحين الأول عهد ما قبل التاريخ والثاني العهد التاريخي . فالعصر الأول هو عصر الظارن أو الطور الحجري ويقسم إلى قسمين أحدهما حقبة الحجر المتحجر « Paléolithique » والأخر حقبة الحجر المصقول « Néolithique » وهو أحدث من القسم الأول وتخالف مدة هذا العهد بحسب الامكنته . وايس هذا العهد تاريخ حياة البشرية بل هي مرحلة من تقدم الجماعات الفكرية والمادي وقد اختلف العلماء بتحديد أقدم تاريخ لهذا العهد فهم من يقول من « ٢٠٠٠٠٠ » إلى « ١٠٠ » سنة ومنهم من يقول من « ٦ إلى ٨٠٠٠ » سنة . تعتمد الفئة الأولى على تكوين طبقات الأرض والهوا، وتعتمد الثانية على نظريات دينية تأييداً لما جاء في التوراة عن تاريخ الخلقة فلا يمكننا أن نحمل نظريات علم طبقات الأرض وقد ثبت أن طبقة الأرض كانت منذ مئاتآلاف من السنين صالحة لحياة البشر كما أنه لا يمكننا إلا التسليم بما جاء في الكتب المزيلة « وهذا يبدأ دور علم الآثار على أن يوفق بين المفظريتين والعلم لا ينافي الدين » .

لقد ثبت حتى الآن أن الإنسان لم يكن منتشرأً في أكثر أنحاء الأرض كما هو اليوم لأنها لم تكون جميعها صالحة لسكنى الإنسان الأول فكان يكسو الجلد المرتفعات وتغمر المياه السهل ما حلا بعض السواحل والخضاب في القارات الجحش حيث أوى إليها الإنسان . منها سيريريا والفقفاس وجزيرة العرب وكانت تمتاز هذه الأراضي عن غيرها باعتمادها على أنها وخصب أرضاها ووفرة دواجنها وكانت سيريريا والفقفاس مأهولتين بجماعات الآريين وجزيرة العرب مجاعة الساميدين ودام هذا الحال حتى طرأ على الأرض بعض الطوارئ . الجوية فتقدم الجليد من شمال أوروبا

حتى جنوبها فاشتد البرد وكثرت الأمطار وارتفعت المياه فغمرا الطوفان معظم السهول فهلك خلق كثير من البشر ففرق من في من هذه الجماعات فراراً من الموت تلتمس أرضاً تقيناً من الخطأ فزح قسم من سكان سيريريا والفقفاس نحو الجنوب فوصل جماعات منهم إلى سوريا وكانت سهول سوريا يومئذ مغمورة بـ « الماء الأقليل » منها وبقيت سوريا زمناً طويلاً مأهولة بـ جماعات الآريين ثم حدث في أثناء إقامتهم بعض الزلازل وقلاص في الفشرة الأرضية . بخاتمة هذه النكمة نعمة على سوريا إذ اشترط الجبال وافتتحت الوديان فتسربت منها المياه للبحار وانحدرت الآثار لها بخاري ثابتة فيجفت الأرض وأصبحت سوريا قابلة للسكنى .

وقد وصلتنا أخبار هؤلاء القوم من آثارهم التي خلفوها لنا في الكهوف التي سكنوها وما أودعوه من مصنوعاتهم قبور موتهما . وثبت أن أشكال ذلك الإنسان الصياد لا تختلف عن إنسان اليوم وهذا يبطل ما علق في بعض الذهان من أن الإنسان القديم يفوقنا بكثير جسده مع أنه كان معتدل القامة يسكن الكهوف الطبيعية ويلبس الجلد وبقى من النبات والصيد فبقى زمناً طويلاً يجهل المعادن . واحتياجاته محدودة جداً لا تعمد إلى قطع الظرائر والصوان التي تشبه رؤوس الحراب والسكاكين والمناشير والفووس كان يستعملها للدفاع عن نفسه والصيد ثم تدرج في الرقي فتغلب على الحجر فصار يصلحه ثم استخدم العظام فنفعه في القارات الجحش حيث أوى إليها الإنسان . ثم اكتشف صنع الخزف وهو أول ابتكار صناعي عرفه الإنسان . وتشبه قبور هؤلاء القوم وصناعاتهم صناعات معاصرتهم أو أسلفهم في غيرها من البلدان في القارات الجحش وهذا ما يؤيد بحيرة الإنسان وتنقله في القارات الآرية التي فاجأت الأرض وغيرت أوضاعها هؤلاء الجماعات عقب الطواري . التي طار على الأرض بعض الطوارئ طاري طبيعية عقب التي الجغرافية . وقد حلت في جزيرة العرب طواري طبيعية عقب التي

أذكر منها رواية الطوفان وسيل العرم . فقد عثروا في خراب نيبور من بلاد آشور على وثيقة تارikhها من نحو « ٢٢٠٠ » سنة قبل الميلاد أي قبل هجرة إبراهيم عليه السلام بعشرين سنة وفيها وصف لطوفان اتصل بهم خبره وخلاصته : انه كان انكي « Enki » ، الله الماء وزوجته نينيلا « Ninella » يحكمان البشر والسعادة مائدة في العالم والانسان يؤمن من الموت والأمراض والآفات فنقم انكي « Enki » على عباده لخالقهم تعاليه وعزم على إبادتهم بطوفان فدعى أحد عباده الصالحين واسمه اوتو « Uttu » وأسره إليه بالأمر وطلب منه أن ينجو بنفسه على سفينة وهكذا كان الأمر فهلك جميع البشر الا صاحبه اوتو « Uttu » فتناضل منه البشر ثانية ولكنه حرم البشر السعادة التي كانوا ينعمون بها من قبل وقدر على الانسان أن يسمى ليعيش وعرضه للأمراض وأخطار الفناء . وهكذا خرج الانسان بذنبه من النعم الى الجحيم ، وما أشبه بهم ينتون جيماً إلى أرومة وأصل واحد .

هذه الرواية بطوفان سيدنا نوح . وقد اتصل بسكان جزيرة العرب حدث آخر وهو سيل العرم وليس هذا السيل إلا إحدى الكوارث الآفنة الذي لا أنه لا يُعقل أن يكون في بلاد سباً سداً يجمع هذا المقدار من الماء وخصوصاً مياه جزيرة العرب قليلة شجوبة . والراجح أن العوامل التي دحرت الانسان القديم من الشهاب الى الجنوب هي نفسها التي أرغمت جماعات جزيرة العرب على أن يهجروا بلادهم الى الشمال . وما سيل العرم إلا طوفان حصل لما اشتتدت حرارة الماء في العصور القديمة فأذابت الثلوج المتراكمة منذ ألف السنين في قم جبال جزيرة العرب وصرفاتها فهكذا كان سيل العرم في بلاد سباً ففرق سكانها في كل البلاد أيدي سباً .

وقد دامت هذه الحوادث التي استمرت بها في أسطر عشرات الألوف من السنين كان يتدرج الانسان خلالها نحو الرقي وساعدته على ذلك استقرار حالة الأرض الطبيعية في الآف العاشرة قبار على خطبة الاستكبار الروايات لاستنتاج الحقائق منها وهكذا وصل اليها غيرها من الأخبار .

حلت في سوريا زمن طويل قابلي أهلها الشدائدين من جدب الأرض وفترة الامطار فزاحت جماعات الساميين نحو الشهاب لأنهم المفدى الوحيد لهم إذ البحر تكتنفهم من جهاته الثلاث فلكلها سواحل خليج فارس حتى توغلوا في شمال سوريا ثم في جنوبها حتى وصلوا الى بلاد الحبشة . وقد تغلبت جماعات الساميين في برهة ألف سنة على جميع سكان تلك البلاد حتى أصبحت سامية اللغة كا عرفها التاريخ . ونشأ من مزيج هذين المنصرين عهد جديد يمتاز برقيه ومدنته . وتفرق هذا المزيج بطول الزمن الى شيع وشعوب عرفنا منهم منذ الآلاف الثالثة قبل الميلاد الاشوريين والبابليين في العراق والكنعانيين في فلسطين والآراميين في سوريا الداخلية والفينيقيين في سواحل لبنان والعرب في جزيرة العرب فأصبح لكل منهم حضارة ولغة « إننازون » ينتهزون السيادة رغم انتشار جيماً إلى أرومة وأصل واحد .

وما هجرة بني اسرائيل من صحراء النبيه إلى فلسطين وغزوارات العرب في صدر الاسلام للبلاد الداخلية والقاسية سوى مثال قريب العهد لتلك الموجات البشرية التي غشيت البلاد . ولم ينس هؤلاء الشعوب رغم تقادم العهد على استيعابهم هذه البلاد انهم دخلوا فيها كد المؤرخون الاقدمون أن الفينيقيين جاؤوا من جزيرة العرب وروى هرودوتus « Herodote » المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد أنهم انحدروا اليها من سواحل البحر الاحمر ويقول استرابون « Strabon » إن أصلهم من خليج فارس كما كانوا يدعون . وكذلك يتذكر الكنعانيون نزوحهم من مدينة اور من بلاد آشور في سبي الآلفين قبل الميلاد . وان تكون هذه الشاهد حدثة العهد بالنسبة للحوادث التي سردناها غير أنها تشير بوضوح إلى الحال أخبار السلف بالخلاف والشعوب السامية أكثر الشعوب تمسكاً بأنسابها وحفظ أخبارها ، وقد يرهن العلم الحديث على فائدة هذه الروايات لاستنتاج الحقائق منها وهكذا وصل اليها غيرها من الأخبار .

ينتهي في كل أمة من يوم وقوف أهلها على الكتابة لتسجيل أخبارهم وذريتهم  
وقائع عصرهم . وقد دفعت سوريا نهاداً باهظاً لحصولها على حضارة مجاورتها  
وعدا الثنن هو حرمانها استقلال جماعاتها . فمنذ ذلك التاريخ السورية  
تنقلت من يد مسيطر إلى آخر حتى يومنا هذا . وكان موقع سوريا  
الجغرافي وخصب أرضاها وكثرة غاباتها هو سبب بلا شك في حلقة الاتصال  
بين الغرب والشرق ومنفذ لكليهما . فهنها كانت تستورد مصر والعراق  
ما يعوزها من الخشب لبناء دورهم وصنع عمارتهم البحرية .

٥٧٠  
والعمل اتباعاً لسنة تنافع البقاء، فتوفرت لديه المعدات وجعل لنفسه مسكنًا ولنسج ملابسه واستخدم الحيوان واستثمر الأرض فأصبح صانعاً وفناناً ولولا حماً بعد أن كان ألوقاً من السنين متذرداً حبياداً فانتقل في آخر العهد المجري من البداؤة إلى الحضارة فصار قسم منهم يعتمد الأرض وقسم يعتني بترية المواشي وهكذا تكون صنفان من البشر يدو ومحضر ، رعاة ينتقلون بهواشيم من قمة إلى بقعة ارتياداً الماء واتجاعاً لا-كلاً وفالحون قبور عزاء عبدهم يعملون في الأرض ويستغلونها .

وقد أبقيت لنا جمادات عصور قبل التاريخ كثيرةً من آثاره في سوريا وجدت في الكهوف التي كانوا يأوون إليها أو في قبور موتاهم يمكن منها تتبع رقى الإنسان وتدرجه في الحضارة ليست هذه الآثار تمايل ونقوشاً أو أوانى نفيسة . بل هي شظايا من الظaran والصوان المتحوت والمصقول أو عظام حيوانات زينتها أيدي الصانع أو خزف بسيط وقبور تلك الشعوب البائدة وهذه الآثار كانت صنعتها تتحسن كلما اقترب الإنسان من العهد التاريخي . ورغم فلة المشتغلين من العلماء بعصر قبل التاريخ في سوريا فقد اهتدوا إلى أماكن عديدة وجد فيها من آثار ذاك الإنسان في عدلون . ونهر إبراهيم . والنطلياس . ونهر بيروت . وطرابلس . ونبع نهر الكلب والمعاملتين . وبنية . والبقعة . وتهناك . ومجدو . والكرمل . وأذرعات . وجرش وعمان . والكرك . ووادي موسى . والقدس . وفي الفلاة الممتدة من جيرود حتى دير الزور وفي كثير من الأماكن في سوريا الشهابية .

وطال أمد العهد الحجري في سوريا أكثر منه في مصر وال العراق ولهذين القطرين فضل كبير في تحضير جماعات سوريا والمالم أجمع . فقد شيدا بين سنة « ٤٠٠٠ » و « ٣٠٠٠ » قبل الميلاد عمراً عظيم الشأن بينما كانت سوريا وبقية العالم تتخبط في ظلمات الجهل والامية وقد ارتفت سوريا إلى مصافها في الآف الثالثة قبل الميلاد لما تقوى عليها العراق وحمل إليها معارفه ومكتشفاته وأهمها المعادن والكتابة . والعصر التاريخي

الفينيقيون بحب البحر ومهروا به إلى الملاحة حتى سيطروا على البحار والأسواق التجارية في جميع سواحل البحر المتوسط فحملوا سلعهم ونماجم التجارة الشرقية إلى أقصى بلاد إفريقيا الشماليّة وإسبانيا وجنوبي فرنسا وجزر حضليّة قبرص وكريت وقد استوطّن هذه البلاد جماعات من الفينيقيين وأسّوا فيها حُكُومات كان لها شأن عظيم في التاريخ.

ولم يبق لنا الزمن إلا النذر البسيط من آثار شعوب سامية في العصور القديمة لأنّ أسلافنا كانوا يبنون بيتهم وهياكلهم من الطوب الحجف بالشمس كما هو الحال حتى اليوم في بعض المدن والقرى السورية ولا يتحقق أنّ هذا النوع من البناء لا يعمر طويلاً فتنهار البيوت برمتها في مدة أصحابها إلى بناء غيرها على أنقاضها وجري الناس على هذا الأسلوب من البناء فرونّا متواالية تكونت منها تلال اصطناعية وهذه التلال تُعد بالثبات في سورية : كتل أرباحاً في فلسطين وتل الصالحة في الغوطة وتل الدرخية في وادي العجم وتل النبي مندو وتل المشرفة بمحوار حمص وتل جرابلس على الفرات وقد حفظت لنا الأيام في بطن هذه التلال والقبور كثيراً من الآثار التاريخية الملموسة ، وقد عبر المنقبون على كثير من تواريخ الأسر والرسائل والصكوك والحسابات والمذكرات وغيرها من الرقّم ووجدوا أيضًا كثيراً من الآثار والأواني الجيّدة المازخرة والرسوم المحفورة . وأما البناءات الأثرية القديمة مثل بعلبك وجرش وتدمر وغيرها فهي من المعبد الروماني فقط ولكنها شيدت على أنقاض هيكل ومدن أقدم منها عهداً .

ولقد تبيّن من الحفريات التي أجريت في سورية ومن الآثار التي اكتشفت فيها - إنّ آثارها تختلف عما وجد في البلاد المجاورة لها ولا يرجى أن تفتر في هذه البلاد على آثار غير بحسبانها إعجاب العامة قبل الخامسة كأنّ شأن آثار مصر وأنشور والفرس . والسداجة في الصناعات تغلب على السوريين منذ القديم وهذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم

فالسوري في جميع أدواره التاريخية يميل إلى الساذج وهذا يظهر في صناعاته وفلسفته الدينية وتجلى في هذه البساطة مواهب السوري الفنية فقد جمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع وأبدع . وقبل الآثار المقاولة الفنية التي اكتشفت في سورية بالنسبة إلى ما وجد في غيرها من البلدان المجاورة . وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع السوري وذوقه السليم وهو ذو مكانة بين أقرانه من فناني بقية الشعوب . وليس معنى قلة الماءيات عدم انتشارها في البلاد بل لأنّها لم تصل إليها لأسباب وعوامل شتى . أولاً : لأنّ أكثر تربة سورية رطبة لا تحفظ ما يودع فيها . وثانياً : لأنّ السوريين قلماً يودعون مدافن موتاهم نفائسهم كما هو شأن المصريين وغيرهم من الأمم القديمة بل يكتفون بالأشياء البسيطة كقوارير الشبه أو الخزف وهي من أدوات الزينة من الفضة أو النحاس أو الذهب أو قطع سلاح وإذا أضفنا إلى خلو القبور من الاعلاقات ما قد كتبه الشاعر نزار ملك صيدا على تابوته مخاطباً به نبائي القبور ناصحاً لهم إن لا يهتكوا حرمته مؤكداً أن لا ذهب في قبره ولا فضة - تدركون سرّ تدركها بين أيدينا فإذا كان هذا حال ملوكهم فما بالكم بالرعاية . وخلو القبور منها هو حجة لسورية لا عليها ودليل على سوء عقيدة سكانها ونفع فكرتهم منذ القديم . لأنّ السوري كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بأن الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جدرة بالأكرام الذي ييانع به غيرهم من الشعوب ومع هذا فقد انتشرت في سورية عادة وضع بعض الأشياء في القبور وذلك بمئورات خارجية واقتباس عادات أقنانه لات منها عهداً .

سورية كانت في أكثر أدوار تاريخها خاضعة لسلطان أجنبي كما ذكرنا آقاً . ولقد تبيّن من الحفريات التي أجريت في سورية ومن الآثار التي اكتشفت فيها - إنّ آثارها تختلف عما وجد في البلاد المجاورة لها ولا يرجى أن تفتر في هذه البلاد على آثار غير بحسبانها إعجاب العامة قبل الخامسة كأنّ شأن آثار مصر وأنشور والفرس . والسداجة في الصناعات تغلب على السوريين منذ القديم وهذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم

الكبيرة بـ ظالمـا الاجتمـاعيـ الحاضـرـ . وقد أدرـكـتـ جـمـيـةـ الـأـمـمـ هـذـاـ الـأـمـرـ وـاحـاطـتـ لـهـ خـوـاـ منـ المـزـاحـةـ أوـ اـسـتـثـارـ دـولـةـ بـهـذـهـ الآـثارـ دونـ سـواـهـ . ولـذـاكـ اـشـرـطـتـ فـيـ المـادـةـ الـرـابـعـةـ عـشـرـةـ مـنـ صـكـ الـاقـتـدـابـ أـنـ يـكـونـ النـظـامـ الـذـيـ سـيـوـضـ لـحـيـةـ الـمـادـيـاتـ مـسـتـمـداـ روـحـهـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـىـ التـنـشـيـطـ أـكـثـرـ مـنـ هـذـهـ الـتـنـشـيـطـ كـاـنـهـ اـشـرـطـتـ عـلـىـ الـحـكـوـمـةـ الـمـقـدـبـةـ عـنـدـ مـنـحـاـ إـجـازـاتـ بـالـخـفـرـ أـنـ لـاـ تـصـرـفـ بـشـكـلـ يـرـجـيـ إـلـىـ حـرـمـانـ عـلـمـاءـ أـيـ شـعـبـ كـانـ مـنـ ذـلـكـ الـإـجـازـاتـ دـوـنـ أـسـبـابـ مـوجـبـةـ .

\*\*\*

## آثار سوريّة

إنـ مـعـظـمـ الـبـنـيـاتـ الـأـرـبـيـةـ الـتـيـ تـعـرـفـهـاـ آـنـيـوـمـ وـيـوـمـ زـائـرـوـنـ مـنـ جـمـيـعـ أـنـحـاءـ الـعـالـمـ مـثـلـ بـلـبـيـكـ وـتـدـمـرـ وـجـرـشـ وـبـصـرـيـ الشـامـ وـمـادـبـاـ هـيـ حـدـيـثـةـ الـمـهـدـ بـالـنـسـبـةـ لـقـدـ حـضـارـةـ سـوـرـيـةـ وـيـغـلـبـ عـلـيـهـ تـأـثـيرـ الـفـنـ الـيـونـانـيـ وـالـرـوـمـانـيـ وـالـبـرـيـنـطـيـ وـقـدـ ثـبـتـ هـذـهـ الـبـنـيـاتـ عـلـىـ طـوـارـيـ الـأـيـامـ لـاـنـ بـنـائـهـاـ مـنـ الـحـجـرـ الصـابـ الـمـنـحـوتـ بـخـلـافـ الـبـنـيـاتـ الـتـيـ قـبـلـهـاـ فـقـدـ درـسـتـ لـاـنـهـاـ كـانـتـ مـنـ الـطـوـبـ الـجـفـفـ وـهـذـهـ الـبـنـيـاتـ هـيـ مـعـابـدـ وـهـيـ كـلـ وـمـدـنـ لـهـاـ شـهـرـةـ عـالـيـةـ لـاـنـهـاـ بـالـحـقـيـقـةـ اـحـدـيـ مـعـجـزـاتـ الـفـنـ الـمـعـارـيـ وـهـيـ فـيـ غـنـىـ عـنـ كـلـ وـصـفـ وـقـدـ بـرـعـ السـوـرـيـوـنـ بـالـبـنـاءـ وـكـانـتـ رـوـمـاـ تـسـتـدـعـيـهـمـ لـتـشـيـيدـ بـنـائـهـاـ انـعـامـةـ . وـفـيـ سـوـرـيـةـ بـقـاـيـاـ بـنـيـاتـ أـرـبـيـةـ لـهـاـ أـهـمـيـةـ تـارـيـخـيـةـ عـظـيـمـةـ مـنـهـاـ مـنـبعـ مـنـ أـقـيـمـةـ حـلـبـ وـقـدـ أـطـلـقـ عـلـيـهـاـ الـيـونـانـ اـسـمـ «ـ Hierapolisـ »ـ نـسـبـةـ لـأـرـاءـ «ـ Aeraـ »ـ الـمـبـودـ الـأـشـورـيـ وـجـاهـ اـسـهـاـ »ـ Mappiguـ »ـ فـيـ الـوـثـائقـ الـأـشـورـيـةـ وـفـيـ هـذـهـ الـبـلـدـةـ أـقـدـمـ مـعـبدـ سـوـرـيـ وـكـانـتـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ مـقـدـسـةـ يـقـصـدـهـاـ الـحجـاجـ مـنـ جـمـيـعـ الـنـحـاءـ سـوـرـيـةـ وـقـدـ كـتـبـ لـوـسـيـانـوـسـ الـمـؤـرـخـ الـأـشـورـيـ الـأـصـلـ كـتـابـاـ فـيـ هـذـهـ الـمـعـبدـ وـطـقـوـسـهـ الـدـيـنـيـةـ وـشـعـائـرـهـ وـحـكـاـيـةـ بـنـائـهـ وـأـسـبـابـهـ وـلـسـبـ بـنـائـهـ إـلـىـ «ـ Stratoniceـ »ـ زـوـجـ مـلـكـ أـشـورـ . كـاـنـهـ عـقـدـ فـيـ

كتـابـهـ فـصـلـاـ فـيـ قـدـمـ مـدـيـنـةـ جـبـيلـ الـوـاقـعـةـ عـلـىـ طـرـيقـ بـيـرـوتـ - طـرـالـبـسـ وـوـسـفـ عـبـادـةـ أـهـلـهـ لـاـ دـوـنـيـسـ الـلـهـ الـاـنـتـاجـ وـقـدـ أـيـدـتـ الـحـفـريـاتـ الـأـخـيـرـةـ قـدـمـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ فـقـدـ عـثـرـوـاـ فـيـهـاـ عـلـىـ مـعـبـدـ قـدـمـ وـجـدـوـاـ نـحـتـ بـلـاطـهـ عـدـدـاـ مـنـ الـأـوـانـيـ وـالـأـدـوـاتـ زـبـرـ عـلـىـ بـعـضـهـاـ اـسـمـ الـفـرـعـوـنـ «ـ Mycerenusـ »ـ مـنـ السـلـالـةـ الـرـابـعـةـ وـبـاـنـيـ اـحـدـ اـهـرـامـ مـصـرـ الـكـبـيـرـ بـيـنـ سـنـةـ ٢٩٠٠ـ وـ٢٧٥٠ـ بـقـبـلـ الـمـيـلـادـ وـاسـمـ الـفـرـعـوـنـ «ـ Ounasـ »ـ مـنـ السـلـالـةـ الـخـامـسـةـ وـاسـمـ «ـ Pepi~ IIـ »ـ اـثـانـيـ مـنـ السـلـالـةـ السـادـسـةـ وـوـجـدـوـاـ أـيـضاـ غـيرـهـاـ مـنـ الـأـدـوـاتـ الـمـصـرـيـةـ أـحـدـثـ عـهـدـاـ مـنـ الـأـوـلـىـ وـهـذـاـ يـؤـيدـ عـلـاقـةـ مـصـرـ بـالـفـينـيـقـيـنـ قـدـيـماـ وـكـانـ الـمـصـرـيـوـنـ يـطـلـقـوـنـ اـسـمـ «ـ Kebenـ »ـ عـلـىـ مـدـيـنـةـ جـبـيلـ حـتـىـ فـيـ عـهـدـ الـسـلـالـةـ الـثـانـيـةـ عـشـرـةـ وـذـكـرـتـ بـهـذـاـ اـسـمـ فـيـ الرـقـمـ الـمـصـرـيـ مـنـذـ سـنـةـ ٣٠٠٠ـ بـقـبـلـ الـمـيـلـادـ وـكـانـ الـمـصـرـيـوـنـ يـسـتـورـدـوـنـ مـنـ جـبـيلـ الـلـبـانـيـ اـهـنـعـ سـفـنـهـمـ وـرـبـماـ كـانـوـاـ يـصـنـعـوـنـهـاـ فـيـ نـفـسـ مـدـيـنـةـ جـبـيلـ وـقـدـ أـطـلـقـ الـمـصـرـيـوـنـ اـسـمـ «ـ Kebenitـ »ـ عـلـىـ اـسـطـوـلـهـمـ الـضـخـمـ نـسـبـةـ إـلـىـ «ـ Kebenـ »ـ وـهـيـ جـبـيلـ كـاـذـكـرـنـاـ . وـقـدـ عـثـرـوـاـ أـيـضاـ عـلـىـ بـعـضـ مـدـافـنـ مـلـوكـ جـبـيلـ وـأـمـانـهـاـ مـنـهـمـ أـحـرـامـ الـمـتـوـفـ فـيـ الـقـرـنـ الـثـالـثـ عـشـرـ قـبـلـ الـمـيـلـادـ وـقـدـ نـقـشـتـ عـلـىـ جـوـانـيـهـ صـورـةـ الـمـلـكـ يـتـناـولـ الـقـرـايـنـ مـنـ أـبـاعـهـ وـبـعـضـ الشـعـائـرـ الـدـيـنـيـةـ وـهـوـ قـائـمـ عـلـىـ أـرـبـعـةـ اـسـوـدـ وـمـاـ يـزـيدـ فـيـ شـأنـ هـذـهـ الـأـثـرـ الـكـتـابـةـ الـفـينـيـقـيـةـ الـتـيـ زـرـتـ عـلـيـهـ وـهـيـ أـقـدـمـ كـتـابـةـ أـبـجـديـةـ عـرـفـتـ حـتـىـ الـيـوـمـ وـهـذـهـ تـرـجـتـهـاـ «ـ عـمـنـ هـذـاـ الـأـيـرانـ »ـ أـيـ التـابـوتـ »ـ إـفـسـبـعـلـ بـنـ أـحـرـامـ مـلـكـ جـبـيلـ لـاـبـيـهـ كـيـ يـكـوـنـ مـقـرـهـ الـأـبـدـيـ فـاـذـاـ نـاصـبـ مـلـكـ مـنـ الـمـلـوكـ أـوـ حـاـكـمـ الـكـامـ الـعـدـاءـ جـبـيلـ وـأـخـرـجـ هـذـاـ التـابـوتـ مـنـ نـحـتـ الـبـلـاطـ فـيـكـونـ خـاتـورـ خـصـمـهـ فـيـدـكـ عـرـشـ مـلـكـهـ وـبـعـمـ الـخـرابـ جـبـيلاـ فـيـإـذـاـ عـاـ هـذـهـ الـكـتـابـةـ...ـ وـأـثـارـ جـبـيلـ هـيـ أـمـ مـاـ عـثـرـ عـلـيـهـ حـتـىـ الـيـوـمـ فـيـ سـوـرـيـةـ مـنـ الـوـجـهـيـنـ الـفـيـنـيـةـ وـلـسـبـ بـنـائـهـ إـلـىـ «ـ Stratoniceـ »ـ زـوـجـ مـلـكـ أـشـورـ . كـاـنـهـ عـقـدـ فـيـ

ومن أنجى ما ذكره ليانوس المؤرخ عن عبادة أهل جبيل لأدونيس أنهم كانوا يزعمون أن أدونيس هذا خرج للصيد في جبال لبنان فوتب عليه حذرو وافتراه عند قيع نهر إبراهيم حيث نرى إلى الآن تقوسًا ورسومًا تشير إلى هذا الحادث وقد أطلقوا على هذا النهر اسم أدونيس تخليلًا لذكر معبودهم . ولكن موت أدونيس لم يكن أبدًا بل كان يموت في قصل انحراف من كل سنة ويبعث في ربيعها وكانوا يقيمون في ربيع كل سنة مائة عليه تليس ناصوف ثياب الخداد وينجلن في شوارع جبيل باكيات يضربن صدورهن ويشققن جيوبهن حزنًا عليه ولكن في اليوم الثاني ينقلب الترح فرحاً إذ يبعث أدونيس ويرتفع إلى السماء فتقام في المدينة معالم الزيينة والسرور فيتحقق النساء شعور رؤوسهن ومن لا تقدم على هذه التضحية تكفر عن سيشتها بآياها جمالها لكل طالب طول هذا اليوم وبخصوص ربع هذا العمل الثاني لاعمال البر والتقوى ولم يكن هذا العمل الفظيع يستنكرون عندم بل اللواتي يقدمون عليه يتلعن حظوة كبيرة لدى مواطنיהם . وكان الفينيقيون يعدون أعمال العهارة والفحotor كيماً لذى مواطنهم . وقد عثر المنقبون على عدد من الكهوف التي كانت تجري بها مثل هذه المخازي في بلاد فينيقية . ومن الاعمال التي كانت تنشر لها الجلود عادة تقديم الضحايا البشرية فكان كل منهم يقدم ابنه البكر ضحية لاربائهم ليحصل على بركتهم أو دفعة لخطير دام وهذه العادة الفظيعة قديمة جداً في سورية وقد دامت حتى العهد الروماني . وبنو اسرائيل هم أول من استفطع هذا الامر وحرموه واستعاضوا عنه بالختان وهو فداء الكل بالجزء .

وفي دمشق أثر لا يقل مكانة عن غيره وهو الميكل باللامس أو جامع بي أمية اليوم . ونرى كثيراً من الكنائس والجوامع شيدت على انقاضها كل ومعابد قديمة . ونبأ أقدم معلوماتنا عن هذا الميكل من القرن

العاشر قبل الميلاد إلى العهد الذي تلاشت فيه الوثنية من هذه البلاد وكان يعبد فيه الإله « Hadad » أو « Ramman » ورفاقته « Atargatis » وحداد هذا عند الآراميين ينزلة « Jupiter » و « Zeus » عند اليونان والرومان وقد ورد ذكر هذا المعبد مرتين في التوراة في حدبه عن شفاعة نمان وكانت شهرة هيكل دمشق عاصمة مملكة ارام عظيمة جداً حتى ان اخاز « Achaz » ملك بنى اسرائيل لما جاء إلى دمشق السلام على « Tiglathphalazar » ملك اشور دهش من معبدوها وأخذ مقياس مذبحها لكي يبني مثله في بيت المقدس وهيكل دمشق هو في سورية الوحيدة الاحتفظ بهندسته القديمة رغم الطواري الذي نزلت به والايدي التي تماقت عليه وتقسم جميع المبادرات السامية السورية إلى قسمين : الحرم وهو مخصص بالكونية ولا يقصد إلا في أيام الزيارات والقسم الخارجي وهو مباح للعوام . وزرى هذين القسمين واضعين حتى اليوم في هيكل دمشق والحرم هو المسجد الآن والقسم الخارجي هو السور الذي يحيط به وزرى أحد أبوابه عند مدخل باب البريد واقدم آثار الميكل جدران المسجد الخارجية الغربية والشمالية وهي على طراز بناء الجدران المصرية القديمة وقد تحول هذا الميكل إلى كنيسة في عهد « Théodore » في سنة ٣٩٥ - ٣٧٩ » للميلاد وبقي كذلك حتى الفتح الإسلامي .

وقد كشفت الحفريات آثار قيمة في تل النبي مندو وهي قدبيش القديمة أحد حصون الحثيين وثبتت لهذا الحصن طويلاً أمام عجائب المصريين حتى استولى عليه الفرعون سيتي الاول في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ودك حصونه وقد خلد انتصاره بنصب محفوظ في متحفنا نقش عليه رسم واستعاضوا عنه بالختان وهو فداء الكل بالجزء .

الفرعون يتناول القرابين من أربابه وأرباب الحثيين المذلوين . وقد عثر الكونت « De Mesnil » منذ سنوات على مدينة قطنا القديمة في تل المشرفة شرق حمص وهذه المدينة كانت زاهرة في القديم فغير فيها على معايير قديمة . ونبأ أقدم معلوماتنا عن هذا الميكل من القرن

قبور ملوكها ووُجِدَ فيها آثار لها شأنٌ تارِيخي عظيم يرجع معظمها إلى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد . وفي شمال سورية كثير من المدن التي سكنتها الحثيون زمناً طويلاً وسيكون لأنّار هذا الشعب المجهول مكانة عظيمة متى حلّ رموز رقّه وفهمت لغته .

لا يمكننا في ساعة واحدة إلا التلميح إلى آثار سورية إذ كلّ أثر منها يستغرق ساعات . وقد سبقنا الغربيون وكتبوا المجلدات عنها فاليمم رجع الفضل بكشف هذا الماضي الجيد . وآثار سورية هي أحق بعنابة أبنائنا فنعود علينا بفوائد مادية وأدبية لا تقدر .

دمشق : شباط سنة ١٩٢٩ .

## لُرْتَمْ شُوقي

لأستاذ عز الدين التسويقي

بلغ في القرن الماضي انحطاط البيان العربي ، شعره وثره ، أسفل دركته في جميع الأقطار العربية ، ولو لا من مداركه من أمراة الشعر وزعماه، النثر الذين تعهدوا روضه بالحرث والتشذيب والتلمذيب لما اكتنست لغتنا حلتها العصرية الزاهية ، وما عادت إلى مكانها السالفه ، فعدت من اللغات الجنة السامية ، وما ظهر في مصر والشام والعراق من الشعراء المنصوفين في فنون الشعر الحي ، والكتاب الأبيات من أعادوا من تقديمهم في الأخذ بناصر هذه اللغة العذبة المباركة فأعادوا إليها شبابها بما أحivoه من آدابها ، وإلا فإن سخونة عين الأدب ما كان عليه البيان متثوره ومنظومه قبل الشيخ محمد عبده وإبراهيم المولحي والبارودي وصبري وحافظ وشوفي : أيام سوقية مبتذلة ، وكف بالصناعة وشفف بالتصنع ، وألفاظ لا منخولة ولا معسولة ، ومعانٍ سقية مرددة مملولة ، والغالب مع ذلك على النثر انطباعه على سجع ليس تحته رجع ، ولنا أن نعتبر البارودي هو الملهل الثاني ، لأنّ الأول قد هلهل الشعر وقصده ، والثاني قد أفسده وجدده ، وعرض للناس أسلوبه الجزل المستقرط من أساليب البحري والمنفي وأبي عام والرضي وصريع الغواني وسائر من اختار لهم في مختاراته من حذاق القریض ورواض القوافي ، وقد حدا صبري حذوه في تنقيح الشعر وتنويقه ، إلا أنه قد فاته بقصبه وترقيقه ، وقد باراها حافظ وأخذ إلذتها في شد أمر الشعر وتجويد حبّه ، وأما راحلنا الكرم فقد كان

بادي الرأي يخشب الشعر في شبيهه ، بينما كان حافظ يبالغ في تقبیحه وتحکیمه ، فكان المولعون يومئذ بصناعة الشعر يفضلون في ذلك حافظاً على قرينه شوقي ، وأما المولعون بقوة الشاعرية وسزو المعنى ، وسعة الخيال وخلود الحكمة والأمثال ويبعد الشعر عن التعسف وقربه من الطبع والطلاوة فكانوا في ذلك كله يفضلون شوقي على خديمه ، وكان لسان حالهم يقول : إذا صر أن شوقياً يخشب الشعر وحافظاً ينفعه ، فإن خشب شوقي خير من تقبیح حافظ ، كما قبل مثل ذلك في جرير والفرزدق ؟ والحقيقة أن شوقي ما كان يخشب الشعر في شبيهه إلا لسرعة خاطره ، وفيه قرينته التي كانت تحمله على قول الشعر على البديهة لا يكدر فيه طبماً ولا يسر عليه جفناً ، مع أنها رأيناها بعد كهولته يعني بتقبیح لغة شعره حتى أوشك أن يمجاري في ذلك آخاه حافظاً ، ذلك الذي كاد لفريط تقبیحه وتحکیمه للشعر يشبه الخطيئة الذي يقول : « خير الشعر الحولي المنقح المحكك » ، وبذلك حق لشوي أن يقلد إمارة الشعر بعيناه ومعناه معاً ، وقد كان العرب كما ذهب إليه صاحب الوساطة « إنما فاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، وإن كثرت سوانح أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة . ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القرىض . » وشوق في الكثير من ذلك وبوفرة إنتاجه ، وازدياد شعره شيئاًًا وفتوة بازدياده شيخوخة وضعف قوته يتغوق على سائر المعاصرن .

تخرج شوقي في اللغة على الأستاذ النافذ المرصفي صاحب الوسيلة ، وكان أحب الشعراء إليه - كما أجاب به سائلًا - هو المتنبي قال ما نصه : « أنا أعده أستاذي الأول ثم يلي المتنبي ابن الرومي ، وأحب شعرآ ، الغرب إلى » نكتور هوغو ودي موسه الذي لا أهل القراءة فيه » ؟ ومن

ذلك نستنتج أن لغة أمير الشعراء قد تأثرت كل التأثر بلغة أبي الطيب المتنبي ، الذي كان يذكره في شعره قائلاً :  
ولو مشت في الليالي تحت كوكبه غادرت أجد نسيّاً وابن حданا  
وتأثرت بعده بلغة ابن الرومي ، ثم بلغة من عارضهم من خولة الشعر  
وصاغة القرىض كالبحترى الذي عارضه في سينيته ، والحضرى في دالبته  
والأبوصيري في البردة والهزمة وابن زيدون في أندلسنه النونية ، وأمثالهم  
من يعر كلامهم العذب على الآذان يعر الصبا على عذبات الاعصان ، وإنما  
تأثرت لغة شوقي بعمارضة قلادتهم المشهورة لأن المعارضه تدعوه إلى المضارعة ،  
فإن كان المعارض جيد الحبك نقى المستشف اقتبس المعارض ذلك منه  
طبعاً وارتاض على طريقته ، وإن كان المعارض رديء السبك ، ضعيف  
التأليف متبايناً عن مضاجع الرقة ومتبايناً عن مذاهب السلاسة أثرت  
لغته بعقار زمن المضارعة والتقليد ، ذلك أن العبارة السقية أعلق بالنفس  
كما ذهب إليه الجاحظ من العبارة القويمة ، وأسهل مراسماً وأهون اقتباساً ،  
والحقيقة أن المتأمل في شعر شوقي وأسلوبه وتعبيره وتركيبه ، يوقن أنه  
خلاصة أساليب خولة القرىض ، هذا في الشعر ، وأما النثر فقد كان  
يعجبه أسلوب ابن خلدون كما يظهر ذلك من شعره ، وتروقه لغة المبرد  
في كامله ، قال في تحليله لكتاب فتح مصر الحديث لحافظ عوض :

لغة الكامل في استرساله وابن خلدون إذا ساح وصايا

ولغة المبرد امتازت بعنانها وابن خلدون بطلاؤها ، فشوقي على ذلك  
تعجبه لغة المجددين من أمراء الصناعتين وإن كان لا يحسن استرسالهم إلى  
تكلف في سجع ردد الطبع « كثيراً منه » ، ولا يعجب بلغة الكتاب المرسلين .  
إن الشعر على مذهب شوقي لا يسعى شعرآ مالم يكن عاطفة وحكمة  
وذكرى ، فإذا ما نحن حملنا شعر ديوانه ، وألمتنا النظر في أسلوب  
تفكيره وبيانه ، حكنا بأن ذكره وعطفته الذاتية في شعره الوجدي  
قد قوينا فيه بتأثيره بشعر أبي تمام والراضي وابن الرومي والبحترى وبشار

وميار وأضرابهم ، وأن حكمه التي أكثر منها في شعره ، وكثيراً من أساليب ياه قد احتذى فيها طريقة أستاذة الأول أبي الطيب ، كما قال في حكمة الشمر :

والشعر مالم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان ومن الأمثال الدالة على تأثير المتنبي في أسلوب شوق قوله مثلاً : ولا تبال بـ شعر بـ مـ دـ شـاعـرـهـ قد أفسد القول حتى أحمد الصمـ وـ شـوـقـ يـقـولـ مـخـنـذـيـاـ أـسـتـاذـهـ

ولا تبال بـ بـ كـ نـزـ بـ مـ دـ مـ بـ سـهـ أـغـلـىـ الـ يـوـاقـيـتـ مـاـ أـعـطـيـتـ وـالـدـرـرـ

وـ المـنـتـبـيـ يـقـولـ فـ إـنـ العـمـيدـ

عـربـيـ لـسانـهـ فـ لـسـنـيـ رـأـيـهـ فـارـسـيـةـ أـعـيـادـهـ

وـ تـلـيمـيـهـ شـوـقـ يـقـولـ فـ الـخـدـيـوـيـ سـعـيـدـ

عـربـيـ زـمانـهـ عـمـرـيـ عـدـهـ فـيهـ رـحـمـةـ وـوـفـاهـ

وـ انـفـلـرـ إـلـىـ قـوـلـ شـوـقـ فـ حـورـ دـمـ وـالـحـامـةـ

وـ الـحـورـ فـيـ دـمـ أـوـ حـوـلـ هـامـتـهاـ حـورـ كـواـشـفـ عـنـ سـاقـ وـوـلـدـانـ تـجـدـ أـنـهـ فـيـ تـبـيـهـ الـحـورـ بـالـحـورـ وـقـدـ كـشـفـنـ عـنـ سـاقـ يـنـغـلـارـ إـلـىـ قـوـلـ مـيـارـ فـيـ الـأـشـجـارـ

وعـزـتـ فـصـاتـ سـوـيـ سـاقـهاـ وـماـ إـنـ أـبـاحـتـهـ إـلـاـ اـضـطـرـارـاـ

تـشـمـرـ عـنـهـ جـلـاـيـهـاـ لـمـادـهـ أـنـ يـخـوضـ الـغـمـارـاـ

ثـمـ انـظـرـ إـلـىـ تـأـثـرـهـ بـشـرـ المـعـرـيـ مـثـلاـ

لـعـلـكـ المـذـكـرـاتـ عـبـيدـ خـضـعـ وـالـمـؤـنـاتـ إـمـاءـ

وـأـبـيـ الـعـلـاءـ يـقـولـ مـنـ قـبـلـهـ

لـلـعـلـيـكـ المـذـكـرـاتـ عـبـيدـ وـكـذاـكـ المـذـكـرـاتـ إـمـاءـ

وـكـذـلـكـ يـقـولـ شـوـقـ

وـمـهـدـ الـمـرـءـ فـ أـيـديـ الرـوـافـيـ كـنـعـشـ الـمـرـءـ بـيـنـ النـانـحـاتـ

### عز الدين التنوخي

٥٨٣

مثـلـاـ قـالـ المـعـرـيـ مـنـ قـبـلـهـ :  
وـشـبـيهـ صـوتـ النـعـيـ إـذـاـ قـيـسـ بـصـوتـ الـبـشـيرـ فـيـ كـلـ نـادـ  
وـأـلـفـتـ نـفـلـكـ بـعـدـ ذـلـكـ كـاـمـ إـلـىـ قـوـلـ شـوـقـ وـهـوـ يـصـفـ الـأـطـلـالـ  
الـمـنـدـرـةـ وـالـرـسـوـمـ الـمـبـعـرـةـ :  
فـلاـ تـسـبـيـنـ سـوـيـ قـرـيـةـ أـجـدـ عـاـسـنـاـ مـاـ انـذـرـ  
فـتـحـبـهـ بـنـظـرـ إـلـىـ قـوـلـ أـبـيـ نـوـاـسـ فـيـ وـصـفـ الـرـسـوـمـ :  
لـمـ دـمـ تـزـدادـ حـسـنـ رـسـوـمـ عـلـىـ طـولـ مـاـ أـقـوـتـ وـطـبـ نـسـمـ  
وـلـاـ نـكـرـانـ أـنـ تـأـثـرـ الشـاعـرـ بـعـنـ تـقـدـمـهـ مـنـ خـوـلـةـ الشـعـرـ أـمـرـ طـبـيـعـيـ ،  
وـقـلـمـاـ نـجـاـ مـنـهـ أـحـدـ مـنـ روـاـضـ الـفـوـاـقـيـ ، بـيـدـ أـنـ مـنـ التـأـثـرـ مـاـ يـبـعـثـ إـلـيـهـ  
الـتـقـلـيـدـ وـالـتـقـدـيـسـ مـاـ لـاـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ مـقـنـصـيـ حـالـ ، وـلـاـ يـوـلـهـ صـدـقـ عـاطـفـةـ ،  
وـهـوـ مـاـ يـجـبـ أـنـ يـتـخلـيـ مـنـ الشـعـرـ الـمـعـبـرـ عـنـ الشـعـورـ ، وـلـوـلـاـ مـثـلـ هـذـاـ  
الـتـقـلـيـدـ الـنـاشـيـ ، عـنـ تـقـدـيـسـ لـاـسـاـلـبـ الـجـاهـلـيـةـ لـجـبـ عـنـ نـفـسـ غـيـرـهـ مـنـ  
تـهـجـمـ عـلـيـهـ مـنـ الـجـدـدـيـنـ ، وـلـاـ ضـعـفـ مـنـ حـجـجـهـ عـلـيـهـ وـإـنـ كـانـ فـيـهـ كـثـيرـ  
مـنـ رـوـحـ الـتـحـاـلـلـ ، فـهـاـ اـنـقـدـ عـلـيـهـ قـوـلـهـ :  
رـيمـ عـلـىـ الـقـاعـ بـيـنـ الـبـانـ وـالـعـلـمـ أـحـلـ سـفـكـ دـمـيـ فـيـ الـأـشـهـرـ الـحـرـمـ  
قـالـواـ : لـقـدـ كـانـ بـاـمـكـانـهـ أـنـ يـشـبـبـ بـرـيمـ مـصـرـيـ يـرـنـعـ بـيـنـ الـجـيـزةـ وـحـلـوانـ  
أـوـ النـيـلـ وـالـأـهـرـامـ فـيـقـولـ مـثـلاـ :  
رـيمـ عـلـىـ الـمـرـجـ بـيـنـ النـيـلـ وـالـهـرـمـ أـحـلـ سـفـكـ دـمـيـ فـيـ الـأـشـهـرـ الـحـرـمـ  
وـلـكـنـهـ جـرـىـ تـقـلـيـدـاـ عـلـىـ أـسـلـوـبـ مـنـ سـبـقـهـ مـنـ شـعـرـاءـ الـجـاهـلـيـةـ الـذـينـ  
كـانـوـاـ يـتـغـزـلـوـنـ بـعـاـ يـمـرـفـونـ فـيـ جـزـيـرـةـ الـعـرـبـ وـمـاـ يـشـاهـدـوـهـ وـيـشـعـرـوـنـ بـهـ ،  
وـأـمـاـ مـنـ تـرـسـمـ آـثـارـهـ مـنـ النـابـيـنـ فـأـيـةـ عـلـاقـةـ لـهـمـ بـالـبـانـ وـالـعـلـمـ وـكـاظـمـةـ  
وـذـيـ سـلـمـ ، وـالـرـوـحـاءـ وـدـارـةـ الـعـلـمـ ، وـأـيـ ذـكـرـيـ تـهـجـمـ لـذـكـرـهـ وـوـصـفـهـ ،  
فـاـنـ قـلـنـاـ لـهـمـ إـنـ شـوـقـ مـاـ تـشـوـقـ إـلـىـ الـبـانـ وـالـعـلـمـ - وـهـوـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـطـنـ  
صـحـيـحـ - إـلـاـ لـاـتـصـالـ هـذـيـنـ الـمـوـضـعـيـنـ بـعـدـيـنـ الـذـيـ الـعـرـبـ الـمـبـيـنـ ، قـالـواـ :  
فـاـ بـالـهـ إـذـنـ لـاـ يـتـرـكـ مـثـلـ هـذـاـ التـشـبـيـبـ فـيـ قـصـيـدـةـ بـقـوـلـهـ فـيـ مـشـرـوـعـ مـلـزـ :  
وـمـهـدـ الـمـرـءـ فـ أـيـديـ الرـوـافـيـ كـنـعـشـ الـمـرـءـ بـيـنـ النـانـحـاتـ

ان عنان القلب واسلم به من رب الرمل ومن سربه  
وما باله يقول في قصيدة أخرى أنشدت في حفلة تكريم لمعتقلين  
يخرجون من السجن :

يحدجن بالمدق الحواسد دمية كظباء وجرة مقلتين وجيدا  
مقلاً في ذلك قول امرىء القيس وبينها ما بينها من القرون :  
لسد وتبدي عن أسيل وتنى بنازرة من وحش وجرة مطفل

الاستمت ما قاله القاضي في وساطته : « ولا تأتفن إلى ما يقوله المعنويون  
في وحرة وجسم ، فاما يطلب به بعضهم الاغراب على بعض ، وقد رأيت  
ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء ، ومسأت من لا أحصي من  
الاعراب عن وحش وحرة فلم يروا لها فضلاً عن وحش ضريرة وغزلان  
بسقطة ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمترع ،  
وأما الميون فقل أن تختلف لذلك » .

وهذا لا يمنع أن شوقياً كان واقفاً على أسرار العربية عارفاً بفرائدها  
الفصحي ، مما بين معسوها ومرذوها ، وأنه كان لا يستعمل الوحشي  
الغربي إلا إذا عز وجود الإنجي القريب ولم يقم مقامه في دقة التعبير  
ووضوح الدلالة والاشارة ، وكثيراً ما تحينه للغربي المهجور ضرورة  
الكافية كالفن المشتجر ، وأنقام الصعر ، والجيس الدثر أو ما هو أغرب من  
ذلك بخرصي وحضورى والبوعاء ، بمعنى التراب والعماء ، بمعنى السحاب  
وهلم حراً ، وأعمله لولا حلول نفس الكافية في طوباته التي يختلف عدد  
الواحدة منه ما بين مائة وثلاثمائة بيت تقريباً ، لولا ذلك لما اضطر إلى  
استعمال غريب الفوافي المهجور ، وترك القريب الحبيب المشهور ، نعم إن  
من الموضوعات ما يلجمي الشاعر بطبيعته إلى الإسهاب ، وإنه ما زالت  
الصلة بالشعر القديم وثيقة المرى ، غير أن الخلود في الشعر بهذا المقص  
لا يكتب إلا لفقار ، التي لا يلجمها الشاعر إلى التعامل والضرائر ؟  
على أن له من الفصائر الخالدة لامتيازها بالفاظها المتاخرة ومعانيها العلوية

## عن الدين التنوخي

٥٨٥

وعواطفها المتأوجة ما يتغنى به العاشق الشاكي والصادق الحاكي في  
الشارع والجامع .

وفي لغة شوقي مفردات عامية كان يتجاوز في استعمالها إثارةً لوضوح  
الدلالة ، وماذا كان عليه لو تقدّم انته من أمثال طار يعني إطار الواردة  
في قوله يصف قوس الشمس طالما :

فسمت فسكات نصف طار ما بدا حتى أناف فلاج طاراً أكبراً  
إذ لم ترد طار في الفصحي يعني إطار الذي هو حلقة الشيء وما أحاط  
به ومنه إطار الدف والمنخل ، وإطار البيت كالنقطة حوله ؛ ومنها فعل  
حرق يعني أضرم فيه النار إذ لم يرد متعدياً إلا بالمعزة ، وأما الثالثي فقد  
ورد يعني آخر وهو حك بعض الأسنان بعض من البيظ والحنق نحو  
حرق عليه الارم ومنه قول الشاعر :

نبئت أحاء سليمي إنما بآوا غصباً يحرقون الارم  
ويقال : حرق الرجل مبنينا المجهول فهو محروق اذا انفصلت حارقه  
وهي العصبة الجامدة بين رأس الفخذ والورك ؛ كما انه جاء يعني برد الحديد  
بالمبرد ، فالافتتاح إذن أن يقال أحرق لا حرق كما يقال أغلق لا اغلق ؛  
ومن هذه اللفاظ العامية لفظة دهان يعني نقش في قوله :

صاحب الزمان دهانها حيناً عيدها بعد حين  
فالدهان جمع دهن ، وقد وردت في قوله تعالى : « فسكات وردة كالدهان » ،  
قال الفراء : شبهها في اختلاف ألوانها بالدهان واختلاف ألوانه ؛ ويطلق  
الدهان على الجلد الأحمر ، فالدهان على ذلك لم يرد يعني النقش والطلاء  
، إلا اذا اعتبرنا الدهان من قبيل المجاز المرسل حلول المبالغ  
في الدهن وهو زيت الدهانين المعروف ، ولو قال : « صحب الزمان توشها »

لاستقام الوزن ولا صاب شاكلة الفصحي  
ومنها لفظة المعيبة يعني الحاشية والبطانة في قوله :  
قامت السراة به والمعيبة النسب

فإن البطانة تحمل محل المعية ويستقيم الوزن معها ، والممعية من مصطلح النحو يعني المصاجبة ؟ وأما استعمالها بمعنى البطانة فهن المصطلحات التركية لا المريمة ، وفي استعمالها التباس ينافي التخصيص ولا حاجة في التعبير إليها .

يد أن من الألفاظ العامية ما يحتاج إليها لعروبة مادتها ورشاقة صيتها ، ولمدم ما يقوم مقامها كلفظة مرفع بمعنى كرّهال ، فقد استعملها شوقي في قوله بخاطب النفس :

كم بنت فيه وكم خفيت كأنه ثوب الممثل أو لباس المرفع  
وإذا نحن أبينا أن نستعملها فقد حجرنا واسعاً وحملتنا الحاجة إلى استعمال « كرّهال » كـ أنا لو لم نستعمل جريدة لاضطررنا إلى استعمال « جورنال » .

هذا وقد امتاز بما وفق إليه من حسن استعمال الأعلام الاعجمية مع الحافظة على رنة الشعر الموسيقية ، فتسعمه في مطلع قصيدة « طوكبيو » التي وصف بها نكبة اليابان بزلزالها يقول :

قف بطوكبيو كوهاما وسل القربيتين كيف القيامه ولصفي إلية في قصيدة أخرى بخاطب اللورد كرومر :

هل من نداك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفوتوبلا فتجد للفظة الاعجمية في هذا البيت مع بشاعتها حسن الذي يحمل عليه ، ثم يذكر ذلك وزير انكلترا ومدينة انكلترا في بيت واحد وهو : وأحمل بساقا ربطة في لندن وأخلف هناك غرافي أو كيميلا

ومع أن الأكثار في الشعر من الألفاظ والأعلام الاعجمية الثقيلة بما ينافي لغة الشعر وسلامته ، وهي أجمل حاله ، ويجافي رنة الموسيقية وهي نشوة طلاء ، تجد الشاعر محسن تصرفه وتأطيه وتعلافه يكاد يعرب لنك العظمانية حتى نسيغها ، من ذلك التلطف قوله :

## عز الدين التنوخي

٥٨٧

أم المالكين بني أمون ليهنتك أنهم نزعوا أمونا  
ولدت له الماءدين الدواهي ولم تلدي له فقط إلا مينا  
فقد أتيع البيت الأول المنزلي بأمون بآياتي المنشي بالآمين ومن هذه القوافي  
أي أحكم وضمها قوله :

لث الأصل الذي بنت عليه فروع المجد من « كرنارفون »  
خليلي اهبطوا الوادي ويملا إلى غرف الشموس الغارينا  
وخصا بالعمار وبالتحفيا رفات المجد من « توتخمينا »  
وأما قوله في وصف ينبوع « كوك صو » بالاستانة فهو من مائه أعذب  
وتحيته منه أطيب :

تحية شاعر يا ماء « ككسو » فليس سواك للأرواح أنس  
وله من التغيرات ما اختص بها ، أو أحياها وأذاعها بشعره كقوله في  
دعشقته المشهورة :

و « للحرية الزهراء » باب بكل بد مضرجه يدق  
وأعاد « الحرية الزهراء » في قصيدة أخرى بقوله :  
لا بد « للحرية الزهراء » من سلوى ترقد جرحها كالبلسم  
وأورد هذا التعبير والحرية موصوفة بوصف آخر في قوله :  
سلوا « الحرية الزهراء » عنا وعنةم هل أذاقتنا الوسالا  
فهذا التعبير مما اقتبسه شوقي من أستاذة الأول أبي الطيب ، وله  
فضل إذاعته ، فقد قال المتنبي يصف الحدث بالزهرا ، لأنصباعها بالدماء .  
هل الحدث الزهرا تعرف لونها وتعلم أي الساقين الغائم  
ومن كتاباته الشوقية المتبدعة قوله : « العلم بدرى » ، فإنه نسب العلم  
إلى بدر مشيراً إلى الآخر الفائل : « إن أهل بدر مغدور لهم هنواتهم »  
وهي نسورة طلاء ، تجد الشاعر محسن تصرفه وتأطيه وتعلافه يكاد يعرب لنك العظمانية حتى نسيغها ، من ذلك التلطف قوله :

الامور ، ولعنه لا يحيى المول بديدان القدر أي حارسه ورقمه ، وأمثالها كثيرة في شعره ، وآخر ماسن من ذلك تلقيه لصديقه حافظ بحافظ الفصحي . ومن المفردات التي يظن أن شوقي أول من استعملها ونشرها لفظة «مثال» أطلقها على نحّات التأليل وصناعته «المثاللة» ولم تنشر هذه الكلمة إلا بداعي الحاجة إليها ، ولا كتب لها المقام إلا بعقتضى ناموس قاء الأصلح ، ونحن أحوج ما نكون في هذا العصر إلى أمثال هذه المفردات الخصصة التي تميز على التدقير في التعبير العربي ، وقد أحياها أو أدعها شوقي يستعملها ، واللغة تحيا بالاستعمال وتعود بالآهال ، ومن أحق من الشاعر النابغة أو الكاتب البليغ بالأخذ بناصر اللغة بما يحييه أو يذيعه من مفرداتها .

وهذا لا يعن اللفوي الضليع كشوقى أن يسجد في حرب اللغة مسجدة السهو كقوله في أسواق الذهب يتحدث عن الزراعة باختين : وإن التيس لو عقل ما اخذه نجتني ، فكيف يتزوج الفقير العاقل باختين ، والصواب أن يقول : ما اخذه عزتي ، إذ التيس ذكر المعزى لا الصان الذي يطلق الكبش على ذكره والنعجة على اثناء .

ومن أبلغ من عني بلغة شوقي ونقدتها في مصر محمد المولى الحبي ، وفي الكثير مما نقدمه ما يدل على ذوق سليم وملكة في الأدب قوية مثال ذلك قول شوقي :

وقطمة خد يانها هي جنة اعينيك يا رائي إذا هي نار  
قال المولى الحبي : لو قال صفة خد لكان التعبير أحسن وأجمل لأن  
القطمة بغیر الخد أنسب .

ونتفتح لغة شوقي ، ورقت عبارته وازداد شعره وصانة وانسجاماً ،  
وأين قوله أيام كان يخشب الشعر :  
كم يا جماد قساوة  
كم هكذا أبداً جحود  
نطوي إليك دجي البا  
لي والدجي عنا يذود

من قوله أيام تنقيحه وتهذيبه :  
الله في الخلق من صبٍ ومن عاني  
تنقى القلوب وبق قلب الجاني  
صوني جمالك عنا إننا بشر  
من الزراب وهذا الحسن روحاني  
ولئن قيل ان امرأ الغيس قد سبق الى أشياء ابتدعها واستحسنتها  
العرب واتبعه عليها الشعراء ، وعدوا منها استيقافه صحبه في المدار ،  
فإن شوقي قد سبق معظم شعراء عصره في كثرة الاستيقاف وطلب القيام  
في مطالع قصائده كقوله مستوفقاً :  
قف ناج اهرام الجلا وناد هل من بنائك مجلس أو ناد  
قف بمالك وانظر دولة المال واذ كر رجالاً أدلوها بجمال  
قف بروما شاهد الامر وأشهد ان الملك مالكا سبحانه  
قف على كنز بباريس دفين من فريد في المعانى وثمين  
في يأخذ بوشع خبرينا أحاديث القرؤن الفارينا  
ومما سأل به القيام وهو كالاستيقاف من أساليب تعبير شوقي ولغته الشعرية :  
قم ناج (جلق) وانشد رسم من بناؤا مشت على الرسم أحداث وأذمان  
قم ناد (أنقرة) وقل يهنيك ملك بنت على سيف يذيك  
قم في فم الدنيا وهي الا زهرا وانثر على سجاع الزمان الجوهراء  
قم سابق الساعة واسبق وعدها الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها  
قم حي هذى النيرات حي الحسان الخيرات  
وأما لغة مطالع قصائده فنها الركيك بمعناه ومبناه كقوله مثلاً :  
يا بارك الله في الدنيا بعباس وببارك الله في عمات عباس  
ونحن إذا جارينا في هذا البيت من انتقد مطالع شوقي ، لا نجاريه  
في النقد على إطلاقه فإن لشوفي من المطالع ما يمد من الروائع كقوله مثلاً :

ضي قناعك يا سعاد أو ارفي  
هذا الحasan ما خلقن ابرقع !  
رمغان وشى هانها يا سافي مشتاقه تسعى الى مشتاق  
قلب يذوب ومدعى يجري يا ليل هل خبر عن الفجر ؟  
بانهه يا نهات النيل في السحر هل عند كن عن الا جباب من خبر  
يا نام الطالع أشباه عوادينا نشجى لواديك أم فأسى لوادينا  
وقد يستعين الإنسان لتوضيح عبارته بالتشبيه ولا يستغني عنه أحد  
من المامة ولا الخامة ، والائل الذي يعتمد عليه فيه أن يشبه المتكلم  
الم gio بـ المعلوم لدى المخاطب ، فإذا انعكست القضية خفي المقصود وهو  
المشبه على المتبه له ، وبذلك يكون التشبيه ركناً خطيراً من أركان  
البيان ، وعوناً مليئاً المصور الواصف ، ولكن التشبيه قد خرج في  
عصور الخطأط البيان العربي عن محوره ، وبعد عن غايته ، وأصبح مطمح  
الشاعر وسمى خياله أن يشبه شكلاً بشكل ولواناً بلون وطولاً بطول ،  
وإن لم يكن وجه الشبه واضح الملامح ، لأن المشبه لم يقصد في حاكاته  
تصوراً ولا تبييناً ، وإنما أراد تزييناً وتحسيناً ، وبذلك لم يصبح التشبيه  
من أركان البيان بل أمي من محسنات البديع اللفظية ، وقد انتبه الشاعر  
إلى ذلك فأقدم كثيراً من شعره وشفاهه من هذه العلة وهذا النوع من  
الي واحصر ، وإذا أردت مصداق ذلك فاظظر مثلاً إلى ذلك التصور  
البارع في التشبيه التالي :

بـ ثم فلم تخل من روح رواحنا  
من بر مصر وريحان يغادينا  
قام موسى على اسم الله تكفلنا  
وباسمه ذهبت في اليم تلقيينا  
ومصر كالكرم ذي الاحسان فاكهة  
لحاضرين وأكواب لبادينا  
ومنها :

نـ نحن البواقيت خاص النار جوهرنا  
ولم يهن بيد التشتت غالينا  
إذا تلوّن كالحرباء شائينا

## عز الدين التونسي

٥٩١

وأنم النظر في تشبيه للحاجم الأسود المفرد بالآراءات المرتقات في سود  
الجلابيب ، وتأمل ما في ذلك من مجال البيان واطف المعاكاة :  
يضم القلنس في سواد جاذب حلين بالاطواف والاطواح  
رتلن في أوراقهن ملائنا كالآراءات صيحة الافتتاح  
ينخرطن بين أرائك ومنابر في هيكل من سندس فيباح  
وإذا جردت بقوة مخيلتك ما في البيتين التاليين من صورة دقيقة واضحة ،  
شهدت بما للتشبيه الصادق من قوة التصوير وبلاعة التعبير :  
تضفت عليه بدائع الألوان وترى الفضاء كحائط من مرمر  
بركت وأخرى حلقت بجناح الغيم فيه كالنعم بدببة  
رعن الشجي" بأنه ونواح وجرت سواق كالنواب في القرى  
الباكيات بدمع سجاج من كل بادية الضلوع غليلة  
والماء في أحشائها ملواح تبكي إذا ونيت، وتضحك إن هفت  
كاميس بين تنشط ورزاح هي في السلسل والفلول وجارها  
أعمى بنوه بنيره الفداح !

## لغة المجازية في سعر شوفي

لا نكران أن لغة الحقيقة في كلام أمير الشعراء هي لغة الشعر الرقيقة  
المسجمة ، المنحلة اللفاظ ، المتقنة التركيب ، ومن أحق منه بالاهتمام  
إلى كرام اللفاظ ورقائق العبارات ، فقد آخى في شعره بين فصاحة  
اللفظ وبلاعة القول في سلك بيان ناصع ، تراقه رنة موسيقية علوية  
أشبه شيء بالرندة البحتية ، وأما لغة شوفي المجازية فقابلة على بيانه ،  
وقدما خلت جملة أبيات منها ، والظاهر أن الاستعارة بأنواعها متقبلة على  
الجاز العقلي والكتنائيات في شعره ، ولا نصر ما ولعت العرب بالجاز لما فيه  
من قوة التصوير ونخامة التعبير مع الإيجاز ، وما يحصل به للنفس من  
أريحية مما يدل على ميل بالعرب إلى اتساع الكلام . وإن التفنن في وجوده

التعبير نتيجة لازمة التصور والتفكير ، وقد يمّا كان الانسان إذا عجز في الكتابة عن التعبير بالرموز الحرفية يلجأ إلى رموز الصور مستعيناً بوضوح دلالتها ، فالتصور المعنوي والبياني من أقوى وسائل التعبير . ومن مجازاته المقلية قوله في مطلع نهج البردة .

«رم» على القاع بين الباءان والعلم      أحل سفك دمي في الاشهر الحرم  
راساً كن القاع أدر كساكن الاجم      روى الفضاي بيضي «جوذر» وأسدًا»  
فالرم وهو القاي الخالص بياضه والجوذر وهو ولد البقرة الوحشية قد أطلقها على محبوته مجازاً وأطلق الأسد على نفسه ، وكني عن الغزال بساكن القاع وعن الأسد بساكن الاجم ؟ وفي هذين البدلين من فن البديع طلاق بين قوله «أحل» وبين «الحرم» ، وهو من المحسنات التي يزين بها شوقي لفته كثيراً ، وبعد أربعة أبيات من هذا البيت يتبادر في كل منها مطابقة وها :

لقد أذلتك أذناً غير واعية      ورب «منتصر» والقلب في «صم»،  
ياناعس العرف لاذقت الموى أبداً      «أسمرت» مضنايك في حفظاً الموى «فم»

### استعارة

أما الاستعارة المبنية على التشبيه فكأنها ما غلت على لغة شوقي إلا لاعتقاده بأنها أبلغ من المجاز المقلية لما بين طرفي الاستعارة من المناسبة القوية والبالغة التي تحيز ذلك أن تسمى الشيء بغير اسمه وتبلغ بها حد الانحدار ، ولو لا القرينة الدالة على مرادك لما انتبه المخاطب إلى غير المفهوم من العبارة ، وإنك لنرى الاستعارات البليغة بأنواعها فيما سنورده على سبيل المثال :

الفتاولات بأجفانها سقم      وللمبنية أسباب من السقم  
الحاملات لوا الحسن مختلفاً      أشكاله وهو فرد غير منقسم

### عز الدين التنوخي

٥٩٣

قوله الفتاولات بأجفان استعارة مكنية لخلف المشبه به وهو السيف التي رمز إليها بشيء من لوازمه وهو القتل ، وفي قوله : الحاملات لوا الحسن استعارة مكنية أيضاً لواه استعارة تخيلية والخلف ترميزية ، ومع ذلك نجد في حمل لواه الحسن كنائة جميلة عن نهاية الحسن فيه ، ومن الاستعارات النصريحة التعبيرية الكثيرة في شعره قوله :

دقائق قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق ونوانى  
فقد شبه في هذا البيت الحكم الدلالة على الشيء بالقول بمجموع الإباح ،  
واشتقت من القول قائلة بمعنى دالة ، والقرينة نسبة القول إلى الدقائق ،  
ومن استعاراته الاطيفية قوله :

رأس الحياة مقطوع فلا عدمة      كنائة الله حزماً يقطع الذنب

٠ ٠ ٠

يتختى الفضاء خلف نواهيه — لك حديد الظفار يطلب صيدا  
قصد الدهر منك ركن المعالي      ورمي طودها الذي كان طودا

قف ناج أهرام الجلال وناد      هل من بناتك مجلس أو ناد  
في مناجة الأهرام استعارة وفي المجلس والنادي مجاز مرسل وبين ناد  
الامر ونادي الاسم جناس نام ، وجود ذلك كله في بيت واحد دليل على  
ولع شوقي بالاستعارات والمحسنات .

### كتاباته

وقد أروع بالكتابة لأنها من أبلغ ضروب المجاز بقوه تأكيدتها وبيان  
تغييرها ، بل جعلها البيانيون أبلغ من المجاز لأن دعوى الكتابة مؤيدة  
بابرهان ، ودعوى الاستعارة لا دليل عليها ، ومن كتاباته البليغة وهي  
محا (٣٨)

كثيرة قوله :

فَدَعَ كُلَّ طَاغِيَةَ الزَّمَانِ فَإِنَّ الزَّمَانَ  
رَفَقًا بِجَنَّةِ كَلَا أَبْكَيْتَهُ سَالَ «الْمَقْرِيقَ» بِهِ وَقَامَ الْمَاءُ  
وَبَيْنَ الْمَوْىِ وَالْمَدْلُ لِلْقَلْبِ مُوقَفٌ  
وَبِيَانِ كَمْ تَحْلِي عَلَى الرَّسُولِ تَحْلِي عَلَى «رَعَاةِ الْعَنَالِ»  
وَمِنْ جِنَاسَاتِهِ الَّتِي شَغَفَ بِهَا قَوْلَهُ :

و «سلا» مضر هل «سلا» القلب عنها  
يا قصوراً نقلرتها وهي «تفصي»  
• • •  
«زار» وال Herb بين جفني ونومي قد أعد الديجى لها «أوزارا»  
ما لرب المجال «جار» على القلب كأن لم يكن له القلب «جارا»  
ومن المطابقة في هذه القصيدة والطبق من محسنات البديع المعنوية قوله:  
يا ليالي! لم أجدهك «طوالاً» بعد ليلى ولم أجدهك «قصاراً»  
إن من يحمل الخطوب «كباراً» لا يبالي بحملهن «صغراء»  
ومنها الشىء الكثير في شعره قوله:

وفي رثأ قد كان دنياً « حاضرًا » ففادرني أشتاق دنياً « نائماً »  
وفي هذا البيت « إيهام المطابقة » فإن الثاني ليس بضد الحاضر وإنما  
يوم بلفظه أنه ضد ، ومثله قول دعبدل :  
لا تعجي يا سلم من رحل « ضحك الشد » أسلوب دفك ،

ومن مطابقته الرائمة ويسمى طباق المقابلة قوله :  
وكلن بالاحاظ «مرضى» «كليلة» فكانت «تحاجأ» في القلوب «هواشيا»  
ومن محسنات شوفي المعنوية أيضاً «الاستخدام» أي ذكر لفظ  
معنى وإعادة ضمير عليه بمعنى آخر كقول البحترى :  
فق الغنا والساكنية وإن هم شبوه بين جوانع وقلوب

عَزِ الدِّينُ التَّونْخِي

وَمُثْلِهُ قَوْلُ شَوْقِي فِي إِرْبِيسٍ وَهُوَ الْفَحْرُ عِنْدَ قَادِمَاهُ الْمُصْرِيَّينَ وَإِحْدَى  
مَعْبُودَاتِهِمْ سَمِيتَ بِاسْمِهِ :

كَفِيْهُ عَلَى صَفَحَاتِ الْهَا وَتَشْرِقُ فِي الْأَرْضِ مِنْهَا الْجُنُّ  
وَمِنْهَا دَجْعُ مَعِ التَّفْرِيقِ ، كَفَوْلُ الْبَحْرِيِّ :

وَلَا التَّقِيَّا وَالنَّقَا مَوْعِدُهُ اِنْتَ  
تَعْجِبُ رَأْيِ الدَّرِّ مِنَ الْوَاقِطِهِ  
فَهُنْ لَوْلُؤُ تَجْلُوهُ عِنْدَ اِبْسَامِهِ  
وَمِنْ اُولُؤُ عِنْدَ الْحَدِيثِ تَسْاقِطِهِ

وَمُثْلِهُ قَوْلُهُ فِي مَخَاطِبَةِ الْحَمَامِ :

أَرَاكِ يَا يَا وَمَصْرُ خَيْلَيِّي  
كَلَانَا غَرِيبُ نَازِحُ الدَّارِ مُوْجِعٌ  
هَا اِثْنَانِ : دَانَ فِي التَّغْرِبِ آمِنٌ  
وَنَاهٌ عَلَى قَرْبِ الدِّيَارِ مُرْوِعٌ

وَمِنْ حَسَنَاتِهِ دَلْصِرِيعُ ، وَهُوَ اسْتَوَاهُ آخِرُ جَزِئِهِ فِي صَدْرِ الْبَيْتِ  
وَآخِرُ جَزِئِهِ فِي عَجَزِهِ فِي الْوَزْنِ وَالرَّوْيِ وَالْأَعْرَابِ وَهُوَ أَلْيَقُ مَا يَكُونُ  
بِعَطَالِعِ الْفَصَائِدِ ، وَفِي وَسْطِهِ رِبِّعًا يُعْجِبُهُ الْذَّوقُ وَيَنْبُوُ السَّمْعُ عَنْهُ ، وَمُعْظَمُ  
بِعَطَالِعِ شَوْقِي مُصْرِعَةٌ وَقَدْ تَجَدَّدَ فِي أَوْسَاطِ فَصَائِدِهِ أَيْضًا مَعَ النَّسْجَامِ وَرَنَةِ  
مُوسِيقِيَّةِ يَسْتَعْذِبُهُ الْذَّوقُ وَلَا يَنْبُوُ عَنْهُ السَّمْعُ لَانَّهُ وَلِيدُ الْطَّبِيعِ كَفَوْلُهُ :

لَكَ أَنْ تَلُومَ وَلِي مِنَ الْأَعْذَارِ أَنَّ الْمَوْى قَدْرُ مِنَ الْأَقْدَارِ

وَمِنْ التَّرْضِيعِ الْمُسْتَحْسَنِ فِي الْوَسْطِ قَوْلُهُ مِنْ قَصِيْدَتِهِ الْأَنْدَلِسِيَّةِ  
الَّتِي مَعْلَمُهَا :

أَذْكُرَا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْبِي  
اِخْتِلَافَ النَّهَارِ وَاللَّيلِ يَنْدِي

وَفِي وَسْطِهِ يَقُولُ :

وَمَنَارُ مِنَ الْطَّوَافِ طَالِسٌ  
فِي دِيَارِ مِنَ الْخَلَافِ دَرَسٌ

وَكُلُّ ذَلِكَ مَا كَانَ يَحْظُى مِنْ مَنْزَلَةِ أَمِيرِ الشَّعَرَاءِ أَوْ لَيْدَقِ مِنْ خَطَّارِهِ  
وَهُوَ الْقَابِضُ عَلَى نَاصِيَّةِ الْبِلَاغَةِ فِي شِعْرِهِ الْخَالِدِ ، وَالْمَلِقُنِ مَا يَحْمَلُهُ ،  
وَالْمَحْدُثُ بِمَا فِي نَفْسِكِ ، وَقَدْ وَقَفَ عَلَى أَسْرَارِ الْعَرَبِيَّةِ وَشَنَفَ بِسَوَاحِرِهَا

شقاً جعله يتفى بعربيته وعروبة ، غافلاً عن جنسيته وأرومته ، فلن تفنيه بعروبيته قوله وفيه من محاسنات البديع الاكتفاء :

تمال أزابها مومئه بالعن  
أي في ذل肯 العربي العلم ؟  
قلت تجاهله ذلك رب القلم  
شاعر مصر الذي لو حفي النجم لم

ومن آفريله في عربته وهي إمامه بمحاسنها الأدبية ومن إياتها العلمية قوله :

إن لفصحي زماماً ويداً تحجب السهل وتقناد الصعباً ؟  
لغة الذكر لان الجبى كيف تعا بالمنادين جواباً  
كل عصر دارها إن صادفت منزلأً رحباً وأهلاً وجناها  
ائت بالعمران روضاً ياماً وادها تجبر بناسع عذاباً  
لا تجتها بالنتائج المفترى سرقاً من كل قوم ونهاباً  
سل بها أندلماً هل قصرت دون مضمار العلم حين أهاباً  
غرست في كل ترب أعمى فركت أصلاً كاطابت نصابة  
ومشت مشيتها لم ترتكب غير رجلها ولم تحجل غراباً  
ومنه قوله :

إن الذي ملا اللغات حاسناً

جعل الحال وسره في النجاد

دمشق : تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ .

| فهرس الجزء الثالث   |   |
|---|---|
| من محاضرات المجتمع العلمي العربي                                    |   |
| الفصل الأول   |   |
| يحتوي على ثلاثة عشرة محاضرة المتوفين من أعضاء المجتمع العلمي العربي |   |
| «رحمهم الله» هي :   | صفحة  |
| ١   | أثر المستعربين من علماء المشرقين في الحضارة العربية . . . . . |
| ٣٢  | نهضة العرب العلمية في القرن الاخير . . . . .                  |
| ٦٢  | اللغة العربية وخزاناتها الأدبية . . . . .                     |
| ٧٥  | المتنبي وسيف الدولة . . . . .                                 |
| ٩٢  | فلسفة القوة في شعر المتنبي . . . . .                          |
| ١٠٢   | المتنبي رسول العروبة . . . . .                                |
| ١٢٧   | سيفيات المتنبي ، ثر الشعر ، قول في أبي الطيب . . . . .        |
| ١٤٤   | الشعر . . . . .   |
| ١٦٠   | بعاداً يكون انتظام المجتمع الانساني                           |
| ١٧٦   | إعراس الخليفة المأمون . . . . .                               |
| ٢٠١   | لغة المتنبي . . . . .   |
| ٢١٢   | روح الطموح في المتنبي . . . . .                               |
| ٢٣٠   | الكرم وتأثيره في عالم الاجتماع . . . . .                      |
| ٢٥٥   | القضاء عند عرب البداية . . . . .                              |

## الفصل الثاني

يحتوي على أربع عشرة مخاضرة هي :

| صفحة |  |
|------|--|
| ٢٧٣  | الاستاذ خليل مردم بك . عدي بن الرقاع العاملي . . . . .   |
| ٢٩٥  | الاستاذ عبد القادر المغربي . . . . . مبادرة تمحضت بلغة . . . . .   |
| ٣١٧  | الاستاذ محمد الخضر حسين . . . . . أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية . . . . .                                    |
| ٣٣١  | الامير مصطفى الشهابي . . . . . رحلة الى العراق . . . . .   |
| ٣٦٣  | الاستاذ عارف النكدي . . . . . الاندلس « عبرة وذكري » . . . . .   |
| ٣٩٠  | الاستاذ محمد سليم الجندي . . . . . ثقافة المتنبي ومصادرها . . . . .  |
| ٤١٨  | الاستاذ شفيق جبرى . . . . . شيء عن أنانول فرنس . . . . .   |
| ٤٣٦  | الاستاذ أحمد حسن الزيات . . . . . ألف ليلة وليلة « تاريخ حياتها » . . . . .  |
| ٤٧٨  | الدكتور عبد الوهاب عزام . . . . . الادب العربي في بلاد فارس واللغة العربية في البلاد الاسلامية غير العربية . . . . . |
| ٥٠٣  | الدكتور عبد الرحمن الكيايى . . . . . الديمقراتية وأهدافها في التعليم والتربية . . . . .                              |
| ٥١٧  | الدكتور أسعد الحكيم . . . . . المبادي أو الأخلاق العامة في تكوين وتطور الأمم . . . . .                               |
| ٥٤٢  | الدكتور جميل حلبيا . . . . . قوة الإرادة . . . . .   |
| ٥٦٢  | الامير جعفر الحسني . . . . . شعوب سوريا وآثارها القديمة . . . . .  |
| ٥٧٩  | الاستاذ عز الدين التونسي . . . . . نسمة شوقي . . . . .   |

طبعَةٌ لِلزَّفْنِي بِرَسْتُهُ